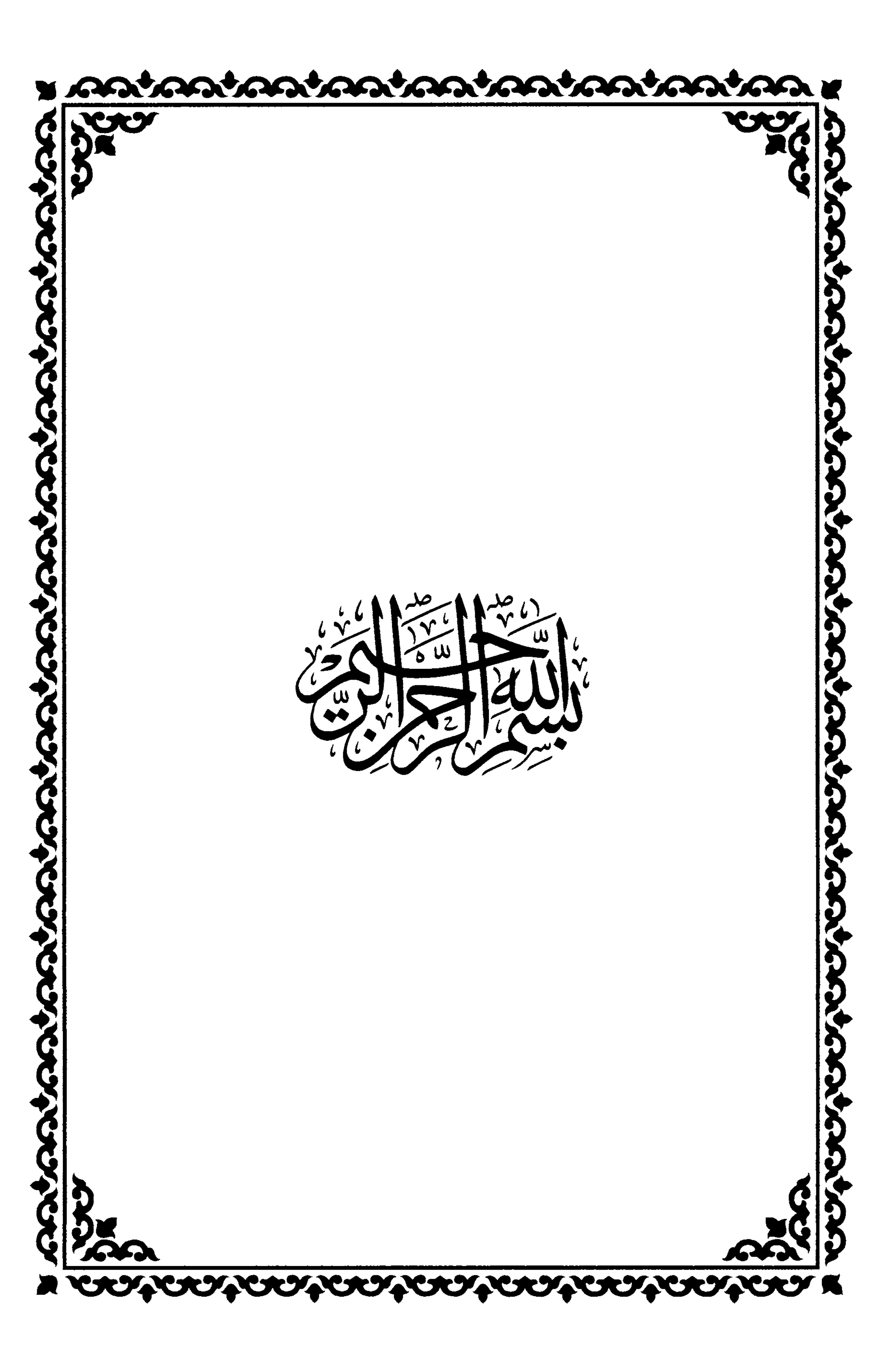
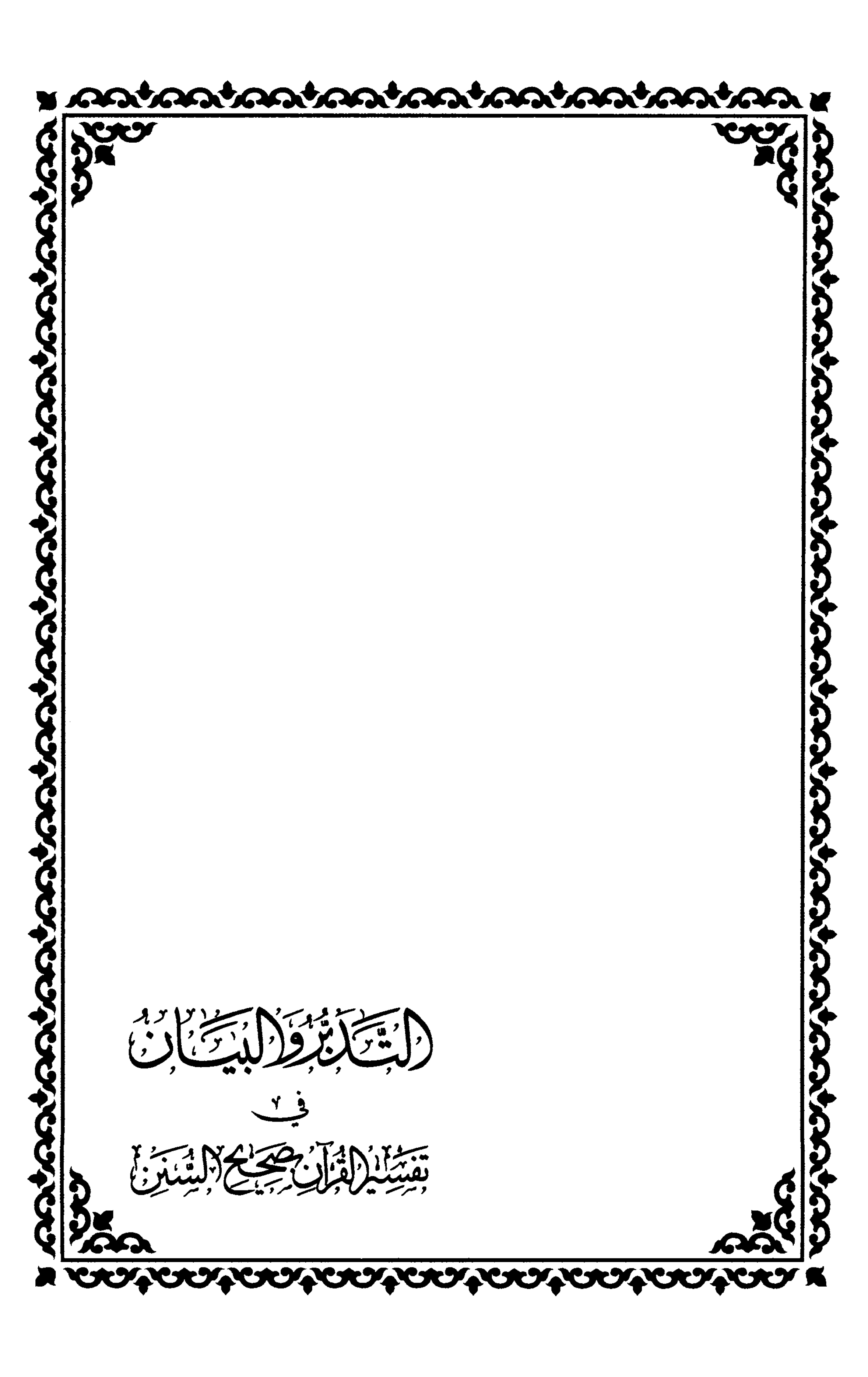
التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور
أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد العاشر
سورة الأنعام


بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨



سورة الأنعام

من خصائص سورة الأنعام

قال الإمام القرطبي: «قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين، وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور»[1].

وقال الرازي: «إنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة. وأيضًا فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله اللَّه تعالى قدر حاجتهم، وبحسب الحوادث والنوازل. وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله اللَّه تعالى جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور لا على التراخي»[2].

قال محمد رشيد رضا: «لو سميت سور القرآن بما يدل على جل ما تشتمل عليه كل سورة أو على أهمه؛ لسميت هذه السورة سورة عقائد الإسلام، أو سورة التوحيد على ما جرى عليه العلماء من التعبير عن علم العقائد بالتوحيد؛ لأنه أساسها وأعظم أركانها، فهي مفصلة لعقيدة التوحيد مع دلائلها، وما تجب معرفته من صفات اللَّه تعالى وآياته، ولرد شبهات الكفار على التوحيد، وما يتبع ذلك من هدم هياكل الشرك وتقويض أركانه، ولإثبات الرسالة والوحي وتفنيد شبهاتهم على الرسول ﷺ، وإلزامهم الحجة بآية اللَّه الكبرى، وهي القرآن المشتمل على الآيات

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الرازي (١٢/ ١٤٩).

الكثيرة من عقلية وعلمية، ومبينة لوظائف الرسول ودعوته وهديه في الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم، وللبعث والجزاء والوعد والوعيد، ولأحوال المؤمنين والكافرين وأعمالهم، ولأصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب، وليس فيها على طولها قصة من قصص الرسل المفصلة في السور المكية الطويلة؛ كالأعراف من الطول، ويونس وهود من المئين، والطواسين من المثاني، بل جميع آياتها في الألوهية والربوبية والرسالة والجزاء، وأصول البر وأحوال المؤمنين والكافرين، وآيات اللَّه وحججه على العالمين، وإنما ذكر فيها من قصص الرسل ﷺ محاجة إبراهيم لأبيه وقومه في التوحيد، وما آتاه اللَّه من الحجة عليهم لما بيناه من حكمة ذلك، وذكر فيها موسى والتوراة للشبه بين رسالته وكتابه، وبين رسالة محمد وكتابه ﷺ كما شرحناه في محله، ومنه وصايا القرآن العشر ووصايا التوراة العشر، وذكر فيها أيضًا ما كان من حال الرسل عامة مع أقوامهم المشركين؛ لأجل العبرة وتسلية خاتم الرسل صلى اللَّه عليه وآله وعليهم أجمعين»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٧٠-٢٧١).

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾

★ غريب الآية:

يعدلون: عدلت الشيء بغيره إذا سويته به. والمعنى: يجعلون لربهم عِدْلًا وشريكًا يسوونه به في العبادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أي: يجعلون له عدلًا في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين اللَّه وبين آلهتهم، وعرفوا -وهم في النار- أنها كانت ضلالًا وباطلًا، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيي وتميت؛ وإنما ساووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام»[2].

قال السعدي: «هذا إخبار عن حمده والثناء عليه، بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال عموما، وعلى هذه المذكورات خصوصا.

فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس والقمر. والمعنوي، كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة. وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق

(١) الشعراء: الآيتان (٩٧ و ٩٨).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٠).

للعبادة، وإخلاص الدين له. ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ به سواه.

يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا اللَّه في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خلق السموات والأرض

* عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال: «**خلق اللَّه ﷻ التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «ذكر هذا الحديث هنا؛ لأنه مفصل لما أجمله قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ والتربة: التراب؛ أي: الأرض، وكأنه خلق التراب يوم السبت غير منعقد ولا متجمد، ثم يوم الأحد جمده، وجعل منه الجبال أرسى بها الأرض؛ وكمل خلق الأرض بجبالها في يومين»[٣].

وانظر بقية فوائد الحديث عند الآية (١١) من سورة (فصلت).

* * *

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٧٠-٣٧١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٧)، ومسلم (٤/ ٢١٤٩-٢١٥٠/ ٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣/ ١١٠١٠).

(٣) المفهم (٧/ ٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

الأجَلُ: المدة المضروبة. ويقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان: أَجَل.

الامتراء: الشك، مأخوذ من المرية. وقيل: تمارون في ذلك؛ أي: تجادلون جدال الشاكين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ في معناه قولان: أحدهما وهو الأشهر، وبه قال الجمهور: أن المراد آدم ﷺ، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع؛ لأنهم ولده ونسله. الثاني: أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين»[1].

قال الألوسي: «تخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر أدلة صحة البعث، مع أن ما تقدم من أظهر أدلته لما أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذي في الآية السابقة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كيفية خلق آدم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس بنو آدم وآدم من تراب»[3].

---

(١) فتح القدير (٢/ ١٤٢).

(٢) روح المعاني (٧/ ٨٧).

(٣) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (٥/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٥١١٦)، والترمذي (٥/ ٦٩٠-٦٩١/ ٣٩٥٦) وقال الشيخ الألباني في غاية المرام (ص: ١٩٠): «من طرق عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري (زاد الترمذي في رواية: عن أبيه) عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال: (حديث حسن صحيح). وقال ابن منده: (هذا حديث مشهور عن هشام، متصل صحيح). وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في (الاقتضاء)=

* عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه ﷻ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك**»[١].

★ غريب الحديث:

السهل: الحسن الصحبة اللين الأخلاق المواتي في المقاصد؛ كالأرض السهلة يتأتى المشي عليها، ويمكن الاستقرار فيها.

الحزن: يعني بالحزن: الذي لا تمكن صحبته، ولا تلاين أخلاقه كالأرض الحزنة: لا يتأتى المشي فيها، أو يتأتى على مشقة، ولا يواتي الاستقرار عليها للسكن إلا للضرورة.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن العربي: «ليس أحد الأجزاء المذكورة من الأرض لخلق آدم بأمر واجب في العقل لا يجوز غيره، بل جائز ممكن صحيح ثابت أن يخلق آدم ابتداء من غير شيء؛ كما خلق الأصل في كل شيء، ولكنه مدبر حكيم أراد خلق الأصول من غير شيء؛ ليبين القدرة ثم خلق من الأصول المركبات ليبين الحكمة فهو القدير الحكيم»[٢].

وقال أيضًا: «لو شاء لخلق الناس على صفة واحدة، ولكنه نوعهم في الصفات كما نوع أجزاء الأرض، وأخذ من تلك الأجزاء جملة صور منها آدم على نسبة بينها رسول اللَّه ﷺ، غلب فيها في المخلوقين بعض الصفات على بعض، فجاء منهم أحمر وأبيض وأسود، وسهل وحزن وخبيث وطيب، وقد تعتدل على تناسب بحكمة بالغة»[٣].

= (ص: ٣٥، ٦٩ طبع الخانجي)، وهو عندي حسن الإسناد على شرط مسلم، ولم أصححه لأن هشامًا فيه كلام من قبل حفظه، وقد قال الحافظ في (التقريب): (صدوق له أوهام)».

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٠)، وأبو داود (٥/ ٦٧/ ٤٦٩٣)، والترمذي (٥/ ١٨٧-١٨٨/ ٢٩٥٥) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان (١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠ الإحسان)، والحاكم (٢/ ٢٦١-٢٦٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) عارضة الأحوذي (١١/ ٧٦).

(٣) عارضة الأحوذي (١١/ ٧٦).

قلت: لقد أكثر اللَّه -تبارك وتعالى- من ذكر هذه الصفة في كتابه، دلالة على كمال قدرته، وأنه المنفرد بهذه الصفة لا غيره، ولم يدَّعيها أحد من الإنس والجن والملائكة، فهي من عجائب قدرته، يخلق من الطين إنسانا ويصوره صورة كاملة، يقوم ويجلس ويتكلم ويصمت، ويأكل ويشرب، فكل هذه الآيات تدل على كمال قدرته -تبارك وتعالى-، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾(١) ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾(٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾(٤). وهكذا تجد هذه الصفة تكثر في آي القرآن لأهميتها، فهي عنوان الربوبية، كما في الآية الأولى من هذه السورة المباركة، إذ المستحق للحمد والثناء وحده هو المنفرد بالخلق والملك والتدبير، ولهذا تجد الحمد في آيات كثيرة مقرونا بكامل الربوبية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾(٥) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٦) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾(٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٨).

* * *

(١) النحل: الآية (١٧).
(٢) لقمان: الآية (١١).
(٣) الروم: الآية (٤٠).
(٤) الحج: الآية (٧٣).
(٥) الفاتحة: الآية (٢).
(٦) فاطر: الآية (١).
(٧) لقمان: الآية (٢٥).
(٨) العنكبوت: الآية (٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير. وكل واحد منها له مصداق في كتاب اللَّه تعالى:

الأول: أن المعنى: وهو اللَّه في السموات والأرض، أي وهو الإله المعبود في السموات والأرض؛ لأنه -جل وعلا- هو المعبود وحده بحق في الأرض والسماء. وعلى هذا فجملة (يعلم) حال أو خبر، وهذا المعنى يبينه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾[1] أي: وهو المعبود في السماء والأرض بحق، ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره؛ لأنها وبال عليهم يخلدون بها في النار الخلود الأبدي، ومعبوداتهم ليست شركاء لله ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾[2] ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3].

وهذا القول في الآية أظهر الأقوال، واختاره القرطبي.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ يتعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أي: وهو اللَّه يعلم سركم في السموات وفي الأرض. ويبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[4] الآية.

قال النحاس: وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية. نقله عنه القرطبي.

الوجه الثالث -وهو اختيار ابن جرير-: أن الوقف تام على قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ يتعلق بما بعده، أي يعلم سركم وجهركم في

---

(١) الزخرف: الآية (٨٤).
(٢) النجم: الآية (٢٣).
(٣) يونس: الآية (٦٦).
(٤) الفرقان: الآية (٦).

الأرض، ومعنى هذا القول: أنه -جل وعلا- مستو على عرشه فوق جميع خلقه، مع أنه يعلم سر أهل الأرض وجهرهم لا يخفى عليه شيء من ذلك، ويبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾[1]؟ الآية، وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[2]، مع قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[3]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[4] وسيأتي إن شاء اللّه تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة (الأعراف).

واعلم أن ما يزعمه الجهمية (من أن اللّه تعالى في كل مكان) مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض ضلال مبين، وجهل باللّه تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السموات والأرض، الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، فالسموات والأرض في يده -جل وعلا- أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حال فيها، أو في كل جزء من أجزائها؟ لا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السموات والأرض أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[5]، سبحانه وتعالى علوا كبيرا، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[6]»[7].

وقال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي تعلق الظرف بما في اسمه -تبارك وتعالى- من معنى الإلهية، فالمعنى: وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا

(١) الملك: الآيتان (١٦ و ١٧).
(٢) طه: الآية (٥).
(٣) الحديد: الآية (٤).
(٤) الأعراف: الآية (٧).
(٥) سبأ: الآية (٣).
(٦) طه: الآية (١١٠).
(٧) أضواء البيان (٢/ ١٨١-١٨٣).

أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد، ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية بما لا يليق بها فقال: الوقف التام على السموات، ثم يبتدي بقوله ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ﴾ وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك به، وهو قول محققي أهل التفسير»[١].

وقال القاسمي: «قال الناصر في (الانتصاف): وما هاتان الآيتان الكريمتان - يعني هذه الآية وآية الزخرف، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾[٢] - إلا توأمتان؛ فإن التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به ههنا؛ من القدرة على الإعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد في الألوهية، وفي كونه تعالى المعبود في السموات والأرض»[٣].

* * *

(١) بدائع الفوائد (١/ ١١٦).
(٢) الزخرف: الآية (٨٤).
(٣) تفسير القاسمي (٦/ ٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه -تعالى- رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات. والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين، بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها؛ لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبًا به، بل يكون غافلًا عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذبًا به فقد زاد على الإعراض. والمرتبة الثالثة: كونهم مستهزئين بها؛ لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه الآيات عبرة لنا في حال الذين أضاعوا الدين، من أهل التقليد الجامدين، وأهل التفرنج الملحدين، فهي تنادي بقبح التقليد وتصرح بوجوب النظر في الآيات والاستدلال بها، وبأن التكذيب بالحق والحرمان منه معلول للإعراض عنها، وتثبت أن الإسلام دين مبني على أساس الدليل والبرهان، لا كالأديان المبنية على وعث التقليد للأحبار والرهبان، أو الرؤساء والكهان، وماذا فعل المسلمون بعد هذا التبيان؟ تبع جماهيرهم سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وأضاعوا حجة دينهم بتقليد فلان وعلان، وعكسوا القاعدة المأثورة عن سلفهم وهي: (اعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال)، ولولا حفظ الله -جل وعلا- لهذا القرآن وتوفيقه سلف الأمة للعناية بتدوين سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأخذ طائفة من أهل النظر بهديهما في كل زمان؛ لضاع من الوجود هذا الإسلام كما ضاعت من قبله سائر الأديان، ولم

(١) تفسير الرازي (١٢/ ١٦٦).

يغن عن ذلك وجود الألوف المؤلفة من كتب الفقه وكتب الكلام .

كان عاقبة ذلك أن الحق صار مجهولًا في نفسه عند الأكثرين ، فاتخذ الناس رؤساء جهالًا للدنيا وللدين ، فتواطأ الفريقان على اضطهاد حملة الحجة من العلماء المستقلين ، وظنوا أن ذلك من الكياسة التي تقتضيها السياسة ، ويحفظ بها أمر الملك والرياسة ، وما كان إلا فتنة لهم : أضاعوا بها دينهم وملكهم على أيدي أقوام من أمم الشمال ، اقتبسوا من الإسلام وأهله الأولين ذلك الاستقلال ، فنسخوا ما كانوا فيه من ظلمات التقليد بنور الاستدلال ، فبلغوا من العزة والسيادة أوج الكمال .

ثم استدار الزمان؛ فافتتن بعض المسلمين بما رأوا عليه هؤلاء المستقلين ، ولكن داء التقليد العضال لم يفارقهم في هذه الحال ، فطفقوا يقلدونهم في الأزياء والعادات وظواهر الأحكام والأعمال ، فازدادوا بذلك خزيا على خزي وضلالا على ضلال ، إذ هدموا مقومات أمتهم ومشخصاتها ، ولم يستطيعوا أن يكونوها بمقومات ومشخصات غيرها .

فهذه الآيات الكريمة حجة على مقلدة المسلمين ، وعلى مقلدة الأوربيين ، فإنهم هم الذين أضاعوا الدنيا والدين . وأعجب أمر هؤلاء المتفرنجين أنهم يدعون الاستقلال ، ويظنون أن ما يهذون به من الشبهات الدينية والاجتماعية ضرب من الاستدلال ، فهلم دلائلكم على ما تركتم من هداية ، وما استحدثتم من غواية ، فإننا لمناظرتكم مستعدون ، وكم دعوناكم إليه وأنتم لا تجيبون؟ »[1] .

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٠٤-٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

القرن: أهل كل عصر مأخوذ من إقرانهم في العصر. وقيل: كل طبقة بعث فيها نبي. وقيل: مدة من الزمان، قيل: ستون عاما، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون. وقيل: مائة. وعليه أكثر أصحاب الحديث.

مكناهم: أي مَلَّكْنَاهُمْ وجعلناهم متمكنين من المكان الذي وليناهم إياه؛ أي: قويناهم من تمكن فلان من كذا: إذا قدر عليه وأطاقه.

مدرارًا: أي غزيرة، دائمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال تعالى واعظا ومحذرا لهم؛ أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم؛ من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوةً وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارةً لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾؛ أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾؛ أي: شيئًا بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض؛ أي: استدراجًا وإملاءً لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بخطاياهم وسيآتهم التي اجترموها ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾؛ أي: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فهلكوا كهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي

كذبتموه أكرم على اللَّه من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه»[(١)].

قال محمد رشيد رضا: «والمعنى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق؛ كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض، وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم هم مثله، ثم لم تكن تلك المواهب والنعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[(٢)]؟ لا هذا ولا ذاك، فإما الإيمان وإما الهلاك. . . ثم عطف على هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش؛ من النعم الإلهية الخاصة بمواقع بلادهم من الأرض فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ إرسال السماء عبارة عن إنزال المطر، والمدرار الغزير كما تقدم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار وهي مجاري المياه الفائضة؛ وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائما من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافه، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أمواهها.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل؛ أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها، وأنشأنا أي أوجدنا من بعد الهالكين من كل منهم قرنا آخرين، يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم اللَّه عليهم فيها. والذنوب التي يهلك اللَّه بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

أحدهما: معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

وثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق، واحتقار الناس وظلم الضعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعم اللَّه واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والآيات الناطقة بتلك الذنوب مجتمعة ومتفرقة كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٦).
(٢) القمر: الآية (٤٣).

وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[1]، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[3]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[4]، والعذاب الذي يعذب اللَّه به الأمم ويهلك القرون ويديل الدول قسمان أيضًا: الجوائح والاستئصال، وفقد الاستقلال، وقد بينا هذا وذاك في مواضع من هذا التفسير.

وفي هذه الآية رد على كفار مكة، وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف عصبية النبي ﷺ وفقره، وقد حكى اللَّه تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[5]. فأما القوم أو القرن الآخرون الذين يخلفون من نزل بهم عذاب اللَّه تعالى؛ فهم لابد أن يكونوا مخالفين لهم في صفاتهم، وإن كانوا من جبلتهم وأبناء جيلهم»[6].

* * *

(١) القصص: الآيتان (٥٨ و ٥٩).
(٢) هود: الآية (١٠٢).
(٣) النحل: الآية (١١٢).
(٤) الإسراء: الآية (١٦).
(٥) سبأ: الآية (٣٥).
(٦) تفسير المنار (٧/ ٣٠٦-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

القرطاس: ما يكتب فيه كالرّق والكاغد ونحوهما. والقرطاس: الصحيفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا إخبار من اللَّه -تعالى ذكره- نبيه محمدًا ﷺ؛ عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثان والآلهة والأصنام، يقول -تعالى ذكره-: وكيف يتفقهون الآيات، أم كيف يستدلون على بطلان ما هم عليه مقيمون من الكفر باللَّه، وجحود نبوتك بحجج اللَّه وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحق، وبعدهم من الرشد، لو أنزلت عليك يا محمد الوحي الذي أنزلته عليك مع رسولي في قرطاس يعاينونه ويمسونه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرءونه منه معلقا بين السماء والأرض بحقيقة ما تدعوهم إليه، وصحة ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي؛ لقال الذين يعدلون بي غيري، فيشركون في توحيدي سواء: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة؛ يقول: مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له»[(١)].

وقال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة: أن الكفار لو نزل اللَّه عليهم كتابا مكتوبا في قرطاس، أي صحيفة إجابة لما اقترحوه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[(٢)]، فعاينوا ذلك الكتاب المنزل، ولمسته أيديهم؛ لعاندوا وادعوا أن ذلك من أجل أنه سحرهم. وهذا العناد واللجاج العظيم والمكابرة الذي هو شأن الكفار بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥٠).
(٢) الإسراء: الآية (٩٣).

بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات، وذكر تعالى نحو هذا العناد واللجاج عن فرعون وقومه في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٧]»[٨].

* * *

(١) الحجر: الآيتان (١٤ و ١٥).
(٢) الطور: الآية (٤٤).
(٣) الأنعام: الآية (١١١).
(٤) يونس: الآيتان (٩٦ و ٩٧).
(٥) يونس: الآية (١٠١).
(٦) الأعراف: الآية (١٤٦).
(٧) الأعراف: الآية (١٣٢).
(٨) أضواء البيان (٢/ ١٨٣-١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾

★ غريب الآية:

قُضِيَ الأمر: أي فرغ منه.

لبسنا: أي خلطنا. يقال: لبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى اشتبه عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾، لم يبين هنا ماذا يريدون بإنزال الملك المقترح، ولكنه بين في موضع آخر أنهم يريدون بإنزال الملك أن يكون نذيرا آخر مع النبي ﷺ، وذلك في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، يعني أنه لو نزل عليهم الملائكة وهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي؛ لجاءهم من اللَّه العذاب من غير إمهال ولا إنظار؛ لأنه حكم بأن الملائكة لا تنزل عليهم إلا بذلك، كما بينه تعالى بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، أي لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًّا؛ لكان على هيئة الرجل لتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من شدة النور، ولو كان كذلك لا لتبس عليهم الأمر؛ كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري.

(١) الفرقان: الآية (٧). (٢) الحجر: الآية (٨).
(٣) الفرقان: الآية (٢٢).

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الرسول ينبغي أن يكون من نوع المرسل إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[1]»[2].

قال السعدي: «وقالوا أيضًا تعنتا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة اللّه لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال اللّه في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به، عن علم وبصيرة وغيب: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا؛ لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانا بالشهادة، الذي لا ينفع شيئًا وحده. وهذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فلو لم يؤمنوا ﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بتعجيل الهلاك عليهم، وعدم إنظارهم؛ لأن هذه سنة اللّه فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها. فإرسال الرسول البشري إليهم، بالآيات البينات، التي يعلم اللّه أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال اللّه للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع. فطلبهم لإنزال الملك؛ شر لهم لو كانوا يعلمون. ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل؛ لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا. وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وعدم بيان الحق. فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده؛ لم يكن ذلك هداية لهم إذا اهتدى بذلك غيرهم.

والذنب ذنبهم حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال»[3].

قال محمد رشيد رضا: «جمع مشركو مكة بين الاقتراحين: اقتراح نزول الملائكة عليهم، واقتراح نزول ملك على النبي يرونه بأعينهم، ولولا قيد الرؤية لم

(١) الإسراء: الآية (٩٥). (٢) أضواء البيان (٢/ ١٨٤).

(٣) تفسير السعدي (٢/ ٣٧٥-٣٧٦).

يكن للاقتراح فائدة؛ لأن النبي ﷺ كان أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك، وكأنهم ظنوا أن مساواتهم له ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم، وهذه أقوى شبهة للكفار على الوحي، فإنهم لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل ما لا يصلون إليه بأنفسهم.

وقد رد اللّٰه تعالى عليهم الاقتراحين من وجهين:

أحدهما: أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا ينظرون؛ أي: لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا؛ بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة اللّٰه فيمن قبلهم...

الوجه الثاني: في الرد عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لو جعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة بشر، ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن اللّٰه تعالى، ولو جعله ملكا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا، وقد كانوا في غنى عن هذا، وإنما شأنهم فيه شأن أكثر الناس حتى العلماء منهم؛ فيما يوقعون فيه أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم، ثم يحارون في أمر المخرج منها»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١٣-٣١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

حاق: أي حَلَّ ونزل، وأصابهم ما كانوا يستهزئون به مما جاءتهم به رسلهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ؛ مسلّيًا عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقى منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هون عليك يا محمد ما أنت لاق من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدي، والإقرار بي، والإذعان لطاعتي؛ فإنهم إن تمادوا في غيهم، وأصروا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم غيرهم؛ من تعجيل النقمة لهم، وحلول المثلات بهم، فقد استهزأت أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل فعل قومك بك؛ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار استهزءوا برسل قبل نبينا ﷺ، وأنهم حاق بهم العذاب بسبب ذلك، ولم يفصل هنا كيفية استهزائهم، ولا كيفية العذاب الذي أهلكوا به، ولكنه فصل كثيرًا من ذلك في مواضع أخر متعددة؛ في ذكر نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وقومه، إلى غير ذلك.

فمن استهزائهم بنوح قولهم له: بعد أن كنت نبينا صرت نجارًا، وقد قال الله تعالى عن نوح: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[2]، وذكر ما حاق بهم

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥٣/ ١٥٤).

(٢) هود: الآية (٣٨).

بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[١] وأمثالها من الآيات.

ومن استهزائهم بهود ما ذكره اللَّه عنهم من قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[٢]، وقوله عنهم أيضًا: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾[٣]، وذكر ما حاق بهم من العذاب في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[٤]، وأمثالها من الآيات.

ومن استهزائهم بصالح، قولهم فيما ذكر اللَّه عنهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٥]، وقولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾[٦]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[٧]، ونحوها من الآيات.

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى اللَّه عنهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[٨]، وقولهم له أيضًا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[٩]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[١٠]، ونحوها من الآيات.

ومن استهزائهم بشعيب قولهم فيما حكى اللَّه عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[١١]، وذكر ما حاق بهم بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١٢]، ونحوها من الآيات»[١٣].

قال محمد رشيد رضا: «والمعنى: أن اللَّه تعالى قد أخبر رسوله خبرا مؤكدا بصيغة القسم؛ أن الكفار قد استهزءوا برسل كرام من قبله- فتنكير (رسل) للتعظيم وهو لا ينافي العموم في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٤]- فما يراه

(١) العنكبوت: الآية (١٤).
(٢) هود: الآية (٥٤).
(٣) هود: الآية (٥٣).
(٤) الذاريات: الآية (٤١).
(٥) الأعراف: الآية (٧٧).
(٦) هود: الآية (٦٢).
(٧) هود: الآية (٩٤).
(٨) النمل: الآية (٥٦).
(٩) الشعراء: الآية (١٦٧).
(١٠) الحجر: الآية (٧٤).
(١١) هود: الآية (٩١).
(١٢) الشعراء: الآية (١٨٩).
(١٣) أضواء البيان (٢/ ١٨٥-١٨٦).
(١٤) الزخرف: الآية (٧).

من استهزاء طغاة قريش ليس بدعًا منهم ؛ بل جروا به على آثار أعداء الرسل قبلهم . وقد حاق بأولئك الساخرين العذاب الذي أنذرهم إياه أولئك الرسل على استهزائهم جزاء وفاقا حتى كأنه هو الذي حاق بهم ؛ لأنه سببه وجاء على وفقه . فالآية تعليم للنبي ﷺ سنن اللَّه في الأمم مع رسلهم ، وتسلية له عن إيذاء قومه ، وبشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من إدالة الدولة ، وقد كان جزاء المستهزئين بمن قبله من الرسل عذاب الخزي بالاستئصال ، ولكن اللَّه كفاه المستهزئين به فأهلكهم ، ولم يجعلهم سببًا لهلاك قومهم ، وامتن عليه بذلك في سورة (الحجر) إذ قال : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[1]»[2] .

* * *

(١) الآية (٩٥) .

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٢١) .

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد، المكذبين بك الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: جولوا في بلاد المكذبين رسلهم، الجاحدين آياتي من قبلهم من ضربائهم وأشكالهم من الناس ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: ثم انظروا كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك، الهلاك والعطب، وخزي الدنيا وعارها، وما حل بهم من سخط اللَّه عليهم من البوار، وخراب الديار، وعفو الآثار، فاعتبروا به إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حجج اللَّه عليكم، عما أنتم مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحل بكم مثل الذي حل بهم»[(١)].

وقال القاسمي: «أي: سيروا في الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به. وفي السيرَ في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها؛ تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار. أي: فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها.

وفي هذه الآية تكملة للتسلية، بما في ضمنها من العدة اللطيفة، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين. وقد أنجز ذلك يوم بدر أي إنجاز»[(٢)].

* * *

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥٤).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٦٨).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة. وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومتى كان كذلك، فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة؛ لا بد وأن يكون لأجل الصانع الحكيم القادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة. فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى.

وإذا ثبت هذا؛ ثبت كونه قادرًا على الإعادة والحشر والنشر؛ لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، عالمًا بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيًا. وأيضًا ثبت أنه تعالى ملك مطاع، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده، ولا بد من مبلغ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من اللَّه تعالى إلى الخلق غير ممتنع. فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة. ولما سبق ذكر هذه المسائل الثلاثة، ذكر اللَّه بعدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الوجه الذي شرحناه واللَّه أعلم. . .

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ سؤال. وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ جواب؛ فقد أمره اللَّه تعالى بالسؤال أولًا ثم بالجواب ثانيًا. وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع. ولما بينا أن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميع صفاتها؛ لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها ملك

لله تعالى، وملك له ومحل تصرفه وقدرته. لا جرم أمره بالسؤال أولًا ثم بالجواب ثانيًا، ليدل ذلك على أن الإقرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة. وأيضًا فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته بهذا المعنى، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] ثم إنه تعالى لما بين بهذا الطريق كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية؛ أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكأنه تعالى قال: إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم ولا بأن يعد بالإنعام، بل أبدًا ينعم وأبدًا يعد في المستقبل بالإنعام، ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم»[2].

قال محمد رشيد رضا: «﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قل أيها الرسول لقومك الجاحدين لرسالتك، المعرضين عما جئتهم به من أمر التوحيد والبعث والجزاء: لمن هذه المخلوقات في العالم كله علويه وسفليه؟ السؤال تمهيد لحجة جديدة، وقد بينا في تفسير الآية السابقة أن العرب كانت تؤمن بأن اللّه تعالى هو خالق السموات والأرض، وأن كل ما فيهما ومن فيهما ملك وعبيد له. ولفظ (ما) يشمل العقلاء مع غيرهم، وجزم في الكشاف بأن السؤال للتبكيت، وأن قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير لهم؛ أي: هو لله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئًا منه إلى غيره. وقال غيره: وتقرير للجواب نيابة عنهم، أو إلجاء لهم إلى الإقرار. وقال الرازي: أمره بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب فيه قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع، ثم بين أن هذا من هذا، واحتج على أن كل ذلك لله بما في العالم المادي من آثار الحدوث والإمكان، على طريقة المتكلمين في الاستدلال.

ونقول: إن إتيان السائل بالجواب يحسن في غير الموضع الذي حصر الرازي الحسن فيه؛ وهو أن يكون ما يأتي به عين ما يعتقده المسؤول، وما يجيب به إن

---

(١) لقمان: الآية (٢٥).

(٢) تفسير الرازي (١٢/ ١٧٣-١٧٤).

أجاب، وإنما يسبقه إليه ليبني عليه شيئًا آخر من لوازمه، هو مما يجهله المسؤول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله، أو غفلته عن كونه لازمًا لما يعرفه ويعتقده. وليس المسؤول عنه هنا مما لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، فقد أنكره أهل الإلحاد والتعطيل. فالظاهر أن يقال: إن اللَّه تعالى أمره بالجواب، وأن يبدأه بما كانوا يجيبون به كما علم من آيات أخرى؛ ليبني عليه قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ والمعنى: أن اللَّه تعالى الذي تقرون معي بأن له ما في السموات وما في الأرض؛ قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه، كما يعلم ذلك من إفاضة نعمه عليهم ظاهرة وباطنة. ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة حال كونه لا ريب فيه -أو جمعًا لا ريب فيه- أي: ليس من شأنه أن يرتاب فيه من تدبر دلائل رحمة اللَّه وحكمته، فإن هذا الجمع لأجل الحساب والجزاء، فهو رحمة بالمكلفين ينافي الفوضى والإهمال واستباحة الظلم، والعلم به رحمة أيضًا؛ لأنه وازع نفسي لا يتم تهذيب النفس بدونه، بل الرحمة أعم من ذلك. فمن رحمته تعالى بالناس ما منحهم من هدايات الحواس والوجدان والعقل، وهداية الدين المقاومة لما يجنونه على تلك الهدايات باستعمالها فيما يضرهم ولا ينفعهم، والمساعدة لهم على تكميل فطرتهم وتزكية أنفسهم؛ بيان ذلك أن من أصول دينه القويم الذي هو مظهر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فطر الناس عليها؛ أن لأعمال البشر جزاء فطريا هو أثر لازم للعمل، بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال النفسية والبدنية في إصلاح الأنفس أو إفسادها، وجزاء آخر وضعيًّا أو شرعيًّا تابعًا له هو إنشاء فضل أو عدل منه ﷻ، فالأول وهو الأصل ما يترتب على تزكية النفس بالعقائد الصحيحة والعلوم الثابتة والأخلاق الكريمة؛ التي تطبعها فيها عبادة اللَّه تعالى وحسن المعاملة مع خلقه من هناء المعيشة في الدنيا بالجمع بين لذة الحياة العقلية والروحية، ولذة الحياة الجسدية المعتدلة، وهو أدنى الجزاءين وأقلهما وغير المطرد منهما، وما يترتب على ذلك من النعيم المقيم في الآخرة، وهو الكامل المطرد، وما يترتب على تدسية النفس وإفساد فطرتها بالعقائد الباطلة كخرافات الوثنية وأوهامها، وبسفساف الأخلاق والملكات الرديئة التي تطبعها فيها تلك الأوهام السخيفة والأعمال القبيحة، والعبادات الوثنية من شقاء المعيشة في الدنيا وعذاب الآخرة، وكل منهما من لوازم تلك العقائد والأخلاق

والأعمال، فهي كالأعمال الضارة والوساوس العصبية (الهستيرية) التي تترتب عليها الأمراض المعضلة والأدواء القاتلة، كما أن ما تقدم من مقابلها يشبه الأعمال البدنية والنفسية التي يرتاض بها البدن والعقل حتى يبلغ بهما المرء من الصحة والاعتدال، ما هو مقدر له من الكمال، فعلى هذا تكون هداية الدين للعقائد الصحيحة والفضائل والآداب والعبادات، وزجره عن الوثنية والخرافات والرذائل والشرور؛ كل ذلك كبث الوصايا الصحيحة والعلوم الطبية في الناس، ليكون لهم وازع من أنفسهم يتقون به ما يضرهم، ويقبلون على ما ينفعهم، وتلك رحمة عظيمة بهم، ولا ينافي كون ذلك من الرحمة ما يترتب على الباطل والشر من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة؛ لأنه جناية منهم على أنفسهم، فمثلهم فيه كمثل المريض يخالف أوامر الطبيب ونواهيه الخاصة، ويخالف الوصايا الصحية العامة فيزداد أمراضًا وأسقامًا، ولا ينافي ذلك كون تلك الوصايا رحمة بالناس ونعمة عليهم.

وأما الجزاء الثاني الذي هو إنشاء من مقتضى الفضل أو العدل؛ فهو مترتب على الجزاء الأول وتابع له، وهو قسمان:

(أحدهما): ما يزيد اللَّه المحسنين من الكرامة والنعيم بفضله، على ما استحقوه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة بحسب وعده. ولما كانت الرحمة أعم وأوسع وأعظم؛ كان هذا النوع من الجزاء خاصًّا بالمحسنين من عباده، فهو رحمة خاصة نسأله تعالى أن يجعلنا من خيار أهلها.

(وثانيهما): القصاص في الحقوق وإن قلت، وما يقتص به تعالى في الآخرة للمظلومين من الظالمين بحسب عدله. ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل؛ كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو اللَّه عنهم، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة، ولكن لا يزاد فيه شيء قط. وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[2] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ

(١) الأنعام: الآية (١٦٠).

(٢) يونس: الآية (٢٦).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]، وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضًا، فهو كبيان الحكومة العادلة للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة، وما ينال المحسنين من الأمر والعز والترقي في خدمة الدولة».

إلى أن قال: «وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمعناه: أخص هؤلاء ممن يجمعون إلى يوم القيامة بالذكر أو التذكير أو بالذم والتوبيخ، فإنهم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة. ولاشك في أن هؤلاء أولى بأن يتعتعوا بالتذكير، أو بالذم المفضي إلى التفكير... وخسارة الأنفس عبارة عن إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من الهداية التي أشرنا إليه آنفًا. فالمقلدون قد خسروا أنفسهم؛ لأنهم حرموا أنفسهم من استعمال أشرف النعم الغريزية وهو العقل، وحرموا على أنفسهم أفضل الفضائل الكسبية وهو العلم والفهم، وإذا كان بعض الأئمة قد صرح بأن المجتهد المخطئ أفضل من المقلد لمجتهد مصيب؛ فكيف يكون حال المقلد في الشرك والكفر والعياذ بالله تعالى. والحرمان من مضاء العزيمة وقوة الإرادة خسران للنفس يضاهي خسرانها بفقد العلم الاستدلالي، فإن ضعيف الإرادة إن أوتي حظًّا من العلم لا يقوم بحقه، ولا يعمل به كما يجب؛ لأن ما يهدي إليه العلم الصحيح من وجوب نصر الحق وخذل الباطل ومجاهدة الأهواء الرديئة، وعمل الخير والتعاون على البر، كل ذلك لا يخلو من مشقة لا يحملها إلا ذو العزيمة الصادقة، والإرادة الثابتة.

فمن خسر نفسه بالتقليد لا ينظر ولا يستدل حتى يهتدي إلى الإيمان، ومن خسر نفسه بوهن الإرادة قلما ينظر ويستدل أيضًا، فإن هو نظر وظهر له الحق بما قام من البرهان عليه؛ قعد به ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين، واحتقار الأهل والمعاشرين لمن ترك دين آبائه وأجداده، وصبا إلى حزب أعدائهم وأعدائه. هذا ما يقال في مثل حال المشركين في عهد نزول هذه السورة. وإن ضعف الإرادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان عن الواجبات وسائر الأعمال التي لابد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية، وإن كانت من أعمال الإيمان ومصالح الأمة والأوطان، ولو بحثت عن خسران الأفراد المتعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة

---

(١) النساء: الآية (١٧٣).

أنفسهم، وخسران الجماعات والأمم التي تولى زعامتها أمثال هؤلاء الأفراد لاستقلالها وصلاح أمرها؛ لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الإرادة، فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه أنه خسر نفسه، سواء كان فردا أو أمة، فما بال من خسرهما كلتيهما والعياذ بالله تعالى»[1].

قلت: ما أحسن هذا الفهم وهذا الاستنتاج الطيب والاستنباط العظيم من كلام الله ومن واقع المشركين، الذين أصيبوا بداء التقليد في كل زمان ومكان، فكما قال رَحِمَهُ اللهُ الأمر يحتاج إلى علم صحيح، وإرادة وعزيمة صادقة. فكم من أناس لهم أعمال جبارة، وعزائم قوية، ولكن ينقصهم العلم الصحيح. فتصب أعمالهم في غير مصبها، ولا يهتدون إلى الصراط المستقيم، وكم من أناس لهم علم صحيح ومعرفة واسعة، ولكن ابتلوا بالتثبيط وضعف العزيمة والوساوس الكثيرة، وإبليس وأعوانه قاعدون لهم كل مرصد، كلما أرادوا أن يخطوا خطوة وقفوا أمامهم، وحذروهم من لوم اللائمين، ومن خطر أعدائهم، وينسون الوعيد الذي جاء في الكتمان، وفي التولي يوم الزحف، وفي لعن الذين لا ينهون عن المنكر ولا يأمرون بالمعروف، وغيرها من النصوص الواضحة.

فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وفتور في العزم.

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل، مسوقة لبيان أنه تعالى رءوف بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم التوبة والإنابة، وأن ما سبق ذكره وما لحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى، بل من جهة الخلق. كيف لا ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية، وإرسال الرسل وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه، والتحذير عن مقتضيات سخطه، وقد بدلوا فطرة الله تبديلا، وأعرضوا عن الآيات بالمرة، وكذبوا بالكتب واستهزؤوا بالرسل، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضًا مسلك الغابرين»[2].

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٢٥-٣٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ١١٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الرحمة

* عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين. قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار: الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه، وغير ذلك مما أنعم اللَّه تعالى به؛ فكيف الظن بمائة رحمة فى الدار الآخرة، وهى دار القرار ودار الجزاء، واللَّه أعلم»[٢].

فيه إثبات صفة الرحمة لله تعالى على ما يليق بكماله وجلاله، وهي من الصفات التي اختلف أهل العلم فيها؛ هل هي من صفات الذات أو من صفات الأفعال؟ قال الشيخ محمد بن أمان الجامي رحمه الله: «والذي يترجح عند بعض أهل العلم: أنها من صفات الأفعال؛ لأنه جل جلاله يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وينتقم منه ولا يرحمه. فحيث تتعلق بها مشيئة اللَّه وقدرته؛ فهي من صفات الأفعال، ويمكن عدها من صفات الذات باعتبار أن اللَّه لم يزل متصفًا بالرحمة، فالرحمة العامة ملازمة لذاته تعالى، وإن كان أفرادها تتجدد»[٣].

وقال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: في الحديث إدخال السرور على المؤمنين؛ لأن العادة أن النفس يكمل فرحها بما وهب لها إذا كان معلوما مما يكون موعودًا. وفيه الحث على الإيمان، واتساع الرجاء في رحمات اللَّه تعالى المدخرة»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لما قضى اللَّه الخلق؛ كتب في**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٣[٢١]).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٥٧). (٣) الصفات الإلهية (٢٨٥).

(٤) الفتح (١٠/ ٥٣١).

كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[١].

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: أي: لما خلق الخلق، حكم حكمًا جازمًا، ووعد وعدًا لازمًا لا خلف فيه: بأن رحمتي سبقت غضبي، فإن المبالغ في حكمه إذا أراد إحكامه عقد عليه سجلًا وحفظه، ووجه المناسبة بين قضاء الخلق وسبق الرحمة؛ أنهم مخلوقون للعبادة شكرا للنعم الفائضة عليهم، ولا يقدر أحد على أداء حق الشكر، وبعضهم يقصرون فيه، فسبقت رحمته في حق الشاكر، بأن وفىّ جزاءه وزاد عليه ما لا يدخل تحت الحصر، وفي حق المقصر إذا تاب ورجع بالمغفرة والتجاوز»[٢].

قال القرطبي: «معنى غلبة الرحمة، أو سبقها على ما جاء في الرواية الأخرى، أن رفقه بالخلق وإنعامه عليهم ولطفه بهم؛ أكثر من انتقامه وأخذه، كيف لا وابتداؤه الخلق وتكميله وإتقانه وترتيبه، وخلق أول نوع الإنسان في الجنة، كل ذلك رحمته السابقة، وكذلك ما رتب على ذلك من النعم والألطاف في الدنيا والآخرة، وكل ذلك رحمات متلاحقات، ولو بدأ بالانتقام لما كمل لهذا العالم نظام. ثم العجب أن الانتقام به كملت الرحمة والإنعام، وذلك أن بانتقامه من الكافرين كملت رحمته على المؤمنين، وبذلك حصل صلاحهم وإصلاحهم، وتم لهم دينهم وفلاحهم، وظهر لهم قدر نعمة اللَّه عليهم في صرف ذلك الانتقام عنهم، فقد ظهر أن رحمته سبقت غضبه، وإنعامه غلب انتقامه»[٣].

قال ابن بطال: «قال المهلب: وما ذكره النبي ﷺ من سبق رحمة اللَّه لغضبه فهو ظاهر؛ لأن من غضب اللَّه عليه من خلقه لم يخيبه في الدنيا من رحمته ورأفته، بأن رزقه ونعمه وخوله مدة عمره أو وقتا من دهره، ومكنه من آماله وملاذه، وهو لا يستحق بكفره ومعاندته غير أليم العذاب، فكيف رحمته بمن آمن به واعترف

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٥) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المرقاة (٥/ ١٩٩).

(٣) المفهم (٧/ ٨٢).

بذنوبه، ورجا غفرانه، ودعاه تضرعًا وخفيةً؟»[1].

وقال ابن القيم: «قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه فهو الموجب، وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح، ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح «لما قضى اللّٰه الخلق كتب بيده على نفسه في كتابه، فهو عنده موضوع فوق العرش: أن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ: «سبقت غضبي» فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب؛ بذكر فعل الكتابة وصفة اليد ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه»[2].

وزاد ذلك وضوحًا في 'الصواعق' فقال: «مسلك الرحمة: فإنها هي المسؤولية الشاملة العامة للموجودات كلها، وبها قامت الموجودات، فهي التي وسعت كل شيء، والرب وسع كل شيء رحمة وعلمًا. فوصلت رحمته إلى حيث وصل علمه، فليس موجود سوى اللّٰه تعالى إلا وقد وسعته رحمته، وشملته وناله منها حظ ونصيب. ولكن المؤمنون اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها، والكفار اكتسبوا أسبابًا استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم، فأسباب الرحمة متصلة دائمة لا انقطاع لها؛ لأنها من صفة الرحمة. والأسباب التي عارضتها مضمحلة زائلة؛ لأنها عارضة على أسباب الرحمة، طارئة عليها، وإذا كان كل مخلوق قد انتهت إليه الرحمة ووسعته؛ فلا بد أن يظهر أثرها فيه آخرًا، كما ظهر أثرها فيه أولًا. فإن أثر الرحمة ظهر فيه أول النشأة، ثم اكتسب ما يقتضي آثار الغضب، فإذا ترتب على الغضب أثره عادت الرحمة فاقتضت أثرها آخرها كما اقتضته أولًا؛ لزوال المانع وحصول المقتضي في الموضعين.

ومما يوضح هذا المعنى أن الجنة مقتضى رحمته ومغفرته، والنار من عذابه، وهو مخلوق منفصل عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ﴾[3] وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٥٢).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦١-١٦٢).
(٣) الحجر: الآيتان (٤٩ و ٥٠).

رَّحِيمٌ﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] فالنعم موجب أسمائه وصفاته، وأما العذاب فإنه من مخلوقاته المقصودة لغيرها بالقصد الثاني؛ فهو سبحانه إذا ذكر الرحمة والإحسان والعفو نسبه إلى ذاته، وأخبر أنه من صفاته. وإذا ذكر العقاب نسبه إلى أفعاله ولم يتصف به. فرحمته من لوازم ذاته، وليس غضبه وعقابه من لوازم ذاته، فهو سبحانه لا يكون إلا رحيمًا، كما أنه لا يكون إلا حيًّا عليمًا قديرًا سميعًا؛ وأما كونه لا يكون إلا غضبان معذبًا، فليس ذلك من كماله المقدس؛ ولا هو مما أثنى به على نفسه وتمدح به.

يوضح هذا المعنى أنه كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب عليها الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، ولم يسبقها الغضب ولا غلبها، ووسعت رحمته كل شيء، ولم يسع غضبه وعقابه كل شيء، وخلق الخلق ليرحمهم لا ليعاقبهم، والعفو أحب إليه من الانتقام، والفضل أحب إليه من العدل، والرحمة آثر عنده من العقوبة؛ لهذا لا يخلد في النار من في قلبه أدنى مثقال ذرة من خير، وجعل جانب الفضل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وجانب العدل السيئة فيه بمثلها، وهي معرضة للزوال بأيسر شيء، وكل هذا ينفي أن يخلق خلقا لمجرد عذابه السرمدي الذي لا انتهاء له ولا انقضاء؛ لا لحكمة مطلوبة إلا لمجرد التعذيب والألم الزائد على الحد، فما قدر اللَّه حق قدره من نسب إليه ذلك، بخلاف ما إذا خلقهم ليرحمهم ويحسن إليهم وينعم عليهم، فاكتسبوا ما أغضبه وأسخطه فأصابهم من عذابه وعقوبته بحسب ذلك العارض الذي اكتسبوا، ثم اضمحل سبب العقوبة وزال وعاد مقتضى الرحمة. فهذا هو الذي يليق برحمة أرحم الراحمين وحكمة أحكم الحاكمين»[٣].

* * *

(١) المائدة: الآية (٩٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٧).

(٣) مختصر الصواعق (ص: ٢٤٨-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: لا يؤمن هؤلاء العادلون بالله الأوثان، فيخلصوا له التوحيد، ويفردوا له الطاعة ويقروا بالألوهية جهلا ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ يقول: وله ملك كل شيء؛ لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكن في الليل والنهار، فمعلوم بذلك أن معناه ما وصفنا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ ما يقول هؤلاء المشركون فيه من ادعائهم له شريكا، وما يقول غيرهم من خلاف ذلك ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم، وما يظهرونه بجوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو يحصيه عليهم، ليوفي كل إنسان ثواب ما اكتسب، وجزاء ما عمل»[1].

قال السعدي: «اعلم أن هذه السورة الكريمة، قد اشتملت على تقرير التوحيد، بكل دليل عقلي، ونقلي.

بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد، ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله. فهذه الآيات: ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى وينقمع به الشرك. فذكر أن له تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾. وذلك هو المخلوقات كلها؛ من آدميها وجنها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها.

فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك. فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء المماليك، الذي لا نفع عنه ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، الضار النافع؟!!.

أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب والخوف والرجاء لله رب العالمين؟!!.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، على اختلاف اللغات، بتفنن الحاجات.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥٨).

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!!»[١].

* * *

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فظاهر؛ لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبدئ تعالى وتقدس لكل ما سواه، كان لا محالة هو المبدئ لحصول جميع المنافع. ولما كان واجبًا لذاته؛ كان لا محالة غنيًّا ومتعاليًا عن الانتفاع بشيء آخر. فثبت بالبرهان صحة أنه تعالى فاطر السموات والأرض، وصحة أنه يطعم ولا يطعم، وإذا ثبت هذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليًّا؛ لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده. والحق سبحانه هو الغني لذاته. الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل»[1].

قال أبو حيان: «﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزق ولا يرزق، كقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[2]، والمعنى: أن المنافع كلها من عند اللّٰه. وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه، كما خص الربا بالأكل، وإن كان المقصود الانتفاع بالربا..

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قال الزمخشري: لأن النبي سابق أمته في الإسلام كقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[3]، وكقول موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. قال ابن عطية: المعنى: أول من أسلم من هذه

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ١٧٩).
(٢) الذاريات: الآية (٥٧).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٣).
(٤) الأعراف: الآية (١٤٣).

الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك.

وهذا الذي قاله الزمخشري وابن عطية هو قول الحسن. قال الحسن: معناه: أول من أسلم من أمتي.

قيل: في هذا القول نظر؛ لأن النبي ﷺ لم يصدر منه امتناع عن الحق وعدم انقياد إليه، وإنما هذا على طريق التعريض على الإسلام كما يأمر الملك رعيته بأمر ثم يتبعه بقوله: أنا أول من يفعل ذلك؛ ليحملهم على فعل ذلك.

وقيل: أراد الأولية في الرتبة والفضيلة؛ كما جاء: «**نحن الآخرون الأولون**» وفي رواية: «**السابقون**»[1].

وقيل: ﴿أَسْلَمَ﴾: أخلص ولم يعدل بالله شيئًا. **وقيل**: استسلم. وقيل: أراد دخوله في دين إبراهيم عليه السلام؛ كقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[2]»[3].

قال القاسمي: «﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ أي: بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان، فيدخل فيه ما ذكر دخولًا أوليًا. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم القيامة، الذي تظهر فيه عظمة القهر الإلهي. وفي الآية مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم. ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء بـ(إن) التي تفيد الشك تعريضا. وجيء بالماضي إبرازًا له في صورة الحاصل على سبيل الفرض، تعريضا بمن صدر عنهم ذلك. وحيث كان تعريضًا لهم، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك- لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية، مع أنه معصوم. كما لا يتوهم مثله في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[4] وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر، بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعًا عاديًا، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان. وهذا لا يدل على حصول الخوف»[5].

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ٤٥٠/ ٨٧٦)، ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٥)، والنسائي (٣/ ٩٥-٩٦/ ١٣٦٦)، وابن ماجه (١/ ٣٤٤/ ١٠٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحج: الآية (٧٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٩٠).

(٤) الزمر: الآية (٦٥).

(٥) محاسن التأويل (٦/ ٤٧٦-٤٧٧).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، يعني أنه تعالى هو الذي يرزق الخلائق، وهو الغني المطلق، فليس بمحتاج إلى رزق. وقد بين تعالى هذا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1]. . . أي: أنه يرزق عباده ويطعمهم وهو -جل وعلا- لا يأكل؛ لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من الغذاء؛ لأنه -جل وعلا- الغني لذاته الغنى المطلق، سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]»[3].

وقال أيضًا: «قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية، يعني أول من أسلم من هذه الأمة التي أرسلت إليها، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس؛ كما بينه تعالى بآيات كثيرة تدل على وجود المسلمين قبل وجوده ﷺ ووجود أمته؛ كقوله عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وقوله عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾[6]، وقوله عن لوط وأهله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[7]، إلى غير ذلك من الآيات»[8].

قال محمد رشيد رضا: «﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الولي الناصر ومتولي الأمر المتصرف فيه، والاستفهام هنا لإنكار اتخاذ غير اللَّه وليًّا، لا إنكار اتخاذ الولي مطلقًا، ولهذا لم يقل: أأتخذ وليًّا غير اللَّه، ولا: أأتخذ غير اللَّه وليًّا، ومثله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[9]، وإنما يتحقق اتخاذ غير اللَّه وليًّا في صورة واحدة، وهو أن يطلب من غيره النصر أو غير النصر من ضروب التصرف في النفع والضر، فعلًا ومنعًا فيما هو فوق كسب ذلك الغير وتصرفه الذي منحه اللَّه لأبناء جنسه، ولذلك فسر الولي بالمعبود في هذا المقام. وأما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم لبعض فيما هو من كسبهم العادي؛ فلا يدخل في عموم اتخاذ غير اللَّه وليًّا،

---

(١) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).
(٢) فاطر: الآية (١٥).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٨٦).
(٤) البقرة: الآية (١٣١).
(٥) يوسف: الآية (١٠١).
(٦) المائدة: الآية (٤٤).
(٧) الذاريات: الآية (٣٦).
(٨) أضواء البيان (٢/ ١٨٧).
(٩) الزمر: الآية (٦٤).

أو اتخاذهم أولياء من دون اللَّه، فقد أثنى اللَّه تعالى على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وبين أيضًا أن الكفار بعضهم أولياء بعض، وقد تقدم بيان هذا من قبل، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب؛ يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون اللَّه تعالى، بمعنى أنهم بندائهم ودعائهم والتوجه إليهم والاستغاثة بهم، يشفعون لهم عند اللَّه تعالى في قضاء حاجتهم؛ من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق وغير ذلك. فكان هذا عبادة منهم لهم وجعلهم شركاء لله؛ باعتقاد كون حصول المطلوب من غير أسبابه العادية التي مضت بها السنن الإلهية العامة، قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة اللَّه تعالى، فمقتضى هذا الاعتقاد أن إرادة اللَّه تعالى ما تعلقت بفعل ذلك المطلب؛ إلا بالتبع لإرادة الولي الشافع أو المتخذ وليا شفيعا، والحق أن إرادة اللَّه تعالى أزلية لا يمكن أن تؤثر فيها المحدثات.. ثم وصف اللَّه تعالى بما ينافي اتخاذ غيره وليًّا فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، أي مبدئهما على غير مثال سابق... وصف اللَّه تعالى بفاطر السموات والأرض وهو لا نزاع فيه، يؤيد إنكار اتخاذ غيره وليا يستنصر ويستعان به، أو يتخذ واسطة للتأثير في الإرادة الإلهية، فإن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع؛ يجب أن يتوجه إليه وحده بالدعاء، وإياه يستعان في كل ما وراء الأسباب، وأكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزق الناس الطعام ولا يحتاج إلى من يرزقه ويطعمه؛ لأنه منزه عن الحاجة إلى الطعام وغيره، غني بنفسه عن كل ما سواه. وقرأ أبو عمرو: ﴿وَلَا يَطْعَمُ﴾ بفتح الياء؛ أي: لا يأكل. وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولي غير اللَّه، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر؛ بأنهم محتاجون إلى الطعام لا حياة لهم ولا بقاء إلى الأجل المحدود بدونه، وأن اللَّه تعالى هو الذي خلق لهم الطعام، فهم عاجزون عن البقاء بدونه، وعاجزون عن خلقه وإيجاده، فكيف يتخذون أولياء مع الغني الحميد، الرزاق الفعال لما يريد، كما قال في الاحتجاج على النصارى في عبادة المسيح وأمه ﷺ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [١]

(١) المائدة: الآية (٧٥).

وأما الأولياء المتخذة من غير البشر كالأصنام؛ فهي أضعف وأعجز من البشر، لاتفاق عقلاء الأمم كلها على تفضيل الحيوان على الجماد، وتفضيل الإنسان على جميع أنواع الحيوان.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: قل أيها الرسول بعد إيراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة اللَّه وحده، وعدم اتخاذ غيره وليا: إني أمرت من لدن ربي الموصوف بما ذكر من الصفات؛ أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لدينه من هذه الأمة التي بعثت فيها، فلست أدعو إلى شيء لا آخذ به، بل أنا أول مؤمن وعامل بهذا الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي بعد هذا الأمر بالسبق إلى إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء، يزعمون أنهم يقربونهم إليه زلفى، فأنا أتبرأ من دينكم ومنكم. وحاصل المعنى أنني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك. كذا قيل، والأولى أن يقال: إن حاصله الجمع بين الإسلام والبراءة من الشرك وأهله.

وبعد هذا القول المبين لأصل الدعوة وأساس الدين، وكون الداعي إليه مأمورا به كغيره؛ أمر اللَّه رسوله بقول آخر في بيان جزاء من خالف ما ذكر من الأمر والنهي آنفا، وأنه عام لا هوادة فيه ولا شفاعة تحول دونه فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قدم ذكر الخوف على شرطه الذي شأنه أن يتقدمه؛ لأنه هو الأهم المقصود بالذكر، وشرط (إن) لا يقتضي الوقوع، فالمعنى إن فرض وقوع العصيان مني لربي؛ فإنني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، وصف بالعظيم لعظمة ما يكون فيه من تجلي الرب سبحانه، ومحاسبته للناس ومجازاته لهم. وحكمة هذا التعبير ما أشرنا إليه من أن هذا الدين دين اللَّه الحق، لا محاباة فيه لأحد مهما يكن قدره عظيمًا في نفسه. وأن يوم الجزاء لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة بالمعني المعروف عند المشركين، ولا سلطان لغير اللَّه تعالى فيتكل عليه من يعصيه؛ ظنًّا أنه يخفف عنه أو ينجيه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [1] وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفيا لانتفائها بالعصمة؛ فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له دائمًا.

(١) الانفطار: الآية (١٩).

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: من يصرف ويحول عن ذلك العذاب في ذلك اليوم العظيم حتى يكون بمعزل عنه، أو من يصرف عنه ذلك العذاب في ذلك اليوم؛ فقد رَحِمَهُ اللهُ بإنجائه من الهول الأكبر، وبما وراء النجاة من دخول الجنة؛ لأن من لا يعذب يومئذ يكون منعها حتمًا، وذلك الجمع بين النجاة من العذاب، والتمتع بالنعيم في دار البقاء؛ هو الفوز المبين الظاهر»[١].

قلت: هذا التقرير العظيم من الشيخ رشيد رضا لأصل التوحيد، ينبغي أن يعض عليه بالنواجذ، لأنه هو الأصل الأصيل، والقرآن نزل لتقرير هذا الأصل، ولنسف كل ما سواه؛ من وثنية ومعبودات من دون اللّٰه، فاتخاذ الوسائط، والشركاء، والشفعاء، هو منهج المشركين في كل وقت وحين، وإخلاص التوحيد لله والاستغاثة به وحده، والاستعانة به وحده، هو منهج الأنبياء والرسل وأتباعهم الموحدين، فهذه الآيات التي نقرأها من سورة الأنعام تزلزل كيان الشرك والمشركين، وتعري كل الشبه التي يذكرها عباد الأصنام، فاللهم لك الحمد أنت أنزلت كتابك إلى عبادك بلسان عربي مبين، واضح اللفظ والمعنى، فقراءته هي فهمه وتدبره.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يده أو يديه قال: «**الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع، ولا مكافأ ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلًا، الحمد لله رب العالمين**»[٢].

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٣١-٣٣٣).

(٢) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٨٢/ ١٠١٣٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨٥)، والحاكم (١/ ٥٤٦) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٢/ ٢٢-٢٣/ ٥٢١٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معناه أن اللَّه سبحانه هو المطعم والكافي، وهو غير مطعم ولا مكفي، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾. وقوله: «ولا مودع» أي: غير متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده، ومنه قوله سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1] أي: ما تركك ولا أهانك، ومعنى المتروك: المستغنى عنه»[2].

وقال القاري: «فائدة: الحمد بعد الطعام أداء شكر المنعم، وطلب زيادة النعمة لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3]. وفيه استحباب تجديد حمد اللَّه عند تجدد النعمة، من حصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه»[4].

* * *

(١) الضحى: الآية (٣).
(٢) معالم السنن (٤/ ٢٤١).
(٣) إبراهيم: الآية (٧).
(٤) المرقاة (٨/ ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك اللَّه بضر، يقول: بشدة وشظف في عيشك، وضيق فيه؛ فلن يكشف ذلك عنك إلا اللَّه، الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: وإن يصبك بخير: أي برخاء في عيش، وسعة في الرزق وكثرة في المال؛ فتقر أنه أصابك بذلك ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّه الذي أصابك بذلك، فهو على كل شيء قدير، هو القادر على نفعك وضرك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة، التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول -تعالى ذكره-: فكيف تعبد من كان هكذا؟ أم كيف لا تخلص العبادة، وتقر لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة والعزة الظاهرة»[1].

وقال ابن عاشور: «عطف على الجمل المفتتحة بفعل (قل)، فالخطاب للنبي ﷺ. وهذا مؤذن بأن المشركين خوفوا النبي ﷺ أو عرضوا له بعزمهم على إصابته بشر وأذى فخاطبه اللَّه بما يثبت نفسه وما يؤيس أعداءه من أن يستزلوه. وهذا كما حكي عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾[2]، ومن وراء ذلك إثبات أن المتصرف المطلق في

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٦٠-١٦١).

(٢) الأنعام: الآية (٨١).

أحوال الموجودات هو اللَّه تعالى، بعد أن أثبت بالجمل السابقة أنه محدث الموجودات كلها في السماء والأرض، فجعل ذلك في أسلوب تثبيت للرسول ﷺ على عدم الخشية من بأس المشركين وتهديدهم ووعيدهم، ووعده بحصول الخير له من أثر رضى ربه وحده عنه، وتحدي المشركين بأنهم لا يستطيعون إضراره ولا يجلبون نفعه. ويحصل منه رد على المشركين الذين كانوا إذا ذكروا بأن اللَّه خالق السموات والأرض ومن فيهن أقروا بذلك، ويزعمون أن آلهتهم تشفع عند اللَّه، وأنها تجلب الخير وتدفع الشر، فلما أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية؛ لأنها لم تخلق شيئًا، وأوجبت عبادة المستحق الإلهية بحق، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنهم لا يملكون للناس ضرًّا ولا نفعًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[1]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[2].

وقد هيأت الجمل السابقة موقعًا لهاته الجملة؛ لأنه إذا تقرر أن خالق الموجودات هو اللَّه وحده لزم من ذلك أنه مقدر أحوالهم وأعمالهم؛ لأن كون ذلك في دائرة قدرته أولى وأحق بعد كون معروضات تلك العوارض مخلوقة له. فالمعروضات العارضة للموجودات حاصلة بتقدير الله؛ لأنه تعالى مقدر أسبابها، واضع نظام حصولها وتحصيلها، وخالق وسائل الدواعي النفسانية إليها أو الصوارف عنها»[3].

وقال ابن عطية: «وناب الضر في هذه الآية مناب الشر، وإن كان الشر أعم منه فقابل الخير، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترنا بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[4]، فجعل الجوع مع العري، وبابه أن يكون مع الظمأ»[5].

---

(١) المائدة: الآية (٧٦).

(٢) الشعراء: الآيتان (٧٢و٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٦٢-١٦٣).

(٤) طه: الآيتان (١١٨و١١٩).

(٥) المحرر (٢/ ٢٧٤).

وقال أبو حيان: «ومناسبة تقديم مس الضر على مس الخير ظاهرة، لاتصاله بما قبله، وهو الترهيب الدال عليه ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ﴾[(١)]، وما قبله. وجاء جواب الأول بالحصر في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ مبالغة في الاستقلال بكشفه، وجاء جواب الثاني بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دلالة على قدرته على كل شيء فيندرج فيه المس بخير أو غيره. ولو قيل: إن الجواب محذوف لدلالة الأول عليه لكان وجها حسنا، وتقديره: فلا موصل له إليك إلا هو. والأحسن تقديره: فلا راد له؛ للتصريح بما يشبهه في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[(٢)]، ثم أتى بعد بما هو شامل للخير والشر وهو قدرته على كل شيء. وفي قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ حذف تقديره: فلا كاشف له عنك إلا هو»[(٣)].

قال سليمان بن عبد اللّه آل الشيخ: «لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع، ولازم ذلك إفراده بتوحيد الإلهية؛ لأنهما متلازمان، وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير؛ لأنه لا يكشف الضر إلا هو، ولا يجلب الخير إلا هو ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٤)] فتعين أن لا يدعى لذلك إلا هو، وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا؛ فضلًا عن غيره، وهذا ضد ما عليه عباد القبور؛ فإنهم يعتقدون أن الأولياء والطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب، ينفعون ويضرون ويمسون بالضر ويكشفونه، وأن لهم التصرف المطلق في الملك؛ أي: على سبيل الكرامة، وهذا فوق شرك كفار العرب، وإما على سبيل الوساطة بينهم وبين اللّه بالشفاعة، وهذا شرك الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(٥)]»[(٦)].

وقال تقي الدين الهلالي: «كل من تيقن أنه لا ينفع إلا اللّه، ولا يضر إلا اللّه، ولا يعطي إلا اللّه، ولا يمنع إلا اللّه، وأن غير اللّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملكه لغيره، كل من تيقن ذلك؛ فلابد أن يخلص التوحيد لله، ولا يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغيره أبدًا، ومن زعم أنه متيقن ذلك، وتعلق بالأضرحة زاعمًا

(١) الأنعام: الآية (١٥).
(٢) يونس: الآية (١٠٧).
(٣) البحر (٤/ ٩٣).
(٤) فاطر: الآية (٢).
(٥) الزمر: الآية (٣).
(٦) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٠٢).

أنه لا يطلب منهم جلب نفع ولا دفع ضر، وإنما يتبرك بزيارة تلك الأضرحة، ويدعو الله عندها فإنه يخادع نفسه ويخادع الموحدين، ويتملق لعباد القبور؛ لأن الدعاء الذي يرجى قبوله، يكون في جوف الثلث الأخير من الليل، وهو ساجد في صلاته، ويكون في سجود الصلوات المفروضة في المساجد، ولا يكون عند الأضرحة، والأوثان المزخرفة المشيدة التي يرتكب عندها الشرك؛ من ذبح ونذر وطواف وتقبيل واستغاثة واختلاط الرجال بالنساء، فهذه الأماكن لا ينال زائرها إلا سخط الله وغضبه، فمن قدر أن يغير المنكر بهدمها أو تنفير الناس منها؛ فليذهب إليها بهذا القصد، ومن عجز عن ذلك فليغير هذا المنكر بلسانه أو بقلبه»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: **«ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»**[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وفي هذا الكلام دليل ظاهر على فضيلة هذا اللفظ، فقد أخبر النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى: أن هذا أحق ما قاله العبد، فينبغي أن يحافظ عليه؛ لأن كلنا عبد، ولا نهمله، وإنما كان أحق ما قاله العبد؛ لما فيه من التفويض إلى الله تعالى، والإذعان له، والاعتراف بوحدانيته، والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن الخير والشر منه، والحث على الزهادة في الدنيا، والإقبال على الأعمال الصالحة»[3].

وقال شيخ الإسلام: «فبين في هذا الحديث أصلين عظيمين:

---

(١) سبيل الرشاد (١/ ١٦٠).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ٣٤٧/ ٤٧٧)، وأبو داود (١/ ٥٢٩/ ٨٤٧)، والنسائي (٢/ ٥٤٤-٥٤٥/ ١٠٦٧).

(٣) شرح صحيح مسلم (٤/ ١٦٤).

أحدهما: توحيد الربوبية، وهو أن لا معطي لما منع اللَّه، ولا مانع لما أعطاه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل إلا هو.

والثاني: توحيد الإلهية، وهو بيان ما ينفع، وما لا ينفع، وأنه ليس كل من أعطي مالًا أو دنيا أو رئاسةً كان ذلك نافعًا له عند اللَّه، منجيًا له من عذابه، فإن اللَّه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»(١).

وقال: «وهذا يقتضي انفراده بالعطاء والمنع، فلا يستعان إلا به، ولا يطلب إلا منه»(٢).

وقال ابن القيم: «فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن اللَّه، فالأمر كله لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾(٣)، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤)»(٥).

* عن ابن عباس ﷺ قال: كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يوما، فقال: «**يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(٦).

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «اعلم أن سؤال اللَّه تعالى دون خلقه هو المتعين؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة، وكان الإمام أحمد

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٤٧).
(٢) المصدر السابق (٦/ ٢٦٥).
(٣) هود: الآية (٥٦).
(٤) الأعراف: الآية (٥٤).
(٥) طريق الهجرتين (ص: ٦٠).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». والحاكم (٣/ ٥٤١).

يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك؛ فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه. كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[2].

واللّٰه سبحانه يحب أن يسأل ويرغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل؛ لعجزه وفقره وحاجته. ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك: ويحك، تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني أستجب لك؟!

وقال طاوس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، ويجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك.

وأما الاستعانة باللّٰه ﷻ دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا اللّٰه ﷻ، فمن أعانه اللّٰه فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قوله: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا باللّٰه، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة باللّٰه في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها؛ في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا اللّٰه ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه»[3].

قوله: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء

---

(١) يونس: الآية (١٠٧). (٢) فاطر: الآية (٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨١-٤٨٢).

قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك» قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده؛ فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب اللَّه له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ألبتة؛ علم حينئذ أن اللَّه وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عَزَّ وَجَلَّ، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم اللَّه من يعبد من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني عن عابده شيئًا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع غير اللَّه، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه، قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]»[2].

وقال الألوسي: «ينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة قلبه وشعاره ودثاره وحديثه؛ فيعمل به من جهة حركاته وسكناته، حتى يسلم في الدنيا والآخرة، ويجد العزة برحمة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ»[3].

قلت: ما تقدم من كلام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في مقاطع كلمته العظيمة ما أحسنه في تقرير التوحيد! وكذلك كلمة الألوسي الذي جعل التوحيد مرآة قلب المؤمن، وشعاره ودثاره، وحديثه وظاهره وباطنه، وينبغي أن تكون حركاته وسكناته، وقيامه وجلوسه، وذهابه وقدومه، وحبه ورجاءه، ومبتغاه وهدفه، هو التوحيد، فرحم اللَّه الأئمة الذين أقاموا الحجة على العباد في تقرير التوحيد.

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٣٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٣) روح المعاني (٧/ ١١٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

القاهر: القهر: الغلبة والتذليل معًا، ويستعمل كل منهما منفردًا. والمعنى: المذلل المستعبد خلقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته. وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه؛ بل هم مدبرون مقهورون. فإذا كان هو القاهر، وغيره مقهورًا، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطلع على السرائر والضمائر، وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد جاءت هذه الآية بعد إثبات كمال القدرة لله تعالى فيما قبلها؛ تثبت له -جل وعلا- كمال السلطان والتسخير لجميع عباده، والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور، ليرشدنا إلى أن من اتخذ منهم وليا من دونه فقد ضل ضلالا بعيدا؛ لإشراكه ومقارنته بين الرب القاهر العلي الكبير، الحكيم الخبير، وبين العبد المربوب المقهور المذلل المسخر، الذي لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فإذا كان هكذا شأن الرب وهذه صفاته؛ فلا ينبغي للمؤمن به أن يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته، المذللين لسننه التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه؛ لأن أفضل المخلوقات وأكملهم مساوون لغيرهم في العبودية لله والذل له، وكونهم لا حول لهم ولا قوة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٨١).

بأنفسهم، ولم يجعل من خصائص أحد منهم أن يشاركه في التصرف في خلقه ولا في كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1] ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾[2] ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[3] إلخ. وقد فسر ابن جرير الآية بقوله: واللّه الغالب عباده المذل لهم، العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه، وهو الحكيم في علوه على عباده وقهره إياهم بقدرته وسائر تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا تخفى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمته دخل اهـ. وذهبت المعتزلة والأشاعرة إلى أن قوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر. صرح بذلك الزمخشري وتبعه بعض الأشاعرة كالبيضاوي بنقل عبارته بنصها، وبعضهم كالرازي بنقلها وإطالة الدلائل النظرية بإثبات مضمونها، ومنع إرادة فوقية الذات، وإطلاق صفة العلو على اللّه، إذ جعل ذلك قولا بتحيز الباري في جهة معينة وأطال في سرد الدلائل النظرية على استحالة ذلك، ولفظ الآية لا يأبى ما فسر به الزمخشري وأمثاله؛ لأن له نظيرا ذكروه في تفسيرها وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[4] وبديهي أنه يعني فوقية المكانة المعنوية لا المكان، ولو اكتفوا بهذا لكان حسنًا لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف كابن جرير، ولكن منهم من شنع على السلف الصالحين وسماهم حشوية لعدم تأويلهم الآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بإثبات صفة العلو المطلق لله تعالى، فسلف الأمة يمرون هذه الآيات بغير تأويل، ويقولون: إن اللّه مستو على عرشه فوق السموات وفوق العالم كله لا فوق كل شخص وحده، وهو بهذا بائن من خلقه، وإنه مع ذلك ليس كمثله شيء، فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز، فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق، ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على اللّه تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والإرادة فإنما وضع في أصل اللغة لصفات البشر وهي مباينة لصفات اللّه تعالى،

---

(١) الجن: الآية (١٨).
(٢) الأنعام: الآية (٤١).
(٣) الإسراء: الآية (٥٦).
(٤) الأعراف: الآية (١٢٧).

فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض؟! فالحق الذي مضى عليه سلف الأمة أن اللَّه تعالى يوصف بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وأن جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزيهه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق، فعلم اللَّه وقدرته وكلامه وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض، وقد انتهى سخف بعض المتكلمين في التأويل إلى جعل صفات الباري تعالى سلبية»[1].

قلت: لله دره! ما أحسن كلامه وتنبيهه على أخطاء بعض المتكلمين الذين وقعوا في التناقض، فأثبتوا بعض الصفات وتأولوا البعض، ومن الصفات التي أولوها صفة الفوقية، وهي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وبالفطرة، وبالعقل، وأجمع على إثباتها السلف الصالح -رضوان اللَّه عليهم.- وقد أثبت ذلك في كتابي «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات» بما لا يدع للمتكلم مقالا يرد به هذه الصفة وغيرها، فجزى اللَّه الشيخ رشيد رضا عن الإسلام والمسلمين خيرا.

وقال ابن القيم -وهو يرد على المؤولة-: «التأويل الذي يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو، والشرف، ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة، وهو شبيه بعزل سلطان عن ملكه وتوليته مرتبة دون الملك بكثير، مثاله: تأويل الجهمية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[2]. ونظائره بأنها فوقية الشرف، كقولهم الدرهم فوق الفلس، والدينار فوق الدرهم. فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية وهي المستلزمة لعظمة الرب ﷻ، وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم، وأنه أشرف منهم»[3].

وقال: «إن الجهمية المعطلة معترفون بوصفه تعالى بعلو القهر وعلو القدر، وإن ذلك كمال لا نقص؛ فإنه من لوازم ذاته، فيقال: ما أثبتم به هذين النوعين من العلو والفوقية: هو بعينه حجة خصومكم عليكم في إثبات علو الذات له سبحانه، وما نفيتم به علو الذات يلزمكم أن تنفوا به ذينك الوجهين من العلو، فأحد الأمرين لازم لكم ولا بد، إما أن تثبتوا له سبحانه العلو المطلق من كل جهة؛ ذاتًا وقهرًا وقدرًا،

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٣٦-٣٣٨).
(٢) النحل: الآية (٥٠).
(٣) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٩-٢٠٠).

وإما أن تنفوا ذلك كله، فإنكم إذا نفيتم علو ذاته سبحانه بناء على لزوم التجسيم، وهو لازم لكم فيما أثبتموه من وجهي العلو؛ فإن الذات القاهرة لغيرها التي هي أعلى قدرًا من غيرها إن لم يعقل كونها غير جسم لزمكم التجسيم، وإن عقل كونها غير جسم فكيف لا يعقل أن تكون الذات العالية على سائر الذوات غير جسم؟. وكيف لزم التجسيم من هذا العلو ولم يلزم من ذلك العلو؟، فإن قلتم: لأن هذا العلو يستلزم تميز شيء عن شيء منه، قيل لكم: في العلم أو في الخارج، فإن قلتم: في الخارج كذبتم وافتريتم وأضحكتم عليكم المجانين فضلا عن العقلاء، وإن قلتم: في الذهن فهذا لازم لكل من أثبت للعالم ربًّا خالقًا، ولا خلاص من ذلك إلا بإنكار وجوده رأسًا»[1].

انظر الأحاديث التي جاءت في هذه الصفة وفوائدها في سورة (الحديد) الآية (٣).

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «وأما معنى الآية فهو أن اللّٰه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يسأل كفار قريش: أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها، وأجدر بأن تكون أصحها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب هو عن هذا السؤال بأن: أكبر الأشياء شهادة الذي لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ؛ هو اللّٰه تعالى، وهو شهيد بيني وبينكم».

إلى أن قال: «وشهادة اللّٰه بين الرسول وبين قومه قسمان: شهادته سبحانه برسالة الرسول ﷺ وشهادته بما جاء به وشهادته ﷻ برسالة رسوله ثلاثة أنواع:

النوع الأول: إخباره بها في كتابه بمثل قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[2]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[4]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[5]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[7] فهذه شهادة صرح فيها باللفظ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[8] وهي بمعنى هذه الآية التي نفسرها.

النوع الثاني من شهادة اللّٰه تعالى لرسوله: تأييده بالآيات الكثيرة، وأعظمها القرآن، وهو الآية العلمية العقلية الدائمة بما ثبت بالفعل من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من الآيات الكثيرة كأخبار الغيب، ووعد الرسول

---

(١) الأنعام: الآية (١٩).
(٢) الفتح: الآية (٢٩).
(٣) البقرة: الآية (١١٩).
(٤) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٥) سبأ: الآية (٢٨).
(٦) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٧) النساء: الآية (١٦٦).
(٨) الرعد: الآية (٤٣).

والمؤمنين بنصره تعالى لهم، وإظهارهم على أعدائهم، وغير ذلك مما ثبت بالفعل عند أهل عصره ونقل إلينا بالتواتر، ومنها غير القرآن من الآيات الحسية والأخبار النبوية بالغيب التي ظهر بعضها في زمنه، وبعضها بعد زمنه عليه أفضل الصلاة والسلام...

النوع الثالث من شهادته لرسوله: شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل الأولين به، ولا تزال هذه الشهادات والبشائر ظاهرة فيما بقي عند اليهود والنصارى من تلك الكتب، وتواريخ أولئك الرسل ﷺ؛ على ما طرأ عليها من التحريف.. ولا تنس هنا أخذه تعالى العهد على الرسل وقوله لهم: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

وأما شهادته تعالى لما جاء به رسوله من التوحيد والبعث، وهو ما كانوا ينكرونه دون الآداب والفضائل والأحكام العملية؛ فهو ثلاثة أنواع:

أحدها: شهادة كتابه معجز الخلق بذلك كقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾[2]، وقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3].

ثانيها: ما أقامه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق على توحيده واتصافه بصفات الكمال، وفي بيان ذلك من هذه السورة ما ليس في غيرها.

ثالثها: ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان الفطري بالألوهية وبقاء النفس، وما هدى إليه العقول السليمة من تأييد هذا الشعور الفطري بالدلائل والبراهين...

علم مما بيناه أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان، اللذين أودعهما في نفس الإنسان، وهذه الآيات قد بينها القرآن وأرشد إليها، فهو الدعوى والبينة، والشاهد المشهود له، وكفى به

---

(١) آل عمران: الآية (٨١). (٢) آل عمران: الآيتان (١٨ و ١٩).
(٣) التغابن: الآية (٧).

ظهورا بالحق وإظهارا له، أنه لا يحتاج إلى شهادة غيره له»[١].

قال القاسمي: «تمسك من منع إطلاقه عليه تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٢]. والاسم إنما يحسن لحسن مسماه، وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال، ونعت من نعوت الجلال. ولفظ (الشيء) أعم الأشياء، فيكون مسماه حاصلًا في أحسن الأشياء وفي أرذلها. ومتى كان كذلك، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال، فوجب أن لا يجوز دعوة اللَّه بهذا الاسم؛ لأنه ليس من الأسماء الحسنى، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها. وأجيب: بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى، لكونها توقيفية، وكونه لا يدعى به لعدم وروده؛ لا ينافي شموله للذات العلية شمول العام، والمراد بإطلاقه عليه تعالى (فيما تقدم) شموله، لا تسميته به.

وبالجملة: فلا يلزم من كونه ليس من الأسماء الحسنى، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولًا كليًّا»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تسمية اللَّه تعالى نفسه شيئًا، وتسمية النبي ﷺ القرآن شيئًا وهو صفة من صفات اللَّه تعالى وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٤]

* عن سهل بن سعد ﷺ، قال النبي ﷺ لرجل: «أمعك من القرآن شيء؟» قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا لسور سماها[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «دل على كلامه بما دل على نفسه ليعلم أن كلامه صفة من صفات ذاته، فكل صفة تسمى شيئًا بمعنى أنها موجودة. وحكى ابن بطال أيضًا: أن في هذه

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٣٨-٣٤١).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤٨٣).
(٤) القصص: الآية (٨٨).
(٥) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤٩٥/ ٧٤١٧)، ومسلم (٢/ ١٠٤٠-١٠٤١/ ١٤٢٥)، وأبو داود (٢/ ٥٨٦-٥٨٧/ ٢١١١)، والترمذي (٣/ ٤٢١-٤٢٢/ ١١١٤)، والنسائي (٦/ ٤٣٢-٤٣٣/ ٣٣٥٩)، ورواه ابن ماجه (١/ ٦٠٨/ ١٨٨٩) مختصرا.

الآيات والآثار ردًّا على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على اللَّه شيء، كما صرح به عبد اللَّه الناشئ المتكلم وغيره، ردا على من زعم أن المعدوم شيء. وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضي إثبات موجود، وعلى أن لفظ لا شيء يقتضي نفي موجود»[1].

قال شيخ الإسلام: «ويفرق بين دعائه والإخبار عنه، فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى. وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيئ، لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بشيء، وإن لم يحكم بحسنه؛ مثل اسم شيء وذات، وموجود إذا أريد به الثابت، وأما إذا أريد به الموجود عند الشدائد، فهو من الأسماء الحسنى»[2].

وقال ابن القيم: «ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا، كالقديم والشيء والموجود»[3].

* * *

(١) الفتح (١٣/ ٤٩٦).

(٢) الفتاوى (٦/ ١٤٢).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

لأنذركم: الإنذار: إخبار فيه تخويف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائنًا من كان، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك.

أما عموم إنذاره لكل من بلغه، فقد دلت عليه آيات أخر أيضًا كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]. وأما دخول من لم يؤمن به النار؛ فقد صرح به تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[4]. وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ؛ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم»[5].

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن؛ لمنفعتكم ومصلحتكم؛ لأنذركم به من العقاب الأليم. والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب، وببيان الأعمال

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٢) سبأ: الآية (٢٨).
(٣) الفرقان: الآية (١).
(٤) هود: الآية (١٧).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٨٨).

والأقوال الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل النذارة. فهذا القرآن فيه النذارة لكم، أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية»[1].

قال محمد رشيد رضا: «قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ نص على عموم بعثة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام، أي لأنذركم به يا أهل مكة أو يا معشر قريش، أو العرب وجميع من بلغه ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل مكان وزمان إلى يوم القيامة. قال البيضاوي: وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه، اهـ. يعني أن العبرة في دعوة الإسلام بالقرآن، فمن لم يبلغه القرآن لا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة. وحينئذ لا يكون مخاطبًا بهذا الدين، ومفهومه أن الحجة لا تقوم بتبليغ دعوة الإسلام بالقواعد الكلامية والدلائل النظرية التي بني عليها ذلك العلم؛ أي إلا أن ينص فيها على أصوله وأحكامه، وإننا نرى المسلمين قد تركوا دعوة القرآن وتبليغه بعد السلف الصالح، وتركوا العلم به وبما بينه من السنة إلى تقليد المتكلمين والفقهاء. والقرآن حجة عليهم وإن جعلوا أنفسهم غير أهل للحجة»[2].

وقال تقي الدين الهلالي: «قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ حجة للحنفاء الذين يدعون إلى اتباع كتاب اللَّه وبيانه من سنة رسوله ﷺ، وينبذون التقليد والتفرق في الدين، فكل من بلغه القرآن وجب عليه اتباعه إلى يوم القيامة، ومثل هذا قوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾[3] وقوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[4] والمراد بالوحي: القرآن والسنة الصحيحة التي هي بيانه»[5].

قال السعدي: «فوازن بين شهادة أصدق القائلين، ورب العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، على توحيد اللَّه وحده

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٨٢).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٤١).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٥).
(٤) الزخرف: الآيتان (٤٣ و ٤٤).
(٥) سبيل الرشاد (١/ ١٦٠).

لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفت شهادتهم فطرهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع اللَّه آلهة أخرى. مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة، فضلًا عن الحجج. واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل. ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره اللَّه لنبيه، الذي أمرنا اللَّه بالاقتداء به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد، لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به، من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك به مع اللَّه. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذا الكلام دال على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك من ثلاثة أوجه: أولها: قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء. وثانيها: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وكلمة (إنما) تفيد الحصر، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء. وثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء. فثبت دلالة هذه الآية على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان، وأبلغ وجوه التأكيد. قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام»[2].

وقال أبو حيان: «أمره تعالى أن يخبرهم أنه لا يشهد شهادتهم، وأمره ثانيا أن يفرد اللَّه تعالى بالإلهية، وأن يتبرأ من إشراكهم، وما أبدع هذا الترتيب! أمر أولا بأن يخبرهم بأنه لا يوافقهم في الشهادة، ولا يلزم من ذلك إفراد اللَّه بالألوهية، فأمر به ثانيا ليجتمع مع انتفاء موافقتهم إثبات الوحدانية لله تعالى. ثم أخبر ثالثا بالتبرؤ من إشراكهم وهو كالتوكيد لما قبله، ويحتمل أن لا يكون ذلك داخلا تحت القول، ويحتمل -وهو الظاهر- أن يكون داخلا تحته، فأمر بأن يقول الجملتين. فظاهر الآية يقتضي أنها في عبدة الأصنام»[3].

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٨٣-٣٨٤). (٢) تفسير الرازي (١٢/ ١٨٩).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٩٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان وجوب البلاغ الحق لكل من قدر عليه

* **عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[١].**

★ غريب الحديث:

فليتبوأ: أي فليتخذ لنفسه منزلًا. يقال: تبوأ الرجل المكان: إذا اتخذه سكنًا، وهو أمر بمعنى الخبر، أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكم، أو دعاء على فاعل ذلك؛ أي: بوأه اللَّه ذلك[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «قال الشافعي رحمه الله: هذا أشد حديث روي في تخريج الرواية عمن لا يوثق بخبره عن النبي ﷺ؛ لأنه ﷺ معلوم منه أنه لا يبيح اختلاق الكذب على بني إسرائيل، ولا على غيرهم. فلما فرق بين الحديث عن بني إسرائيل، وبين الحديث عنه ﷺ؛ لم يحتمل إلا أنه أباح الحديث عن بني إسرائيل عن كل أحد، وأنه من سمع منهم شيئًا جاز له أن يحدث به عن كل من سمعه منه؛ كائنًا من كان، وأن يخبر عنهم بما بلغه؛ لأنه -واللَّه أعلم- ليس في الحديث عنهم ما يقدح في الشريعة ولا يوجب فيها حكمًا، وقد كانت فيهم الأعاجيب، فهي التي يحدث بها عنهم، لا شيء من أمور الديانة، وهذا الوجه المباح عن بني إسرائيل هو المحظور عنه ﷺ، فلا ينبغي لأحد أن يحدث عنه ﷺ، إلا عمن يثق بخبره، ويرضى دينه وأمانته؛ لأنها ديانة»[٣].

قال ابن العربي: «قوله: «بلغوا عني» وهذا فرض على الكفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقين، وإذا أخبر به النبي ﷺ واحدا سقط عنه فرض التبليغ، والدليل عليه قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[٤]

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩-٢٠٢-٢١٤)، والبخاري (٦/ ٦١٤/ ٣٤٦١)، والترمذي (٥/ ٣٩/ ٢٦٦٩).

(٢) الفتح (١/ ٢٦٨).

(٣) مقدمة فتح البر (ص: ٥٢-٥٣).

(٤) الأحزاب: الآية (٣٤).

وكان الوحي إذا نزل على النبي ﷺ والحكم إذا أتاه؛ لا يبرح به في الناس، ولكنه يخبر به مَنْ حضره، ثم على لسان أولئك إلى مَن وراءهم؛ أي وقت خرج إليهم وانتهى عندهم قوما بعد قوم، بحسب القرب والبعد»[1].

وقال أيضًا: «قوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا علي»: إلزام للمحدث أن لا ينطلق لسانه في الخبر عن رسول الله إلا بما صح»[2].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ١٣٧).

(٢) عارضة الأحوذي (١٠/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة والإنجيل، يعرفون أنما هو إله واحد، لا جماعة الآلهة، وأن محمدا نبي مبعوث، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من نعت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى، ويعني بقوله: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أهلكوها وألقوها في نار جهنم بإنكارهم محمدًا، أنه لله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون، فهم لا يؤمنون، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون، وقد قيل: إن معنى خسارتهم أنفسهم: أن كل عبد له منزل في الجنة، ومنزل في النار؛ فإذا كان يوم القيامة جعل اللَّه لأهل الجنة منازل أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازل أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرط منهم في الدنيا من معصيتهم اللَّه، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال أبو حيان: «الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ عائد على الرسول، قال قتادة والسدي وابن جريج والجمهور ومنهم عمر بن الخطاب، أو على التوحيد وذلك لقرب قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[(٣)]، وفيه استشهاد على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب، أو على القرآن، قاله فرقة؛ لقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقيل: يعود على جميع هذه الأشياء من التوحيد والرسول والقرآن، كأنه ذكر أشياء ثم قال: أهل الكتاب يعرفونه؛ أي: يعرفون ما قلنا وما قصصنا. وقيل: يعود على كتابهم. أي: يعرفون كتابهم، وفيه ذكر نبوة محمد ﷺ. وقيل: يعود على الدين والرسول، فالمعنى:

---

(١) المؤمنون: الآية (١١).
(٢) جامع البيان (٧/ ١٦٤).
(٣) الآية (١٩).

يعرفون الإسلام أنه دين اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، و﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا لفظه عام ويراد به الخاص، فإن هذا لا يعرفه ولا يقرّ به إلا من آمن منهم، أو من أنصف»[1].

وقال ابن عاشور: «والمراد أنهم يعرفون أنه من عند اللَّه، ويعرفون ما تضمنه مما أخبرت به كتبهم، ومن ذلك رسالة من جاء به، وهو محمد ﷺ، لما في كتبهم من البشارة به. والمراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ تشبيه المعرفة بالمعرفة. فوجه الشبه هو التحقق والجزم بأنه هو الكتاب الموعود به، وإنما جعلت المعرفة المشبه بها هي معرفة أبنائهم؛ لأن المرء لا يضل عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه، وأنه هو ابنه المعروف، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفًا.

وقيل: إن ضمير ﴿يَعْرِفُونَ﴾ عائد إلى التوحيد المأخوذ من قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وهذا بعيد. وقيل: الضمير عائد إلى النبي ﷺ مع أنه لم يجر له ذكر فيما تقدم صريحًا ولا تأويلًا. ويقتضي أن يكون المخاطب غير الرسول ﷺ وهو غير مناسب على أنه في عوده إلى القرآن غنية عن ذلك مع زيادة إثباته بالحجة وهي القرآن»[3].

وقال السعدي: «لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده؛ ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصا البنين الملازمين في الغالب لآبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها؛ لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره. والمعنيان متلازمان.

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٩٦-٩٧).

(٢) الرعد: الآية (٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٧١).

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم»[١].

قال القاسمي: «قال المهايمي: لأنه ﷺ ذكر في الكتاب نعته. وهو وإن لم يفد تعينه باللون والشكل والزمان والمكان، تعين بقرائن المعجزات. فبقاء الاحتمال البعيد فيه، كبقائه في الولد، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته، أو يكون من الفجور، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور. فهو كما يعرفون أبناءهم في ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «علة إنكار من أنكر نبوة محمد ﷺ من علماء اليهود؛ كعلة إنكار من أنكرها من المشركين بعد ظهور آياتها، وأنكر ما هو أعظم منها وأظهر، وهو وحدانية اللَّه تعالى، وهي أنهم خسروا أنفسهم، فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم؛ على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبة عندهم، لعلمهم بأن هذا الإيمان يسلبهم تلك الرياسة، ويجعلهم مساوين لسائر المسلمين في جميع الأحكام، وكذلك كان بعض رؤساء قريش، يعز عليه أن يؤمن فيكون مرؤوسًا وتابعًا ليتيم أبي طالب! فكيف وهو يكون بعد ذلك مساويًا لبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم من فقراء المسلمين!!

فخسران هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية لأنفسهم؛ هو من قبيل ضعف الإرادة، لا من نوع فقد العلم والمعرفة؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنهم على معرفة صحيحة في هذا الباب»[٣].

* * *

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٨٤).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٨٥).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٣٤٣).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكم على أولئك المنكرين بالخسران في الآية الأولى؛ بين في هذه الآية سبب ذلك الخسران، وهو أمران: أحدهما: أن يفترى على اللَّه كذبا، وهذا الافتراء يحتمل وجوها:

الأول: أن كفار مكة كانوا يقولون: هذه الأصنام شركاء اللَّه، واللَّه ﷻ أمرهم بعبادتها والتقرب إليها، وكانوا أيضًا يقولون الملائكة بنات اللَّه، ثم نسبوا إلى اللَّه تحريم البحائر والسوائب.

وثانيها: أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ والتغيير، وأنهما لا يجيء بعدهما نبي.

وثالثها: ما ذكره اللَّه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾[1].

ورابعها: أن اليهود كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ﴾[2] وكانوا يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ﴾[3].

وخامسها: أن بعض الجهال منهم كان يقول: إن اللَّه فقير ونحن أغنياء، وأمثال هذه الأباطيل التي كانوا ينسبونها إلى اللَّه كثيرة، وكلها افتراء منهم على اللَّه.

والنوع الثاني: من أسباب خسرانهم تكذيبهم بآيات اللَّه، والمراد منه قدحهم في معجزات محمد ﷺ، وطعنهم فيها، وإنكارهم كون القرآن معجزة قاهرة بينة. ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذين الأمرين قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي:

(١) الأعراف: الآية (٢٨).
(٢) المائدة: الآية (١٨).
(٣) البقرة: الآية (٨٠).

لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا وفي الآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان»[١].

قال محمد رشيد رضا: «أي: لا أحد أظلم ممن افترى على اللَّه كذبًا؛ كزعم من زعم أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه، ويتخذ وليًا له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه، أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته، أو التي يؤيد بها رسله. وإذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الكذب والافتراء يعد وحده غاية في الظلم، ويطلب على صاحبه اسم التفضيل فيه؛ فكيف يكون حال من جمع بينهما، فكذب على اللَّه، وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة؟!.

ثم بين سوء عاقبة الظالمين فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا استئناف بياني وقع موقع جواب السؤال، أي الحال والشأن أن الظالمين عامة؛ لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب اللَّه تعالى، ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم، فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه؛ لافترائه على اللَّه تعالى أو لتكذيبه بآياته؟ أو عاقبة من جمع بين الأمرين فكان أظلم الظالمين.

الآية نزلت في الكافرين، فلهذا يغفل الناس عن صدقها على من كذب على اللَّه تعالى وهو يسمي نفسه أو يسميه الناس مؤمنًا أو مسلمًا، كأن يقول بقول أولئك المشركين فيتخذ غير اللَّه وليًّا، ويدعوه ليشفع له عنده، أو يزيد في دين اللَّه برأيه فيقول: هذا واجب، وهذا حلال وهذا حرام؛ فيما لم ينزل اللَّه به وحيًا ولا كان مما بلغه رسوله ﷺ من دينه»[٢].

وقال ابن عاشور: «والمراد بافترائهم عقيدة الشرك في الجاهلية بما فيها من تكاذيب، وبتكذيبهم الآيات تكذيبهم القرآن بعد البعثة. وقد جعل الآتي بواحدة من هاتين الخصلتين أظلم الناس، فكيف بمن جمعوا بينهما. وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذييل، فلذلك فصلت؛ أي: إذا تحقق أنهم لا أظلم منهم فهم غير مفلحين؛ لأنه لا يفلح الظالمون، فكيف بمن بلغ ظلمه النهاية، فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول»[٣].

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ١٩١).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة (القصص): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال أبو حيان: «والظاهر أن الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على الذين افتروا على اللَّه الكذب أو كذبوا بآياته، وجاء: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ بمعنى: ثم نقول لهم، ولكنه نبه على الوصف المترتب عليه توبيخهم. ويحتمل أن يعود على الناس كلهم وهم مندرجون في هذا العموم، ثم تفرد بالتوبيخ المشركون، وقيل: الضمير عائد على المشركين وأصنامهم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «والضمير المنصوب في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ يعود إلى (من افترى على اللَّه كذبًا) أو إلى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ إذ المقصود بذلك المشركون، فيؤذن بمشركين ومشرك بهم. وللتنبيه على أن الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم جيء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾؛ ليدل على قصد الشمول، فإن شمول الضمير لجميع المشركين لا يتردد فيه السامع حتى يحتاج إلى تأكيده باسم الإحاطة والشمول، فتعين أن ذكر

---

(١) القصص: الآية (٦٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤١).
(٣) الصافات: الآية (٢٢).
(٤) البحر المحيط (٤/ ٩٨).

﴿جَمِيعًا﴾ قصد منه التنبيه. على أن الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم، فيكون نظير قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾(١)، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٢). وانتصب ﴿جَمِيعًا﴾ هنا على الحال من الضمير.

والمقصود من حشر أصنامهم معهم أن تظهر مذلة الأصنام وعدم جدواها كما يحشر الغالب أسرى قبيلة ومعهم من كانوا ينتصرون به؛ لأنهم لو كانوا غائبين لظنوا أنهم لو حضروا لشفعوا، أو أنهم شغلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم، فإن الأسرى كانوا قد يأملون حضور شفائعهم أو من يفاديهم»(٣).

قال الرازي: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فالمقصود منه التقريع والتبكيت لا السؤال، ويحتمل أن يكون معناه: أين نفس الشركاء؟ ويحتمل أن يكون المراد أين شفاعتهم لكم وانتفاعكم بهم؟ وعلى كلا الوجهين: لا يكون الكلام إلا توبيخًا وتقريعًا وتقريرًا في نفوسهم أن الذي كانوا يظنونه مأيوس عنه، وصار ذلك تنبيهًا لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة»(٤).

* * *

(١) يونس: الآية (٢٨).
(٢) الفرقان: الآية (١٧).
(٣) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٤).
(٤) تفسير الرازي (١٢/ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

الفتنة: الاختبار والابتلاء؛ مأخوذ من قولك: فتنت الذهب بالنار ليتميز عن الشوائب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: جواب ما اعترض به على فتنتهم التي هي شهادة أن مع الله آلهة أخرى، وعبر عن جوابهم بالفتنة لأنه كذب، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكدًا بالقسم بالاسم الجامع، مع نسبة الربوبية إليه تعالى، لا إلى ما سواه، مبالغة في التبرؤ من الإشراك. فكان هذا العذر ذنبًا آخر مؤكدًا لافترائهم بالإشراك الذي نفوه»[1].

وقال ابن عاشور: «و﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ هنا استثنى منها ﴿أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فذلك القول إما أن يكون من نوع ما استثني هو منه المحذوف في تفريغ الاستثناء، فيكون المستثنى منه من الأقوال الموصوفة بأنها فتنة، فالتقدير: لم يكن لهم قول هو فتنة لهم إلا قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وإما أن يكون القول المستثنى دالًّا على فتنتهم؛ أي: على أنهم في فتنة حين قالوه. وأيّاما كان فقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ متضمن أنهم مفتونون حينئذ. وعلى ذلك تحتمل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي والحيرة في الأمر، ويكون في الكلام إيجاز. والتقدير: فافتتنوا في ماذا يجيبون، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فعدل عن المقدر إلى هذا التركيب؛ لأنه قد علم أن جوابهم ذلك هو فتنتهم؛ لأنه أثرها ومظهرها.

ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب؛ لأنه يفضي إلى فتنة صاحبه؛ أي: تجريب حالة نفسه. ويحتمل أن تكون أطلقت على معناها الأصلي وهو الاختبار.

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٤٨٩).

والمراد به السؤال؛ لأن السؤال اختبار عما عند المسؤول من العلم، أو من الصدق وضده، ويتعين حينئذ تقدير مضاف، أي لم يكن جواب فتنتهم، أي سؤالهم عن حال إشراكهم إلا أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «ظاهر الآية أنهم ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم باللَّه توهمًا منهم أن ذلك ينفعهم، ولكنهم يعترفون به في بعضها كما يعلم من آيات أخرى، واستشكل بعض المفسرين هذا المعنى، واحتجوا بأن الإنكار في القيامة متعذر، وبأن اعترافهم بالشرك ثابت في بعض الآيات كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٣]. وروي أن ابن عباس سئل عن الآية وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، فقال: «أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، فقالوا: تعالوا لنجحد، ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فختم اللَّه على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾».

وذهب بعضهم إلى أن المعنى: ما كنا مشركين في اعتقادنا؛ لأننا ما كنا ندعو غيرك استقلالًا؛ بل توسلًا إليك ليكون من ندعوهم شفعاء لنا عندك يقربوننا إليك زلفى؛ لأننا كنا نستصغر أنفسنا أن تتسامى إلى دعائك كفاحًا بلا واسطة، وما هذا إلا تعظيم لك. وقد أورد على هذا التفسير أنه لا يلتئم مع قوله بعد هذه الحكاية عنهم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٤]. وأجيب عن الإيراد بأن المراد أنهم كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا بزعمهم أنهم اتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند اللَّه، وأن هذا تعظيم لله لا كفر به. ويرد هذا القول تصريح مشركي قريش بأن ما كانوا عليه شرك، ولكن بعضهم كان يرى أنه لا بأس به لأنه بمشيئة اللَّه. وهؤلاء كجبرية المسلمين، وقد أنكر القرآن عليهم هذه الشبهة في قوله من هذه السورة: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[٥] إلخ. نعم إن كثيرًا ممن يسمون مسلمين يدعون غير اللَّه تعالى حتى في حال الشدة والضيق التي كان مشركو العرب يخلصون فيها الدعاء لله تعالى، ولكنهم لا يسمون هذا شركًا كما كان يسميه المشركون؛ بل

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٥-١٧٦).
(٢) النحل: الآية (٨٦).
(٣) النساء: الآية (٤٢).
(٤) الآية (٢٤).
(٥) الآية (١٤٨).

يسمونه توسلًا أو استشفاعًا أو وساطة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كذب المشركين

* عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٤] ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية. وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾[٥] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى: ﴿طَآئِعِينَ﴾[٦] فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٧] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٨] ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٩] فكأنه كان ثم مضى، فقال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[١٠]، وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾ فإن اللَّه يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم. وقال المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فخُتم على أفواههم فتنطق أيديهم. فعند ذلك عُرف أن اللَّه لا يُكتَم حديثًا، وعنده ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾[١١] وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[١٢] فجُعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين.

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٤٥-٣٤٦).
(٢) المؤمنون: الآية (١٠١).
(٣) الصافات: الآية (٢٧).
(٤) النساء: الآية (٤٢).
(٥) النازعات: الآيات (٢٧-٣٠).
(٦) فصلت: الآيات (٩-١١).
(٧) النساء: الآية (٩٦).
(٨) النساء: الآية (٥٦).
(٩) النساء: الآية (٥٨).
(١٠) الطور: الآية (٢٥).
(١١) النازعات: الآيات (٢٧-٣٠).
(١٢) فصلت: الآية (٩).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ سمى نفسه ذلك، وذلك قوله؛ أي: لم يزل كذلك، فإن اللَّه لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد. فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله»[1].

وقد تقدم في سورة (النساء) الآية (٤٢).

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٧١٣-٧١٤).

قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد فاعلم كيف كذب هؤلاء المشركون العادلون بربهم الأوثان والأصنام في الآخرة، عند لقاء الله على أنفسهم بقيلهم: والله يا ربنا ما كنا مشركين، واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها متخلقين في الدنيا من الكذب والفرية.

ومعنى النظر في هذا الموضع: النظر بالقلب، لا النظر بالبصر، وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كذبوا في الآخرة، وقال: كذبوا، ومعناه: يكذبون؛ لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها؛ صار كالشيء الذي قد كان ووجد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقول: وفارقهم الأنداد والأصنام وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها لأنها هلكت، وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتراء، ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياه وإشراكهم إياها في سلطان الله، فضلت عنهم، وعوقب عابدوها بفريتهم»[1].

وقال القاسمي: «﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، بحضرة من لا ينحصر من الشهود ﴿وَضَلَّ﴾ أي: وكيف ضاع وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: من الشركاء، فلم تغن عنهم شيئًا، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [2] فـ(ما) موصولة، كناية عن الشركاء. وإيقاع الافتراء عليها، مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية، والشركة والشفاعة ونحوها؛ للمبالغة في أمرها، كأنها نفس المفتري»[3].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جعل حالهم المتحدث

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٦٧-١٦٨).
(٢) الأعراف: الآية (٣٧).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٤٨٩).

عنه بمنزلة المشاهد، لصدوره عمن لا خلاف في أخباره، فلذلك أمر سامعه أو أمر الرسول ﷺ بما يدل على النظر إليه كأنه مشاهد حاضر.

والأظهر أن (كيف) لمجرد الحال غير دال على الاستفهام. والنظر إلى الحالة هو النظر إلى أصحابها حين تكيفهم بها. وقد تقدمت له نظائر منها قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[1] في سورة (النساء). وجعل كثير من المفسرين النظر هنا نظرًا قلبيًّا؛ فإنه يجيء كما يجيء فعل الرؤية فيكون معلقًا عن العمل بالاستفهام؛ أي: تأمل جواب قول القائل: ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تجده جوابًا واضحًا بيّنًا.

ولأجل هذا التحقق من خبر حشرهم عبر عن كذبهم الذي يحصل يوم الحشر بصيغة الماضي في قوله: ﴿كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾»[2].

* * *

(١) الآية (٥٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٧٧-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأكنة: جمع كِنَان وهو الغطاء.

الوقر: الثقل في الأذن. يقال: في أذنه وقر، أي ثقل وصمم. أي: عن السماع النافع.

الجدال: الخصام، سمي بذلك لشدته. والمقصود: يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل.

أساطير: جمع أسطورة. وهي الأباطيل والترهات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «كان المشركون أصنافًا متفاوتين في الفهم والعقل وفي الكفر وأسبابه، وقد بين اللَّه أحوال كل فريق منهم في كتابه، فمنهم أصحاب الذكاء واللوذعية الذين كانوا يسمعون هذا القرآن، ويعقلون أنه لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ، ولا هو بالذي يستطيع الإتيان بمثله في نظمه وفصاحته وبلاغته، ولا في علومه وحكمه ومعارفه؛ إذ لو كان مثله مما تصل إليه قدرته؛ لظهر على لسانه شيء من مثله أو ما يقرب منه، فيما مضى من حياته وهو أربعون سنة ونيف. وقد أمره اللَّه تعالى أن يقيم عليهم هذه الحجة بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وما كان كفر أمثال هؤلاء إلا عن كبر وعناد ومكابرة للحق، ومنهم من كان يعرض عن سماع القرآن خشية أن يؤثر في قلبه، وينتزعه من الدين الذي ألفه

(١) يونس: الآية (١٦).

طول عمره، ومنهم من كان يصغي سمعه إلى القرآن بقصد الاكتشاف والاختبار، ولكنه لا يعقل المراد منه، ولا يفقه حججه وبيناته، إما لعدم توجه ذهنه إلى ذلك لعراقته في التقليد والأنس بما درج عليه الآباء وهو الأكثر، وإما للبلادة وانحطاط الفكر عن التسامي إلى هذه المعارف العالية فيه، وكان هذا قليلًا في العرب، ولاسيما أهل مكة وهم أفصح قريش التي هي أفصح العرب. وقد بين اللَّه تعالى حال هذا الفريق الذي لم يكن حظه من الاستماع إلى النبي ﷺ إلا كحظ النعم من سماع أصوات البشر فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول إذا تلوت القرآن داعيًا إلى توحيد اللَّه، منذرًا يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم -وهي قلب الإنسان ولبه- أغطية حائلة دون فقهه، ونفوذ الأفهام إلى أعماق علمه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: ثقلًا أو صممًا حائلًا دون سماعه بقصد التدبر واستبانة الحق. ومعنى هذا الجعل ما مضت به سنة اللَّه تعالى في طباع البشر؛ من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون مانعا له باختياره من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فهو لا يستمع إلى متكلم ولا داع لأجل التمييز بين الحق والباطل، وإذا وصل إلى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة؛ لا يتدبره ولا يراه جديرا بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة.

وجعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان في الآية؛ من تشبيه الحجب والموانع المعنوية، بالحجب والموانع الحسية، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء، والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم لأن سمعها وعدمه سواء...

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ يقول اللَّه تعالى في هؤلاء الذين لا يسمعون ما يتلو عليهم الرسول سماع تدبر، ولا يفقهون كنه ما يدعو إليه: وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك وحقية ما تدعو إليه؛ لا يؤمنوا بها؛ لأنهم لا يفقهونها ولا يدركون كنه المراد منها، لعدم التوجه أو لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: حتى إذا صاروا إليك أيها الرسول مجادلين لك في دعوتك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: يقولون

لإصرارهم على كفرهم وانتفاء فقههم: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين من الأمم، أي قصصهم وخرافاتهم، يعني أنهم لا يعقلون مما في القرآن من أنباء الغيب في قصص الأمم مع رسلهم، إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها، فلا علم فيها ولا فائدة منها، وربما جعلوا القرآن كله من هذا القبيل؛ قياسًا لما لم يسمعوا على ما سمعوا، أو لغير القصص على القصص. وهكذا شأن من ينظر إلى الشيء نظرًا سطحيًا لا ليستنبط منه علمًا ولا برهانًا، ومن يسمع الكلام جرسًا لفظيًا لا يتدبره ولا يفقه أسراره، فمثل هذا وذاك كمثل الطفل الذي يشاهد ألعاب الصور المتحركة، يديرها قوم لا يعرف لغتهم، فكل حظه مما يرى من المناظر ومن المكتوبات المفسرة لها لا يعدو التسلية. ولو عقل هؤلاء المقلدون الغافلون قصص القرآن وتدبروا معانيها؛ لكان لهم منها آيات بينة على صدق دعوة الرسول ﷺ، ونذر عظيمة مما فيها من بيان سنن اللّٰه تعالى في الأمم، وعاقبة أمرهم مع الرسل، وغير ذلك من الحكم والعبر»[1].

قال القرطبي: «﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم»[2].

قال القاسمي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن، لرؤيتهم قصورًا فيه، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول؛ لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السحر؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، فلا فهم عندهم ولا إنصاف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾»[3].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاؤوك يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل. ثم فسر المجادلة بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها. وعد أحسن الحديث وأصدقه، من قبيل الأباطيل وهو الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٤٦-٣٤٨).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٢٦٠).

(٣) الأنفال: الآية (٢٣).

خَلْفِهِۦ﴾[1] رتبة من الكفر لا غاية وراءها»[2].

وقال أبو السعود: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ هي (حتى) التي تقع بعدها الجمل، والجملة هي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وما بينهما حال من فاعل (جاءوا)، وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذمًّا لهم بما في حيز الصلة، وإشعارًا بعلة الحكم؛ أي: بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة؛ بل يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإن عد أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الأباطيل والخرافات؛ رتبة من الكفر لا غاية وراءها»[3].

* * *

(١) فصلت: الآية (٤٢).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ١٢١-١٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦﴾

★ **غريب الآية:**

النهي: الزجر.

النأي: البعد. يقال: نَأَيْتُ عنه، أَنْأَى نَأْيًا: إذا بعدت عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «في معنى ينهون عنه قولان: أحدهما أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن، وينأون عنه أي ويبعدونهم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين؛ لا ينتفعون ولا يدعون أحدا ينتفع. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وهم ينهون عنه، يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد، وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير.

والقول الثاني رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عمن سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى. وكذا قال القاسم بن مخيمرة وحبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار وغيره: أنها نزلت في أبي طالب»[1].

قال ابن جرير: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، قول من قال: تأويله ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ عن اتباع محمد ﷺ من سواهم من الناس. (وينأون) عن اتباعه، وذلك أن الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادلين به، والخبر عن تكذيبهم

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٢-٢٤٣).

رسول اللَّه ﷺ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل اللَّه ووحيه، فالواجب أن يكون قوله ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ خبرًا عنهم، إذ لم يأتنا ما يدل على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم، بل ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على صحة ما قلنا؛ من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسول اللَّه ﷺ، دون أن يكون خبرًا عن خاص منهم.

وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: وإن ير هؤلاء المشركون يا محمد كل آية لا يؤمنون بها، حتى إذا جاءوك يجادلونك، يقولون: إن هذا الذي جئتنا به إلا أحاديث الأولين وأخبارهم، وهم ينهون عن استماع التنزيل وينأون عنك، فيبعدون منك، ومن اتباعك، وإن يهلكون إلا أنفسهم، يقول: وما يهلكون بصدهم عن سبيل اللَّه، وإعراضهم عن تنزيله وكفرهم بربهم إلا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسبونها بفعلهم ذلك سخط اللَّه وأليم عقابه، وما لا قبل لها به، وما يشعرون، يقول: وما يدرون ما هم مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم»[1].

وقال ابن عاشور: «ومعنى النهي عنه النهي عن استماعه. فهو من تعليق الحكم بالذات، والمراد حالة من أحوالها يعينها المقام، وكذلك النأي عنه معناه النأي عن استماعه؛ أي: هم ينهون الناس عن استماعه ويتباعدون عن استماعه..

والقصر في قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ قصر إضافي، يفيد قلب اعتقادهم؛ لأنهم يظنون بالنهي والنأي عن القرآن أنهم يضرون النبي ﷺ لئلا يتبعوه ولا يتبعه الناس، وهم إنما يهلكون أنفسهم بدوامهم على الضلال، وبتضليل الناس، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس، وفي هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ، وأن ما أرادوا به نكايته إنما يضرون به أنفسهم..

وعقب قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ زيادة في تحقيق الخطأ في اعتقادهم، وإظهارًا لضعف عقولهم، مع أنهم كانوا يعدون أنفسهم قادة للناس، وذلك فالوجه أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ للعطف لا للحال؛ ليفيد ذلك كون ما بعدها مقصودًا به الإخبار المستقل؛ لأن الناس يعدونهم أعظم عقلائهم»[2].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٢-١٨٣).

وقال القاسمي: «ولما أشعر ذلك بكونهم يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، خوفًا من قوة تأثير التنزيل في القلوب؛ أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب؛ لأن الله متم نوره، ومظهر دينه، وإن الدائرة عليهم بقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب عاجلًا وآجلًا، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: بذلك»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «ضمير ﴿وَهُمْ﴾ عائد إلى المشركين المعاندين للنبي ﷺ الجاحدين لنبوته، الذين ورد هذا السياق بطوله فيهم، لا إلى الفريق الذي ذكر أخيرًا في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[2]. والمعنى: أنهم ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس عن سماع القرآن من النبي ﷺ، ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ أي: يبعدون عنه ليكونوا ناهين منتهين. والنأي عنه يشمل الإعراض عن سماعه والإعراض عن هدايته. وقيل: إن المعنى: ينهون عن النبي ﷺ؛ أي: ينهون العرب عن حمايته ومنعه، وعن اتباعه والسماع له جميعًا، ويبعدون عنه بعد جفاء وعداوة. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بذلك إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك؛ بل يظنون أنهم يقضون عليه صلوات الله وسلامه عليه. وهذا من معجزات القرآن، وإخبار بالغيب، فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوة الرسول الله ﷺ؛ بعضهم بالنقم الخاصة، وبعضهم في بدر ثم في غيرها من الغزوات، ويلي هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، ولفظ الآية يشملها، وهو في هلاك الدنيا أظهر»[3].

قلت: سبحان الله! ما أجمل كلام الله، وما أحسنه، وما أفضله، يعطيك العلم والعمل، ويضع بصرك وبصيرتك على واقع متسلسل لا نهاية له، تراه بأعينك، وتسمعه بأذنيك، وتلمسه بيديك، وتقف على معالمه بأرجلك، فلا يأخذك ريب ولا شك في صدق أخباره، فمنذ بداية دعوة رسول الله ﷺ والواقفون في وجهها، والصادون عنها، والرادون لها، يتساقطون في وجه دعوته ﷺ واحدا واحدا، وجماعة جماعة، ودولة دولة، فبداية من الأقربين في مكة، ونهاية بفارس والروم،

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٤٩٣).

(٢) الآية (٢٥).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٣٤٩-٣٥٠).

وأما اليهود والمنافقون فشتت اللَّه شملهم، وأزال وحدتهم، وما بقوا إلا كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، وأما أمثالهم من أهل هذا الوقت فمصيرهم مصير أولئك، ونرى أخبار اللَّه صادقة فيهم، فكل من تعرض للإسلام وأهله، وللسنة وأهل التوحيد، فمآله ما ذكر اللَّه تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] فأين أعداء السنة والتوحيد؟ وأين الذين حاربوهما ممن انتسبوا إلى العلم والخرافة؟ فكلهم هلكوا وسقطوا، وأصبحوا كأمس الذاهب، لا خبر ولا أثر، فهم وأتباعهم من الغابرين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

* * *

(١) الأنعام: الآية (٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى حديث البعث في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾[1]، واستطرد من ذلك إلى شيء من أوصافهم الذميمة في الدنيا عاد إلى الأول. وجواب (لو) محذوف لدلالة المعنى عليه، وتقديره: لرأيت أمرًا شنيعًا، وهولًا عظيمًا»[2].

وقال أبو السعود: «﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ شروع في حكاية ما سيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم في الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبًا في نفسه. والخطاب إما لرسول اللَّه ﷺ أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان؛ قصدًا إلى بيان كمال سوء حالهم، وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها براءٍ دون راءٍ ممن اعتاد مشاهدة الأمور العجيبة؛ بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها. وجواب (لو) محذوف؛ ثقةً بظهوره، وإيذانًا بقصور العبارة عن تفصيله، وكذا مفعول (ترى)؛ لدلالة ما في حيز الظرف عليه؛ أي: لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها؛ لرأيت ما لا يسعه التعبير. وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، أو حين يطلعون عليها اطلاعًا وهي تحتهم، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها؛ من قولهم: وقفته على كذا: إذا فهمته وعرفته، وقرئ: (وَقَفُوا) على البناء للفاعل؛ من وقف عليه وقوفًا، ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾؛ أي: إلى الدنيا؛ تمنيًا للرجوع والخلاص، وهيهات ولات حين مناص، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ أي: بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها، الآمرة باتقائها؛ إذ هي التي تخطر حينئذ ببالهم، ويتحسرون على ما فرطوا في حقها، أو

(١) الآية (٢٢).
(٢) البحر المحيط (٤/ ١٠٤-١٠٥).

بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظامًا أوليًا، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، العاملين بمقتضاها؛ حتى لا نرى هذا الموقف الهائل، أو نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب، الفائزين بحسن المآب»[١].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملًا صالحًا، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين. قال اللَّه تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كما قال تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٢] الآية. قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٣].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء؛ المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخبارًا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر اللَّه وقوع النفاق في سورة مكية وهي (العنكبوت)، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٤]؛ وعلى هذا فيكون هذا إخبارًا عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب؛ يظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، واللَّه أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة في الإيمان، بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٣) النمل: الآية (١٤).
(٤) العنكبوت: الآية (١١).

كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبرًا عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

وقال ابن عاشور: «ولما قوبل ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآية بقوله: ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾؛ علمنا أن البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا؛ أي: خطر لهم حينئذ ذلك الخاطر الذي كانوا يخفونه؛ أي: الذي كان يبدو لهم؛ أي: يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به. ففي الكلام احتباك، تقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه. وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله، أو من نصر المؤمنين، فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول، ويسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم، كما ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[2] في هذه السورة، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[3] في سورة (الحجر). وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها، وبعضها يساعده عجزها، وليس فيها ما يساعده جميعها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة؛ أي: لو أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه، وهو التكذيب وإنكار البعث، وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات، هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث، فالعقل العقل والتفكير التفكير، وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني، فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٣-٢٤٤).
(٢) الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) الحجر: الآية (٢).

من ذلك الهول؛ لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم، ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.

وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل؛ لا قرار لها في النفس، ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس، فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزجر والسوط ونحوهما، ويزول بزواله حتى يعاوده مثله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تذييل لما قبله. جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات؛ أي: أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه، فإن الكذب سجيتهم. وقد تضمن تمنيهم وعدا، فلذلك صح إدخاله في حكم كذبهم دخول الخاص في العام؛ لأن التذييل يؤذن بشمول ما ذيل به وزيادة. فليس وصفهم بالكذب بعائد إلى التمني؛ بل إلى ما تضمنه من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن اللَّه -جل وعلا- الذي أحاط علمه بكل موجود ومعدوم؛ يعلم المعدوم الذي سبق في الأزل أنه لا يكون لو وجد كيف يكون؛ ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وهذا المعنى جاء مصرحًا به في آيات أخر.

فمن ذلك أنه تعالى سبق في علمه أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؛ لا يخرجون إليها معه ﷺ، واللَّه ثبطهم عنها لحكمة، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[2]، وهو يعلم هذا الخروج الذي لا يكون لو وقع كيف يكون، كما صرح به تعالى في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[3] الآية، ومن الآيات الدالة على المعنى المذكور قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات»[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٥-١٨٦).
(٢) التوبة: الآية (٤٦).
(٣) التوبة: الآية (٤٧).
(٤) المؤمنون: الآية (٧٥).
(٥) أضواء البيان (١/ ٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن هؤلاء المشركين العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم، يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ يخبر عنهم أنهم ينكرون أن اللَّه يحيي خلقه بعد أن يميتهم، ويقولون: لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء، فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثواب اللَّه وعقابه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا، وما ركبوا من إثم ومعصية؛ لأنهم لا يرجون ثوابا على إيمان باللَّه، وتصديق برسوله، وعمل صالح بعد موت، ولا يخافون عقابا على كفرهم باللَّه ورسوله، وشيء من عمل يعملونه. وكان ابن زيد يقول: هذا خبر من اللَّه تعالى عن هؤلاء الكفرة الذين وقفوا على النار، أنهم لو ردوا إلى الدنيا لقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾»[1].

وقال أبو السعود: «﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على ﴿عَادُواْ﴾ داخل في حيز الجواب، وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بينهما؛ لأنه اعتراض مسوق لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص، ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم في إنكارهم البعث. والمعنى: لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعدما فارقنا هذه الحياة، كأن لم يروا ما رأوا من الأحوال التي أولها البعث والنشور»[2].

قال الرازي: «اعلم أنه حصل في الآية قولان:

الأول: أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنه بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، فبين في هذه الآية أن ذلك الذي يخفونه هو أمر المعاد والحشر والنشر، وذلك لأنهم كانوا

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٧٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ١٢٤).

ينكرونه ويخفون صحته، ويقولون: ما لنا إلا هذه الحياة الدنيوية، وليس بعد هذه الحياة لا ثواب ولا عقاب.

الثاني: أن تقدير الآية: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولأنكروا الحشر والنشر، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «إن الكفر بالبعث والجزاء واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة يجعل هم الكافر محصورًا في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية، كالجاه والرياسة والعلو في الأرض ولو بالباطل، وهو ما يسمونه الشرف، ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم؛ كالبقرة والقردة والخنازير، وفي اتباعه لهواه في لذته الغضبية أضرى وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة؛ كالذئاب والنمور، وفي اتباعه لهواه ولذته النفسية شرًّا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضًا، لا يصدهم عن باطل ولا شر يهوونه إلا العجز، ولا يرجعون إلى حكم يفصل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق. وطالما غشوا أنفسهم، وفتنوا غيرهم في هذا الزمان بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغي والعدوان، الذي كان يصول به قوي الأمم على ضعيفها، والحكومات الجائرة على رعيتها، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية، هي التي تفيض روح الكمال على الإنسان، إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ولا بالإله الديان، واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم. وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الإنسانية، والرغبة في العروج بجميع البشر إلى قنة السعادة المدنية.

فإن قيل: فما بالكم تسابقون إلى استذلال الأمم الضعيفة في الشرق، وتسخرونها لمنافعكم وتوفير ثروتكم بغير حق؟ قالوا: كلا، إنما نريد أن نخرجها من ظلمات الهمجية والجهل، لتشاركنا فيما نحن فيه من نور الحضارة والعلم.

فإن قيل: فما بالنا نراها لم تنل من علومكم إلا بعض القشور، ولم تستفد من

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٠٥).

مدنيتكم إلا الفسق والفجور؟ قالوا: إنما ذلك لضعف الاستعداد، وما تمكن في نفوس هذه الشعوب من الفساد، على أننا خير لها من حكامها الأولين، بما قمنا به من حفظ الأمن وتوفير أسباب النعيم للعاملين! ذلك شأنهم لا تقام عليهم حجة، إلا ويقابلونها شبهة تؤيدها القوة، وقد قوضت الحرب المشتعلة نارها في أوربا هذه الأعوام، جميع ما بنيت عليه هذه الشبهات من المزاعم والأوهام، إذ رأينا فيها أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم، ويقوضون صروح مدنيتهم بمدافعهم، ويستعينون بكل ما ارتقوا إليه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظار، لإهلاك الحرث والنسل وتخريب العمران، بمنتهى القسوة والشدة، التي لا تشوبها عاطفة رأفة ولا رحمة، ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور منهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء بالحق، لما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد، نعم إن هذه الشعوب كانت تتقاتل لنصر المذهب أو الدين، في القرون التي كانت تعمل فيها كل شيء باسم الدين، ولكنها لم تصل في التقتيل والتخريب في ذلك الزمان، إلى عشر معشار ما هي عليه الآن، وإن كانوا يسمون هذا العصر عصر النور وتلك العصور بعصور الظلمات، على أن الرؤساء كانوا يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه وسيلة لأهوائهم التي ليست من الدين في شيء، كما يعلم جميع علماء هذا العصر.

ومن العجائب: أن أقسى أهل هذه الحرب وأشدهم تخريبا وتدميرا هم الذين يزعمون أنهم يحاربون لله، وأن الله معهم على أعدائهم، وإنما الحرب الدينية الصحيحة حرب الأنبياء والخلفاء الراشدين، ومن على مقربة من سيرتهم من الملوك الصالحين، ولم يكن يستحل فيها في عصر الإسلام ما يستحل الآن من القسوة والتخريب، ولا ما نقل عن أنبياء وملوك بني إسرائيل. وقد فصلنا في المنار القول في المقابلة بين هذه الحرب المدنية، وحروب المسلمين الدينية، التي كانت دفاعًا عن النفس، وتقريرًا للحق والعدل، والمساواة في الحقوق بين أصناف الخلق، يسيرون فيها على القواعد الشرعية العادلة في الضرورات، ككونها تبيح ما ضرره دون ضررها، وكونها تقدر بقدرها، وتراعى فيها الرحمة، لا العدل وحده، وقد شهد بذلك لسلفنا، أعلم حكماء الإفرنج بتاريخنا (غوستاف لوبون) فقال كلمة حق، حقيقة بأن تكتب بماء الذهب، وهي: (ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم

من العرب).

وجملة القول: أن شبهات المفتونين بالمدينة المادية قد دحضت بهذه الحرب الساحقة الماحقة، وقويت بها حجة أهل الدين عليهم؛ بل تنبه بها الشعور الديني في الجم الغفير من الأوربيين حتى الفرنسيس منهم، بعد أن كانوا قد نبذوه وراء ظهورهم، وآثروا عليه الشهوات البدنية الحقيرة، حتى ضاقت بهم المعابد التي كانت مهجورة، قلما تفتح أبوابها، وقلما يلم بها أحد إن فتحت. وذلك شأن المسرفين في أمرهم من الناس، لا يتوجهون إلى خالقهم إلا عند الشدة والبأس ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

قلت: يطبق الشيخ رشيد رضا رحمه الله واقع الآيات على ما عاصره وعاشه، وتبين له بالأدلة القطعية التي لا يشك فيها من له أدنى مسكة من عقل، بأن الكفار مهما ادعوا من حب الإنسانية، وأن كل حضاراتهم هي خدمة للإنسانية، وللمساواة والعدالة، فكله كذب في كذب، وتمثل ذلك في حروب بعضهم لبعض فيما وقع في الحرب العالمية الأولى والثانية، من تخريب لا مزيد عليه، لأكبر المصانع، والمدن، والقرى، وما يزال حطام ذلك شاهد عليهم، وأما ما فعلوه في دخولهم لبلاد الإسلام فشيء لا يمكن أن ينكره منكر، وقد كانوا يصادرون الأفارقة، ويهاجرون بهم إلى بلدانهم قصد تسخيرهم واستعبادهم، ويعاملونهم أشر مما يتعامل به مع الحيوان الحقير، وما تزال المحطات والأسواق التي كانوا يجمعونهم فيها، وينقلونهم منها من مكان إلى مكان، وبقية بلاد الإسلام وغير الإسلام المغزوة شاهدة على هذا، وحروبهم الآن في الشرق الأوسط؛ في فلسطين، والعراق، وكشمير، وأفغانستان، وغيرها من بلاد الإسلام، التي تطحنها الحرب طحنا، وتصب فيها القنابل صبا، وتضربها الصواريخ ضربا، فلا عرض يبقى، ولا شيخ ولا طفل يسلم، ولا ضعيف ولا قوي يحيى، والعالم الإسلامي الآن على خطر عظيم، فنرجو اللَّه أن لا يتم لهم ما يتمنون، وأن يأتيهم اللَّه بما لا قبل لهم به، حتى

---

(١) يونس: الآية (١٢).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٦٨-٣٧٠).

لا يتم تخريبهم لبلاد الإسلام، فهم لا يخافون اللّٰه في السماء، ولا يستحيون الناس في الأرض، ويزعمون أنهم ينشرون السماحة والعدالة والسلم، وهم واللّٰه الشياطين؛ يجربون أسلحتهم في بلدان الضعفاء والمساكين، ويزعمون أنهم يحاربون أسلحة الدمار الشامل، فلا أدري متى يُنتبه لهذا العدو الغاشم، الذي يشعل فتائل الفتن، باسم الحقوق، وباسم الحرية، وباسم الشرق الأوسط الكبير، والقصد هو التمكين لليهود، ونشر دولتهم على أوسع نطاق، واللّٰه المستعان، فما ذكره الشيخ رشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقطة من بحر، وشعرة من ثور، فإلى اللّٰه المشتكى.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾ يوم القيامة: أي حبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ يعني: على حكم اللَّه وقضائه فيهم ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ يقول: فقيل لهم: أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فأجابوا ف﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ واللَّه إنه لحق ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول: فقال اللَّه -تعالى ذكره- لهم: فذوقوا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يقول: بتكذيبكم به، وجحود كموه الذي كان منكم في الدنيا»[1].

وقال الرازي: «المقصود من هذه الآية: أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى، أنهم ينكرون القيامة والبعث في الدنيا، ثم بين أنهم في الآخرة يقرون به؛ فيكون المعنى أن حالهم في هذا الإنكار سيؤول إلى الإقرار. وذلك لأنهم شاهدوا القيامة والثواب والعقاب، قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾.

فإن قيل: هذا الكلام يدل على أنه تعالى يقول لهم أليس هذا بالحق؟ وهو كالمناقض لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

والجواب أن يحمل قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: لا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، وعلى هذا التقدير يزول التناقض. ثم إنه تعالى بين أنه إذا قال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾؟ قالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾. المقصود أنهم يعترفون بكونه حقًّا مع القسم واليمين. ثم إنه تعالى يقول لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وخص لفظ الذوق لأنهم في كل حال يجدونه وجدان الذائق في قوة الإحساس. وقوله: ﴿بِمَا

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٧٧-١٧٨).

(٢) البقرة: الآية (١٧٤)، آل عمران: الآية (٧٧).

﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم.

واعلم أنه تعالى ما ذكر هذا الكلام احتجاجًا على صحة القول بالحشر والنشر؛ لأن ذلك الدليل قد تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ على ما قررناه وفسرناه، بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول»[١].

وقال شيخ الإسلام: «فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه؛ عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله. وهذا العبد يسأل ربه، ويتضرع إليه ويتوكل عليه. لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمنًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٢]، فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم وهم يعبدون غيره؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[٤].

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة، فيشهدها، لا يشهد إلا هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها وفي معرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ بل وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار، قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٦] وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٧]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٨].

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٢) يوسف: الآية (١٠٦).
(٣) لقمان: الآية (٢٥)، الزمر: الآية (٣٨).
(٤) المؤمنون: الآيات (٨٤-٨٩).
(٥) الحجر: الآية (٣٦)، ص: الآية (٧٩).
(٦) الحجر: الآية (٣٩).
(٧) ص: الآية (٨٢).
(٨) الإسراء: الآية (٦٢).

وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن اللَّه ربه وخالقه، وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[1]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ . فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر اللَّه به من الحقيقة الدينية، التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته، وطاعة أمره وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء اللَّه وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد، وأشر من إبليس»[2].

* * *

(١) المؤمنون: الآية (١٠٦).

(٢) العبودية (ص: ٤٨-٥٠).

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بغتة: فجأة. يقال: بَغَتَهُ الأمرُ إذا فَجَأَهُ.

الحسرة: شدة الندم على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعال.

التفريط: الترك والتقصير مع القدرة.

أوزارهم: أي ذنوبهم، جمع وِزْر.

يزرون: يفعلون من وزر. يقال: وَزَرَ يَزِرُ وِزْرًا: إذا أثم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾: قد هلك ووكس في بيعهم الإيمان بالكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: الذين أنكروا البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار، من مشركي قريش، ومن سلك سبيلهم في ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقول: حتى إذا جاءتهم الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم، وإنما أدخلت الألف واللام في الساعة؛ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قصد الساعة التي وصفت، . . ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم منازلهم من الجنة، بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة، من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة، قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم التي سلفت منهم في الدنيا تندمًا وتلهفًا على عظيم الغبن الذي غبنوه أنفسهم، وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يقول: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها، يعني في صفقتهم تلك، والهاء والألف في قوله:

﴿فِيهَا﴾ من ذكر الصفقة، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ عليها من ذكرها؛ إذ كان معلومًا أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد خسرت.

وإنما معنى الكلام: قد وكس الذين كذبوا بلقاء اللَّه، ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من اللَّه رضوانه وجنته بالكفر، الذي يستوجبون به منه سخطه وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك حتى تقوم الساعة، فإذا جاءتهم الساعة بغتة، فرأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم، قالوا حينئذ تندمًا: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾!»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بلقاء اللَّه تعالى كل ما ربحه وفاز به المؤمنون بلقائه؛ من ثمرات الإيمان وعبادة اللَّه ومناجاته في الدنيا، كالقناعة والإيثار والرضاء من اللَّه في كل حال، والشكر له عند النعمة، والصبر والعزاء والطمأنينة عند المصيبة، وغير ذلك من المزايا التي تصغر معها المصائب والشدائد، ويكبر قدر النعم والمواهب. ومن ثمرات الإيمان في الآخرة من الحساب اليسير، والثواب الكبير، والرضوان الأكبر، وهو «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[2] كل ذلك مما يخسره المكذبون بلقاء اللَّه بسبب تكذيبهم؛ لأنهم يخسرون في الحقيقة أنفسهم»[3].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه الآية شرح حالة أخرى من أحوال منكري البعث والقيامة وهي أمران:

أحدهما: حصول الخسران. والثاني: حمل الأوزار العظيمة.

أما النوع الأول: وهو حصول الخسران، فتقريره أنه تعالى بعث جوهر النفس الناطقة القدسية الجسماني، وأعطاه هذه الآلات الجسمانية، والأدوات الجسدانية، وأعطاه العقل والتفكر؛ لأجل أن يتوصل باستعمال هذه الآلات

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٣٥٩).

والأدوات إلى تحصيل المعارف الحقيقية، والأخلاق الفاضلة التي يعظم منافعها بعد الموت. فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والأدوات والقوة العقلية والقوة الفكرية في تحصيل هذه اللذات الدائرة والسعادات المنقطعة، ثم انتهى الإنسان إلى آخر عمره؛ فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ لأن رأس المال قد فني، والربح الذي ظن أنه هو المطلوب فني أيضًا وانقطع، فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر، ولا من الربح شيء، فكان هذا هو الخسران المبين.

وهذا الخسران إنما يحصل لمن كان منكرًا للبعث والقيامة، وكان يعتقد أن منتهى السعادات ونهاية الكمالات هو هذه السعادات العاجلة الفانية. أما من كان مؤمنًا بالبعث والقيامة؛ فإنه لا يغتر بهذه السعادات الجسمانية، ولا يكتفي بهذه الخيرات العاجلة؛ بل يسعى في إعداد الزاد ليوم المعاد، فلم يحصل له الخسران. فثبت بما ذكرنا أن الذين كذبوا بلقاء اللَّه وأنكروا البعث والقيامة؛ قد خسروا خسرانًا مبينًا. وأنهم عند الوصول إلى موقف القيامة يتحسرون على تفريطهم في تحصيل الزاد ليوم المعاد.

والنوع الثاني: من وجوه: خسرانهم أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم. وتقرير الكلام فيه أن كمال السعادة في الإقبال على اللَّه تعالى، والاشتغال بعبوديته والاجتهاد في حبه وخدمته. وأيضًا في الانقطاع عن الدنيا وترك محبتها، وفي قطع العلاقة بين القلب وبينها، فمن كان منكرًا للبعث والقيامة؛ فإنه لا يسعى في إعداد الزاد لموقف القيامة، ولا يسعى في قطع العلاقة بين القلب وبين الدنيا، فإذا مات بقي كالغريب في عالم الروحانيات، وكالمنقطع عن أحبابه وأقاربه الذين كانوا في عالم الجسمانيات. فيحصل له الحسرات العظيمة بسبب فقدان الزاد، وعدم الاهتداء إلى المخالطة بأهل ذلك العالم، ويحصل له الآلام العظيمة بسبب الانقطاع عن لذات هذا العالم، والامتناع عن الاستسعاد بخيرات هذا العالم. فالأول هو المراد من قوله: ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. والثاني: هو المراد من قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، فهذا تقرير المقصود من هذه الآية»[1].

* * *

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٠٧-٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

* **غريب الآية:**

اللهو: الشغل عن مهمات الأمور، وكل ما شغلك فقد أَلْهَاكَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا تكذيب من اللَّه -تعالى ذكره- هؤلاء الكفار المنكرين البعث بعد الممات في قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- -مكذبًا لهم في قيلهم ذلك-: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يقول: ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم، وقربت منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها، والمنافس عليها؛ إلا في لعب ولهو؛ لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها، والمتلذذ فيها بملاذها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فتمر عليه، وتكر كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويورثه منه ترحًا، يقول: لا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يندم.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: وللعمل بطاعته، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرور أهلها، فيها خير من الدار التي تفنى، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول: للذين يخشون اللَّه فيتقونه بطاعته، واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به من أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وهم يرون من يخترم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب، وتصيبه المصائب، وتفجعه الفجائع، ففي ذلك لمن عقل مدكر ومزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها، ودليل واضح على أن لها مدبرًا

ومصرفًا يلزم الخلق إخلاص العبادة له بغير إشراك شيء سواه معه»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم، يفيد بمقابلته أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعبا ولهوا يعبث به العابثون، أو يتشاغلون ويتسلون به عن الأكدار والهموم، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة، وأن تلك الدار للذين يتقون الشرك والشرور المحرمة خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث، الذين لا حظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعا لألم الهم والكدر، أو ضجر الشقاء والتعب، دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية إلى عذاب الآخرة. ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته، وفي دوامه وثباته، وفي كونه إيجابيًّا لا سلبيًّا، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار. فما القول بنعيمها الروحاني من لقاء الله ورضوانه، وكمال معرفته المعبر عنه عند أهل السنة برؤيته؟ أي: أتغفلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة؟ أما لو عقلتم لآمنتم»[2].

قال الرازي: «اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا وتحصيل لذاتها، فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهًا على خساستها وركاكتها.

واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها؛ لأن هذه الحياة العاجلة لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها، فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المراد منه حياة الكفار. قال ابن عباس: يريد حياة أهل الشرك والنفاق، والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعبا ولهوا.

والقول الثاني: أن هذا عام في حياة المؤمن والكافر، والمراد منه اللذات الحاصلة في هذه الحياة، والطيبات المطلوبة في هذه الحياة، وإنما سماها باللعب

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٨٠).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٦٤-٣٦٥).

واللهو؛ لأن الإنسان حال اشتغاله باللعب وباللهو يلتذ به، ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة، فكذلك هذه الحياة لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة.

واعلم أن تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه:

الأول: أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة كذلك.

الثاني: أن اللعب واللهو لا بد وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره. ولذات الدنيا كذلك.

الثالث: أن اللعب واللهو إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور، وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور؛ لا يبقى اللعب واللهو أصلًا، وكذلك اللهو واللعب، فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهال المغفلين، أما العقلاء والحصفاء فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو، فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها؛ لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور، وأما الحكماء المحققون، فإنهم يعلمون أن كل هذه الخيرات غرور، وليس لها في نفس الأمر حقيقة معتبرة.

الرابع: أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة.

فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو، وليس لهما حقيقة معتبرة. ولما بين تعالى ذلك قال بعده: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وصف الآخرة بكونها خيرًا، ويدل على أن الأمر كذلك حصول التفاوت بين أحوال الدنيا وأحوال الآخرة في أمور:

أحدها: إن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان، فإن الجمل أكثر أكلًا، والديك والعصفور أكثر وقاعًا، والذئب أقوى على الفساد والتمزيق، والعقرب أقوى على الإيلام، ومما يدل على خساستها أنها لو كانت شريفة لكان الإكثار منها يوجب زيادة الشرف، فكان يجب أن يكون الإنسان الذي وقف كل عمره على الأكل والوقاع أشرف الناس، وأعلاهم

درجة، ومعلوم بالبديهة أنه ليس الأمر كذلك؛ بل مثل هذا الإنسان يكون ممقوتًا مستقذرًا مستحقرًا يوصف بأنه بهيمة أو كلب أو أخس، ومما يدل على ذلك أن الناس لا يفتخرون بهذه الأحوال بل يخفونها، ولذلك كان العقلاء عند الاشتغال بالوقاع يختفون ولا يقدمون على هذه الأفعال بمحضر من الناس. وذلك يدل على أن هذه الأفعال لا توجب الشرف بل النقص، ومما يدل على ذلك أيضًا أن الناس إذا شتم بعضهم بعضا لا يذكرون فيه إلا الألفاظ الدالة على الوقاع، ولولا أن تلك اللذة من جنس النقصانات، وإلا لما كان الأمر كذلك، ومما يدل عليه أن هذه اللذات ترجع حقيقتها إلى دفع الآلام، ولذلك فإن كل من كان أشد جوعًا وأقوى حاجةً؛ كان التذاذه بهذه الأشياء أكمل له وأقوى، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه لا حقيقة لهذه اللذات في نفس الأمر. ومما يدل عليه أيضًا أن هذه اللذات سريعة الاستحالة، سريعة الزوال سريعة الانقضاء. فثبت بهذه الوجوه الكثيرة خساسة هذه اللذات. وأما السعادات الروحانية فإنها سعادات شريفة عالية باقية مقدسة، ولذلك فإن جميع الخلق إذا تخيلوا في الإنسان كثرة العلم وشدة الانقباض عن اللذات الجسمانية؛ فإنهم بالطبع يعظمونه ويخدمونه، ويعدون أنفسهم عبيدا لذلك الإنسان وأشقياء بالنسبة إليه، وذلك يدل على شهادة الفطرة الأصلية بخساسة اللذات الجسمانية، وكمال مرتبة اللذات الروحانية.

الوجه الثاني: في بيان أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا، هو أن نقول: هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد الدنيا. فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرا حقيرا، وهذا التفاوت أيضًا يوجب المباينة بين النوعين.

الوجه الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوما آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعا أنه ينتفع به في الدار الآخرة.

الوجه الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات...

الوجه الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل؛ كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل، كما قال الشاعر المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة، وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى»[1].

قلت: هذا الذي ذكره المفسر الرازي في احتقار اللذات بجميع أصنافها، ومقارنة لذات الإنسان بلذات الحيوان فيه نظر، والذي ينبغي أن يقال: إن هذه نعم خلقها اللَّه للإنسان ليتمتع بها، وكل نعمة من النعم إذا وقعت في يد عبد شاكر فإنها من أعظم الوسائل لكمال عبوديته سبحانه، والمسلم الصادق يقرن نعمه دائما بالحمد والشكر، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»»[2] فهذا التصوير للنعم بهذه الصفة مما لا ينبغي، والذي ينبغي أن يقال: إن هذه اللذات مهما عظمت فإنها فانية منتهية، وينبغي أن تكون وسيلة للذات الدائمة، فلا احتقار لها ولا بخس ولا وكس، فإن اللَّه تعالى امتن بها في كثير من آياته: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[3] ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[4] ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[5] فنعمة الأكل والشرب والصحة مثلا، يأتي منها القيام بالدعوة، والجهاد، وطب العلم، والصلاة، والصيام، وغيرها، ونعمة المال تأتي منها

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢١٠-٢١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٥)، والبخاري (١١/ ٣٦٧/ ٧٤٧١)، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩)، والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) النحل: الآية (٥٣).

(٤) إبراهيم: الآية (٣٤).

(٥) النحل: الآية (٧٨).

الصدقة، وتجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله، والنفقة على الأيتام والأرامل، وبناء المساجد، ودور القرآن، وتجهيز حملة العلم وطلبته، إلى غير ذلك من فوائد المال، هذا والله أعلم.

وقال القاسمي: «قال الخفاجي: جمع اللهو واللعب في آيات. فتارة يقدم اللعب، كما هنا. وتارة قدم اللهو كما في (العنكبوت). ولهذا التفنن نكتة مذكورة في 'درة التأويل' ملخصها: أن الفرق بين اللهو واللعب، مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعني العاقل ويهمه من هوى أو طرب، سواء كان حرامًا أم لا؛ أن اللهو أعم من اللعب، وكل لعب لهو، ولا عكس. فاستماع الملاهي لهو، وليس بلعب، وقد فرقوا بينهما أيضًا بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة، والاسترواح به، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب، وإن لم يقصد به ذلك؛ كما نقل عن أهل اللغة، قالوا: واللهو، إذا أطلق، فهو اجتلاب المسرة بالنساء، . .

ولما كانت الآية ردًّا على الكفرة في إنكار الآخرة، وحصر الحياة في الحياة الدنيا، وليس في اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية؛ قدم اللعب الدال على ذلك، وتمم باللهو. وأما في (العنكبوت)؛ فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها، بالقياس إلى الآخرة. ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير. والاشتغال باللهو، مما يقصر بها الزمان، وهو أدخل من اللعب فيه. وأيام السرور قصار، كما قال:

وليلةٍ إحدى الليالي الزهرِ ... لم تك غير شفقٍ وفجرِ»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في لعن كل ما يصد عن الله من مشاغل الدنيا

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»**[2].

(١) محاسن التأويل (٦/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٢٣٢٢) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٧/ ٤١١٢).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها**»، قال المناوي: «يمكن أن يكون المراد بلعنها ملاذ شهواتها وجمع حطامها، وما زين من حب النساء والبنين وقناطير الذهب والفضة، وحب البقاء بها. فيكون قوله ملعونة متروكة مبعدة متروك ما فيها واللعن الترك»(١).

وقال أيضًا: «قال الحكيم: . . . إنما صارت مذمومة ملعونة لأنها غرت النفوس بنعيمها وزهرتها ولذتها، فلما ذاقت النفس طعم النعيم اشتهت ومالت عن العبودية إلى هواها، وقد جعل اللَّه هذه الأشياء مسخرة يأخذ منها للحاجة لا لقضاء الشهوة، واللعن إنما وقع على ما غرك من الدنيا لا على نعيمها ولذتها، فإن الأنبياء قد نالته، فذلك الذي استثناه المصطفى ﷺ بقوله «**إلا ذكر الله**»»(٢).

قوله: «إلا ذكر اللَّه وما والاه وعالم أو متعلم»، قال المناوي: «فإن هذه الأمور، وإن كانت فيها، ليست منها؛ بل هي من أعمال الآخرة الموصلة إلى النعيم المقيم. قال الحكيم: فكل شيء أريد به وجه اللَّه من الأمور والأعمال فهو مستثنى من اللعنة، فإنه قد أوى إلى ذكر اللَّه، والكفار والشياطين وكل أمر أو عمل لم يرد به وجه اللَّه فهو ملعون، فهذه الأرض صارت سببا لمعاصي العباد بما عليها، فبعدت عن ربها بذلك؛ لأنها ملهية للعباد عنه، وكل شيء بعد العبد عن ربه فالبركة منزوعة منه»(٣).

* عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة؛ ما سقى كافرا منها شربة ماء**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن علان: «قال العاقولي: أي: لو كان لها عنده تعالى أدنى قدر؛ ما تمتع

---

(١) فيض القدير (٣/ ٥٤٩). (٢) فيض القدير (٣/ ٥٥٠).

(٣) فيض القدير (٣/ ٥٥٠).

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٨٥/ ٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦-١٣٧٧/ ٤١١٠)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، وتعقبه الذهبي فقال: «زكريا بن منظور ضعفوه». وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٦٨٦) بعد ذكره شواهد للحديث وطرقا: «وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب. واللَّه أعلم».

فيها كافر أدنى تمتع. وفي 'الديباجة': هو أن اللَّه تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها، بل جعلها طريقًا موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنما جعلها دار انتقال وارتحال، وأنه تعالى ملكها في الغالب للكفار والفساق، وحمى منها الأنبياء وورائهم، ويكفيك حديث الباب في هوانها عند اللَّه وصغرها وحقرها وذمها وبغضها وبغض أهلها والمحبين لها»[1].

قال المناوي: «أي: لو كان لها أدنى قدر؛ ما متع الكافر منها أدنى تمتع، هذا أوضح دليل وأعدل شاهد على حقارة الدنيا»[2].

* * *

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤١٨).

(٢) فيض القدير (٥/ ٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

★ غريب الآية:

يجحدون: الجَحْدُ والجُحُود: الإنكار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقول المشركون، وذلك قولهم له: إنه كذاب، فإنهم لا يكذبونك. واختلفت القَرَأَة في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من أهل الكوفة: ﴿فإنهم لا يَكْذِبُونَكَ﴾ بالتخفيف، بمعنى: أنهم لا يكذبونك فيما أتيتهم به من وحي اللَّه، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا، بل يعلمون صحته، ولكنهم يجحدون حقيقته قولًا فلا يؤمنون به. وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يحكي عن العرب أنهم يقولون: أكذبت الرجل: إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه. قال: ويقولون: كذبته: إذا أخبرت أنه كاذب. وقرأته جماعة من قرأة المدينة والعراقيين والكوفة والبصرة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا؛ بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا؛ عنادًا وحسدًا.

والصواب من القول في ذلك عندي، أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراء، ولكل واحدة منهما في الصحة مخرج مفهوم. وذلك أن المشركين لا شك أنه كان منهم قوم يكذبون رسول اللَّه ﷺ، ويدفعونه عما كان اللَّه تعالى خصه به من النبوة؛ فكان بعضهم يقول: هو شاعر، وبعضهم يقول: هو كاهن، وبعضهم يقول: هو مجنون، وينفي جميعهم أن يكون الذي أتاهم به من وحي السماء، ومن تنزيل رب العالمين قولًا. وكان بعضهم قد تبين أمره، وعلم صحة نبوته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوته حسدًا له وبغيًا. فالقارئ ﴿فإنهم لا يَكْذِبُونَكَ﴾ بمعنى: أن الذين كانوا يعرفون حقيقة نبوتك، وصدق قولك فيما

تقول، يجحدون أن يكون ما تتلوه عليهم من تنزيل اللَّه، ومن عند اللَّه قولا، وهم يعلمون أن ذلك من عند اللَّه علمًا صحيحًا، مصيب لما ذكرنا من أنه قد كان فيهم من هذه صفته. وفي قول اللَّه تعالى في هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾[1] أوضح الدليل على أنه قد كان فيهم العناد في جحود نبوته ﷺ، مع علم منهم به وصحة نبوته، وكذلك القارئ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ بمعنى: أنهم لا يكذِّبون رسول اللَّه ﷺ إلا عنادًا لا جهلًا بنبوته، وصدق لهجته، مصيب لما ذكرنا من أنه قد كان فيهم من هذه صفته، وقد ذهب إلى كل واحد من هذين التأويلين، جماعة من أهل التأويل»[2].

قال الرازي: «اعلم أن طوائف الكفار كانوا فرقًا كثيرين، فمنهم من ينكر نبوته؛ لأنه كان ينكر رسالة البشر، ويقول: يجب أن يكون رسول اللَّه من جنس الملائكة. وقد ذكر اللَّه تعالى في هذه السورة شبهة هؤلاء وأجاب عنها. ومنهم من يقول: إن محمدًا يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال. وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته. وقد ذكر اللَّه تعالى ذلك وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة التي تقدم ذكرها. ومنهم من كان يشافهه بالسفاهة وذكر ما لا ينبغي من القول، وهو الذي ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية»[3].

وقال أبو السعود: «﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتسلية رسول اللَّه ﷺ عن الحزن الذي يعتريه مما حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةٍ من اللَّه ﷻ، وأن ما يفعلون في حقه فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة، وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدَّ انتقام. وكلمةُ ﴿قَدْ﴾ لتأكيد العلم بما ذكر المفيدِ لتأكيد الوعيدِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾[5] ونحوِهما بإخراجها إلى معنى التكثير..

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ تعليل لما يُشعِر به الكلامُ السابق من النهي

(١) الآية (٢٠).
(٢) جامع البيان (١١/ ٣٣٠-٣٣٢) (شاكر).
(٣) تفسير الرازي (١٢/ ٢١٤).
(٤) النور: الآية (٦٤).
(٥) الأحزاب: الآية (١٨).

عن الاعتداد بما قالوا، لكن لا بطريق التشاغل عنه وعدِّه هينًا والإقبالِ التام على ما هو أهمُّ منه من استعظام جحودهم بآيات اللَّه ﷻ كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كونَ حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه؛ بل بطريق التسلِّي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القَدْرِ ورِفعة المحل والزُلفى من اللَّه ﷻ إلى حيث لا غاية وراءَه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه ﷺ تكذيبًا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]؛ بل نفى تكذيبَهم عنه ﷺ، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2]؛ إيذانًا بكمال القرب واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن اللَّه ﷻ. نعم، فيه استعظامٌ لجنايتهم منبئٌ عن عظم عقوبتهم، كأنه قيل: لا تعتدَّ به، وكِلْه إلى اللَّه تعالى؛ فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم بآياته تعالى يكذّبون، فوضَعَ المظهرَ موضعَ المضمر تسجيلًا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودُهم هذا فن من فنونه. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى. وإيرادُ الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كلُّ أحد، وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارةٌ عن الإنكار مع العلم بخلافه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[3]، وهو المعنيُّ بقول من قال: إنه نفْيُ ما في القلب إثباتُه، أو إثباتُ ما في القلب نفيُه، والباء متعلقة بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾؛ يقال: جحد حقَّه وبحقِّه: إذا أنكره وهو يعلمه، وقيل: هو لتضمين الجحود معنى التكذيب، وأيًا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور للقَصْر، وقيل: المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآية: صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، بأنه يعلم أن رسوله ﷺ يحزنه ما يقوله الكفار من

(١) النساء: الآية (٨٠). (٢) الفتح: الآية (١٠).
(٣) النمل: الآية (١٤).
(٤) تفسير أبي السعود (٣/ ١٢٦-١٢٧).

تكذيبه ﷺ، وقد نهاه تعالى عن هذا الحزن المفرط في مواضع أخر كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[4] الباخع: هو المهلك نفسه»[5].

* * *

(١) فاطر: الآية (٨).
(٢) المائدة: الآية (٦٨).
(٣) الكهف: الآية (٦).
(٤) الشعراء: الآية (٣).
(٥) أضواء البيان (٢/ /١٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «وهذه تسلية من اللَّه -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند اللَّه، يقول -تعالى ذكره-: إن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوتك، وينكروا آيات اللَّه أنها من عنده؛ فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك، وما تلقى منهم من المكروه في ذات اللَّه، حتى يأتي نصر اللَّه، فقد كذبت رسل من قبلك، أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر اللَّه الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم اللَّه بينهم وبينهم، ولا مبدل لكلمات اللَّه، ولا مغير لكلمات الله؛ وكلماته تعالى: ما أنزل اللَّه إلى نبيه محمد ﷺ من وعده إياه النصر على من خالفه وضاده، والظفر على من تولى عنه وأدبر، ولقد جاءك من نبإ المرسلين، يقول: ولقد جاءك يا محمد من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعت بهم حين جحدوا آياتي، وتمادوا في غيهم وضلالهم أنباء، وترك ذكر أنباء، لدلالة من عليها، يقول -تعالى ذكره-: فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر، مثل الذي كان مني فيمن كان قبلك من الرسل، إذ كذبهم قومك، واقتد بهم في صبرهم على ما لقوا من قومهم»[(١)].

وقال البقاعي: «ولما سلاه بوعده النصرة المسببة عن علم المرسل القادر، وبأن تكذيبهم إنما هو له سبحانه، وهو مع ذلك يصبر عليهم ويحلم عنهم؛ بل ويحسن

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٨٣).

إليهم بالرزق والمنافع، زاده أن ذلك سنة في إخوانه من الرسل فقال: ﴿وَلَقَدْ﴾ ولما كان المنكى هو التكذيب لا كونه من معين؛ بني للمفعول قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ﴾.

ولما كان تكذيبهم لم يستغرق الزمان، وكان الاشتراك في شيء يهوّنه، وكلما قرب الزمان كان أجدر بذلك؛ أدخل الجار فقال: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ بأن جحد قومهم ما يعرفون من صدقهم وأمانتهم كما فعل بك، ﴿فَصَبَرُوا﴾ أي: فتسبب عن تكذيب قومهم لهم أنهم صبروا ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ أي: فصبروا أيضًا على ما أوذوا، ثم أشار إلى الوعد بالنصر بشرط الصبر فقال: ﴿حَتَّىٰ﴾ أي: وامتد صبرهم حتى ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: فليكن لك بهم أسوة، وفيهم مسلاة، فاصبر حتى يأتيك النصر كما أتاهم، فقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون في قولنا: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1]، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لأن له جميع العظمة فلا كفؤ له. ودل سبحانه على صعوبة مقام الصبر جدًا بالتأكيد فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ﴾ ودل على عظيم ما تحملوا بقوله: ﴿مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: خبرهم العظيم في صبرهم واحتمالهم وطاعتهم وامتثالهم ورفقهم بمن أرسلوا إليهم، ونصرنا لهم على من بغى عليهم.

ومجيءُ نبئهم تقدم إجمالًا وتفصيلًا. أما إجمالًا ففي مثل قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[2]، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾[3]. وأما تفصيلًا ففي ذكر موسى وعيسى وغيرهما.

وفي قوله: ﴿فَصَبَرُوا﴾ أدل دليل على ما تقدم من أن النهي عن الحزن نهي عن تابعه المؤدي إلى عدم الصبر، والتعبير بـ(مِنْ) التبعيضية تهويل لما لقوا، فهو أبلغ في التعزية»[4].

قال محمد رشيد رضا: «أكد اللَّه تعالى لرسوله ﷺ بصيغة القسم أن الرسل الذين أرسلوا قبله قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصرهم اللَّه تعالى عليهم؛ أي: فإن كذبت فلك أسوة بمن قبلك، فلست بدعًا من

---

(١) المائدة: الآية (٥٦). (٢) آل عمران: الآية (١٤٦).

(٣) البقرة: الآية (٨٧).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٩٧-٩٩).

الرسل، وقد صرح بالشرطية في آيات أخرى كقوله تعالى في سورة (الحج): ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[١] إلخ، وقوله في سورة (فاطر): ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾[٢] إلخ، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٣] إلخ.
والآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد له إلى سنته تعالى في الرسل والأمم، أو هي تذكير بهذه السنة، وما تتضمنه من حسن الأسوة، إذ لم تكن هذه الآية أول ما نزل في هذا المعنى. وقد صرح بوجوب هذا الصبر عليه تأسيًا في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤]، واستقلالًا في آيات كثيرة منه ما نزل قبل هذه السورة، كقوله تعالى في سورة (المزمل): ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[٥]، وقد ثبت بالتجارب أن التأسي يهون المصاب ويفيد شيئًا من السلوة، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

ولولا أن دفع الأسى بالأسى من مقتضى الطبع البشري؛ لما ظهرت حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية، فإن النبي ﷺ كان يتلو القرآن في الصلاة ولا سيما صلاة الليل، فربما يقرأ السورة ولا يعود إليها إلا بعد أيام يفرغ فيها من قراءة ما نزل من سائر السور، فاحتيج إلى تكرار تسليته وأمره بالصبر المرة بعد المرة؛ لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ، من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما، ويتذكره حتى عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفار ومحاجتهم وإنذارهم.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ مصدرية ﴿وَأُوذُواْ﴾ عطف على ﴿كُذِّبُواْ﴾ أي: فصبروا على تكذيب أقوامهم لهم وإيذائهم إياهم. والإيذاء فعل الأذى، وهو ما يؤلم النفس أو البدن من قول أو فعل. وقد أوذي الرسول ﷺ بضروب من الإيذاء كما أوذي الرسل قبله، آذاه المشركون في مكة بأقوالهم وأفعالهم. واليهود والمنافقون في المدينة بقدر استطاعتهم.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ غاية للصبر أي: صبروا على التكذيب وما قارنه

---

(١) الحج: الآية (٤٢).
(٢) فاطر: الآية (٤).
(٣) فاطر: الآية (٢٥).
(٤) الأحقاف: الآية (٣٥).
(٥) المزمل: الآية (١٠).

من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا العظيم بالانتقام من أقوامهم. وإنجائنا إياهم هم ومن آمن معهم من أذاهم وكيدهم. وفيه بشارة للرسول مؤكدة للتسلية بأنه سينصره على المكذبين الظالمين من قومه. وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة البعثة. وإيماء إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر، إذا تساوت بين الخصمين سائر أسباب الغلب والقهر. وإضافة النصر إلى ضمير العظمة العائد على العزيز القدير تشعر بعظمة شأنه. وتشير إلى كونه من الآيات المؤيدة لرسله.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في وعده ووعيده التي منها وعده للرسل بالنصر. وتوعده لأعدائهم بالغلب والخذلان. ولا في غير ذلك من الشرائع والسنن التي اقتضتها الحكمة. والمراد من هذه الكلمات هنا قوله في سورة (الصافات): ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[1] اقرأ الآيات إلى آخر السورة، فنفى جنس المبدل لكلمات اللّه مثبت لكلمته في نصر المرسلين بالدليل، أي إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة اللّه، وكلمات اللّه لا يمكن أن يبدلها مبدل، فنصر الرسل حتم لابد منه... ومن العبرة في الآية أن اللّه تعالى وعد المؤمنين ما وعد المرسلين من النصر فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وهي نص في تعليل النصر بالإيمان، ولكننا نرى كثيرًا من الذين يدعون الإيمان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين، وأن اللّه لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنما ينصر المؤمن الصادق، وهو من يقصد نصر اللّه وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه، يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال قوله تعالى من سورة (الحج): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[4] إلى قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[5] فأما الرسل الذين نصرهم اللّه

---

(١) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).
(٢) غافر: الآية (٥١).
(٣) الروم: الآية (٤٧).
(٤) الحج: الآية (٣٩).
(٥) الحج: الآية (٤٠).

تعالى ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين، فقال في سورة (القتال): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١] والإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحًا بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من خوارق العادات. وأما تأييد اللّه تعالى للرسل بإهلاك أقوامهم المعاندين فهو أمر آخر زائد على تأثير الإيمان في الثبات والصبر، والاتكال على اللّه تعالى عند اشتداد البأس وعروض أسباب اليأس، ومن كان حظه من صفات الإيمان ولوازمه أكبر، كان إلى نيل النصر أقرب، إذا كان مساويا لخصمه في سائر أسباب القتال، ولاسيما حسن النظام وجودة السلاح»[٢].

وقال القاسمي: «﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من خبرهم في مصابرة الكافرين، وما منحوه من النصر، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم، وليس إمهالهم لإهمالهم؛ بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم»[٣].

* * *

(١) محمد: الآية (٧).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٣٧٧-٣٨٠).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

النفق: السرب النافذ في الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج.

السُّلَّمُ: المصعد والمرقاة؛ مشتق من السلامة. قال الزجاج: لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: إن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذي بعثتك به، فشق ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم؛ فإن ﴿ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: فإن استطعت أن تتخذ سربًا في الأرض، مثل نافقاء اليربوع، وهي أحد جحرته، فتذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: أو مصعدًا تصعد فيه كالدرج وما أشبهها..

﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ يعني بعلامة وبرهان على صحة قولك، غير الذي أتيتك فافعل..

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ يقول -تعالى ذكره-: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار يا محمد، فيحزنك تكذيبهم إياك، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدين، وصواب من محجة الإسلام، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة؛ لجمعتهم على ذلك، ولم يكن بعيدًا علي؛ لأني القادر على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي، ونافذ قضائي فيهم من قبل أن أخلقهم، وأصور أجسامهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد

﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يقول: فلا تكونن ممن لا يعلم أن اللَّه لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم اللَّه فيه، ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختيارًا لا اضطرارًا، فإنك إذا علمت صحة ذلك لم يكبر عليك إعراض من أعرض من المشركين عما تدعوه إليه من الحق، وتكذيب من كذبك منهم.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال بعض أهل التأويل. . .

عن ابن عباس: يقول اللَّه سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

وفي هذا الخبر من اللَّه تعالى، الدلالة الواضحة على خطأ ما قال أهل التفويض من القدرية المنكرون أن يكون عند اللَّه لطائف لمن شاء توفيقه من خلقه، يلطف بها له حتى يهتدي للحق، فينقاد له وينيب إلى الرشاد، فيذعن به، ويؤثره على الضلال والكفر باللَّه، وذلك أنه -تعالى ذكره- أخبر أنه لو شاء الهداية لجميع من كفر به حتى يجتمعوا على الهدى فعل، ولا شك أنه لو فعل ذلك بهم كانوا مهتدين لا ضلالًا، وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أن كونهم مهتدين كان خيرا لهم، وفي تركه -تعالى ذكره- أن يجمعهم على الهدى ترك منه أن يفعل بهم في دينهم بعض ما هو خير لهم فيه مما هو قادر على فعله بهم، وقد ترك فعله بهم، وفي تركه فعل ذلك بهم أوضح الدليل أنه لم يعطهم كل الأسباب التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسببون بها إلى الإيمان»[1].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية؛ آية فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ، وتقسيم الأحوال عليه حتى يبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر اللَّه تعالى، والمعنى: إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه، فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض، أو على ارتقاء سلم في السماء؛ فدونك وشأنك به؛ أي: إنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بد لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها اللَّه تعالى للناظرين المتأملين، إذ هو لا إله إلا هو، لم يرد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إذ خلقهم

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٨٣-١٨٥).

على الفطرة وهدى السبيل، وسبقت رحمته غضبه، وله ذلك كله بحق ملكه، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ في أن تأسف وتحزن على أمر أراده اللَّه وأمضاه، وعلم المصلحة فيه»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ نهي له عن هذه الحالة، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، كما أن قوله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2] لايدل على أنه ﷺ أطاعهم وقبل دينهم. والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة. واللَّه أعلم»[3].

قال القاسمي: «لم يقل: (لا تكن جاهلًا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل تعظيما لنبيه ﷺ؛ بأن لم يسند الجهل إليه، للمبالغة في نفيه عنه، وما فيه من شدة الخطاب سره تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر، مما لا يليق إلا بالجاهلين»[4].

قال ابن عطية: «يظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وبين قوله لنوح ﵇: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[5] وقد تقرر أن محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء، قال مكي والمهدي: والخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ للنبي ﵇ والمراد به أمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: وقر نوح لسنه وشيبته. وقال قوم: جاء الحمل أشد على محمد ﷺ؛ لقربه من اللَّه تعالى ومكانته عنده، كما يحمل العاقب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب.

قال القاضي أبو محمد: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبين أن الأمر الذي نُهِيَ عنه محمد ﷺ أكبر قدرًا وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح ﷺ»[6].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٢٨٧).
(٢) الأحزاب: الآية (١).
(٣) تفسير الرازي (١٢/ ٢١٨-٢١٩).
(٤) تفسير القاسمي (٦/ ٥١٠-٥١١).
(٥) هود: الآية (٤٦).
(٦) المحرر الوجيز (٢/ ٢٨٨).

قلت: هذا رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون، بين لنبيه محمد ﷺ أن الهداية منه، والتوفيق به، وما شاءه كان، وليس للنبي ﷺ إلا البلاغ، فهو رسولٌ، لا إله، ولا رب، فمكانته الرسالة والبلاغ والنبوة، ومكانة الرب -تبارك وتعالى- الهداية والتوفيق، فمن وفقه اللَّه فهو الموفق، ومن خذله فهو المخذول، فعلى الداعية لله -تبارك وتعالى- أن يقف موقف المعتدل فيبلغ الدعوة حسب مجهوده وطاقته، ولا يحمله رَدُّ الناس عليه، أو إعراضهم عنه أن يقنط ويحزن، ويصيبه اليأس والقنوط، وإنما من صفاته الفأل والتفاؤل، مهما كانت الظروف، ومهما كان الظلام دامسا، ومهما كانت قوة العدو في عدته وعدده، فيبقى دائما باعثُ الفأل، وباعثُ النصر والنجاح والفلاح هو المنهاج الذي يتسربل الداعية به، وإلا هلك وانقطع، وفر واعتزل، وقد قال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾﴾[1].

* * *

(١) القلم: الآية (٤٨).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

★غريب الآية:

يبعثهم: أصل البعث في اللغة: إثارة الشيء وتوجيهه. يقال: بعثت البعير أي: أثرته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لا يكبرن عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربهم، والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك؛ إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهل لهم اتباع الرشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله، وإلى اتباع الحق؛ إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم -تعالى ذكره- في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولا، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجروا عما هم عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم...

وأما قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾؛ فإنه يقول تعالى: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئًا، فيثيب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا، بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعد أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة»[2].

---

(١) البقرة: الآية (١٧١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٨٥-١٨٦).

قال محمد رشيد رضا: «معنى صدر الآية: إنما يستجيب لك أيها الرسول، أو لله أو لرسوله، الذين يسمعون كلام اللَّه الداعي إليه بآياته؛ سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات، ويذعنون لما عرفوا بها من الحق؛ لسلامة فطرتهم واستقلال عقولهم، دون الذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعون؛ كالمقلدين الجامدين، ودون الذين قالوا: سمعنا وعصينا؛ من المستكبرين الجاحدين، فكل أولئك من موتى القلوب والأرواح، الذين هم أبعد عن الانتفاع من موتى الجسوم والأبدان.

﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ أي: وموتى القلوب الذين لا يسمعون هذا السماع، يخرجهم اللَّه تعالى من قبورهم ويرسلهم إلى موقف الحساب، ثم ترجعهم الملائكة إليه فينالون ما استحقوه من الجزاء...

فالظاهر مما تقدم أن المراد بالموتى هنا: الكفار الراسخون في الكفر المطبوع على قلوبهم، الميؤوس من سماعهم سماع فهم واعتبار، تتبعه الاستجابة لداعي الإيمان. أي: والذين لا ترجى استجابتهم لأنهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع يترك أمرهم إلى اللَّه فهو يبعثهم بعد موتهم، ثم يرجعون إليه فيجازيهم على كفرهم وأعمالهم، ولا يضرك أيها الرسول كفرهم، وليس في استطاعتك هدايتهم، فالواجب عليك أن تفوض إلى اللَّه أمرهم، وقيل: إن لفظ (الموتى) على حقيقته، وأن الكلام تمثيل وتعريض بالإيماء إلى عدم قدرة الرسول على هدايتهم، كما أنه لا يقدر على إحياء الموتى وهو بعيد، وفيه ما لا يخفى من التكلف»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك -يا محمد- من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبّههم اللَّه بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزراء عليهم»[٣].

وقال أبو حيان: «﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الظاهر أن هذه جملة مستقلة من مبتدإ وخبر. والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة. وذلك إخبار من اللَّه تعالى أن الموتى على العموم من مستجيب وغير مستجيب يبعثهم اللَّه، فيجازيهم على

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٨٥-٣٨٦). (٢) يس: الآية (٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٨).

أعمالهم. وجاء لفظ (الموتى) عامًّا؛ لإشعار ما قبله بالعموم في قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ إذ الحصر يشعر بالقسم الآخر، وهو أن من لا يسمع سماع قبول لا يستجيب للإيمان وهم الكفار. وصار في الإخبار عن الجميع بالبعث والرجوع إلى جزاء اللَّه تعالى تهديد ووعيد شديد لمن لم يستجب. وتظافرت أقوال المفسرين أن قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يراد به الكفار. سموا بالموتى كما سموا بالصُّمِّ والبكم والعمي. وتشبيه الكافر بالميت من حيث إنّ الميت جسده خالٍ عن الروح، فيظهر منه النتن والصديد والقيح وأنواع العفونات، وأصلح أحواله دفنه تحت التراب، والكافر روحه خالية عن العقل، فيظهر منه جهله باللَّه تعالى، ومخالفاته لأمره، وعدم قبوله لمعجزات الرسل، وإذا كانت روحه خالية من العقل كان مجنونًا، فأحسن أحواله أن يقيَّد ويحبس. فالعقل بالنسبة إلى الرّوح كالروح بالنسبة إلى الجسد. وإذا كان المراد بالموتى هنا الكفار، فقيل: البعث: يراد به حقيقته من الحشر يوم القيامة، والرجوع: هو رجوعهم إلى سطوته وعقابه، قاله مجاهد وقتادة. وعلى هذا تكون هذه الجملة متضمنة الوعيد للكفار.

وقيل: الموت والبعث حقيقة، والجملة مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة»[١].

قال البقاعي: «ولما قرر أن من لا يؤمن كالميت؛ حثًّا على الإيمان وترغيبًا فيه، وقدر قدرته على البعث؛ خوَّف من سطواته بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي وحده ﴿يُرْجَعُونَ﴾ أي معنى في الدنيا، فإنه قادر على كل ما يشاء منهم، لا يخرج شيء من أحوالهم عن مراده أصلًا وحسًا بعد الموت، فيساقون قهرًا إلى موقف يفصل فيه بين كل مظلوم وظالمه»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية. قال جمهور علماء التفسير: المراد بالموتى في هذه الآية: الكفار، وتدل لذلك آيات من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٥] إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ١٢٣).
(٢) نظم الدرر (٧/ ١٠٢).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٤) فاطر: الآية (٢٢).
(٥) فاطر: الآية (٢٢).
(٦) أضواء البيان (١/ ٤٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾. .[1] الآيات.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[3]»[4].

قال السعدي: «﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المكذبون بالرسول، تعنتًا وعنادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[5] الآيات.

﴿قُلْ﴾ مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك. كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته، مذعنة لسلطانه؟!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم، لجهلهم وعدم علمهم، يطلبون ما هو شر لهم

---

(١) الإسراء: الآية (٩٠).
(٢) الإسراء: الآية (٥٩).
(٣) الشعراء: الآية (٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٨).
(٥) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

من الآيات، التي لو جاءتهم، فلم يؤمنوا بها، لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة اللَّه التي لا تبديل لها. ومع هذا، فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل؛ فقد أتى محمد ﷺ، بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به، عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب، أدنى شك وارتياب.

فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وإن اللَّه لسميع عليم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: وقال أولئك الظالمون لأنفسهم، الذين يجحدون بآيات ربهم، ويعاندون رسوله إليهم: هلا أنزل عليه، أي الرسول، آية من ربه، من الآيات المخالفة لسننه تعالى في خلقه، مما اقترحنا عليه، وجعلناه شرطا لإيماننا به؟ وقيل: إن مرادهم آية ملجئة إلى الإيمان، والإلجاء اضطرار لا اختيار، فلا يوجه إليه الطلب، ولا يعتد به إن حصل ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: قل أيها الرسول إن اللَّه تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا وإنما ينزلها إذا اقتضت حكمته تنزيلها، لا إذا تعلقت شهوتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فإن إجابة المعاندين إلى الآيات المقترحة لم يكن في أمة من الأمم سببا للهداية، وقد مضت سنته تعالى في الأقوام، بأن يعاقب المعجزين للرسل بذلك بعذاب الاستئصال، فتنزيل آية مقترحة لا يكون خيرا لهم بل هو شر لهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئًا من حكم اللَّه تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه، ولا أنك أرسلت رحمة للعالمين، فلا يأتي على يديك سبب استئصال أمتك، بإجابة المعاندين منها إلى ما اقترحوا عليك لإظهار عجزك، ولا يعلمون أيضًا أن إجابة اقتراح واحد يؤدي إلى اقتراحات كثيرة لا حد لها، ولا فائدة منها. وقد يعلم أفراد منهم بعض ذلك علمًا ناقصًا لا يهدي إلى الاعتبار، ولا يصد صاحبه عن مثل هذا الاقتراح. ومن قال: إنهم اقترحوا آية ملجئة يقول: ولكن أكثرهم لا يعلمون أن تنزيلها يزيل الاختيار الذي هو أساس التكليف، فلا يبقى لدعوة الرسالة فائدة...

هذا وإن بعض الكفار وبعض الشاكين والمشككين في الإسلام، يقولون: لو أن

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٣٩٤-٣٩٥).

محمدًا ﷺ أوتي آية بينة ومعجزة واضحة تدل على نبوته ورسالته؛ لما طلب قومه الآية، وأن هذا الجواب بقدرة الله على تنزيل الآية ونفي العلم عن أكثرهم؛ لا تقوم به الحجة عليهم المبطلة لحقية طلبهم. وإليك الجواب عن هذه الشبهة:

إن الآية الكبرى لخاتم الرسل ﷺ على نبوته هي القرآن، وإنها لآية مشتملة على آيات كثيرة، وقد احتج عليهم به وتحداهم بسورة من مثله فعجزوا، واحتج عليهم أيضًا ببعض ما اشتمل عليه من الآيات كأخبار الغيب. ومما نزل في ذلك قبل سورة (الأنعام) فاكتفي فيها بالإحالة عليه قوله تعالى في سورة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] فالقرآن في جملته آية علمية، وفي تفصيله آيات كثيرة عقلية وكونية، وهي دائمة لا تزول كما زالت الآيات الكونية كعصا موسى مثلا، عامة لا تختص ببعض من كان في عصر الرسول كما كانت آية موسى الكبرى خاصة بمن رآها في عصره، وهي أدل على الرسالة من الآيات الكونية؛ لأن موضوع الرسالة علمي، فهو علم موحى به غير مكسوب، يقصد به هداية الخلق إلى الحق، فظهور علوم الهداية على لسان أمي كان هو وقومه أبعد الناس عن كل علم، بعبارة أعجزت ببلاغتها قومه كما أعجزت غيرهم، على أنه لم يكن من قبل معدودًا من بلغائهم؛ أدل على كون ذلك موحى به من الله ﷻ من عصا موسى على كون ما جاء به من التوراة موحى به منه تعالى، وهي غير معجزة في نفسها، وقد نشأ من جاء بها في دار ملك أربى على سائر ممالك الأرض بالعلوم والشرائع.

فالآية العلمية القطعية لا يمكن المراء فيها كالمراء في الآية الكونية التي هي أمر غريب غير معتاد يشتبه بكثير من الأمور النادرة التي لها أسباب خفية كالسحر وغيره.. وأما طلبهم للآية والآيات، مع وجود هذه الآيات البينات، فسببه محاولة

(١) العنكبوت: الآيات (٤٧-٥١).

تعجيز الرسول، لا كونه هو الدليل الذي يرونه موصلًا إلى المدلول، وقد قال تعالى لرسوله في هذه السورة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وقال في أول سورة (القمر): ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2]، وأكثرهم يقول مثل هذا في كل آية كونية عن اعتقاد، وأما قول بعضهم: إن القرآن سحر يؤثر؛ فقد كان عن تضليل وعناد، على أن الله تعالى قد أيد رسوله بآيات أخرى غير الآيات التي اقترحها الجاحدون المعاندون؛ ازداد بها المؤمنون إيمانًا، والجاحدون عنادًا وطغيانًا»[3].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ذكر في هذه الآية الكريمة: أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وبين في موضع آخر: أن حكمة عدم إنزالها أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها؛ لنزل بهم العذاب العاجل؛ كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، فأخرجها الله لهم منها بقدرته ومشيئته، فعقروها ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[4]، فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[5]، وبين في مواضع أخر أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها وغيرها، وتلك الآية هي هذا القرآن العظيم؛ وذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[6]، فإنكاره -جل وعلا- عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة؛ يدل على أنه أعظم وأفخم من كل آية، وهو كذلك؛ ألا ترى أنه آية واضحة، ومعجزة باهرة، أعجزت جميع أهل الأرض، وهي باقية تتردد في آذان الخلق غضة طرية حتى يأتي أمر الله. بخلاف غيره من معجزات الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فإنها كلها مضت وانقضت»[7].

---

(١) الأنعام: الآية (٧).

(٢) القمر: الآية (٢).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٣٨٦-٣٨٩).

(٤) الأعراف: الآية (٧٧).

(٥) الإسراء: الآية (٥٩).

(٦) العنكبوت: الآية (٥١).

(٧) أضواء البيان (١/ ٤٧٧).

قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

الدابة : كل ما يدب على الأرض من الحيوان .

الأمم : جمع أمة ، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما .

يحشرون : يُجْمَعُونَ .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري : «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء المعرضين عنك ، المكذبين بآيات الله : أيها القوم! لا تحسبن اللّه غافلًا عما تعملون ، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون ، وكيف يغفل عن أعمالكم ، أو يترك مجازاتكم عليها ، وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الأرض صغير أو كبير ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء ، بل جعل ذلك كله أجناسا مجنسة ، وأصنافا مصنفة ، تعرف كما تعرفون ، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون ، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب ، ثم إنه -تعالى ذكره- مميتها ، ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها ، يقول : فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض والطير في الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها ، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب وحشرها ، ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء ؛ أحرى أن لا يضيع أعمالكم ، ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها إن خيرًا فخيرًا ، وإن شرًّا فشرًّا ، إذ كان قد خصكم من نعمه ، وبسط عليكم من فضله ما لم يعم به غيركم في الدنيا ، وكنتم بشكره أحق ، وبمعرفة واجبه عليكم أولى ؛ لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون ، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون . .

وأما قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في معنى حشرهم الذي عناه اللَّه تعالى في هذا الموضع، فقال بعضهم: حشرها: موتها.. وقال آخرون: الحشر في هذا الموضع يعني به: الجمع لبعث الساعة، وقيام القيامة..

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه تعالى أخبر أن كل دابة وطائر محشور إليه، وجائز أن يكون معنيًّا بذلك حشر القيامة، وجائز أن يكون معنيًّا به حشر الموت، وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعًا. ولا دلالة في ظاهر التنزيل، ولا في خبر عن النبي ﷺ: أي ذلك المراد بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إذ كان الحشر في كلام العرب: الجمع، من ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] يعني مجموعة. فإذ كان الجمع هو الحشر، وكان اللَّه تعالى جامعًا خلقه إليه يوم القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوب القول في ذلك: أن يعم بمعنى الآية ما عمه اللَّه بظاهرها، وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشور إلى اللَّه بعد الفناء، وبعد بعث القيامة، إذ كان اللَّه تعالى قد عم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ولم يخصص به حشرًا دون حشر»[2].

قال محمد رشيد رضا: «﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة ويساقون مجتمعين إلى ربهم المالك لأمرهم لا إلى غيره، فيحاسب كلاً على ما فعل، ويقتص للمظلوم ممن ظلم... ويؤيد حشر تلك الأمم كلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[3] وحديث أبي ذر عند أحمد وعبد الرزاق وابن جرير: أن رسول اللَّه ﷺ رأى عنزين ينتطحان فقال: **«يا أبا ذر هل تدري فيم ينتطحان؟ قال: لا. قال: لكن اللَّه يدري وسيقضي بينهما»**[4]»[5].

قال الرازي: «قال القاضي: إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار وبين أنهم يرجعون إلى اللَّه ويحشرون؛ بيّن أيضًا بعده بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في أنهم يحشرون. والمقصود: بيان أن الحشر والبعث كما هو

---

(١) ص: الآية (١٩).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٨٧-١٨٩).
(٣) التكوير: الآية (٥).
(٤) أخرجه: الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٥/ ١٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢) وقال: «رواه كله أحمد... ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، وفيها راوٍ لم يُسمَّ». وصحح إسناده في الصحيحة (٤/ ١١٧).
(٥) تفسير المنار (٧/ ٣٩٦).

حاصل في حق الناس؛ فهو أيضًا حاصل في حق البهائم»[١].

وقال ابن القيم: «قال مجاهد: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها.

وقال الزجاج ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في أنها تبعث. وقال ابن قتيبة: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة؛ لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة! وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر اللَّه عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، منعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق. وإذا كان الأمر كذلك؛ فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك، انتهى كلامه.

واللَّه سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالًا، وبعضها متوكلًا غير محتال. وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسُّبَ له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل بعض الحيوان يتمها من قبل أمهاتها، وبعضها يتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٢٢).

ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئًا، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحدًا يدنو منه، وبعضها يحب السفاد ويكثر منه، وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة، وبعضها يقتصر على أنثاه، وبعضها لا يقف على أنثى؛ ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا ترد يد لامس.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها ألبتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك ألبتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأتي لما تريده؛ ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثًا ولم يترك سدىً، وأن له سبحانه في كل مخلوق حكمة باهرة، وآية ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم»[1].

وقال القاسمي: «تنبيهات:

الأول: قال الزمخشري: إن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من

(١) شفاء العليل (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

عداهم من سائر الحيوان.

وقال الرازي: المقصود أن عناية اللَّه لما كانت حاصلة لهذه الحيوانات، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة لأظهرها، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية.

وقال القاضي: إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار، وبين أنهم يرجعون إلى اللَّه ويحشرون، بين بعده بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ إلخ، أن البعث حاصل في حق البهائم أيضًا..

الثالث: قال الزمخشري: إن قلت: كيف قيل: (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر؟ قلت: لما كان قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ﴾ دالًّا على معنى الاستغراق، ومغنيا عن أن يقال: وما من دواب ولا طير حمل قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ على المعنى.

الرابع: دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة، وجاء في الحديث: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**»[1]..

الخامس: ما ذكرناه في معنى مماثلة الأمم لنا من تدبيره تعالى لأمورها، وتكفله برزقها، وعدم إغفال شيء منها، مما يبين شمول القدرة، وسعة العلم -هو الأظهر. موافقة لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾..[2]- والقرآن يفسر بعضه بعضا. ونقل الواحدي عن ابن عباس أن المماثلة هي في معرفته تعالى، وتوحيده وتسبيحه وتحميده كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[3]، وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[4]. وعن أبي الدرداء قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه.

وقيل: المماثلة في أنها تحشر يوم القيامة كالناس.

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٦٧/ ٢٨٤٥)، والترمذي (٤/ ٦٦/ ١٤٨٦) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/ ٢١٠/ ٤٢٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٠٦٩/ ٣٢٠٥) من حديث عبد اللَّه بن مغفل ﷺ.

(٢) هود: الآية (٦).

(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

(٤) النور: الآية (٤١).

أقول: لا شك في صحة الوجهين بذاتهما، وصدق المثلية فيهما، ولكن الحمل عليهما يبعده عدم ملاقاته للآية الأخرى. فالأمسّ تأييدا للنظائر ما ذكرناه أولا - والله أعلم-.

السادس: ما بيناه في معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ في العرش، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام- هو الأظهر، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييدا للنظائر القرآنية. ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه على توسعه.

وقيل: المراد منه القرآن كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

قال الخفاجي: قيل: حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده. ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئًا من الحجج وغيرها إلا ذكرناه، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه، ويكذب بآياتنا؟ فالكلام بعضه آخذ بحجز بعض بلا شبهة.

وقال أبو السعود: أي ما تركنا في القرآن شيئًا من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته.

قال الشهاب في قول البيضاوي: «فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا أو مجملا»: يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن، لإشارته بنحو قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٢) إلى القياس، وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(٣) إلى السنة؛ بل قيل: إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه. كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى، أين ذكر في القرآن؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤) انتهى.

واستظهر الرازي أن المراد (بالكتاب) القرآن. واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن. فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن. إذا ثبت هذا، فلقائل أن يقول: كيف قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ

---

(١) النحل: الآية (٨٩).
(٢) الحشر: الآية (٢).
(٣) الحشر: الآية (٧).
(٤) النحل: الآية (٤٣).

مِن شَيۡءٖ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب، وتفاصيل علم الحساب، ولا تفاصيل كثير من المباحث، وليس فيه أيضًا تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع؟

والجواب: أن قوله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ يجب أن يكون مخصوصا ببيان الأشياء التي يجب معرفتها، والإحاطة بها، وبيانه من وجهين:

الأول: أن لفظ (التفريط) لا يستعمل نفيا وإثباتا، إلا فيما يجب أن يبين؛ لأن أحدا لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه.

الثاني: أن جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين، ومعرفة اللَّه، ومعرفة أحكام اللَّه. وإذا كان هذا التقييد معلوما من كل القرآن كان المطلق ههنا محمولا على ذلك المقيد.

أما قوله: إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع، فنقول: أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه؛ لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه. فأما روايات المذاهب، وتفاصيل الأقاويل فلا حاجة إليها. وأما تفاصيل علم الفروع، فقال العلماء: إن القرآن دل على أن الإجماع، وخبر الواحد، والقياس، حجة في الشريعة. فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة كان ذلك في الحقيقة موجودا في القرآن.

وذكر الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا المعنى أمثلة ثلاثة:

المثال الأول: روي أن ابن مسعود كان يقول: «مالي لا ألعن من لعنه اللَّه في كتابه؟» يعني: الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة.

وروي أن امرأة قرأت جميع القرآن، ثم أتته، فقالت: يا ابن أم عبد! تلوت البارحة ما بين الدفتين، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة! فقال: لو تلوتيه لوجدتيه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[1] وإن مما آتانا به رسول اللَّه أنه

---

(١) الحشر: الآية (٧).

قال: «لعن اللَّه الواشمة، والمستوشمة»[١].

قال الرازي: وأقول: يمكن وجدان هذا المعنى في كتاب اللَّه بطريق أوضح من ذلك؛ لأنه تعالى قال في سورة النساء: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾[٢] فحكم عليه باللعن، ثم عدد بعده قبائح أفعاله، وذكر من جملتها قوله: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[٣]. وظاهر هذه الآية يقتضي أن تغيير الخلق يوجب اللعن. انتهى.

قلت: وتتمة الحدود تؤيد ذلك أيضًا. ولفظه: لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق اللَّه -رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود-.

المثال الثاني: ذكر أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان جالسا في المسجد الحرام فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب اللَّه تعالى. فقال رجل: ما تقول في المُحْرِم إذا قتل الزنبور؟ فقال: لا شيء عليه. فقال: أين هذا في كتاب الله؟ فقال: قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[٤] ثم ذكر إسنادا إلى النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»[٥] ثم ذكر إسنادا إلى عمر رضي الله عنه أنه قال: للمحرم قتل الزنبور. قال الواحدي: فأجابه من كتاب اللَّه مستنبطا بثلاث درجات.

وأقول: ههنا طريق آخر أقرب منه، وهو أن الأصل في أموال المسلمين العصمة. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[٦] وقال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٣-٤٣٤)، والبخاري (١٠/ ٤٦٥/ ٥٩٤٨)، ومسلم (٣/ ١٦٧٨/ ٢١٢٥)، وأبو داود (٤/ ٣٩٧-٣٩٩/ ٤١٦٩)، والترمذي (٥/ ٩٦-٩٧/ ٢٧٨٢)، والنسائي (٨/ ٥٢٣-٥٢٤/ ٥١١٤)، وابن ماجه (١/ ٦٤٠/ ١٩٨٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) النساء: الآيتان (١١٧و١١٨).

(٣) النساء: الآية (١١٩).

(٤) الحشر: الآية (٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان: ١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧)، ووافقه الذهبي.

(٦) البقرة: الآية (٢٨٦).

أَمْوَٰلَكُمْ﴾[1] وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[2] فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة. وهذه العمومات تقتضي أن لا يجب على المحرم الذي قتل الزنبور شيء، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة.

المثال الثالث: قال الواحدي: روي في حديث العسيف الزاني أن أباه قال للنبي ﷺ: اقض بيننا بكتاب اللَّه. فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب اللَّه**. ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت»[3]. قال الواحدي: وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب. وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ فهو عين كتاب اللَّه. قال الرازي: وهذا حق؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، وكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلا تحت هذه الآية. انتهى.

وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة، والمجموع فيه أمور كليات؛ لأن الشريعة تمت بتمام نزوله، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال. وقد جوّد البحث في المسألة المهمة العلامة الشاطبي في (الموافقات) في الطرف الثاني في الأدلة على التفصيل فارجع إليه»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الحشر يشمل الخلائق كلها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[6].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال: «**يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل اللَّه أن يأخذ للجماء**

---

(١) محمد: الآية (٣٦). (٢) النساء: الآية (٢٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٥-١١٦)، والبخاري (١٢/ ١٦٥/ ٦٨٢٧-٦٨٢٨)، ومسلم (٣/ ١٣٢٤-١٣٢٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨)، وأبو داود (٤/ ٥٩١-٥٩٣/ ٤٤٤٥)، والترمذي (٤/ ٣٠/ ١٤٣٣)، والنسائي (٨/ ٦٣٢-٦٣٣/ ٥٤٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٢/ ٢٥٤٩) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما.

(٤) النحل: الآية (٤٤). (٥) محاسن التأويل (٦/ ٥١٣-٥٢١).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٠/ ٢٤٢٠).

من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فذلك: يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[(١)]»[(٢)].

★ غريب الحديثين:

يقاد: من القود؛ أي: القصاص.

الجماء: هي الجلحاء التي لا قرن لها.

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة، وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة؛ قال اللَّه تعالى ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾[(٣)] وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع؛ وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة»[(٤)].

وقال شيخ الإسلام: «وأما البهائم فجميعها يحشرها اللَّه سبحانه، كما دل عليه الكتاب والسنة: قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾[(٦)]، وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محالة. والأحاديث في ذلك مشهورة، فإن اللَّه ﷻ يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا، فتصير ترابًا، فيقول الكافر حينئذ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[(٧)]. ومن قال: إنها لا تحيا؛ فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافر، واللَّه أعلم»[(٨)].

---

(١) النبأ: الآية (٤٠).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٠٠)، وعنه ابن جرير (٧/ ١٨٨-١٨٩)، والحاكم (٢/ ٣١٦) وقال: «جعفر الجذري هذا هو ابن برقان؛ قد احتج به مسلم، وهو صحيح على شرطه ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) التكوير: الآية (٥).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١١٢).

(٥) التكوير: الآية (٥).

(٦) الشورى: الآية (٢٩).

(٧) النبأ: الآية (٤٠).

(٨) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: والذين كذبوا بحجج اللَّه وأعلامه وأدلته، صم عن سماع الحق، بكم عن القيل به، في الظلمات؛ يعني: في ظلمة الكفر حائر فيها يقول: هو مرتطم في ظلمات الكفر لا يبصر آيات اللَّه فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأه، فدبره وأحكم تدبيره وقدره أحسن تقدير، وأعطاه القوة وصحح له آلة جسمه لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدىً، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه دون معصيته وما يسخطه، فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردده في غمراتها، غافل عما اللَّه قد أثبت له في أم الكتاب، وما هو به فاعل يوم يحشر إليه مع سائر الأمم. ثم أخبر تعالى أنه المضل من يشاء إضلاله من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم، منهم من أحب هدايته، فموفقه بفضله وطوله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أم الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد، إلا من سبق له فيها الشقاء، وأن بيده الخير كله وإليه الفضل كله له الخلق والأمر»[1].

وقال القرطبي: «﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله. ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي على دين الإسلام لينفذ فيه فضله. وفيه إبطال لمذهب القدرية. والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ أي:

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٩٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٢).

والكفار الذين كذبوا بآياتنا المنزلة وما أرشدت إليه من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا تكذيب جحود واستكبار، أو تكذيب جمود على تقليد الآباء وطاعة الكبراء؛ صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع فهم وقبول، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ولا يقرون بما يدعوهم إليه الرسول، متسكعون -أو حال كونهم متسكعين خابطين- في تلك الظلمات الحالكة- ظلمة الشرك والوثنية، وظلمة تقاليد الجاهلية، وظلمة كبرياء العصبية، -وظلمات الجهل والأمية- ظلمات بعضها فوق بعض، لا ينفذ منها إليهم من نور الهداية شيء، فهم لا يبصرون صراطها، ولا يرون منهاجها، وذلك ما جنوه على أنفسهم بسوء اختيار الأفراد وفساد تربية المجموع، ولكل سيرة غاية تنتهي إليها بحسب سنن اللّه التي قضت بها حكمته ونفذت بها مشيئته ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي: من تعلقت مشيئة اللّه بإضلاله يضلله؛ كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم ولا أفواههم ولا عقولهم في آيات اللّه تعالى الدالة على حقية ما جاء به رسول اللّه ﷺ، وإنما إضلاله إياهم اقتضاء سننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم: أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه، واتباع من يراه مثله، وإن ظهر له أن الحق معه، وأن يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلان تقاليده وإثبات خلافها، ما دام مغرورًا بها، مكبرًا لمن جرى من الآباء والكبراء عليها، وليس معنى ذلك أن يخلق اللّه تعالى الضلال لمن شاء إضلاله خلقًا، ويجعله له غريزة وطبعًا، ولا أن يلجئه إليه إلجاءً، ويكرهه عليه إكراهًا، فيكون إعراضه عن الحق والخير وإقباله على الباطل والشر كحركة الدم في الجسد، وعمل المعدة في الهضم ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: ومن يشأ هدايته واستقامته يجعله على طريق مستقيم، وهو طريق الحق الذي لا يضل سالكه ولا ينجو تاركه، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله في آيات اللّه المنزلة وآياته المكونة، استعمالًا يعرف به الحق ويعترف به، ويعرف به الخير ويعمل به بحسب سننه ﷻ في الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد والوجدانات النفسية، وليس معناه أن يخلق له الهداية خلقا كما خلق روحه وبدنه ولا أنه يجبره عليها فيلصق به كارها غير مختار، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على أن مشيئة الإضلال إنما تتعلق بأصحاب الأعمال الكسبية التي هي الضلال أو سبب الضلال ومشيئة الهداية

تتعلق بما يقابل ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾(٣)، كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(٤)، فالجمع بين الآيات هو الموافق لفطر البشر وعقولهم؛ وإن خالف بعض نظريات المعتزلة والجبرية والأشعرية، فليس الإنسان خالقًا لأفعال نفسه مستقلاً بها دون مشيئة خالقه وسننه في خلقه، ولم يجعل الرب ما يصدر عن الناس من الإيمان والكفر والخير والشر من قبيل ما خلقه لهم من حركات دمائهم في أبدانهم، وأعمال معدهم وأمعائهم، ولا من قبيل حركات المرتعش منهم، فلا نغلوا في التنزيه والحكمة الإلهية غلوا نجعل به ضلال من ضل واقعًا بغير مشيئة اللَّه تعالى؛ مقدر المقادير وواضع السنن الحكيمة في الخلق كله، ولا نغلوا في المشيئة فنجعلها منافية للحكمة والرحمة، سالبة لما علم من فطرة اللَّه بالضرورة، وقد زعم بعض المعتزلة أن الآية في بيان ما يكون عليه الكافرون والمؤمنون في الآخرة كما قال في آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾(٥) قال: وإن المراد بالإضلال إضلالهم عن طريق الجنة جزاء لهم، ويقابله جعل المتقين على صراط موصل إلى الجنة. ويرد هذا التأويل ورود الآية في وصف حال المكذبين بآيات اللَّه في سياق إقامة الحجج عليهم، وليس فيها ذكر للآخرة ولا هي واردة في سياق الجزاء، وإسناد الإضلال إلى اللَّه تعالى لا يقتضي إخراجها عن ظاهرها، فمثله في القرآن كثير»(٦).

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٦).
(٤) المائدة: الآية (١٦).
(٥) الإسراء: الآية (٩٧).
(٦) تفسير المنار (٧/ ٤٠٢-٤٠٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعقِّب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: أتاكم هذا أو هذا؛ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدًا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم؛ كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] الآية»[2].

قال محمد رشيد رضا: «هذا قول مستأنف أمر اللَّه تعالى رسوله ﷺ: أن يوجهه إلى المشركين مذكرا إياهم بما أودع في فطرتهم من توحيده ﷻ؛ ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم ومخيلاتهم في وقت الرخاء وما يخف حمله من البلاء، حتى إذا ما نزل بهم ما لا يطاق من اللأواء، وأثار تقطع الأسباب في أنفسهم ضراعة الدعاء؛ دعوا اللَّه وحده مخلصين له الدين ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3]، وضل عنهم ما كانوا يدعون من الأصنام والأوثان، وما وضعت رمزًا له من ملك أو إنسان؛ لأن هذا دعاء القلب لا دعاء

---

(١) الإسراء: الآية (٦٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٥٠).

(٣) يونس: الآية (٢٢).

اللسان - ذكرهم بهذا بعد تذكيرهم بالمشابهة بين أمم الناس وأمم الحيوان، وحال من فسدت قواهم الفطرية من الناس».

إلى أن قال: «والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين: أرأيتم أنفسكم كيف تكون حالكم مع من تعبدون، أو أرأيتم ما تدعون من دون اللَّه، أي أخبروني عن رأيكم أو عن مبلغ علمكم في ذلك، إن أتاكم عذاب اللَّه الذي نزل بمن كان من أقوام الرسل قبلكم، كالريح الصرصر العاتية، والصاعقة أو الرجفة القاضية، ومياه الطوفان المغرقة، وحرارة الظلة المحرقة، أو أتتكم الساعة بمقدمات أهوالها، أو ما يلي البعث من خزيها ونكالها، أغير اللَّه في هذه الحالة تدعون؟ أم إلى غيره فيها تجأرون؟ إن كنتم صادقين في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء، الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء، أو إن كان من شأنكم الصدق فأخبروني أغير اللَّه تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين اللذين يحلو دونهما الأمرَّان؟ وذهب بعض المفسرين إلى كون متعلق الاستخبار محذوفا تقديره: أخبروني إن أتاكم ما ذكر من تدعون لكشفه أتخصون غير اللَّه بالدعاء، كما هو شأنكم وقت الرخاء؟ أم تخصونه وحده بالدعا، وتنسون ما اتخذتم من الشركا إذ يضل عنكم من ترجون من الشفعاء. ثم أجاب تعالى عنهم مخبرًا إياهم عما تقتضيه فطرتهم فقال: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: لا تدعون في تلك الحالة غيره لا وحده ولا معه، بل تخصونه وحده بالدعاء، ﴿فَيَكۡشِفُ﴾ أي: يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء؛ لأنه هو القادر عليه دون جميع العباد، وتنسون ما تشركون به الآن من الشفعاء والأنداد؛ لأن الفزع إليه سبحانه عند شدة الضيق واليأس من الأسباب مركوز في فطرة البشر، تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى طلب الغذاء عند الجوع مثلًا، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين غالبا إلا من تم فساد فطرته، وانتهت سفالة طينته، حتى كان كالأعجم، لا يفهم ولا يفهم، وإنما مثل تعاليم الشرك مع هذه الغريزة الفطرية كمثل ما كان عند المشركين من أحكام الطعام الباطلة مع غريزة التغذي، فإنهم كانوا يحرمون بعض الطيبات كالبحائر والسوائب، ويبيحون بعض الخبائث كالميتة والدم المسفوح، فيجنون على غريزة التغذي بأكل هذا والحرمان من ذاك، ثم يأكلون كل شيء عند الاضطرار، كذلك يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم

كله؛ بما يتخذون من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله، ويحبونهم كحب الله، ذلك الحب الذي منشؤه التقديس واعتقاد القدرة على النفع ودفع الضر من غير طريق الأسباب. فإنهم عند الشدة ينسونها ويدعون الله وحده.

ولهذا الاعتقاد وما يستلزمه من الحب والتعظيم ثلاث درجات: أسفلها وأعرقها في الجهل أن يعتقد في شيء من المخلوقات أنه هو الإله الذي ينفع ويضر بذاته، فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه حتى عند اشتداد البأس باكيًا متضرعًا؛ لأن غريزة الإيمان بالسلطة الغيبية حصرت عنده في هذا المخلوق أو هذه المخلوقات؛ كما تلقى عن قومه هو لا يفكر في كون ذلك معقولًا أو غير معقول، ويلي هذه الدرجة أن يعتقد أن الإله نفسه قد حل في بعض المخلوقات. واتحد بها كما تحل الروح في البدن وتدبره فيكونان بذلك شيئًا واحدا، والفصل بين هذه الدرجة وما قبلها هو أن هذه مفرغة في قالب من النظريات الفلسفية، مزينة بحلي وحلل من التخيلات الشعرية، وتلك ساذجة غفل من الفلسفة الجدلية، عطل من المزينات الخيالية. ويشتركان في أن منتحليهما يعبدون ذلك المخلوق المدرك بالحواس، ويدعونه تضرعًا وخفية حتى عند اشتداد الكرب والبأس، ووراءهما الدرجة الثالثة التي هي أرقى درجات الشرك؛ إذ هي أرقها وأضعفها، وهي أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، ولا يستطيع أحد من دونه شيئًا، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقربونهم إليه زلفى، ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويغفر ويرحم، ويوجد ويعدم، وهذه هي الدرجة التي ارتقت إليها وثنية مشركي قريش، فقد حكى الله تعالى عنهم في كتابه أنهم يقرون بأنه هو الخالق لكل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وأنهم يقولون فيما اتخذوه من دونه من الأولياء: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2]. فلما كانوا يعتقدون أن لهم تأثيرًا ووساطة في أفعال الله تعالى، كدفع الضر وجلب النفع، يدعونهم ويعظمونهم لأجلها؛ كان دعاؤهم وتعظيمهم إياهم عبادة، إذ لا معنى للعبادة

(١) الزمر: الآية (٣).

(٢) يونس: الآية (١٨).

إلا هذا. ولما كانوا عندهم غير مستقلين بذلك من دون اللَّه، وكان اللَّه تعالى بزعمهم غير فاعل ذلك بمحض إرادته الأزلية من دون شفاعتهم ووساطتهم سموا شركاء لله.

وأما التوحيد الخالص فهو الإيمان الجازم بأن اللَّه يفعل ما يشاء ويختار بمحض إرادته الأزلية المنزهة عن تأثير الحوادث فيها، وأن جميع الخلق مسخرون بإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئًا إلا في دائرة الأسباب التي جعلها بينهم شرعا، وأن الوساطة بين اللَّه تعالى وعباده محصورة في تبليغ رسالته إليهم دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده، يأذن لمن شاء إذا شاء بما شاء من الدعاء لمن يشاء ممن ارتضى. ومن دلائل ذلك قوله تعالى لخاتم رسله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[2]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4]، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[5]، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[6]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[7]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[8] إلخ.

ولما كانت تلك الوساطة الشركية وهمية لا أثر لها في الوجود، وإنما هي تقاليد موروثة؛ كان أولئك الأذكياء جديرين بأن ينسوها إذا جد الجد وعظم الخطب، كالحالتين اللتين ذكرهما اللَّه تعالى في هذه الآية أو ما دونهما، كالحالة التي بينها اللَّه تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[10]، ومثلها في سورة (يونس)، وقال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ

---

(١) آل عمران: الآية (١٢٨).
(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٨).
(٤) القصص: الآية (٥٦).
(٥) الجن: الآيات (٢١-٢٣).
(٦) الزمر: الآية (٤٤).
(٧) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٨) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٩) العنكبوت: الآية (٦٥).
(١٠) لقمان: الآية (٣٢).

﴿مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[1] فسروا الضلال هنا بالنسيان، فهو بمعنى الآية التي نفسرها، وأما ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة فقد ذكر في آيات كثيرة في سور متفرقة، ويراد ببعضها غيبتها عنهم بعدم وجودها معهم هنالك، وحرمانهم مما كانوا يرجون من شفاعتها، لا غيبتها عن قلوبهم وخواطرهم كما هو المراد هنا»[2].

وقال أيضًا: «وقد استشكل المفسرون ما دلت عليه الآية من جواز كشف عذاب الاستئصال، وعذاب الساعة عن المشركين بدعائهم؛ لمخالفتهم لما عرف من سائر النصوص مع قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[3] وأجيب بأن ما مضت به سنته تعالى في الأمم، وما دلت عليه النصوص؛ إنما يدل على عدم وقوع هذا الكشف، لا على عدم جوازه، وقد علق كشف ذلك هنا بمشيئته تعالى، فهو يقول: إنه يكشف ذلك إن شاء؛ لأن مشيئته نافذة، حتى في كشف عذاب الاستئصال وأهوال الساعة، وهما النوعان اللذان لا تتعلق قدر المخلوقين الموهوبة لهم من اللَّه تعالى بشيء من أمرهما؛ لأنهما فوق الأسباب التي سخرها اللَّه تعالى لخلقه، ولكنه تعالى لا يشاء ذلك لأنه ينافي حكمته وتقديره الذي جرت به سننه في الأمم»[4].

قال الرازي: «حاصل هذا الكلام: كأنه تعالى يقول لعبدة الأوثان: إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى اللَّه تعالى، لا إلى الأصنام والأوثان، فلم تقدمون على عبادة الأصنام التي لا تنتفعون بعبادتها ألبتة؟ وهذا الكلام إنما يفيد لو كان ذكر الحجة والدليل مقبولًا . أما لو كان ذلك مردودًا، وكان الواجب هو محض التقليد؛ كان هذا الكلام ساقطًا، فثبت أن هذه الآية أقوى الدلائل على أن أصل الدين هو الحجة والدليل واللَّه أعلم»[5].

وقال أبو حيان: «وهذه الآية عند علماء البيان من باب استدراج المخاطب، وهو أن يلين الخطاب ويمزجه بنوع من التلطف والتعطف حتى يوقع المخاطب في أمر يعترف به، فتقوم الحجة عليه، واللَّه تعالى خاطب هؤلاء الكفار بلين من القول

---

(١) الإسراء: الآية (٦٧).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤٠٦-٤١١).
(٣) الرعد: الآية (١٤).
(٤) تفسير المنار (٧/ ٤١١-٤١٢).
(٥) تفسير الرازي (١٢/ ٢٣٤-٢٣٥).

وذكر لهم أمرًا لا ينازعون فيه، وهو أنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا اللَّه لا غيره. وجواب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم أن غير اللَّه إله؛ فهل تدعونه لكشف ما يحل بكم من العذاب؟»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين إذا أتاهم عذاب من اللَّه، أو أتتهم الساعة؛ أخلصوا الدعاء الذي هو مخ العبادة لله وحده، ونسوا ما كانوا يشركون به، لعلمهم أنه لا يكشف الكروب إلا اللَّه وحده -جل وعلا-، ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله، ولم يبين هنا أيضًا إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على إخلاصهم، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم، ولكنه بين كل ذلك في مواضع أخر، فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك، كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٣] وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٥] إلى غير ذلك من الآيات. وبين أنهم إذا كشف اللَّه عنهم ذلك الكرب؛ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك في مواضع كثيرة كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٧] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات. وبين تعالى أن رجوعهم للشرك بعد أن نجاهم اللَّه من الغرق من شدة جهلهم، وعماهم:

---

(١) البحر المحيط (٤/ ١٣١).
(٢) يونس: الآيتان (٢٢ و ٢٣).
(٣) الإسراء: الآية (٦٧).
(٤) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٥) لقمان: الآية (٣٢).
(٦) الإسراء: الآية (٦٧).
(٧) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٨) الأنعام: الآية (٦٤).
(٩) يونس: الآية (٢٣).

لأنه قادر على أن يهلكهم في البر كقدرته على إهلاكهم في البحر، وقادر على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى، ويهلكهم فيه بالغرق، فجرأتهم عليه إذا وصلوا البر لا وجه لها؛ لأنها من جهلهم وضلالهم، وذلك في قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الإسراء: الآيتان (٦٨ و ٦٩).

(٢) أضواء البيان (٢/ ١٩٠-١٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البأساء: الشدة والمكروه. وقد تكون من البؤس وهو الفقر.

الضراء: الضر، خلافها السراء والنعماء.

يتضرعون: التضرع: التذلل والخضوع والاستكانة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما أقام لهم بهذه الآية على توحيده الدليل حتى استنارت السبل في تذكيرهم أن التضرع قد يكشف به البلاء؛ أخبرهم أن تركه يوجب الشقاء؛ ترغيبًا في إدامته، وترهيبًا من مجانبته؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ . . .»[1].

قال ابن جرير الطبري: «يقول -تعالى ذكره- متوعدًا لهؤلاء العادلين به الأصنام، ومحذرهم أن يسلك بهم إن هم تمادوا في ضلالهم سبيل من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا، ومخبرا نبيه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ يعني: إلى جماعات وقرون ﴿مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتلاء بالبأساء، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة، والضراء: وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام، . .

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إلي، ويخلصوا لي

(١) نظم الدرر (٧/ ١١٣).

العبادة، ويفردوا رغبتهم إلي دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة والاستكانة منهم إلي بالإنابة، وفي الكلام محذوف قد استغنى بما دل عليه الظاهر عن إظهاره من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم﴾، وإنما كان سبب أخذه إياهم تكذيبهم الرسل، وخلافهم أمره لا إرسال الرسل إليهم. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا فكذبوهم فأخذناهم بالبأساء..

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا أيضًا من الكلام الذي فيه متروك استغنى بدلالة الظاهر عن ذكر ما ترك، وذلك أنه -تعالى ذكره- أخبر عن الأمم التي كذبت رسلها، أنه أخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا، ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾، ولم يخبر عما كان منهم من الفعل عند أخذه إياهم بالبأساء والضراء. ومعنى الكلام: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلم يتضرعوا، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ ومعنى (فلولا) في هذا الموضع: فهلا... فتأويل الكلام إذًا: فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها، الذين لم يتضرعوا عند أخْذِناهم بالبأساء والضراء، تضرعوا فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه... ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصروا على ذلك واستكبروا عن أمر ربهم، استهانة بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوة قلب منهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول: وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرهها الله، ويسخطها منهم»[1].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية؛ تسلية للنبي ﷺ، وفيه إضمار، أي أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا، وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر تقديره: فكذبوا فأخذناهم.

وهذه الآية متصلة بما قبل، اتصال الحال بحال قريبة منها، وذلك أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٩٢-١٩٣).

ومعنى ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالمصائب في الأموال ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في الأبدان، هذا قول الأكثر، وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر، ويؤدب الله عباده بالبأساء والضراء وبما شاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

قلت: رحم الله أبا عبد الله القرطبي في رده على المتنطعين من الصوفية، الذين سلكوا مسالك ومناهج الهنود (اليوجا) الذين يعذبون أنفسهم بالسهر، والجوع، والسياحة في البراري، والدخول في الكهوف، وتفضيل الظلمات على النور، والعزوف عن النكاح الذي يعتبرونه من أكبر الصوارف عن العبادات، إلى غير ذلك من الأصول الكفرية التي هي معارضة لما جاء به القرآن، ولما جاءت به الكتب، وجرى عليه النبيون عليهم الصلاة السلام، والصحابة رضوان الله عليهم، وإن شئت أن تنظر إلى تفاصيل هذه الأصول الضالة فاقرأ ما كتبه أبو حامد الغزالي فيما سماه: «إحياء علوم الدين»، وقد تبرأ من ذلك في آخر حياته عند مماته، كما أثبتت ذلك في كتابي «الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين» فهو كتاب نافع بإذن الله، بينت فيه مهاترات بعض الصوفية؛ في مدحهم لهذا الكتاب الذي هو أضر على هذه الأمة من ألف جيش يغزوها في ديارها.

قال ابن عطية: استدل العباد في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال، والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعري بهذه الآية.

قلت: هذه جهالة ممن فعلها، وجعل هذه الآية أصلا لها، هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها، فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة، وفي التنزيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾[2]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[3] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾[4] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا..

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٢) المؤمنون: الآية (٥١).
(٣) البقرة: الآية (٢٦٧).
(٤) البقرة: الآية (١٧٢).

ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان اللّه تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والأنعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها -إلى غير ذلك مما امتن به- كبير فائدة، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول اللّه ﷺ وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدم في آخر (البقرة) بيان فضل المال ومنفعته والرد على من أبى من جمعه، وقد نهى النبي ﷺ عن الوصال مخافة الضعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردا على الأغنياء الجهال»[1].

قال محمد رشيد رضا: «معنى الآية: نقسم أننا قد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك، فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا، فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء بالبأساء والضراء؛ ليكون ذلك معدا لهم للإيمان لما يترتب عليه بحسب طباع البشر وأخلاقهم؛ من التضرع والجؤار بالدعاء لربهم، إذ مضت سنتنا بجعل الشدائد مربيا للناس، بما ترجع المغرورين عن غرورهم، وتكف الفجار عن فجورهم، فما أجدرها بإرجاع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر وما دونهم من الأصنام، ولكن من الناس من يصل إلى غاية من الشرك والفسق لا يزيلها بأس ولا يزلزلها بؤس، فلا تنفع معهم العبر، ولا تأثر فيهم الغير، وكان أولئك الأقوام منهم، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾. جعل ابن جرير (لولا) هنا للتحضيض بمعنى (هلا)، وجعلها الجمهور نافية؛ أي: فهلا تضرعوا خاشعين لنا تائبين إلينا، عندما جاءهم البئيس من عذابنا، فرأوا بوادره، وحذروا أواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم؟ أو فما خشعوا ولا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فكانت أقسى من الحجر، إذ لم تؤثر بها النذر ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي بما يوسوس إليهم من تحسين الثبات على ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وتقبيح الطاعة والانقياد إلى رجل منهم لا مزية له عليهم»[2].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٤-٤٢٥).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤١٣-٤١٤).

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

بغتة: فجأة.

المُبْلِسُ: الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جوابا لشدة ما نزل به من سوء الحال.

دابر القوم: الدابر: الآخر ودابر القوم ما يخلفهم من نسْلِهم. والمعنى: اسْتُؤْصِلُوا وأُهْلِكوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معنى ذلك: فتحنا عليهم استدراجًا منا لهم أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء، ليتضرعوا، إذ لم يتضرعوا، وتركوا أمر الله؛ لأن آخر هذا الكلام مردود على أوله، وذلك كما قال تعالى في موضع آخر من كتابه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] ففتح اللَّه على القوم الذين ذكر في هذه الآية ذكرهم بقوله ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هو تبديله لهم مكان السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة، ومن الضر في الأجسام إلى الصحة والعافية، وهو فتح أبواب كل شيء كان أغلق بابه عليهم..

---

(١) الأعراف: الآيتان (٩٤ و ٩٥).

يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: فاستؤصل القوم الذين عتوا على ربهم، وكذبوا رسله، وخالفوا أمره عن آخرهم، فلم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتة، إذ جاءهم عذاب الله. . .

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: والثناء الكامل، والشكر التام لله رب العالمين على إنعامه على رسله وأهل طاعته، بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق عدتهم ما وعدهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسله، من نقم الله وعاجل عذابه»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: فلما أعرضوا عما أنذرهم ووعظهم به الرسل، وتركوا الاهتداء به حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم؛ بلوناهم بالحسنات بما فتحنا عليهم من أبواب كل شيء من أنواع سعة الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام، والأمن على الأنفس والأموال، كما قال تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، فلم يتربوا بالنعم، ولا شكروا المنعم، بل أفادتهم النعم فرحا وبطرا، كما أفادتهم الشدائد قسوة وأشرًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ منها، وفسقوا عن أمر ربهم بطرًا وغرورًا بها ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم، أو حال كونهم مبغوتين إذ فجأهم على غرة من غير سبق أمارة ولا إمهال للاستعداد أو للهرب، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: متحسرون يائسون من النجاة، أو هالكون منقطعة حججهم. . .

والآية تفيد أن البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء، مما يتربى ويتهذب به الموفقون من الناس، وإلا كانت النعم أشد وبالًا عليهم من النقم، وهذا ثابت بالاختيار، فلا خلاف في أن الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعًا في صحيح مسلم: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٩٣-١٩٦).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٨).

أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[١]. . .

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ أي: فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل، والإصرار على الشرك وأعماله، واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد، كنى عن ذلك بقطع دابرهم، وهو آخر القوم الذي يكون في أدبارهم. وقيل: دابرهم: أصلهم، وهو مروي عن السدي من المفسرين والأصمعي من نقلة اللغة، والأول أظهر، والمعنى على القولين واحد، ووضع المظهر الموصوف بالموصول موضع المضمر للإشعار بعلة الإهلاك وسببه وهو الظلم، ولا بد من زهوق الباطل فظهور الحق.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: والثناء الحسن في ذلك الذي جرى من نصر اللَّه تعالى لرسله بإظهار حججهم، وتصديق نذرهم، وإهلاك المشركين الظالمين، وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم، ثابت ومستحق لله رب العالمين المدبر لأمورهم المقيم لأمر اجتماعهم، بحكمته البالغة، وسننه العادلة. فهذه الجملة بيان للحق الواقع من كون الحمد والثناء على ذلك مستحق لله تعالى وحده، وإرشاد لعباده المؤمنين، يذكرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وحمده في عاقبة كل أمر، وخاتمة كل عمل. كما قال في عباده المتقين ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] وسواء كان ذلك الأمر الذي تم من السراء أو الضراء. فإن للمتقين في كل منهما عبرة وفائدة، ونعمة ظاهرة أو باطنة»[٣].

قال الرازي: «واعلم أن قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ معناه: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقًا عنهم من الخير، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أي: حتى إذا ظنوا أن الذي نزل بهم من البأساء والضراء ما كان على سبيل الانتقام من اللَّه. ولما فتح اللَّه عليهم أبواب الخيرات ظنوا أن ذلك باستحقاقهم؛ فعند ذلك ظهر أن قلوبهم قست وماتت، وأنه لا يرجى لها انتباه بطريق من الطرق، لا جرم فاجأهم اللَّه بالعذاب من حيث لا يشعرون. قال الحسن: في هذه الآية مكر بالقوم ورب

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

(٢) يونس: الآية (١٠).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٤١٤-٤١٦).

الكعبة. وقال ﷺ: «إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله تعالى» ثم قرأ هذه الآية. قال أهل المعاني: وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة؛ ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية»[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «فيه وجوه:

الأول: معناه أنه تعالى حمد نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم؛ لأن ذلك كان جاريًا مجرى النعمة العظيمة على أولئك الرسل في إزالة شرهم عن أولئك الأنبياء.

والثاني: أنه تعالى لما علم قسوة قلوبهم لزم أن يقال: إنه كلما ازدادت مدة حياتهم ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم، فكانوا يستوجبون به مزيد العقاب والعذاب، فكان إفناؤهم وإماتتهم في تلك الحالة موجبا أن لا يصيروا مستوجبين لتلك الزيادات من العقاب، فكان ذلك جاريًا مجرى الإنعام عليهم.

والثالث: أن يكون هذا الحمد والثناء؛ إنما حصل على وجود إنعام الله عليهم في أن كلفهم وأزال العذر والعلة عنهم، ودبرهم بكل الوجوه الممكنة في التدبير الحسن، وذلك بأن أخذهم أولا بالبأساء والضراء، ثم نقلهم إلى الآلاء والنعماء، وأمهلهم وبعث الأنبياء والرسل إليهم، فلما لم يزدادوا إلا انهماكا في الغي والكفر؛ أفناهم الله وطهر وجه الأرض من شرهم، فكان قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على تلك النعم الكثيرة المتقدمة»[2].

وقال القاسمي: «قال الناصر في «الانتصاف»: ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[3] فيمن وقف ههنا، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين. ومنهم من وقف على ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه ﷻ خير مما يشركون. فعلى الأول يكون الحمد ختما، وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعا، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحا لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه حتما، إذ لا يقتضي السياق غير ذلك. انتهى.

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٣٧). (٢) تفسير الرازي (١٢/ ٢٣٨).
(٣) النمل: الأيتان (٥٨و٥٩).

قلت: إذا جرينا على ما هو الأسَدّ في الآي من توافق النظائر اقتضى حمل آية النمل على ما هنا، وادعاء الأظهرية فيها ممنوع، فإن التنزيل يفسر بعضه بعضًا. فتأمل»[(١)].

وقال أبو حيان: «والذي ظهر أنه تعالى لما أرسل الرسل إلى هؤلاء الأمم كذبوهم، وآذوهم، فابتلاهم اللَّه تارة بالبلاء، وتارة بالرخاء، فلم يؤمنوا، فأهلكهم، واستراح الرسل من شرهم، وتكذيبهم، وصار ذلك نعمة في حق الرسل. إذ أنجز اللَّه وعده على لسانهم بهلاك المكذبين. فناسب هذا الفعل كله الختم بالحمدلة»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «وفي ذلك كله تنبيه على أنه يحقّ الحمد لله عند هلاك الظلمة؛ لأنّ هلاكهم صلاح للناس، والصلاح أعظم النعم، وشكر النعمة واجب. وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة. وإنّما كان هلاكهم صلاحًا لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة، فإذا تغير الحقّ والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم، فإذا هلك الظالمون عاد العدل، وهو ميزان قوام العالم»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستدراج

* عن عقبة بن عامر ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت اللَّه يعطي العبد من الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب؛ فإنما هو استدراج**»، ثم تلا رسول اللَّه ﷺ: «﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٤)] الآية، والآية التي بعدها.

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٥٣١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥)، وابن جرير (٧/ ١٩٥)، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٨/ ٤٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (١٠/ ١٢٥-١٢٦/ ٩٢٦٨) واللفظ له، وفي الكبير (١٧/ ٣٣٠-٣٣١/ ٩١٣ و٩١٤) من طرق عن عقبة بن عامر. قال العراقي في تخريج الإحياء (٥/ ٢١٧٢/ ٣٤٢٧): «رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن».

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «ومعنى استدراج الله: استدراجهم قليلًا قليلًا إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم. وذلك أن تواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيستدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم؛ ظانين أن تواتر النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد. وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ واجمون متحسرون آيسون»[1].

وقال المناوي: «(استدراج) أي: أخذ بتدريج واستنزال من درجة إلى أخرى، فكلما فعل معصية قابلها بنعمة وأنساه الاستغفار، فيدنيه من العذاب قليلًا قليلًا، ثم يصبه عليه صبًّا. قال إمام الحرمين: إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم في النار؛ فلا تأمن على نفسك، فإن الأمر على خطر، فلا تدري ماذا يكون وما سبق لك في الغيب، ولا تغتر بصفاء الأوقات، فإن تحتها غوامض الآفات. وقال علي ﷺ: كم من مستدرج بالإحسان، وكم من مفتون بحسن القول فيه. وكم من مغرور بالستر عليه. وقيل لذي النون: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] وفي الحكم: خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه؛ أن يكون ذلك استدراجًا. والاستدراج: الأخذ بالتدريج لا مباغتة. والمراد هنا تقريب الله العبد إلى العقوبة شيئًا فشيئًا، واستدراجه تعالى للعبد: أنه كلما جدد ذنبًا، جدد له نعمة، وأنساه الاستغفار، فيزداد أشرًا وبطرًا، فيندرج في المعاصي بسبب تواتر النعم عليه؛ ظانًّا أن تواترها تقريب من الله، وإنما هو خذلان وتبعيد»[3].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٩٧).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٢).

(٣) فيض القدير (١/ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصدفون: صدف عن الشيء: إذا مال وأعرض عنه. أي: مائلون معرضون عن الحجج والدلالات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام، المكذبين بك: أرأيتم أيها المشركون بالله غيره؛ إن أصمكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فطبع عليها حتى لا تفقهوا قولًا ولا تبصروا حجة، ولا تفهموا مفهومًا، أيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يأتيكم به، يقول: يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام؛ فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى رده عليكم إذا شاء. وهذا من الله تعالى تعليم نبيه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء. ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينيبوا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر عن الاذكار والاعتبار يعرضون»[1].

(١) جامع البيان (٧/ ١٩٦).

وقال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار، وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب، فالأذن محل القوة السامعة، والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم. فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان، وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين. ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله. وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله ﷻ فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى، وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «إن القول في مناسبة هذه الآيات لما قبلها كالقول فيما قبلها سواء، فهي ضرب من ضروب الدعوة إلى التوحيد والرسالة بوجه آخر من وجوه الاحتجاج، قال تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت من التوحيد والهدى: أرأيتم ماذا يكون من شأنكم مع آلهتكم الذين تدعونهم؛ راجين شفاعتهم إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم وألبابكم التي هي مراكز الفهم والشعور والعقل من أنفسكم، فأصبحتم لا تسمعون قولًا ولا تبصرون طريقًا، ولا تعقلون نفعًا ولا ضرًا، ولا تدركون حقًا ولا باطلًا، من إله غير الله يأتيكم بذلك، أو بما ذكر مما أخذ الله منكم؟ أي: لا إله غيره فيقدر على إتيانكم به، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء آلهة لقدروا على ذلك، وإذ كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون، فلماذا تدعونهم والدعاء عبادة لا يكون إلا للإله القدير؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: انظر كيف ننوع الحجج والبينات الكثيرة ونجعلها على وجوه شتى ليتذكروا ويقتنعوا، فينيبوا ويرجعوا، ثم هم يعرضون عنها، ويتجنبون التأمل فيها...

والعطف بـ(ثم) يفيد الاستبعاد؛ لأن تصريف الآيات والدلائل سبب غاية الإقبال، فكان من المستبعد في المعتاد والمعقول أن يترتب عليه منتهى الإعراض»[٢].

---

(١) تفسير الرازي (١٢/ ٢٣٨).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٤١٧-٤١٨).

قال محمد تقي الدين الهلالي: «إيجاد المخلوقين كلهم، واستمرار وجودهم، وإمدادهم بالقوى التي يحتاجون إليها من سمع وبصر وعقل وحركة وفهم وعلم، كل ذلك بيد اللَّه، فمن علم وتيقن أن ذلك بيد اللَّه، لم يخف مخلوقًا، ولم يرغب مخلوقًا، ولم يتوجه إلى مخلوق بطلب، ومن أشرك مع اللَّه غيره، يتشتت همه، ويتوجه قلبه إلى غير اللَّه تعالى من المعبودين، فيخسر في دنياه وفي أخراه، فمن خاف اللَّه وحده خوف اللَّه منه كل شيء، ومن خاف غير اللَّه ورجا غير اللَّه ولم يخف الله؛ خوفه اللَّه من كل شيء، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في أخذ السمع والأبصار وجهين؛ أحدهما: أن تذهب أسماعهم والأبصار فيصيرون عميًا وصمًّا. والثاني: أن يحرموا الانتفاع الشرعي بالسمع والبصر، فينتفعون بأسماعهم وأبصارهم في أمور دنياهم، ولا ينتفعون بها في أمور دينهم.

أقول: لا مانع أن يراد المعنيان جميعًا؛ لأن اللَّه تعالى يملكهما جميعًا كما يملك القلوب من كل وجه»[1].

وقال القاسمي: «تنبيهات: الأول: إما مطلق الدلائل، أو الدلائل القرآنية مطلقا، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا، أو ما ذكر قبل هذا من المقدمات العقلية الدالة على وجود الصانع وتوحيده المشار إليها بقوله: ﴿إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الآية. ومن الترغيب بقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾[2] والترهيب بقوله: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ الآية. ومن التنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ذهب إلى كل بعض من المفسرين، وعموم اللفظ يصدق على ذلك كله بلا تدافع.

الثاني -قال بعض المفسرين من الزيدية-: دلت الآية على جواز الاحتجاج في أمر الدين. انتهى. وهو ظاهر.

الثالث: -المقصود من هذه الآية: بيان أن القادر على تحصيل هذه القوى الثلاث، وصونها عن الآفات، ليس إلا اللَّه تعالى. وإذا كان الأمر كذالك كان المنعم بهذه النعم العالية، والخيرات الرفيعة هو اللَّه تعالى. فوجب أن يقال: المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا اللَّه تعالى. وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة»[3].

---

(١) سبيل الرشاد (١/ ١٦٤).
(٢) الأنعام: الآية (٤١).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «هذا تهديد ثالث فالأول: بأحد أمرين: العذاب والساعة، والثاني: بالأخذ والختم، والثالث: بالعذاب فقط»[1].

وقال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، المكذبين بأنك لي رسولي إليهم: أخبروني إن أتاكم عذاب اللَّه وعقابه، على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إياي، بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي ﴿بَغْتَةً﴾ يقول: فجأة على غرة لا تشعرون ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ يقول: أو أتاكم عذاب اللَّه وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول: هل يهلك اللَّه منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، وترك عبادة من يستحق علينا العبادة»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الظالمين: أرأيتكم أنتم أنفسكم كيف يكون شأنكم؟ أو أخبروني عن مصيركم إن أتاكم عذاب اللَّه الذي مضت سنته في الأولين، بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين، مباغتًا ومفاجئًا لكم، أو إتيان مباغتة فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارة تشعركم بقرب نزوله بكم، أو أتاكم ظاهرًا مجاهرًا، أو إتيان جهرة بحيث ترون مباديه ومقدماته بأبصاركم، هل يهلك به إلا القوم الظالمون منكم، وهم المصرون على الشرك وأعماله عنادًا وجحودًا، إذ مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب أن ينجي منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين، فكأنه قال: لا يهلك به غيركم، وإنما تهلكون

---
(١) البحر المحيط (٤/ ١٣٦).
(٢) جامع البيان (٧/ ١٩٧-١٩٨).

بظلمكم لأنفسكم وجنايتكم عليها»[١].

وقال شيخنا محمد تقي الدين الهلالي: «ذكر اللَّه تعالى في الآية الثانية نوعين من العذاب؛ أحدهما يأتي بغتة، والآخر يأتي جهرة، والعذاب الذي أصاب المسلمين في هذا الزمان وجللهم خزيًا وعارًا في قضية فلسطين والاستعمار، وتسلط أعداء الإسلام عليهم من الداخل والخارج يسومونهم سوء العذاب من النوع الذي جاء جهرة، ومع ذلك لا يزالون معرضين عن اللَّه، عن شرعه وتوحيده وطاعته واتباع رسوله ﷺ، فنسأل اللَّه العافية»[٢].

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ٤١٨).
(٢) سبيل الرشاد (١/ ١٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾

★غريب الآية:

يفسقون: الفسق: الخروج. يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. وهو عبارة عن الخروج عن الطاعة وهي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات. ولهذا قال ﷻ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعاته، وارتكبوا محارمه ومناهيه، وانتهاك حرماته»(١).

قال السعدي: «يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين؛ أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمنذر والمنذر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة. ولكن الناس انقسموا بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها إلى قسمين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٣).

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، ويذوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾»[1].

قال محمد رشيد رضا: «أي: تلك سنتنا في إهلاك المكذبين للرسل: ما نرسل المرسلين إليهم إلا مبشرين من آمن وأصلح عملًا بالجزاء الحسن اللائق بهم، ومنذرين من أصر على الشرك والإفساد في الأرض بالجزاء السيئ الذي يستحقونه ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله للكافرين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله تعالى على شيء فاتهم؛ لأن الله تعالى يقيهم من كل فزع ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2]، وهم الذين قال فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[4] ولك أن تقول: إن هؤلاء الكملة لا يحزنون في الدنيا أيضًا مما يحزن منه الكفار والفساق، كفوات شهوات الدنيا ولذاتها، أو لا يكون حزنهم كحزنهم في شدته وطول أمده، فإنهم إذا عرض لهم الحزن لسبب صحيح كموت الولد والقريب والصديق، أو فقد المال وقلة النصير يكون حزنهم رحمة وعبرة، مقرونا بالصبر وحسن الأسوة، لا يضرهم في أنفسهم ولا أبدانهم، ولا يغير شيئًا من عاداتهم وأعمالهم. فالإيمان بالله يعصمهم من إرهاق البأساء والضراء، ومن بطر السراء والنعماء؛ عملًا بقوله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[5].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل؛ يصيبهم العذاب في الدنيا أحيانًا، ولاسيما عند الجحود

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٠١).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٣).
(٣) القيامة: الآيتان (٢٢ و ٢٣).
(٤) عبس: الآيتان (٣٨ و ٣٩).
(٥) الحديد: الآيتان (٢٢ و٢٣).

والعناد، الذي يكون من المجموع دون بعض الأفراد، وفي الآخرة على سبيل الشمول والاطراد، وذلك بسبب فسقهم؛ أي: كفرهم وإفسادهم، فهؤلاء قد ذكروا في مقابل الذين آمنوا وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم ومعاملاتهم، فالتكذيب يقابل الإيمان، والفسق يقابل الإصلاح، وإن كان أعم منه في اللغة والاصطلاح، فهو يطلق على الكفر والخروج من الطاعة»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ٤١٨-٤١٩).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الخزائن: جمع خزانة وهي موضع الخَزْن، والخزن هو ستر الشيء وحفظه، ومنه خازن المال: أي حافظه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل لهؤلاء المنكرين نبوتك: لست أقول لكم: إني الرب الذي له خزائن السموات والأرض، وأعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الرب، الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو اللَّه الذي لا إله غيره. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾؛ لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يقول: قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم، وأدعوكم إليه إلا وحي اللَّه الذي يوحيه إلي، وتنزيله الذي ينزله علي، فأمضي لوحيه، وأأتمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من اللَّه عذركم على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم، ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم لذلك؟! وذلك تنبيه من اللَّه تعالى نبيه ﷺ على موضع حجته على منكري نبوته من مشركي قومه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق والبصير به، والأعمى هو الكافر الذي قد عمي عن حجج اللَّه فلا يتبينها فيتبعها. والبصير: المؤمن الذي قد أبصر آيات اللَّه وحججه، فاقتدى بها، واستضاء بضيائها ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات

الله: أفلا تتفكرون فيما أحتج عليكم به أيها القوم من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول، وأدعوكم إليه؛ من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربكم، وتكذيبكم إياي، مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون»[١].

وقال ابن عطية: «هذا من الرد على القائلين لولا أنزل عليه آية، والطالبين أن ينزل ملك، أو تكون له جنة، أو أكثر أو نحو هذا، والمعنى: لست بهذه الصفات فيلزمني أن أجيبكم باقتراحاتكم، وقوله: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ يحتمل معنيين: أظهرهما أن يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله، ولا من قدرته، ولا يعلم شيئًا مما غيب عنه. والآخر أنه ليس بإله، فكأنه قال: لا أقول لكم إني أتصف بأوصاف إله في أن عندي خزائنه، وأني أعلم الغيب، وهذا هو قول الطبري، وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية الملك أفضل من البشر، وليس ذلك بلازم من هذا الموضع، وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعًا في نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاء خفيًا وهو ظاهر من آيات آخر، وهي مسألة خلاف، و﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ يريد القرآن وسائر ما يأتي به الملك، أي وفي ذلك عبر وآية لمن تأمل ونظر، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ الآية، أي قل لهم: إنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات أو المعرض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر، أي ففكروا أنتم وانظروا، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض»[٢].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عطف على ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فهو في حيّز القول المنفي. وأعيد حرف النفي على طريقة عطف المنفيات بعضها على بعض، فإنّ الغالب أن يعاد معها حرف النفي؛ للتنصيص على أنّ تلك المتعاطفات جميعها مقصودة بالنفي بآحادها، لئلاّ يتوهّم أنّ المنفي مجموع الأمرين. والمعنى لا أقول أعلم الغيب، أي علمًا مستمرًا ملازمًا لصفة الرسالة. فأمّا إخباره عن بعض المغيّبات فذلك عند إرادة الله إطلاعه عليه بوحي خاصّ، كما

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٣٧٧-٣٧٢) (شاكر).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٢٩٣-٢٩٤).

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[١] وهو داخل تحت قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾.

وعطف: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ على ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ﴾ بإظهار فعل القول فيه، خلافًا لقوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لعلَّه لدفع ثقل التقاء حرفين: (لا) وحرف (إنّ) الذي اقتضاه مقام التأكيد؛ لأنّ ادّعاء مثله من شأنه أن يؤكّد، أي لم أدّع أنِّي من الملائكة فتقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌۖ﴾[٢]، فنفي كونه ملكًا جواب عن مقترحهم أن ينزَل عليهم ملك، أو أن يكون معه ملك نذيرًا. والمقصود نفي أن يكون الرسول من جنس الملائكة حتى يكون مقارنًا لمَلك آخر مقارنة تلازم كشأن أفراد الجنس الواحد. وكانوا يتوهَّمون أنّ الرسالة تقتضي أن يكون الرسول من غير جنس البشر، فلذلك قالوا: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[٣]. فالمعنى نفي ماهية المَلَكية عنه؛ لأنّ لجنس الملك خصائص أخرى مغايرة لخصائص البشر. وهذا كما يقول القائل لمن يكلِّفه عنتًا: إنِّي لست من حديد.

ومن تلفيق الاستدلال أن يستدلّ الجُبائي بهذه الآية على تأييد قول أصحابه المعتزلة بتفضيل الملائكة على الأنبياء مع بُعد ذلك عن مهيع الآية. وقد تابعه الزمخشري، وكذلك دأبه كثيرًا ما يُرْغِم معاني القرآن على مسايرة مذهبه فتنزو عصبيته وتَنْزوي عبقريته»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «أي: قل أيها الرسول الذي لم يبعث إلا كما بعث غيره من الرسل؛ مبشرًا من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذرًا من ردها سوء العقاب؛ لهؤلاء الكفار المشاغبين لك بغير علم يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة الرسالة، الذين يقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أن البشر لا يقدرون عليه؛ لأنهم -وإن قالوه تعجيزًا- يتوهمون أن الرجل من البشر لا يكون رسولًا إلا أن يخرج من حقيقة البشرية، ويصير إلهًا قادرًا على ما لا يقدر عليه البشر، وعالمًا بكل ما يعجز عن علمه البشر، وإن لم يكن من موضوع الرسالة التي عهد إليه أمر تبليغها، أو يصير ملكًا من الملائكة في متعلق قدرته ومتناول علمه؛ لأن أمر

---

(١) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٢) الأنعام: الآية (٨).
(٣) الفرقان: الآية (٧).
(٤) التحرير والتنوير (٧/ ٢٤١-٢٤٢).

الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم. قل لهؤلاء: لا أقول لكم عندي خزائن اللّه أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، بمعنى المخزونات.. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] يتصرف فيها كما يشاء، ولا يقدر أحد من خلقه على التصرف في شيء منها إلا ما أعطاه تعالى إياه، ومكنه من التصرف فيه، والمتصرف بما يعطي من الخزانة لا يكون متصرفًا في الخزانة نفسها، فالمستخدمون عند الملك أو الرجل الغني يعطون أجورهم من خزانته، فيتصرفون فيها دون الخزانة، وجميع الأحياء العاملين يتصرفون بما يعطيهم اللّه تعالى من خزائن الموجودات، كل بحسب ما أوتي من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد منهم أن يتجاوز إلى ذلك ما لم يؤته ولم يصل إليه استعداده، فالتصرف المطلق في كل شيء، إنما هو لله القادر على كل شيء، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عن اللّه تعالى أمر دينه قادرًا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب؛ فضلًا عن التصرف الذاتي بغير سبب الذي طلبه المشركون منه، وجعلوه شرطًا للإيمان له، كتفجير الينابيع والأنهار من أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفًا، والإتيان باللّه والملائكة قبيلًا، وغير ذلك مما اقترحوه وحكاه اللّه تعالى عنهم في سورة (الإسراء) وغيرها.

بدأ بنفي القدرة على التصرف فيما ليس من شأن البشر التصرف فيه؛ لعدم تسخير اللّه تعالى إياه لهم بإقدارهم على أسبابه. وثنى بنفي علم الغيب الخاص باللّه تعالى فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، وهو ما حجب اللّه علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به؛ ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة؛ لأنها لم تخلق مستعدة لإدراكه ولا لطرق الاستدلال عليه، أو لأنها مستعدة له بالقوة غير متمكنة من أسبابه بالفعل كعالم الآخرة، فالغيب من جنس المعلومات، كخزائن اللّه من جنس المقدورات، يراد بهما ما اختص باللّه تعالى، فلم يمكن عباده من علمه والتصرف فيه؛ أي: لم يعطهم القوى، ولم يسخر

(١) المنافقون: الآية (٧).

لهم الأسباب الموصلة إلى ذلك. . . فعلم مما قررناه أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية، كما أنهم لم يعطوا قوة التصرف في خزائن ملك اللَّه، وهي ما لم يمكن البشر من أسبابه فيكون من أعمالهم الكسبية، ولا أعطاهم إياه أيضًا على سبيل الخصوصية، كما أظهرهم على بعض الغيب الذي هو موضوع الرسالة. ونفي ادعاء الرسول لكل من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الإلهية كما قيل، أو ادعاء شيء من صفات الإله وهو أولى. ويستلزم الأول لأن كلاً منهما خاص بالإله الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وقدرته وعلمه صفتان ذاتيتان له، ويتضمن بيان جهل المشركين بحقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة؛ إذ كانوا يقترحون على الرسول من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، ومن الأخبار بما يكون في مستقبل الزمان، ما لا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، وعن وقت نصر اللَّه تعالى إياه عليهم، وغير ذلك من أمور الغيب.

وإذا كان اللَّه تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من أسباب التصرف في المخلوقات ومن علم الغيب، وكان كل من التصرف بالقدرة الذاتية وعلم الغيب خاصًا به ﷻ يستحيل أن يشاركه غيره فيه؛ فمن أين جاءت دعوى التصرف في الكون وعلم الغيب لمن هو دون الرسل منزلة وكرامة عند اللَّه تعالى من المشايخ المعروفين وغير المعروفين، حتى صاروا يدعون من دون اللَّه تعالى لما عز نيله بالأسباب والسنن الإلهية و«**الدعاء هو العبادة**»[1] كما صح عن النبي ﷺ. وقد قال المفسرون: إن نفي النبي ﷺ لهذين عن نفسه هو عبارة عن نفي ادعاء الإلهية وبيان لكون ما اقترحوه عليه مما لا يقدر عليه غير اللَّه تعالى، فضلال المشركين في فهم الرسالة وجعلهم إياها شعبة من الربوبية لا يزال منتشرًا في أذهان الناس، حتى بعض المؤمنين باسم القرآن، المتبركين بجلد مصحفه وورقه، وبالتغني به في المآتم وغيرها، الجاهلين بما أنزل لبيانه من توحيد اللَّه تعالى وشؤون ربوبيته وألوهيته،

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير: أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٩٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨)، وصححه ابن حبان (٣/ ١٧٢/ ٨٩٠ الإحسان)، والحاكم (١/ ٤٩٠-٤٩١)، ووافقه الذهبي.

ومن حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل، ومن معنى الجزاء على العقائد والأعمال؛ دع ما دون هذه الأصول الثلاثة من أمور الدين، إذ نرى بعض هؤلاء المعدودين في عرفهم وعرف الناس من أتباع القرآن يدعون التصرف في خزائن اللَّه وعلم الغيب لمن دون الرسل كما قلنا آنفًا. . . ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل من حيث أنا عبد رسول إلا اتباع ما يوحيه إلي من أرسلني؛ من تبليغ دينه بالتبشير والإنذار، والعمل به كما بينت لكم آنفًا، أي في الآيتين اللتين قبل هذه الآية.

ثم قال ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذي دعوتكم إليه، فلا يميز بين التوحيد والشرك، ولا بين صفات اللَّه وصفات الخلق، المقلد في ضلاله وجهالاته لمن لا علم عنده ولا عقل من آبائه وأجداده، وذو البصيرة المهتدي إليه، المستقيم في سيره عليه، على بينة وبرهان، يجعل ما يرى القلب أوضح مما ترى العينان؟ الاستفهام إنكاري؛ أي: لا يستويان، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان، بل الفرق بين الأولين أقوى وأظهر، فكأين من أعمى العينين بصير القلب كان من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء، وكأين من بصير العينين أعمى القلب هو أضل من الأنعام، ولذلك قال مقرعًا لهم: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام، وتفرقوا بين صفات الرب الإله وصفات الإنسان، وتعقلوا حجة الرسالة مما في هذا القرآن، من أنواع الهداية والعرفان، وأخبار الغيب التي لم يؤتها إنس ولا جان، على ما فيه من بلاغة البيان، والأسلوب البديع الذي لم يعهدوه قبل الآن، فمتى كان في قدرة مثلي شيء من ذلك، ولقد لبثت فيكم عمرًا من قبله يزيد على الأربعين سنة، عاطلًا من هذه البلاغة وهذه المعرفة.

هذه الآية حجة من حجج اللَّه تعالى للمستقلين في هداية الدين، على المقلدين فيه لآبائهم ومشايخهم الجاهلين»[1].

وقال شيخ الإسلام: «وقد أمر اللَّه تعالى نوحا ومحمدا أن يقولا: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فيريد الجهال من المتبوع أن يكون عالما بكل ما يسأل عنه، قادرا على كل ما يطلب منه، غنيا عن الحاجات

(١) تفسير المنار (٧/ ٤٢١-٤٢٦).

البشرية كالملائكة»[١].

وقال أيضًا: «وهذا قاله نوح ﷺ أول الرسل، وأمر محمد آخر الرسل أن يقوله، ومثل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٢]. وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد اللّه ورسول من اللّه لا يتعدى حد الرسالة، ولا يدعي المشاركة في الألوهية، كما ادعته النصارى في المسيح، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[٣].

فتبين أنه لا يتعدى حد الرسالة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ﴾[٤]، ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد اللّه ورسوله**»[٥]، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ يقول: لست أول من أرسل أو ادعى الرسالة؛ بل قد تقدم قبلي رسل ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٦] يقول: لا أدعي علم الغيب إن أتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين، أنذركم بما أمرني اللّه أن أنذركم به لا أقول لكم عندي خزائن اللّه، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وهذا من كمال صدقه، وعدله، وعبوديته لله وطاعته، وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر اللّه بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون»[٧].

وقال القاسمي: «تنبيهات:

الأول: جعل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ تبرؤا من دعوى الألوهية؛ لأن قسمة الأرزاق بين العباد، ومعرفة

---

(١) منهاج السنة (٦/ ٣٦٧).
(٢) الجن: الآيات (٢١-٢٣).
(٣) المائدة: الآية (٧٥).
(٤) آل عمران: الآية (١٤٤).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣)، والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٥) من حديث عمر ﷺ.
(٦) الأحقاف: الآية (٩).
(٧) الجواب الصحيح (٣/ ١٥٧-١٥٩).

الغيب، مخصوصان به تعالى. قال: ولذا كرر في الملكية لفظ ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾. والمعنى: لا أدعي الألوهية ولا الملكية.

وأورد على هذا أن المراد: لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية، وإلا لقيل: لا أقول لكم إني إله. كما قيل: ولا أقول لكم إني ملك. وأيضًا في الكناية عن الألوهية بـ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ما لا يخفى من البشاعة؛ بل هو جواب عن اقتراحهم عليه ﷺ أن يوسع عليهم خيرات الدنيا -كذا في (العناية)-.

قال أبو السعود: وجعل هذا تبرؤا عن دعوى الإلهية، مما لا وجه له قطعا...

الثالث: قال الرازي: ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يدل على أنه ﷺ لا يعمل إلا بالوحي، وهو يدل على حكمين:

الأول: أن هذا النص يدل على أنه ﷺ لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام، وأنه ما كان يجتهد؛ بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1].

الثاني: أن نفاة القياس قالوا: ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾[2] وذلك ينفي جواز العمل بالقياس. ثم أكد هذا الكلام بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى. والعلم بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين، وأن لا يكون غافلا عن معرفته. انتهى.

وفي (فتح الرحمن): تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء، عملا بما يفيده القصر في هذه الآية. والمسألة مدونة في الأصول. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**أوتيت القرآن ومثله معه**»[3][4].

---

(١) النجم: الآيتان (٣و٤).   (٢) الأنعام: الآية (١٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣١)، وأبو داود (٥/ ١٠-١٢/ ٤٦٠٤)، والترمذي (٥/ ٣٧/ ٢٦٦٤) وحسنه، وابن ماجه (١/ ٦/ ١٢)، وصححه ابن حبان (١/ ١٨٩/ ١٢)، والحاكم (١/ ١٠٩) عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٥٣٥-٥٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ﴾ يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك القوم ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ علمًا منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد اللَّه ووعيده، عاملون بما يرضي اللَّه، دائمون في السعي فيما ينقذهم في معادهم من عذاب اللَّه ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾ أي: ليس لهم من عذاب اللَّه إن عذبهم ولي ينصرهم، فيستنقذهم منه، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عند اللَّه تعالى فيخلصهم من عقابه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: أنذرهم كي يتقوا اللَّه في أنفسهم، فيطيعوا ربهم ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتناب معاصيه.
وقيل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ ومعناه: يعلمون أنهم يحشرون، فوضعت المخافة موضع العلم؛ لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك، ووجوده من غير شك منهم في ذلك، وهذا أمر من اللَّه تعالى نبيه محمدًا ﷺ بتعليم أصحابه، ما أنزل اللَّه إليه من وحيه وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار، وصده عن المشركين به بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون اللَّه هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[٢] والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أي: يومئذ

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٠٠).
(٢) المؤمنون: الآية (٥٧).
(٣) الرعد: الآية (٢١).

﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا اللّه ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم اللّه به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه»[١].

قال محمد رشيد رضا: «أمر اللّه تعالى رسوله بهذا الإنذار الخاص بعد أمره بتبليغ الناس حقيقة رسالته، وكونها لا تستلزم أن يكون له من التصرف والعلم ما لا يكون إلا لله تعالى، ولا أن يكون ملكًا من الملائكة، والمناسبة بينهما أن الموصوفين بما ذكر في هذه الآية أجدر من غيرهم بفهم حقيقة الرسالة، والانتفاع بنذر الرسول، فهي كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٣] أي: وأنذر بما يوحى إليك جماعة المؤمنين بك الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم؛ أي: يخافون شدة وطأة الحشر، والقدوم على اللّه ﷻ، وما فيه من شدة الحساب، وما يتبعه من الجزاء على الأعمال، في يوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[٤] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[٥] وكل يأتيه فيه فردًا ليس له من دونه ولي ينصره، ولا شفيع يدفع عنه، إذ أمر النجاة متوقف على مرضاته ﷻ، فإن هؤلاء هم الذين يرجى أن يتقوا اللّه تعالى اهتداء بإنذارك، ويتحروا ما يؤدي إلى مرضاته، لا يصدهم عن تقواه الاتكال على الأولياء، ولا الاعتماد على الشفعاء، لصحة توحيدهم، وعلمهم أن الشفاعة لله جميعًا ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[٦] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[٧] وأن نجاتهم وسعادتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم، وتزكيتهم لأنفسهم، لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم، أو اعتمادهم على شفاعة الشفعاء لهم، كالمشركين وغيرهم من الكافرين الذين جهلوا أن مدار سعادة الدنيا والآخرة على تزكي النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة، وما يلزمه من الأعمال الصالحة، التي يترتب عليها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٢) فاطر: الآية (١٨).
(٣) يس: الآية (١١).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٥) الانفطار: الآية (١٩).
(٦) يونس: الآية (٣).
(٧) الأنبياء: الآية (٢٨).

رضاء اللَّه عنها لا على أمر خارج عن النفس لا تأثير له فيها»[١].

قال شيخنا محمد تقي الدين الهلالي: «اعلم علمت خيرًا، ووقيت ضيرًا، أن الشفاعة وردت في كتاب اللَّه تعالى نوعين:

أحدهما: الشفاعة الشركية، وهي أن يشفع الشافع بدون استئذان من المشفع، ويرى أن له من المنزلة والمكانة عند المشفع بالكسر ما لا يحتاج معه إلى إذن، بل ربما اعتقد أن قبول شفاعته واجب على من يشفع عنده، كشفاعة الأب عند ابنه، وشفاعة الابن عند أبيه، والزوجة عند زوجها، والصديق عند صديقه، والوزير المخلص عند مليكه، ونحو ذلك. فهذا النوع هو المنفي في القرآن كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٢]، وكذلك من مات كافرًا بشرك أو جحود، فنفي الشفاعة في حقه مطلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٤].

والنوع الثاني: الشفاعة التي يتفضل اللَّه بها على الشفعاء من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعد أن يستأذنوه فيأذن لهم، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٥]، وقال تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[٦]، وقال تعالى في سورة (سبأ): ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[٧]، وقال تعالى في سورة (طه): ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٨]. وقد تواترت الأحاديث التي هي كالشمس في رابعة النهار عن النبي ﷺ أنه يشفع لأهل الكبائر، فيخرجون من النار بشفاعته، وقد أنكر هذه الشفاعة الخوارج والمعتزلة لقلة علمهم بالكتاب وجهلهم بالسنة، وما ذكر من الآيات، وما أشرت إليه من الأحاديث، حجة عليهم، وفي هذه الآية نفسها من الحجة عليهم ما لا يخفى لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٤٣٠-٤٣١).
(٢) غافر: الآية (١٨).
(٣) النساء: الآية (٤٨).
(٤) المائدة: الآية (٧٢).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٧) سبأ: الآية (٢٣).
(٨) طه: الآية (١٠٩).

أي: ﴿وَأَنذِرْ﴾ يا محمد بالقرآن المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ غير واجدين، من دونه وليًّا ينصرهم ولا شفيعًا يشفع لهم، فإن خوفهم من اللَّه دليل على إيمانهم، والخوارج والمعتزلة يقولون: إن الشفاعة خاصة بالمؤمنين في رفع الدرجات، أما من مات كافرا أو مصرا على الكبائر فلا شفاعة له، وهذه الآية تدل على نفي الشفاعة عن المؤمنين الذين يخافون اللَّه، فهذا النفي مطلق وعام يخصصه قوله تعالى فيما سبق ذكره: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[1] واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وانظر بقية مباحث الشفاعة في سورة (البقرة) الآية (٢٥٥).

* * *

(١) طه: الآية (١٠٩).

(٢) سبيل الرشاد (١/ ١٦٧-١٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغداة: الغداة والغدوة كالبكرة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

العشي: آخر النهار. وقيل: من المغرب إلى العشاء. وقيل: من بعد الزوال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن اللَّه تعالى نهى نبيه محمدًا ﷺ أن يطرد قوما كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، والدعاء لله يكون بذكره وتمجيده، والثناء عليه قولا وكلاما، وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافل التي ترضى، والعامل له عابده بما هو عامل له، وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم اللَّه بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي؛ لأن اللَّه قد سمى العبادة دعاءً، فقال -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]، وقد يجوز أن يكون ذلك على خاص من الدعاء، ولا قول أولى بذلك بالصحة من وصف القوم بما وصفهم اللَّه به من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصون منها بشيء دون شيء، فتأويل الكلام إذن: يا محمد أنذر بالقرآن الذي أنزلته إليك، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون، فهم من خوف ورودهم على اللَّه الذي لا شفيع

(١) غافر: الآية (٦٠).

لهم من دونه، ولا نصير في العمل له دائمون، إذ أعرض عن إنذارك، واستماع ما أنزل اللّٰه عليك المكذبون باللّٰه واليوم الآخر من قومك استكبارا على اللّٰه، ولا تطردهم ولا تقصهم، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه، وقرب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدنائه، فإن الذين نهيتك عن طردهم هم الذين يدعون ربهم، فيسألون عفوه ومغفرته لصالح أعمالهم، وأداء ما ألزمهم من فرائضه ونوافل تطوعهم، وذكرهم إياه بألسنتهم بالغداة والعشي يلتمسون بذلك القربة إلى اللّٰه، والدنو من رضاه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، يقول: ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء، وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء، فتطردهم حذار محاسبتي إياك بما خولتهم في الدنيا من الرزق..

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وكذلك اختبرنا وابتلينا..

وأما قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ يقول تعالى: اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعز والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضله اللّٰه وأعماه عن سبيل الحق للذين هداهم اللّٰه ووفقهم: أهؤلاء من اللّٰه عليهم بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء من بيننا، ونحن أغنياء أقوياء، استهزاء بهم، ومعاداة للإسلام وأهله، يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا منه تعالى إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون اللّٰه هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء، وتقرير لهم أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي ممن هو لها كافر، فمني على من مننت عليه منهم بالهداية جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم، ولا لفقر الفقير؛ لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحد إلا جزاء على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره؛ لأن الغنى والفقر، والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي»[1].

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٠٥-٢٠٧).

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. قيل: المراد بالدعاء: المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن.

وقيل: الذكر وقراءة القرآن. ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق. ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي طاعته والإخلاص فيها، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره.

وقيل: يريدون اللَّه الموصوف بأن له الوجه كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1] وهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[2] وخص الغداة والعشي بالذكر لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلا على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل. وكان رسول اللَّه ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره اللَّه في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام، وقد أخرج هذا المعنى مبينا مكملا ابن ماجة في سننه عن خباب في قول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري -فذكر الحديث الآتي-..

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم، أي جزاؤهم ورزقهم على اللَّه، وجزاؤك ورزقك على اللَّه لا على غيره. (من) الأولى للتبعيض، والثانية زائدة للتوكيد.

وكذا ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فاقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل، فإن فعلت كنت ظالما. وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام، وهذا مثل قوله: ﴿لَئِنْ

---

(١) الرحمن: الآية (٢٧).

(٢) الرعد: الآية (٢٢).

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[١] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي. ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك، عليهم من شيء فتطردهم، على التقديم والتأخير.. وقد حصل من قوة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبيه»[٢].

قال الشنقيطي: «نهى الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأمره في آية أخرى أن يصبر نفسه معهم، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا، ونهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك وهي قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٣]، كما أمره هنا بالسلام عليهم، وبشارتهم برحمة ربهم -جل وعلا- في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٤]، وبين في آيات أخر أن طرد ضعفاء المسلمين الذي طلبه كفار العرب من نبينا ﷺ فنهاه الله عنه، طلبه أيضًا قوم نوح من نوح فأبى؛ كقوله تعالى عنه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[٥]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٧]، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس، ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن نبينا ﷺ: «أأشراف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، قال: هم أتباع الرسل»[٩].

(١) الزمر: الآية (٦٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٣٢-٤٣٤).
(٣) الكهف: الآية (٢٨).
(٤) الأنعام: الآية (٥٤).
(٥) هود: الآية (٢٩).
(٦) هود: الآية (٣٠).
(٧) الشعراء: الآية (١١٤).
(٨) البقرة: الآية (١١٨).
(٩) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤).

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء؛ لأنا أحق منهم بكل خير كما قال هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، إنكار منهم أن يمن اللَّه على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعما منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد اللَّه قولهم هنا بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[2].

والمعنى: أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل ومتاعًا من ضعفاء المسلمين؛ اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير، وأن اتّباع الرسول ﷺ لو كان خيرًا ما سبقوهم إليه، ورد اللَّه افتراءهم هذا بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[3]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات»[5].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وذلك أن رسول اللَّه ﷺ كان غالب من اتبعه في أول البعثة، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قومُ نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[6]، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله المسائل، فقال له: «فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل»[7].

---

(١) الأحقاف: الآية (١١).
(٢) مريم: الآية (٧٣).
(٣) مريم: الآية (٧٤).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٥٥ و ٥٦).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٩٢-١٩٣).
(٦) الآية (٢٧).
(٧) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هرقل التي أخرجها: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٥/ ٨٨٤٥).

والغرض: أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾[1] أي: ما كان اللَّه ليهدي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيرا - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾[2] وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾[3].

قال اللَّه تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾[4]، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5] أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطًا مستقيما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[6]. وفي الحديث الصحيح: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[7]»[8].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي: ومثل ذلك الفتن؛ أي: الابتلاء والاختبار العظيم، الذي دل عليه النظم الكريم، بمعونة وقائع الأحوال، وما كان عند نزول السورة من التفاوت بين المؤمنين والكفار؛ فتنا بعضهم ببعض؛ أي: جعلنا بحسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم بعضهم فتنة لبعض، تظهر به حقيقة حاله غير مشوبة بشيء من الشوائب التي تلتبس بها في العادة، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنهما بالنار أو بعرضهما على الفتانة (حجر الصائغ) ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ أي: ليترتب على هذا الفتن أن يقول المفتونون من الأقوياء المستكبرين، في شأن الضعفاء من المؤمنين: أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالي والفقراء والمساكين، من اللَّه

---

(١) الأنعام: الآية (٥٣).
(٢) الأحقاف: الآية (١١).
(٣) مريم: الآية (٧٣).
(٤) مريم: الآية (٧٤).
(٥) الأنعام: الآية (٥٣).
(٦) العنكبوت: الآية (٦٩).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٩)، ومسلم (٤/ ١٩٨٦-١٩٨٧/ ٢٥٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣)، عن أبي هريرة ﷺ.
(٨) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٥-٢٥٦).

عليهم فخصهم بهذه النعمة العظيمة من جملتنا ومجموعنا أو من دوننا؟ المن: الإثقال بنعمة عظيمة أو نعم كثيرة. والاستفهام للإنكار والتعجيب، يعنون أنه لا يتأتى ذلك لأنهم هم المفضلون عند اللَّه تعالى بما أعطاهم من الغنى والثروة، والجاه والقوة، فلو كان هذا الدين خيرًا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء قياسًا على ما أعطاهم قبله من الجاه والثراء، ومن شواهد هذا القياس ما حكاه اللَّه عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] إلخ. قال المفسرون: أي: عظيم بالمال والجاه كالوليد بن المغيرة المخزومي من مكة، وهي إحدى القريتين. أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وهي القرية الأخرى. وقيل: المراد بعظيم مكة أبو جهل، والشواهد على هذا القياس الجملي كثيرة عنهم وعن غيرهم.

وقد رد اللَّه تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا الاستفهام للتقرير على أكمل وجه لبنائه على إحاطة علمه تعالى، ووجه الرد أن الحقيق بمن اللَّه وزيادة نعمه إنما هم الذين يقدرونها قدرها، ويعرفون حق المنعم بها، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتم به حكمته وتنال مرضاته، لا من سبق إنعامه عليهم فكفروا وبطروا، وعتوا عن أمره واستكبروا، بل هؤلاء جديرون بأن يسلب منهم ما كان أنعم به عليهم، وبهذا مضت سنته في عباده، ولولا ذلك لكانت النعم خالدة تالدة لا تنزع ممن أوتيها، بل تزاد وتضاعف له وإن كفر بها، وإذًا لما افتقر غني، ولا ضعف قوي، ولا ذل عزيز، ولا ثل عرش أمير، وهل الحق الواقع إلا خلاف هذا؟ وهل فتن أولئك الكبراء إلا بالواقع لهم من الغنى والقوة، فظنوا لقصر نظرهم وغرورهم بحاضرهم، وجهلهم بسنة اللَّه في أمثالهم؛ أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم، وتفضيلًا لهم على غيرهم، حتى إن أحدهم ليحسب أن هذا حق له على ربه في الدنيا والآخرة، وإن كان لا يؤمن بالآخرة، كما بين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[3]، وأنزل في العاصي بن وائل من طغاة قريش: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[4] أي في الآخرة -

(١) الأحقاف: الآية (١١).
(٢) الزخرف: الآية (٣١).
(٣) فصلت: الآية (٥٠).
(٤) مريم: الآية (٧٧).

الآيات- وقال بعض المغرورين بهذا القياس:

لقد أحسن اللَّه فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

وقد كشف اللَّه تعالى هذا الغرور في آيات كثيرة، وضرب لأصحابه الأمثال كمثل ذي الجنتين في سورة (الكهف)، وزجر أهله وأضدادهم في سورة (الفجر)، وفصل لهم الحقيقة في سورة (الإسراء): بقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾[1].

وهذا الرد على المشركين هنا يدل على أنه لا يدوم لهم من النعم ما اغتروا به، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد أن تنعكس الحال، فيسلب أولئك الأقوياء ما أعطوا من القوة والمال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الأئمة الوارثين؛ لأن اللَّه تعالى وفقهم للإيمان، وأودع في أنفسهم الاستعداد للشكر، وهو يوجب المزيد: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2]، وكذلك كان، وصدق وعد الرحمن، وظهر إعجاز القرآن، وما بعد بيان اللَّه تعالى من بيان، وإننا نرى الناس عن هدايته غافلين، وبوجوه إعجازه جاهلين[3]، حتى إن فيمن يسمون المسلمون منهم، من يفتتن بشبهة أولئك المشركين الداحضة، فيجعلها حجة ناهضة، تارة على تفضيل الأغنياء على الفقراء، وتارة على تفضيل الأمم القوية على الأمم الضعيفة، جاهلين أن الفضيلة الصحيحة في شكر النعم باستعمالها فيما يرضي الرب، لا في أعيان النعم التي ترى في اليد. فرب غني شاكر، ورب فقير صابر، وكم من منعم سلب النعمة بكفرها؟ وكم من محروم أوتي النعم بالاستعداد لشكرها، ثم زيدت بقدر شكره لها؟ وكم من قوي أضعفه اللَّه ببغيه؟ وكم من ذليل أعزه اللَّه بإيمانه وعدله؟»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وأن الجلوس مع الصالحين نعمة، ومع الطالحين نقمة

* عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل،

---

(١) الإسراء: الآية (٢٠).
(٢) إبراهيم: الآية (٧).
(٣) في الأصل: «غافلون . . . جاهلون».
(٤) تفسير المنار (٧/ ٤٤٣-٤٤٥).

وبلال، ورجلان لست أسميهما. فوقع في نفس رسول اللَّه ﷺ ما شاء اللَّه أن يقع، فحدث نفسه. فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1].

* عن خباب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. إلى قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري. فوجدوا رسول اللَّه ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: (نعم). قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا. قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليًّا ليكتب، ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2]. قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته. وكان رسول اللَّه ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (ولا تجالس الأشراف) ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ (يعني عيينة والأقرع) ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[3]. قال: هلاكًا. قال: أمر عيينة والأقرع. ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم»[4].

---

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ١٨٧٨/ ٢٤١٣[٤٦])، والنسائي في الكبرى (٥/ ٦٦/ ٨٢٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٣/ ٤١٢٨).

(٢) الأنعام: الآية (٥٤).

(٣) الكهف: الآية (٢٨).

(٤) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٨٢-١٣٨٣/ ٤١٢٧). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾: «فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور، وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه.

فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها وتارة تطلب لغيرها، فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه، وما يترتب عليه هذا القول، موجب لآثار مطلوبة للفاعل؛ من إظهار عدله وحكمته وعزه وقهره وسلطانه وعطائه من يستحق عطاءه ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع ولا يليق به غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم، من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء»[1].

* عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله! ما أخذت سيوف اللّٰه من عنق عدو اللّٰه مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: **«يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»**. فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه! أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر اللّٰه لك يا أخي![2].

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٦٤)، ومسلم (٤/ ١٩٤٧/ ٢٥٠٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٥/ ٨٢٧٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله ﷺ لأبي بكر ﷺ: «**لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**»: يدل على رفعة منازل هؤلاء المذكورين عند اللَّه تعالى، ويستفاد منه احترام الصالحين واتقاء ما يغضبهم أو يؤذيهم»[١].

فيه دليل على أن: «المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون لرضاه، ويغضبون لما يغضب له، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال: «**لعلك أغضبتهم**»؟ -وذكر الحديث ثم قال: لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضبا لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله، والمعاداة لأعداء اللَّه ورسوله»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «يستفاد من هذا الحديث فوائد:

إحداها: صرف الهمة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته؛ بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصفات، واتصافه بمحمودها؛ فإنه لما كان القلب هو محل نظر اللَّه تعالى؛ فحق العالم بقدر اطلاع اللَّه تعالى على قلبه أن يفتش عن صفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكون في قلبه وصف مذموم يمقته اللَّه بسببه.

الثانية: أن الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مقدم على الأعمال بالجوارح، لتخصيص القلب بالذكر مقدما على الأعمال، وإنما كان ذلك لأن أعمال القلوب

(١) المفهم (٦/ ٤٦٦).
(٢) قاله شيخ الإسلام في المجموع (١٠/ ٥٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٥)، ومسلم (٤/ ١٩٨٧/ ٢٥٦٤[٣٤])، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨/ ٤١٤٣).

هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه، مخلص له فيما يعمله، ثم لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه، وهو الذي عبر عنه بالإحسان، حيث قال: «أن تعبد اللَّه كأنك تراه».

الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصححة للأعمال الظاهرة، وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم اللَّه تعالى من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم اللَّه من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالًا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالًا سيئة، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة لا تلك الذات المسيئة. فتدبر هذا فإنه نظر دقيق»[1].

«هذا الحديث يدل على ما يدل عليه قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[2] فاللَّه ﷻ لا ينظر إلى العباد إلى أجسامهم، هل هي كبيرة أو صغيرة أو صحيحة أو سقيمة، ولا ينظر إلى الصور هل هي جميلة أو ذميمة، كل هذا ليس بشيء عند اللَّه، وكذلك لا ينظر إلى الأنساب، هل هي رفيعة أو دنيئة، ولا ينظر إلى الأموال ولا ينظر إلى شيء من هذا أبدًا.

ليس بين اللَّه وبين خلقه صلة إلا بالتقوى، فمن كان لله أتقى كان من اللَّه أقرب، وكان عند اللَّه أكرم، إذا لا تفتخر بمالك ولا بجمالك ولا ببدنك، ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشيء من هذه الدنيا أبدًا، إنما إذا وفقك اللَّه للتقوى فهذا من فضل اللَّه عليك فاحمد اللَّه عليه»[3].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لأن أقعد مع قوم يذكرون اللَّه تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس؛ أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون اللَّه من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس؛**

---

(١) المفهم (٦/ ٥٣٨-٥٣٩). (٢) الحجرات: الآية (١٣).

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ٥١).

أحب إلي من أن أعتق أربعة»[١].

★ **غريب الحديث:**

صلاة الغداة: أي الصبح.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو الطيب: «يذكرون اللّٰه تعالى من قراءة القرآن والتسبيح والتهليل والتحميد، والصلاة على النبي ﷺ، ويلحق به ما في معناه؛ كدرس علم التفسير والحديث، وغير ذلك من علوم الشريعة»[٢].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٧٣-٧٤/ ٣٦٦٧) وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) عون المعبود (١٠/ ١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في الذين عنى اللَّه تعالى بهذه الآية. فقال بعضهم: عنى بها الذين نهى اللَّه نبيه عن طردهم، وقد مضت الرواية بذلك عن قائليه.

وقال آخرون: عنى بها قومًا استفتوا النبي ﷺ في ذنوب أصابوها عظام، فلم يؤيسهم اللَّه من التوبة. . .

وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية، قول من قال المعنيون بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ غير الذين نهى اللَّه النبي ﷺ عن طردهم؛ لأن قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ خبر مستأنف بعد تقضي الخبر عن الذين نهى اللَّه نبيه ﷺ عن طردهم، ولو كانوا هم لقيل: وإذا جاؤوك فقل سلام عليكم، وفي ابتداء اللَّه الخبر عن قصة هؤلاء وتركه وصل الكلام بالخبر عن الأولين ما ينبئ عن أنهم غيرهم.

فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا: وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فيقرون بذلك قولًا وعملًا، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؛ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: سلام عليكم: أمنة اللَّه لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٠٧-٢٠٨).

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فأكرمهم برد السلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة اللَّه الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى اللَّه، فهو جاهل.

وقال معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن عِكْرِمة في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[(١)].

وقال أبو حيان: «﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها. والباري تعالى لا يجب عليه شيء عقلا إلا إذا أعلمنا أنه حتم بشيء فلذلك الشيء واجب. وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ وعد، والكتب هنا في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتاب غيره. وفي صحيح البخاري: «**أن اللَّه تعالى كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي**»[(٢)]. وهذه الجملة مأمور بقولها، تبشيرا لهم بسعة رحمة اللَّه، وتفريجا لقلوبهم..

قال: وما أحسن مساق هذا المقول أمره أولا أن يقول للمؤمنين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، فبدأ أولا بالسلامة والأمن لمن آمن، ثم خاطبهم ثانيا بوجوب الرحمة، وأسند الكتابة إلى ربهم؛ أي: كتب الناظر لكم في مصالحكم، والذي يربيكم، ويملككم الرحمة، فهذا تبشير بعموم الرحمة، ثم أبدل منها شيئًا خاصا وهو غفرانه ورحمته لمن تاب وأصلح»[(٣)].

وقال السعدي: «أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلامًا، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة اللَّه، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك. ورهبهم من الإقامة على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٢)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٤٤).

الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده. ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾.

أي: فلا بد مع ترك الذنوب، والإقلاع، والندم عليها؛ من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب اللّه، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة. فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به بما أمرهم به»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «كان جمهور الناس كافرين؛ إما كفر جحود وعناد، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد، وكان يدخل في الإسلام الأفراد بعد الأفراد، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء، وكان النبي ﷺ يكون تارة مع هؤلاء المؤمنين يعلمهم ويرشدهم، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم، وكان المعاندون من كبرائهم يقترحون عليه الآيات الكونية للتعجيز، وتارة يحقرون شأنه بوجوده في عامة أوقاته مع أولئك الفقراء والمساكين، وقد اقترحوا عليه طردهم من حضرته، ولعلهم كانوا يريدون بذلك أن ينفضوا من حوله، وأن يكون منفرا لغيرهم عن الإيمان به، وكان النبي ﷺ حريصًا على إيمان أولئك الكبراء لما تقدم بيانه، فأرشده ربه جلت حكمته في هذا السياق القولي الأخير من هذه السورة؛ إلى أن يبين لمقترحي الآيات الكونية من الكفار: أن حقيقة الرسالة لا تقتضي أن تكون قدرة الرسول وعلمه كقدرة اللّه تعالى وعلمه، ولا أن يكون ملكًا من الملائكة حتى يقدر على ما لا يقدر عليه البشر من الآيات، وبأن ينذر الذين يخشون ربهم من المؤمنين إنذارًا خاصًا بهم؛ لأنهم هم الذين يرجى أن ينتفعوا بكل إنذار، وبأن لا يطرد من حضرته منهم أولئك الذين يدعون ربهم بالعشي والإبكار، بباعث النية الصحيحة والإخلاص، ويستلزم ذلك أن يستمر على معاملتهم الأولى التي أمره اللّه تعالى بها في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2] فبعد هذا الإرشاد في شأن الكفار المعاندين والمؤمنين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٠٦).

(٢) الكهف: الآية (٢٨).

السابقين؛ حسن أن يرشد اللَّه رسوله ﷺ إلى شيء في شأن الفريق الثالث من الناس، وهم الذين يجيئون الرسول آنًا بعد آنٍ، مؤمنين بآيات اللَّه المثبتة للتوحيد والرسالة، فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر اللَّه ورسوله، وهم الذين أراد رؤساء المشركين تنفيرهم وحاولوا صدهم، فأمره أن يبين لهم قبل كل شيء أنهم صاروا في سلام وأمان من اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه تعالى كتب على نفسه الرحمة، فهو لا يؤاخذهم بما كان قبل الإسلام، ومن عمل بعده سوءًا بجهالة فما عليه إلا أن يمحو أثره بالتوبة والإصلاح..

وقال: «﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: ثم رجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعرًا بقبحه، نادمًا عليه خائفًا من عاقبته، وأصلح عمله بأن أتبع ذلك العمل السيئ التأثير في النفس عملًا يضاده ويذهب بأثره من قلبه، حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير كما كانت أهلًا لنظر الرب وقربه ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فشأنه سبحانه في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة، فيغفر له ما تاب عنه ويتغمده برحمته وإحسانه.

وهذه قاعدة من قواعد الدين، وأس من أساسه؛ أمر اللَّه تعالى رسوله أن يبلغها لمن يدخلون فيه ليهتدوا بها، حتى لا يغتروا بمغفرة اللَّه ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب اللَّه، والغفلة عن تزكية أنفسهم، والمبادرة إلى تطهيرها من إفساد الذنوب لها، إلى أن تحيط بها خطيئتها، وقد بينا هذه القاعدة مرارًا في تفسير الآيات المقررة لها، تارة بالإيجاز وتارة بالإطناب وتارة بالتوسط بينهما. وكان أوسع ما كتبناه فيها تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]»[2].

فصل: قال شيخ الإسلام: «لا ريب أن اللَّه جعل على نفسه حقا لعباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وكما قال تعالى:

---

(١) النساء: الآيتان (١٧و١٨).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤٤٧-٤٥١).
(٣) الروم: الآية (٤٧).

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وفي الصحيحين أنه ﷺ قال لمعاذ بن جبل وهو رديفه: «يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه أن لا يعذبهم»[1] فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق.

وقد اتفق العلماء على وجوب ما يجب بوعد الله الصادق، وتنازعوا هل يوجب الله بنفسه على نفسه ويحرم بنفسه على نفسه؟ على قولين: ومن جوز ذلك احتج بقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وبقوله في الحديث القدسي الصحيح: «إني حرمت الظلم على نفسي»[2] الخ والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر. وأما الإيجاب عليه ﷻ والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول، وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئًا، ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال: إنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم الظلم على نفسه، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، فهو الخالق لهم، وهو المرسل إليهم الرسل، وهو الميسر لهم الإيمان والعمل الصالح، ومن توهم من القدرية والمعتزلة ونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس ما يستحقه الأجير على المستأجر فهو جاهل في ذلك»[3].

وقال: «تنازعوا هل يوصف الله تعالى بأنه أوجب على نفسه وحرم على نفسه أو لا معنى للوجوب إلا إخباره بوقوعه ولا للتحريم إلا إخباره بعدم وقوعه؟ فقالت طائفة بالقول الثاني، وهو قول من يطلق أن الله لا يجب عليه شيء ولا يحرم عليه شيء. وقالت طائفة: بل هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه كما نطق بذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٢)، والبخاري (٦/ ٧٢-٧٣/ ٢٨٥٦)، ومسلم (١/ ٥٠/ ٢٩)، والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥-١٤٣٦/ ٤٢٩٦)، من طرق عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص: ٤٠٩-٤١٠).

الكتاب والسنة في مثل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله في الحديث الإلهي الصحيح: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا**». وأما أن العباد يوجبون عليه ويحرمون عليه؛ فممتنع عند أهل السنة كلهم، ومن قال: إنه أوجب على نفسه أو حرم على نفسه فهذا الوجوب والتحريم يعلم عندهم بالسمع، وهل يعلم بالعقل على قولين لأهل السنة؟. وإذا كانت هذه الأقوال كلها معروفة لأهل السنة؛ بل لأهل المذهب الواحد منهم كمذهب أحمد وغيره من الأئمة؛ فمن قال من أهل السنة إن اللَّه لا يجب عليه شيء ولا يحرم عليه شيء امتنع عنده أن يكون مخلا بواجب أو فاعلا لقبيح، ومن قال: إنه أوجب على نفسه أو حرم على نفسه فهم متفقون على أنه لا يخل بما كتبه على نفسه، ولا يفعل ما حرمه على نفسه، فتبين أنه ليس في أهل السنة من يقول: إنه يخل بواجب أو يفعل قبيحا»[1].

وقال: «وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة منها: أن الرب تعالى غني بنفسه عما سواه، ويمتنع أن يكون مفتقرا إلى غيره بوجه من الوجوه، والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية.

ومنها: أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة، ويرضى ويفرح بتوبة التائبين؛ فهو الذي يخلق ذلك وييسره، فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته، وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن اللَّه هو المنعم على عباده بالإيمان بخلاف القدرية والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره. ومنها: أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم، ونهاهم عما يفسدهم. كما قال قتادة: إن اللَّه لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم؛ بل أمرهم بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم، بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلا عليه، وهذا أيضًا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون: إنه لم يأمر العباد إلا بخير ينفعهم، ولم ينههم إلا عن شر يضرهم، بخلاف المجبرة الذين يقولون: إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم. ومنها: أنه سبحانه هو المنعم

(١) منهاج السنة (١/ ٤٥١-٤٥٣).

بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده فلا حول ولا قوة إلا به، ولهذا قال أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1] وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك. ومنها: أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى، فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها فكيف والعبادة من نعمته أيضًا؟. ومنها: أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته، فلن يدخل أحد الجنة بعمله، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة اللّه لها ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[2]»[3].

وقال ابن القيم: «واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف:

فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة، وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل، وأن يكون العبد فاعلا أو مختارا. الطائفة الثانية: بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد، وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال. والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين: تعطيل صفاته، وجحد نعوت كماله، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه، فشبهوا في أفعاله وعطلوا في صفات كماله، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال، وسموه توحيدا، وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال، وسموا ذلك عدلا، وقالوا: نحن أهل العدل والتوحيد، فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة، التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها، وتوحيدهم إلحادهم في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلا، وعدلهم شركا، وهذا مقرر في موضعه. والمقصود أن هذه الطائفة

(١) الأعراف: الآية (٤٣). (٢) فاطر: الآية (٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢١٦-٢١٧).

مشبهة في الأفعال، معطلة في الصفات، وهدى اللَّه الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فلم يقيسوه بخلقه، ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله، ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك، ولم يوجبوا عليه شيئًا ولم يحرموا عليه شيئًا؛ بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة، التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء، فإن العباد لا يحصون ثناء عليه أبدا؛ بل هو كما أثنى على نفسه. وهذا بين بحمد اللَّه عند أهل العلم والإيمان، مستقر في فطرهم ثابت في قلوبهم، يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين، وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ بل هم إلى اللَّه ورسوله متحيزون، وإلى محض سنته منتسبون، يدينون دين الحق أنى توجهت ركائبه، ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه، لا تستفزهم بداوات آراء المختلفين، ولا تزلزلهم شبهات المبطلين، فهم الحكام على أرباب المقالات، والمميزون لما فيها من الحق والشبهات، يردون على كل باطله، ويوافقونه فيما معه في الحق، فهم في الحق سلمه، وفي الباطل حربه، لا يميلون مع طائفة على طائفة، ولا يجحدون حقها لما قالته من باطل سواه؛ بل هم ممتثلون قول اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

* * *

(١) المائدة: الآية (٨).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٤-١٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾: وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع حجتنا على المشركين من عبدة الأوثان وأدلتنا، وميزناها لك وبيناها، كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم، فنبينها لك حتى تبين حقه من باطله، وصحيحه من سقيمه»[1].

وقال ابن كثير: «وكما بيَّنَّا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل»[2].

وقال البقاعي: «ولما أتى في هذه السورة وما قبلها بما أتى من عجائب التفاصيل لجميع الأحوال متضمنة واضح الدلالات وباهر الآيات البينات، قال عاطفًا على ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ عطفًا للضد على ضده، فإن في الاختبار نوع خفاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ذلك الفتن بإيراد بعض ما فيه دقة وخفاء من بعض الوجوه لنضل من نشاء، فيتميز الضال من المهتدي ﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي نريد بيانها ليتضح سبيل المصلحين فيتبع ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ أي: تظهر ظهورًا بينًا ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فتجتنب، وخص هذا بالذكر وإن كان يلزم منه بيان الأول؛ لأن دفع المفاسد أهم»[3].

وقال السعدي: «﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٠٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٨).
(٣) نظم الدرر (٧/ ١٣١).

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سخط اللَّه وعذابه. فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها. بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات؛ ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين؛ ذكر في هذه الآية أنه تعالى نهى عن سلوك سبيلهم، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد، لا على سبيل الحجة والدليل؛ لأنها جمادات وأحجار، وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير، وكون الأشرف مشتغلا بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل. وأيضًا أن القوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «ما نعجز عن نيله بالأسباب المسخرة لنا لا نطلبه إلا من الخالق المسخر للأسباب، وقد بيَّنَّا ذلك مرارًا كثيرة. فاللَّه تعالى يقول لرسوله هنا: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع اللَّه آلهة أخرى: إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثونهم من دون اللَّه، أي غير اللَّه من الملائكة وعباد اللَّه الصالحين؛ بله ما دونهم من الأصنام والأوثان التي لا علم لها ولا عمل. وهذا النهي يصدق بنهي اللَّه تعالى إياه عن ذلك في آيات القرآن الكثيرة، وأمره بضده وهو دعاء اللَّه تعالى وحده، وبنهي العقل والفطرة السليمة، فإن النبي ﷺ كان قبل البعثة موحدًا، ولم يكن قط مشركًا، ولأجل هذا قال: ﴿نُهِيتُ﴾ بالبناء للمفعول»[٣].

---

(١) الأنعام: الآية (٥٦).
(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٨).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٤٥٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الشرك وخطره على الأمم السابقة واللاحقة

* عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير فقال: «**يا معاذ! هل تدري حق اللَّه على عباده وما حق العباد على الله؟**» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**فإن حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، فقلت: يا رسول الله! أفلا أبشر به الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسول اللَّه فقد كذب اللَّه، ومن كذب اللَّه فهو مشرك، أو هو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته؛ أي: مع سائر الشرائط. فالمراد: من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به»[2].

وقال في «تيسير العزيز الحميد»: «وفي الباب من الفوائد.. الحث على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمى عبادة شرعًا»[3].

وقال أيضًا: «قوله: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي: يوحدوه بالعبادة وحده، ولا يشركوا به شيئًا. وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتيًا بعبادة اللَّه بل مشرك، وهذا هو معنى قول المصنف: إن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وفيه معرفة حق اللَّه على العباد، وهو عبادته وحده لا شريك له.

فيا من حق سيده الإقبال عليه، والتوجه بقلبه إليه، لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك ووجهك لغيره، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا التشريف

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٧٢-٧٣/ ٢٨٥٦)، ومسلم (١/ ٥٨/ ٣٠)، وأبو داود (٣/ ٥٥/ ٢٥٥٩)، والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٥/ ١٠٠١٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥-١٤٣٦/ ٤٢٩٦) من طرق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) الفتح (١/ ٣٠٣).

(٣) (ص: ٥٧).

والصيانة! فهو يعظمك ويدعوك إلى الإقبال، وأنت تأبى إلا مبارزته بقبائح الأفعال»[١].

قال ابن القيم: «فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له، كحاجتهم إليه في خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم؛ بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر، وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم؛ فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم، كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع، ولهذا كان حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: **«أتدري ما حق اللَّه على عباده؟»** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **«حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوا ذلك؟»** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **«حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار»** ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم، كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه، فليس في الكائنات شيء غير اللَّه سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به ويأنس به، ويتنعم بالتوجه إليه، ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة؛ فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢] فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله؛ فسد فسادًا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون اللَّه وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه، ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه»[٣].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٤٧-٤٩).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «كرر الأمرَ مع قرب العهد اعتناءً بشأن المأمور به، أو إيذانًا باختلاف المَقولَيْن من حيث إن الأولَ حكايةٌ لِما من جهته تعالى من النهي، والثاني حكايةٌ لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذُكر من عبادة ما يعبدونه، وإنما قيل: ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ استجهالًا لهم، وتنصيصًا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواءَ باطلةٍ، وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلًا، وإشعارًا بما يوجب النهيَ والانتهاءَ، وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ استئنافٌ مؤكِّد لانتهائه عما نهي عنه، مقرِّر لكونهم في غاية الضلال والغَواية، أي إن اتبعتُ أهواءكم فقد ضللت، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، والعدولُ إلى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، أي دوامِ النفْي واستمرارِه لا نفْيِ الدوام والاستمرار كما مر مرارًا، أي ما أنا في شيء من الهدى حين أكون في عِدادهم»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: قل لهم لا أتبع أهواءكم في عبادتهم ولا في غيرها من أعمالكم التي تتبعون بها الهوى، ولستم في شيء منها على بينة ولا هدى، ولماذا؟ لأنني إن اتبعتها فقد ضللت ضلالًا أخرج به من جنس المهتدين، فلا أكون منهم في شيء، فإن هذا الضلال لا يقاس بغيره؛ لأنه هو الضلال البعيد عن صراط الهدى»[2].

وقال البيضاوي: «﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم، وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم، واستجهال لهم وبيان لمبدإ ضلالهم، وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٤١).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤٥٣).

ولا يقلد ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم. وفيه تعريض بأنهم كذلك»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اتباع الحق وترك الهوى

* عن هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن وأخت؟ فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وائت ابن مسعود فسيتابعني فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم[2].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «عن سلمة بن شبيب قال: سمعت عبد الرزاق يقول: سمعت سفيان الثوري، ومعمر، وابن جريج، ومالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. فقلنا لعبد الرزاق فما تقول أنت؟ قال: أقول الإيمان قول وعمل. يزيد وينقص. فإن لم أقل هذا، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين. قال أحمد بن خالد: وحدثنا عيسى بن محمد الكشوري، قال: حدثنا محمد بن يزيد، قال: سمعت عبد الرزاق سئل عن الإيمان فقال: أدركت أصحابنا: سفيان الثوري، وابن جرير، وعبد الله بن عمر، ومالك بن أنس، ومعمر بن راشد، والأوزاعي، وسفيان بن عيينة، يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له بعض القوم: فما تقول أنت يا أبا بكر؟ قال: إن خالفتهم فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين»[3].

---

(١) تفسير البيضاوي (ص: ١٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاري (١٢/ ١٧-١٨/ ٦٧٣٦)، وأبو داود (٣/ ٣١٢-٣١٣/ ٢٨٩٠)، والترمذي (٤/ ٣٦٢/ ٢٠٩٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٧٠/ ٦٣٢٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٩/ ٢٧٢١).

(٣) التمهيد (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

وقال: «وهذا الباب في اختلاف الصحابة ورد بعضهم على بعض، وطلب كل واحد منهم الدليل والبرهان على ما قاله من الكتاب والسنة إذا خالفه صاحبه؛ أكبر من أن يجمع في كتاب فضلا عن أن يكتب في باب والأمر فيه واضح، وإذا كان هذا محل الصحابة ﷺ، وهم أولو العلم والدين والفضل، وخير أمة أخرجت للناس، وخير القرون، ومن قد ﷺ، وأخبر بأنهم رضوا عنه، وأثنى عليهم بأنهم الرحماء بينهم الأشداء على الكفار، الركع السجد، وأنهم الذين أوتوا العلم. قال مجاهد وغيره في قول الله ﷻ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[1] قال: أصحاب محمد ﷺ، إلى كثير من ثناء الله ﷻ عليهم، واختياره إياهم لصحبة نبيه ﷺ، فإذا كانوا وهم بهذا المحل من الدين والعلم لا يكون أحدهم على صاحبه حجة، ولا يستغني عند خلاف غيره له عن حجة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، فمن دونهم أولى وأحرى أن يحتاج إلى أن يعضد قوله بوجه يجب التسليم له»[2].

وقال ابن بطال: «وفيه: أن الحجة عند التنازع إلى سنة النبي ﷺ، وأنه ينبغي للعالم الانقياد إليها، وأن صاحبها حبر، ألا ترى شهادة أبي موسى لابن مسعود لما خصمه بالسنة أنه حبر.

وفيه: ما كانوا عليه من الإنصاف والاعتراف بالحق لأهله، وشهادة بعضهم لبعض بالعلم والفضل»[3].

* * *

(١) سبأ: الآية (٦).
(٢) التمهيد (٤/ ٢٦٥-٢٦٦).
(٣) شرح صحيح البخاري (٨/ ٣٥١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بينة: أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، ومنه البينة: لأنها تبين الحق وتظهره.

الفاصلين: الحاكمين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين لك إلى الإشراك بربك ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: إني على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي من ربي، يقول: من توحيده، وما أنا عليه من إخلاص عبوديته من غير إشراك شيء به . . . ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ يقول: وكذبتم أنتم بربكم، والهاء في قوله من ذكر الرب -جل وعز-: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ يقول: ما الذي تستعجلون من نقم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر، وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيه محمدا ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسوله إليهم ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[1] وقالوا للقرآن: هو أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاق اختلقه. وقال آخرون: بل محمد شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون، فقال الله لنبيه ﷺ: أجبهم بأن الآيات بيد الله لا بيدك، وإنما أنت رسول، وليس عليك

(١) الأنبياء: الآية (٣).

إلا البلاغ لما أرسلت به، وإن اللَّه يقضي الحق فيهم وفيك، ويفصل به بينك وبينهم، فيتبين المحق منكم والمبطل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾: أي وهو خير من بين وميز بين المحق والمبطل وأعدلهم؛ لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد، لوسيلة له إليه، ولا لقرابة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور؛ لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: قل لهم أيها الرسول أيضًا إني فيما أخالفكم فيه على بينة من ربي هداني إليها بالوحي والعقل، والبينة كل ما يتبين به الحق، من الحجج والدلائل العقلية والشواهد والآيات الحسية ومنه تسمية شهادة الشهود بينة، والقرآن بينة مشتملة على أنواع كثيرة من البينات العقلية والكونية؛ فهو على كونه من عند اللَّه تعالى للقطع بعجز الرسول كغيره عن الإتيان بمثله، مؤيد بالحجج والبينات المثبتة لما فيه من قواعد العقائد وأصول الهداية ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: والحال أنكم كذبتم به؛ أي: بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، فكيف تكذبون أنتم ببينة البينات، على أظهر الحقائق وأبين الهدايات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال مبين لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، وما كان التقليد بينة من البينات، وإنما هو براءة من الاستدلال، ورضاء بجهل الآباء والأجداد، فالكلام حجة مسكتة مبكتة على ما قبلها من نفي عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون اللَّه. وقيل: إن المعنى وكذبتم بربي أي بآياته أو بدينه، وإلا فإن القوم كانوا يؤمنون بأن اللَّه هو ربهم ورب السموات والأرض وما بينهما، والقرآن ناطق بذلك، وفسر بعضهم التكذيب بالرب باتخاذ شريك له، ولم يكن اتخاذهم الشركاء تكذيبًا بالربوبية؛ إذ لم يكونوا يقولون إن غيره تعالى يخلق معه أو يرزق، وإنما كانوا يدعون غيره ليقربهم إليه ويشفع لهم عنده، وهذا الدعاء عبادة وشرك بالإلهية لا تكذيب بالربوبية.

ولما ذكر بينته وتكذيبهم به قفى عليه برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال، ومن شأنها أن يقع عنها منهم السؤال، وهي أن اللَّه أنذرهم عذابًا يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النبي ﷺ ذلك فكان عدم وقوعه شبهة لهم على صدق القرآن، لجهلهم بسنن اللَّه تعالى في شؤون

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١١).

الإنسان، فأمر اللَّه تعالى رسوله أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ليس عندي ما تطلبون أن يعجل اللَّه لكم من وعيده، ولم أقل لكم إن اللَّه فوض أمره إلي حتى تطالبوني به، وتعدون عدم إيقاعه حجة على تكذيبه، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في ذلك وفي غيره من التصرف في شؤون الأمم إلا لله وحده، وله في ذلك سنن حكيمة ومقادير منتظمة تجري عليها أفعاله، وآجال مسماة تقع فيها فلا يتقدم شيء عن أجله ولا يتأخر ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1] ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2]. . . ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلونك بالعذاب -كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]-: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ بأن كان مما جعله اللَّه في مكنتي وتصرفي بقدرتي الكسبية، أو يجعله آية خاصة بي ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بإهلاكي للظالمين منكم الذين يصدونني عن تبليغ دعوة ربي، ويصدون الناس عني، فإن الإنسان خلق من عجل، وإنما أستعجل أنا بإهلاك الظالمين منكم ما وعدني ربي من نصر المؤمنين المصلحين المظلومين، وخذلان الكافرين المفسدين الظالمين، وهو استعجال للخير، وأنتم إنما تستعجلون الشر لأنفسكم، وتقطعون عليها طريق الهداية بإمهال اللَّه لكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين تمكن الظلم من أنفسهم وأحاط بها، فلا رجاء برجوعهم عنه إلى الإيمان والحق والعدل، وبمن ألم بهم الظلم أو ألموا به، ولكنه لم يمح نور الفطرة من أنفسهم، ولم يذهب باستعدادهم للاهتداء إلى الحق الذي أدعوهم إليه. ولما كان ﷻ أعلم بالظالمين لم يجعل أمر عقابهم إلي، فهو عنده لا عندي، ولكل من عذاب الدنيا والآخرة أجل مسمى عنده، يراه قريبًا وترونه بعيدًا، وأيامه تعالى في عالم التكوين وشؤون الأمم ليست قصيرة كأيامنا بل طويلة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[4] فهو لا يؤخر ما وعد به إلى الأجل المسمى عنده إلا لحكمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ

---

(١) الرعد: الآية (٨). (٢) النحل: الآية (٦١).
(٣) الأنفال: الآية (٣٢).
(٤) الحج: الآيتان (٤٧ و ٤٨).

أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]، هذا ما ظهر لنا في قضاء الأمر على تقدير كون ما يستعجلون به في مكنته ﷺ، وليس المراد به إن كان يهلكهم كلهم كما هلكت الأمم التي كذبت الرسل من قبلهم؛ أي: ليس المراد بما يقضي من الأمر هنا عذاب الاستئصال ولا عذاب الآخرة، وإن كانوا قد استعجلوا كلاً منهما، بل نصر الرسول عليهم، وفي قوله: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بإسناد الفعل إلى المفعول إشارة إلى أنه لو كان عنده ﷺ وقضي لما قضي إلا بمشيئة اللّٰه تعالى وقدرته»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية، أمر اللّٰه تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يخبر الكفار أن تعجيل العذاب عليهم الذي يطلبونه منه ﷺ ليس عنده، وإنما هو عند اللّٰه إن شاء عجله، وإن شاء أخره عنهم، ثم أمره أن يخبرهم بأنه لو كان عنده لعجله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

وبين في مواضع أخر أنهم ما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب، وأنهم إن عاينوا ذلك العذاب علموا أنه عظيم هائل لا يستعجل به إلا جاهل مثلهم، كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[4]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[6].

وبين في موضع آخر أنه لولا أن اللّٰه حدد لهم أجلًا لا يأتيهم العذاب قبله لعجله عليهم، وهو قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[7] الآية»[8].

---

(١) الأعراف: الآية (٣٤).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤٥٣-٤٥٦).
(٣) هود: الآية (٨).
(٤) الشورى: الآية (١٨).
(٥) العنكبوت: الآية (٥٤).
(٦) يونس: الآية (٥٠).
(٧) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٨) أضواء البيان (٢/ ١٩٣-١٩٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان رحمة النبي ﷺ بقومه، وتعنتهم في طلب الآيات المهلكة

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن اللَّه قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث اللَّه إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبد اللَّه وحده لا يشرك به شيئًا»[(١)].

★ غريب الحديث:

ابن عبد ياليل: «بتحتانية وبعد الألف لام مكسورة، ثم تحتانية ساكنة، ثم لام.

ابن عبد كلال: بضم الكاف وتخفيف اللام، وآخره لام، واسمه كنانة.. وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف»[(٢)].

على وجهي: أي: انطلقت على الجهة المواجهة لي.

قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد. ويقال له: قرن المنازل أيضًا.

أظلتني سحابة: أي: صرت في ظلها.

أطبق: أي أن يطبق عليهما الجبلين فيصيرا طبقًا واحدًا.

الأخشبين: قال الحافظ: «هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله، وكأنه قعيقعان... وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما»[(٣)].

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٨٤-٣٨٥/ ٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠-١٤٢١/ ١٧٩٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٥-٤٠٦/ ٧٧٠٦).

(٢) الفتح (٦/ ٣٨٨).

(٣) الفتح (٦/ ٣٨٩).

أصلابهم: جمع صلب وهو الظهر.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين؟» فذكر الحديث وقال: «فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل اللَّه أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا- فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فالجواب- واللَّه أعلم- أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له؛ لأوقعه بهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين- وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشمالًا، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم»[1].

قال الحافظ: «في هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[2] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٤) الفتح (٦/ ٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «هذه الآية أصل من أصول عقائد المسلمين، وركن من قواعد الدين، معظمها يتفسر بها»[١].

قال الإمام الطبري: «اللَّه أعلم بالظالمين من خلقه، وما هم مستحقوه، وما هو بهم صانع، فإن عنده علم ما غاب علمه عن خلقه، فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه، ولم يعلموه ولن يدركوه، ويعلم ما في البر والبحر، يقول: وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم؛ لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين يعلمه العباد.

فكان معنى الكلام: وعند اللَّه علم ما غاب عنكم أيها الناس مما لا تعلمونه ولن تعلموه؛ مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء؛ لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس، أو ما لا يخفى عليهم، فأخبر اللَّه تعالى أن عنده علم كل شيء كان ويكون وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: يقول -تعالى ذكره-: ولا تسقط ورقة في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى إلا اللَّه يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد؛ إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوب ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها. ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم»[٢].

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٣٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢١٣).

قال السعدي: «هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا، لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه.

وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين. وأنه يعمل ما في البراري والقفار، من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب. وما في البحار من حيوانات، ومعادنها وصيدها وغير ذلك، مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة إلا يعلمها.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النباتات البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ؛ قد حواها واشتمل عليها.

وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء. فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته؛ لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك. فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد المحيط. وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث»[1].

قال أبو حيان: «ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى الصوف أشياء من ادعاء علم المغيبات، والاطلاع على علم عواقب أتباعهم، وأنهم معهم في الجنة، مقطوع لهم ولأتباعهم بها، يخبرون بذلك على رؤوس المنابر، ولا ينكر ذلك أحد، هذا مع خلوهم عن العلوم، يوهمون أنهم يعلمون الغيب، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: «ومن زعم أن محمدا يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على اللَّه

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤١٠-٤١١).

الفرية»[١] والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢]، وقد كثرت هذه الدعاوى والخرافات في ديار مصر، وقام بها ناس صبيان العقول يسمون بالشيوخ، عجزوا عن مدارك العقل والنقل، وأعياهم طلاب العلوم:

فارتموا يدعون أمرا عظيما ... لم يكن للخليل لا والكليم
بينما المرء منهم في انسفال ... أبصر اللوح ما به من رقوم
فجنى العلم منه غضا طريا ... ودرى ما يكون قبل الهجوم
إن عقلي لفي عقال إذا ما ... أنا صدقت بافتراء عظيم»[٣].

وقال الشوكاني: «في هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة، والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء»[٤].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده. فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء، قال الله تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بالكوكب»[٥]..

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٦/ ٤٩-٥٠)، والبخاري (١٣/ ٤٤٧/ ٧٣٨٠)، ومسلم (١/ ١٥٩/ ١٧٧[٢٨٧])، والترمذي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٣٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧١/ ١١٥٣٢).

(٢) النمل: الآية (٦٥).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٤٩).

(٤) فتح القدير (٢/ ١٧٥-١٧٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤) من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

قال ابن العربي : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر ، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى ، وادعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضًا .

فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدب ولا يسجن .

أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يدرك بالحساب ، وتقدير المنازل حسب ما أخبر اللَّه عنه من قوله : ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[1] .

وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة ، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره ، فيشوشون عقائدهم ، ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبو حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به .

قلت : ومن هذا الباب (أيضًا) ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال : «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[2] ، والعراف : هو الحازر والمنجم الذي يدعي علم الغيب . وهي من العرافة ، وصاحبها عراف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها .

وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم ، وأسباب معتادة في ذلك ، وهذا الفن هو العيافة (بالياء) . وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة ، قاله القاضي عياض . والكهانة : ادعاء علم الغيب .

قال أبو عمر ابن عبد البر في كتاب الكافي : من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ، ومهور البغايا ، والسحت والرشا ، وأخذ الأجرة على النياحة والغناء ، وعلى الكهانة ، وادعاء الغيب ، وأخبار السماء ، وعلى الزمر واللعب والباطل كله .

قال علماؤنا : وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين ، والكهان

(١) يس : الآية (٣٩) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ٦٨) ، ومسلم (٤/ ١٧٥١/ ٢٢٣٠) .

لاسيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين؛ بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر، لقوله ﷺ: «**لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**». فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم؟.

روى مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسول اللَّه ﷺ أناس عن الكهان فقال: «**إنهم ليسوا بشيء**» فقالوا: يا رسول اللَّه، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون معها مائة كذبة**»[1]»[2].

وقال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا اللَّه، وهو كذلك؛ لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم -جل وعلا-. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أن رسول اللَّه ﷺ يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على اللَّه الفرية»[3]، واللَّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4] أخرجه مسلم، واللَّه تعالى في هذه السورة الكريمة أمره ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[5].

ولذا لما رميت عائشة رضي الله عنها بالإفكِ لم يعلم أهي بريئة أم لا، حتى أخبره اللَّه تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[6].

وقد ذبح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجله للملائكة، ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه، وقالوا له: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[7]، ولما جاءوا لوطًا لم يعلم أيضًا أنهم ملائكة، ولذا ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٧)، والبخاري (١٠/ ٢٦٦/ ٥٧٦٢)، ومسلم (٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤-٥).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) النمل: الآية (٦٥).
(٥) الأنعام: الآية (٥٠).
(٦) النور: الآية (٢٦).
(٧) هود: الآية (٧٠).

عَصِيبٌ﴾(١) يخاف عليهم من أن يفعل بهم قومه فاحشتهم المعروفة حتى قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(٢) ولم يعلم خبرهم حتى قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾(٣) الآيات.

ويعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهره اللَّه خبر يوسف.

وسليمان عليه السلام مع أن اللَّه سخر له الشياطين والريح ما كان يدري عن أهل مأرب قوم بلقيس حتى جاءه الهدهد، وقال له: إني ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٤) الآيات.

ونوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ما كان يدري أن ابنه الذي غرق ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾(٥) الآية، ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أخبره اللَّه بقوله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٦). وقد قال تعالى عن نوح في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾(٧) الآية، والملائكة -عليهم الصلاة والسلام- لما قال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾(٨).

فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل، والملائكة، لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم اللَّه تعالى، وهو تعالى يعلم رسله من غيبه ما شاء، كما أشار له بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(٩)، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١٠) الآية»(١١).

قال الرازي: «الحبة في غاية الصغر، وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفيا فيها، فإذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات

(١) هود: الآية (٧٧).
(٢) هود: الآية (٨٠).
(٣) هود: الآية (٨١).
(٤) النمل: الآية (٢٢).
(٥) هود: الآية (٤٥).
(٦) هود: الآية (٤٦).
(٧) هود: الآية (٣١).
(٨) البقرة: الآيتان (٣١و٣٢).
(٩) آل عمران: الآية (١٧٩).
(١٠) الجن: الآيتان (٢٦ و٢٧).
(١١) أضواء البيان (٢/ ١٩٥-١٩٧).

الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم اللّٰه تعالى البتة؛ صارت هذه الأمثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بحيث تتحير العقول فيها، وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مباديها»[1].

قلت: هكذا تتوارد أقوال أئمة التفسير العقلاء في هذه القضية، وهي قضية علم الغيب، الذي ادعاه لنفسه أقوام ممن ينتسبون إلى التصوف والولاية، وهذه القضية هي التي يسعى الصوفية دائما إلى تحقيق الاتصاف بها، ويزعمون أن الحجب قد زالت بينهم وبينها، ويعبرون عنها بالكشف، ويستعملون بزعمهم وسائل كثيرة للوصول إليها؛ كالجوع، والسهر، والرياضة المستمرة، والجلوس في الظلام والسياحة في البراري والكهوف، والتدثر بالأكسية، والذكر المبتدَع على حد تعبيرهم، وغيرها من الوسائل المفتعلة المبتدعة التي يجتهدون في استعمالها حتى يصلوا بزعمهم إلى مرتبة علم الغيب.

ولا شك أن هذه الوسائل شيطانية، يمليها عليهم إبليس اللعين، وقد أوغل الغزالي في هذا الأمر، وجعله من أعمدة إحياء علوم الدين، ولا شك أن ادعاءه هو الكفر الصراح، البواح. فعلم الغيب قد استأثر اللّٰه به، وهو من صفاته، وكما سبق في كلام أئمة العلم أنه يعلمه رسله من غيبه ما شاء، أما المشاركة له -تبارك وتعالى- المطلقة فذلك مما لم يدَّعِه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وعلى كل حال، فالمتصوفة في كل زمان ومكان يحاولون أن يقنعوا عامة الناس بأنهم موصوفون بهذه الصفة، وهي ما يسمى بالكشف، وهي من أصولهم الباطلة التي فاقوا فيها السحرة، والكهان، والمنجمين، فادعاء الصوفية أنهم ينظرون في اللوح المحفوظ - إن صدقوا فيما يزعمون - فهو من وحي إبليس. فليتنبه لهؤلاء المنحرفين الضالين، الذين أهلكوا الحرث والنسل بكثرة دعاويهم الكاذبة، وادعاءهم ما لا يليق إلا باللّٰه ﷻ.

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر**»[١].

★ غريب الحديث:

المفاتح: جمع مفتح. الآلة التي يفتح بها.

★ فوائد الحديث:

قال ابن أبي جمرة: «ما الحكمة في أن استعار للغيب مفاتيح؟ فلوجوه منها: الاقتداء بما به نطق الكتاب في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾. ومنها: لتقريب الأمر على المخاطب؛ لأن أمور الغيب لا يحصيها أحد إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه فهو غيب، وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، والأبواب أقل ما يحبسها عن الفتح، وأيسرها المفاتيح، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب، لا يعرف لها أحد موضعا، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر من ذلك؟ هذا محال، وهذا من أبلغ البيان وأخصره.

ومنها: أنه أراد بالغيب الغيب الذي لا يعلمه أحد حقيقة؛ لأن الغيوب على ما هي عليه وإن كانت لبعض الغيوب أسباب[٢] قد يستدل في بعض المراد بها عليه أن ذلك ليس بحقيقي في علم تلك الغيوب، وأما حقيقتها فلا يعلمها أحد إلا اللَّه تعالى، يشهد لهذا التوجيه قوله ﷺ كناية عن اللَّه سبحانه: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل اللَّه ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[٣]

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٢)، والبخاري (٢/ ٦٦٦-٦٦٧/ ١٠٣٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٨).

(٢) في الأصل: أسبابا.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٩/ ١٠٧٦١).

فعلى هذا فالغيب على نوعين: غيبه سبحانه عنا بذاته وصفاته، وغيب بالأمور الجارية في مخلوقاته، فلما كانت تلك الأمور غائبة عنا لا نقدر على العلم بها، ولا الوصول إليها، وهي محصورة بالكتاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ولقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1] فلما كان جميع الوجود محصورا في علمه سبحانه؛ شبهه ﷺ بالمخازن، وكل مخزن لابد له من باب، وكل باب لابد له من مفتاح. فاستعار ﷺ له المفاتيح يشهد لهذا التوجيه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2] فإذا كانت الخزائن عنده سبحانه والمفاتيح واحد، لا نعلم المفاتيح أين هي؟ فكيف يخبر بما في المخازن؟ هذا لا يتعقل، وإذا كانت هذه التي هي أثر قدرته سبحانه، ولا يقدر أحد أن يعلم منها شيئًا إلا أن يخبره سبحانه بها، كما قال تعالى في كتابه: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3]؛ فكيف بقدرته جل اللّه، أو بصفة من صفاته على ما هي عليه من الجلال والكمال، فكيف بذاته التي ليس كمثلها شيء، هذا ممنوع عقلا وشرعا، ومن تعانى شيئًا من المعرفة في شيء مما قسمنا من الغيوب، أو نوع من أنواعه، أو تشبيه أو تمثيل بدليل من الأدلة؛ فمحال دعواه، وهو ضرب من الحمق»[4].

قوله: «ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا» قال ابن العربي: «وهو معنى خبأه اللّه سبحانه عن الخلق تحت أستار الأقدار، بحكمته القائمة، وحجته البالغة، وقدرته القاهرة، ومشيئته النافذة. فكائنات غد تحت حجاب اللّه، ونبه بالكسب عن تعميتها؛ لأنه أوكد ما عند المرء للمعرفة، وأولاه للتحصيل، وعليه يتركب العمر والرزق، والأجل، والنجاة، والهلكة، والسرور، والغم، والغرائز المزدوجة في جبلة الآدمي من مفروح به أو مكروه له»[5].

وقال ابن أبي جمرة: «ما الحكمة في أن جعلها خمسا؟ وهل للغيب زيادة على

---

(١) طه: الآيتان (٥١ و٥٢).

(٢) الحجر: الآية (٢١).

(٣) الجن: الآية (٢٧).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ٢٧١-٢٧٢).

(٥) أحكام القرآن (٢/ ٧٣٦).

هذه المفاتيح؟ فاعلم وفقنا اللَّه وإياك أن الحكمة في أن جعلها خمسا، الكلام عليه مثل ما تقدم الكلام على قول عائشة ﵂: «كان رسول اللَّه ﷺ يحب التيامن في شأنه كله» ثم قالت: «في طهوره وترجله وتنعله»[1] فأتت من الفرائض بآكدها وهو الطهور، ومن السنة كذلك وهو الترجل، ومن المباح كذلك وهو التنعل. فحصرت بهذه الثلاث جميع ما يتصرف فيه المرء وكذلك هذه الخمس حصر بها ﷺ العوالم»[2].

وقال: «فهذا من أبدع الكلام وأبلغه الذي حصر فيه جميع أنواع الغيوب، وأزال به جميع الدعاوى الفاسدة، والأدلة كلها ما عدا أدلة الشريعة على الحد الذي جعلتها، وعلى الوجه الذي بينتها، وتحقق به لأهل الإيمان إيمانهم وحسن اعتقادهم بغير سير ولا تقسيم ولا تنويع، ولا تخييل ولا تحديد ولا تكييف، ولا دعوى ولا اعتراض ولا مقدمة ولا نتيجة، ولا هياكل ولا عناصر ولا أعراض ولا جواهر، ولا حكمة ولا طباع، إلا بفضل كريم وهاب، عليم قدير مدبر حكيم، ليس كمثله شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وهو اللطيف الخبير»[3].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث.** » قال: ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد اللَّه ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**». قال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». قال: متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله**». ثم تلا النبي ﷺ: «﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾» الآية. ثم أدبر. فقال: «**ردوه**». فلم

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٤)، والبخاري (١/ ٣٥٨/ ١٦٨)، ومسلم (١/ ٢٢٦/ ٢٦٨)، وأبو داود (٤/ ٣٧٨/ ٤١٤٠)، والترمذي (٢/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٦٠٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٨٣/ ١١٢)، وابن ماجه (١/ ١٤١/ ٤٠١).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٢٧٢).

(٣) بهجة النفوس (٤/ ٢٧٤).

يروا شيئًا. فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «متى الساعة؟»: قال القرطبي: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها، إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[٢]، و﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[٣] وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه النبي ﷺ: بأنه لا يعلمها إلا اللّه، يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأخر، فإن مقصودها استخراج الأجوبة عنها ليستعملها السامعون، ويعمل بها العاملون»[٤].

وقال ابن رجب: «فهذا الحديث قد اشتمل على أصول الدين ومهماته وقواعده؛ ويدخل فيه الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة، فجميع علوم الشريعة ترجع إليه، من أصول الإيمان والاعتقادات، ومن شرائع الإسلام العملية بالقلوب والجوارح، ومن علوم الإحسان ونفوذ البصائر في الملكوت. وقد قيل: إنه يصلح أن يسمى (أم السنة)؛ لرجوعها كلها إليه كما تسمى الفاتحة (أم الكتاب) و (أم القرآن) لمرجعه إليها»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩/ ٩)، وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤)، ورواه من حديث أبي هريرة وأبي ذر معا: أبو داود (٥/ ٧٤/ ٤٦٩٨) مختصرا، دون ذكر محل الشاهد. والنسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦) بطوله.

(٢) النازعات: الآية (٤٢).

(٣) الأحزاب: الآية (٦٣).

(٤) المفهم (١/ ١٥٤-١٥٥).

(٥) فتح الباري لابن رجب (١/ ٢٢١-٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: وقل لهم يا محمد، واللَّه أعلم بالظالمين: واللَّه هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل، فيقبضها من أجسادكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ يقول: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. . . وهذا الكلام وإن كان خبرا من اللَّه تعالى عن قدرته وعلمه؛ فإن فيه احتجاجا على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم، فقال تعالى محتجا عليهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يقول: فالذي يقبض أرواحكم بالليل، ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلا مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحته، غير منكر له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردها إلى أجسادكم وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون، وغير منكر لمن قدر على ما تعاينون من ذلك القدرة على ما لم تعاينوه، وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك؛ شبيه ما رأيتم وعاينتم. . ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: يعني -تعالى ذكره-: ثم يبعثكم، يثيركم ويوقظكم من منامكم فيه، يعني في النهار، والهاء التي فيه راجعة على النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يقول: ليقضي اللَّه الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت فيبلغ مدته ونهايته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يقول: ثم إلى اللَّه معادكم ومصيركم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»[1].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١٤-٢١٥).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، فذكر في هذه الآية الوفاتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار، وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[3]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟﴾[4]؛ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[5]؛ أي: في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[6] ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: في النهار، قاله مجاهد وقتادة والسدي. . . وقوله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعني به أجل كل واحد من الناس، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر»[7].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾ الآية: فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور، أن هذا أيضًا إماتة وبعث على نحو مّا»[8].

وقال القرطبي: «ومعنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم، فإنه أحصى كل شيء عددا، وعلمه وأثبته، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق

---

(١) آل عمران: الآية (٥٥).
(٢) الزمر: الآية (٤٢).
(٣) الرعد: الآية (١٠).
(٤) القصص: الآية (٧٣).
(٥) القصص: الآية (٧٣).
(٦) النبأ: الآيتان (١٠ و١١).
(٧) ابن كثير (٣/ ٢٦١-٢٦٢).
(٨) المحرر الوجيز (٢/ ٣٠٠).

وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم.

وقد دل على الحشر والنشر بالبعث؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾: واللّٰه الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلل المغلوب عليه لذلته ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلا ونهارا، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه، ولا يضيعون. . . يقول -تعالى ذكره-: إن ربكم يحفظكم برسل يعقب بينها يرسلهم إليكم بحفظكم، وبحفظ أعمالكم إلى أن يحضركم الموت، وينزل بكم أمر اللّٰه، فإذا جاء ذلك أحدكم توفاه أملاكنا الموكلون بقبض الأرواح، ورسلنا المرسلون به، وهم لا يفرطون في ذلك فيضيعونه.

فإن قال قائل: أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ والرسل جملة وهو واحد، أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1]؟ قيل: جائز أن يكون اللّٰه تعالى أعان ملك الموت بأعوان من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون التوفي مضافا، وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت، إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره؛ كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده»[2].

وقال أبو حيان: «ولا تعارض بين قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3]، وبين قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[4]، وبين قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ لأن نسبة

(١) السجدة: الآية (١١).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢١٧).
(٣) الزمر: الآية (٤٢).
(٤) السجدة: الآية (١١).

ذلك إلى اللَّه تعالى بالحقيقة، ولغيره بالمباشرة، ولملك الموت لأنه هو الآمر لأعوانه وله ولهم بكونهم هم المتولون قبض الأرواح»(١).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الآية، لم يبين هنا ماذا يحفظون، وبينه في مواضع أخر فذكر أن مما يحفظونه بدن الإنسان بقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (٢)، وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر، بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٣) وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٤)، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٥)»(٦).

* * *

(١) البحر المحيط (٤/ ١٥٢).
(٢) الرعد: الآية (١١).
(٣) الانفطار: الآيات (١٠-١٢).
(٤) ق: الآيتان (١٧ و ١٨).
(٥) الزخرف: الآية (٨٠).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

وقال الطبري -عند قوله تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾-: «يقول -تعالى ذكره- ثم ردت الملائكة الذين توفوهم، فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى اللَّه سيدهم الحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس، وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها؛ لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتاب مبين»[1].

وقال ابن كثير: «ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: الخلائق كلهم إلى اللَّه يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾[2]، وقال: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[3]؛ ولهذا قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾[4]»[5].

وقال أبو حيان: «الظاهر عود الضمير على العباد، وجاء ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على سبيل الالتفات لما في الخطاب من تقريب الموعظة من السامعين، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ على ﴿أَحَدَكُمُ﴾ على المعنى لأنه لا يريد بـ﴿أَحَدَكُمُ﴾ ظاهره من الإفراد إنما معناه الجمع، وكأنه قيل: حتى إذا جاءكم الموت، وقرئ (رِدُّوا) بكسر

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).
(٢) الواقعة: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٣) الكهف: الآيات (٤٧-٤٩).
(٤) الأنعام: الآية (٦٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٦٣).

الراء نقل حركة الدال التي أدغمت إلى الراء، والراد المحذر من اللَّه أو بالبعث في الآخرة أو الملائكة ردّتهم بالموت إلى اللَّه. وقيل: الضمير يعود على ﴿رُسُلُنَا﴾ أي الملائكة يموتون كما يموت بنو آدم، ويردّون إلى اللَّه تعالى، وعوده على العباد أظهر، و﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين اللَّه وبين عبيده من الملك والنصرة والرزق والمحاسبة وغير ذلك، وفي الإضافة إشعار برحمته لهم، وظاهر الإخبار بالرد إلى اللَّه أنه يراد به البعث والرجوع إلى حكم اللَّه وجزائه يوم القيامة، ويدل عليه آخر الآية»[١].

وقال المراغي: «وفي الآية إيماء إلى أن ردهم إليه حتم؛ لأنه سيدهم الذي يتولى أمورهم، ويحكم بينهم بالحق. وأما تولي بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة، فمنه ما هو باطل من وجه، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لا ثبات له ولا بقاء، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره في سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا، وبقي المولى الحق وحده»[٢].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ تذييل، ولذلك ابتدئ بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر. والعرب يجعلون التذييلات مشتملة على اهتمام أو عموم أو كلام جامع.

وقدّم المجرور في قوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ للاختصاص، أي له لا لغيره، فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصره على اللَّه إمَّا حقيقي للمبالغة لعدم الاعتداد بحكم غيره، وإمَّا إضافي للردّ على المشركين، أي ليس لأصنامكم حكم معه، وإن كان المراد من الحكم الحساب، أي الحكم المعهود يوم القيامة، فالقصر حقيقي. وربَّما ترجَّح هذا الاحتمال بقوله عقبه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أي ألاَ له الحساب، وهو أسرع من يحاسب فلا يتأخَّر جزاؤه.

وهذا يتضمَّن وعدًا ووعيدًا؛ لأنَّه لمَّا أتي بحرف المهلة في الجمل المتقدّمة وكان المخاطبون فريقين: فريق صالح وفريق كافر، وذكر أنَّهم إليه يرجعون كان

---

(١) البحر المحيط (٤/ ١٥٣).

(٢) تفسير المراغي (٧/ ١٤٩-١٥٠).

المقام مقام طماعية ومخالفة؛ فالصالحون لا يحبّون المهلة، والكافرون بعكس حالهم، فعُجِّلت المسرّة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾»[(١)].

قال السعدي: «﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير. ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب. ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا، من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبته في اللوح المحفوظ، ثم أثبته ملائكته في الكتاب، الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المتفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء، في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين، العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!.

أما والله لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرأون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم؛ لتجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه. ولمقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون»[(٢)].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤١٢-٤١٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الكرب: الغم الشديد. مأخوذ من كرب الأرض وهو إثارتها وقلبها بالحفر؛ إذ الغم يثير النفس كذلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما تقدم ذكره دلائل على ألوهيته تعالى من العلم التام والقدرة الكاملة، ذكر نوعًا من أثرهما وهو الإنجاء من الشدائد، وهو استفهام يراد به التقرير، والإنكار، والتوبيخ، والتوقيف على سوء معتقدهم عند عبادة الأصنام، وترك الذي ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه في كشفها. قيل: وأريد حقيقة الظلمة وجمعت باعتبار موادها، ففي البر والبحر ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الصواعق، وفي البر أيضًا ظلمة الغبار وظلمة الغيم وظلمة الريح، وفي البحر أيضًا ظلمة الأمواج ويكون ذلك على حذف مضاف التقدير مهالك ظلمة البر والبحر ومخاوفها»[1].

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم، الداعين لك إلى عبادة أوثانهم: من الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل فلا تهتدون له، غير اللَّه الذي مفزعكم حينئذ بالدعاء تضرعا منكم إليه واستكانة، جهرا وخفية، يقول: وإخفاء للدعاء أحيانا، وإعلانا وإظهارا، تقولون: لئن أنجيتنا من هذه يا رب: أي

(١) البحر المحيط (٤/ ١٥٤).

من هذه الظلمات التي نحن فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يقول: لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة دون من كنا نشركه معك في عبادتك . . . ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة: إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر: اللَّه القادر على فرجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من هم الضلال، وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهم لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضر، ثم أنتم بعد تفضله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب، ودفع الحال بكم من جسيم الهم تعدلون به آلهتكم وأصنامكم فتشركونها في عبادتكم إياه، وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأياديه عندكم، وتعرض منكم لإنزال عقوبته عاجلا بكم»[1].

قال الرازي: «بين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة؛ بأنه لا ملجأ إلا إلى اللَّه، ولا تعويل إلا على فضل اللَّه، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات، لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك. ومن المفسرين من يقول: المقصود من هذه الآية الطعن في إلهية الأصنام والأوثان. وأنا أقول: التعلق بشيء مما سوى اللَّه في طريق العبودية يقرب من أن يكون تعلقا بالوثن، فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفي، ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور؛ أحدها: الدعاء. وثانيها: التضرع. وثالثها: الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ ورابعها: التزام الاشتغال بالشكر، وهو المراد من قوله ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ثم بين تعالى أنه ينجيهم من تلك المخاوف، ومن سائر موجبات الخوف والكرب. ثم إن ذلك الإنسان يقدم على الشرك، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[3]. وبالجملة فعادة أكثر الخلق ذلك؛

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١٨-٢١٩).
(٢) الإسراء: الآية (٦٧).
(٣) يونس: الآية (٢٢).

إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: جهرا وسرا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: بعدها، قال اللَّه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أي: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الالتجاء إلى اللَّه في الشدة والرخاء

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن، يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر -ثم يسميه بعينه- خيرا لي في عاجل أمري وآجله» -قال: «أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري»- «فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه. اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» -أو**

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٢٣).
(٢) الإسراء: الآية (٦٧).
(٣) يونس: الآية (٢٢).
(٤) النمل: الآية (٦٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٦٣-٢٦٤).

قال: «في عاجل أمري وآجله»- «فاصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «لما أن كان هذا الدعاء من أكبر الأشياء؛ إذ أنه ﷺ أراد به الجمع بين صلاح الدين والدنيا والآخرة، فطالب هذه الحاجة يحتاج إلى قرع باب الملك بأدب وحال يناسب ما يطلب، ولا شيء أرفع مما يقرع به باب المولى من الصلاة؛ لما فيها من الجمع بين التعظيم لله سبحانه، والثناء عليه، والافتقار إليه؛ حالا ومقالا وذكره ﷻ، وتلاوة كتابه الذي به مفاتح الخير من الشفاء والهدى والرحمة وغير ذلك مما هو فيه منصوص»[2].

وقال ابن القيم: «فعوض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين يطلبون بها علم ما قسم لهم في الغيب، ولهذا سمي ذلك استقساما، وهو استفعال من القسم والسين فيه للطلب، وعوضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار، وعبودية وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه، فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد طالع أهل السعادة والتوفيق الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون.

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم، والقدرة، والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه، والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه، وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٤)، والبخاري (١٣/ ٤٦٤/ ٧٣٩٠)، وأبو داود (٢/ ١٨٧-١٨٨/ ١٥٣٨)، والترمذي (٢/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٤٨٠)، والنسائي (٦/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٣٢٥٣)، وابن ماجه (١/ ٤٤٠/ ١٣٨٣).

(٢) بهجة النفوس (٢/ ٨٨).

(٣) زاد المعاد (٢/ ٤٤٣-٤٤٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يلبسكم: اللبس: اختلاط الأمر وعدم بيانه.

شيعًا: فرقا وطوائف.

نصرف: الصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «إن اللَّه تعالى توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان، وإياهم خاطب بها؛ لأنها بين إخبار عنهم، وخطاب لهم، وذلك أنها تتلو قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ويتلوها قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[1] وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين. فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كما بينا أن ذلك وعيد لمن تقدم وصف اللَّه إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب، لا لمن لم يجر له ذكر، غير أن ذلك وإن كان كذلك فإنه قد عم وعيده بذلك كل من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على اللَّه وعلى رسوله، والتكذيب بآيات اللَّه من هذه وغيرها. وأما الأخبار التي رويت عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة**»[2] فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدا لمن ذكرت من المشركين، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم، فسأل رسول اللَّه ﷺ ربه أن يعيذ أمته، مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من اللَّه تعالى بمعصيتهم إياه هذه

(١) الأنعام: الآية (٦٦).

(٢) سيأتي تخريجه في الباب.

العقوبات، فأعاذهم بدعائه إياه ورغبته إياه من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها، ولم يعذبهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها. وأما الذين تأولوا أنه عنى بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة؛ فإني أراهم تأولوا أن في هذه الأمة من سيأتي من معاصي اللّه، وركوب ما يسخط اللّه، نحو الذي ركب من قبلهم من الأمم السالفة من خلافه والكفر به، فيحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من المثلات والنقمات»[1].

وقال أبو حيان: «الظاهر ﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الحقيقة كالصواعق، وكما أمطر على قوم لوط وأصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان، كقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[2] وكالزلازل، ونبع الماء المهلك، وكما خسف بقارون. وقال السدي عن أبي مالك وابن جبير: الرجم والخسف»[3].

وقال القاسمي: «والظاهر أن السلف كانوا يتلون بعض الآيات في بعض المقامات، إشعارا بأن معناها يحاكي تلك الواقعات، لا أنها نزلت في تلك القضيات. ومن ذلك قول أبي بن كعب، قال في هذه الآية: هن أربع خلال، كلهن واقع، منها ثنتان بعد وفاة رسول اللّه ﷺ بخمس وعشرين (ألبسوا شيعا) و(ذاق بعضهم بأس بعض)، وبقيت اثنتان لا بد منهما الرجم والخسف -رواه أحمد وغيره[4]- وقد أعل هذا الأثر بأن أبيًا لم يدرك سنة خمس وعشرين من الوفاة النبوية، وكأن التقييد بذلك من كلام أبي العالية، رواية عنه. وبالجملة فاستشهاد السلف بالآيات في بعض الشؤون للإشعار المذكور مما لا ينكر، فافهم ذلك، فإنه ينفعك في مواطن كثيرة»[5].

قال محمد رشيد رضا: «فهذا تذكير بقدرته على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيتهم، لا فرق فيهما بين أفرادهم وبين مجموعهم وجملتهم، وإنذار بأن

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٢٥-٢٢٦).
(٢) القمر: الآية (١١).
(٣) البحر المحيط (٤/ ١٥٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٥)، والطبري (١١/ ٤٣٢ شاكر)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١) وقال: «رجاله ثقات»، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٥) محاسن التأويل (٦/ ٥٧٤).

عاقبة كفر النعم، أن تزول وتحل محلها النقم. والمعنى: قل أيها الرسول لقومك ومن وراءهم من الكافرين بنعم اللَّه، الذين يشركون به سواه، ولا يشكرون له ما من به من النعم وأسداه، ومن الذين يتنكبون سنن اللَّه، ويختلفون في الكتاب بعد أن هداهم به الله: هو اللَّه القادر على أن يثير ويرسل عليكم عذابا تجهلون كنهه، فيصبه عليكم من فوقكم، أو يثيره من تحت أرجلكم، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا، مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم تشايع إماما في الدين، أو تتعصب لملك أو رئيس، ويذيق بعضكم بأس بعض، وهو ما عنده من الشدة والمكروه في السلم والحرب»[1].

وقال أيضًا: «هذه الآية عامة وإن نزلت في سياق إنذار مشركي مكة وإقامة الحجة عليهم، فالعبرة فيها كغيرها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أو مقتضى السياق كما تقرر في الأصول»[2].

وقال المراغي: «فهذه الآية ظهر تفسيرها بأجلى برهان في هذه الحروب في العصر الحديث مما لم يسبق له نظير، ولم يكن البشر على علم منه، فقد أرسل اللَّه فيها على الأمم المحاربة عذابا من فوقها بما تقذفه الطائرات والمطاود وقاذفات القنابل التي تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة، ومن المواد المحرقة، وصارت تمشي آلاف الأميال لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى، وتجعل عاليها سافلها، بما تصب فيها من عل، من الحمم المتقدة والنيران المشتعلة، حتى ليراها الرائي كأنها بركان ثائر يريد أن يبتلع من حوله، ويلتهم جميع ما فوق سطح الأرض. وكذلك مقذوفات المدافع البعيدة المدى التي تطلق قناطير من أفواهها وترسله من فوق من مواد قاتلة مما لم يعرف الناس له نظير من قبل.

وكذلك يأتيها العذاب من تحتها بما تحدث السفن الغواصة في البحار بما ترسله من (الطور بيد) الحامل للقناطير المقنطرة من مختلف المعادن، وتتحين به الفرص لمقابلة سفن العدو فتصبه عليها صبا، وتهلك به مختلف السفن ولا تقوى على النجاة منها مهما عظم حجمها ودق صنعها؛ بل لا بد أن تهوي في قاع البحار إذا

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٤٩٠-٤٩١).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٤٩٣).

قدر لها أن تصاب به، فكم من سفينة غرقت؟ وكم من روح زهق به وأصبح طعاما للسمك وحيوان البحر.

وكذلك جعل أمم أوربا شيعا متعادية. وأذاق بعضها بأس بعض، فحل بها من التقتيل والتخريب ما لو لم نره بأعيننا ونسمع عنه الأحاديث المستفيضة التي لا تقبل شكا ولا ريبا؛ لكنا في موضع الشك فيه، لغرابته وشدة هوله وذهول الناس حين رؤيته، فترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنهم من الذعر وشدة الخطب حيارى، لا يدرون ماذا هم فاعلون، ولا أي مكان يسلكون؛ ليتقوا ذلك الهلاك المحقق، والعذاب الذي لا بد واقع بهم إلا من رحم الله»[1].

قلت: صدق اللّه العظيم، وهذا من الآيات الماثلة التي أصبح يعرفها أهل الأرض كلهم، فوسائل الإعلام تنقل كل حركات وسكنات الحروب القائمة بين الأمم، فترى التخريب الذي يقع في الأمم ما لا يخطر بالبال، وأكثره في هذه الأيام في بلاد الإسلام فيما يقع في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وكشمير، والشيشان مما يبعث على الهول، ويرى الناظر صدق آيات اللّه التي لا تتخلف، فاللهم نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فقد سلط اللّه العدو على بلاد المسلمين، ليذيقهم بأسه، ويسيمهم عذابه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الاختلاف، وأنه سبب كل شر

* عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول اللّه ﷺ: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: «هذا أهون أو أيسر»[2].

---

(١) تفسير المراغي (٧/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٩)، والبخاري (٨/ ٣٧٠-٣٧١/ ٤٦٢٨)، والترمذي (٥/ ٢٤٤/ ٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٠/ ١١١٦٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «الآية عامة في المسلمين والكفار، وقيل هي في الكفار خاصة وقال الحسن: هي في أهل الصلاة.

قلت: وهو الصحيح؛ فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا، واستباحة بعضنا أموال بعض. نعوذ باللَّه من الفتن، ما ظهر منها وما بطن»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن، وحدثت البدع والفجور، ووقع الشر بينهم. كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين، ومنعني الثالثة، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[2] والبأس مشتق من البؤس. قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**»؛ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «**أعوذ بوجهك**»؛ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: «**هاتان أهون**». فدل على أنه لابد أن يلبسهم شيعا، ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول في هذه الحال، وهم فيها في جاهلية. . .

وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين، وكذلك سائر أهل الأهواء، فإنهم يبتدعون بدعة، ويكفرون من خالفهم فيها، كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء؛ ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها، واستحلوا منع حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث اللَّه به الرسول ﷺ إما عادلون، وإما ظالمون، فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء، ولا يظلم غيره،

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٨-٩).

(٢) سيأتي تخريجه في الصفحة الموالية.

والظالم الذي يعتدي على غيره، وهؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1] وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا»[2].

قال البغوي: « ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلطكم خلط اضطراب، وأراد به الأهواء المتفرقة، فيصيرون فرقا مختلفة. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: هو وقوع الهرج حتى يقتل بعضهم بعضا. وهذان: وهو الافتراق والقتل ثابت في هذه الأمة، وقد سل السيف من زمن عثمان، فلا يغمد إلى قيام الساعة»[3].

قال الشاطبي عند قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: «عن ابن عباس: أن لبسهم شيعا هو الأهواء المختلفة.

ويكون على هذا قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا؛ كما جرى للخوارج حين خرجوا عن أهل السنة والجماعة وهذا كله صريح في أن اختلاف الأهواء مكروه غير محبوب، ومذموم غير محمود»[4].

* عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع فيه ركعتين. وصلينا معه، ودعا ربه طويلا، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: «**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة؛ سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[5].

* عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من**

(١) آل عمران: الآية (١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١٠-٣١٢).
(٣) شرح السنة (١٤/ ٢١٧-٢١٨).
(٤) الاعتصام (١/ ٨٦-٨٧ تحقيق مشهور آل سلمان).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٥ و١٨١-١٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٢١٦/ ٢٨٩٠).

بأقطارها» -أو قال: من بين أقطارها- «حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا»[١].

* عن جابر بن عتيك ﷺ قال: جاءنا عبد اللَّه بن عمر في بني معاوية، قرية من قرى الأنصار، فقال لي: هل تدري أين صلى رسول اللَّه ﷺ من مسجدكم هذا؟ قلت: نعم. فأشرت له إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟ فقلت: نعم. قال: أخبرني بهن. فقلت: دعا بأن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين، فأعطيهما، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة[٢].

⋆ غريب الأحاديث:

السنة: قال القرطبي: «يعني بالسنة: الجدب العام الذي يكون به الهلاك العام. ويسمى الجدب والقحط: سنة، ويجمع سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [٣] أي: بالجدب المتوالي»[٤].

بيضتهم: قال القاضي عياض: «أي جماعتهم وأصلهم، وهو مأخوذ من بيضة الطائر لتحصينها ما فيها، واجتماعها عليه، والبيضة أيضًا: العز. والبيضة أيضًا: الملك»[٥].

الهرج: الاختلاط: هرج الناس يهرِجون؛ بالكسر هرجا من الاختلاط أي اختلطوا. وأصل الهرج: الكثرة في الشيء و الاتساع. والهرج: الفتنة في آخر الزمان. والهرج: شدة القتل وكثرته. وفي الحديث: بين يدي الساعة هرج أي: قتال واختلاط.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال محمد رشيد رضا: «ولم يجرهم من العذابين الآخرين لأنه لابد أن يتبعوا

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٨-٢٨٤)، ومسلم (٤/ ٢٢١٥/ ٢٨٨٩)، وأبو داود (٤/ ٤٥٠-٤٥٢/ ٤٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٤١٠/ ٢١٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤/ ٣٩٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢١) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وصححه الحاكم (٤/ ٥١٧)، ووافقه الذهبي.

(٣) الأعراف: الآية (١٣٠).

(٤) المفهم (٧/ ٢١٧).

(٥) إكمال المعلم (٨/ ٤٢٧).

سنن من قبلهم من أهل الكتاب، ويحل ما حل بهم من عذاب التفرق والخلاف، وذلك مقتضى سنته تعالى في عقاب أتباع الرسل، يختلفون في الدين الجامع لكلمتهم، فيكونون مذاهب وشيعا، ويتبع ذلك اختلافهم في السلطة والسياسة أو يتقدمه، ويترتب عليه التخاصم والاقتتال الذي نعهده، وهذا معنى قضاء اللّٰه في حديث ثوبان»[١].

قال شيخ الإسلام: «هذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن التفرقة والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة، وكان يحذر أمته، لينجو منه من شاء اللّٰه له السلامة، كما روى النزال بن سبرة عن عبد اللّٰه بن مسعود قال: (سمعت رجلا قرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «**كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[٢] رواه مسلم.

نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق؛ لأن كلا القارئين كان محسنا فيما قرأه، وعلل ذلك: بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا. ولهذا قال حذيفة لعثمان: (أدرك هذه الأمة، لا تختلف في الكتاب كما اختلف فيه الأمم قبلهم)[٣] لما رأى أهل الشام والعراق يختلفون في حروف القرآن، الاختلاف الذي نهى عنه النبي ﷺ.

فأفاد ذلك شيئين: أحدهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا.

والثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا، والحذر من مشابهتهم.

واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة، الذي يورث الأهواء، تجده من هذا الضرب، وهو: أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبا فيما يثبته، أو في بعضه، مخطئا في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئين كل منهما كان مصيبا في القراءة بالحرف الذي علمه، مخطئا في نفي حرف غيره، فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٤٩٤).

(٢) لم نجده في مسلم وإنما رواه: أحمد (١/ ٣٩٣)، والبخاري (٥/ ٨٩/ ٢٤١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣/ ٨٠٩٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٩/ ١٣/ ٤٩٨٧)، والترمذي (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٣١٠٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٦/ ٧٩٨٨).

الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه. ولهذا نهيت هذه الأمة أن تضرب آيات اللَّه بعضها ببعض؛ لأن مضمون الضرب: الإيمان بإحدى الآيتين، والكفر بالأخرى -إذا اعتقد أن بينهما تضادا- إذ الضدان لا يجتمعان»[١].

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل واضح على أن دين محمد ﷺ لا يزال إلى أن تقوم الساعة، ولا يهلك أمة محمد ﷺ عدو يستأصلها أبدا، وأنها في أكثر أقطار الأرض؛ والحمد لله كثيرًا. وفيه دليل على أن الفتن لا تزال في أمة محمد ﷺ يقتل بعضها بعضا ما بقيت الدنيا؛ لأنه قد منع ﷺ ألا يجعل بأسهم بينهم»[٢].

قال القرطبي: «يقتضي ظاهر هذا الكلام: أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم، إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض. وحاصل هذا: أنه إذا كان من المسلمين ذلك تفرقت جماعتهم، واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، فقويت شوكة العدو، واستولى كما شاهدناه في أزماننا هذه في المشرق والمغرب، وذلك أنه لما اختلف ملوك الشرق وتجادلوا؛ استولى كافر الترك على جميع عراق العجم، ولما اختلف ملوك المغرب وتجادلوا؛ استولت الإفرنج على جميع بلاد الأندلس، والجزر القريبة منها، وهاهم قد طمعوا في جميع بلاد الإسلام، فنسأل اللَّه أن يتدارك المسلمين بالعفو والنصر واللطف»[٣].

وقال ابن عثيمين: «إذا صار بعضهم يقتل بعضا ويسبي بعضهم بعضا؛ فإنه يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونا في الحق ضد الباطل؛ كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا؛ سلط اللَّه عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرا على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٢٢-١٢٥).
(٢) فتح البر (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).
(٣) المفهم (٧/ ٢١٨).

ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت. قال ابن الأثير في (الكامل): «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا و أؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني؛ ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي..»، وذكر كلاما طويلا ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدا من ذلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضا، وسبي بعضهم بعضا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم»[1].

قلت: ولو حضر ابن الأثير ما يُفعل بالمسلمين في فلسطين؛ من تهديم منازلهم، وقتل بناتهم وأبنائهم، وانتهاك حرماتهم، منذ سنين متوالية، من سنة ١٩٤٨م، وإلى يومنا هذا، والقتل والإبادة فيهم مستمرة على يد شرذمة من نسل القردة والخنازير، أعداء اللَّه، ولو حضر ما فعله الصليبيون في العراق، وما يزالون حتى الآن؛ في هدم البيوت، وضربها بالقنابل، وما فعلوه بالمسلمين في السجون متعاونين مع ورثة المجوس من الرافضة، ولو حضر ما فعله الصليبيون في أفغانستان؛ من قتل المسلمين وتشريدهم، ولو حضر ما فعله الصليبيون في الشيشان، وكشمير، وفي كل مكان، وفي إفريقيا البيضاء والسوداء، لرأى العجب العجاب، ولا يزال السيف مرفوعا والصواريخ تضرب، والبوارج تزحف، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[2].

---

(١) القول المفيد (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦)، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٣٢١/ ٣٩٩١)، وصححه ابن حبان (١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧)، والحاكم (١/ ١٢٨) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

* ومن حديث معاوية: «**كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»(١).

* ومن حديث عبد اللّٰه بن عمرو: «**كلها في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطة: «أما بعد: فاعلموا يا إخواني وفقنا اللّٰه وإياكم للسداد والائتلاف، وعصمنا وإياكم من الشتات والاختلاف، أن اللّٰه ﷻ قد أعلمنا اختلاف الأمم الماضين قبلنا، وأنهم تفرقوا واختلفوا فتفرقت بهم الطرق حتى صار بهم الاختلاف إلى الافتراء على اللّٰه ﷻ والكذب عليه، والتحريف لكتابه، والتعطيل لأحكامه، والتعدي لحدوده، وأعلمنا تعالى أن السبب الذي أخرجهم إلى الفرقة بعد الألفة، والاختلاف بعد الائتلاف؛ هو شدة الحسد من بعضهم لبعض، وبغي بعضهم على بعض. فأخرجهم ذلك إلى الجحود بالحق بعد معرفته، وردهم البيان الواضح بعد صحته، وكل ذلك وجميعه قد قصه اللّٰه ﷻ علينا وأوعز فيه إلينا، وحذرنا من مواقعته وخوفنا من ملابسته. ولقد رأينا ذلك في كثير من أهل عصرنا، وطوائف ممن يدعي أنه من أهل ملتنا، وسأتلو عليكم من نبأ ما قد أعلمناه مولانا الكريم، وما قد علمه إخواننا من أهل القرآن، وأهل العلم وكتبة الحديث والسنن. وما يكون فيه إن شاء اللّٰه بصيرة لمن علمه ونسيه، ولمن غفله أو جهله، ويمتحن اللّٰه به من خالفه وجحده بألا يجحده إلا الملحدون، ولا ينكره إلا الزائغون. قال اللّٰه ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) رواه: أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٥/ ٥-٦/ ٤٥٩٧)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وقال عقبه -وقد ساقه شاهدا لحديث أبي هريرة-: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»، وحسن الحافظ إسناده في تخريج الكشاف.

(٢) رواه: الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه». والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف، والحديث حسن بشاهديه المتقدمين.

يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ (٧).

قال الشيخ: إخواني! فهذا نبأ قوم فضلهم اللّه وعلمهم وبصرهم ورفعهم، ومنع ذلك آخرين إصرارهم على البغي عليهم والحسد لهم إلى مخالفتهم وعداوتهم ومحاربتهم، فاستنكفوا أن يكونوا لأهل الحق تابعين، وبأهل العلم مقتدين، فصاروا أئمة مضلين، ورؤساء في الإلحاد متبوعين، رجوعا عن الحق وطلب الرياسة، وحبًّا للاتباع والاعتقاد.

والناس في زماننا هذا أسراب كالطير، يتبع بعضهم بعضا، لو ظهر لهم من

(١) البقرة: الآية (٢١٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٣) آل عمران: الآية (١٩).
(٤) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٥) يونس: الآية (٩٣).
(٦) الشورى: الآية (١٤).
(٧) البينة: الآيتان (٤ و٥).

يدعي النبوة مع علمهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو من يدعي الربوبية؛ لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا. فقد ذكرت ما حضرني من الآيات التي عاب الله فيها المختلفين وذم بها الباغين، وأنا الآن أذكر لك الآيات من القرآن التي حذرنا فيها ربنا تعالى من الفرقة والاختلاف، وأمرنا بلزوم الجماعة والائتلاف، نصيحة لإخواننا، وشفقة على أهل مذهبنا، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[1] إلى آخر الآية.

ثم حذرنا من مواقعة ما أتاه من قبلنا من أهل الكتاب فيصيبنا ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]. فأخبرنا أنهم عن الحق رجعوا، ومن بعد البيان اختلفوا، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[5]. فهل بقي رحمكم الله أوضح من هذا البرهان أو أشفى من هذا البيان. وقد أعلمنا الله تعالى أنه قد خلق خلقا للاختلاف والفرقة، وحذرنا أن نكون كهم لهم، واستثنى أهل رحمته لنواظب على المسألة أن يجعلنا منهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[6].

ثم حذر نبيه ﷺ أن يتبع أهل الأهواء المختلفين وآراء المتقدمين؛ فقال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾[7].

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٣).
(٢) آل عمران: الآية (١٠٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٤) الشورى: الآية (١٣).
(٥) الروم: الآيتان (٣١و٣٢).
(٦) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).
(٧) المائدة: الآية (٤٩).

وقال: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (١). وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢). وقال ﷻ فيما ذم به المخالفين: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣)»(٤).

قال الشاطبي: «فاعلموا رحمكم اللّه أن الآيات الدالة على ذم البدعة وكثيرًا من الأحاديث: أشعرت بوصف لأهل البدعة، وهو الفرقة الحاصلة، حتى يكونوا بسببها شيعا متفرقة، لا ينتظم شملهم الإسلام، وإن كانوا من أهله وحكم لهم بحكمه. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ (٦) الآية. وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (٧) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وصف التفرق؟، وفي الحديث: **«ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**(٨). والتفرق ناشئ عن الاختلاف في المذاهب والآراء؛ إن جعلنا التفرق معناه بالأبدان، وهو الحقيقة، وإن جعلنا معنى التفرق في المذاهب، فهو الاختلاف، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾(٩)»(١٠).

ثم ذكر أسباب الاختلاف المذكور وحصرها في ثلاث فقال:

«**أحدها:** أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه؛ أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين -ولم يبلغ تلك الدرجة-، فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأيا، وخلافه خلافا:

---

(١) المائدة: الآية (٤٨).
(٢) الجاثية: الآيات (١٦-١٩).
(٣) المؤمنون: الآية (٥٣).
(٤) الإبانة (١/ ٢٧٠-٢٧٥).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٦) الروم: الآيتان (٣١و٣٢).
(٧) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٨) انظر حديث الباب.
(٩) آل عمران: الآية (١٠٥).
(١٠) الاعتصام (٢/ ٦٦٩-٦٧٠).

ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع، وتارة يكون في كلي وأصل من أصول الدين -كان من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية-، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة فيهدم كلياتها، حتى يصير منها إلى ما ظهر له بادي رأيه، من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ في فهم مقاصدها. وهذا هو المبتدع»(١).

ثم قال: «والثاني من أسباب الخلاف: اتباع الهوى؛ ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك.

وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح، ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يغشى السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلبا للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأول عليهم فيما أرادوا حسبما ذكره العلماء ونقله الثقات من مصاحبي السلاطين.

فالأولون ردوا كثيرًا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأساؤوا الظن بما صح عن النبي ﷺ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردوا كثيرًا من أمور الآخرة وأحوالها؛ من الصراط والميزان وحشر الأجساد والنعيم والعذاب الجسميين، وأنكروا رؤية الباري وأشباه ذلك؛ بل صيروا العقل شارعا جاء الشرع أولا؛ بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل... إلى غير ذلك من الشناعات.

والآخرون خرجوا عن الجادة إلى البنيات، وإن كانت مخالفة لطلب الشريعة، حرصا على أن يغلب عدوه، أو يفيد وليه، أو يجر إلى نفسه نفعا»(٢).

ثم قال: «والثالث من أسباب الخلاف: التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق، وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم، فإن الله ذم بذلك في كتابه، كقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾(٣) الآية، ثم قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٤). وقوله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ

(١) الاعتصام (٢/ ٦٧٩).
(٢) الاعتصام (٢/ ٦٨٣-٦٨٤).
(٣) الزخرف: الآية (٢٢).
(٤) الزخرف: الآية (٢٤).

﴿يَضُرُّونَ﴾[1]، فنبههم على وجه الدليل الواضح، فاستمسكوا بمجرد تقليد الآباء، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2].

وهو مقتضى الحديث المتقدم أيضًا في قوله: «اتخذ الناس رؤساء جهالا . .»[3] إلى آخره، فإنه يشير إلى الاستنان بالرجال كيف كان»[4].

وقال أيضًا: «وذلك أن هذه الفرق إنما تصير فرقا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات نص من الجزئيات غير قليل، وشأنها في الغالب أن لا تختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب»[5].

وقوله ﷺ: «كلها في النار»:

قال الشاطبي: «هذا وعيد يدل على أن تلك الفرق قد ارتكبت كل واحدة منها معصية كبيرة، أو ذنبا عظيما، إذ قد تقرر في الأصول أن ما يتوعد الشرع عليه، فخصوصيته كبيرة، إذ لم يقل: «كلها في النار» إلا من جهة الوصف الذي افترقت بسببه عن السواد الأعظم وعن جماعته، وليس ذلك إلا للبدعة المفرقة»[6].

وقال أيضًا: «قوله ﷺ: «إلا واحدة»، قد أعطى بنصه أن الحق واحد لا يختلف، إذ لو كان للحق فرق أيضًا، لم يقل: «إلا واحدة»، ولأن الاختلاف منفي عن الشريعة بإطلاق؛ لأنها الحاكمة بين المختلفين، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[7]، إذ رد التنازع إلى الشريعة، فلو كانت الشريعة تقتضي الخلاف لم يكن في الرد إليها فائدة»[8].

قوله ﷺ: «وهي الجماعة» قال الشاطبي: «النبي ﷺ لم يعين من الفرق إلا فرقة واحدة، وإنما تعرض لعدها خاصة، وأشار إلى الفرقة الناجية حين سئل عنها، وإنما

---

(١) الشعراء: الآيتان (٧٢و٧٣).

(٢) الشعراء: الآية (٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ٢٥٨/ ١٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨/ ٢٦٧٣)، والترمذي (٥/ ٣٠-٣١/ ٢٦٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٥٩٠٧)، وابن ماجه (١/ ٢٠/ ٥٢) من طرق عن عبد الله ابن عمرو بن العاص.

(٤) الاعتصام (٢/ ٦٨٨-٦٨٩).

(٥) الاعتصام (٢/ ٧١٢).

(٦) الاعتصام (٢/ ٧٥٢).

(٧) النساء: الآية (٥٩)

(٨) الاعتصام (٢/ ٧٥٥).

وقع ذلك كذلك، ولم يكن الأمر بالعكس، لأمور:

أحدها: أن تعيين الفرقة الناجية هو الآكد في البيان بالنسبة إلى تعبد المكلف والأحق بالذكر، إذ لا يلزم تعيين الفرق الباقية إذا عينت الواحدة. وأيضًا، فلو عينت الفرق كلها إلا هذه الواحدة، لم يكن بد من بيانها؛ لأن الكلام فيها يقتضي ترك أمور هي بدع، والترك للشيء لا يقتضي فعل شيء آخر لا ضدا ولا خلافا، فذكر الواحدة هو المفيد على الإطلاق.

والثاني: أن ذلك أوجز؛ لأنه إذا ذكرت نحلة الفرقة الناجية، علم على البديهة أن ما سواها مما يخالفها ليس بناج، وحصل التعيين بالاجتهاد، بخلاف ما إذا ذكرت الفرق إلا الناجية، فإنه يقتضي شرحا كثيرًا، ولا يقتضي في الفرقة الناجية اجتهادا؛ لأن إثبات العبادات التي تكون مخالفتها بدعا لا حظ للعقل في الاجتهاد فيها.

والثالث: أن ذلك أحرى بالستر، كما تقدم بيانه في مسألة تعيين الفرق، ولو فسرت لناقض ذلك قصد الستر، ففسر ما يحتاج إليه، وترك ما لا يحتاج إليه إلا من جهة المخالفة، فللعقل وراء ذلك مرمى تحت أذيال الستر، والحمد لله.

فبين النبي ﷺ ذلك بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»، ووقع ذلك جوابا للسؤال الذي سألوه، إذ قالوا: من هي يا رسول الله؟ فأجاب بأن الفرقة الناجية من اتصفت بأوصافه ﷺ وأوصاف أصحابه، وكان ذلك معلوما عندهم، غير خفي، فاكتفوا به، وربما يحتاج إلى تفسيره بالنسبة إلى من بعد تلك الأزمان.

وحاصل الأمر: أن أصحابه كانوا مقتدين به، مهتدين بهديه، قد جاء مدحهم في القرآن الكريم، وأثنى عليهم متبوعهم محمد ﷺ، وإنما كان خلقه ﷺ القرآن[1]، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، فالقرآن إذا هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السنة مبينة له، فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله، وهو

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣-٥٤)، ومسلم (١/ ٥١٢-٥١٤/ ٧٤٦)، وأبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢)، والنسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٠٠) كلهم من حديث عائشة ﵂ مطولا.

(٢) القلم: الآية (٤).

معنى قوله ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي» فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما.

هذا هو الوصف الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهو معنى ما جاء في الرواية الأخرى من قوله: «وهي الجماعة»؛ لأن الجماعة في وقت الإخبار كانوا على ذلك الوصف»[(١)].

قوله: «افترقت اليهود.. الخ» قال العظيم آبادي: «هذا من معجزاته ﷺ لأنه أخبر عن غيب وقع. قال العلقمي: قال شيخنا: ألف الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي في شرح هذا الحديث كتابا قال فيه: قد علم أصحاب المقالات أنه ﷺلم يرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام، وإنما قصد بالذم من خالف أهل الحق في أصول التوحيد، وفي تقدير الخير والشر، وفي شروط النبوة والرسالة، وفي موالاة الصحابة وما جرى مجرى هذه الأبواب؛ لأن المختلفين فيها قد كفر بعضهم بعضا، بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسيق للمخالف فيه، فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من الاختلاف، وقد حدث في آخر أيام الصحابة خلاف القدرية من معبد الجهني وأتباعه، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئًا فشيئًا إلى أن تكاملت الفرق الضالة اثنين وسبعين فرقة، والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة وهي الفرقة الناجية، انتهى باختصار يسير»[(٢)].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «لا ترجعوا بعدي كفارا» جملة ما فيه: عشرة أقوال ذكرها الحافظ في الفتح، وهي:

أحدها: قول الخوارج إنه على ظاهره.

---

(١) الاعتصام (٢/ ٧٥٨-٧٥٩).
(٢) عون المعبود (١٢/ ٣٤٠-٣٤١).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٥)، والبخاري (١٠/ ٦٧٦/ ٦١٦٦)، ومسلم (١/ ٨٢/ ٦٦)، وأبو داود (٥/ ٦٣/ ٤٦٨٦)، النسائي (٧/ ١٤٣/ ٤١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٠/ ٣٩٤٣).

ثانيها: هو في المستحلين.

ثالثها: المعنى كفارا بحرمة الدماء وحرمة المسلمين وحقوق الدين.

رابعها: تفعلون فعل الكفار في قتل بعضهم بعضا.

خامسها: لابسين السلاح. يقال: كفر درعه إذا لبس فوقها ثوبا.

سادسها: كفارا بنعمة اللَّه.

سابعها: المراد الزجر عن الفعل، وليس ظاهره مرادا.

ثامنها: لا يكفر بعضكم بعضا كأن يقول أحد الفريقين للآخر: يا كافر فيكفر أحدهما.

تاسعها: ستر الحق. والكفر لغة الستر؛ لأن حق المسلم على المسلم أن ينصره ويعينه، فلما قاتله كأنه غطى على حقه الثابت له عليه.

عاشرها: أن الفعل المذكور يفضي إلى الكفر؛ لأن من اعتاد الهجوم على كبار المعاصي جره شؤم ذلك إلى أشد منها، فيخشى أن لا يختم له بخاتمة الإسلام»[١].

قال النووي: «وأظهر الأقوال الرابع؛ وهو اختيار القاضي عياض رحمه الله»[٢].

قال الخطابي: «هذا يتأول على وجهين: أحدهما: أن يكون معنى الكفار المتكفرين بالسلاح، يقال: تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه فكفر به نفسه أي سترها، وأصل الكفر الستر. ويقال: سمي الكافر كافرا لستره نعمة اللَّه عليه أو لستره على نفسه شواهد ربوبية اللَّه ودلائل توحيده.

وقال بعضهم: معناه لا ترجعوا بعدي فرقا مختلفين يضرب بعضكم رقاب بعض، فتكونوا بذلك مضاهين للكفار، فإن الكفار متعادون يضرب بعضهم رقاب بعض، والمسلمون متآخون يحقن بعضهم دماء بعض»[٣].

هذا، وفي ختام تفسير هذه الآية يحسن بنا أن نورد كلاما للشيخ رشيد رضا نبه فيه على مسألة مهمة. فقال رحمه الله تحت عنوان: (تنبيه غافل وتعليم جاهل): «يسيئ كثير من المسلمين تأويل حديثي ثوبان وغيرهما من أحاديث الفتن، ويحملونها على

---

(١) الفتح (١٢/ ٢٣٨-٢٣٩) و(١٣/ ٣٣).

(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٤٨).

(٣) معالم السنن (٤/ ٢٩١).

ما يضرهم، وهو ما لم يرده الرسول ﷺ ولا يرضاه لهم، فوجب أن نبين الحق في ذلك فنقول:

إن لأحوال الأمم العامة تأثيرا عظيما في فهم أفرادها لنصوص الدين وغيرها من أقوال الحكماء والشعراء، فهي في حال ارتقائها بالعلم والحكمة، وما يثمران من العزة والقوة، تكون أصح إفهاما، وأصوب أحكاما، وأكثر اعتبارا وادكارا، وأحسن استفادة واستبصارا، وفي حال فشو الغباوة والجهل، وما ينتجان من الضعف والذل، تكون بالضد من ذلك، وأضرب مثلا لذلك؛ النصوص والحكم المنظومة والمنثورة في ذم الطمع والحرص على المال وزينة الدنيا، وما يقابلها من تعظيم أمر الآخرة والترغيب في معالي الأمور وبذل المال في سبيل الحق؛ لم تكن تلك النصوص والحكم والأشعار والأمثال بصادة للأمة في طور حياتها وارتقائها عن الفتح والكسب، وإحراز قصب السبق، في جميع ميادين التنازع على السيادة وموارد الرزق؛ بل كانت هي الحافزة لها إلى ذلك بقصد إعزاز الملة، ورفع شأن الأمة، لذلك كانوا يبذلون تلك الأموال بمنتهى السخاء في سبيل البر وأعمال الخير، ولو حفظ المتأخرون منا ما حبسه من قبلهم من الأوقاف على جميع المصالح العامة وأنواع البر؛ لوجدوا أن جميع ما ملكوه من الأرض كان وقفا بل وقف مرارا؛ لأن الخلف الطالح صار يحول أوقاف السلف الصالح إلى ملك، حتى كان عم والدي الشيخ النقاد الخبير السيد أحمد أبو الكمال يقول على سبيل المبالغة في هذا المعنى: في كل مئة سنة يتحول كل وقف في طرابلس الشام ملكا وكل ملك وقفا.

كانت تلك النصوص والحكم للأمة في تلك الحياة كالغذاء الصالح للجسم السليم يزيده قوة، ويحفظ له حياته، ويعوضه عن كل ما ينحل منه من الدقائق الميتة مادة حية خيرا منها، ثم صارت في طور الضعف كالغذاء الجيد في الجسم العليل لا يزيده إلا ضعفا وانحلالا، إذ صاروا يفهمون منها أن الكسل والخمول والتواكل والفقر والذل من مقاصد الدين، فصاروا لا يستفيدون منها إلا ضعفا وعجزا، ولا يزدادون مع ذلك إلا حرصا ودناءة وبخلا.

إذا تدبرت هذا المثال فاجعله مرآة لما ورد في الأحاديث النبوية، من أنباء مستقبل الأمة الإسلامية، كسعة ملكها في مشارق الأرض ومغاربها، (أي: بالنسبة إلى الحجاز) ثم تداعي الأمم عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ومن تفرقها

شيعا ووقوع بأسها بينها، وغير ذلك من أنباء الفتن، وما يكون قبل قيام الساعة من الأحداث والبدع، واعلم أن ما أصاب الأمة الإسلامية بسوء فهمها لهذه الأحاديث بعد فشو الجهل فيها هو نحو مما أصابها بسوء فهمها لتلك النصوص والحكم التي أشرنا إليها في المثال: وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ قرون على الرضا بجميع الفتن والشرور التي أنبأت الأحاديث بوقوعها في المستقبل، فقعدت هممهم عن القيام بما أمر اللّٰه تعالى به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع المكروه والدفاع عن الحق بقدر الاستطاعة، معتذرين لأنفسهم بأن ذلك قدر، قد ورد بوقوعه الخبر، فلا مهرب منه ولا مفر، كما يعتذرون لأنفسهم عن ترك مجاراة الأمم العزيزة في أسباب العزة وطرق الثروة؛ بالنصوص والحكم التي وردت في التنفير عن الطمع والجشع وتهوين أمر شهوات الدنيا، والترغيب في معالي الأمور وإيثار الحياة الباقية، ولا حجة لهم في شيء من ذلك؛ بل لله الحجة البالغة عليهم، وقد بسطنا ذلك مرارا في التفسير وفي غير التفسير، وتراهم مع هذا قد تركوا السعي والعمل لما وعدوا به في الآيات والأحاديث من الخير والسيادة كما كان يسعى ويعمل له سلفهم، ومن تلك الوعود ما لم يأت تأويله ولابد من إتيانه؛ لأن وعد اللّٰه مفعول لابد منه، كما تركوا العمل بالنصوص الآمرة بالبذل في سبيل اللّٰه، مع ادعائهم الأخذ بما ورد في إيثار الآخرة على الدنيا أو احتجاجهم به، وحقيقة الأمر أنهم رزئوا بالجهل والخمول والكسل وسقوط الهمة، فهم بجهلهم يتعبون ويشقون في اتباع أهوائهم والسعي لحظوظهم الشخصية الدنيئة، ولا يفكرون في المصالح العامة، ولا يعقلون وجه ارتباط المنافع الخاصة بها، بل يتركونها زاعمين أنهم قد وكلوا أمرها إلى اللّٰه وعملوا بهدي دينه فيها. بل لا يخطر في بال أحد منهم هذا الزعم إلا إذا عذله عاذل أو وبخه موبخ على تفريطه في حقوق أمته، وما يجب عليه لملته، فحينئذ يعتذرون بالأقدار، أو بأن الآخرة لهم والدنيا للكفار، وقد ذكرناهم بفساد شبهتهم هذه مرارا ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[1].

إن النبي ﷺ لم يخبر أمته بما سيقع فيها من التفرق والشيع، وركوب سنن أهل الكتاب في الأحداث والبدع، وبغير ذلك من أخبار الفتن، الخاصة بهم والمشتركة

(١) غافر: الآية (١٣).

بينهم وبين الأمم؛ إلا لأجل أن يكونوا على بصيرة في مقاومة ضرها، واتقاء تفاقم شرها، لا لأجل أن يتعمدوا إثارة تلك الفتن والاصطلاء بنارها، والاقتراف لأوزارها، فمثله ﷺ في ذلك كمثل الطبيب الذي يخبر المسافرين إلى أرض مجهولة لهم بما فيها من الأمراض؛ لأجل أن يبذلوا جهدهم في اتقاء وقوعها بهم، ثم في مداواة من يصاب بها منهم، لا لأجل أن يجعلوا أنفسهم عرضة لها بإتيان أسبابها، وتوطين النفس على الهلاك بترك التداوي منها، وقد كان أهل الصدر الأول يفهمون ذلك من النصوص؛ كما صرحت به عائشة في حديث لعن أهل الكتاب لاتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، فإنها عللته بقولها: يحذر ما صنعوا. وقد صرحت النصوص بالنهي عن التفرق والاختلاف، الذي تدهور في تَيْهورِه أهل الكتاب، حتى لا نقع فيه على غرارة وجهالة فيكون شره مستطيرا، ولا نهتدي إلى تخفيفه سبيلا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] ولو أن علماء الصحابة أو التابعين كتبوا في التفسير وشرح الحديث لبينوا لنا ذلك.

ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة؛ كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن اللَّه تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها، وهو ما لا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة، والسلم والإجارة، فإن العلم بسنن اللَّه تعالى في عباده؛ لا يعلوه إلا العلم باللَّه تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه أو من طرقه ووسائله. وقد فطن لهذا بعض حكماء العلماء، فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة من كتاب العلم في الإحياء: وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاد؛ فهو العلم باللَّه تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته. ثم فضل أهل هذا العلم على جميع العلماء كالمتكلمين والفقهاء، وأيده في ذلك العز بن عبد السلام إذا استفتي فيه فأفتى بصحته. وبين الغزالي في غير هذا الفصل من فصول الباب الثاني من أبواب العلم:

(١) الزمر: الآية (٩).

أن هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة ﷺ، وأنه هو العلم الذي عناه عبد اللَّه بن مسعود لما مات عمر بن الخطاب ﷺ بقوله مات تسعة أعشار العلم ورواه أبو خيثمة في كتاب العلم بلفظ: إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم.

أقول: أما العلم باللَّه تعالى وبصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني أنه أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى بلوغ كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعًا، وهو ما كان عمر ينظر فيه بنور اللَّه في فطرته وهداية كتابه، وأما أبو حامد فقد لاحظ الوجه الرباني فقط، وإن في سياسة عمر وفي كلامه لدلائل كثيرة على ما ذكرنا من بصيرته في هذا العلم. فنسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا من أهله، وأن يجعله وسيلة لنا لتكميل أنفسنا، وإصلاح ما فسد من أمر أمتنا، آمين.

إذا تدبرت هذا أيها القاري، فاعلم أن الاستدلال بما ورد من الأخبار والآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن والساعة؛ على أن الأمة الإسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل ولوازمهما كما يزعم الجاهلون بسنن اللَّه، اليائسون من روح اللَّه، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطسة بعد هذه النبوة، كالآية الناطقة باستخلافهم في الأرض، فإن عمومها لم يتم بعد، وكخبر «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق**»[1] رواه أحمد، والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عند مسلم من أن مساحة المدينة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له أهاب[2]، أي: أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشرين لا من المنفرين، ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾[3]»[4].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٧٠-٣٧١)، ومسلم (٢/ ٧٠١/ ١٠١٢[١٥٧]).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: مسلم (٤/ ٢٢٢٨/ ٢٩٠٣).

(٣) ص: الآية (٨٨). (٤) تفسير المنار (٧/ ٤٩٧-٥٠١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

اختلف المفسرون في الضمير في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ فذهب الإمام الطبري إلى أنه راجع إلى العذاب المذكور في الآية السابقة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَكَذَّبَ﴾ يا محمد ﴿قَوْمُكَ﴾ بما تقول وتخبر وتوعد من الوعيد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يقول: والوعيد الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعا، وإذاقة بعضهم بأس بعض، الحق الذي لا شك فيه أنه واقع، إن هم لم يتوبوا وينيبوا مما هم عليه مقيمون من معصية اللّه والشرك به، إلى طاعة اللّه والإيمان به ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ يقول: قل لهم يا محمد: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول أبلغكم مما أرسلت به إليكم ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ يقول: لكل خبر مستقر، يعني قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليها، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يقول: وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبركم به من وعيد اللّه إياكم أيها المشركون، وحقيته عند حلول عذابه بكم. فرأوا ذلك وعاينوه فقتلهم يومئذ بأوليائه من المؤمنين»[1].

وذهب فريق آخر إلى أن الضمير راجع إلى القرآن، قال الإمام ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن الذي جئتهم به، والهدى والبيان، ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشا. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الذي ليس وراءه حق. ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]؛ أي: إنما علي البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة، ولهذا

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٢٧).

(٢) الكهف: الآية (٢٩).

قال: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «الخطاب للرسول ﷺ أي وكذب جمهور قومك وهم قريش بالعذاب أو بالقرآن، على ما صرفنا فيه من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان بجعلها حججا يثبتها الحس والعقل والوجدان، في أعلى أساليب البلاغة وحسن البيان، والحال أنه هو الحق الثابت في نفسه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما سبب ذلك إلا الكبر والعناد، والجمود على تقليد الآباء والأجداد. ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: قل لهم أيها الرسول: إنني لست بوكيل مسيطر عليكم، وإنما أنا رسول لكم، فالوكيل هو الذي توكل إليه الأمور، وفي الوكالة معنى السيطرة والتصرف، فمن جعله السلطان أو الملك وكيلا له على بلاده أو مزارعه يكون مأذونا بالتصرف عنه فيها والسيطرة على أهلها، والرسول مبلغ عن اللّٰه تعالى يذكر الناس ويعلمهم ويبشرهم وينذرهم، ويقيم دين اللّٰه فيهم، هذه وظيفته وليس وكيلا عن ربه ومرسله، ولا يعطى القدرة على التصرف في عباده حتى يجبرهم على الإيمان إجبارا ويكرههم عليه إكراها ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[2]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[4]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[5]. . . ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تمام ما أمر اللّٰه تعالى رسوله أن يقوله لقومه المكذبين. . . والمعنى لكل شيء ينبأ عنه مستقر تظهر فيه حقيقته، ويتميز حقه من باطله، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأ به القرآن الذي كذبتم به من وعد ووعيد، أو لكل نبأ من أنباء القرآن الحق الذي كذبوا به زمان يحصل فيه مضمونه، فيكون قارا ثابتا فيه. ومن هذه الأنباء ما وعد اللّٰه الرسول من نصره عليهم، وما أوعدهم من الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٢).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٦).
(٣) الغاشية: الآيتان (٢١ و ٢٢).
(٤) ق: الآية (٤٥).
(٥) البقرة: الآية (٢٧٢).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[2] وسوف تعلمون ذلك عند وقوعه»[3].

* * *

(١) الزمر: الآيتان (٢٥ و ٢٦).

(٢) الزمر: الآيات (٣٩-٤١).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٥٠١-٥٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾

★ **غريب الآية:**

يخوضون: الخوض: الكلام بما لا ينبغي. وأصله: الدخول في الماء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «هذا خطاب للرسول ﷺ ويدخل فيه المؤمنون؛ لأن علة النهي -وهو سماع الخوض في آيات الله- يشمله وإياهم.

وقيل: هو خاص بتوحيده؛ لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم، وفراقه على مغاضبة، والمؤمنون عندهم ليسوا كهو.

وقيل: خطاب للسامع. والذين يخوضون المشركون، أو اليهود، أو أصحاب الأهواء، ثلاثة أقوال»[1].

وقال القرطبي: «في هذه الآية رد من كتاب الله ﷻ على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين، ويصوبوا آراءهم تقية. وذكر الطبري عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل.

قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر، مؤمنا كان أو كافرا. قال: وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم

---

(١) البحر المحيط (٤/ ١٥٧).

والبيع، ومجالس الكفار وأهل البدع، وألا تعتقد مودتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم.

وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة، فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة. ومثله عن أيوب السختياني.

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط اللَّه عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم اللَّه ﷻ من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر اللَّه له»[١].

وقال الجصاص: «فأمر اللَّه نبيه بالإعراض عن الذين يخوضون في آيات اللَّه وهي القرآن بالتكذيب، وإظهار الاستخفاف إعراضا يقتضي الإنكار عليهم وإظهار الكراهة لما يكون منهم إلى أن يتركوا ذلك ويخوضوا في حديث غيره، وهذا يدل على أن علينا ترك مجالسة الملحدين وسائر الكفار عند إظهارهم الكفر والشرك وما لا يجوز على اللَّه تعالى إذا لم يمكننا إنكاره وكنا في تقية من تغييره باليد أو اللسان؛ لأن علينا اتباع النبي ﷺ -فيما أمره اللَّه به إلا أن تقوم الدلالة على أنه مخصوص بشيء منه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٢] المراد إن أنساك الشيطان ببعض الشغل فقعدت معهم وأنت ناس للنهي؛ فلا شيء عليك في تلك الحال، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني بعد ما تذكر نهي اللَّه تعالى لا تقعد مع الظالمين، وذلك عموم في النهي عن مجالسة سائر الظالمين من أهل الشرك وأهل الملة لوقوع الاسم عليهم جميعًا، وذلك إذا كان في تقية من تغييره بيده أو بلسانه بعد قيام الحجة على الظالمين بقبح ما هم عليه، فغير جائز لأحد مجالستهم مع ترك النكير سواء كانوا مظهرين في تلك الحال للظلم والقبائح أو غير مظهرين له؛ لأن النهي عام عن مجالسة الظالمين؛ لأن في مجالستهم مختارا مع ترك النكير دلالة على الرضا بفعلهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣] الآيات»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٢-١٣).
(٢) الأنعام: الآية (٦٨).
(٣) المائدة: الآية (٧٨).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ٢-٣).

وقال الشنقيطي: «نهى اللَّه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن مجالسة الخائضين في آياته، ولم يبين كيفية خوضهم فيها التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبين ذلك كله في موضع آخر فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾[1] الآية.

وبين أن من جالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[2]، وبين حكم من جالسهم ناسيا، ثم تذكر بقوله هنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما تقدم في سورة النساء»[3].

قال السعدي: «المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله. فأمر اللَّه رسوله أصلا، وأمته تبعا؛ إذا رأوا من يخوض بآيات اللَّه بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره.

فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور. فإن كان مصلحة كان مأمورا به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به. وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث والنظر، والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بأن جلست معهم على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور، عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى اللَّه، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار.

فإن استعمل تقوى اللَّه تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زواله وتخفيفه؛ فهذا ليس عليه حرج

---

(١) النساء: الآية (١٤٠). (٢) النساء: الآية (١٤٠).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم لعلهم يتقون اللَّه تعالى. وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام، ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى.

وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شرا إلى شره، كان تركه هو الواجب؛ لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصودا»[1].

قال الشوكاني: «في هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام اللَّه ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه؛ فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها؛ علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي اللَّه بفعل شيء من المحرمات، ولاسيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة. فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدة عمره، ويلقى اللَّه به معتقدا أنه من الحق، وهو الباطل وأنكر المنكر»[2].

قال محمد رشيد رضا: «وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم؛ أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء بالتمادي فيه، وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر، لا يقترفه باختياره

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤١٦-٤١٧).
(٢) فتح القدير (٢/ ١٨٣).

إلا منافق مراء أو كافر مجاهر، وفي التأويل لنصر المذاهب أو الآراء مزلقة في البدع واتباع الأهواء، وفتنته أشد من فتنة الأول، فإن أكثر الذين يخوضون في الجدل والمراء من أهل البدع وغيرهم، تغشهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع، ويؤيدون الأئمة المهتدين، ويخذلون المبتدعين المضلين، ولذلك حذر السلف الصالحون من مجالسة أهل الأهواء؛ أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشى عليه من فتنة المبتدع؛ لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته، ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات اللّٰه وتكذيبهم بها وطعنهم فيهم، كما يقعد مختارا مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصور قعود المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منها، كشدة الضعف، ولاسيما إذا كان في دار الحرب، ولم تكن مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات. ويدخل في أهل الأهواء المقلدون الجامدون؛ الذين يحاولون تطبيق آيات اللّٰه وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارض آخر، وقد نقلنا كلاما في هذا المعنى عن فتح البيان في تفسير آية سورة النساء التي بمعنى هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[(١)]»[(٢)].

قلت: هكذا تتوارد نصوص العلماء الفحول في التحذير من مجالسة أهل البدع، لأن مجالستهم فيها محاذير عدة:

الأول: الرضى بما هم فيه من خوض في الباطل، وهذا وحده كاف في مفارقة أهل البدع.

الثاني: مهما كان الإنسان في قوة علمه وقوة اعتقاده قد يتأثر بشبههم وتقع في قلبه، فلربما وقعت له بعض الانتكاسات في معتقده.

---

(١) النساء: الآية (١٤٠).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٥٠٦).

الثالث: وجوده بينهم ولاسيما إذا كان من أهل العلم، يعطي لتلك البدعة المشروعية، وأن فلان من أهل العلم والدعوة إلى القرآن والسنة، كان معهم، وشاركهم، ورضي ما هم عليه. فيكون ذريعة إلى غيره للجلوس معهم.

الرابع: مخالفة آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، القاضية بتحريم مجالستهم، كهذه الآية وغيرها.

الخامس: نشر البدع، لأن الذي يجلس مع أهل البدع لا بد أن يكون وسيلة لنشرها، لاسيما في هذا الزمان، الذي أصبحت وسائل الإعلام فيه تنقل الأخبار إلى جميع أقطار العالم.

السادس: فيه تشبه بأهل السوء والشر، وهذا منهي عنه، فـ**«من تشبه بقوم فهو منهم»**[1].

السابع: انتكاس الفهم عند الداعي إلى البدع، حتى يرى المعروف منكرا، والمنكر معروفا، فيدعو باسم الإصلاح، وهو لا شك بهذا من الغارسين لشجرة البدعة، الساقين لها بماء الباطل. وهذا النهج، هو نهج كثير من الدكاترة المعاصرين، الذين يرون جواز، بل وجوب دخولهم في مجالس أهل البدع، ومشاركتهم فيها من أجل الإصلاح زعموا.

الثامن: انحلال ودثور عقيدة الولاء والبراء، مما يستوجب سخط الله، وذلك من خلال مشاركة المبتدعة في مواسمهم الشركية والبدعية، وكذا مصاهرتهم ومناكحتهم، واتباع جنائزهم التي كلها بدع، فقد قال سفيان الثوري رحمه الله: (من تبع جنازة مبتدع لم يزل في سخط الله حتى يرجع). وهكذا كل الأمور التي تدعو إلى محبتهم، والتودد إليهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن مجالسة أهل البدع، وتجاوز الله لعباده عن الخطأ والنسيان

* عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله وضع عن أمتي الخطأ**

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ٤٤/ ٤٠٣١)..

والنسيان وما استكرهوا عليه»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا الحديث اشتمل على فوائد وأمور مهمة، لو جمعت بلغت مصنفا لا يحتمله هذا الكتاب»[٢].

قال ابن حجر الهيتمي: «وهو عام النفع، لوقوع الثلاثة في سائر أبواب الفقه، عظيم الوقع، يصلح أن يسمى نصف الشريعة؛ لأن فعل الإنسان الشامل لقوله، إما أن يصدر عن قصد واختيار، وهو العمد مع الذكر اختيارا، أو لا عن قصد واختيار، وهو الخطأ أو النسيان أو الإكراه، وقد علم من هذا الحديث صريحا أن هذا القسم معفو عنه، ومفهوما: أن الأول مؤاخذ به، فهو نصف الشريعة باعتبار منطوقه، وكلها باعتباره مع مفهومه»[٣].

قال ابن رجب الحنبلي: «فأما الخطأ والنسيان فقد صرح القرآن بالتجاوز عنهما قال اللَّه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٥] وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم ثم اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وحكم فأخطأ فله أجر**»[٦] وقال الحسن: (لولا ما ذكر اللَّه من أمر هذين الرجلين -يعني: داود وسليمان- لرأيت أن القضاة قد هلكوا، فإنه أثنى

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٦٥٩/ ٢٠٤٥) من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس مرفوعا، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن عمير في الطريق الثاني، وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس. ، والطريق التي أشار إليها البوصيري أخرجها: الطحاوي (٣/ ٩٥)، والدارقطني (٤/ ١٧٠-١٧١)، وابن حبان (١٦/ ٢٠٢/ ٧٢١٩ الإحسان)، والحاكم (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، من طريق عطاء بن أبي رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس به. وقال النووي في شرح الأربعين (ص:١٢٩): «حديث حسن».

(٢) الرياض الندية في شرح الأربعين النووية (ص: ٢٢٣).

(٣) قواعد وفوائد من الأربعين النووية (ص: ٣٤٤). (٤) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٥) الأحزاب: الآية (٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٨)، والبخاري (١٣/ ٣٩٣/ ٧٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٣٤٢/ ١٧١٦)، وأبو داود (٤/ ٦-٧/ ٣٥٧٤)، وابن ماجه (٢/ ٧٧٦/ ٢٣١٤). ومن حديث أبي هريرة أخرجه: الترمذي (٣/ ٦١٥/ ١٣٢٦)، والنسائي (٨/ ٦١٤-٦١٥/ ٥٣٩٦).

على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده) يعني: قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾[١]»[٢].

وقال: «والأظهر والله أعلم: أن الناسي والمخطئ إنما عفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما، فلا إثم عليهما، وأما رفع الأحكام عنهما فليس مرادا من هذه النصوص، فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر»[٣].

ولمزيد من الفائدة ينظر قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٤] من أواخر سورة البقرة.

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٧٨).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٦٦).
(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٦٩).
(٤) البقرة: الآية (٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أن تبسل: أي تمنع الثواب. مأخوذة من البَسْل وهو منع الشيء وانْضِمَامُه. والإبسال: تسليم المرء للهلاك.

عدل: العدل: ما عادل الشيء وساواه من غير جنسه. وهو هنا بمعنى الفداء؛ لأن الفادي يعدل المفدي بمثله.

الحميم: الماء الحار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على اللّه وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعا وجدا لا هزلا، وإخلاصا لوجه اللّه، لا رياء ولا سمعة. هذا هو الدين الحقيقي، الذي يقال له دين. فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعبا ولهوا؛ بأن لها قلبه عن محبة اللّه ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه؛ لأن العمل والسعي إذا كان لغير اللّه فهو لعب. فهذا أمر اللّه تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من أفعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى اللّه.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي: ذكر بالقرآن، ما ينفع العباد، أمرا وتفصيلا، وتحسينا له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيا عنه، وتفصيلا لأنواعه، وبيان

ما فيه، من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه. وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت؛ أي: قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجرئه على علام الغيوب، واستمراره على ذلك المرهوب. فذكرها وعظها؛ لترتدع وتنزجر، وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون اللّٰه أحد، ولا يشفع لها شافع. ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «المراد من هذه الآيات وما في معناها: إبطال أصل من أصول الوثنية؛ وهو تعليق النجاة في الآخرة، كنيل كثير من المقاصد في الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين عنده، أي بوساطة الوسطاء، وتقرير أصل الدين الإلهي، وهو أن النجاة في الآخرة ورضوان اللّٰه والقرب منه، لا تنال إلا بما شرعه اللّٰه على ألسنة رسله من الإيمان والإسلام، وبعبارة أخرى بالعمل الصالح الذي تتزكى به الأنفس مع الإيمان الإذعاني باللّٰه وبرسله وما جاءوا به، ومن أبسلهم كسبهم للسيئات والخطايا، واتخاذهم الدين لعبا ولهوا، وغرورهم بالحياة الدنيا، فلا تنفعهم شفاعة ولا تقبل منهم فدية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ۖ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر هم الذين أسلموا للهلكة، وارتهنوا وحبسوا عن دار السعادة، بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام، حتى أحاطت بهم خطاياهم، ولم يكن لهم من دينهم الذي اتخذوه لعبا ولهوا ما يزجرهم عنها. وماذا يكون جزاؤهم بعد الإبسال؟ ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لهم شراب من ماء حميم، وهو الشديد الحرارة، ويطلق على الشديد البرودة أيضًا. وعذاب شديد الألم بسبب كفرهم،

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤١٨-٤١٩).

الذي ظلوا مستمرين عليه طول حياتهم، حتى صرفهم عما جعله اللَّه تعالى -لو اتبعوه- سبب نجاتهم. أو التقدير: أولئك المبسلون بكسبهم لهم شراب من حميم وعذاب أليم باستمرارهم على كفرهم. وبهذا ظهر الفرق بين التعليل الأول بالكسب والتعليل الثاني بالكفر. فالأول ذكر بصيغة الماضي، والثاني بصيغة المستقبل الدال على الاستمرار. فلولا رسوخهم في الكفر الذي أفسد فطرتهم حتى أصروا عليه إصرارا دائما، دل على أنه لم يبق فيهم استعداد للحق والخير؛ لما كان مجرد كسب بعض السيئات المنقطعة ينهض سببا لهلاكهم ووقوعهم في هذا العذاب كله. وفي الآية أكبر العبر لمن يفقه الكلام، ولا يغتر بلقب الإسلام، فإنما المسلم من اتخذ إمامه القرآن، وسنة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، لا من اغتر بالأماني والأوهام، وانخدع بالرؤى والأحلام»[1].

وقال الرازي: «والمقصود من هذه الآية: بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة، فلا ولي يتولى دفع ذلك المحذور، ولا شفيع يشفع فيها، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها، حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب اللَّه لم تنفع. فإذا كانت وجوه الخلاص هي هذه الثلاثة في الدنيا، وثبت أنها لا تفيد في الآخرة البتة، وظهر أنه ليس هناك إلا الإبسال الذي هو الارتهان، والانغلاق والاستسلام؛ فليس لها البتة دافع من عذاب اللَّه تعالى، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصي اللَّه تعالى. ثم إنه تعالى بين ما به صاروا مرتهنين وعليه محبوسين، فقال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ وذلك هو النهاية في صفة الإيلام. واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (٧/ ٥٢١-٥٢٢).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٢٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

استهوته: أي أخرجته عن الطريق المستقيم؛ واستغوته وزينت له هواه ودعته إليه.

الحيران: المتردد في الأمر لا يهتدي إلى المخرج منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا تنبيه من الله -تعالى ذكره- نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان، يقول له -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم، وعبادة الأصنام معهم، أندعوا من دون الله حجرا أو خشبا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون، فتميزون بين الخير والشر، فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره؛ أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره، ونرد على أعقابنا، يقول: ونرد إلى أدبارنا فنرجع القهقرى خلفنا لم نظفر بحاجتنا. وقد بينا معنى الرد على العقب، وأن العرب تقول لكل طالب حاجة لم يظفر بها: رد على عقبيه؛ فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وإنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفر، بعد إذ هدانا الله، فوفقنا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان يهوي في الأرض حيران وهذا مثل ضربه

اللّٰه تعالى لمن كفر باللّٰه بعد إيمانه، فاتبع الشياطين من أهل الشرك باللّٰه، وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه المقيمون على الدين الحق؛ يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له: ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى، وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان... ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، القائلين لأصحابك: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فإنا على هدى، ليس الأمر كما زعمتم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يقول: إن طريق اللّٰه الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فبينه، هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وأمرنا ربنا ورب كل شيء، تعالى وجهه، لنسلم له: لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة».

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: «وأمرنا بإقامة الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ يقول: واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه، واحذروا سخطه بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يقول: وربكم رب العالمين هو الذي إليه تحشرون، فتجمعون يوم القيامة، فيجازى كل عامل منكم بعمله، وتوفى كل نفس ما كسبت»[1].

وقال ابن كثير: «فإن سياق الآية يقتضي: أنه هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال، أي في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى، وتقدير الكلام فيأبى عليهم، ولا يلتفت إليهم، ولو شاء اللّٰه لهداه ولرد به إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[2] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٣٥-٢٣٨).

(٢) الزمر: الآية (٣٧).

يُضِلُّ﴾[١] وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له»[٢].

وقال السعدي: «﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبينا وشارحا لوصف آلهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها، عن النهي عنها. فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين، جزم ببطلانه، قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾. وهذا وصف، يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم. فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾أي أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل إلى مقصده؛ فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائرا. وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة. ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والصعود إلى أعلى عليين. ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين. فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى، في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال، وردى وهلاك. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته. فإن هذا، أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه

(١) النحل: الآية (٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٧٥).

نهى. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها»[١].

وقال البقاعي: «ولما كان السياق لتعداد النعم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[٢] ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[٣] ﴿يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾[٤] ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[٥] ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾[٦] ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾[٧] قدم النفع في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ أي لا يقدر على شيء من ذلك، ليكونوا على غاية اليأس من اتباع حزب اللّه لهم، وهذا كالتعليل لقوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[٨].

ولما ذكر عدم المنفعة في دعائهم، أشار إلى وجود الخسارة في رجائهم فقال: ﴿وَنُرَدُّ﴾ أي برجوعنا إلى الشرك، وبناه للمفعول؛ لأن المنكر الرد نفسه من أيّ راد كان ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ أي فنأخذ في الوجه المخالف لقصدنا فنصير كل وقت في خسارة بالبعد عن المقصود ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي الذي لا خير إلا وهو عنده، ولا ضر إلا وهو قادر عليه إلى التوجه نحو المقصد، ووفقنا له وأنقذنا من الشرك»[٩].

وقال الرازي: «واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه؛ لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة، وذلك يوجب كمال التردد والتحير، وأيضًا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقلّ، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالًا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال»[١٠].

وقال ابن عاشور: «وقد شبّهت بهذا التمثيل العجيب حالة من فُرض ارتدادُه إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إيَّاه وتركه أصحابه المسلمين الذين

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٢٠-٤٢٢).
(٢) الأنعام: الآية (٧٣).
(٣) الأنعام: الآية (٢).
(٤) الأنعام: الآية (١٤).
(٥) الأنعام: الآية (٦١).
(٦) الأنعام: الآية (٦١).
(٧) الأنعام: الآية (٦٤).
(٨) الأنعام: الآية (٥٦).
(٩) نظم الدرر (٧/ ١٥٠-١٥١).
(١٠) تفسير الفخر الرازي (٧/ ٣١-٣٢).

يصدّونه عنه، بحَال الذي فسد عقله باستهواء من الشياطين والجنّ، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلًا عارفًا بمسالكها، وترك رفقته العقلاء يدعونه إلى موافقتهم، وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبّه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بها، بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، ويشبّه الكفر بالهُيام في الأرض، ويشبّه المشركون الذين دعَوْهم إلى الارتداد بالشياطين وتُشَبّه دعوة الله الناس للإيمان ونزولُ الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى. وعلى هذا التفسير يكون ﴿ٱلَّذِى﴾ صادقًا على غير معيّن، فهو بمنزلة المعرّف بلام الجنس»[1].

وقال القاسمي: «في تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع، وعطفها على الأمر بالإسلام وقرنها بالأمر بالتقوى؛ دليل على تفخيم أمرها، وعظم شأنها»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٥٨١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «إن اللّه -تعالى ذكره- أخبر أنه المنفرد بخلق السموات والأرض دون كل ما سواه، معرفا من أشرك به من خلقه جهله في عبادة الأوثان والأصنام، وخطأ ما هم عليه مقيمون من عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ولا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضر عنها، ومحتجا عليهم في إنكارهم البعث بعد الممات، والثواب والعقاب بقدرته على ابتداع ذلك ابتداء، وأن الذي ابتدع ذلك غير متعذر عليه إفناؤه، ثم إعادته بعد إفنائه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أيها العادلون بربهم من لا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا بها على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ يقول: ويوم يقول حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات كذلك: كن فيكون، كما شاء -تعالى ذكره-، فتكون الأرض غير الأرض عند قوله كن، فيكون متناهيا، وإذا كان كذلك معناه وجب أن يكون في الكلام محذوف يدل عليه الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول لذلك كن فيكون، تبدل غير السموات والأرض، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ثم ابتدأ الخبر عن القول فقال: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ بمعنى: وعده هذا الذي وعد -تعالى ذكره- من تبديله السموات والأرض غير الأرض والسموات الحق الذي لا شك فيه»[٢].

وقال أبو حيان: «لما ذكر تعالى أنه إلى جزائه يحشر العالم وهو منتهى ما يؤول إليه أمرهم، ذكر مبتدأ وجود العالم واختراعه له بالحق أي بما هو حق لا عبث فيه

---

(١) الأنعام: الآية (٧٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٤٠).

ولا هو باطل، أي لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا؛ بل صدرا عن حكمة وصواب، وليستدل بهما على وجود الصانع، إذ هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث لا بد لها من محدث واحد عالم قادر مريد سبحانه وعلا. وقيل: معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ بكلامه في قوله للمخلوقات ﴿كُن﴾ وفي قوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[1] والمراد في هذا ونحوه إنما هو إظهار انفعال ما يريد تعالى أن يفعله وإبرازه للوجود بسرعة وتنزيله منزلة ما يؤمر فيمتثل. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ﴾ جوزوا في (يوم) أن يكون معمولًا لمفعول فعل محذوف، وقدروه: واذكر الإعادة يوم يقول: كن أي يوم يقول للأجساد كن معادة ويتم الكلام عند قوله: ﴿كُن﴾، ثم أخبر بأنه يكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الذي كان في الدنيا إخبارًا بالإعادة فيكون ﴿قَوْلُهُ﴾ فاعلًا بـ﴿فَيَكُونُ﴾ أو يتم الكلام عند قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ويكون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبرًا»[2].

قال السعدي: «﴿الْحَقُّ﴾ في ذاته وصفاته؛ فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا، فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق[3]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[4]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5] ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[6] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[7]»[8].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن (الحق) اسم من أسماء الله

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم

---

(١) فصلت: الآية (١١).
(٢) البحر المحيط (٤/ ١٦٤).
(٣) أي: كل شيء ينسب إليه بحق فهو حق، أو كل شيء ينسبه إلى نفسه أو ينسبه إليه رسوله فهو حق.
(٤) الحج: الآية (٦٢).
(٥) الكهف: الآية (٢٩).
(٦) يونس: الآية (٣٢).
(٧) الإسراء: الآية (٨١).
(٨) تفسير السعدي (٥/ ٦٣١-٦٣٢).

لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد -ﷺ- حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر؛ لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك»[1].

★ فوائد الحديث:

قوله: «أنت الحق»:

قال القرطبي: «هذا الوصف لله تعالى بالحقيقة والخصوصية لا ينبغي لغيره؛ إذ وجوده لنفسه، فلم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجده لا من نفسه وإطلاق اسم الحق على هذه الأمور كلها معناه: أنها لابد من كونها، وأنها مما ينبغي أن يصدق بها. وتكرار الحق في تلك المواضع على جهة التأكيد، والتفخيم، والتعظيم لها»[2].

قال الطيبي: «فإن قلت: لم عرف (الحق) في قوله: «أنت الحق ووعدك الحق» ونكر في البواقي؟ قلت: لا منكر سلفا وخلفا أن اللّٰه هو الحق الثابت الدائم الباقي، وما سواه في معرض الزوال. قال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّٰه باطل

وكذا وعده مختص بالإنجاز دون وعد غيره، إما قصدا، وإما عجزا -تعالى وتعاظم عن ذلك- والتنكير في البواقي للتعظيم والتفخيم»[3].

قال ابن بطال: «وأما قوله: «أنت الحق»، فعلى معنيين: يكون اسما راجعا إلى

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٣/ ٣/ ١١٢٠)، ومسلم (١/ ٥٣٢-٥٣٣/ ٧٦٩)، وأبو داود (١/ ٤٨٨-٤٨٩/ ٧٧١)، والترمذي (٥/ ٤٤٩/ ٣٤١٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٧٧٠٣)، وابن ماجه (١/ ٤٣٠-٤٣١/ ١٣٥٥).

(٢) المفهم (٢/ ٣٩٨).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١١٩٦).

ذاته فقط لقوله ﷺ: أنت الحق. أي: أنت الموجود الثابت حقا الذي لا يصح عليك تغيير ولا زوال.

والمعنى الثاني: يكون الحق راجعا إلى صفة ذاته؛ لقوله: خلق السموات والأرض بالحق، أي قال لها: كوني فكانت. وقوله صفة من صفات ذاته عند أهل الحق والسنة»[1].

* * *

(١) شرح البخاري (١٠/ ٤١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «وأما قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾ فإنه خص بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصا في كل وقت في الدنيا والآخرة؛ لأنه عنى -تعالى ذكره- أنه لا منازع له فيه يومئذ، ولا مدعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل.

واختلف في معنى «الصور» في هذا الموضع:

فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيْتٍ. واعتلوا لقولهم ذلك بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٢]، وبالخبر الذي روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور: **«هو قرن يُنفخ فيه»**[٣].

وقال آخرون: «الصور» في هذا الموضع جمع «صورة»، ينفخ فيها روحها فتحيا، كقولهم: «سور» لسور المدينة..

والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللّه ﷺ.. أنه قال: «**الصور قرن ينفخ فيه**».

وذكر عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٤]؛ يعني: أن عالم الغيب والشهادة، هو الذي ينفخ في الصور»[٥].

---

(١) الأنعام: الآية (٧٣). (٢) الزمر: الآية (٦٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣٠) وحسنه. والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) الأنعام: الآية (٧٣). (٥) تفسير الطبري (٧/ ٢٤١).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلا من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1]، وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[2]، وما أشبه ذلك»[3].

وقال الرازي: «لا شبهة أن المراد منه يوم الحشر، ولا شبهة عند أهل الإسلام أن اللّه سبحانه خلق قرنا ينفخ فيه ملك من الملائكة وذلك القرن يسمى بالصور على ما ذكر اللّه تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الصور

* عن عبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»[5].

★ غريب الحديث:

قال الحافظ: «قال مجاهد: (الصور كهيئة البوق) وصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾[6] قال: كهيئة البوق»[7].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان**»[8].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب**

---

(١) غافر: الآية (١٦).

(٢) الفرقان: الآية (٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٧٦).

(٤) تفسير الرازي (١٣/ ٣٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢-١٧٢)، وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣٠) وحسنه. والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢/ ١١٣١٢). وصححه ابن حبان: (الإحسان ١٦/ ٣٠٣/ ٧٣١٢)، والحاكم (٢/ ٤٣٦-٥٠٦) (٤/ ٥٦٠) ووافقه الذهبي.

(٦) الكهف: الآية (٩٩).

(٧) الفتح (١١/ ٤٤٧).

(٨) أخرجه: الحاكم (٤/ ٥٥٨-٥٥٩) وصححه ووافقه الذهبي. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٤٤٨).

القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه؛ ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ!» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، توكلنا على اللَّه ربنا. وربما قال سفيان: على اللَّه توكلنا**»[١].

★ **غريب الحديث:**

التقم: وضع طرف الصور في فمه.

حنى جبهته: أي أمالها، وهو كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع وإلقاء الأذن.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الطيبي: «قال القاضي البيضاوي: معناه: كيف يطيب عيشي وقد قرب أن ينفخ في الصور، فكنى عن ذلك بأن صاحب الصور وضع رأس الصور في فمه، وهو مترصد مترقب لأن يؤمر فينفخ فيه واللَّه أعلم»[٢].

قال القاري: «والظاهر أن كلا من الالتقام والإصغاء وما بعده على الحقيقة، وأنه عبادة لصاحبه، بل هو مكلف به»[٣].

وانظر تمام البحث في سورة الزمر الآية (٦٥).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٧ و٧٣)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١) و(٥/ ٣٤٧/ ٣٢٤٣) وقال: «حديث حسن». و ابن ماجه (٢/ ١٤٢٨/ ٤٢٧٣). من طرق عن عطية العوفي عن أبي سعيد مرفوعا، وعطية العوفي صدوق يخطئ كثيرا كما في التقريب؛ لكن تابعه أبو صالح عن أبي سعيد به. أخرجه: أبو يعلى (٢/ ٣٤٠؛ ٣٣٩/ ١٠٨٤)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٠٥/ ٨٢٣) والحاكم (٤/ ٥٥٩) وقال: «ولولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة، على شرط الشيخين». قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣/ ٦٧): «قد تابعه جرير عن الأعمش عند أبي يعلى وابن حبان، فالسند صحيح على شرطهما».

(٢) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٩١).

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٦٤).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يعني بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ عالم ما تعاينون أيها الناس فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه، وهو الحكيم في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب، خبير بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيئ حافظ ذلك عليهم، ليجازيهم على كل ذلك. يقول -تعالى ذكره-: فاحذروا أيها العادلون بربكم عقابه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون»[١].

قال محمد رشيد رضا: «المعنى: أن الذي خلق الخلق بالحق، والذي قوله الحق في التكوين والتكليف، والذي له الملك وحده يوم ينفخ في الصور ويحشر الخلق، هو عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه، وهو الخبير بدقائق الأمور وخفاياها، فلا يشذ عن علمه وحكمته شيء منها، فلا يليق بعاقل أن يدعو غيره؛ ولو بقصد التوسل والتقريب إليه زلفى ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾[٢] ففي هذا التذييل تقرير لمضمون الآية وفذلكة للسياق الوارد في إنكار دعاء غير الله تعالى»[٣].

وقال الرازي: «إنه سبحانه ما ذكر أحوال البعث في القيامة إلا وقرر فيه أصلين: أحدهما: كونه قادرًا على كل الممكنات، والثاني: كونه عالمًا بكل المعلومات؛ لأن بتقدير أن لا يكون قادرًا على كل الممكنات لم يقدر على البعث والحشر ورد الأرواح إلى الأجساد، وبتقدير أن لا يكون عالمًا بجميع الجزئيات لم يصح ذلك

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٤٢).

(٢) الأنعام: الآية (٤١).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٥٣٢).

أيضًا منه لأنه ربما اشتبه عليه المطيع بالعاصي. والمؤمن بالكافر، والصديق بالزنديق، فلا يحصل المقصود الأصلي من البعث والقيامة. أما إذا ثبت بالدليل حصول هاتين الصفتين كمل الغرض والمقصود، فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يدل على كمال القدرة، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يدل على كمال العلم فلا جرم لزم من مجموعهما أن يكون قوله حقًا، وأن يكون حكمه صدقًا، وأن تكون قضاياه مبرأة عن الجور والعبث والباطل»[1].

وقال أبو حيان: «﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لما ذكر خلق الخلق وسرعة إيجاده لما يشاء وتضمن البعث إفناءهم قبل ذلك؛ ناسب ذكر الوصف بالحكيم، ولما ذكر أنه عالم الغيب والشهادة ناسب ذكر الوصف بالخبير، إذ هي صفة تدل على علم ما لطف إدراكه من الأشياء»[2].

* * *

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٣٤).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٦٥).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾

★ غريب الآية:

الأصنام: جمع صنم، وهو الجثة المتخذة من خشب أو حجر أو نحاس، فتعبد متقربًا بها إلى اللَّه تعالى. قال ابن عرفة: كل ما اتخذ وله صورة فهو صنم، وإن لم يكن له صورة فهو وثن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾[1]؛ ناسب ذكر هذه الآية هنا، وكان التذكار بقصة إبراهيم ﷺ مع أبيه وقومه أنسب لرجوع العرب إليه؛ إذ هو جدّهم الأعلى، فذكروا بأن إنكار هذا النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدّكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها. وفي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحي الآباء والأجداد. وهم وسائر الطوائف معظمون لإبراهيم ﷺ»[2].

وقال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد لحجاجك الذي تحاج به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك، ونعلمكه من البرهان، والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقية ما أنت عليهم محتج حجاج إبراهيم خليلي قومه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى اللَّه والرضا به وليًا وناصرًا دون الأصنام، فاتخذه إمامًا واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالًا . . . ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي

---

(١) الآية (٧١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ١٦٨).

﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ : وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها وتتخذها ربًّا دون اللَّه الذي خلقك فسواك ورزقك. . . ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يقول: إني أراك يا آزر وقومك الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾، يقول: في زوال عن محجة الحق، وعدول عن سبيل الصواب ﴿مُّبِينٖ﴾ يقول: يتبين لمن أبصره أنه جور عن قصد السبيل، وزوال عن محجة الطريق القويم، يعني بذلك: أنه قد ضل هو وهم عن توحيد اللَّه وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان»[1].

وقال ابن كثير: «والمقصود أن إبراهيم عليه السلام وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي: أتتأله لصنم تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون؛ بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[2]، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك؛ رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[3]»[4].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٤٢-٢٤٤).

(٢) مريم: الآيات (٤١-٤٨).

(٣) التوبة: الآية (١١٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٣).

وقال القاسمي: «الآية حجة على الشيعة في زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرًا، وأن آزر عم إبراهيم، لا أبوه، على ما بسطه الرازي هنا، وذلك لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، ومثله لا يجزم به من غير نقل..

قال بعض مفسري الزيدية: في الآية دلالة على بطلان قول الإمامية: إن الإمام لا يجوز أن يكون أبوه كافرًا؛ لأنه إذا جاز نبي أبوه وزوجته كافران؛ فالإمام أولى..

قال بعض مفسري الزيدية: ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة في الدين، لاسيما للأقارب، فإن من كان أقرب، فهو أهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]. وقال ﷺ: «**ابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»[3]. ولهذا بدأ ﷺ بعلي وخديجة وزيد، وكانوا معه في الدار، فآمنوا وسبقوا، ثم بسائر قريش، ثم بالعرب، ثم بالموالي. وبدأ إبراهيم بأبيه، ثم بقومه. وتدل هذه الآية على أن النصيحة في الدين والذم والتوبيخ لأجله، ليس من العقوق كالهجرة»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مفارقة الوالد للولد في العقيدة والتوحيد

* عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ**

---

(١) الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) التحريم: الآية (٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٥)، ومسلم (٢/ ٦٩٢-٦٩٣/ ٩٩٧)، وأبو داود (٤/ ٢٦٦/ ٣٩٥٧)، والنسائي (٧/ ٣٤٩/ ٤٦٦٦) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «ابدأ بنفسك..».

وأما لفظ «بمن تعول» فأخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٢)، والبخاري (٣/ ٣٧٦/ ١٤٢٧)، ومسلم (٢/ ٧١٧/ ١٠٣٤)، والنسائي (٥/ ٧٢/ ٢٥٤٢) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٤) محاسن التأويل (٦/ ٥٨٤-٥٨٦).

بقوائمه فيلقى في النار»[١].

★ غريب الحديث:

قترة وغبرة: الغبرة: الغبار من التراب، والقترة: السواد الكائن عن الكآبة.

الذيخ: الذيخ: بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة ذكر الضباع.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الكرماني: فإن قلت: إذا أدخل اللَّه أباه النار فقد أخزاه لقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[٢] وخزي الوالد خزي الولد، فيلزم الخلف في الوعد وهو محال، ولو أنه يدخل النار لزم الخلف في الوعيد، وهو المراد بقوله: «إن اللَّه حرم الجنة على الكافرين» والجواب: أنه إذا مسخ في صورة ضبع وألقي في النار؛ لم تبق الصورة التي هي سبب الخزي، فهو عمل بالوعد والوعيد. وجواب آخر: وهو أن الوعد كان مشروطًا بالإيمان، وإنما استغفر له وفاء بما وعده، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. قلت: وما قدمته يؤدي المعنى المراد مع السلامة مما في اللفظ من الشناعة، واللَّه أعلم»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «فاللَّه يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، فيخلق من الشخص الكافر مؤمنًا نبيًّا وغير نبي، كما خلق الخليل من آزر، وإبراهيم خير البرية هو أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ، وآزر من أهل النار، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **يلقى إبراهيم أباه آزر**.. -وذكر الحديث-.

وكما خلق نبينا ﷺ من أبويه وقد نهي عن الاستغفار لأمه، وفي الصحيح أن رجلًا قال له: أين أبي؟ قال: «**إن أباك في النار**». فلما أدبر دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[٤]. وقد أخرج من نوح وهو رسول كريم ابنه الكافر الذي حق عليه

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٢/ ١١٣٧٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٢). (٣) الفتح (٨/ ٦٤٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٩ و٢٦٨)، ومسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٣)، وأبو داود (٥/ ٩٠/ ٤٧١٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

القول، وأغرقه، ونهى نوحًا عن الشفاعة فيه. والمهاجرون والأنصار مخلوقون من آبائهم وأمهاتهم الكفار»[1].

قال محمد رشيد رضا: «أقول: إن ما في الحديث من أن اللَّه تعالى وعد إبراهيم صلى اللَّه تعالى عليه وآله وسلم بأن لا يخزيه يوم القيامة، يشير إلى دعائه الذي حكاه اللَّه تعالى عنه في سورة (الشعراء) ومنه ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] وأما وعد اللَّه تعالى إياه بذلك فلا نعرفه إلا من الحديث، فهو يدل على أن اللَّه تعالى أوحى إليه بأنه استجاب له هذا الدعاء بشرطه المعلوم من الدين بالضرورة، وهو أن اللَّه تعالى لا يغفر لمن يشرك به. وتأمل قوله تعالى في خاتمة الدعاء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فهو من دقائق الرقائق»[3].

وقال أيضًا: «إن الحكمة البالغة والفائدة الظاهرة من هذه النصوص؛ هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله، وهو أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين، ما عليهم إلا تبليغ دين اللَّه وإقامته، وليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأحد ضرًّا ولا نفعًا، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة، فلا يهدون من أحبوا، ولا يغنون عنه من اللَّه شيئًا؛ وإن كان أقرب الناس وأحبه إليهم في النسب والمعاملة الدنيوية.

وأما قاعدة وثنية العرب وغيرهم فهي اتخاذ أولياء من العباد، يزعمون أنهم وسطاء بين اللَّه وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد، والإشقاء والإسعاد، والسلب والإمداد، لا في مجرد التبليغ والإرشاد، قياسا على ما يعهدون من الأقربين والمقربين، عند الملوك المستبدين، فهم لذلك يدعونهم مع اللَّه أو من دون اللَّه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[4] وكانوا يعبرون عنهم بالأولياء والشركاء كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٦٢-٢٦٣).
(٢) الشعراء: الآيات (٨٦-٨٩).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٥٤٠).
(٤) يونس: الآية (١٨).

﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1] الآية. وكانوا يقولون في طوافهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك).

وأصل عبادة أصنامهم وأوثانهم الغلو في تعظيم الصالحين، فهي مأخوذة عن قوم نوح؛ كان فيهم رجال صالحون هلكوا، فأوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم أنصابًا وسموها بأسمائهم. ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[2]. وقد هدم القرآن جميع قواعد شرك العرب وغيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب، الذين جعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم، لا على اتباعهم في الإيمان والعمل وفضل اللَّه تعالى. ولما كان إبراهيم أعلى البشر مقامًا في أنفس العرب -ومقامه الأعلى في الرسل عند أهل الكتاب مقامه-؛ كرر اللَّه تعالى في كتابه ذكر كفر والده، واجتهاده هو في هدايته وعنايته بالاستغفار له، وأن ذلك كله لم يفده شيئًا، وزاد الرسول الأعظم ﷺ فبين لنا ما أطلعه اللَّه عليه من عاقبته السوء في الآخرة ليعلم الناس أن مدار النجاة في الآخرة على الإيمان الصحيح الإذعاني، المستلزم للعمل بما جاء به الرسل عليهم السلام، لا بأشخاص الرسل وتأثيرهم الشخصي عند الله؛ كتأثير الأقربين والمقربين، عند الملوك المستبدين، إذ يحملونهم بالشفاعة أو الإقناع على عفو عن مذنب، أو إحسان إلى غير مستحق، وهذه هي نظرية الوثنيين في الشفاعة التي نفاها القرآن المجيد، وأثبت أن الشفاعة لله جميعًا، لا يشفع عنده أحد إلا من بعد إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.. لولا تقرير هذه القاعدة لما ظهرت حكمة تلك العناية بتكرار ذكر كفر أبي إبراهيم في القرآن الحكيم؛ كالآيات التي في سورة (مريم) (٤١-٤٨) وكذكر أبيه قبل قومه في خبر بعثته في هذه السورة (الأنعام) وفي سورة (الأنبياء) (٥٢) إلخ وسورة (الشعراء) (٧٠) وسورة (الصافات) (٨٥) إلخ وسورة (الزخرف) (٢٦). فمن تأمل في هذه الآيات وما في معناها كآية الاستغفار له في سورة (براءة) (١١٤).. وقوله تعالى في سورة (الممتحنة): ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ

(١) الزمر: الآية (٣).

(٢) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما وانظر الكلام عليه مع فوائده عند تفسير سورة (نوح): الآية (٢٣).

﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1] من تأمل ذلك كله؛ جزم بما قلناه، وأجدر بنا وقد وفقنا اللّه تعالى إلى إظهار الحق بهذه الشواهد والبينات؛ أن ندعو اللّه تعالى بالدعاء المتمم لهذه الآيات، فنقول: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]»[3].

ينظر تمام الموضوع في سورة التوبة عند الآيتين: (١١٣-١١٤).

* * *

(١) الممتحنة: الآيتان (٣ و ٤).

(٢) الممتحنة: الآيتان (٤ و ٥).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٤٥٤-٥٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الملكوت: الملك. واللفظ للمبالغة.

جَنَّ: أَظْلَمَ. يقال: جن عليه الليل: إذا سَتَرَهُ بظلمته. ومنه اشتقاق الجِنِّ لاستتارهم.

أفل: غاب وذهب.

البزوغ: الطلوع. يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبزغ: الشق، كأنه يشق بنوره الظلمة.

فطر: أصل الفطر: الشق طولًا. والمقصود: فتقهما من بعد أن كانتا ملتصقتين.

الحنيف: المائل إلى الحق.

حاجه قومه: المحاجة: المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة. والحجة: تطلق على كل ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه، أو رد دعوى خصمه.

السلطان: الحجة والبرهان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن خليله إبراهيم ﷺ؛ أنه لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك باللَّه، ولم يأخذه في اللَّه لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: يا قوم إني بريء مما تشركون مع اللَّه، الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السموات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويحيي ويميت، لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع، ثم أخبرهم -تعالى ذكره- أن توجيهه وجهه لعبادته بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه، على ما يجب من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجه له وجهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه، لا على التحنيف غير نافع موجهه، بل ضاره ومهلكه»[1].

وقال ابن القيم: «شرك الصابئة كان من جهة الكواكب، والعلويات ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات اللَّه وسلامه عليه في بطلان إلهيتها بما حكاه اللَّه سبحانه في سورة الأنعام أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم. فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبا قاهرا، غير مغلوب ولا مقهور. نافعا لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه، ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه. وذلك ليس إلا لله وحده. فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٥١-٢٥٢).

منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها. فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلها. فحاجه قومه في اللَّه، ومن حاج في عبادة اللَّه فحجته داحضة. فقال إبراهيم ﷺ: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ وهذا من أحسن الكلام، أي أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه. وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل؛ تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع اللَّه أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة اللَّه وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى. فقال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علمًا. فمن أولى بأن يخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟.

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئًا ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

وهذا من أحسن قلب الحجة؛ وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل اللَّه عليهم سلطانا بعبادتها. وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم باللَّه وعبادتكم

معه آلهة أخرى؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟»[١].

قال ابن كثير: «وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ الآية. . . والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبيّنًا لهم بطلان ماكانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام. فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية؛ ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة. فبين أولًا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية لأنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام، خلقها اللَّه منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب، حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع، قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعًا ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٦٣-٣٦٥).

﴿ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرًا في هذا المقام وهو الذي قال اللَّه في حقه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[2] الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4]، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»[5]، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول اللَّه ﷺ قال: «قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء»[6]، وقال اللَّه في كتابه العزيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾[8]... فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله اللَّه أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين، ناظرًا في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول اللَّه ﷺ بلا شك ولا ريب»[9].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في البراءة من الشرك وأهله

* عن عياض بن حمار المجاشعي ؓ: أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: **«ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم**

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) الأنبياء: الآيتان (٥١ و ٥٢).
(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٦١).
(٥) يأتي في أحاديث الباب.
(٦) يأتي في أحاديث الباب.
(٧) الروم: الآية (٣٠).
(٨) الأعراف: الآية (١٧٢).
(٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٥-٢٨٦).

أنزل به سلطانًا»[1].

★ غريب الحديث:

نحلته: أي أعطيته.

حنفاء: جمع حنيف، وهو المائل عن الأديان كلها إلى فطرة الإسلام.

اجتالتهم: أي استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أنه إنما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه، والخضوع له، والذل له، وكمال طاعته وحده دون غيره.

وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم، ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلًا أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه؛ أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك، كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير، فهو سبحانه الإله الحق المبين، والإله هو الذي يستحق أن يؤله؛ محبةً، وتعظيمًا، وخشيةً، وخضوعًا، وتذللًا، وعبادةً، فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه.

فهو المعبود حقًا، المحمود حقًا، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه، ولم يحمدوه، ولم يألهوه، فهو اللَّه الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم، وبعد أن يفنيهم، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق الإلهية والحمد، بل الإلهية وحمده ومجده وغناه؛ أوصاف ذاتية له، يستحيل مفارقتها له؛ لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد، -وإن لم

---

(١) أخرجه مطولًا: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦/ ٨٠٧٠ و٨٠٧١). وأخرجه مختصرًا: أبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٧٩).

يرسل إليهم رسولًا ، ولم ينزل عليهم كتابًا ، ولو لم يخلق جنةً ولا نارًا- ؛ علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته ، ولا أقبح من الإعراض عنه ، وجاءت الرسل ، وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك ، وتكميله ، وتفضيله ، وزيادته حسنًا إلى حسنه ، فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا ، وظهر أنهما من مشكاة واحدة ؛ فعبدوه وأحبوه ومجدوه وحمدوه ؛ بداعي الفطرة ، وداعي الشرع ، وداعي العقل ، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة ، ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم ، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريبا وشكا ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه ، فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادت بهم : حي على الفلاح ، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخي السماح ؛ وحمدوا عند الوصول إليه مسراهم ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح ، فدينهم دين الحب ، وهو الدين الذي لا إكراه فيه ، وسيرهم سير المحبين ، وهو الذي لا وقفة تعتريه :

إني أدين بدين الحب ويحكم	فذاك ديني ولا إكراه في الدين
ومن يكن دينه كرها فليس له	إلا العناء وإلا السير في الطين
وما استوى سير عبد في محبته	وسير خال من الأشواق في دين
فقل لغير أخي الأشواق ويحك قد	غبنت حظك لا تغتر بالدون
نجائب الحب تعلو بالمحب إلى	أعلى المراتب من فوق السلاطين
وأطيب العيش في الدارين قد رغبت	عنه التجار فباعت بيع مغبون
فإن ترد علمه فاقرأه ويحك في	آيات طه وفي آيات ياسين

ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة ، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب في نفسه ، والله سبحانه له الكمال المطلق التام في كل وجه ، الذي لا يعتريه توهم نقص أصلًا ، ومن هذا شأنه فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه ؛ ما دامت فطرها وعقولها سليمة ، وإذا كانت أحب الأشياء إليها ، فلا محالة أن محبته توجب عبوديته وطاعته ، وتتبع مرضاته ، واستفراغ الجهد في التعبد له والإنابة إليه»[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠٤-٥٠٦).

وقال أيضًا: «**قوله ﷺ فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى-: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم»** يتضمن أصلين عظيمين مقصودين لأنفسهما، ووسيلة تعين عليهما.

أحدهما: عبادته وحده لا شريك له.

والثاني: أنه إنما يعبد بما شرعه وأحبه وأمر به.

وهذان الأصلان هما المقصود الذي خلق له الخلق، فصدهما الشرك والبدع. فالمشرك يعبد مع اللَّه غيره، وصاحب البدعة يتقرب إلى اللَّه بما لم يأمر به، ولم يشرعه، ولا أحبه. وجعل سبحانه حل الطيبات مما يستعان به على ذلك ويتوسل به إليه. فمقدار الدين على هذين الأصلين وهذه الوسيلة. فأخبر سبحانه أن الشياطين اقتطعت عباده عن هذا المقصود، وعن هذه الوسيلة، فأمرتهم أن يشركوا به ما لم ينزل به سلطانا. وهذا يتناول الإشراك بالمعبود الحق، بأن يعبد معه غيره، والإشراك بعبادته الحقة، بأن تعبد بغير شرعه. وكثيرًا ما يجتمع الشركان فيعبد المشرك معه غيره بعبادة لم يشرع سبحانه أن يتعبد له بها. وقد ينفرد أحد المشركين فيشرك به غيره في نفس العبادة التي شرعها، أو يعبده وحده بعبادة شركية لم يشرعها، أو يتوسل إلى عبادته بتحريم ما أحله.

وقد ذم اللَّه سبحانه المشركين على هذين النوعين في كتابه؛ في سورة (الأنعام) و(الأعراف) وغيرهما، يذكر فيها ذمهم على ما حرموه من المطاعم والملابس، وذمهم على ما أشركوا به من عبادة غيره، أو على ما ابتدعوه من عبادته بما لم يشرعه»[1].

* عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين**»[2].

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩٤-٩٥ و١٠٢-١٠٣)، ومسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٧٧١)، وأبو داود (١/ ٤٨١-٤٨٣/ ٧٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٢-٤٥٣/ ٣٤٢١)، والنسائي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٨٩٦)، وابن ماجه (١/ ٢٨٠-٢٨١/ ٨٦٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو الطيب الآبادي: «أي: توجهت بالعبادة بمعنى أخلصت عبادتي لله. وقيل: صرفت وجهي وعملي ونيتي، أو أخلصت قصدي ووجهتي ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: إلى الذي خلقهما وعملهما من غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ حال من ضمير «وجهت»؛ أي: مائلًا عن كل دين باطل إلى الدين الحق ثابتًا عليه، وهو عند العرب غلب على من كان على ملة إبراهيم عليه السلام ﴿مُّسْلِمًا﴾[1] أي: منقادًا مطيعًا لأمره وقضائه وقدره، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه تأكيد وتعريض ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ أي: عبادتي وصلاتي، وفيه شائبة تعليل لما قبله، ﴿وَنُسُكِى﴾ أي: ديني وقيل عبادتي أو تقربي أو حجي، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾[2] أي: حياتي وموتي... ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾[3] أي: بالتوحيد الكامل الشامل للإخلاص قولًا واعتقادًا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4]»[5].

قال شيخ الإسلام: «الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك، فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجها إليها، ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب، فكان إسلام الوجه، وإقامته وتوجيهه مسلتزما لإسلام القلب، وإقامته وتوجيهه، وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كله لله... وهذا حقيقة دين الإسلام»[6].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟»**[7].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «اختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الحديث على أقوال كثيرة؛ لخصها ابن القيم رحمه الله في فصل ماتع فقال:

(١) آل عمران: الآية (٦٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٢).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٦٣).
(٥) عون المعبود (٢/ ٤٦٣-٤٦٤).
(٦) النبوات (١/ ٣٥١).
(٧) أخرجه بألفاظ متقاربة: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٣/ ٣١٤/ ١٣٨٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

«فمنها قولان من جنس واحد وهما :

الأول: قول من يقول: ولدوا على ما سبق به القدر .

والثاني: قول من يقول: ولدوا على وجود المقدر، وكانوا مفطورين عليه من حيث الميثاق الأول طوعا وكرها .

وقولان من جنس وهما :

الأول: قول من يقول: ولدوا قادرين على المعرفة .

والثاني: قول من يقول: ولدوا قابلين لها وللتهود والتنصر، إما مع التساوي أو مع رجحان القبول للإسلام .

وقولان من جنس وهما :

الأول: قول من يقول: ولدوا على فطرة الإسلام .

والثاني: قول من يقول: ولدوا على الإقرار بالصانع، أو على المعرفة الأولى يوم أخذ الميثاق .

وقولان من جنس وهما :

الأول: قول من يقول: ولدوا على سلامة القلب وخلوه من الكفر والإيمان .

والثاني: قول من يقول: ولدوا مهيئين لذلك قابلين له .

وقولان من جنس وهما :

الأول: قول من يقول: الحديث منسوخ .

والثاني: قول من يقف في معناه .

والصحيح من هذه الأقوال ما دل عليه القرآن والسنة: أنهم ولدوا حنفاء على فطرة الإسلام، بحيث لو تركوا وفطرهم لكانوا حنفاء مسلمين، كما ولدوا أصحاء كاملي الخلقة، فلو تركوا وخلقهم لم يكن فيهم مجدوع ولا مشقوق الأذن .

ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لذلك شرطًا مقتضيًا غير الفطرة، وجعل خلاف مقتضاها من فعل الأبوين»[1] .

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٦٨-١٠٧٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل مولود يولد على الفطرة، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها، ولكن أبواه يفسدان ذلك فيهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، ويشركانه، كذلك يجهمانه فيجعلانه منكرا لما في قلبه من معرفة الرب ومحبته وتوحيده. ثم المعرفة يطلبها بالدليل، والمحبة ينكرها بالكلية، والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه، وإنما ثبت توحيد الخلق، والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك.

فهما يشركانه، ويهودانه، وينصرانه، ويمجسانه»[١].

قال ابن القيم: «مما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل: إنه ولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على هذه الملة، أو خلق حنيفا، فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده. فإن اللّه يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٢]، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقربه. فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له. وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض.

وليس المراد أيضًا مجرد قبول الفطرة لذلك. فإن هذا القبول تغير بتهويد الأبوين وتنصيرهما، بحيث يخرجان الفطرة عن قبولهما، وإن سعيا بين بنيهما ودعائهما في امتناع حصول المقبول.

وأيضًا فإن هذا القبول ليس هو الإسلام، وليس هو هذه الملة، وليس هو الحنيفية.

وأيضًا فإنه شبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء. ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله، ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، بل المراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية. فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره؛ كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه. وهذا من قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٥-٣٤٦).
(٢) النحل: الآية (٧٨).
(٣) طه: الآية (٥٠).

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[١].

فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته. ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة، فهكذا ما ولد عليه من الفطرة. ولهذا شبهت الفطرة باللبن، بل كانت إياه في التأويل للرؤيا. ولما عرض على النبي ﷺ ليلة الإسراء اللبن والخمر أخذ اللبن، فقيل له: أخذت الفطرة، ولو أخذت الخمر لغوت أمتك[٢].

فمناسبة اللبن لبدنه وصلاحه عليه دون غيره؛ لمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه بها دون غيرها»[٣].

* * *

(١) الأعلى: الآيتان (٢ و ٣).

(٢) جزء من حديث الإسراء والمعراج أخرجه: البخاري (١٠/ ٣٧/ ٥٥٧٦)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠)؛ كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) شفاء العليل (٢/ ٣٠٨-٣١٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يلبسوا: يخلطوا.

الظلم: في اللغة: وضع الشيء في غير محله. والمراد به هنا: الشرك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا فصل القضاء من اللَّه بين إبراهيم خليله عليه السلام، وبين من حاجه من قومه من أهل الشرك باللَّه، إذ قال لهم إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقال اللَّه تعالى فاصلًا بينه وبينهم: الذين صدقوا اللَّه، وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه، وتصديقهم له بظلم؛ يعني: بشرك، ولم يشركوا في عبادته شيئًا، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصًا؛ أحق بالأمن من عقابه، مكروه عبادته من الذين يشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأصنام، فإنهم الخائفون من عقابه مكروه عبادتهم. أما في عاجل الدنيا فإنهم وجلون من حلول سخط اللَّه بهم. وأما في الآخرة، فإنهم الموقنون بأليم عذاب الله»[1].

وقال ابن عاشور: «هذه الجملة من حكاية كلام إبراهيم على ما ذهب إليه جمهور المفسِّرين، فيكون جوابًا منه عن قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾[2]. تولّى جوابَ استفهامه بنفسه ولم ينتظر جوابهم لكون الجواب ممَّا لا يسع المسؤول إلاّ أن يجيب بمثله، وهو تبكيت لهم. قال ابن عبّاس: كما يسأل العالم ويُجيبُ نفسه بنفسه، أي بقوله: «فإن قلتَ قلتُ». وقد تقدّمت نظائره في هذه السورة.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٥٤).
(٢) الأنعام: الآية (٨١).

وقيل: ليس ذلك من حكاية كلام إبراهيم، وقد انتهى قول إبراهيم عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)]؛ بل هو كلام مستأنف من اللَّه تعالى لابتداء حكم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا تصديقًا لقول إبراهيم.

وقيل: هو حكاية لكلام صدر من قوم إبراهيم جوابًا عن سؤال إبراهيم ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾[(٢)]. ولا يصحّ لأنّ الشأن في ذلك أن يقال: قال الذين آمنوا.. إلخ، ولأنّه لو كان من قول قومه لما استمرّ بهم الضلال والمكابرة إلى حدّ أن ألقوا إبراهيم في النّار»[(٣)].

قال الشنقيطي: «المراد بالظلم هنا الشرك كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[(٥)]»[(٦)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التوحيد

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله! فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(٧)] إنما هو الشرك»[(٨)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «الخوف دائما مع الشرك، والأمن دائما مع التوحيد؛ قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن

(١) الأنعام: الآية (٨١).
(٢) الأنعام: الآية (٨١).
(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٣٣١-٣٣٢).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٥) يونس: الآية (١٠٦).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٢٠١-٢٠٢).
(٧) لقمان: الآية (١٣).
(٨) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٨و٤٢٤و٤٤٤)، والبخاري (٨/ ٣٧٣/ ٤٦٢٩)، ومسلم (١/ ١١٤-١١٥/ ١٢٤)، والترمذي (٥/ ٢٤٥/ ٣٠٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤١/ ١١١٦٦).

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] فحكم اللَّه ﷻ بين الفريقين بحكم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقد صح عن رسول اللَّه ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك، وقال: «ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئًا غير اللَّه سلط عليه، وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه، ولو خاف اللَّه دونه ولم يخفه؛ لكان عدم خوفه منه وتوكله على اللَّه من أعظم أسباب نجاته منه؛ وكذلك من رجا شيئًا غير اللَّه حرم ما رجاه منه، وكان رجاؤه غير اللَّه من أقوى أسباب حرمانه؛ فإذا رجا اللَّه وحده كان توحيد رجائه أقوى أسباب الفوز به أو بنظيره، أو بما هو أنفع له منه، واللَّه الموفق للصواب»[٢].

قال شيخ الإسلام: «والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه؛ فشق ذلك عليهم، فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب اللَّه تعالى، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم؛ ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[٣]. وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٥].

وقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله! وأينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: «**يا أبا بكر! ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما**

---

(١) الأنعام: الآية (٨١).
(٢) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٨٧-٣٨٨).
(٣) فاطر: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٤) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٥) النساء: الآية (١٢٣).

تجزون به»[1]. فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة؛ قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه. . .

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة؛ كان له الأمن التام، والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه نفسه؛ كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه. وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة اللَّه عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة. وقول النبي ﷺ: «إنما هو الشرك» إن أراد به الشرك الأكبر؛ فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتدٍ إلى ذلك. وإن كان مراده جنس الشرك؛ فيقال: ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب؛ هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه اللَّه حتى يكون يقدم هواه على محبة اللَّه شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار»[2].

قال ابن القيم: «فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لا يكون آمنًا؛ أجابهم -صلوات اللَّه وسلامه

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١١)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٧٠-١٧١/ ٢٩١٠)، والحاكم (٣/ ٧٤) كلهم من طريق أبي بكر ابن أبي زهير. وهذا إسناد ضعيف للانقطاع بين هذا الأخير وبين أبي بكر ﷺ. وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٣١-٢٣٢/ ٣٠٣٩) بلفظ مغاير وقال: «هذا حديث غريب. وفي إسناده مقال موسى بن عبيدة يضعف في الحديث». لكن للحديث شواهد يتقوى بها كحديث أبي هريرة عند مسلم (٤/ ١٩٩٣/ ٢٥٧٤)، وحديث عائشة عند أحمد (٦/ ٦٥-٦٦)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ١٨٦/ ٢٩٢٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح».

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٠-٨٢).

عليه- بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق، هو الشرك، وهذا واللَّه الجواب الذي يشفي العليل، ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام: هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها، والأمن والهدى المطلق: هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم، فالظلم المطلق التام مانع من الأمن والهدى المطلق، ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعا من مطلق الأمن ومطلق الهدى، فتأمله»(١).

* عن عبادة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللَّه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله اللَّه الجنة على ما كان من العمل**»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا حديث عظيم الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم»(٣).

قال القاضي عياض: «ما ورد في حديث عبادة ودخوله من أي أبواب الجنة شاء، خصوصا لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين من حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه؛ فيكون له من الأجر ما يرجح بسيئاته ومعاصيه، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء اللَّه تعالى، كما أشار إليه في الحديث، واللَّه أعلم بمراد نبيه»(٤).

وقال السعدي: «ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٥٧-١٠٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٣-٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٨٦/ ٣٤٣٥)، ومسلم (١/ ٥٧/ ٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣١/ ١١١٣٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (١/ ٢٠٠).

(٤) الإكمال (١/ ٢٥٥).

في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام؛ فإنه يصير القليل من عمله كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب»[١].

* عن عتبان بن مالك رضي الله عنه، وهو من أصحاب رسول اللّه ﷺ ممن شهد بدرًا من الأنصار: أنه أتى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول الله! قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول اللّه أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذه مصلى. قال: فقال له رسول اللّه ﷺ: **«سأفعل إن شاء الله»**. قال عتبان: فغدا رسول اللّه ﷺ وأبو بكر حين ارتفع، فاستأذن رسول اللّه ﷺ فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال: **«أين تحب أن أصلي من بيتك؟»** قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول اللّه ﷺ فكبر، فقمنا فصففنا فصلى ركعتين، ثم سلم. قال: وحبسناه على خزيرة صنعناها له، قال: فثاب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن -أو ابن الدخشن-؟ فقال بعضهم: ذاك منافق لا يحب اللّه ورسوله، فقال رسول اللّه ﷺ: **«لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا اللّه، يريد بذلك وجه الله؟»** قال: اللّه ورسوله أعلم، قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين، قال رسول اللّه ﷺ: **«فإن اللّه قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله»**[٢].

★ غريب الحديث:

الخزيرة: نوع من الأطعمة، تصنع من لحم يقطع صغارًا، ثم يصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق، وإن لم يكن فيه لحم فهو عصيدة[٣].

فثاب: ثاب الرجال؛ أي: اجتمعوا بعد أن تفرقوا.

★ فوائد الحديث:

قال سليمان بن عبد اللّه آل الشيخ: «أحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام

(١) القول السديد (ص: ١٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٦٨٣/ ٤٢٥)، ومسلم (١/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٣٣).

(٣) فتح الباري (١/ ٦٨٦).

وغيره أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصًا من قلبه مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها، بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى اللَّه جملة، فمن شهد أن لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى اللَّه تعالى، بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت، فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدا أو عادة؛ ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»[1]، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام؛ لم يكن في هذه الحال مصرًّا على ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون اللَّه أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم اللَّه، ولا كراهية لما أمر اللَّه، وهذا هو الذي يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبا إلا يمحى كما يمحى الليل بالنهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر؛ فهذا غير مصر على ذنب أصلًا، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك؛ فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة[3]، فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصرًّا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا اللَّه، وخلص بها

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨). وأخرجه مختصرًا: النسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٩)؛ كلهم من حديث البراء بن عازب.

(٢) الزخرف: الآية (٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٣٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧/ ٤٣٠٠)، وابن حبان (الإحسان ١/ ٤٦١-٤٦٢/ ٢٢٥)، والحاكم (١/ ٦) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، كلهم من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص.

من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصا، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرا على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة يضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قول: لا إله إلا اللَّه، فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون من ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها؛ قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال شرًّا وعمل شرًّا لم يقبل منه.

وقال بكر بن عبد اللَّه المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه، فمن قال: لا إله إلا اللَّه، ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا وسيئات، وكان صادقًا في قولها موقنا بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعاف صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي؛ رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة، ومات مصرا على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصرًّا على الذنوب، إما أن لا يكون مصرًّا على سيئة أصلًا، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين

للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد تلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات؛ بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصًا. وقد ذكر معناه غيره كابن القيم، وابن رجب والمنذري، والقاضي عياض وغيرهم.

وحاصله: أن لا إله إلا اللَّه سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتض لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع. ولهذا قيل للحسن: إن ناسا يقولون: من قال: لا إله إلا اللَّه دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا اللَّه فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه، لمن سأله: أليس لا إله إلا اللَّه مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح»[(١)].

قال الحافظ: «وفيه أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وأنه لا يخلد في النار من مات على التوحيد، وأن العمل الصالح الذي يبتغي به وجه اللَّه تعالى ينجي صاحبه إذا قبله اللَّه تعالى»[(٢)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال الله: يا ابن آدم ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة**»[(٣)].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٦-٦٩).

(٢) الفتح (١/ ٦٨٨).

(٣) أخرجه: الترمذي (٥/ ٥١٢/ ٣٥٤٠) وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٢٧).

★غريب الحديث:

قراب الأرض: بضم القاف وقيل بكسرها والضم أشهر؛ وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها.

★فوائد الحديث:

قال ابن القيم: « «**لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، أتيتك بقرابها مغفرة**» فلا يدل على أن ما عدا الشرك كله صغائر، بل يدل على أن من لم يشرك بالله شيئًا فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت. ولكن ينبغي أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح، وتعلقها بها؛ وإلا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخلط والتخبيط.

فاعلم أن هذا النفي العام للشرك -أن لا يشرك بالله شيئًا ألبتة-؛ لا يصدر من مصر على معصية أبدًا، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد، حتى لا يشرك بالله شيئًا، هذا من أعظم المحال. ولا يلتفت إلى جدلي لا حظ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى، يقول: وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذلك واقعًا لم يلزم منه محال لذاته.

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله، وتوكله على غير الله: ما يصير به منغمسا في بحار الشرك. والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه، إن كان له عقل، فإن ذل المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفا من غير الله، وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه، فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك.

نعم، قد يكون معه توحيد أبي جهل وعباد الأصنام، وهو توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله. ولو أنجى هذا التوحيد وحده؛ لأنجى عباد الأصنام، والشأن في توحيد الإلهية، الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين.

والمقصود: أن من لم يشرك بالله شيئًا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا، مصرًّا عليها، غير تائب منها، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب

والخضوع، والذل والخوف والرجاء للرب تعالى»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من جاء مع التوحيد بقراب الأرض -وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها- خطايا، لقيه اللَّه بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة اللَّه عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنة.

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يلقى فيها ما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت؛ أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى اللَّه محبةً وتعظيمًا وإجلالًا ومهابةً، وخشيةً ورجاءً وتوكلًا، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، كما سبق ذكره في تبديل السيئات حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات»[٢].

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٦-٤١٧).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ فرفعنا بها درجته عليهم، وشرفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فآتيناه فيها أجره؛ وأما في الآخرة فهو من الصالحين، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: أي بما فعل من ذلك وغيره.

وأما قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني: إن ربك يا محمد حكيم في سياسته خلقه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم، المكذبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره، عليم بما يئول إليه أمر رسله، والمرسل إليهم من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، وإنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى، وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته، يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ، تأس يا محمد في نفسك وقومك المكذبيك، والمشركين بأبيك خليلي إبراهيم ﷺ، واصبر على ما ينوبك منهم صبره، فإني بالذي يئول إليه أمرك وأمرهم، عالم بالتدبير فيك وفيهم حكيم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ قيل: إن الإشارة إلى كل ما تقدم في هذا السياق. وقيل: إلى الآية الأخيرة منه. والأول أقوى وأظهر وأعم وأشمل، والمراد بالحجة جنسها، لا فرد من أفرادها، أي وتلك الحجة التي تضمنها ما تقدم من المقال، البعيدة المرمى في إثبات الحق وتزييف الضلال، وهي حجتنا البالغة، التي لا تنال إلا بهدايتنا السابقة، أعطيناها إبراهيم حجة على قومه مستعلية عليهم قاطعة لألسنتهم، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الدرجات

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٠).

في الأصل: مراقي السلم، وتوسع فيها فصارت تطلق على المراتب المعنوية في الخير والجاه والعلم والسيادة والرزق، وقد قرأ الكوفيون درجات بالتنوين، وقرأها الباقون بالإضافة إلى من نشاء، ومعنى الأول نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكن على درجة منها، ومعنى الثانية نرفع درجات من شئنا من أصحاب الدرجات حتى تكون درجته في كل فضيلة ومنقبة أرفع من درجة غيره فيها، وحكمة القراءتين، إثبات المعنيين، فالعلم النظري درجة كمال، والحكمة العلمية والعملية درجتا كمال، وفصل الخطاب وقوة العارضة في الحجاج من درجات الكمال والسيادة، والحكم بالحق درجة كمال، والنبوة والرسالة أعلى من كل هذه الدرجات؛ لأنها تشتمل عليها، وتزيد عنها، وكل ذلك متفاوت بفضل اللَّه، فضل بعض أهله على بعض، فهو سبحانه يؤتي الدرجات ابتداء بإعداده وبتوفيقه من يشاء للكسبي منها، واختصاصه من يشاء بالوهبي منها، ثم هو الذي يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما ترتقي به درجته، وبصرف موانع هذا الارتقاء عنه، وبإيتاء ذي الدرجة الوهبية (النبوة)؛ ما لم يؤت غيره من أهلها من المناقب والآيات المنزلة والتكوينية وكثرة اهتداء الخلق بها ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1] وجملة نرفع استئنافية مبينة أن ما آتى اللَّه إبراهيم ﷺ من الحجة كان باختصاصه بأعلى درجات النبوة الوهبية، وما ترتب عليها من درجات الدعوة الكسبية، وقوله تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله مبين لمنشئه ومتعلقه من صفات اللَّه تعالى، وقد وضع فيه اسم الرب مضافًا إلى ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام، موضع نون العظمة على طريق الالتفات، تذكيرًا منه تعالى لخاتم رسله بفضله عليه وتفضيله إياه، برفعه درجات على جميع رسل اللَّه، فهو يقول له إن ربك الذي رباك وآراك، وعلمك وهداك، ورفع ذكرك بجوده وكرمه، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه، حكيم في فعله وصنعه، عليم بشؤون خلقه وسياسة عباده، وسيريك شاهد ذلك عيانا في سيرتك مع قومك، كما أراكه بيانا في ما كان من إبراهيم مع قومه»[2].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٥٨٢-٥٨٤).

وقال ابن العربي: «وروى ابن القاسم عن مالك: نرفع درجات من نشاء في الدنيا. قال القاضي: وصدق؛ علم الدنيا عنوان الآخرة وسبيلها.

والذي أوتيه إبراهيم من العلم بالحجة، وهي التي تذكر للخصم على طريق المقابلة؛ كان في الدنيا بظهور دلالة التوحيد، وبيان عصمة إبراهيم عن الجهل بالله تعالى والشك فيه، والإخبار أن ما جرى بينه وبين قومه إنما كان احتجاجًا، ولم يكن اعتقادًا»[1].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾، الآية: قال مجاهد وغيره هي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ الآية، وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم، كما في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾؛ لأن الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل، وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها، وقد استدل إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالأفول على انتفاء الربوبية في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ فعدم إدخال هذه الحجة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ غير ظاهر، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي، والعلم عند الله تعالى»[2].

* * *

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٤١).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم ﷺ أنه أظهر حجة اللَّه تعالى في التوحيد ونصرها وذب عنها عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه؛ فأولها: قوله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والمراد: إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها، وأوقفنا عقله على حقيقتها. وذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة، وهو كناية الجمع على وفق ما يقوله عظماء الملوك: فعلنا وقلنا وذكرنا. ولما ذكر نفسه تعالى ههنا باللفظ الدال على العظمة؛ وجب أن تكون تلك العظمة عظمة كاملة رفيعة شريفة، وذلك يدل على أن إيتاء اللَّه تعالى إبراهيم ﷺ تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب.

وثانيها: أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة. وهي قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

وثالثها: أنه جعله عزيزًا في الدنيا، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس -وهم الأنبياء والرسل- من نسله ومن ذريته، وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة؛ لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك، والمقصود من هذه الآيات: تعديد أنواع نعم اللَّه على إبراهيم ﷺ؛ جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد»[1].

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٦٧).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق، بعد أن طَعَن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحق، فتعجبت المرأة من ذلك، ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[١]، وبشروه مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلًا وعقِبًا، كما قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة. وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[٣] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب. ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يَعْقب لضعفه؛ وقعت البشارة به وبولده باسم (يعقوب) الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم ﷺ حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة اللّه في الأرض، فعوضه اللّه ﷻ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه تَقَرُّ بهم عينه، كما قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[٤]، وقال هاهنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾.

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح ﷺ؛ فإن اللّه تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل اللّه ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم ﷺ، لم يبعث اللّه ﷻ بعده نبيًّا إلا من ذريته؛ كما قال تعالى: ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[٥] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٧].

---

(١) هود: الآيتان (٧٢و٧٣).
(٢) الصافات: الآية (١١٢).
(٣) هود: الآية (٧١).
(٤) مريم: الآية (٤٩).
(٥) العنكبوت: الآية (٢٧).
(٦) الحديد: الآية (٢٦).
(٧) مريم: الآية (٥٨).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى (نوح) -لأنه أقرب المذكورين- ظاهر، وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى (إبراهيم) -لأنه الذي سيق الكلام من أجله- حسن، لكن يشكل على ذلك (لوط)؛ فإنه ليس من ذرية إبراهيم؛ بل هو ابن أخيه ماران بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1]، فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليبًا.

وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح -على القول الآخر- دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام؛ فإنه لا أب له...

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم؛ دخل أولاد البنات فيهم. فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم؛ فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيه أيضًا؛ لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[2] فسماه ابنًا، فدل على دخوله في الأبناء»[3].

قال محمد رشيد رضا: «ذكر الله تعالى في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبيًّا، لم يرتبهم على حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابه هدىً وموعظةً لا تاريخًا، ولا على حسب فضلهم ومناقبهم؛ لأن كتابه ليس كتاب مناقب ومدائح، وإنما هو كتاب تذكرة وعبرة، وقد جعلهم ثلاثة أقسام لمعان في ذلك جامعة بين كل قسم منهم.

---

(١) البقرة: الآية (١٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧-٣٨)، البخاري (٥/ ٣٨٤/ ٢٧٠٤) واللفظ له، أبو داود (٥/ ٤٨-٤٩/ ٤٦٦٢)، الترمذي (٥/ ٦١٦/ ٣٧٧٣)، النسائي (٣/ ١١٨-١١٩/ ١٤٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٠-٢٩٢).

فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن اللَّه تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف وكان الأول أميرًا غنيًا عظيمًا محسنًا، والثاني وزيرًا عظيمًا وحاكمًا متصرفًا، ولكن كلا منهما قد ابتلي بالضراء فصبر، كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين، ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة ممتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقي في الدين، فداود وسليمان كانا أكثر تمتعًا بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف، وأن هذين أفضل من داود وسليمان، يجمعهما بين الشكر في السراء، والصبر في الضراء، واللَّه أعلم. وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق، وهداية الدين وإرشاد الخلق. وهذا كما قال اللَّه تعالى في أحدهم يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] فهو جزاء خاص بعضه معجل في الدنيا، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي اللَّه بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم من يرجي جزاءه إلى الآخرة.

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وهؤلاء قد امتازوا في الأنبياء ﷺ بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها، ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم، وإن كان كل نبي صالحا ومحسنا على الإطلاق.

والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوط، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين، الذي جعله اللَّه تعالى لكل نبي على عالمي زمانه، فمن

(١) يوسف: الآية (٢٢).

كان من النبيين منهم منفردا في عالم أو قوم كان أفضلهم على الإطلاق، وما وجد من نبيين فأكثر في عالم أو قوم فقد يكونون مع تفضيلهم على غيرهم، متفاضلين في أنفسهم، فلا شك أن إبراهيم أفضل من لوط المعاصر له، وأن موسى أفضل من أخيه هارون الذي كان وزيره، وأن عيسى أفضل من ابن خالته يحيى، صلوات اللَّه عليهم أجمعين»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مفاضلة الأنبياء بعضهم على بعض عليهم السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئًا كرهه أو لم يرضه -شك عبد العزيز- قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر. قال: فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول اللَّه بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا أبا القاسم! إن لي ذمةً وعهدًا، وقال: فلان لطم وجهي. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لم لطمت وجهه؟**» قال: قال: يا رسول الله! والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا. قال: فغضب رسول اللَّه ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه، ثم قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء اللَّه، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله**»، قال: «**ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي؟ ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى عليه السلام**»[2].

★ **غريب الحديث:**

فيصعق: الصعق والصعقة الهلاك والموت.

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٥٨٦-٥٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٤-٣٤١٥)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣-١٨٤٤/ ٢٣٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٦١). وأخرجه دون قوله: «ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى عليه السلام»: أحمد (٢/ ٢٦٤)، وأبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإخلال بالواجب من حقوقهم، وبفرض الإيمان بهم، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم، فإن اللَّه سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل بينهم فقال ﷿: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1]»[2].

وقال الطيبي: «قال التوربشتي: قول قاله على سبيل التواضع أولا، ثم لردع الأمة عن التخيير بين أنبياء اللَّه من تلقاء أنفسهم ثانيًا، فإن ذلك يفضي بهم إلى العصبية، فينتهز الشيطان عند ذلك فرصة، فيدعوهم إلى الإفراط والتفريط، فيطرون الفاضل فوق حقه، ويبخسون المفضول حقه، فيقعون في مهواة الغي، ولهذا قال: «**لا تخيروا بين الأنبياء**»[3] أي: لا تقدموا على ذلك بأهوائكم وآرائكم؛ بل بما أتاكم من اللَّه من البيان، وعلى هذا النحو قول النبي ﷺ: «ولا أقول: إن أحدًا خير من يونس بن متى» أي: لا أقول من تلقاء نفسي، ولا أفضل أحدًا عليه من حيث النبوة والرسالة؛ فإن شأنهما لا يختلف باختلاف الأشخاص، بل يقول: كل من أكرم بالنبوة فإنهم سواء فيما جاءوا به عن اللَّه تعالى وإن اختلفت مراتبهم، وكذلك من أكرم بالرسالة، وإليه وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[4]»[5].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٢) معالم السنن (٤/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١)، والبخاري (١٢/ ٣٢٥/ ٦٩١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٤٥/ ٢٣٧٤[١٦٣])، وأبو داود (٥/ ٥١/ ٤٦٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٥) شرح الطيبي (١١/ ٣٦٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وهدينا أيضًا من آباء هؤلاء الذين سماهم -تعالى ذكره- ومن ذرياتهم وإخوانهم آخرين سواهم لم يسمهم للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فوفقناهم له ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ يقول: واخترناهم لديننا وبلاغ رسالتنا إلى من أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا ممن سمينا»[١].

وقال أبو حيان: «﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ كآدم وإدريس ونوح وهود وصالح، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ كذرية نوح عليه السلام المؤمنين، ﴿وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ كإخوة يوسف؛ ذكر الأصول والفروع والحواشي.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. الظاهر عطف ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ على ﴿فَضَّلْنَا﴾[٢]؛ أي: اصطفيناهم. وكرر الهداية على سبيل التوضيح للهداية السابقة، وأنها هداية إلى طريق الحق المستقيم القويم الذي لا عوج فيه، وهو توحيد اللَّه تعالى وتنزيهه عن الشرك»[٣].

وقال ابن عطية: «والمعنى: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات، فـ(مِنْ) للتبعيض؛ والمراد من آمن منهم نبيًّا كان أو غير نبي، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾؛ ولهذا قال محمد بن كعب: الخال أب، والخالة أم. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ معناه: تخيرناهم وأرشدناهم، وضممناهم إلى خاصتنا، وأرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى اللَّه تعالى. قال مجاهد: معناه: أخلصناهم. والذرية:

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٢).

(٢) الآية (٨٦).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٧٩).

الأبناء، وينطلق على جميع البشر ذرية؛ لأنهم أبناء. وقال قوم: إن الذرية تقع على الآباء؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[١] يراد به نوع البشر»[٢].

* * *

(١) يس: الآية (٤١).
(٢) المحرر الوجيز (٢/٣١٨).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «إنما حصل لهم ذلك بتوفيق اللَّه وهدايته إياهم. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشانه، وتعظيم لملابسته؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] الآية. وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع؛ كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[2]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3]، وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[4]»[5].

وقال أبو حيان: «وفي الآية دليل على أن الهدى بمشيئة اللَّه تعالى. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ولو أشركوا مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات؛ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ دلالة على أن الهدى السابق هو التوحيد ونفي الشرك»[6].

وقال ابن عاشور: «وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جملة في موضع الحال من ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾. والمراد بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾: الّذين اصطفاهم اللّه، واجتباهم وهو أعلم بهم وباستعدادهم لهديه، ونبذهم المكابرة، وإقبالهم على طلب الخير، وتطلّعهم إليه، وتدرّجهم فيه إلى أن يبلغوا مرتبة إفاضة اللّه عليهم الوحيَ أو التّوفيق والإلهام الصادق. ففي قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من الإبهام ما يبعث

---

(١) الزمر: الآية (٦٥).
(٢) الزخرف: الآية (٨١).
(٣) الأنبياء: الآية (١٧).
(٤) الزمر: الآية (٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٢).
(٦) البحر المحيط (٤/ ١٧٩).

النّفوس على تطلّب هُدى اللّه تعالى، والتّعرّض لنفحاته. وفيه تعريض بالمشركين الّذين أنكروا نبوءة محمّد ﷺ حسدًا، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تفظيعًا لأمر الشرك، وأنّه لا يغتفر لأحد ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغًا عظيمًا مثل هؤلاء المعدودين المنوّه بهم»[١].

قال الرازي: «اعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى هو معرفة التوحيد وتنزيه اللّه تعالى عن الشرك؛ لأنه قال بعده: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك يدل على أن المراد من ذلك الهدى ما يكون جاريًا مجرى الأمر المضاد للشرك. وإذا ثبت أن المراد بهذا الهدى معرفة اللّه بوحدانيته، ثم إنه تعالى صرح بأن ذلك الهدى من اللّه تعالى؛ ثبت أن الإيمان لا يحصل إلا بخلق اللّه تعالى. ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بنفي الشرك فقال ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ والمعنى: أن هؤلاء الأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم طاعاتهم وعباداتهم. والمقصود منه تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولو فرض أن أشرك باللّه أولئك المهديون المجتبون؛ لحبط أي بطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملون بزوال أفضل آثار أعمالهم في أنفسهم، الذي هو الأساس لما رفع من درجاتهم؛ لأن توحيد اللّه تعالى لما كان منتهى الكمال المزكي للأنفس؛ كان ضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسي لها، والمفسد لفطرتها، فلا يبقى معه تأثير نافع لعمل آخر فيها، يمكن أن يترتب عليه نجاتها وفلاحها»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خطر الشرك على الأمم السابقة واللاحقة في الدنيا والآخرة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قال اللّه -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٥١). (٢) تفسير الرازي (١٣/ ٧١).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٥٩٠-٥٩١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «أصل الشرك المحرم: اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجودًا ما غير اللَّه تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهًا، ويلي هذا في الرتبة الإشراك في العبادة وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئًا من العبادات التي أمر اللَّه تعالى بفعلها له لغير اللَّه، وهذا هو الذي سيق الحديث لبيان تحريمه، وأنه مبطل للأعمال. ولهذا أشار بقوله: «من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشريكه»، وهذا هو المسمى بالرياء، وهو على الجملة مبطل للأعمال، وضده الإخلاص، وهو من شرط صحة العبادات والقرب»[(١)].

قلت: ما ذكره أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، في تعداده أنواع الشرك وأصنافه، كله موجود في الطائفتين اللتين هما امتداد في أفعالهما، وأقوالهما لشرك الجاهلية؛ الرافضة ثم الصوفية. فإنهم يشركون باللَّه في إلهيته؛ بالذبح، والنذر، والدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، ويشركون به في أفعاله؛ فيعتقد الرافضة في أئمتهم، والصوفية في أوليائهم أنهم مع اللَّه شركاء في تدبير الكون، وتسييره، وأنهم يستطيعون الإتيان بالريح، والأمطار، وقبض الأرواح، وإماتتها، وإحيائها، وإن شئت أن تعرف هذا بالتفصيل فانظر إلى كتاب «الكافي» للكليني، وكتاب «الإبريز» لصاحبه الدباغ، فإنك ستجد فيه كل ما ذكره أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما الرياء فهم أهله وأصحابه، فيتميزون عن الناس بأسمائهم، وأشكالهم، وألبستهم، وسبحهم، ورقصهم، وأناشيدهم، وأذكارهم، وصلواتهم، وإن شئت مزيدا لذلك فانظر الكتاب المسمى بـ«دلائل الخيرات» للمسمى محمد سليمان الجزولي، فإنه كله من هذا الباب، أو انظر إلى الطريقة التيجانية التي تتميز بصلواتها، وفيها أن «صلاة الفاتح» تعدل قراءة القرآن بستة آلاف مرة ختمة من القرآن، وأن «جوهرة الكمال» عندهم لا تقرأ بالطهارة الترابية، بل يشترط لها الطهارة المائية. وهكذا إذا تتبعت مخازيهم، وفضائحهم في كتبهم وزواياهم

---

(١) المفهم (٦/ ٦١٥).

وحسينياتهم؛ تجد من هذا بحرا لا ساحل له، فرحمة اللَّه على أبي العباس القرطبي إذ ذكرنا بهذه الأحوال وهذه التقسيمات.

قال الإمام النووي: «ومعناه: أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به»[١].

قال سليمان آل الشيخ: «لما كان المرائي قاصدا بعمله اللَّه تعالى وغيره؛ كان قد جعل اللَّه تعالى شريكًا، فإذا كان كذلك؛ فاللَّه تعالى هو الغني على الإطلاق، والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار؛ فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإن كماله -تبارك وتعالى- وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك»[٢].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٩٠).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٦٧).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: كل مؤمن.

هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه، كقول من قال: هم الأنصار أو: المهاجرون والأنصار، أو: قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية.

قال: وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبرًا عنهم أولى وأحق بأن يكون خبرًا عن غيرهم، فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها؛ فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك؛ الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها.

قلت: السورة مكية، والإشارة بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلًا، ومن عداهم تبعًا، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة، والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلًا، والمؤمنون بهم تبعًا، فيدخل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلًا وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحق من دخل فيهم من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكلون بها، وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية. . .

وأيضًا؛ فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها، ويرعونها

ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئًا، فإن لها أهلًا ومستحقًا سواهم.

فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1]، وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده، وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره، فنظر إليهم وقال: إن يكفر هؤلاء نعمتي، ويعصوا أمري، ويضيعوا عهدي؛ فإن لي عبيدا سواهم وهم أنتم تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدون حقي؛ فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبًا لهم المزيد من القيام بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه...

والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علمًا وعملًا، وجهادًا لأعدائها، وذبًا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. وأيضًا؛ فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه.

ولهذا قال بعض السلف: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾: يقول: رزقناها قومًا»[2].

وقال أيضًا: «لما ذكر سبحانه في سورة (الأنعام) أعداءه وكفرهم وشركهم

---

(١) الإسراء: الآيات (١٠٧ - ١٠٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩١-٤٩٥).

وتكذيب رسله؛ ذكر في أثر ذلك: شأن خليله إبراهيم، وما أراه من ملكوت السموات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين اللَّه وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾؛ فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به، ويجحد توحيده، ويكذب رسله؛ كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك، ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو تبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي: كلامه، وبيته، ودينه، والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها»[1].

وقال الرازي: «دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ويقوي دينه، ويجعله مستعليا على كل ما عاداه، قاهرا لكل من نازعه، وقد وقع هذا الذي أخبر اللَّه تعالى عنه في هذا الموضع، فكان هذا جاريا مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزا، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) عدة الصابرين (ص: ٤٢٥).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٧٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- ﴿أُولَٰئِكَ﴾: هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا، وليسوا بها بكافرين؛ هم الذين هداهم اللّه لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر اللّه، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم -جل ثناؤه- لذلك ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم، اقتده يا محمد: أي فاعمل وخذ به واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضا ومنهاج، ومن سلكه اهتدى... ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾: يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكرهم بآياتي؛ أن تبسل نفس بما كسبت من مشركي قومك: يا محمد لا أسألكم على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به؛ عوضًا أعتاضه منكم عليه، وأجرًا آخذه منكم، وما ذلك مني إلا تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم، ممن هو مقيم على باطل بأس اللّه أن يحل بكم، وسخطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم، وإنذار لجميعكم، بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتنزجروا»[1].

قال الرازي: «لا شك في أن قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أمر لمحمد عليه الصلاة والسلام، وإنما الكلام في تعيين الشيء الذي أمر اللّه محمدًا أن يقتدي فيه بهم، فمن الناس من قال: المراد أنه يقتدي بهم في الأمر الذي أجمعوا عليه، وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والأفعال وسائر

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٦٥-٢٦٦).

العقليات. وقال آخرون: المراد الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم... والجواب: أن قوله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ يتناول الكل»[١].

قال ابن القيم: «لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم -علمًا ومعرفةً وحالًا- تفاوتًا لا يحصيه إلا اللَّه، فأكمل الناس توحيدًا: الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك. وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا. وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد[٢] صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين. وأكملهم توحيدًا: الخليلان محمد وإبراهيم صلوات اللَّه وسلامه عليهما، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما -علمًا ومعرفةً وحالًا، ودعوةً للخلق وجهادًا- فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر اللَّه سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه -بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته- ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا أكمل من توحيد من أمر رسول اللَّه ﷺ أن يقتدي بهم. ولما قاموا بحقيقته -علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا- جعلهم اللَّه أئمة للخلائق يهدون بأمره ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعًا لهم، يأتمون بأمرهم وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده، وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم، وبالشقاء والضلال مخالفيهم»[٣].

وقال الرازي: «أمر الرسول بالاقتداء بجميعهم في جميع الصفات الحميدة، والأخلاق الشريفة، وذلك لا يوجب كونه أقل مرتبة منهم، بل يوجب كونه أعلى مرتبة من الكل...

وتقريره: هو أنا بينا أن خصال الكمال، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٧٣-٧٤) بتصرف.

(٢) وخامسهم عيسى ﷺ. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ الأحزاب: : الآية (٧)، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ الشورى: الآية (١٣).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٨٠-٤٨١).

أصحاب الصبر على البلاء، ويوسف كان مستجمعا لهاتين الحالتين، وموسى ﷺ كان صاحب الشريعة القوية والقاهرة والمعجزات الظاهرة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس صاحب التضرع. فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء؛ لأن الغالب عليهم كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف. ثم إنه تعالى لما ذكر الكل أمر محمدًا عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بهم بأسرهم، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمدًا ﷺ أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، ولما أمره اللَّه تعالى بذلك؛ امتنع أن يقال: إنه قصر في تحصيلها، فثبت أنه حصلها، ومتى كان الأمر كذلك؛ وجب أن يقال: إنه أفضل منهم بكليتهم، واللَّه أعلم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «أمره أن يقتدي بهداهم الذي هداهم إليه في سيرتهم، سواء ما كان منه مشتركًا بينهم، وامتاز في الكمال فيه بعضهم، كما امتاز نوح وإبراهيم وآل داود بالشكر، ويوسف وأيوب وإسماعيل بالصبر، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس بالقناعة والزهد، وموسى وهارون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق، فاللَّه تعالى قد هدى كل نبي ورفعه درجات في الكمال، وجعل درجات بعضهم فوق بعض، ثم أوحى إلى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم، وهم المذكورون في هذه الآيات وفي سائر القرآن الكريم، وأمره أن يقتدي بهداهم ذاك. وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في القرآن، وقد شهد اللَّه تعالى بأنه جاء بالحق وصدق المرسلين، وأنه لم يكن بدعًا من الرسل، فعلم بهذا أنه كان مهتديًا بهداهم كلهم، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم؛ لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم، إلى ما هو خاص به دونهم، ولذلك شهد اللَّه تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]. وأما فضائله وخصائصه الوهبية؛ فأمر تفضيله عليهم فيها أظهر، وأعظمها عموم البعثة، وختم النبوة والرسالة، وإنما كمال الأشياء في خواتيمها، صلى اللَّه عليه وعليهم أجمعين»[3].

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٧٥). (٢) القلم: الآية (٤).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٥٩٧-٥٩٨).

قلت: الكثير من الناس في هذا الوقت يسأل عن القدوة وعمن يقتدي به، ولاشك أن الإنسان بفطرته يحتاج إلى من يقتدي به في سلوكه وعقيدته وحتى في حركاته وسكناته، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2] وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3] وقال أبو هريرة لما صلى بهم: «إني لأشبهكم صلاة برسول اللَّه ﷺ»[4]، ولهذا كان الصحابة يُشَبِّه بعضهم بعضا برسول اللَّه، فكان يقال: فلان أشبه الناس برسول اللَّه ﷺ في خَلْقِه وخُلُقِه، وإذا كان ما سبق كذلك، فإن القدوة بالأنبياء والرسل هو أعظم قدوة، وقد ذكر اللَّه في القرآن من قصصهم وأقوالهم الواضحة ما تقوم به الحجة، وأما نبينا محمد ﷺ فمن تتبع سيرته المفصلة منذ نبئ وإلى أن التحق بالرفيق الأعلى فسيحصل على كمال القدوة، ولا قدوة بعد قدوة رسول اللَّه ﷺ، فلذا لو عكف الشباب، والمحبون، والدعاة، على سِيَر الأنبياء والرسل عموما، وعلى سيرة نبينا محمد ﷺ وسنته خصوصًا لوجدوا بغيتهم في ذلك، وقد وفقنا اللَّه فجمعنا سير الأنبياء ومواقفهم العقدية، كما جمعنا سير سلفنا الصالح ومواقفهم؛ بداية من الصحابة وإلى يومنا هذا، فنرجو اللَّه تعالى أن يجعل لنا من ذلك حظًّا ونصيبًا، وأن لا يجعلنا ممن علم ولم يعمل.

قال شيخ الإسلام: «والمقصود أن اللَّه ﷻ يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا، قال فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[5]، فهو يحب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء وهو سبيل من أناب إليه»[6].

وقال أيضًا: «فأخبر أنه يخص بهذا الهدى من يشاء من عباده، وأخبر أن هؤلاء

---

(١) الأحزاب: الآية (٢١). (٢) الحشر: الآية (٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٣) والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١) ومسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤) وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩) والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤) وابن ماجه (١/ ٣١٣/ ٩٧٩) من حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٧) والبخاري (٢/ ٣٤٢/ ٧٨٥) ومسلم (١/ ٢٩٣/ ٣٩٢) والنسائي (٢/ ٥٨٥/ ١١٥٤).

(٥) الفاتحة: الآيتان (٦-٧). (٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٧٨).

هم الذين هداهم اللّه، فعلم أنه خص بهذا الهدى من اهتدى به دون من لم يهتد به، ودل على تخصيص المهتدين بأنه هداهم ولم يهد من لم يهتد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاقتداء بالأخيار

* عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ -إلى قوله- ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ثم قال: هو منهم.

زاد يزيد بن هارون، ومحمد بن عبيد، وسهل بن يوسف، عن العوام، عن مجاهد: قلت لابن عباس، فقال: نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدي بهم[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن الملقن: «يؤخذ منه مراعاته للأنبياء -عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام- في الاتباع حيث ذكرهم اللّه -تعالى- في كتابه وأمره بالاقتداء بهم»[٣].

وقال ابن عبد البر: «وقال اللّه ﷻ لمحمد ﷺ عند ذكر من ذكر من أنبيائه في سورة (الأنعام): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾. فجاز الاقتداء بكل ما ورد به القرآن من شرائع الأنبياء، إلا أن يمنع من ذلك ما يجب التسليم له؛ من نسخ في الكتاب أو سنة واردة عن النبي ﷺ بخلاف ذلك تبين مراد اللّه، فيعلم حينئذ أن شريعتنا مخالفة لشريعتهم، فتحمل على ما يجب الاحتمال عليه من ذلك. وباللّه التوفيق»[٤].

وقال الحافظ: «وقد اختلف: هل كان عليه الصلاة والسلام متعبدًا بشرع من قبله حتى نزل عليه ناسخه؟ فقيل: نعم؛ وحجتهم هذه الآية ونحوها. وقيل: لا؛ وأجابوا عن الآية بأن المراد اتباعهم فيما أنزل عليه وفاقه ولو على طريق الإجمال فيتبعهم في التفصيل. وهذا هو الأصح عند كثير من الشافعية، واختاره إمام الحرمين ومن تبعه، واختار الأول ابن الحاجب، واللّه أعلم»[٥].

---

(١) منهاج السنة (٥/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٠)، والبخاري (٨/ ٣٧٤/ ٤٦٣٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٢/ ١١١٦٩).

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٤) التمهيد -فتح البر- (١١/ ٥٦٨-٥٦٩).

(٥) فتح الباري (٨/ ٣٧٤-٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قراطيس: جمع قرطاس، وهو ما يكتب فيه؛ كالورق والكاغد والرق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، وأنه تعالى لما حكى عن إبراهيم ﷺ أنه ذكر دليل التوحيد، وإبطال الشرك، وقرر تعالى ذلك الدليل بالوجوه الواضحة؛ شرع بعده في تقرير أمر النبوة فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حيث أنكروا النبوة والرسالة، فهذا بيان وجه نظم هذه الآيات وأنه في غاية الحسن... واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته، وتقريره من وجوه:

الأول: أن منكر البعثة والرسالة إما أن يقول: إنه تعالى ما كلف أحدا من الخلق تكليفا أصلا، أو يقول: إنه تعالى كلفهم التكاليف، والأول باطل؛ لأن ذلك يقتضي أنه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح؛ نحو شتم الله، ووصفه بما لا يليق به، والاستخفاف بالأنبياء والرسل وأهل الدين، والإعراض عن شكر المنعم، ومقابلة الإنعام بالإساءة. ومعلوم أن كل ذلك باطل. وإما أن يسلم أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي، فههنا لا بد من مبلغ وشارع ومبين، وما ذاك إلا الرسول.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: العقل كلف في إيجاب الواجبات واجتناب المقبحات؟.

قلنا: هب أن الأمر كما قلتم، إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات

المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل ﷺ. فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة اللّه تعالى، وكان ذلك جهلًا بصفة الإلهية، وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: وما عظموا اللّه حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم.

قال ابن عباس ومجاهد وعبد اللّه بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير. وقيل: نزلت في طائفة من اليهود، وقيل: في فنحاصَ رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف، ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾. والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش -والعرب قاطبة- كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر؛ كما قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[3]، وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند اللّه، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؟ يعني: التوراة التي قد علمتم -وكل أحد- أن اللّه قد أنزلها على موسى بن عمران نورًا وهدىً للناس؛ أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات.

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: يجعلها حَمَلَتُها قراطيس؛ أي: قِطَعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم، ويحرفون فيها ما يحرفون، ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4]؛ أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٧٦-٧٧). (٢) يونس: الآية (٢).

(٣) الإسراء: الآيتان (٩٤و٩٥).

(٤) البقرة: الآية (٧٩).

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: ومن أنزل القرآن الذي علمكم اللَّه فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك أنتم ولا آباؤكم؟

قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: قل: اللَّه أنزله. وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين، من أن معنى ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون خطاب لهم إلا هذه الكلمة، كلمة: (الله).

وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من اللَّه اليقين، فسوف يعلمون أَلَهُمُ العاقبة أم لعباد اللَّه المتقين؟»[1].

وقال ابن القيم: «ذهب جماعة منهم مجاهد، إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسل، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى. وهذا اختيار ابن جرير، قال: وهو أولى الأقاويل بالصواب؛ لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود، ولم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلا، مع ما في الخبر عن من أخبر اللَّه عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون اللَّه أنزل على بشر شيئًا من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود، والخبر من أول السورة إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبدة الأوثان.

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ موصول به غير مفصول عنه.

قلت: ويقوي قوله: أن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب المنكرين لأصل النبوة.

ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٣-٢٩٤).

الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ولا سيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب؟ وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم بأنهم خانوا اللّٰه ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه، وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقروا به كتابهم بإخفائهم وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند اللّٰه، كيف لا يجحد أصل النبوة؟! ثم احتج عليهم، بأنهم قد علموا بالوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه. ثم أمر رسوله أن يجيب عن هذا السؤال، وهو قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي: اللّٰه الذي أنزله، أي إن كفروا به وجحدوه فصدق به أنت وأقر به ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

جواب هذا السؤال أن يقال: إن اللّٰه سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي إن جحدتم أصل النبوة، وأن يكون اللّٰه أنزل على بشر شيئًا؛ فهذا كتاب موسى تقر به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد. والمعنى: إنكم إن أنكرتم أن يكون اللّٰه أنزل على بشر شيئًا فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك فسألوا أهل الكتاب. وأما قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[1] فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بلفظ التاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذي فعلوا ذلك؛ أي: تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك. وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه وأخفوا كثيرًا منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من اللّٰه، ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ خطابا لمن حكي عنهم أنهم قالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ بل هذا

---

(١) الأنعام: الآية (٩١).

استطراد من الشيء إلى نظيره وشبهه ولازمه، وله نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[1] إلى آخر الآية.

فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد.

ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2] إلى آخر الآيات.

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾[3]، إلى آخر الآيات.

وعلى التقديرين: فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته؛ ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي، وجحد نبوة من نبوته أظهر، وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به.

وأخبر سبحانه: أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزه عنه، فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته، والظن السيئ به أنه خلق خلقه عبثًا باطلًا، وأنه خلاهم سدًى مهملًا وهذا ينافي كماله المقدس، وهو متعال عن كل ما ينافي كماله.

فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه، فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق عظمته، كما أن من عبد معه إلهًا غيره؛ لم يقدره حق قدره، معطل جاحد لصفات كماله ونعوت جلاله، وإرسال رسله وإنزال

---

(١) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).
(٢) الأعراف: الآيتان (١٨٩ و ١٩٠).
(٣) الزخرف: الآيات (٩-١٢).

كتبه، ولا عظمه حق عظمته»[١].

وقال أيضًا: «جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحة النبوة والرسالة؛ إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل اللَّه على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة، واللَّه الموفق للرشاد»[٢].

وقال القاسمي: «لطائف: الأولى: قال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس المراد بالآية مجرد إلزامهم بالاعتراف بإنزال التوراة فقط؛ بل بإنزال القرآن أيضًا، فإن الاعتراف بإنزالها مستلزم للاعتراف بإنزاله قطعًا؛ لما فيها من الشواهد الناطقة به. الثانية: قال أيضًا في قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ أي: تضعونه في قراطيس مقطعة، وورقات مفرقة، بحذف الجارّ؛ بناءً على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم، أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة. وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم؛ كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب، ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة. الثالثة: في قوله تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ دلالة على أنه لا يجوز كتم العلم الديني عمن يهتدى به»[٣].

* * *

(١) هداية الحيارى (ص: ٣٥٠-٣٥٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤١).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٦٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون اللَّه أنزل على بشر شيئًا، وحاجّهم بما لا يقدرون على إنكاره؛ أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك، كثير النفع والفائدة. ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1]؛ كان تقديم وصفه بالإنزال آكد من وصفه بكونه مباركًا، ولأن ما أنزل اللَّه تعالى فهو مبارك قطعًا، فصارت الصفة بكونه مباركًا كأنها صفة مؤكدة؛ إذ تضمنها ما قبلها. فأما قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ فلم يرد في معرض إنكار أن ينزل اللَّه شيئًا؛ بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]، ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكر مبارك. ولما كان الإنزال يتجدد؛ عبر بالوصف الذي هو فعل. ولما كان وصفه بالبركة وصفًا لا يفارق؛ عبر بالاسم الدال على الثبوت. ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من كتب اللَّه المنزلة»[3].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[4]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[5]، وقال: ﴿وَمَن

---

(١) الآية (٩١).

(٢) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ١٨٢).

(٤) الأعراف: الآية (١٥٨).

(٥) الأنعام: الآية (١٩).

يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٢]، وقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٣]، وثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي**» وذكر منهن: «**وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة**»؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: كل من آمن باللَّه واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها»[٤].

وقال الرازي: «قال أهل المعاني: كتاب ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية». وأقول: العلوم إما نظرية، وإما عملية. أما العلوم النظرية، فأشرفها وأكملها معرفة ذات اللَّه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب، وأما العلوم العملية؛ فالمطلوب إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة اللَّه تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة.

يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا؛ مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم»[٥].

قال محمد رشيد رضا معلقًا على كلام الرازي: «أي علم القرآن بتفسيره، فليعتبر بهذا من يضيعون جل أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، مما يعدون الرازي الإمام المطلق فيها، لعلهم يرجعون إلى كتاب اللَّه تعالى ويهتدون به، ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره، ونسأل اللَّه تعالى أن يوفقنا

---

(١) هود: الآية (١٧).
(٢) الفرقان: الآية (١).
(٣) آل عمران: الآية (٢٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٤-٢٩٥).
(٥) تفسير الرازي (١٣/ ٨٥).

لإتمام تفسيره، وأن يجعله حجة لنا لا علينا؛ بكمال التخلق به»[1].

وقال أيضًا: «والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الأرض كافة كما روي عن ابن عباس. ويقويه تسميتها بأم القرى، ونحن نعلم الآن علم اليقين أن الناس يصلون متوجهين إلى بيت الله فيها، في جميع أقطار الأرض القريبة منها والبعيدة عنها، فهذا مصداق كونهم حولها، وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب، فخصه بمن قرب منها عرفًا، واستدلوا به على أن بعثة النبي ﷺ خاصة بقومه العرب، والاستدلال باطل. وإن سلم التخصيص المذكور؛ فإن إرساله ﷺ إلى قومه لا ينافي إرساله إلى غيرهم، وقد ثبت عموم بعثته في آيات أخرى؛ كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[2] أي: وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته وقد تقدم، وقوله في أول سورة (الفرقان): ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، وقوله في سورة (سبإ) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: والذين يؤمنون بالدار الآخرة أو الحياة الآخرة وما فيها من الجزاء على الإيمان والأعمال، إيمانًا إذعانيًّا صحيحًا أو استعداديًّا قويًّا، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيره؛ يؤمنون بهذا الكتاب المبارك إذا بلغهم، أو إذا بلغتهم دعوته؛ لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى في تلك الدار، فمثلهم كمثل قوم سفر ضلوا في مفازة من مجاهل الأرض، حتى إذا كادوا يهلكون؛ جاءهم رجل بكتاب في علم خرت الأرض وتقويم البلدان، فيه بيان مكانهم وبيان أقرب السبل لمنجاتهم، فإنهم لا يتلبثون بقبوله والعمل به. وأما المنكرون للبعث والجزاء؛ فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هدايته، وفي هذا تعريض أو تصريح بسبب إعراض جمهور أهل مكة الأعظم عن هذا الكتاب الذي فيه سعادتهم»[5].

وقال الرازي: «﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وظاهر هذا يقتضي أن الإيمان بالآخرة جارٍ مجرى السبب للإيمان بالرسول ﷺ. والعلماء ذكروا في تقرير

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٢٠).
(٢) الأنعام: الآية (١٩).
(٣) الفرقان: الآية (١).
(٤) سبأ: الآية (٢٨).
(٥) تفسير المنار (٧/ ٦٢١-٦٢٢).

هذه السببية وجوهًا:

الأول: أن الذي يؤمن بالآخرة هو الذي يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، ومن كان كذلك فإنه يعظم رغبته في تحصيل الثواب، ورهبته عن حلول العقاب، ويبالغ في النظر والتأمل في دلائل التوحيد والنبوة، فيصل إلى العلم والإيمان.

والثاني: أن دين محمد عليه الصلاة والسلام مبني على الإيمان بالبعث والقيامة، وليس لأحد من الأنبياء مبالغة في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فلهذا السبب كان الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وبصحة الآخرة أمرين متلازمين.

والثالث: يحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام التنبيه على إخراج أهل مكة من قبول هذا الدين؛ لأن الحامل على تحمل مشقة النظر والاستدلال، وترك رياسة الدنيا، وترك الحقد والحسد؛ ليس إلا الرغبة في الثواب، والرهبة عن العقاب. وكفار مكة لما لم يعتقدوا في البعث والقيامة؛ امتنع منهم ترك الحسد وترك الرياسة، فلا جرم يبعد قبولهم لهذا الدين واعترافهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، والمراد أن الإيمان بالآخرة كما يحمل الرجل على الإيمان بالنبوة؛ فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات. وليس لقائل أن يقول: الإيمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات، فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر؟ لأنا نقول: المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله وأعظمها خطرًا، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[1] أي: صلاتكم، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر»[2] فلما اختصت

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) أخرجه من حديث أنس ﷺ: الطبراني في الأوسط (٤/ ٢١١/ ٣٣٧٢) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٥): «ورجاله موثقون إلا محمد بن أبي داود فإني لم أجد من ترجمه». وذكره الشيخ الألباني في الضعيفة (٢٥٠٨) و(٥١٨٠).

الصلاة بهذا النوع من التشريف؛ لا جرم خصها اللَّه بالذكر في هذا المقام»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالته ﷺ للأولين والآخرين

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أعطيت خمسًا لم يعطهنّ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا؛ فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي المغانم؛ ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة؛ وبعثت إلى الناس عامة»**[٢].

⋆ غريب الحديث:

طهورا: بالفتح ما يتطهر به[٣].

المغانم: جمع مغنم، وهو ما أصيب من أموال أهل الحرب، وأوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قوله «بعثت إلى الناس كافة» دليل أن الحجة تلزم بالخبر، كما تلزم بالمشاهدة، وذلك أن الآية المعجزة باقية مساعدة للخبر، مبينة له، رافعة لما يخشى من آفات الأخبار، وهي القرآن الباقي، ولذلك خص اللَّه نبيه ببقاء آيته، لبقاء دعوته ووجوبها على من بلغته إلى آخر الزمان»[٥].

قال المناوي: ««وكان النبي يبعث إلى قومه» بعثة «خاصة» بهم. فكان إذا بعث في عصر واحد نبي واحد؛ دعا إلى شريعة قومه فقط، ولا ينسخ بها شريعة غيره، أو نبيان دعا كل منهما إلى شريعته فقط، ولا ينسخ بها شريعة الآخر»[٦].

قال عبد المحسن العباد: «قوله: «وبعثت إلى الناس عامة» دال على عموم

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٨٧-٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

(٣) النهاية (٣/ ١٤٧).

(٤) النهاية (٣/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٥) شرح البخاري (١/ ٤٧٠).

(٦) الفيض (١/ ٥٦٨).

رسالته ﷺ . . . والمراد بالناس كل من كان موجودًا من الإنس من حين بعث صلوات الله وسلامه عليه إلى قيام الساعة»[1].

قال ابن أبي العز: «وأما قول بعض النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة؛ فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به. وقد قال: إنه رسول الله إلى الناس عامة. والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتمًا، فقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام»[2].

وفي هذا الحديث من الفوائد - يقول المناوي-: «إن المصطفى ﷺ أفضل الأنبياء والرسل؛ لما ذكر من أن كل نبي أرسل في قومه مخصوصين وهو إلى الكافة. وذلك لأن الرسل إنما بعثوا لإرشاد الخلق إلى الحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام. وكل من كان في هذا الأمر أكثر تأثيرًا كان أفضل، فكان للمصطفى ﷺ فيه القدح المعلى، إذ لم يختص بقوم دون قوم، وزمان دون زمان؛ بل دينه انتشر في المشارق والمغارب، وتغلغل في كل مكان، واستمر استمداده على وجه كل زمان، زاده الله شرفًا على شرف، وعزًّا على عزّ؛ ما در شارق ولمع بارق، فله الفضل بحذافيره سابقًا ولاحقًا»[3].

قلت: استشكل ظاهر هذا الحديث بآدم ونوح، فإن آدم بعث إلى جميع بنيه، وكذا نوح بعد خروجه من السفينة.

وأجيب عن ذلك بأجوبة سيأتي تفصيلها وبيان وجهها عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية (١٥٨) من سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) عشرون حديثا من صحيح البخاري (ص: ٦٥).

(٢) شرح الطحاوية (ص: ١٦٧).

(٣) فيض القدير (١/ ٥٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

الافتراء: الاختلاق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يعني جل ذكره بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾: ومن أخطأ قولًا، وأجهل فعلًا؛ ممن افترى على اللَّه كذبا؛ يعني: ممن اختلق على اللَّه كذبًا، فادعى عليه أنه بعثه نبيًّا، وأرسله نذيرًا، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب، وهذا تسفيه من اللَّه لمشركي العرب، وتجهيل منه لهم في معارضة عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح، والحنفي مسيلمة، لنبي اللَّه ﷺ بدعوى أحدهما النبوة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول اللَّه ﷺ، ونفى منه عن نبيه محمد ﷺ اختلاق الكذب عليه، ودعوى الباطل.

وقد اختلف أهل التأويل في ذلك.. فذكر عن فريق: أنها نزلت في عبد اللَّه ابن سعد بن سرح، وعن فريق آخر: أنها نزلت في مسيلمة الكذاب، وعن فريق ثالث: أنها نزلت في كليهما. إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن اللَّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ ولا تمانع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتد عن إسلامه، ولحق بالمشركين، فكان لا شك بذلك من قيله، مفتريًا كذبًا. وكذلك لا خلاف بين الجميع أن مسيلمة والعنسي الكذابين، ادعيا على اللَّه كذبا أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما: إن اللَّه أوحى إليه، وهو كاذب في قيله.

فإذ كان ذلك كذلك؛ فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقًا على اللَّه كذبًا

---

(١) الأنعام: الآية (٩٣).

وقائلًا في ذلك الزمان وفي غيره أوحى اللَّه إليه، وهو في قيله كاذب: لم يوح اللَّه إليه شيئًا، فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب بعضهم، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم، وجائز أن يكون عنى به جميع المشركين من العرب؛ إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيروه، فعيرهم اللَّه بذلك، وتوعدهم بالعقوبة على تركهم نكير ذلك، ومع تركهم نكيره، هم بنبيه محمد ﷺ مكذبون، ولنبوته جاحدون، ولآيات كتاب اللَّه وتنزيله دافعون، فقال لهم -جل ثناؤه-: ومن أظلم ممن ادعى على النبوة كاذبا وقال: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ومع ذلك يقول: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1] فينقض قوله بقوله، ويكذب بالذي تحققه، وينفي ما يثبته، وذلك إذا تدبره العاقل الأريب، علم أن فاعله من عقله عديم»[2].

وقال شيخ الإسلام: «كل من اتبع كلامًا أو حديثًا مما يقال: إنه يلهمه صاحبه، ويوحى إليه، أو أنه ينشئه ويحدثه مما يعارض به القرآن فهو من أعظم الظالمين ظلما.

ولهذا لما ذكر اللَّه سبحانه قول الذين ما قدروا اللَّه حق قدره، حيث أنكروا الإنزال على البشر، ذكر المتشبهين به المدعين لمماثلته من الأقسام الثلاثة، فإن المماثل له: إما أن يقول: إن اللَّه أوحى إلي، أو يقول: أوحي إلي، وألقي إلي، وقيل لي، ولا يسمي القائل. أو يضيف ذلك إلى نفسه، ويذكر أنه هو المنشئ له.

ووجه الحصر: أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره، وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول اللَّه، أو من قول نفسه. فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى اللَّه، وفيما حذف فاعله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وتدبر كيف جعل الأولين في حيز الذي جعله وحيا من اللَّه ولم يسم الموحى؟ فإنهما من جنس واحد في ادعاء جنس الإنباء، وجعل الآخر في حيز الذي ادعى أن يأتي بمثله، ولهذا قال: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[3]، فالمفتري للكذب والقائل: أوحي إلي ولم يوح إليه شيء: من جملة

(١) الأنعام: الآية (٩١).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٧٢-٢٧٤).
(٣) الأنعام: الآية (٩٣).

الاسم الأول، وقد قرن به الاسم الآخر، فهؤلاء الثلاثة المدعون لشبه النبوة، وقد تقدم قبلهم المكذب للنبوة، فهذا يعم جميع أصول الكفر التي هي تكذيب الرسل أو مضاهاتهم، كمسيلمة الكذاب وأمثاله.

وهذه هي (أصول البدع) التي نردها نحن في هذا المقام؛ لأن المخالف للسنة يرد بعض ما جاء به الرسول ﷺ، أو يعارض قول الرسول بما يجعله نظيرا له: من رأي أو كشف أو نحو ذلك»[١].

وقال القرطبي: «ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار، وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة!! وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص!! وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون، ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هد الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ»[٢].

قلت: هذا الذي ذكره القرطبي رحمه الله، وما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، فيما سبق هو واقع الصوفية في كتبهم، ومشايخهم. وواقع الرافضة في كتبهم، ومشايخهم، ويذكر الغزالي في إحيائه، ويقول: ما ورد في التنزيل من الكتاب والسنة يعرض على الكشف، فإن صدقه الكشف وإلا رد. ومثل هذا كثير والمُدَّعون للنبوة في تاريخ الإسلام عدد هائل، فما أصدق كلام الله! وما أوضحه في هؤلاء المفترين الكذب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٨٥-٨٧).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المفترين على الله

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام: أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي؛ فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة»[1].

★ غريب الحديث:

سوارين: السوار، بكسر السين وضمها، من الحلي: الذي تضعه النساء في اليدين. وجمعه أسورة ثم أساور وأساورة. وسورته السوار: إذا ألبسته إياه.

أهمني: أي: أوقعني في الهم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: هذه الرؤيا ليست على وجهها، وإنما هي على ضرب المثل، وإنما أولهما النبي بالكذابين؛ لأن الكذب إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به، ووضعه في غير موضعه، فلما رآهما في ذراعيه وليسا موضعا للسوارين؛ لأنهما ليسا من حلية الرجال علم أنه سيقضي على يدي النبي -يعني على أوامره ونواهيه- من يدعي ما ليس له، كما وضعا حيث ليس لهما، وكونهما من ذهب -والذهب منهي عنه في الدين- دليل على الكذب من وجوه:

أحدها: وضع الشيء غير موضعه.

والثاني: كون الذهب مستعملًا في الرجال وهو منهي عنه، والذهب مشتق منه الذهاب، فعلم أنه شيء يذهب عنه ولا يبقى، ثم وكد له الأمر فأذن له في نفخهما فطارا، عبارة أنهما لا يثبت لهما أمره، وأن كلامه ﷺ بالوحي الذي جاءه به يزيلهما الذي قاما فيه، والنفخ دليل على الكلام»[2].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٧٧٨/ ٣٦٢١)، ومسلم (٤/ ١٧٨١/ ٢٢٧٤)، والترمذي (٤/ ٤٧٠/ ٢٢٩٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٣/ ٣٩٢٢).

(٢) شرح البخاري (٩/ ٥٤٨-٥٤٩).

وقال الحافظ ابن حجر: «قوله: «فنفختهما»: في ذلك إشارة إلى حقارة أمرهما؛ لأن شأن الذي ينفخ فيذهب بالنفخ أن يكون في غاية الحقارة، ورده ابن العربي بأن أمرهما كان في غاية الشدة، ولم ينزل بالمسلمين قبله مثله. قلت: وهو كذلك، لكن الإشارة إنما هي للحقارة المعنوية لا الحسية، وفي طيرانهما إشارة إلى اضمحلال أمرهما»[1].

* * *

(١) الفتح (١٢/ ٥٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

★ غريب الآية:

غمرات: جمع غَمْرَة: وهي الشدة، سميت كذلك لأنها تَغْمُرُ القلب؛ أي: تركبه فتغطيه. وغمرات الموت شَدَائِدُهُ وَكُرَبُهُ وسكراته.

الهُون: الهوان. والمعنى: اليوم تلقون عذاب الذل والهوان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى يا محمد حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين، العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين ما أنزل الله على بشر من شيء، والمفترين على الله كذبًا، الزاعمين أن الله أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء، والقائلين: سأنزل مثل ما أنزل الله، فتعاينهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحان فناء آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم، يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[1] يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾».

وقال عند قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾: «وهذا خبر من الله -جل ثناؤه- عما تقول رسل الله التي تقبض أرواحَ هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقول لأجسامها ولأصحابها: أخرجوا أنفسكم إلى سخط الله ولعنته، فإنكم اليوم تثابون على كفركم بالله، وقيلكم عليه الباطل، وزعمكم أن الله أوحى إليكم ولم يوح إليكم شيئًا، وإنذاركم

---

(١) محمد: الآيتان (٢٧ و ٢٨).

أن يكون الله أنزل على بشر شيئًا، واستكباركم عن الخضوع لأمر الله، وأمر رسوله، والانقياد لطاعته؛ عذاب الهون، وهو عذاب جهنم الذي يهينهم فيذلهم، حتى يعرفوا صغار أنفسهم وذلتها»[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكُرُباته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب كما قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾[2] الآية، وقال: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾[3] الآية.

وقال الضحاك وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؛ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله»[5].

قال السعدي: «في هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه. فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار، وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ. وأما يوم القيامة، فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين؛ فرادى بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء. فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك، بأسبابها التي هي أسبابها. وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور، التي كانت مع العبد

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٧٤-٢٧٦).
(٢) المائدة: الآية (٢٨).
(٣) الممتحنة: الآية (٢).
(٤) الأنفال: الآية (٥٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٥).

في الدنيا، سوى العمل الصالح، والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعوار خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عذاب القبر

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[٢]» قال: نزلت في عذاب القبر. فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي اللّه، ونبي محمد ﷺ، فذلك قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال القسطلاني: «قد تظاهرت الدلائل من الكتاب والسنة على ثبوته، وأجمع عليه أهل السنة، ولا مانع في العقل أن يعيد اللّه الحياة في جزء من الجسد أو في جميعه على الخلاف المعروف، فيثيبه ويعذبه. وإذا لم يمنعه العقل وورد به الشرع وجب قبوله واعتقاده، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرقت أجزاؤه، كما يشاهد في العادة، أو أكلته السباع والطيور وحيتان البحر، كما أن اللّه تعالى يعيده للحشر، وهو ﷻ قادر على ذلك، فلا يستبعد تعلق روح الشخص الواحد في آن واحد بكل واحد من أجزائه المتفرقة في المشارق والمغارب، فإن تعلقه ليس على سبيل الحلول حتى يمنعه الحلول في جزء من الحلول في غيره. قال في مصابيح الجامع: وقد كثرت الأحاديث في عذاب القبر، حتى قال غير واحد: إنها متواترة لا يصح عليها التواطؤ، وإن لم يصح مثلها لم يصح شيء من أمر الدين»[٤].

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٣٦). (٢) إبراهيم: الآية (٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩١-٢٩٢)، والبخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٠١/ ٢٨٧١)، وأبو داود (٥/ ١١٢/ ٤٧٥٠)، والترمذي (٥/ ٢٧٦/ ٣١٢٠) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٤/ ٤٠٧/ ٢٠٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٦٩).

(٤) إرشاد الساري (٣/ ٥٢٥).

فيه «أن المرء على قدر ثباته في الدنيا يكون ثباته في القبر وما بعده، وكلما أسرع إجابة كان أسرع تخلصا من الأهوال»(١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: **«وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»**. فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: **«ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون»**(٢).

★ غريب الحديث:

القليب: البئر التي لم تطو، ويذكر ويؤنث.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره: قد ورد القرآن بتصديق الأخبار الواردة في عذاب القبر، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾(٣) وقد اتفق المسلمون أنه لا غدوة ولا عشي في الآخرة، وإنما هما في الدنيا، فهم يعرضون مماتهم على النار قبل يوم القيامة، ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾(٤) فإذا جاز أن يكون المكلف بعد موته معروضًا على النار غدوًّا وعشيًّا؛ جاز أن يسمع الكلام ويمنع الجواب؛ لأن اللذة والعذاب تجيء بالإحساس، فإذا كان كذلك وجب اعتقاد رد الحياة في تلك الأجساد، وسماعهم للكلام، والعقل لا يدفع هذا ولا يوجب حاجة إلى بلة ورطوبة، وإنما يقتضي حاجتها إلى المحل فقط، فإذا صح رد الحياة إلى أجسامهم مع ما هم عليه من نقص البنية، وتقطع الأوصال؛ صح أن يوجد فيهم سماع الكلام، والعجز عن رد الجواب»(٥).

قال القاضي عياض: «والذي يحمل عليه سماع هؤلاء هو ما يحمل عليه سماع الموتى في سائر أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع فيها، وذلك بإحيائهم وإحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون، ويجيبون في الوقت الذي يريده اللَّه تعالى»(٦).

---

(١) أفاده القسطلاني في إرشاد الساري (٣/ ٥٢٨).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١)، والبخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧٠)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢).
(٣) غافر: الآية (٤٦).
(٤) غافر: الآية (٤٦).
(٥) شرح البخاري (٣/ ٣٥٨-٣٥٩).
(٦) الإكمال (٨/ ٤٠٥).

وقال النووي: «قال أصحابنا: وهذا السحب إلى القليب ليس دفنا لهم ولا صيانة وحرمة، بل لدفع رائحتهم المؤذية والله أعلم»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[٢]»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «تنبيه: وجه إدخال حديث ابن عمر وما عارضه من حديث عائشة في ترجمة عذاب القبر: أنه لما ثبت من سماع أهل القليب وتوبيخه لهم؛ دل إدراكهم الكلام بحاسة السمع على جواز إدراكهم ألم العذاب ببقية الحواس، بل بالذات، إذ الجامع بينهما وبين بقية الأحاديث: أن المصنف أشار إلى طريق من طرق الجمع بين حديثي ابن عمر وعائشة؛ بحمل حديث ابن عمر على أن مخاطبة أهل القليب وقعت وقت المسألة، وحينئذ كانت الروح قد أعيدت إلى الجسد، وقد تبين من الأحاديث الأخرى أن الكافر المسئول يعذب. وأما إنكار عائشة فمحمول على غير وقت المسألة، فيتفق الخبران»[٤].

قال الإسماعيلي كما في الفتح: «كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله؛ يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[٥] لا ينافي قوله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون»؛ لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من المسمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت نبيه ﷺ بذلك، وأما جوابها بأنه إنما قال إنهم ليعلمون؛ فإن كانت سمعت ذلك فلا ينافي رواية يسمعون بل يؤيدها»[٦].

قال الإمام الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن كلتا الروايتين اللتين

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٧٠).
(٢) النمل: الآية (٨٠).
(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧١)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢).
(٤) الفتح (٣/ ٣٠١).
(٥) الروم: الآية (٥٢).
(٦) الفتح (٧/ ٣٨٦).

ذكرت عن رسول اللَّه ﷺ في ذلك صحيحة، عدول نقلتها، فالواجب على ما انتهت إليه، وقامت عليه حجة خبر الواحد العدل، الإيمان بها، والإقرار بأن اللَّه يسمع من شاء من خلقه من بعد مماته، ما شاء من كلام خلقه من بني آدم وغيرهم على ما شاء، ويفهم من شاء منهم ما شاء، وينعم من أحب منهم بما أحب، ويعذب في قبره الكافر ومن استحق منهم العذاب كيف أراد، على ما جاءت به عن رسول اللَّه ﷺ الآثار، وصحت به الأخبار.

وليس في قول اللَّه ﷻ لنبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[١]، ولا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٢] حجة لمن احتج به في دفع ما صحت به الرواية عن رسول اللَّه ﷺ من قوله لأصحابه، إذ قالوا له في خطابه أهل القليب بما خاطبهم به: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ولا في إنكار ما ثبت عنه ﷺ من قوله لأصحابه مخبرهم عن الميت في قبره: «إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين»[٣]، إذ كان قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، محتملًا من التأويل أوجهًا سوى التأويل الذي تأوله الموجه تأويله؛ إلى أنه لا ميت يسمع من كلام الأحياء شيئًا.

فمن ذلك: أن يكون معناه: فإنك لا تسمع الموتى بطاقتك وقدرتك، إذ كان خالق السمع غيرك، ولكن اللَّه -تعالى ذكره- هو الذي يسمعهم إذا شاء، إذ كان هو القادر على ذلك دون من سواه من جميع الأنبياء، وذلك نظير قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[٤]. وذلك أن الهداية من الكفر إلى الإيمان، والتوفيق للرشاد، بيد اللَّه دون من سواه، فنفى -جل ثناؤه- عن محمد ﷺ أن يكون قادرا أن يسمع الموتى إلا بمشيئته، كما نفى أن يكون قادرا على هداية الضلال إلى سبيل الرشاد إلا بمشيئته.

وذلك يبين أنه كذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، أنه -جل ثناؤه- أثبت لنفسه من القدرة على إسماع من شاء من خلقه، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾، ثم نفى عن محمد ﷺ القدرة على ما أثبته وأوجبه لنفسه من ذلك،

(١) النمل: الآية (٨٠).
(٢) فاطر: الآية (٢٢).
(٣) يأتي قريبًا من حديث أنس ﵁.
(٤) النمل: الآية (٨١).

فقال له: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، ولكن اللَّه هو المسمعهم دونك، وبيده الإفهام والإرشاد والتوفيق، وإنما أنت نذير، فبلغ ما أرسلت به. فهذا أحد أوجهه.

والثاني: أن يكون معناه: فإنك لا تسمع الموتى إسماعًا ينتفعون به؛ لأنهم قد انقطعت عنهم الأعمال، وخرجوا من دار الأعمال إلى دار الجزاء، فلا ينفعهم دعاؤك إياهم إلى الإيمان باللَّه والعمل بطاعته، فكذلك هؤلاء الذين كتب ربك عليهم أنهم لا يؤمنون، لا يسمعهم دعاؤك إلى الحق إسماعا ينتفعون به؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- قد ختم عليهم أن لا يؤمنوا، كما ختم على أهل القبور من أهل الكفر أنهم لا ينفعهم بعد خروجهم من دار الدنيا إلى مساكنهم من القبور، إيمان ولا عمل؛ لأن الآخرة ليست بدار امتحان، وإنما هي دار مجازاة، وكذلك تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، وغير ذلك من وجوه المعاني.

فإذ كان ذلك محتملًا من المعاني ما وصفنا؛ فليس لموجهه إلى أنه معني به أنه لا يسمع ميت شيئًا بحال حجة، إذ كان لا خبر بذلك عن رسول اللَّه ﷺ يصححه، ولا في الفعل شاهد بحقيقته، بل تأويل مخالفيه في ذلك على ما ذكرنا أولى بالصحة، لما روينا عن رسول اللَّه ﷺ من الأخبار الواردة عنه أنهم يسمعون كلام الأحياء، على ما وردت به عنه الآثار»[(١)].

* عن عائشة ﵂: أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك اللَّه من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول اللَّه ﷺ عن عذاب القبر فقال: «نعم، عذاب القبر». قالت عائشة ﵂: فما رأيت رسول اللَّه ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[(٢)].

⋆ فوائد الحديث:

قال القسطلاني: «في هذا الحديث أنه أقر اليهودية على أن عذاب القبر حق»[(٣)].

---

(١) تهذيب الآثار (مسند عمر بن الخطاب ٢/ ٥١٨-٥٢٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤-٤٥)، والبخاري (٣/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٣٧٢)، ومسلم (١/ ٤١١/ ٥٨٦)، والنسائي (٤/ ٤١١).

(٣) إرشاد الساري (٣/ ٥٣١).

قال الحافظ: «فيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة، بخلاف المسألة ففيها اختلاف»[١].

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على أن عذاب القبر تعرفه اليهود، وذلك -والله أعلم- عن التوراة؛ لأن مثل هذا لا يدرك بالرأي»[٢].

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تقول: قام رسول الله ﷺ خطيبا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة[٣].

★ فوائد الحديث:

فيه إثبات عذاب القبر وقد تقدمت هذه الفائدة في الأحاديث السابقة وأنه واقع على الكفار ومن شاء الله من الموحدين.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه -وإنه ليسمع قرع نعالهم- أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا**» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال البيهقي: «وإعادة الروح في جزء واحد، وسؤال جزء واحد، وتعذيب جزء واحد مما يجوز في العقل، وليس في تفريق الأجزاء استحالة ما وردت به الأخبار في عذاب القبر، وهو كما شاء الله، ولمن شاء الله، وإلى ما شاء الله، نعوذ بالله من عذاب الله»[٥].

---

(١) أفاده في الفتح (٣/ ٣٠٣). (٢) فتح البر (٢/ ١٣٩).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٣)، ومسلم (٢/ ٦٢٤/ ٩٠٥)، والنسائي (٤/ ٤٠٩/ ٢٠٦١).

(٤) أخرجه: البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠)، وأبو داود (٥/ ١١٢-١١٤/ ٤٧٥١)، والنسائي (٤/ ٤٠٣/ ٢٠٥٠). (٥) الاعتقاد (ص: ٣٤٤).

وقال ابن أبي جمرة: «فيه دليل على عظيم قدرة اللَّه تعالى، يؤخذ ذلك من هذا الإخبار بهذا النبأ العظيم، وكيف هذا التصرف العجيب، ويترتب عليه من الفقه الإيمان به والتفكر فيما نحن إليه صائرون، والأهبة لذلك. . ؛ لأنه إذا فكر في الموت وفيما بعده من الأنباء وشبهها؛ حصل له فيه من الوعظ ما فيه كفاية لمن له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد»[1].

* عن البراء بن عازب ﷺ، قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: **استعيذوا باللَّه من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ﷺ حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من اللَّه ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض». قال: «فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟! فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».**

قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي اللَّه. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٢٣٢).

الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللَّه ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب اللَّه، فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة».

قال: «فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره».

قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من اللَّه وغضب».

قال: «فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له» ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1] فيقول اللَّه ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا». ثم قرأ: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: أن كذب فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى

(١) الأعراف: الآية (٤٠). (٢) الحج: الآية (٣١).

تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وأما ما ظنه أبو محمد بن حزم من معارضة هذا الحديث لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[2] الآية، وأنهما حياتان وموتتان لا غير. فجوابه: أنه ليس في الحديث أنه يحيا حياة مستقرة في قبره، والحياتان المذكورتان في الآية هما اللتان ذكرا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[3] وهاتان حياتان مستقرتان. وأما رد الروح إليه في البرزخ للسؤال، فرد عارض لا يتصل به حياة بعد حياة ثالثة، فلا معارضة بين الحديث والقرآن بوجه من الوجوه وبالله التوفيق»[4].

* * *

---

(١) أخرجه مطولا أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣) والحاكم (١/ ٣٧-٣٨) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه مختصرا النسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠) وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٩)، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٧٨).

(٢) البقرة: الآية (٢٨).

(٣) غافر: الآية (١١).

(٤) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٣/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خولناكم: أعطيناكم وملكناكم، من خولته الشيء، إذا أعطيته إياه ومَلَّكْتُهُ له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «المعنى: لقد جئتمونا متفرقين فردًا بعد فرد، أو وحدانًا منفردين عن الأنداد والأوثان، والأهل والإخوان، والأنصار والأعوان، مجردين من الخول والخدم والأملاك والأموال، كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم حفاةً عراةً غلفًا، أكد تعالى الخبر بمجيئهم بعد ذكر وقوعه؛ تذكيرًا لهم بما كان من جحودهم إياه واستبعادهم لوقوعه، كما ذكرهم بمشابهة بعثهم وإعادتهم لبدء خلقهم، وهو المثل الذي جاءهم به الرسول ﷺ من ربهم ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ فلم تقدموا لأنفسكم منه شيئًا بين أيديكم. معنى ﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾: أعطيناكم، وأصل التخويل إعطاء الخول كالعبيد والنعم، ويعبر بالترك وراء الظهر عما فات الإنسان التصرف فيه والانتفاع به، لفقده إياه أو بعده عنه، وبالتقديم بين الأيدي عما ينتفع به في المستقبل، فالمراد هنا أن ما كان شاغلًا لهم من المال والولد والخدم والحشم والأثاث والرياش؛ عن الإيمان بالرسل والاهتداء بما جاؤوا به؛ لم ينفعهم كما كانوا يتوهمون أن اللَّه فضلهم به على المؤمنين، وأنهم يمكنهم الافتداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة، إن صح قول الرسل أن بعد الحياة الدنيا حسابًا وجزاءً في حياة أخرى، وإنما كان يمكنهم الانتفاع به لو آمنوا بالرسل، وأنفقوا في سبيل اللَّه، ولولا أن هذا هو المراد لاستغنى عن هذه الجملة بما قبلها، ومثل هذا يقال في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ فإن الأديان الوثنية قائمة على قاعدتي الفداء والشفاعة كما تقدم بيانه مرارًا؛ أي: وما

نبصر معكم شفعاءكم من الملائكة وخيار البشر وغيرهم -أو تماثيلهم وقبورهم الذين زعمتم في الدنيا أنهم فيكم شركاء اللَّه تعالى، تدعونهم ليشفعوا لكم عند اللَّه، ويقربوكم إليه زلفى، بتأثيرهم في إرادته، وحملهم إياه على ما لم تتعلق في الأزل به، وقد تقدم شرح هذه العقيدة الوثنية والتفرقة بينها وبين أحاديث الشفاعة في تفسير هذه السورة وغيرها ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ . . . أي: تقطع ما كان بينكم من صلات النسب والملك والولاء والخلة . . . ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: وغاب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء، وتقريب الأولياء، وأوهام الفداء، إذ علمتم ببطلان غروركم به واعتمادكم عليه، أو ضل عنكم الشفعاء الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآية مشتملة على قانون شريف في معرفة أحوال القيامة.

فأولها: أن النفس الإنسانية إنما تعلقت بهذا الجسد آلة له في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة، فإذا فارقت النفس الجسد ولم يحصل هذين المطلوبين البتة عظمت حسراته وقويت آفاته؛ حيث وجد مثل هذه الآلة الشريفة التي يمكن اكتساب السعادة الأبدية بها، ثم إنه ضيعها وأبطلها ولم ينتفع بها البتة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وثانيها: أن هذه النفس مع أنها لم تكتسب بهذه الآلة الجسدانية سعادةً روحانيةً، وكمالًا روحانيًا، فقد عملت عملًا آخر أردأ من الأول، وذلك لأنها طول العمر كانت في الرغبة في تحصيل المال والجاه في تقوية العشق عليها، وتأكيد المحبة، وفي تحصيلها. والإنسان في الحقيقة متوجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني، فهذا المسكين قلب القضية وعكس القضية، وأخذ يتوجه من المقصد الروحاني إلى العالم الجسماني، ونسي مقصده واغتر باللذات الجسمانية، فلما مات انقلبت القضية شاء أم أبى، توجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني، فبقيت الأموال التي اكتسبها وأفنى عمره في تحصيلها وراء ظهره، والشيء الذي يبقى وراء ظهر الإنسان لا يمكنه أن ينتفع به، وربما بقي منقطع

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٢٧-٦٢٩).

المنفعة معوج الرقبة معوج الرأس بسبب التفاته إليها مع العجز عن الانتفاع بها، وذلك يوجب نهاية الخيبة والغم والحسرة، وهو المراد من قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وهذا يدل على أن كل مال يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في مصارف الخيرات فصفته هذه التي ذكرها اللّه تعالى في هذه الآية. أما إذا صرفها إلى الجهات الموجبة للتعظيم لأمر اللّه، والشفقة على خلق اللّه، فما ترك تلك الأموال وراء ظهره، ولكنه قدمها تلقاء وجهه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[1].

وثالثها: أن أولئك المساكين أتعبوا أنفسهم في نصرة الأديان الباطلة، والمذاهب الفاسدة، وظنوا أنهم ينتفعون بها عند الورود في محفل القيامة، فإذا وردوه وشاهدوا ما في تلك المذاهب من العذاب الشديد والعقاب الدائم؛ حصلت فيه جهات كثيرة من العذاب. منها عذاب الحسرة والندامة: وهو أنه كيف أنفق ماله في تحمل العناء الشديد والبلاء العظيم في تحصيل ما لم يحصل له منه إلا العذاب والعناء، ومنها عذاب الخجلة: وهو أنه ظهر له أن كل ما كان يعتقده في دار الدنيا كان محض الجهالة وصريح الضلالة، ومنها حصول اليأس الشديد مع الطمع العظيم، ولا شك أن مجموع هذه الأحوال يوجب العذاب الشديد والآلام العظيمة الروحانية، وهو المراد من قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

ورابعها: أنه لما بدا له أنه فاته الأمر الذي به يقدر على اكتساب الخيرات، وحصل عنده الأمر الذي يوجب حصول المضرات، فإذن بقي له رجاء في التدارك من بعض الوجوه، فههنا يخف ذلك الألم ويضعف ذلك الحزن. أما إذا حصل الجزم واليقين بأن التدارك ممتنع، وجبر ذلك النقصان متعذر، فههنا يعظم الحزن ويقوى البلاء جدا، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ والمعنى: أن الوصلة الحاصلة بين النفس والجسد قد تقطعت، ولا سبيل إلى تحصيلها مرة أخرى. وعند الوقوف على حقائق هذه المراتب يظهر أنه لا بيان فوق هذا البيان في شرح أحوال هؤلاء الضالين»[2].

---

(١) البقرة: الآية (١١٠).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٩٣-٩٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في محاسبة الإنسان بأعماله، وشدة الموقف

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تحشرون حفاةً عراةً غرلًا**». قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «**الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**»[1].

★ **غريب الحديث:**

غرلًا: الغرل: «جمع الأغرل وهو الأقلف. والغرلة: القلفة»[2]. والأقلف: الذي لم يختن. والقلفة: الجلدة التي تؤخذ في الختان.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «فيه دليل على عظم قدرة الله ﷻ، وذلك مما يوجب زيادة تعظيم جلاله سبحانه في القلوب، وهو مما يقرب العبد إلى مولاه. وفيه إشارة إلى أن الخروج إلى الدارين أولا، الفاضل والمفضول في ذلك الوقت على حد سواء، وبعد ذلك يكون الترفيع بالتفضيل بحسب ما شاء الحكيم. فخروجنا إلى هذه الدار عراةً حفاةً غرلًا، وفي تلك كذلك، وبعد وقوع الأمر يكون التفضيل»[3].

قال الحافظ: «قال البيهقي: وقع في حديث أبي سعيد -يعني الذي أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان- أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها وقال: «سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها**»[4]». ويجمع بينهما بأن بعضهم يحشر عاريًا وبعضهم كاسيًا، أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر فيحشرون عراة، ثم يكون

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٣)، والبخاري (١١/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٦٥٢٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩٤/ ٢٨٥٩)، والنسائي (٤/ ٤٢١/ ٢٠٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٩/ ٤٢٧٦).

(٢) النهاية (٣/ ٣٦٢).

(٣) بهجة النفوس (٤/ ٢١٥-٢١٦).

(٤) أخرجه: أبو داود (٣/ ٤٨٥/ ٣١١٤)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٠٧/ ٧٣١٦)، والحاكم (١/ ٣٤٠) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

أول من يكسى إبراهيم. وحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم الذين أمر أن يزملوا في ثيابهم ويدفنوا فيها، فيحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد فحمله على العموم... ورجح القرطبي الحمل على ظاهر الخبر، ويتأيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١] وإلى ذلك الإشارة في حديث الباب بذكر قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[٢] عقب قوله: «حفاة عراة» قال: فيحمل ما دل عليه حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم يدفنون بثيابهم فيبعثون فيها تمييزًا لهم عن غيرهم، وقد نقله ابن عبد البر عن أكثر العلماء، ومن حيث النظر؛ فإن الملابس في الدنيا أموال، ولا مال في الآخرة مما كان في الدنيا، ولأن الذي يقي النفس مما تكره في الآخرة ثواب بحسن عملها أو رحمة مبتدأة من اللَّه، وأما ملابس الدنيا فلا تغني عنها شيئًا، قاله الحليمي»[٣].

قال ابن عبد البر: «يحشر الآدمي عاريًا، ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قطع منه شيء يرد حتى الأقلف»[٤].

قال النووي: «المقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء، حتى الغرلة تكون معهم»[٥].

قال ابن أبي جمرة: «في قوله ﷺ: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك» فوائد منها... التخويف والإرهاب من ذلك اليوم العظيم؛ ليكون ذلك سببا للاستعداد إليه. ومنها أن معاينة الأهوال العظام تنقل الطباع عن عادتها المألوفة لها؛ لأن عادة البشرية إذا نظر الرجل إلى النساء وهن باديات العورات؛ أن ذلك يحرك عنده شهوة الاستمتاع لهن، وكذلك النساء أيضًا إذا رأين الرجال على تلك الحالة. وفي ذلك اليوم من عظم ما يعاينون من الأهوال انتقلت الطباع عن عادتها المعلومة منها. ويترتب عليه من الفقه أن الخوف إن كان حقيقيًا يذهب بإغواء النفس وخدعها المعلوم منها، وينقل الطباع السوء إلى الحسن والتقويم، ولهذا الإشارة بقوله

---

(١) الأعراف: الآية (٢٩).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٣) الفتح (١١/ ٤٦٧).
(٤) الفتح (١١/ ٤٦٨).
(٥) شرح مسلم (١٧/ ١٥٩).

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[١] فلولا أن الخوف يحدث في الطباع السوء شيئًا حسنا ما جعله اللَّه تعالى سببا إلى تقواه الذي هو أجل الأحوال السنية»[٢].

* عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣] قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي» (قال) «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»**[٤].

★ غريب الحديث:

أمضيت: «أي: أنفذت فيه عطاءك، ولم تتوقف فيه»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٦]: يعني شغلكم الإكثار من الدنيا، ومن الالتفات إليها عما هو الأولى بكم من الاستعداد للآخرة، وهذا الخطاب للجمهور إذ جنس الإنسان على ذلك مفطور، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[٧] وكما قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾[٨] الآية. وقوله: **«يقول ابن آدم: مالي مالي»** أي: يغتر بنسبة المال إليه وكونه في يديه، حتى ربما يعجب به ويفخر به، ولعله ممن تعب هو في جمعه، ويصل غيره إلى نفعه، ثم أخبر بالأوجه التي ينتفع بالمال فيها»[٩].

قال ابن علان: «ما لك من دنياك إلا ما انتفعت به في دنياك؛ بأن أكلت أو لبست أو أخرت بأن تصدقت، وما عدا ذلك من باقي المال فإنما أنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره؛ كما تقدم في حديث **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله»**[١٠] ففيه

---

(١) الزمر: الآية (١٦). (٢) بهجة النفوس (٤/ ٢١٦).
(٣) التكاثر: الآية (١).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣/ ٢٩٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٢٣٤٢)، والنسائي (٦/ ٥٤٨/ ٣٦١٥). (٥) النهاية (٤/ ٣٣٩).
(٦) التكاثر: الآية (١).
(٧) القيامة: الآيتان (٢٠-٢١). (٨) آل عمران: الآية (١٤).
(٩) المفهم (٧/ ١١٠-١١١).
(١٠) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١١/ ٣١٣/ ٦٤٤٢)، والنسائي (٦/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٣٦١٤).

تحريض على الزهد عن جمع الدنيا والعروض عنها، وتحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة، وادخار ما عداه عند الله»[١].

قال القاري: «من كان قلبه حريصا على جمع المال؛ فهو فقير في حقيقة الحال ونتيجة المآل، وإن كان له كثير من الأموال؛ لأنه محتاج إلى طلب الزيادة بموجب طول الآمال، ومن كان له قلب قانع بالقوت، وراض بعطية مالك الملك والملكوت؛ فهو غني بقلبه، مستغن عن الغير بربه، سواء كان في يده مال أو لا؛ إذ لا يطلب الزيادة على القوت، ولا يتعب نفسه في طلب الدنيا إلى أن يموت، بل يستعين بالقليل من الدنيا لتحصيل الثواب الجميل في العقبى، والثناء الجزيل من المولى»[٢].

* * *

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢٦).

(٢) المرقاة (٩/ ٢٣).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

* غريب الآية:

فالق: الفلق: الشق، يقال: انفلق الصبح إذا انشق ولاح.

الحَبُّ: جمع حبة، وهو ما لا يكون له نوى كالبر والشعير.

النوى: جمع نواة. ويجري في كل ما له عجم كالمشمش والخوخ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «ولما كان قد تقدم ذكر البعث، نبّه على قدرته تعالى الباهرة في شق النواة مع صلابتها، وإخراجه منها نبتًا أخضر لينًا، إلى ما بعد ذلك مما فيه إشارة إلى القدرة التامة، والبعث، والنشر بعد الموت»[1].

وقال الإمام الطبري: «هذا تنبيه من اللَّه -جل ثناؤه-، هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان، على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه، يقول -تعالى ذكره-: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان، هو اللَّه الذي فلق الحب؛ يعني: شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع، والنوى من كل ما يغرس مما له نواة.. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: يقول -تعالى ذكره-: يخرج السنبل الحي من الحب الميت، ومخرج الحب الميت من السنبل الحي، والشجر الحي من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي، والشجر ما دام قائمًا على أصوله لم يجف، والنبات على ساقه لم ييبس؛ فإن العرب تسميه حيًّا، فإذا يبس وجف أو قطع من أصله سموه ميتًا..

وأما قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإنه يقول: فاعل ذلك كله، اللَّه ﷻ ﴿فَأَنَّىٰ

(١) البحر المحيط (٤/ ١٨٩).

تُؤْفَكُونَ﴾ يقول: فأي وجوه الصد عن الحق أيها الجاهلون تصدون عن الصواب، وتصرفون، أفلا تتدبرون، فتعلمون أنه لا ينبغي أن يجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى، فأخرج لكم من يابس الحب والنوى زروعًا وحروثًا وثمارًا تتغذون ببعضه، وتفكهون ببعضه، شريك في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾. وقد عبروا عن هذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر والكافر من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها»[2].

قال محمد رشيد رضا: «هذه طائفة من آيات التنزيل، مبينة ومفصلة لطائفة من آيات التكوين، تدل أوضح الدلالة على وحدانية اللَّه تعالى وقدرته، وعلمه وحكمته، ولطفه ورحمته، جاءت تالية لطائفة من الآيات في أصول الإيمان الثلاثة، -التوحيد والبعث والرسالة، فهي مزيد تأكيد في إثباتها، وكمال بيان في معرفة اللَّه تعالى، بما فيها من بيان سننه وحكمه في الإحياء والإماتة والأحياء والأموات، وتقديره وتدبيره لأمر النيرات في السموات، وأنواع حججه ودلائله في أنواع النبات»[3].

قال القاسمي: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ شروع في بعض مبدعاته الدالة على كمال قدرته، وعلمه وحكمته، إثر تقرير شأن توحيده تعالى، وذلك للتنبيه على أن المقصود الأعظم هو معرفته ﷻ بجميع صفاته وأفعاله، وأنه مبدع الأشياء وخالقها. ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها، ولتعريف خطئهم في الإشراك الذي كانوا عليه. والمعنى: أن الذي يستحق العبادة دون غيره، هو اللَّه الذي فلق الحب عن النبات، والنواة عن النخلة»[4].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٠-٢٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٩٧).
(٣) تفسير المنار (٧/ ٦٢٩-٦٣٠).
(٤) محاسن التأويل (٦/ ٦٣٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الله فلق الحبة، وبرأ النسمة

* عن زر بن حبيش، قال علي رضي الله عنه: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة! إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[1].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٨٤)، ومسلم (١/ ٨٦/ ٧٨)، والترمذي (٥/ ٦٠١/ ٣٧٣٦)، والنسائي (٨/ ٤٩٠/ ٥٠٣٣)، وابن ماجه (١/ ٤٢/ ١١٤).

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾

★ **غريب الآية:**

الإصباح: الصبح والصباح: أول النهار، وكذلك الإصباح. أي: فالق الصبح كل يوم، يريد الفجر والإصباح: مصدر أصبح. والمعنى: شاق الضياء عن الظلام وكاشفه.

سكنًا: السكن ما يسكن إليه وما يسكن فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل.

حُسْبَانًا: أي بحساب وتقدير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، فالنوع المتقدم كان مأخوذا من دلالة أحوال النبات والحيوان، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب، وأكثر وقعًا من الأحوال الأرضية»[(١)].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾؛ أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٢)]، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدآدئه وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كما قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[(٣)]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٩٩-١٠٠).
(٢) الأنعام: الآية (١).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه. فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، أي ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[2]، وقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[3].. وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾؛ أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾[4] الآية، وكما قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[5]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[6].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ أي: الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيرًا ما إذا ذكر اللّٰه تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[7]»[8].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلقه كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء، والظلمة، وما يترتب على ذلك، من أنواع المنافع والمصالح فقال:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئًا فشيئًا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق، في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم

---

(١) الضحى: الآيتان (١ و ٢).
(٢) الليل: الآيتان (١ و ٢).
(٣) الشمس: الآيتان (٣ و ٤).
(٤) يونس: الآية (٥).
(٥) يس: الآية (٤٠).
(٦) الأعراف: الآية (٥٤).
(٧) يس: الآيتان (٣٧ و ٣٨).
(٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٧-٢٩٨).

إلا بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ﴾ اللَّه ﴿ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة. ثم يزيل اللَّه ذلك، بالضياء، وهكذا أبدا إلى يوم القيامة.

﴿وَ﴾ جعل تعالى ﴿ الشَّمْسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات، التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما؛ لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه.

بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي -من عزته- انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده اللَّه لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه، بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه؛ تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بديع، تحيرت العقول في حسنه وكماله، وموافقته للمصالح والحكم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «المراد من التذكير بالآية الأولى التأمل في صنع اللَّه بتفري الليل إذا عسعس، عن صبحه إذا تنفس، وإفاضة النور الذي هو مظهر جمال الوجود، ومبدأ زمن تقلب الأحياء في القيام والقعود، والركوع والسجود، ومضيهم في تجلي النهار إلى ما يسروا له من الأعمال، وما لله في ذلك من نعم وحكم وأسرار. ويدل على ذلك ذكر الآية الثانية بفائدتها، وهي آية الليل يجعله اللَّه سكنا، فهذا المذكور يدل على مقابلة المحذوف، وهو جعل النهار وقتا للحركة بالسعي للمعاش، والعمل الصالح للمعاد، وقد صرح بنوعي الفائدتين في آيات كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

تَشۡكُرُونَ﴾[١]، فهذه الآية على إيجازها جامعة للفوائد الدنيوية والدينية، وفيها اللف والنشر، أي لتسكنوا في الليل، وتطلبوا الرزق من فضل اللّه في النهار، وليعدكم لشكر نعمه عليكم بها، وبمنافعكم في كل منهما. ومن الآيات المصرحة بذكرهما ما قرن بالتذكير بفائدتهما الدنيوية فقط كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[٢]، ومنها ما قرن بالتذكير بفائدتهما الدينية فقط كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[٣] فياللّه من إيجاز القرآن وبلاغته، في اختلاف عبارته!!»[٤].

* * *

(١) القصص: الآية (٧٣).
(٢) النبأ: الآيتان (١٠ و ١١).
(٣) الفرقان: الآية (٦٢).
(٤) تفسير المنار (٧/ ٦٣٣-٦٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «هذا هو النوع الثالث من الدلائل على كمال القدرة والرحمة والحكمة، وهو أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد، وهي من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى خلقها لتهتدي الخلق بها إلى الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر، حيث لا يرون شمسا ولا قمرا؛ لأن عند ذلك يهتدون بها إلى المسالك والطرق التي يريدون المرور فيها.

الوجه الثاني: وهو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة، وإنما يستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة، ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة.

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء، فقال ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[٢] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[٣].

الوجه الرابع: أنه تعالى ذكر في منافعها كونها رجوما للشياطين...

الوجه السادس: في منافع هذه الكواكب ما ذكره اللّه تعالى في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[٤] فنبه على سبيل الإجمال؛ على أن في وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة، وليس كل ما لا يحيط عقلنا به على التفصيل وجب نفيه، فمن أراد أن يقدر حكمة اللّه تعالى في ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه؛ فقد ضل ضلالا بينا، ثم إنه تعالى

---

(١) الفرقان: الآية (٦١).
(٢) الصافات: الآية (٦).
(٣) البروج: الآية (١).
(٤) آل عمران: الآية (١٩١).

لما ذكر الاستدلال بأحوال هذه النجوم، قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجوه، الأول: المراد أن هذه النجوم كما يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر؛ فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم، وكمال قدرته وعلمه. الثاني: أن يكون المراد من العلم ههنا العقل. فقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نظير قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] وفي (آل عمران) في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2] والثالث: أن يكون المراد من قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول، وينتقلون من الشاهد إلى الغائب»[3].

وقال أبو حيان: «نبه على أعظم فوائد خلقها، وهي الهداية للطرق والمسالك والجهات التي تقصد والقبلة، إذ حركات الكواكب في الليل يستدل بها على القبلة كما يستدل بحركة الشمس في النهار عليها. والخطاب عام لكل الناس..

والظاهر أن (الظلمات) هنا على ظاهرها، وأبعد من قال: يصح أن تكون (الظلمات) هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بها، وأضاف (الظلمات) إلى (البر والبحر) لملابستها لهما، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات. وذكر تعالى النجوم في كتابه للزينة والرجم والهداية، فما سوى ذلك اختلاق على اللّٰه وافتراء.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بيّنّا وقسّمنا. وخصّ من يعلم لأنهم الذين ينتفعون بتفصيلها، وأما غيرهم فمعرضون عن الآيات وعن الاستدلال بها»[4].

وقال ابن عاشور: «والمقصود الأوّل من هذا الخبر الاستدلال على وحدانيّة اللّٰه تعالى بالإلهيّة، فلذلك صيغ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمسند إليه؛ لأنّ كون خلق النّجوم من اللّٰه وكونها ممّا يهتدَى بها لا ينكره المخاطبون، ولكنّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيه من إفراده بالعبادة»[5].

---

(١) البقرة: الآية (١٦٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٩٠).
(٣) تفسير الرازي (١٣/ ١٠٥-١٠٧).
(٤) البحر المحيط (٤/ ١٩١).
(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٣).

قال ابن كثير: «قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث؛ فقد أخطأ وكذب على اللَّه سبحانه، أن اللَّه جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر»[(١)].

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة: أن حكمة خلق النجوم هي الاهتداء بها فقط، كقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[(٢)]، ولكنه تعالى بين في غير هذا الموضع أن لها حكمتين أخريين غير الاهتداء بها وهما تزيين السماء الدنيا، ورجم الشياطين بها، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[(٥)]»[(٦)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه ﷻ

* عن أبي بكرة ؓ قال: خسفت الشمس على عهد رسول اللَّه ﷺ؛ فخرج يجر رداءه حتى انتهى إلى المسجد، وثاب الناس إليه فصلى بهم ركعتين، فانجلت الشمس، فقال: **إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، وإنهما لا يخسفان لموت أحد، وإذا كان ذاك فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم**». وذاك أن ابنا للنبي ﷺ مات يقال له إبراهيم، فقال الناس في ذاك[(٧)].

★ غريب الحديث:

الخسوف: قال ابن عبد البر: «قال أهل اللغة: خسفت: إذا ذهب ضوؤها ولونها، وكسفت: إذا تغير لونها. يقال: بئر خسيف: إذا ذهب ماؤها، وفلان كاسف اللون أي متغير اللون. ومنهم من يجعل الخسوف والكسوف واحدًا،

---

(١) التفسير (٢/ ١٥٩).
(٢) النحل: الآية (١٦).
(٣) الملك: الآية (٥).
(٤) الصافات: الآيات (٦-١٠).
(٥) فصلت: الآية (١٢).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٢٠٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري (٢/ ٦٩٦/ ١٠٦٣)، والنسائي (٣/ ١٤١/ ١٤٥٨).

والأول أولى والله أعلم»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام وتأويله: أنهم كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم؛ من موت وضرر ونقص ونحو ذلك من الأمور، على ما يذهب إليه أهل التنجيم من إعطائها الأحكام، وزعمهم أن هذه الأجسام السفلية مربوطة بالنجوم، وأن لها فعلًا وتأثيرًا فيها، فأعلمهم النبي ﷺ أن الذي كانوا يتوهمونه من ذلك باطل، وأن خسوف الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه تعالى يريهما خلقه؛ ليعلموا أنهما خلقان مسخران لله ﷻ ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وأنهما لا يستحقان أن يعبدا، فيتخذا إلهين، وهو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٢)، وأمر عند كسوفها أن يفزع إلى الصلاة والسجود لله الذي يستحق العبادة والسجود دونهما، إبطالا لقول الجهال الذين يعبدونهما، وإفسادا لمذاهبهم في عبادتهما، والله أعلم.

وقد يحتمل أن يكون المعنى في الأمر بالصلاة عند الكسوف الفزع إلى اللَّه ﷻ، والتضرع له في دفع الضرر والآفات التي تتوهمها الأنفس، وتتحدث بها الخواطر تحقيقًا لإضافة الحوادث كلها إلى اللَّه تعالى، ونفيًا لها عن الشمس والقمر، وإبطالًا لأحكامها، والله أعلم.

وقد قيل فيه وجه ثالث: وهو أنهما آيتان من آيات اللَّه الدالة على قرب زمان الساعة، وأمارتان من أمارتها وأشراطها المتقدمة لها؛ كما قد قال مخبرًا عن خسوفهما في القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾(٣) وقد يكون ذلك أيضًا أنه يخوف بهما الناس ليفزعوا إلى التوبة والاستغفار من الزلل والخطايا، ودليل ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(٤). ويؤكد ذلك

---

(١) فتح البر (٥/ ٤٠٢).
(٢) فصلت: الآية (٣٧).
(٣) القيامة: الآيات (٧-٩).
(٤) الإسراء: الآية (٥٩).

حديث أبي بكرة»[١].

قال ابن أبي جمرة: «فيه دليل على رحمة اللَّه سبحانه بهذه الأمة؛ أن جعل الآيات مذكرة لهم ومخوفة، حتى يتنبه العاقل، ويرجع الآبق ويجتهد الحاضر، ويبادر الحازم ويرتجع الظالم»[٢].

* عن ابن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

اقتبس: أخذ وحصل وتعلم.

شعبة من السحر: قطعة منه.

⋆ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «فقد صرح رسول اللَّه ﷺ بأن علم النجوم من السحر؛ وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[٤]، وهكذا الواقع؛ فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة»[٥].

قال الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم؛ من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغيير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاطٍ لعلم استأثر اللَّه سبحانه به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

---

(١) أعلام الحديث (١/ ٦١٠-٦١٢).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٧ و٣١١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٦-٢٢٧/ ٣٩٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٦)، وصحح إسناده الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء (٥/ ٢١٥٩/ ٣٤٠٤).

(٤) طه: الآية (٦٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣).

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس الذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة؛ فإنه غير داخل فيما نهي عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا بأكثر من أن الظل ما دام متناقصا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة؛ فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها، من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم؛ إذ كانوا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم»[1].

قال سليمان آل الشيخ: «قوله «زاد ما زاد». يعني: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

قلت: والقولان متلازمان؛ لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر اللَّه بعلمه. فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم، وكذا العمل بمقتضاه، كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر، قاله ابن رجب»[2].

* * *

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «كثر اختلاف المفسرين في تفسير هذين اللفظين على أقوال: فالأول -وهو المنقول عن ابن عباس في أكثر الروايات-: أن المستقر هو الأرحام، والمستودع الأصلاب. قال كريب: كتب جرير إلى ابن عباس يسأله عن هذه الآية فأجاب: المستودع الصلب، والمستقر الرحم، ثم قرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾[1]. ومما يدل أيضًا على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زمانًا طويلًا، والجنين يبقى في رحم الأم زمانًا طويلًا، ولما كان المكث في الرحم أكثر مما في صلب الأب؛ كان حمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى»[2].

وقال أبو حيان: «والذي يقتضيه النظر أن الاستقرار والاستيداع: حالان يعتوران على الإنسان من الظهر إلى الرحم، إلى الدنيا إلى القبر، إلى الحشر إلى الجنة أو إلى النار. وفي كل رتبة يحصل له استقرار واستيداع: استقرار بالإضافة إلى ما قبلها، واستيداع بالإضافة إلى ما بعدها. ولفظ الوديعة يقتضي الانتقال.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لما كان الاهتداء بالنجوم واضحًا ختمه بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من له أدنى إدراك ينتفع بالنظر في النجوم وفائدتها. ولما كان الإنشاء من نفس واحدة، والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر، ختمه بقوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ إذ الفقه هو استعمال فطنة، ودقة نظر وفكر، فناسب ختم كل جملة بما يناسب ما صدّر به الكلام»[3].

---

(١) الحج: الآية (٥). (٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٠٨).
(٣) البحر المحيط (٤/ ١٩٢).

قال الطبري: «وأولى التأويلات في ذلك بالصواب، أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- عم بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ كل خلقه الذي أنشأ من نفس واحدة مستقرًّا ومستودعًا، ولم يخصص من ذلك معنىً دون معنىً، ولا شك أن من بني آدم مستقرًّا في الرحم، ومستودعًا في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها، ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر، مستودع على ظهر الأرض، فكل مستقر أو مستودع بمعنى من هذه المعاني؛ فداخل في عموم قوله ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ومراد به، إلا أن يأتي خبر يجب التسليم له بأنه معني به معنى دون معنى، وخاص دون عام»[1].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ﴾ الآية، لم يبين هنا كيفية إنشائهم من نفس واحدة، ولكنه بين في مواضع أخر أن كيفيته أنه خلق من تلك النفس الواحدة التي هي آدم زوجها حواء، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[2]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير المستقر والمستودع

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[5] قال: «المستقر ما كان في الرحم مما هو حي، ومما هو قد مات، والمستودع ما في الصلب»[6].

* * *

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٩١).
(٢) النساء: الآية (١).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٩).
(٤) أضواء البيان (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٥) هود: الآية (٦).
(٦) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٧/ ٢٨٨)، والحاكم (٢/ ٣١٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٨/ ٣٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خضرًا: أي شيئًا غضًا أخضر بالخلقة لا بالصناعة، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحب؛ كساق النجم وأغصان الشجر.

متراكبًا: أي بعضه فوق بعض.

قنوان: جمع قِنْو. وهو العِذْقُ (عنقود النخلة) الذي فيه الشماريخ. وتثنيته: قِنْوَانِ، وجمعه: قِنْوَانٌ.

يَنْعِهِ: أي: نضجه. يقال: أينع الثمر إذا نضج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا النوع الخامس من الدلائل الدالة على كمال قدرة اللّه تعالى، وعلمه، وحكمته، ورحمته، ووجوه إحسانه إلى خلقه.

واعلم أن هذه الدلائل كما أنها دلائل فهي أيضًا نعم بالغة، وإحسانات كاملة، والكلام إذا كان دليلًا من بعض الوجوه، وكان إنعامًا وإحسانًا من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيمًا، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذه الطريقة»[1].

قال السعدي: «هذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم. وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعا، وقت حاجة الناس إليه،

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١١٠-١١١).

فأنبت اللّه به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام. فرتع الخلق بفضل اللّه، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجدب والقحط؛ ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ما به يتمتعون، وبه يرتعون، مما يوجب لهم، أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعيم، وعبادته والإنابة إليه، والمحبة له. ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات؛ ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتا لأكثر الناس فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك النبات الأخضر.

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير وذرة وأرز وغير ذلك، من أصناف الزروع. وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول. وإشارة أيضًا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج اللّه ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ وهو الكفري والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة سهل التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومراقي، يسهل صعودها.

﴿وَ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾. فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها اللّه بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنباتات.

وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون؛ أي: مشتبها في شجره وورقه، وغير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره.

والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصا: النخل، إذا أثمر.

﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه؛ فإن في ذلك عبرًا وآيات، يستدل بها على رحمة اللَّه، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده. ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود. ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكر في آيات اللَّه، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلًا وفطرةً وشرعًا»[1].

قال القرطبي: «نبه اللَّه تعالى بانتقالها من حال إلى حال، وتغيرها ووجودها بعد أن لم تكن بعد، على وحدانيته وكمال قدرته، وأن لها صانعًا قادرًا عالمًا، ودل على جواز البعث، لإيجاد النبات بعد الجفاف»[2].

وقال ابن القيم: «أمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه، يقال: أينعت الثمار؛ إذا نضجت وطابت؛ لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة؛ إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهي؛ لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها، ثم تلا: ﴿انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾.

ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات اللَّه المشهورة من العجائب، والدلالات الشاهدة لله بأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف؛ لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي تركه ألبتة، والتنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك»[3].

* * *

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٤٢-٤٤٤).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٤).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره، وأشركوا في عبادة اللَّه أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء اللَّه في العبادة، تعالى اللَّه عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن وإنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم إنما عبدوا الأصنام عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾[2] الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[4]. وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[5]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كما قال إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[6].

ومعنى الآية: أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفْرَد بالعبادة

---

(١) النساء: الآيات (١١٧-١٢٠).
(٢) الكهف: الآية (٥٠).
(٣) مريم: الآية (٤٤).
(٤) يس: الآيتان (٦٠و٦١).
(٥) سبأ: الآية (٤١).
(٦) الصافات: الآيتان (٩٥ و٩٦).

وحده لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولدًا ، كما يزعم من قاله من اليهود في العزير ، ومن قال من النصارى في المسيح ، وكما قال المشركون من العرب في الملائكة : إنها بنات اللَّه ، تعالى اللَّه عما يقولون علوًّا كبيرًا .

ومعنى قوله : ﴿وَخَرَقُوا﴾ أي : واختلقوا وائتفكوا ، وتخرّصوا وكذبوا ؛ كما قاله علماء السلف»[١] .

وقال ابن عاشور : «وهذا انتقال إلى ذكر شرك آخر من شرك العرب ، وهو جعلهم الجِنّ شركاءَ لله في عبادتهم كما جعلوا الأصنام شركاء له في ذلك . وقد كان دين العرب في الجاهليّة خليطًا من عبادة الأصنام ومن الصّابئيّة عبادة الكواكب وعبادة الشّياطين ، ومجوسيّة الفرس ، وأشياء من اليهوديّة والنّصرانيّة ، فإنّ العرب لجهلهم حينئذٍ كانوا يتلقّون من الأمم المجاورة لهم والّتي يرحلون إليها عقائد شتّى متقاربًا بعضها ومتباعدًا بعض ، فيأخذونه بدون تأمّل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم ، فإنّ العلم الصّحيح هو الذّائد عن العقول من أن تعشّش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة ، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهليّة عبادة الأصنام ، وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجنّ والشّياطين ونحو ذلك .

فكان العرب يثبتون الجنّ وينسبون إليهم تصرّفات ، فلأجل ذلك كانوا يتّقون الجنّ ، وينتسبون إليها ، ويتّخذون لها المَعاذات والرّقى ، ويستجلبون رضاها بالقرابين وترك تسميّة اللَّه على بعض الذبائح . وكانوا يعتقدون أنّ الكاهن تأتيه الجنّ بالخبر من السّماء ، وأنّ الشّاعر له شيطان يوحي إليه الشّعر ، ثمّ إذ أخذوا في تعليل هذه التصرّفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهيّة اللَّه تعالى تعلّلوا لذلك بأنّ للجنّ صلة باللَّه تعالى ، فلذلك قالوا : الملائكة بنات اللَّه مِن أمّهاتِ سَرَوات الجنّ ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[٢] ، وقال : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٣] . ومن أجل ذلك جَعَل كثير من قبائل

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٠-٣٠١) . (٢) الصافات : الآية (١٥٨) .
(٣) الصافات : الآيات (١٤٩-١٥٢) .

العرب شيئًا من عبادتهم للملائكة وللجنّ. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1]»[2].

وقال أبو حيان: «ومعنى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطاب وصواب، ولكن رميًا بقول عن عمىً وجهالة من غير فكر وروية. وفيه نص على قبح تقحمهم المجهلة وافترائهم الباطل»[3].

وقال السعدي: «يخبر تعالى: أنه -مع إحسانه لعباده، وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات؛ أن المشركين به من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء، يدعونهم ويعبدونهم، من الجن والملائكة الذين هم خلق من خلق اللَّه، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

فجعلوها شركاء، لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم. وكذلك (خرق المشركون) أي: ائتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله بنين وبنات، بغير علم منهم. ومن أظلم ممن قال على اللَّه بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه اللَّه عنه؟!! ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه تعالى، الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، وآفة وعيب»[4].

* * *

(١) سبأ: الآيتان (٤٠و٤١).
(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٠٤-٤٠٥).
(٣) البحر المحيط (٤/ ١٩٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

البديع: أي المبدع، وهو الخالق على غير مثال سابق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا شروع في الإخبار بعظيم قدرة اللَّه تعالى، وهي تفيد مع ذلك تقوية التّنزيه في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] فتتنزّل منزلة التعليل لمضمون ذلك التّنزيه بمضمونها أيضًا، وبهذا الوجه رَجَح فصلُها على عطفها، فإنّ ما يصفونه هو قولهم: إنّ له ولدًا وبنات؛ لأنّ ذلك التّنزيه يتضمّن نفي الشيء المنزّه عنه وإبطاله، فعُلّل الإبطال بأنّه خالقُ أعظم المخلوقات دلالة على القدرة، فإذا كنتم تدّعون بنوّة الجنّ والملائكة لأجل عظمتها في المخلوقات وأنتم لا ترون الجنّ ولا الملائكة، فلماذا لم تدّعوا البنوّة للسماوات والأرض المشاهدة لكم وأنتم ترونها وترون عظمها. فهذا الإبطال بمنزلة النّقض في علم الجدل والمناظرة»[2].

وقال ابن كثير: «أي: مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسّدّي. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولدًا عن شيئين متناسبين، واللَّه لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى

(١) الأنعام: الآية (١٠٠).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٠).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[١].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد؟ تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا»[٢].

وقال السعدي: «﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء. لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له؛ أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه. والولد لابد أن يكون من جنس والده، واللَّه خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي، على ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه، من النظام التام، والخلق الباهر. فإن في ذلك، دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣] وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤]»[٥].

* * *

---

(١) مريم: الآيات (٨٨-٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٢).

(٣) الملك: الآية (١٤).

(٤) يس: الآية (٨١).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤٥-٤٤٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الوكيل: الحافظ للشيء الذي يخوضه ويدفع الضرر عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم، وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك باللَّه، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه، وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به، ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها، فعند هذا ثبت أن إله العالم فرد واحد صمد، منزه عن الشريك والنظير والضد والند، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات، فعند هذا صرح بالنتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾، خالق كل ما سواه، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحدًا، فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم، ويعلم حاجتهم، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته، ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه، وإظهار فساد الشرك؛ علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه»[1].

وقال السعدي: «﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل له، ونهاية الحب. الرب الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه اللَّه الذي لا إله إلا هو؛ فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه.

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٢٦).

فإن هذا هو المقصود من الخلق، الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: جميع الأشياء، تحت وكالة اللَّه وتدبيره؛ خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا، ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله، وأما الباري -تبارك وتعالى-، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل. فلا يمكن أحدًا أن يستدرك على اللَّه، ولا يرى في خلقه خللًا ولا فطورًا، ولا في تدبيره نقصًا وعيبًا. ومن وكالته: أنه تعالى، توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم»[(٢)].

* * *

(١) الذاريات: الآية (٥٦).

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الإدراك: في اللغة اللحاق.

البصر: الحاسة التي تقع بها الرؤية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة؛ كما تواترت به الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: «من زعم أن محمدًا أبصر ربه فقد كذب؛ فإن اللَّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾».

وقد خالفها ابن عباس، فعنه إطلاق الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين..

وقال آخرون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة.

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية: إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب اللَّه وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2].

قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه -تبارك

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٢و٢٣).

(٢) المطففين: الآية (١٥).

وتعالى- . وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين. .

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك. فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنين، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1]. وفي صحيح مسلم: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[2] ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا»[3].

وقال القاسمي: «كون المنفي من الإدراك في هذه الآية هو الإدراك الدنيوي خاصة، لا يحتاج إلا حجة ولا برهان. ومن فهم من بعض الفرق -المعتزلة- من هذه الآية أن المنفي هو الإدراك في النشأتين، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المتواترة. أما الكتاب فمثل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4]. وأما السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال: **إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[5]**»[6].

---

(١) طه: الآية (١١٠).

(٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٥٨-٢٠١)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٨٩/ ٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٥٧١-٥٧٢/ ١١٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢-١٢٦٣/ ٣٨٤١)، وفي الباب عن علي ﵁.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٤) القيامة: الآيتان (٢٢ و٢٣).

(٥) ق: الآية (٣٩).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٦٦٣-٦٦٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية، أشار في مواضع أخر إلى أن نفي الإدراك المذكور هنا لا يقتضي نفي مطلق الرؤية، كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(١)]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(٢)]، والحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه اللّه الكريم، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(٣)]، يفهم منه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه، وهو كذلك»[(٤)].

قال ابن القيم وهو يتحدث عن رؤية المؤمنين لربهم في كتابه «حادي الأرواح»:
«هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا وأعلاها خطرًا، وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل اللّه منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول اللّه عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون. وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون. أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين، وأعداء الرسول وحزبه».

ثم ذكر الأدلة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، إلى أن قال:

«الدليل السادس: قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة، وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله؛ إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٢ و ٢٣). (٢) يونس: الآية (٢٦).
(٣) المطففين: الآية (١٥).
(٤) أضواء البيان (٢/٢٠٦).

على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها ؛ فإن اللَّه سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية. وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب -تبارك وتعالى- بالعدم إذا تضمن أمرًا وجوديًا ؛ كتمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ؛ ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرًا ثبوتيًا، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه. فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أنه لا يرى بحال ؛ لم يكن في ذلك مدح ولا كمال، لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب ﷻ يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذًا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به ؛ كما كان المعنى في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾[1] أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[2] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3] أنه كامل العدل، وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[4] أنه كامل القيومية. فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا﴾[5] فلم ينف موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ إنا لمرئيون ؛ فإن موسى صلوات اللَّه وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾، وأخبر اللَّه سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي

---

(١) يونس: الآية (٦١).
(٢) ق: الآية (٣٨).
(٣) الكهف: الآية (٤٩).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٥) الشعراء: الآيتان (٦١ و ٦٢).

ﵟٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰﵞ[١] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به. وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية؛ قال ابن عباس: «ﵟلَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُﵞ: لا تحيط به الأبصار». قال قتادة: «هو أعظم من أن تدركه الأبصار». وقال عطية: «ينظرون إلى اللَّه ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم، فذلك قوله تعالى: ﵟلَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖﵞ فالمؤمنون يرون ربهم -تبارك وتعالى- بأبصارهم عيانًا، ولا تدركه أبصارهم بمعنى: أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف اللَّه ﷻ بأن شيئًا يحيط به، وهو بكل شيء محيط، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علمهم، ولا يحيطون بعلمه، ونظير هذا استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﵟلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖﵞ[٢] وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها؛ لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير، ولا شبيه ولا مثل؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته؛ فات أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه، فقوله: ﵟلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖﵞ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته. وقوله: ﵟلَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُﵞ من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك. وقوله: ﵟهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞﵞ[٣] من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته بل خلقهم خارجا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم علمًا وقدرةً وإرادةً وسمعًا وبصرًا. فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا. وتأمل حسن هذه المقابلة لفظا ومعنى بين قوله: ﵟلَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖﵞ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه،

---

(١) طه: الآية (٧٧).
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) الحديد: الآية (٤).

اللطيف في عظمته، العالي في قربه القريب في علوه، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾»[١].

قال الإمام الطبري: «وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فإنه يقول: والله -تعالى ذكره- الميسر له من إدراك الأبصار، والمتأتي له من الإحاطة بها رؤية ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه، وإحاطتها به، ويتعذر عليها. الخبير: يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه فلطف بقدرته، فهيأ أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبر بعلمه كيف تدبيرها وشئونها، وما هو أصلح بخلقه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رؤية المؤمنين ربهم -تبارك وتعالى- في الآخرة

* عن مسروق قال: «كنت متكئًا عند عائشة. فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين! أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[٤] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض**» فقالت: أولم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٥]؟ أولم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٦]؟. قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية. والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[٧].

---

(١) حادي الأرواح (ص: ١٩٦ و ٢٠١-٢٠٣).
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٠٤).
(٣) التكوير: الآية (٢٣).
(٤) النجم: الآية (١٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٠٣).
(٦) الشورى: الآية (٥١).
(٧) المائدة: الآية (٦٧).

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على اللَّه الفرية، واللَّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(١)]»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

الفرية: الكذب. فرى كذبًا فريًا وافتراءً وافتراه، واختلقه. ورجل فِريّ ومفرى وإنه لقبيح الفرية.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾» قال النووي تبعًا لغيره: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولا وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقًا. والمراد بالإدراك في الآية الإحاطة، وذلك لا ينافي الرؤية، انتهى. وجزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة، فإنه قال في كتاب التوحيد من صحيحه: النفي لا يوجب علمًا، ولم تحك عائشة أن النبي ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه، وإنما تأولت الآية، انتهى. وهو عجيب، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ. فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكور قال مسروق: وكنت متكئًا فجلست فقلت: ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[(٣)] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فقال: «إنما هو جبريل» وأخرجه ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بهذا الإسناد. فقالت: أنا أول من سأل رسول اللَّه ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول اللَّه، هل رأيت ربك؟ فقال: «**لا، إنما رأيت جبريل منهبطًا**». نعم احتجاج عائشة بالآية المذكورة خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: «رأى محمد ربه». قلت: أليس اللَّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؟

---

(١) النمل: الآية (٦٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٩-٥٠)، والبخاري (٨/ ٧٨٠/ ٤٨٥٥)، ومسلم (١/ ١٥٩/ ١٧٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٣٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧١/ ١١٥٣٢) كلهم من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة.

(٣) النجم: الآية (١٣).

قال: «ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين»[١]. وحاصله: أن المراد بالآية نفي الإحاطة به عند رؤياه، لا نفي أصل رؤياه واستدل القرطبي في المفهم على أن الإدراك لا ينافي الرؤية بقوله تعالي حكاية عن أصحاب موسى ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾[٢] وهو استدلال عجيب لأن متعلق الإدراك في آية (الأنعام): البصر، فلما نفي كان ظاهره نفي الرؤية! بخلاف الإدراك الذي في قصة موسى، ولولا وجود الأخبار بثبوت الرؤية ما ساغ العدول عن الظاهر. ثم قال القرطبي: الإبصار في الآية جمع محلى بالألف واللام فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعًا في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٣] فيكون المراد الكفار، بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٤] قال: وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى. وهو استدلال جيد. وقال عياض: رؤية اللَّه ﷻ جائزة عقلًا، وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة، وأما في الدنيا فقال مالك: إنما لم ير سبحانه في الدنيا لأنه باقٍ، والباقي لا يرى بالفاني. فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية؛ رأوا الباقي بالباقي. قال عياض: وليس في هذا الكلام استحالة الرؤية، إلا من حيث القدرة. فإذا قدر اللَّه من شاء من عباده عليها لم يمتنع. قلت: ووقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[٥]، وأخرجه ابن خزيمة أيضًا من حديث أبي أمامة ومن حديث عبادة بن الصامت[٦]. فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلًا؛ فقد امتنعت سمعًا. لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢٧٩) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٧) وضعفه الشيخ الألباني في 'ظلال الجنة' (١/ ١٩٠). (٢) الشعراء: الآيتان (٦١ و ٦٢).

(٣) المطففين: الآية (١٥). (٤) القيامة: الآيتان (٢٢ و ٢٣).

(٥) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٢٤٥/ ١٦٩) من حديث ابن عمر ﷺ بلفظ: «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه ﷻ حتى يموت».

(٦) أخرجه عن عبادة بن الصامت ﷺ: أحمد (٥/ ٣٢٤)، وأبو داود (٤/ ٤٩٥-٤٩٦/ ٤٣٢٠) دون الشاهد، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩/ ٧٧٦٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٦/ ٤٢٨)، وقال الشيخ الألباني: «إسناده جيد». وأخرجه عن أبي أمامة ﷺ: أبو داود (٤/ ٤٦٧/ ٤٣٢٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٩-١٣٦٣/ ٤٠٧٧)، وابن خزيمة (٢/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٢٧٠) في كتاب التوحيد، وابن أبي عاصم (١/ ١٨٦-١٨٧/ ٤٢٩)، وقال الشيخ الألباني: «حديث صحيح، رجاله ثقات».

لا يدخل في عموم كلامه. وقد اختلف السلف في رؤية النبي ﷺ ربه؛ فذهبت عائشة وابن مسعود إلى إنكارها، واختلف عن أبي ذر، وذهب جماعة إلى إثباتها، وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف: أن محمدًا رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها. وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة. وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه. ثم اختلفوا هل رآه بعينه أو بقلبه؟ وعن أحمد كالقولين. قلت: جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها. فمن ذلك ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وصححه الحاكم أيضًا من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟!»[1]، وأخرجه ابن خزيمة بلفظ: «إن اللَّه اصطفى إبراهيم بالخلة» الحديث[2]. وأخرج ابن إسحاق من طريق عبد اللَّه بن أبي سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس: هل رأى محمد ربه؟! فأرسل إليه أن نعم. ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[3] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[4] قال: «رأى ربه بفؤاده مرتين»[5]. وله من طريق عطاء عن ابن عباس قال: «رآه بقلبه»[6]. وأصرح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء أيضًا عن ابن عباس قال: لم يره رسول اللَّه ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه. وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة؛ بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب. ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالمًا باللَّه على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه

---

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٩)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٤٧٩/ ٢٧٢)، وابن أبي عاصم (١/ ١٩٢/ ٤٤٢)، وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط البخاري»، وصححه الحاكم (١/ ٦٥)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: ابن خزيمة (٢/ ٤٨٥/ ٢٧٧) التوحيد، وابن أبي عاصم (١/ ١٨٩/ ٤٣٦)، وقال الألباني: «إسناده صحيح موقوف».

(٣) النجم: الآية (١١).

(٤) النجم: الآية (١٣).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٣)، ومسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٦[٢٨٥])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٥) موقوف.

(٦) أخرجه: مسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٦[٢٨٤]).

رآه بقلبه: أن الرؤية التي حصلت له، خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلًا ولو جرت العادة بخلقها في العين. وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: رأى محمد ربه[١]. وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «نور أنى أراه»، ولأحمد عنه قال: «رأيت نورًا»، ولابن خزيمة عنه قال: «رآه بقلبه ولم يره بعينه». وبهذا يتبين مراد أبي ذر بذكره النور. أي: النور حال بين رؤيته له ببصره. وقد رجح القرطبي في 'المفهم' قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات، فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب في الاستدلال له بما يطول ذكره، وحمل ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة عن ابن عباس على أن الرؤيا وقعت مرتين؛ مرة بعينه ومرة بقلبه، وفيما أوردته من ذلك مقنع.

وممن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد، فروى الخلال في كتاب السنة عن المروزي قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية». فبأي شيء يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: «رأيت ربي» قول النبي ﷺ أكبر من قولها. وقد أنكر صاحب الهدي على من زعم أن أحمد قال رأى ربه بعيني رأسه. قال: وإنما قال مرة رأى محمد ربه، وقال مرة بفؤاده. وحكى عنه بعض المتأخرين: رآه بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي فإن نصوصه موجودة»[٢].

* عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورًا»[٣].

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة (٢/ ٤٨٧/ ٢٨٠)، وابن أبي عاصم (١/ ١٨٨/ ٤٣٢). وقال محقق كتاب التوحيد لابن خزيمة: «إسناده صحيح موقوف». (٢) الفتح (٨/ ٧٨١-٧٨٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٧)، ومسلم (١/ ١٦١/ ١٧٨[٢٩٢])، والترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٢٨٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يقول في قوله ﷺ: «**نور أنى أراه**»: معناه كان ثم نور، وحال دون رؤيته نور فأنى أراه؟ قال: ويدل عليه: أن في بعض ألفاظ الصحيح: هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت نورا».

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صحفه بعضهم فقال: «نورًا إني أراه» على أنها ياء النسب؛ والكلمة كلمة واحدة. وهذا خطأ لفظا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ؛ أنهم لما اعتقدوا أن رسول اللَّه ﷺ رأى ربه -وكان قوله: «أنى أراه؟» كالإنكار للرؤية- حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد له إجماع الصحابة، على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس من ذلك. وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه رآه؛ ولم يقل: بعيني رأسه. ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس.

ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**حجابه النور**»[1] فهذا النور هو -واللَّه أعلم- النور المذكور في حديث أبي ذر: «**رأيت نورا**»»[2].

* عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول اللَّه -تبارك وتعالى-: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم** عز وجل»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٧٩)، وابن ماجه (١/ ٧٠/ ١٩٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢-٣٣٣)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢) و(٥/ ٢٦٧/ ٣١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١-٣٦٢/ ١١٢٣٤)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧)، وفي الباب عن أبي سعيد وأنس وبلال وغير واحد من الصحابة.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «ثبت بالفعل إمكان رؤيته تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة؛ فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجودا كان أحق أن يرى، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه؛ لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه. يوضحه: أن تعذر الرؤية إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي؛ والرب سبحانه أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه، فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة لأنها دائمة، فقويت على رؤيته تعالى، وإذا جاز أن يرى، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم؛ أن يكون المرئي مقابلا للرائي، مواجها له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك. وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي؛ لزم ضرورة أن يكون مرئيًا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح على أنهم إنما يرونه سبحانه من فوقهم، لا من تحتهم، كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار ﷻ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[1] ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**»[2] فلا يجتمع للإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة، ولهذا فإن الجهمية المغول تنكر علوه على خلقه، ورؤية المؤمنين له في الآخرة؛ ومخانيثهم يقرون بالرؤية وينكرون العلو، وقد ضحك جمهور العقلاء من القائلين بأن الرؤية تحصل من غير مواجهة المرئي ومباينته، وهذا رد لما هو مركوز في الفطر والعقول.

قال المنكرون: الإنسان يرى صورته في المرآة، وليست صورته في جهة منها.

قال العقلاء: هذا هو التلبيس؛ فإنه إنما يرى خيال صورته، وهو عرض منطبع في الجسم الصقيل، هو في جهة منها؛ ولا يرى حقيقة صورته القائمة به، والذين

---

(١) يس: الآية (٥٨).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٦٥-٦٦/ ١٨٤)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٣)، وضعيف الترغيب (٢٢٤٤).

قالوا : يرى من غير مقابلة ، ولا يرى حقيقة صورته القائمة به ، والذين قالوا : يرى من غير مقابلة ولا مباينة ؛ قالوا : الصحيح الرؤية في الوجود ؛ وكل موجود يصح أن يرى ، فالتزموا رؤية الأصوات والروائح والعلوم والإرادات والمعاني كلها ، وجواز أكلها وشربها وشمها ولمسها . فهذا منتهى عقولهم»[١] .

* * *

(١) مختصر الصواعق (ص: ٢٠١-٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بصائر: جمع البصيرة وهي البينة والدلالة التي يبصر بها الحق ويميز عن الباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «هذا أمر من الله -جل ثناؤه- نبيه محمدا ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبههم لهذه الآيات من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾... إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ على حججه عليهم، وعلى تبيين خلقه معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذبين بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاءهم من عند الله، قل لهم يا محمد: قد جاءكم أيها العادلون بالله، والمكذبون رسوله: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر... وقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فمن تبين حجج الله وعرفها، وأقر بها، وآمن بما دلته عليه من توحيد الله، وتصديق رسوله، وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بغى الخير ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يقول: ومن لم يستدل بها ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمى عن دلالتها التي تدل عليها، يقول: فنفسه ضر، وإليها أساء، لا إلى غيرها.

وأما قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يقول: وما أنا عليكم برقيب، أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم؛ وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»(١).

قال الرازي: «المقصود من هذه الآية بيان ما يتعلق بالرسول وما لا يتعلق به.

---
(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٠٤-٣٠٥).

أما القسم الأول: وهو الذي يتعلق بالرسول، فهو الدعوة إلى الدين الحق، وتبليغ الدلالة والبينات فيها، وهو أنه ﷺ ما قصر في تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها، وهو المراد من قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يتعلق بالرسول، فإقدامهم على الإيمان وترك الكفر، فإن هذا لا يتعلق بالرسول، بل يتعلق باختيارهم، ونفعه وضره عائد إليهم، والمعنى: من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر، وإياها نفع، ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي، وإياها ضر بالعمى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها. إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم»[١].

* * *

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٤٠-١٤١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نصرف: التصريف: نقل الشيء وتقليبه من حال إلى حال.

الدرس: أصله استمرار التلاوة وتكريرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب، وقارأتهم وتعلمت منهم.

هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وغيرهم..

وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن كذبهم وعنادهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] الآية، وقال تعالى إخبارًا عن زعيمهم وكاذبهم: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[2].

وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فللّه تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء؛ كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾[3] الآية، وقال

---

(١) الفرقان: الآيتان (٤و٥).

(٢) المدثر: الآيات (١٨-٢٥).

(٣) البقرة: الآية (٢٦).

تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٣). وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٤)، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن اللَّه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَارَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾. قال التميمي، عن ابن عباس: ﴿دَرَسْتَ﴾ أي: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسّدّي، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم»(٥).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الآية، يعني ليزعموا أن النبي ﷺ إنما تعلم هذا القرءان بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرءان من جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة، وقد أوضح اللَّه تعالى بطلان افترائهم هذا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(٦)، وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾(٧)، ومعنى ﴿يُؤْثَرُ﴾: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا

---

(١) الحج: الآيتان (٥٣و٥٤).
(٢) المدثر: الآية (٣١).
(٣) الإسراء: الآية (٨٢).
(٤) فصلت: الآية (٤٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٦) النحل: الآية (١٠٣).
(٧) المدثر: الآيات (٢٤-٢٦).

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[2].

قال السعدي: «مجمل معنى الآية: ومثل هذا التنويع البديع في عرض الدلائل الكونية، نعرض آياتنا في القرآن منوعة مفصلة، لنقيم الحجة بها على الجاحدين، فلا يجدوا الاختلاق والكذب، فيتهموك بأنك تعلمت من الناس، لا من اللَّه، ولنبين ما أنزل إليك من الحقائق، من غير تأثر بهوى، لقوم يدركون الحق، ويذعنون له»[3].

قال محمد رشيد رضا: «المعنى وكذلك نصرف الآيات على أنواع شتى؛ ليهتدي بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام، وليقول هؤلاء المشركون الجاحدون المعاندون منهم والمقلدون: قد درست من قبل يا محمد وتعلمت، وليس هذا بوحي منزل كما زعمت، وقد قالوا مثل هذا إفكًا وزورًا، وزعموا أنه تعلم من غلام رومي كان يصنع السيوف بمكة، قيل: إنه كان يختلف إليه كثيرًا، وذلك قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[4] أو ليقولوا: دارست العلماء وذاكرتهم وجئتنا بما تلقيته عنهم، أو درست هذه العقائد ومحيت بمعنى أنها أساطير قديمة قد رثت وخلقت، وهاتان القراءتان في معنى قوله تعالى في سورة (الفرقان): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[5] ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[6] وأظهر منه في تأييد القراءة الأخيرة قوله تعالى -حكاية عن قوم هود- في (الشعراء): ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[7] وحكمة القراءات الثلاثة حكاية أقوال ثلاث فئات من المشركين وهو من إيجاز القرآن العجيب في الكلم والرسم»[8].

---

(١) الفرقان: الآيات (٤-٦).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٠٦).
(٣) تفسير السعدي (٢/ ٤٥١).
(٤) النحل: الآية (١٠٣).
(٥) الفرقان: الآية (٤).
(٦) الفرقان: الآية (٥).
(٧) الشعراء: الآيات (١٣٦-١٣٨).
(٨) تفسير المنار (٧/ ٦٥٩).

وقال القاسمي: «اللام الثانية حقيقة، والأولى لام العاقبة والصيرورة. أي: لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا: درست؛ كهي في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] وهم لم يلتقطوه للعداوة، وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة. فكذلك الآيات صرّفت للتبيين، ولم تصرف ليقولوا: درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات، كما حصل التبيين، فشبه به.

قال الخفاجي: وجَوّز أن يكون على الحقيقة أبو البقاء وغيره؛ لأن نزول الآيات لإضلال الأشقياء، وهداية السعداء. قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾[2].

وقال الرازي: حمل اللام على العاقبة بعيد؛ لأنه مجاز. وحمله على لام الغرض حقيقة، والحقيقة أقوى من المجاز. وإن المراد منه عين المذكور في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾. قال: ومما يؤكد هذا التأويل: قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: إنا ما بيناه إلا لهؤلاء. فأما الذين لا يعلمون، فما بينا هذه الآيات لهم، وإذ لم يكن بيانًا لهم ثبت جعله ضلالًا لهم»[3].

* * *

(١) القصص: الآية (٨).

(٢) البقرة: الآية (٢٦).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٦٧٤).

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الاتباع: اقتفاء الأثر. والمراد هنا: لزوم الوحي.

الإيحاء: إنزال الرسالة على الرسول بواسطة الملك.

الإعراض: الانصراف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتّبع طريقته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مِرْية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح اللَّه لك، وينصرك ويُظفرك عليهم. واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعًا»[1].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم ينسبونه في إظهار هذا القرآن إلى الافتراء، أو إلى أنه يدارس أقوامًا، ويستفيد هذه العلوم منهم، ثم ينظمها قرآنًا ويدعي أنه نزل عليه من اللَّه تعالى؛ أتبعه بقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾لئلا يصير ذلك القول سببا لفتوره في تبليغ الدعوة والرسالة، والمقصود تقوية قلبه وإزالة الحزن الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة، ونبه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على أنه تعالى لما كان واحدًا في الإلهية؛ فإنه يجب طاعته، ولا يجوز الإعراض عن تكاليفه بسبب جهل الجاهلين، وزيغ الزائغين»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠٧).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٤٤).

وقال **محمد رشيد رضا**: «بعد أن بين تعالى لرسوله أن الناس فريقان: فريق قد فسدت فطرتهم، ولم يبق فيهم استعداد للاهتداء بتلك البصائر المنزلة، ولا للعلم بما فيها من تصريف الآيات البينة، فحظهم منها مكابرتها، وجحود تنزيلها. وفريق يعلمون، وبالبيان يهتدون، أمره أن يتبع ما أوحي إليه من ربه بالبيان له والعمل به، مشيرا بإضافة اسم الرب إلى ضميره، إلى تعظيم شأنه وتكبيره، وإلى كون الوحي إليه ﷺ تربية له في نفسه، وناصبا إياه إماما لجميع أبناء جنسه، يتربى به من وفق منهم لاتباعه، وذلك أن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلم، ويأتمر بما يأمر، وقرن هذا الأمر بكلمة توحيد الألوهية، لبيان وجوب ملازمته لتوحيد الربوبية، فكما أن الخالق المربي للأشباح بما أنزل من الرزق، وللأرواح بما أنزل من الوحي، واحد لا شريك له في الخلق ولا في الهداية؛ فالواجب أن يكون الإله المعبود واحدا لا شريك له في الجزاء على الأعمال بشفاعة ولا ولاية. فالأمر هنا بالاتباع ليس الغرض منه مجرد المداومة عليه، كما هو الشأن في أكثر من يأمر بالعمل من هو متلبس به، وإنما الغرض منه بيان كونه من متممات التبليغ، ثم عطف على هذا الأمر المقرون بكلمة التوحيد، أمره ﷺ بالإعراض عن المشركين، بأن لا يبالي بإصرارهم على الشرك، ولا بمثل قولهم له دارست أو درست؛ لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص، لا يضره الباطل بخرافات الأعمال ولا بزخارف الأقوال»[1].

قال **تقي الدين الهلالي**: «قوله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ وفي ضمنه خطاب لأمته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يشمل الوحي كله، سواء أكان قرآنًا أم حديثًا، فإن الحديث يوحى إلى النبي ﷺ أيضًا، ولكن لا يسمى قرآنًا لقوله تعالى في سورة (النجم): ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2]»[3].

وقال **القاسمي**: «قال أبو مسلم: أريد بالإعراض الهجران لهم دون الإنذار وترك الموعظة. وقال المهايمي: أي: لا تحزن عليهم إذا أصروا على الشرك والعمى مع هذه البصائر؛ فإنه تعالى أراد بقاءهم على الشرك والعمى؛ لاقتضاء

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٦١-٦٦٢).
(٢) النجم: الآيتان (٣ و ٤).
(٣) سبيل الرشاد (١/ ١٩١).

استعدادهم ذلك»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن ما أمر به الرسول مثل ما أمر به اللَّه تعـالى

* عن موسى بن طلحة عن أبيه ﷺ قال: مررت مع رسول اللَّه ﷺ بقوم على رؤوس النخل. فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» فقالوا: يلقحونه. يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما أظن يغني ذلك شيئًا» قال: فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول اللَّه ﷺ بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه. فإني إنما ظننت ظنًا. فلا تؤاخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن اللَّه شيئًا، فخذوا به. فإني لن أكذب على اللَّه ﷻ»[2].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفي رواية: «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر». وفي رواية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

قال العلماء: قوله ﷺ: «من رأيي» أي: في أمر الدنيا ومعايشها لا على التشريع. فأما ما قاله باجتهاده ﷺ، ورآه شرعًا، يجب العمل به. وليس إبار النخل من هذا النوع؛ بل من النوع المذكور قبله، مع أن لفظة (الرأي) إنما أتى بها عكرمة على المعنى لقوله في آخر الحديث: قال عكرمة: «أو نحو هذا»، فلم يخبر بلفظ النبي ﷺ محققًا. قال العلماء: ولم يكن هذا القول خبرًا، وإنما كان ظنًّا؛ كما بينه في هذه الروايات. قالوا: ورأيه ﷺ في أمور المعايش وظنه كغيره، فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك، وسببه تعلق هممهم بالآخرة ومعارفها. واللَّه أعلم»[3].

وقال شيخ الإسلام: «فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن اللَّه أن نأخذ به؛ فإنه لن يكذب على اللَّه، فهو أتقانا لله، وأعلمنا بما يتقى، وهو أحق أن يكون

(١) محاسن التأويل (٦/ ٦٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٣٥/ ٢٣٦١)، وابن ماجه (٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧٠).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٩٥).

آخذًا بما يحدثنا عن اللَّه، فإذا أخبره اللَّه بوعد كان علينا أن نصدق به، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا، ولم يكن لنا أن نشك فيه، وهو -بأبي- أولى وأحرى أن لا يشك فيه؛ لكن قد يظن ظنًّا، كقوله: «**إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن**» وإن كان أخبره به مطلقًا فمستنده ظنون، كقوله في حديث ذي اليدين: «**ما قصرت الصلاة ولا نسيت**»[1]..

ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ، كما قال: «**فإذا حدثتكم عن اللَّه بشيء فخذوا به، فإني لن أكذب على الله**». ولولا ذلك لما قامت الحجة به؛ فإن كونه رسول اللَّه يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن اللَّه، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه. فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن اللَّه وأقر عليه لم يكن كلما يخبر به عن الله»[2].

وقال تقي الدين الهلالي: «فكل ما تكلم به النبي ﷺ في أمور الدين، فهو من اللَّه تعالى، وأهم أمور الدين توحيد اللَّه تعالى في ربوبيته، فلا رب غيره، وفي عبادته فلا يعبد غيره، وفي أسمائه وصفاته فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع فلا يتبع إلا وحيه وهو القرآن والحديث الثابت»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥٩)، والبخاري (٣/ ١٢٦/ ١٢٢٨)، ومسلم (١/ ٤٠٣/ ٥٧٣)، وأبو داود (١/ ٦١٢-٦١٣/ ١٠٠٨)، والترمذي (٢/ ٢٤٧/ ٣٩٩)، والنسائي (٣/ ٢٤-٢٥/ ١٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٣٨٣/ ١٢١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٨٧-١٩١).

(٣) سبيل الرشاد (١/ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾ أي: حافظًا تحفظ أعمالهم وأقوالهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾[1]، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[3]»[4].

وقال القاسمي: «قال القاشاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾: أي كل ما يقع، فإنما يقع بمشيئة اللّه، ولا شك أن استعداداتهم التي وقعوا بها في الشرك، وأسباب ذلك، من تعليم الآباء والعادات وغيرها أيضًا؛ واقعة بإرادة من اللّه، وإلا لم تقع. فإن آمنوا بذلك فبهداية اللّه، وإلا فهون على نفسك، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال، وما أنت بموكل عليهم بالإيمان. ولا ينافي هذا ما قال في تعييرهم فيما بعد بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾[5] لأنهم قالوا ذلك عنادا ودفعا للإيمان بذلك التعلل، لا اعتقادًا. فقولهم ذلك، وإن كان صدقًا في نفس الأمر، لكنهم كانوا به كاذبين، مكذبين للرسول، إذ لو صدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضًا بإرادة اللّه، وكذا كل دين، فلم يعادوا أحدا. ولو علموا أن كل شيء لا يقع إلا بإرادة اللّه لما بقوا مشركين؛ بل كانوا موحدين، لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم،

---

(١) الشورى: الآية (٤٨).
(٢) الغاشية: الآيتان (٢١و٢٢).
(٣) الرعد: الآية (٤٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٠٧).
(٥) الأنعام: الآية (١٤٨).

فلذلك عيرهم به، لا لأنه ليس كذلك في نفس الأمر، فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله، وأنه كما أراد شركهم في الزمان السابق، لم يرد إيمانهم الآن، إذ ليس كل منهم مطبوع القلب، بدليل إيمان من آمن منهم. فلم لا يجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد، واحتجوا بالعادة، وما وجدوا من آبائهم فأشركوا، ثم إذا سمعوا الإنذار، وشاهدوا آيات التوحيد، اشتاقوا إلى الحق، وارتفع حجابهم فوحدوا. فلذلك وبخهم على قولهم، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائما، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم، لعل من كان فيه أدنى استعداد، إذا انقطع عن حجته، وسمع وعيد من قبله من المنكرين، ارتفع حجابه، ولان قلبه فآمن، ويكون ذلك توفيقًا له، ولطفًا في شأنه، فإن عالم الحكمة يبتنى على الأسباب. وأما من كان من الأشقياء المردودين، المختوم على قلوبهم، فلا يرفع لذلك رأسًا، ولا يلقي إليه سمعًا. انتهى.

وليكن هذا على بال منك، فالمقام دقيق جدًّا، وسيأتي بيانه في الآية الآتية إن شاء الله تعالى»[1].

وقال ابن عطية: «في ظاهرها: رد على المعتزلة القائلين: إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وإن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله ﷻ»[2].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه لا قدرة لأحد على إزالة الكفر عنهم؛ ختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول ﷺ، وذلك أنه تعالى بين له قدر ما جعل إليه، فذكر أنه تعالى ما جعله عليهم حفيظا ولا وكيلًا؛ على سبيل المنع لهم، وإنما فوض إليه البلاغ بالأمر والنهي في العمل والعلم، وفي البيان بذكر الدلائل والتنبيه عليها، فإن انقادوا للقبول فنفعه عائد إليهم، وإلا فضرره عائد عليهم، وعلى التقديرين فلا يخرج ﷺ من الرسالة والنبوة والتبليغ»[3].

* * *

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٦٧٧-٦٧٨).

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٣٢).

(٣) تفسير الرازي (١٣/ ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]

★ غريب الآية:

عدوا: أي: ظلمًا. يقال: عدا فلان على فلان: إذا ظلمه واعتدى عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ينهى اللَّه المؤمنين عن أمر كان جائزا، بل مشروعا في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثانا وآلهة مع اللَّه، التي يتقرب إلى اللَّه بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة وسب وقدح، نهى اللَّه عن سب آلهة المشركين؛ لأنهم يتحمسون لدينهم، ويتعصبون له؛ لأن كل أمة زين اللَّه لهم عملهم، فرأوه حسنًا، وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق. حتى إنهم يسبون اللَّه رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم. ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم إلى اللَّه يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة: دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر»[2].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ولا تسبوا أيها المؤمنون معبوداتهم التي يدعونها من دون اللَّه لجلب

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٥٣-٤٥٤).

النفع لهم أو دفع الضر عنهم، بوساطتها وشفاعتها عند اللَّه لهم، فيترتب على ذلك سبهم لله ﷻ عدوًا؛ أي: تجاوزًا منهم في السباب والمشاتمة التي يغيظون بها المؤمنين إلى ذلك، بغير علم منهم أن ذلك يكون سبًا لله سبحانه؛ لأنهم وهم مؤمنون باللَّه لا يتعمدون سبه ابتداء عن روية وعلم، بل يسبونه بوصف لا يؤمنون به، كسبهم لمن أمر النبي ﷺ بتحقير آلهتهم، أو لمن يقول: إنها لا تشفع ولا تنفع، أو يقولون قولًا يستلزم سبه، بحيث يفهم ذلك منهم وإن لم يعلم ذلك قائله، وهذا مما يجب اجتناب سببه حتى على القول بأن لازم المذهب ليس بمذهب، أو يقابلون الساب لمعبودهم بمثل سبه، يريدون محض المجازاة فيتجاوزونها؛ كما يقع كثيرًا من المختلفين في الدين والمذهب، يسب نصراني نبي المسلم فيسب المسلم نبيه، ويريد عيسى عليهما الصلاة والسلام، ويسب شيعي يلاحي سنّيًا ويماريه أبا بكر، فيسب عليًا ﷺ، والأول يعلم أن سب عيسى كفر كسب محمد ﷺ، والثاني يعلم أن سب علي فسق كسب أبي بكر ﷺ، ومثل هذا يقع كثيرًا، بل كثير ما يتساب أخوان من أهل دين واحد، يسب أحدهما أب الآخر أو معبوده فيقابله بمثل سبه، يغيظه بسب أبيه مضافًا إليه، ويعده إهانة له فيسبه مضافًا إلى أخيه إهانة لأخيه. وهذا كله من حب الذات والجهل الحامل على المعاقبة على الجريمة بارتكابها عينها، يهين والده المعظم عنده، ومعبوده الذي هو أعظم منه احتماء لنفسه وعصبية لها. وقد جاء في الصحيحين عن عبد اللَّه بن عمرو مرفوعًا: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**». قالوا يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**»»[1].

قال ابن القيم: «حرم اللَّه تعالى سب آلهة المشركين- مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة لآلهتهم؛ لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز؛ لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذه الآية: دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرام، ومخالفة

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٦٤).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٣٧).

حق، ووقوع في باطل أشد؛ كان الترك أولى به، بل كان واجبًا عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج اللَّه، المتصدين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم والبكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه، وفعلوا غيره من المنكرات؛ عنادًا للحق وبغضًا لاتباع المحقين، وجراءة على اللَّه سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة، وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهِجِّيراه، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البديعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة؛ لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادرا على ضعيف من ضعفاء المسلمين، من تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه»[1].

قال ابن عطية: «حكمها -أي الآية- على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ واللَّه ﷻ؛ فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم، ولا يتعرض ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه»[2].

قال الرازي: «هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب. وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب؛ لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر؛ يكفي في القدح في إلهيتها، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها»[3].

قال محمد رشيد رضا: «استشكل بعضهم النهي بما ورد في الكتاب العزيز من

(١) فتح القدير (٢/ ٢١٤).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٣٢).
(٣) تفسير الرازي (١٣/ ١٤٨).

وصف آلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تقرب ولا تشفع، وأنها هي وإياهم حصب جهنم، وتسميتها بالطاغوت وهو مبالغة من الطغيان، وجعل عبادتها طاعة للشيطان. وقد يجاب عنه بأن هذا لا يسمى سبا، وإن زعموه جدلا؛ لأن السب الشتم، وهو ما يقصد به الإهانة والتعيير، والغرض من ذكر معبوداتهم بذلك بيان الحقائق، والتنفير عن الخرافات والمفاسد، وأجيب على تقدير التسليم بأن سب ما يستحق السب جائز في نفسه، وإنما يحظر إذا أدى إلى مفسدة أكبر منه، والحال هنا كذلك»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نهي الإنسان عن أن يكون سببا في سب اللَّه أو رسوله أو الوالدين أو غيرهم

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «هذا الحديث أصل في قطع الذرائع، وأن من آل فعله إلى محرم -وإن لم يقصده- فهو كمن قصده وتعمده في الإثم، ألا ترى أنه عليه السلام نهى أن يلعن الرجل والديه؟ فكان ظاهر هذا أن يتولى الابن لعنهما بنفسه، فلما أخبر النبي عليه السلام أنه إذا سب أبا الرجل وسب الرجل أباه وأمه؛ كان كمن تولى ذلك بنفسه، وكان ما آل إليه فعل ابنه كلعنه في المعنى؛ لأنه كان سببه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] وهذه من إحدى آيات قطع الذرائع في كتاب اللَّه تعالى، والثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾[4]، والثالثة: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[5]»[6].

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٦٦٦-٦٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٤)، والبخاري (١٠/ ٤٩٤/ ٥٩٧٣)، ومسلم (١/ ٩٢/ ٩٠)، وأبو داود (٥/ ٣٥٢/ ٥١٤١)، والترمذي (٤/ ٢٧٦/ ١٩٠٢).

(٣) الأنعام: الآية (١٠٨).

(٤) البقرة: الآية (١٠٤).

(٥) النور: الآية (٣١).

(٦) شرح البخاري (٩/ ١٩٢-١٩٣).

وقال ابن أبي جمرة: «فيه دليل على أن كل ما يكون محتملا أن ينتج منه شر لا يفعل، خيفة من وقوع الشر، وهو أيضًا من باب الحزم في الأمور»[١].

وقال شيخ الإسلام: «إذا شتم الرجل أباه واعتدى عليه، فإنه يجب أن يعاقب عقوبة بليغة، تردعه وأمثاله عن مثل ذلك؛ بل وأبلغ من ذلك أنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين أنه قال: «من الكبائر أن يسب الرجل والديه» قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». فإذا كان النبي ﷺ قد جعل من الكبائر أن يسب الرجل أبا غيره لئلا يسب أباه؛ فكيف إذا سب هو أباه مباشرة؟! فهذا يستحق العقوبة التي تمنعه عن عقوق الوالدين الذي قرن الله حقهما بحقه حيث قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[٣] فكيف بسبهما؟!»[٤].

وقال ابن القيم: «وإذا تدبرتَ الشريعة وجدتها قد أتت بسدّ الذرائع إلى المحرمات، وذلك عكسُ فتح باب الحيل الموصلة إليها. فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرمات، وسدُّ الذرائع عكس ذلك. فبين البابين أعظمُ تناقض، والشارع حرّم الذرائع، وإن لم يُقْصَد بها المحرَّم؛ لإفضائها إليه. فكيف إذا قُصِد بها المحرم نفسه؟. فنهى الله سبحانه عن سبّ آلهة المشركين؛ لكونه ذريعةً إلى أن يسبوا الله سبحانه عَدْوًا وكفرًا، على وجه المقابلة»[٥]. وذكر حديث الباب.

قلت: وهذا الأصل الذي ناقشه هؤلاء العلماء -رحمهم الله-، ودلت عليه هذه الآية وغيرها من الآيات يجعل الداعية إلى الله تعالى يكون على حذر في أمره، فلا يتسرع ولا يتهور ولا يوقع نفسه فيما يشتت شمله وشمل دعوته، فواقع كثير من الدعاة الذين يعلون بعض المنابر يتمثل في هذه الآية، حيث يرسلون صواعق من الكلام على السامعين، فيثيرون بذلك فتنا كثيرة، وكذلك بعض الكتاب في بعض

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ١٤٤).
(٢) لقمان: الآية (١٤).
(٣) الإسراء: الآية (٢٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٥) إغاثة اللهفان (١/ ٥٣١).

الجرائد والمجلات، وكذلك بعض أفعال المنتسبين إلى الدعوة، ولا سيما هذا الذي لم يسبق له نظير؛ وهو تفجير السيارات والقطارات، والطائرات، والمباني، باسم الدعوة والجهاد، وهو في حقيقة أمره ضربة قاصمة للإسلام وأهله؛ فيتهمون الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف، ويتهمون أهله بأنهم قتلة، سفكة للدماء، إلى غير ذلك من الأقاويل والأراجيف، لذلك ينبغي أن تكون الدعوة بالحكمة، ونشر المعتقد الصحيح، ونشر دعوة التوحيد، ويكون الإنسان نافعا للأمة، ولا يلقي بأبنائها إلى التهلكة، فيتعرض هو وهم إلى ما لا تحمد عقباه، فقراءة هذه الآيات تذكرنا بواقع السوء الذي نعيشه، فنسأل اللّٰه تعالى أن يعافينا إنه سميع مجيب.

* * *

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: كما زين لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان بخذلاننا إياهم عن طاعة الرحمن، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على عمل من الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملهم الذي هم عليه مجتمعون، ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، يقول: فيوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها الدنيا، ثم يجازيهم بها إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، أو يعفو بفضله ما لم يكن شركا أو كفرا»[1].

قال أبو حيان: «أي: مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين زينا لكل أمة، وظاهر ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ العموم في الأمم وفي العمل فيه. فيدخل فيه المؤمنون والكافرون، وتزيينه هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه»[2].

وقال القرطبي: «أي: كما زيّنّا لهؤلاء أعمالهم، كذلك زيّنّا لكل أمة عملهم. قال ابن عباس: زيّنّا لأهل الطاعة الطاعةَ، ولأهل الكفر الكفرَ؛ وهو كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[3]. وفي هذا رد على القدرية»[4].

قال أبو السعود: «فيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية، وهي: أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض؛ فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة، فإن المعاصي سموم قاتلة قد برزت في

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣١١).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٠٢).
(٣) النحل: الآية (٩٣)، فاطر: الآية (٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦١-٦٢).

الدنيا بصورة ما تستحسنها نفوس العصاة، كما نطقت به هذه الآية الكريمة، وكذا الطاعات؛ فإنها مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة، ولذا قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**». فأعمال الكفرة قد برزت لهم في النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة، ويستحبها الطغاة، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها، لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي، فليتدبر»[١].

قال ابن القيم: «وأما التزيين فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ وقال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢] وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣] فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقا ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة، وهذا التزيين منه سبحانه حسن، إذ هو ابتلاء واختبار بعيد؛ ليتميز المطيع منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤] وهو من الشيطان قبيح، وأيضًا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته، وإيثار سيئ العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه؛ زينه اللَّه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه اللَّه تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنًا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة اللَّه عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه؛ ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم. ومع هذا فحجة اللَّه قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول، فتزيين الرب تعالى عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٧٢).
(٢) فاطر: الآية (٨).
(٣) الأنعام: الآية (٤٣).
(٤) الكهف: الآية (٧).

لهدى خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه اللَّه، والمخذول من خذله اللَّه، ألا له الخلق والأمر، تبارك اللَّه رب العالمين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النار حفت بالشهوات، والجنة حفت بالمكاره

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قوله ﷺ: «**حجبت النار بالشهوات والجنة بالمكاره**» من جوامع الكلم، وبديع البلاغة في ذم الشهوات والنهي عنها، والحض على طاعة اللَّه، وإن كرهتها النفوس وشق عليها؛ لأنه إذا لم يكن يوم القيامة غير الجنة والنار، ولم يكن بد من المصير إلى إحداهما؛ فواجب على المؤمنين السعي فيما يدخل إلى الجنة وينقذ من النار، وإن شق ذلك عليهم؛ لأن الصبر على النار أشق، فخرج هذا الخطاب منه ﷺ بلفظ الخبر، وهو من باب النهي والأمر»[٣].

قال ابن القيم: «مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها اللَّه سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا، فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٠)، والبخاري (١١/ ٣٨٨/ ٦٤٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٣) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه: أحمد (٣/ ١٥٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٢)، والترمذي (٤/ ٥٩٨/ ٢٥٥٩) عن أنس ﷺ.

(٣) شرح البخاري (١٠/ ١٩٨).

ذلك إيثار العاجلة، ورفض الآخرة، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات؛ فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد اللَّه لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه، وما هو الأولى به»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٤/ ١٩٥-١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قال الواحدي: إنما سمي اليمين بالقسم؛ لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الذي يخبر به الإنسان: إما مثبتًا للشيء، وإما نافيا. ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب؛ احتاج المخبر إلى طريق به يتوسل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب، وذلك هو الحلف. ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب به؛ سموا الحلف بالقسم، وبنوا تلك الصيغة على (أفعل) فقالوا: أقسم فلان يقسم إقسامًا: وأرادوا أنه أكد القسم الذي اختاره، وأحال الصدق إلى القسم الذي اختاره بواسطة الحلف واليمين»[1].

وقال الشوكاني: «قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: الكفار مطلقًا، أو كفار قريش، وجهد الأيمان: أشدّها؛ أي: أقسموا بالله أشد أيمانهم التي بلغتها قدرتهم، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به»[2].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قيل: معناه بأغلظ الأيمان عندهم.

وتعرِض هنا مسألة من الأحكام عُظمى، وهي قول الرجل: الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا. قال ابن العربي: وقد كانت هذه اليمين في صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة، كانوا يقولون: عليّ أشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد؛ فقال مالك: تطلُق نساؤه. ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورة هذه أمُّها.

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٥٠).

(٢) فتح القدير (٢/ ٢١٦).

وكان شيخنا الفهري الطرسوسي يقول: يلزمه إطعام ثلاثين مسكينًا إذا حنث فيها؛ لأن قوله: (الأيمان) جمع يمين، وهو لو قال: عليّ يمين، وحنث، ألزمناه كفارةً. ولو قال: عليّ يمينان، للزمته كفارتان إذا حنث. و(الأيمان) جمع يمين، فيلزمه فيها ثلاث كفارات»[1].

قال السعدي: «أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: قسمًا اجتهدوا فيه، وأكدوه.

﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾، وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض، ورد ما جاء به الرسل قطعًا. فإن اللَّه أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي عند الالتفات إليها لا تبقي أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به. فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعنت، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم. فإن اللَّه جرت سنته في عباده: أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء.

فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به، وتصديقه وقد حصل.

ومع ذلك، فليس معلومًا أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾»[2].

قال محمد رشيد رضا: «أي: وأقسم أولئك المشركون المعاندون باللَّه أشد أيمانهم تأكيدًا، ومنتهى جهدهم ووسعهم مبالغة فيها، لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التي اقترحوها أو مطلقًا؛ ليؤمنن بها أنها من عند اللَّه، للدلالة على صدق رسوله ﷺ، فيكون إيمانهم بها إيمانًا به، أو ليؤمنن بما دعاهم إليه بسببها ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: قل أيها الرسول إنما الآيات عند اللَّه تعالى، فهو وحده القادر عليها والمتصرف فيها، يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦٣).
(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] ومشيئته، وكمال الأدب معه تعالى أن يفوض إليه الأمر في ذلك ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أنكم ليس لكم شيء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبي الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب ﷻ، وهو أنهم لا يؤمنون إن جاءت الآية. والخطاب للمؤمنين الذين تمنوا مجيء الآية ليؤمنوا، والنبي ﷺ معهم. وقيل: لهم وحدهم. ويؤيد الأول رواية دعائه بذلك، ورواية طلبه القسم منهم ليؤمنن بها»[2].

وقال القاسمي: «وفي نفي السبب، وهو الإشعار، مبالغة في نفي المسبب، وهو الشعور.

قال الخفاجي: وفي نفي المسبب بهذا الطريق مبالغة ليس في نفيها بدونها؛ لأن في الكناية إثبات الشيء ببينة. وفيه تعريض بأن اللّه عالم بعدم إيمانهم، على تقدير مجيء الآية المقترحة لهم، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون. فعدم الإنزال لعدم الإيمان»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الإقسام بالأيمان وطلب الآيات من النبي ﷺ للتعجيز لا للاتباع

* عن ابن عباس ﵄: كان يحدث أن رجلًا أتى رسول اللّه ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها: فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل. فقال أبو بكر: يا رسول الله! بأبي أنت واللّه لتدعني فأعبرها. فقال النبي ﷺ له: «اعبرها». قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن، فالقرآن حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك اللّه، ثم يأخذ به رجل فيعلو به، ثم يأخذ به

---

(١) الرعد: الآية (٣٨).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٦٧٠-٦٧١).
(٣) محاسن التأويل (٦/ ٦٨٤).

رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ به رجل فينقطع، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول اللَّه -بأبي أنت- أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: **«أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»**. قال: فواللَّه يا رسول اللَّه لتحدثني بالذي أخطأت. قال: **«لا تقسم»**[1].

★ غريب الحديث:

الظلة: السحابة، وكل ما أظلك من فوقك من سقيفة ونحوها فهو ظلة.

تنطف: بنون وطاء مكسورة ويجوز ضمها ومعناه تقطر.

يتكففون: أي يأخذون بأكفهم.

فالمستكثر: أي الآخذ كثيرًا.

المستقل: أي الآخذ قليلا.

سبب واصل من الأرض إلى السماء: أي حبل واصل.

فعلوت: أي أعلاك اللَّه.

اعبرها: من تعبير الرؤيا؛ أي: عبرها وأولها.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والغرض منه هنا قوله: «لا تقسم» موضع قوله «لا تحلف» فأشار إلى الرد على من قال: إن من قال: أقسمت؛ انعقدت يمينًا، ولأنه لو قال بدل أقسمت: حلفت، لم تنعقد اتفاقًا إلا إن نوى اليمين، أو قصد الإخبار بأنه سبق منه حلف. وأيضًا فقد أمر ﷺ بإبرار القسم، فلو كان أقسمت يمينًا، لأبر أبا بكر حين قالها. ومن ثم أورد حديث البراء عقبه، ولهذا أورد حديث حارثة آخر الباب: «لو اقسم على اللَّه لأبره» إشارة إلى أنها لو كانت يمينا لكان أبو بكر أحق بأن يبر قسمه؛ لأنه رأس أهل الجنة من هذه الأمة.. قال ابن المنذر: اختلف فيمن قال: أقسمت

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري (١٢/ ٥٣٤/ ٧٠٤٦)، ومسلم (٤/ ١٧٧٧-١٧٧٨ / ٢٢٦٩)، وأبو داود (٥/ ٢٩/ ٤٦٣٣) مختصرا. والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٧/ ٧٦٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩-١٢٩٠/ ٣٩١٨)، ورواه: الترمذي (٤/ ٤٧٠-٤٧١/ ٢٢٩٣) عن ابن عباس عن أبي هريرة ﷺ.

باللَّه، أو أقسمت مجردة، فقال قوم: هي يمين وإن لم يقصد. وممن روي ذلك عنه ابن عمر وابن عباس، وبه قال النخعي والثوري والكوفيون. وقال الأكثر: لا تكون يمينًا إلا أن ينوي. وقال مالك: «أقسمت باللَّه يمين، وأقسمت مجردة لا تكون يمينا، إلا إن نوى». وقال الإمام الشافعي: «المجردة لا تكون يمينا أصلا، ولو نوى، وأقسمت باللَّه إن نوى تكون يمينا». وقال إسحاق: «لا تكون يمينا أصلا». وعن أحمد كالأول، وعنه كالثاني، وعنه: «إن قال قسما باللَّه فيمين جزما؛ لأن التقدير أقسمت باللَّه قسمًا، وكذا لو قال: ألية[1] بالله». قال ابن المنير في الحاشية: «مقصود البخاري: الرد على من لم يجعل القسم بصيغة أقسمت يمينًا. قال: فذكر الآية وقد قرن فيها القسم باللَّه، ثم بين أن هذا الاقتران ليس شرطًا بالأحاديث، فإن فيها أن هذه الصيغة بمجردها تكون يمينًا، تتصف بالبر وبالندب إلى إبرارها من غير الحالف. ثم ذكر من فروع هذه المسألة: لو قال أقسم باللَّه عليك لتفعلن. فقال: نعم. هل يلزمه يمين بقوله نعم، وتجب الكفارة إن لم يفعل» انتهى. وفيما قال نظر، والذي يظهر أن مراد البخاري أن يقيد ما أطلق في الأحاديث بما قيد به في الآية، والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

* عن البراء ﵁ قال: أمرنا النبي ﷺ بإبرار المقسم[3].

★ **غريب الحديث:**

إبرار المقسم: أي بفعل ما أراده الحالف ليصير بذلك بارا.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال ابن المنذر: وأمر النبي ﷺ بإبرار المقسم أمر ندب لا أمر وجوب؛ لأن أبا بكر أقسم على النبي فلم يبر قسمه، ولو كان ذلك واجبا لم يشأ رجل أن يسأل آخر بأن يخرج له من كل ما يملك، ويطلق زوجته، ثم يحلف على الإمام في

---

(١) قال في المصباح المنير (١/ ١١): «الألية: الحلف، والجمع ألايا مثل عطية وعطايا».

(٢) الفتح (١١/ ٦٦٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٤)، ومسلم (٣/ ١٦٣٥-١٦٣٦/ ٢٠٦٦)، والترمذي (٥/ ١٠٨/ ٢٨٠٩)، والنسائي (٤/ ٣٥٥-٣٥٦/ ١٩٣٨). ورواه ابن ماجه (٢/ ١١٨٧/ ٣٥٨٩) دون ذكر موضع الشاهد.

حد أصابه أن يسقط عنه؛ إلا تم له، وفي ذلك تعطيل الحدود، وترك الاقتصاص مما فيه القصاص، وإذا لم يجز ذلك كان معنى الحديث الندب فيما يجوز الوقوف عنه دون ما لا يجوز تعطيله.

وقال المهلب: إبرار القسم إنما يستحب إذا لم يكن في ذلك ضرر على المحلوف عليه أو على جماعة أهل الدين؛ لأن الذي سكت عنه النبي ﷺ من بيان موضع الخطأ في تعبير أبي بكر، هو عائد على المسلمين بهم وغم؛ لأنه عبر قصة عثمان بأنه يخلع ثم يراجع الخلافة، فلو أخبره النبي بخطئه لأخبر الناس بأنه يقتل ولا يرجع إلى الخلافة، فكان يدخل على الناس فتنة بقصة عثمان من قبل كونها، وكذلك لو أقسم على رجل ليشربن الخمر ما وجب عليه إبرار قسمه، بل الفرض عليه ألا يبره»[1].

* عن أسامة رضي الله عنه أن ابنة لرسول اللّه ﷺ أرسلت إليه -ومع رسول اللّه ﷺ أسامة بن زيد وسعد وأبي أو أبي- أن ابني قد احتضر، فاشهدنا. فأرسل يقرأ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمى، فلتصبر وتحتسب**». فأرسلت إليه تقسم عليه، فقام وقمنا معه، فلما قعد رفع إليه فأقعده في حجره، ونفس الصبي تقعقع، ففاضت عينا رسول اللّه ﷺ، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة يضعها اللّه في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم اللّه من عباده الرحماء**»[2].

★ **غريب الحديث:**

تقعقع: أي تضطرب وتتحرك.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار؛ إلا تحلة القسم**»[3].

---

(١) شرح البخاري (٦/ ١١٠-١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٥)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢)، والترمذي (٣/ ٣٧٤/ ١٠٦٠)، والنسائي (٤/ ٣٢٥/ ١٨٧٤)، وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

★ غريب الحديث:

تحلة القسم: بفتح التاء، وكسر المهملة، وتشديد اللام؛ أي: تحليلها.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قال العلماء: تحلة القسم ما ينحل به القسم وهو اليمين، وجاء مفسرًا في الحديث أن المراد قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1]. وبهذا قال أبو عبيد وجمهور العلماء، والقسم مقدر؛ أي والله إن منكم إلا واردها. وقيل: المراد قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾[2]. وقال ابن قتيبة: معناه تقليل مدة ورودها. قال: وتحلة القسم تستعمل في هذا في كلام العرب. وقيل: تقديره ولا تحلة القسم أي لا تمسه أصلًا، ولا قدرًا يسيرًا، كتحلة القسم. والمراد بقوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ المرور على الصراط»[3].

* عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر»**[4].

★ غريب الحديث:

كل ضعيف متضعف: قال النووي: «ضبطوا قوله: «متضعف» بفتح العين وكسرها، المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا. يقال: تضعفه واستضعفه. وأما رواية الكسر فمعناها: متواضع متذلل خامل واضع من نفسه»[5].

جواظ: هو الكثير اللحم الغليظ الرقبة.

عتل: بضم العين والتاء: الجافي الشديد الخصومة بالباطل.

---

(١) مريم: الآية (٧١). (٢) مريم: الآية (٦٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٤٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٦)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩٠/ ٢٨٥٣)، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٦).

(٥) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قال في المجمع: لو أقسم على الله؛ أي: لو حلف على وقوع شيء لأبره؛ أي: أوقعه الله إكرامًا له وصيانةً له من الحنث، لعظم منزلته عنده، وإن احتقر عند الناس»(١).

* عن ابن عباس ﵄ قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا نؤمن بك. قال: «**أتفعلون؟**» قالوا: نعم. فدعا فأتاه جبرئيل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. قال: «**بل باب التوبة والرحمة**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «ومما ينبغي أن يعلم: أن الله إذا أرسل نبيًّا وأتى بآية دالة على صدقه، قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية؛ لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك؛ لأنه إذا جاء بآية ثانية، طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة، طولب برابعة، وطلب المتعنتين لا أمد له، ومعلوم أنه من قامت عليه حجة في مسألة علم أو حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها، وقال: أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة؛ كان ظالمًا متعدّيًا، ولم يجب إجابته إلى ذلك، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك، بل إذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك، ولو قال المطلوب: أريد بينة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب إلى ذلك. فحق الله الذي أوجبه على عباده من توحيده والإيمان به وبرسله أولى، إذا أقام بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله، أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانيه وثالثة.

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢ و ٣٤٥)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٢/ ١٢٧٣٦)، والحاكم (١/ ٥٣) وصححه. وفي رواية: (فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم. قال: لا، بل أستاني بهم. فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾ الإسراء: الآية (٥٩)). أخرجها: أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٠/ ١١٢٩٠)، والحاكم (٢/ ٣٦٢) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠): «ورجال الروايتين رجال الصحيح».

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة، فيتابع تعالى بين الآيات، كما أرسل محمدا ﷺ بآيات متعددة؛ لعموم دعوته وشمولها، فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد؛ كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق. فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر، وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا، وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة، وتقسى قلوب الكفار عن الإيمان، لتتابع الآيات آية بعد آية، لينتشر ذلك ويظهر، ويبلغ ذلك قوما آخرين، فيكون ذلك سببا لإيمانهم، كما فعل بآيات موسى وآيات محمد، كما ذكر في التوراة أنه يقسي قلب فرعون، لتظهر عجائبه وآياته، وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يمانعوه، ويسعوا في معارضته، والقدح في آياته، فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته، فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه، بخلاف ما لو اتبع ابتداء بدون ذلك، فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته، وكذلك أيضًا يكون في ذلك على يقينه وصبره وجهاده ويقين من آمن به، وصبرهم، وجهادهم، ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة.

وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال، كما ذكره اللَّه في كتابه، من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاؤوا بها، فتارة يجيبهم اللَّه إلى ذلك، لما فيه من الحكمة والمصلحة، وتارة لا يجيبهم، لما في ذلك من المضرة والمفسدة، عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم، الذين يقولون: إنه يفعل للحكمة. ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة، ويقول: اقترن بالمراد والمفسدة عادة وسنة من اللَّه، وإن لم يفعل هذا لهذا.

وقد كان الرسول ﷺ ربما طلب تلك الآيات، رغبة منه في إيمانهم بها، فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى، بل تستلزم إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها، واللَّه تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر، كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما، لما في ذلك من الحكمة العظيمة، كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما، وقد بين أنه لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها، أو لوجود المفسدة قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1][2].

---

(١) الأنعام: الآيتان (١٠٩ و١١٠).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٢٩-٤٣١).

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعمهون: أي مترددون في حيرتهم على غير بصيرة مما هم عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «أخبر تعالى أنه يفعل بهم ذلك، وهي إشارة إلى الحيرة والتردد، وصرف الشيء عن وجهه. والمعنى: أنه تعالى يحولهم عن الهدى، ويتركهم في الضلال والكفر. و(كما) للتعليل؛ أي: يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به أول وقت جاءهم هدى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[1]. ويؤكد هذا المعنى آخر الآية: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ونتركهم في تغمطهم في الشرِّ والإفراط فيه يتحيرون. وهذا كله إخبار من اللَّه تعالى بفعله بهم في الدنيا. وقالت فرقة: هذا الإخبار هو على تقدير: أنه لو جاءت الآية التي اقترحوها صنعنا بهم ذلك»[2].

وقال السعدي: «أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل اللَّه وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا.

فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبًا لأحوالهم. وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله؛ من أكبر الغلط»[3].

---

(١) التوبة: الآية (١٢٥).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٠٥).
(٣) تفسير السعدي (٢/ ٤٥٧).

قال ابن القيم: «حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء، رد الحق لمخالفته هواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأسا ولا تقبله، إلا إذا برز في قالب هواك قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك»[1].

وقال أيضًا: «وأما تقليب الأفئدة فقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وهذا عطف على أنها إذا جاءت لا يؤمنون، أي نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية؛ كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. قال ابن عباس في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي. قال: وهذا كقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[2].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم؛ لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم. وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعا من التعليل كقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[3]، وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[4].

والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر. والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه.

وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم؛ لأنهم رأوها عيانًا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه»[5].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٠) بتصرف.
(٢) الأنفال: الآية (٢٤).
(٣) القصص: الآية (٧٧).
(٤) البقرة: الآيتان (١٥١ و ١٥٢).
(٥) شفاء العليل (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

قال أبو السعود: «أي: وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لكن لا مع توجهها إليه واستعدادها لقبوله، بل لكمال نبوها عنه وإعراضها بالكلية، ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم؛ إشعارًا بأصالتهم في الكفر، وحسمًا لتوهم أن عدم إيمانهم ناشئ من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه التردد في الأمر من الحيرة فيه، أي ونِدعهم في تجاوزهم الحدود في الكفر والعصيان، المشابه لطغيان الماء في الطوفان، الذي رسخوا فيه، فترتب عليه ما ذكر من سنتنا في تقليب القلوب والأبصار، يترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات، هل هو الحق المبين، أم السحر الذي يخدع الناظرين، وهل الأرجح اتباع الحق بعدما تبين؟ أم المكابرة له والجدال فيه كبرا وأنفة من الخضوع لمن يرونه دونهم؟ وهذا صريح في أن رسوخهم في الطغيان، الذي هو منتهى الإسراف في الكفر والعصيان، وهو سبب تقليب القلوب والأبصار، وإنما إسناده إلى الخالق لها لبيان سنته الحكيمة فيها، كغيره من ربط المسببات بأسبابها، وإنما يخطئ كثير من الناس هذا الأمر الواقع لعدم التأمل فيه، وتوهم أن جميع ما يسند إليه تعالى فهو من الخلق المستقل دون نظام للمقادير، وهي نزعة قدرية داخلة في قولهم (الأمر أنف) أي: لا نظام فيه ولا قدر، يتبعهم خصومهم فيها وهم لا يشعرون، ويوقعهم التعصب للمذاهب في أظهر التناقض وهم غافلون، فنسأله تعالى أن يثبت أفئدتنا وأبصارنا على الحق، ويحفظنا من الطغيان والعمه في كل أمر، ويجعلنا ممن أبصر بما جاءه من البصائر، ويصلح لنا السرائر والظواهر، اللهم آمين»[2].

وقال القاسمي: «وفي «اللباب»: في الآية دليل على أن اللَّه تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه، فيقيم ما شاء منها، ويزيغ ما أراد منها. ومنه قوله ﷺ: «**يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك**»»[3].

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٧٣).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٦٧٢).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٦٨٥-٦٨٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصفه تعالى بمقلب القلوب

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا ومقلب القلوب**»[1].

* عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». فقلت: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع اللَّه يقلبها كيف يشاء**»[2].

* عن أم الدرداء أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما احتضر جعل يقول: «من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ ثم يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾» ثم يغمى عليه، ثم يفيق فيقولها حتى قبض[3].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «المراد بتقليب القلوب تقليب أعراضها وأحوالها، لا تقليب ذات القلب. وفي الحديث دلالة على أن أعمال القلب من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض بخلق اللَّه تعالى. وفيه جواز تسمية اللَّه تعالى بما ثبت من صفاته على الوجه الذي يليق به»[4].

قال ابن بطال: «معنى ذلك: تقليبه قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر، وعن إيثار الكفر إلى إيثار الإيمان، وكان فعل اللَّه ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله؛ لأنه لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم وأضلهم؛ لأنهم ملك من ملكه خلقهم على إرادته، لا على

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦-٦٧)، والبخاري (١١/ ٦٢٨/ ٦٦١٧)، وأبو داود (٣/ ٥٧٦-٥٧٧/ ٣٢٦٣)، والترمذي (٤/ ٩٦/ ١٥٤٠)، والنسائي (٧/ ٥/ ٣٧٧٠)، وابن ماجه (١/ ٦٧٦-٦٧٧/ ٢٠٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي (٤/ ٣٩٠-٣٩١/ ٢١٤٠) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠/ ٣٨٣٤)، والحاكم (١/ ٥٢٦) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: ابن المبارك في الزهد (١/ ١٢٣/ ٢٦)، ومن طريقه ابن أبي شيبة (٧/ ١١٣/ ٣٤٦٠٧)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٧)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٨٢/ ١٠٦٦٦).

(٤) الفتح (١١/ ٦٤٦).

إرادتهم، فكان ما خلق فيهم من قوة الهداية والتوفيق على وجه الفضل»[١].

قال ابن العربي: «القلب جزئي خلقه اللَّه في تابوت الإنسان، وجعله محل العلم والكلام، وغير ذلك من الصفات الباطنة، وجعل ظاهر التابوت محلا لتصرف الأفعال والحركات والحروف والأصوات، ومثالها من التفصيلات، ووكل به ملكا وشيطانا، فالملك يأمر بالخير، والعقل بنوره يهديه، والشيطان يأمر بالشر والهوى، بظلمته يقويه، والقضاء والقدر مسيطر على الكل، فإن كان السابق له في علم اللَّه الإيمان والطاعة؛ جرى ذلك في قلبه وسرى إلى جوارحه، وإن كان السابق الضلال؛ جرى ذلك في قلبه وعلى جوارحه، ونفوا الحكم بوجهين، والقلب متقلب آناء الليل والنهار، بين الخواطر الحسنة والسيئة، واللمات من الملك، ومن الشيطان لمة تقلب أسرع من رفع الطرف، فإن كان مما لا يعزم عليه فهو مأخوذ به، ويجري فيه من الخواطر كما قالت الصحابة للنبي ﷺ: ماء تجري من السماء فتخطفه الطير أحب إلينا مما نجده في أنفسنا. فقال لهم النبي ﷺ: «**ذلك صريح الإيمان**»[٢] أي تكلف دفعه وكراهته بعد وجوده؛ فهو صريح الإيمان. فلأجل ذلك كان النبي ﷺ يقول: «**لا ومقلب القلوب**» في هذه الأحوال»[٣].

* * *

---

(١) شرح البخاري (١٠/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٢[٢٠٩])، وأبو داود (٥/ ٣٣٦/ ٥١١١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٥٠٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) عارضة الأحوذي (٧/ ٢٢-٢٣).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الإمام الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: يا محمد، أيئس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام القائلين لك: لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك، فإننا لو ﴿نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ حتى يروها عيانًا ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك محق فيما تقول، وأن ما جئتهم به حق من عند اللَّه ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فجعلناهم لك ﴿قُبُلًا﴾ ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك لمن شاء منهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا، وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا باللَّه جهد أيمانهم؛ ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾[2]، فنزلنا عليهم الملائكة، أي تخبرهم بالرسالة من اللَّه بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[3] و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[4] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[5].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١).
(٢) الأنعام: الآية (١٠٩).
(٣) الإسراء: الآية (٩٢).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٥) الفرقان: الآية (٢١).

﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ بعضهم: ﴿قِبَلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعاينة. وقرأ آخرون: بضمها، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضًا، كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾: أفواجًا، قبيلًا قبيلًا؛ أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فتخبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إن الهداية إليه، لا إليهم، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[(1)]»[(2)].

وقال ابن عطية: «أخبر اللَّه ﷻ في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة وإحياء سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم، ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان»[(3)].

قال القاسمي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ حجة واضحة على المعتزلة، لدلالته على أن جميع الأشياء بمشيئة اللَّه تعالى، حتى الإيمان والكفر. وقد اتفق سلف هذه الأمة وحملة شريعتها؛ على أنه ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن. وللمعتزلة تحيل في المدافعة بحمل المشيئة المنفية، على مشيئة القسر والاضطرار، وإنما يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء. وأما وهو القدوة والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه، فإلى النار، وما بعد الحق إلا الضلال»[(4)].

قلت: صدق اللَّه العظيم إذ يخبرنا بنوايا هؤلاء المشركين ومقاصدهم السيئة، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وأن منهجهم الحقيقي هو الكفر والعناد

---

(1) يونس: الآيتان (٩٦ و٩٧).
(2) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١١).
(3) المحرر الوجيز (٢/ ٣٣٥).
(4) محاسن التأويل (٦/ ٦٨٧).

لا الاستفسار عن الآيات، فإن هذا قد قامت به الحجج وكثرت، وكتاب اللّه من أكبر ذلك، فلو كان همهم هو الإيمان المقرون بالآيات، لكان محمد ﷺ الذي عاش بين أظهرهم خاليا من كل السوابق، ونموذجا في الأمن والأمان، والصدق في كل ما في الكلمة من معنى، من الرجولة التامة التي تجعلهم يتابعونه في كل ما يدعوهم إليه وإن لم يكن نبيا، لما له من السيرة العطرة البعيدة عن كل مخالفاتهم، وجرائمهم، فكيف وقد قرنت بنبوة ورسالة يعلمون صدقها، وأنزل اللّه عليه كتابا ما سمعوا به من قبل وهو كله آيات، فالقوم مبيتون على الشر، ولا يريدون الحق إلا من شاء اللّه هدايته، وهذه سنة كل المشركين في كل زمان. ففي زماننا هذا، القرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، والأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ تروى بالأسانيد العوال، والدعاة إلى اللّه يدعون في كل زمان ومكان، ومع ذلك تجد المشركين لا يزالون على شركهم؛ يطوفون بقبورهم، ويذبحون لها وعندها، ويقيمون لها المواسم والحفلات ويشدون لها الرحال، وينذرون إليها.

وهكذا تجد المبتدعة عموما على بدعهم، رغم ظهور السنة، ووضوحها، وانتشارها؛ بكتبها، وأشرطتها، وقنواتها، ومع ذلك تجد المرتزقة من المبتدعة على ما هم عليه. فما أشبه البارحة باليوم. فعنادهم لا يتبدل ولا يتغير، واللّه المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تصغى: أي: تميل. يقال: أصغيت الإناء: إذا أملته ليجتمع ما فيه. وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «ومن تدبر هؤلاء الآيات علم أنها منطبقة على من يعارض كلام الأنبياء بكلام غيرهم بحسب حاله، فإن هؤلاء هم أعداء ما جاءت به الأنبياء.

وأصل العداوة البغض، كما أن أصل الولاية الحب. ومن المعلوم أنك لا تجد أحدا ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يرد، ولو أمكنه كشط ذلك من المصحف لفعله.

قال بعض السلف: ما ابتدع أحد بدعة إلا خرجت حلاوة الحديث من قلبه.

وقيل عن بعض رؤوس الجهمية إما بشر المريسي، أو غيره: أنه قال: ليس شيء أنقض لقولنا من القرآن، فأقروا به الظاهر، ثم صرفوه بالتأويل، ويقال: إنه قال: إذا احتجوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتكذيب، وإذا احتجوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية؛ بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه، خلافا لما أمر اللّه به ورسوله من التبليغ عنه... وقد ذم اللّه في كتابه الذين يكتمون ما أنزل اللّه من البينات والهدى،

وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنه معارض لما يقولونه، وفيهم جاء الأثر المعروف عن عمر: قال: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم السنن أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، وسئلوا فقالوا في الدين برأيهم[1]. فذكر أنهم أعداء السنن.

وبالجملة: فكل من أبغض شيئًا من الكتاب والسنة ففيه من عداوة النبي بحسب ذلك، وكذلك من أحب ذلك ففيه من الولاية بحسب ذلك.

قال عبد الله بن مسعود: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله.

وعدو الأنبياء هم شياطين الإنس والجن؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن**». فقال: أو للإنس شياطين؟ فقال: «**نعم شر من شياطين الجن، وهؤلاء يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا**»[2].

والزخرف هو الكلام المزين، كما يزين الشيء بالزخرف، وهو المذهب، وذلك غرور لأنه يغر المستمع، والشبهات المعارضة لما جاءت به الرسل هي كلام مزخرف يغر المستمع.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، فهؤلاء المعارضون لما جاءت به الرسل تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، كما رأيناه وجربناه»[3].

قال ابن القيم: «فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما

---

(١) أخرجه: الدارمي (١/ ٤٩)، والآجري في الشريعة (ص: ٤٨-٥٢-٧٤)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٢٥٠/ ٨٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٣٩/ ٢٠٢)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٠١٠؛ ١٠٤١-١٠٤٢؛ ١٩٢٧؛ ٢٠٠١؛ ٢٠٠٣؛ ٢٠٠٥)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٤٥٢-٤٥٣؛ ٤٥٣؛ ٤٥٤/ ٤٧٦؛ ٤٧٧؛ ٤٧٨) كلهم من طرق بألفاظ متقاربة. وقال ابن القيم رحمه الله في الإعلام (١/ ٥٥): «وأسانيد هذه الآثار عن عمر في غاية الصحة».

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٨-١٧٩)، والنسائي (٨/ ٦٦٩/ ٥٥٢٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٢) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، والحديث إسناده ضعيف من أجل عبيد بن الخشخاش، وكذا أبو عمر، ويقال: أبو عمرو الدمشقي. قال الحافظ في التهذيب في ترجمة عبيد بن الخشخاش: «قال البخاري: لم يذكر سماعًا من أبي ذر، وضعفه الدارقطني». وقال في التقريب: «لين». وقال عن أبي عمر الدمشقي كما في التقريب: «ضعيف».

(٣) درء التعارض (٥/ ٢١٧-٢٢٠).

يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به؛ لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولًا وعملًا. فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة؛ ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك، حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر، التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عذل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة اللّه، وجرأة على سعة عفوه ومغفرته!! فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات، ضعيف العلم والبصيرة»[1].

قلت: لله در شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، على هذا الفهم العظيم والصحيح لكلام اللّه، فإن المعارضين للوحي قديما وحديثا، ينفرون الناس من قراءة كتب الحديث وكتب التفسير والعقيدة السلفية، وقد ألف الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه العظيم «شرف أصحاب الحديث» في الرد عليهم، وألف ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه «مختلف الحديث» في الرد عليهم، وكتاب شيخ الإسلام «صون المنطق» هو أعظم ما رأيت في هذا الباب، فأعداء السنن وفهم القرآن الفهم الصحيح هم الكثيرون، ولاسيما من انتمى إلى علم الكلام والفلسفة والتعصب المذهبي المقيت؛ من حنفية، ومالكية، وشافعية، وحنبلية، أو انتمى إلى طائفة صوفية، فضلا عن الرافضة، فإن هؤلاء هم أعداء السنن وفي وقتنا الحاضر، ويعتبر بعضهم أن لبلده خصوصية؛ من مذهب أو طريقة. وهذا لا شك في ضلاله، وفي طعنه في رسالة محمد ﷺ، فإنها الرسالة التي لا يتميز بها إلا من اتبعها وذب عنها. أما المنحرفون

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

في سلوكهم وعقائدهم فإنهم مفارقون لرسالة محمد ﷺ وبعيدون عنها كل البعد. فلا تجد السنة تتمثل في أي حركة من حركاتهم ولا سكناتهم، فأسماؤهم إسلامية وألقابهم فخمة وضخمة، وواقعهم الانحراف والضلال. وهذا باب واسع جدا في رد السنن لزخرف من القول كما هو واقع العقلانيين العصرانيين والمبيحين لكل الضلال والبدع، فلا تسأل عن أعدادهم، وهيئاتهم، ولجانهم في بلاد الإسلام وخارجها، لأنهم يحاولون محاكاة الغربيين وإرضائهم في كل ما يريدون، حتى أباحوا الربا، والتبرج، والرقص، وعددا من الأمور المعلوم تحريمها من الدين بالضرورة والله المستعان.

قال عبد الرحمن السعدي: «يقول تعالى مسلّيًا الرسول ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك؛ فهذه سنتنا: أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق، أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض، الأمر الذي يدعون إليه، من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني. بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر، وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولًا، فإذا مالوا إليه، ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة. ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون. أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة.

فهذه حال المفترين، شياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم. وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولوا العقول الوافية، والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات. بل همتهم، مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة.

فإن كان حقًّا قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات رديئة، وألفاظًا غير وافية. وإن كانت باطلًا ردوها على من قالها، كائنًا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمته تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان؛ ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته: أن في ذلك بيانًا للحق وتوضيحًا له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه حينئذ يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه؛ ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون»[١].

قال محمد رشيد رضا: «ومعنى هذا الجعل: أن سنة اللَّه تعالى في الخلق، مضت بأن يكون الشرير المتمرد العاتي عن الحق والمعروف؛ أي: الذي لا ينقاد لهما كبرًا وعنادًا وجمودًا على ما تعود؛ يكون عدوًّا للدعاة إليهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ورثتهم وناشري هدايتهم، وهكذا شأن كل ضدين يدعو أحدهما إلى خلاف ما عليه الآخر؛ مما يتعلق بمنافعهم الاجتماعية، فإن كان أحدهما خيّرًا محقًّا؛ نسبت العداوة إلى الآخر الشرير المبطل؛ لأنه هو الذي يسعى إلى إيذاء مخالفه بكل وسيلة يستطيعها؛ لأنه مخالف وإن كان يعلم أنه يريد الخير له. وليس كل مخالف مبطل عدوًّا يسعى جهده لإيذاء مخالفه المحق، وإنما يتصدى لذلك العتاة المستكبرون المحبون للشهرة والزعامة بالباطل، والمترفون الذين يخافون على نعيمهم، فلم يكن كل كافر بالأنبياء ﷺ ناصبًا نفسه لعداوتهم وإيذائهم وصد الناس عنهم، بل أولئك هم العتاة المتمردون من الرؤساء والمترفين، والقساة الذين ضربت أنفسهم بالعدوان والبغي، وأولئك هم الشياطين المفسدون في الأرض، سواء كانوا من جنس الإنس الظاهر أو من جنس الجن الخفي، وحكمة عداوة الأشرار للأخيار هي ما يعبر عنه في عرف علماء الاجتماع البشري: بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التي تفضي بالجهاد والتمحيص إلى ما

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٦٠-٤٦١).

يسمونه (سنة الانتخاب الطبيعي) أي انتصار الحق وبقاء الأمثل التي ورد بها المثل في قوله تعالى من سورة (الرعد): ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1] فالحياة الدنيا جهاد لا يكمل ويثبت فيها إلا المجاهدون الصابرون، وكذلك العمل فيها للآخرة، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2] ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] ولكن أكثر الناس -حتى من أهل الحق بله غيرهم- يجهلون هذه السنن الحكيمة العالية، وإذا ذكرت لهم يشتبهون في تطبيقها على أنفسهم وعلى غيرهم؛ كما اشتبه كثير من المسلمين في سبب خذلان دولهم وسقوط حكومتهم، ظانين أن مجرد تسميتها مسلمة كافٍ لنصر اللّه إياها، وإن خالفت هداية دينه بالظلم والفسق والكفر في زعمائها، وإقرارهم عليه من دهمائها، وخالفت سننه في تنازع البقاء وتوقفه على كمال الاستعداد كما قال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[4] وقال: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[5] ولم يقيموا شيئًا من هذه الأوامر والنواهي بل فعلوا ضدها..

ثم بين تعالى شر ضروب عداء هؤلاء الشياطين للأنبياء، وهو مقاومة هدايتهم بقوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المموه؛ بما يظنون أنه يستر قبحه ويخفي باطله؛ بطرق خفية دقيقة لا يفطن لباطلها كل أحد ليغروهم به.. والبصير الذي علمته التجارب حيل الناس وأباطيلهم؛ لا يغر كما يغر من بقي على سجيته التي خلق عليها كالثوب الباقي على طيته الأولى. يقال: غرّه يغرّه غرًّا وغرورًا، والمثال الأول من هذا الغرور هو ما أوحاه الشيطان الأول للإنسان الأول أبينا (آدم) ولزوجه، وهو تزيينه لهما الأكل من الشجرة التي اختبرهما اللّه تعالى بالنهي عن قربها؛ إذ قال لهما: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[6] ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا

(١) الرعد: الآية (١٧).
(٢) البقرة: الآية (٢١٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٤) الأنفال: الآية (٦٠).
(٥) الأنفال: الآية (٤٦).
(٦) طه: الآية (١٢٠).

بِغُرُورٍ﴾(١) ومنه ما يوسوس به شياطين الإنس والجن لمن يزينون لهم المعاصي بما فيها من اللذة، والانطلاق من القيود المانعة من الحرية، وأطماع المؤمن منهم بأماني الرحمة والمغفرة، والكفارات والشفاعة، كقول أحد شياطين الإنس:

تكثر ما استطعت من الخطايا ... فإنك واجد ربا غفورا

تعض ندامة كفيك مما ... تركت مخافة النار السرورا

والتغرير بزخرف القول قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان -ولاسيما شياطين السياسة- ارتقاءً عجيبًا، فإنهم يخدعون الأحزاب منهم والأمم والشعوب من غيرهم، فيصورون لها الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، بتغيير الأسماء وتزيين أقبح المنكرات، وإن من الشعوب غرارًا كالأفراد، تلدغ من الجحر الواحد مرتين بل عدة مرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ولو شاء ربك أيها الرسول أن لا يفعلوا هذا الإيحاء الغار ما فعلوه، ولكنه لم يشأ أن يغير خلقهم، أو يجبرهم على خلاف ما زينته لهم أهواؤهم، بل شاء أن يكون كل من الإنس والجن مستعدين للحق والباطل والخير والشر، وأن يكونوا مختارين في سلوك كل من الطريقين، كما قال في الإنسان ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٢) ومن وسوسة هؤلاء الشياطين للناس وزخرفها؛ تحريف مثل هذه الآية الحكيمة، يحملها على معنى الجبر فيقولون: إن كل عاص لله معذور؛ لأنه ما عصاه إلا بمشيئته التي لا يستطيع الخروج عنها. وسيأتي في هذه السورة قوله تعالى في ذلك: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(٣) فلا عذر بمشيئة الله لأحد؛ لأنه لم يشأ أن تكون أفعالهم اضطرارية، بل خلقهم بمشيئته يفعلون ما يفعلون باختيارهم، ويحتجون على المنكرين عليهم كثيرًا بأنهم على حق، وإذا اعترفوا بخطإ يلتمسون لأنفسهم فيه العذر ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من كذب، ويخلقون من إفك، ليصرفوا الناس عن الحق، واستقم كما أمرت، فإنما عليك

(١) الأعراف: الآيتان (٢١ و ٢٢). (٢) البلد: الآية (١٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٤٨).

البلاغ، وعلينا الحساب والجزاء، والعاقبة للمتقين، وسنريك سنتنا في أمثالهم بعد حين. وقد فعل ﷺ؛ فأهلك المستهزئين بالقرآن، الذين قيل: إن السياق نزل فيهم، ونصر اللَّه عبده، وأعز جنده، وهكذا ينصر من ينصره، وأما المتنازعون على الباطل، ومجد الدنيا الزائل؛ فإنما يكون الفلج بينهم بحسب سنن اللَّه تعالى، لأشدهم مراعاة لها في الاستعداد الحربي والاجتماعي، وتخلقًا بالأخلاق العالية كالصبر والثبات كما بيناه مرارًا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الكلب الأسود شيطان

* عن عبد اللَّه بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا قام أحدكم يصلي؛ فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرحل، فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرحل؛ فإنه يقطع صلاته الحمار والمرأة والكلب الأسود»**. قلت: يا أبا ذر! ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟ قال: يا ابن أخي! سألت رسول اللَّه ﷺ كما سألتني فقال: **«الكلب الأسود شيطان»**[٢].

★ غريب الحديث:

مثل آخرة الرحل: هو العود الذي يكون في آخر الرحل.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «إن للإنس شياطين منهم، وشيطان كل شيء مارده، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«الكلب الأسود شيطان»** ومعناه -واللَّه أعلم-: شيطان في الكلاب»[٣].

قوله: **«الكلب الأسود شيطان»**:

قال القرطبي: «حمله بعض العلماء على ظاهره، وقال: إن الشيطان يتصور

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٥-٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٩)، ومسلم (١/ ٣٦٥/ ٥١٠)، وأبو داود (١/ ٤٥٠-٤٥١/ ٧٠٢)، والترمذي (٢/ ١٦١-١٦٢/ ٣٣٨)، والنسائي (٢/ ٣٩٦-٣٩٧/ ٧٤٩)، وابن ماجه (١/ ٣٠٦/ ٩٥٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٢٣).

بصورة الكلاب السود، ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**اقتلوا منها كل أسود بهيم**»[(١)].

وقيل: لما كان الكلب الأسود أشد ضررًا من غيره وأشد ترويعًا؛ كان المصلي إذا رآه اشتغل عن صلاته؛ فانقطعت عليه لذلك. وكذا تأول الجمهور قوله: «يقطع الصلاة المرأة والحمار»، فإن ذلك مبالغة في الخوف على قطعها وإفسادها بالشغل بهذه المذكورات؛ وذلك أن المرأة تفتن، والحمار ينهق، والكلب يروع فيتشوش المتفكر في ذلك حتى تنقطع عليه الصلاة وتفسد. فلما كانت هذه الأمور تفيد آيلة إلى القطع جعلها قاطعة، كما قال للمادح: «**قطعت عنق أخيك**»[(٢)] أي: فعلت به فعلًا يخاف هلاكه فيه كمن قطع عنقه»[(٣)].

قال ابن العربي: «قال النبي ﷺ: «**فإنما هو شيطان**» وليس الشيطان آدميًّا ولا الآدمي شيطانًا، ولكنه لما أراد أن يفعل فعل الشيطان في الشغل عن الصلاة، وقطع المرء عن العبادة، جعل له مثلًا، فكان تقدير الكلام؛ فإنما هو شيطان شغلًا عن الصلاة وقطعًا، كما تقول: زيد البدر حسنًا، وعمرو الأسد إقدامًا، والذي يبينه ما رواه مسلم عن ابن عمر في هذا الحديث بعينه قال فيه: «**فإن أبى فليقاتله فإن معه القرين**»[(٤)] إشارة بأن صاحبه من الشياطين هو الذي قاده إلى هذا ليقطع صلاته»[(٥)].

قال أبو زرعة العراقي: «جعل بعضهم العلة في قطع الكلب والحمار والمرأة ما ذكر فيها من وصف الشيطان، فأما الكلب فقال فيه النبي ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**» قاله لأبي ذر حين سأله عن تخصيص ذلك بالأسود، كما ثبت في صحيح مسلم. وأما الحمار ففي الحديث الصحيح أيضًا: «**إذا سمعتم نهاق الحمائر**؛

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٤)، وأبو داود (٣/ ٢٦٧/ ٢٨٤٥)، والترمذي (٤/ ٦٦/ ١٤٨٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٢١٠/ ٤٢٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٠٦٩/ ٣٢٠٥)، وصححه ابن حبان (١٢/ ٤٧٣/ ٥٦٥٧) من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

(٢) أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٥/ ٤١)، والبخاري (١٠/ ٥٨٣/ ٦٠٦١)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٦/ ٣٠٠٠)، وأبو داود (٥/ ١٥٤/ ٤٨٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢/ ٣٧٤٤) وفي الباب عن غيره.

(٣) المفهم (٢/ ١٠٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٦)، ومسلم (١/ ٣٦٣/ ٥٠٦)، وابن ماجه (١/ ٣٠٧/ ٩٥٥)، وفي الباب عن أبي سعيد.

(٥) القبس (١/ ٣٤٢-٣٤٣).

فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا»[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة. ولأبي داود من حديث جابر: **«إذا سمعتم نباح الكلب ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله»**[2] الحديث. وأما المرأة فعند الترمذي: **«المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان»**[3]. وفي حديث آخر: **«النساء حبائل الشيطان»**[4]. ويعارض هذا صلاته ﷺ إلى البعير كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر، وقد صح عنه أنه قال في الإبل: **«إنها خلقت من الجن»**[5]. وفي حديث آخر: **«على ذروة كل بعير شيطان»**[6]؛ ومع ذلك فقد صلى إليها، بل قد مر نفس الشيطان بين يدي النبي ﷺ وهو يصلي فلم يقطع صلاته، بل خنقه وهو في الصلاة؛ كما ثبت في الصحيح. فدل على أن المراد اتقاء ما يشغل المصلي»[7].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٦-٣٠٧)، والبخاري (٦/ ٤٣١/ ٣٣٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٢/ ٢٧٢٩)، وأبو داود (٥/ ٣٣١/ ٥١٠٢)، والترمذي (٥/ ٤٧٤/ ٣٤٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٤/ ١٠٧٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٦)، وأبو داود (٥/ ٣٣٢/ ٥١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٣/ ١٠٧٧٨)، وابن حبان (الإحسان ١٢/ ٣٢٦/ ٥٥١٧)، والحاكم (٤/ ٢٨٣-٢٨٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وسكت عنه الذهبي.

(٣) أخرجه: الترمذي (٣/ ٤٧٦/ ١١٧٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن خزيمة (٣/ ٩٣/ ١٦٨٦).

(٤) أخرجه: القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٦٦/ ٥٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٤١-٢٤٢). وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية (٥/ ١٣): «وهذا حديث غريب، وفيه نكارة وفي إسناده ضعف، والله أعلم بالصواب».

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٦-٥٧)، وابن ماجه (١/ ٢٥٣/ ٧٦٩)، وابن حبان (الإحسان ٤/ ٦٠١/ ١٧٠٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٣٠/ ١٠٣٣٨)، وابن خزيمة (٤/ ١٤٣/ ٢٥٤٦)، وابن حبان (الإحسان ٤/ ٦٠٢-٦٠٣/ ١٧٠٣)، والحاكم (١/ ٤٤٤) وقال: «حديث على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي؛ كلهم من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي ﷺ.

(٧) طرح التثريب (٢/ ٣٩٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الامتراء: الشك. مأخوذ من المِرْيَة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «وجه نظمها بما قبلها: أنه لما حكى حلف الكفار، وأجاب بأنه لا فائدة في إظهار الآيات المقترحة لهم أنهم لا يبقون مصرين على الكفر، بين الدليل على نبوته بإنزال القرآن عليه، وقد عجز الخلق عن معارضته، وحكم فيه بنبوته، وباشتمال التوراة والإنجيل على أنه رسول حق، وأن القرآن كتاب من عند اللَّه حق»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين باللَّه غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أي: بيني وبينكم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي: مبيّنًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[2]. وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه»[3].

قال السعدي: «أي: قل يا أيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه؟! فإن غير اللَّه محكوم عليه لا حاكم. وكل تدبير وحكم

(١) البحر المحيط (٤/ ٢١١).
(٢) يونس: الآية (٩٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣١٤-٣١٥).

للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكمًا؛ هو اللَّه وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ أي: موضحًا فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكمًا، ولا أقوم قيلًا؛ لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى؛ يعترفون بذلك ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، ولهذا تواطأت الأخبار، ﴿فَلَا﴾ تشكّنّ في ذلك، ولا ﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «بين اللَّه تعالى في السياق الذي قبل هذا: أن الذين اقترحوا على رسوله الآيات الكونية، وأقسموا بأنهم يؤمنون بها إذا جاءتهم؛ كاذبون في دعواهم وأيمانهم، كما ثبت فيما مضت به سنة اللَّه في أمثالهم من أعداء الرسل المعاندين، وهم شياطين الإنس والجن الذين يغرون الجاهلين بزخرف أقوالهم، فيصرفونهم بها عن الحق ويزينون لهم الباطل، فتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويرضونه لموافقته لأهوائهم، فيحملهم على اقتراف السيئات وارتكاب المنكرات. ثم قفى عليه بهاتين الآيتين المبينتين لآية اللَّه الكبرى التي هي أقوى دلالة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا ومما لم يقترحوا من الآيات الكونية، وهي القرآن الحكيم، وكون منزلها هو الذي يجب الرجوع إليه في الحكم في أمر الرسالة وغيره، واتباع حكمه فيها دون شياطين الإنس والجن المبطلين المضلين، فقال آمرًا لرسوله أن يقول لهم: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ الحَكَم -بفتحين كالجَبَل-: هو من يتحاكم الناس إليه باختيارهم، ويرضون بحكمه وينفذونه؛ أي: أأطلب حكمًا غير اللَّه تعالى يحكم بيني وبينكم في هذا الأمر وغيره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ أي: والحال أنه هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلًا فيه كل ما يصح به الحكم، فإنزاله مشتملًا على الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع وغيرها على لسان رجل منكم أمي مثلكم؛ هو أكبر دليل وأوضح

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٥٨-٤٦١).

آية على أنه من عند اللَّه تعالى لا من عنده هو، كما قال بأمر اللَّه في آية أخرى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾[١] جاوز الأربعين من السنين ولم يصدر عني فيه شيء من مثله في علومه ولا في إخباره بالغيب، ولا في أسلوبه ولا في فصاحته وبلاغته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢] أن مثل هذا لا يكون إلا بوحي من العليم الحكيم؟ ثم إن ما فصل فيه من سنن اللَّه تعالى في طباع البشر وأخلاقهم، وارتباط أعمالهم بما استقر في أنفسهم من الآراء والأفكار، والأخلاق والعادات الموضح بقصص من قبلنا من الأمم؛ برهان علمي على صحة ما حكم به في طلبكم الآية الكونية، وزعمكم أنكم تؤمنون بها»[٣].

* * *

(١) يونس: الآية (١٦).

(٢) يونس: الآية (١٦).

(٣) تفسير المنار (٨/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما تقدّم من أول السورة إلى هنا دلائل التوحيد والنبوة والبعث، والطعن على مخالفي ذلك، وكان من هنا إلى آخر السورة أحكام وقصص، ناسب ذكر هذه الآيات هنا. أي: «تمت أقضيته وأقداره» قاله ابن عباس. وقال قتادة: «كلماته هو القرآن». وقال الزمخشري: كل ما أخبر به، وأمر ونهى، ووعد وأوعد»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «الكلمة هنا من قبيل قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[3] الآية. فمعنى الجملة: وتمت كلمة ربك أيها الرسول فيما وعدك به من نصرك وما أوعد به هؤلاء المستهزئين بالقرآن المقترحين للآيات وأمثالهم وأقتالهم من معاندي قومك المستكبرين عن الإيمان بك من خذلانهم وهلاكهم، كما تمت من قبل في الرسل وأعدائهم من قبلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4]، وما في معناها من عام كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[5] وخاص كقوله لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[6].

أما تمامها صدقًا؛ فهو وقوع مضمونها من حيث كونها خبرًا. وأما تمامها عدلًا؛ فمن حيث كونها جزاءً للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون، وللمؤمنين

(١) البحر المحيط (٤/ ٢١٢).
(٢) هود: الآية (١١٩).
(٣) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٤) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).
(٥) غافر: الآية (٥١).
(٦) الحجر: الآية (٩٥).

المهتدين بما يستحقون، وإن كانوا بمقتضى الفضل يزادون.

وإذا كانت هذه الآية نزلت بمكة قبل نصر اللَّه تعالى نبيه على طغاة قومه في بدر وغيرها، فالفعل الماضي فيها (تَمَّتْ) بمعنى المستقبل، فهو لتحقق وقوعه كأنه وقع. وهذا من ضروب المبالغة البليغة. وفيه وجه آخر: وهو أن المراد بالخبر هنا لازمه، وهو تأكيد ما تضمنته هذه الآيات من تسلية النبي ﷺ عن كفر هؤلاء المعاندين وإيذائهم له ولأصحابه، وإيئاس الطامعين من المسلمين في إيمانهم بإيتائهم الآيات المقترحة، كأنه يقول: كما أن سنتي مضت بأن يكون للرسل أعداءً من شياطين الإنس والجن قد تمت كلمتي بنصر المرسلين، وخذلان هؤلاء الأعداء الطغاة المفسدين.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ كما أنه لا تبديل لسننه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1] والتبديل: التغيير بالبدل، وهذه الجملة تعليل لما قبلها، والمعنى: أن كلمة اللَّه تعالى في نصرك أيها الرسول وخذلان أعدائك قد تمت وأصبح نفوذها حتمًا لا مرد له؛ لأن كلمات اللَّه التي هي من أفرادها لا مبدل لها؛ إذ لا يستطيع أحد من خلقه -وكل ما عداه فهو من خلقه- أن يزيد كلمة من كلماته بكلمة أخرى تخالفها أو يمنع صدقها على من وردت فيهم، كأن يجعل الوعد وعيدًا أو الوعيد وعدًا، أو يصرفهما عن الموعود بالثواب أو الموعد بالعقاب إلى غيرهما، أو يحول دون وقوعهما ألبتة.

فإن قيل: إن بعض المتكلمين جوز تخلّف الوعيد دون الوعد؛ لأنه فضل وإحسان، قلنا: لم يجوّز أحد من محقّقي أهل الحق تخلّف الوعيد مطلقًا؛ بل صرحوا بأن من أصول العقيدة أن نفوذ الوعيد في الكفار وفي طائفة من عصاة المؤمنين حق، وإنما قيل بتخلف شمول الوعيد لجميع العصاة الذي يدل عليه إطلاق بعض النصوص. ولنا أن نقول: إن هذا ليس بتخلف؛ فيقال: إنه تبديل لكلمات اللَّه سبحانه، وتكذيب لها؛ فإنه تعالى لم يرد بتلك الإطلاقات الشمول العام لجميع أفراد من وردت فيهم تلك النصوص؛ لأنه بين في نصوص أخرى أنه يعفو عن بعض الذنوب، ويغفر لمن يشاء من مقترفيها، ويعذب من يشاء، وهو يعلم

(١) الأحزاب: الآية (٦٢).

من أراد المغفرة لهم ومن أراد تعذيبهم، ولا يبدل كلامه في أحد منهما . وأبهم ذلك علينا لنرجوه دائمًا، ولا يوقعنا العمل الصالح في الغرور والأمن من عذابه فنقصر، ونخافه دائمًا ولا يوقعنا ارتكاب الذنب في اليأس من رحمته فنهلك»[1] .

قال ابن القيم: «فقرر أن ما أخبر به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به، لا نعرض عنه ولا نعارضه. ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدق به، ولو صدقه تصديقًا مجملًا ولم يصدقه تصديقًا مفصلًا في أعيان ما أخبر به؛ لم يكن مؤمنًا، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو حرفه إلى معان أخر غير ما أريد به؛ لم يكن مصدقًا؛ بل هو إلى التكذيب أقرب»[2] .

وقال القرطبي: «ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه؛ لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها»[3] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على من قال بخلق القرآن

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحق: أعوذ بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»[4] .

* عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات اللّه التامات كلها من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[5] .

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٢-١٣). (٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٥-١٠٤٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٦-٢٧٠)، والبخاري (٦/ ٥٠٣/ ٣٣٧١)، وأبو داود (٥/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٧٣٧)، والترمذي (٤/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٢٠٦٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٠/ ١٠٨٤٤-١٠٨٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٤-١١٦٥/ ٣٥٢٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٣٤٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٤/ ١٠٣٩٤-١٠٣٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٤/ ٣٥٤٧).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة؟ قال: «**أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق؛ لم تضرك**»[1].

★ غريب الأحاديث:

بكلمات الله: قال الهروي والقاضي عياض والقرطبي والنووي وابن الأثير وغيرهم: الكلمات هنا هي القرآن.

التامات: قيل: معناه: الكاملة التي لا يدخلها نقص ولا عيب كما يدخل كلام البشر. وقيل: التامة: النافعة الشافية.

هَامَّة: بالتشديد: واحدة الهوام، وهي ذوات السموم.

لامَّة: أي: كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنون وخبل.

★ فوائد الأحاديث:

قال البيهقي: «استعاذ رسول اللَّه ﷺ وأمر أن يستعاذ في هذه الأخبار بكلمات اللَّه تعالى، كما أمره اللَّه تعالى -جل ثناؤه- أن يستعيذ به فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3]، ولا يصح أن يستعيذ بمخلوق من مخلوق، فدل أنه استعاذ بصفة من صفات ذاته، وأمر أن يستعاذ بصفة من صفات ذاته، وهي غير مخلوقة، كما أمره اللَّه تعالى أن يستعيذ بذاته، وذاته غير مخلوق.

... عن علي ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان يقول عند مضجعه: «**اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم، اللهم لا ينهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك وبحمدك**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١/ ٢٧٠٩)، وأبو داود (٤/ ٢٢١/ ٣٨٩٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥١/ ١٠٤٣٦,. ١٠٤٢١)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٢/ ٣٥١٨).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٩٧ و ٩٨). (٣) النحل: الآية (٩٨).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ٣٠١-٣٠٢/ ٥٠٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩١/ ١٠٦٣)، وصحح إسناده النووي في الأذكار كما في تخريجه للحافظ ابن حجر (٢/ ٣٨٣)، وكذا صحح إسناده البيهقي في الأسماء والصفات=

قلت: فاستعاذ رسول اللَّه ﷺ في هذا الخبر بكلمات اللَّه كما استعاذ بوجهه الكريم، فكما أن وجهه الذي استعاذ به غير مخلوق فكذلك كلماته التي استعاذ بها غير مخلوقة، وكلام اللَّه تعالى واحد، وإنما جاء بلفظ الجمع على معنى التعظيم والتفخيم كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] وقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾[2] وإنما سماها تامة لأنه لا يجوز أن يكون في كلامه عيب أو نقص؛ كما يكون ذلك في كلام الآدميين. وبلغني عن أحمد بن حنبل ﷺ؛ أنه كان يستدل بذلك على أن القرآن غير مخلوق»[3].

قلت: قوله: «وكلام اللَّه تعالى واحد» خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن كلام اللَّه ﷻ يتجزأ أو ينقسم ويتبعض ويتفاضل ويتعاقب؛ أي: يتلو بعضه بعضًا.

قال شيخ الإسلام: «إن القرآن قد نطق بأن لله كلمات في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[4]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[5]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[8]، وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾[9]، وكذلك تواتر عن النبي ﷺ الاستعاذة بكلمات اللَّه التامات.

وهذا وأمثاله صريح في تعدد كلماته، فكيف يقال: ليس كلامه إلا معنىً واحدًا

= (٢/ ٩٨)، لكن في السند الحارث الأعور وهو ضعيف، وكذا اختلف في سنده على أبي إسحاق السبيعي وقد عنعنه، فهاتان العلتان -يقول الحافظ في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار (٢/ ٣٨٥)- تحطه من رتبة الصحيح، لذلك اكتفى ﷺ بتحسينه.

(١) الحجر: الآية (٩).
(٢) المرسلات: الآية (٢٣).
(٣) الأسماء والصفات (١/ ٤٧٦-٤٧٨).
(٤) لقمان: الآية (٢٧).
(٥) الكهف: الآية (١٠٩).
(٦) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٧) الأنفال: الآية (٧).
(٨) الشورى: الآية (٢٤).
(٩) التحريم: الآية (١٢).

لا عدد فيه أصلًا»[١].

وقال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: «وفي هذه الأحاديث من الفقه أيضًا: أن كلام اللَّه ﷻ غير مخلوق، وعلى ذلك أهل السنة أجمعون -وهم أهل الحديث والرأي في الأحكام- ولو كان كلام اللَّه أو كلمات اللَّه مخلوقة؛ ما أمر رسول اللَّه ﷺ أحدًا أن يستعيذ بمخلوق، دليل ذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٢]»[٣].

وقال أيضًا: «وفي الاستعاذة بكلمات اللَّه أبين دليل على أن كلام اللَّه منه تبارك اسمه، وصفة من صفاته ليس بمخلوق؛ لأنه محال أن يستعاذ بمخلوق، وعلى هذا جماعة أهل السنة. والحمد لله»[٤].

* * *

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٥١).

(٢) الجن: الآية (٦).

(٣) فتح البر (٢/ ٤٩).

(٤) فتح البر (٢/ ٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

يخرصون: الخرص: الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لا تطع هؤلاء العادلين بالله الأنداد يا محمد فيما دعوك إليه من أكل ما ذبحوا لآلهتهم، وأهلوا به لغير ربهم وأشكالهم من أهل الزيغ والضلال، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض، يضلوك عن دين الله، ومحجة الحق والصواب، فيصدوك عن ذلك، وإنما قال الله لنبيه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من بني آدم؛ لأنهم كانوا حينئذ كفارًا ضلالًا، فقال له -جل ثناؤه-: لا تطعهم فيما دعوك إليه؛ فإنك إن تطعهم ضللت ضلالهم وكنت مثلهم؛ لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطؤوه. ثم أخبر -جل ثناؤه- عن حال الذين نهى نبيه عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فأخبر -جل ثناؤه- أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم، وحسبان على صحة عزم عليه؛ وإن كان خطأ في الحقيقة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقول: ما هم إلا متخرصون يظنون ويوقعون حزرًا لا يقين علم»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، ثم بين بالدليل صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ بين أن بعد زوال الشبهة وظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال، ولا ينبغي أن يتشوش بسبب كلماتهم الفاسدة فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا يدل

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٠).

على أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالًا ؛ لأن الإضلال لابد وأن يكون مسبوقًا بالضلال.

واعلم أن حصول هذا الضلال والإضلال لا يخرج عن أحد أمور ثلاثة:

أولها: المباحث المتعلقة بالإلهيات، فإن الحق فيها واحد، وأما الباطل ففيه كثرة، ومنها القول بالشرك، إما كما تقوله الزنادقة، وهو الذي أخبر اللَّه عنه في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[1]، وإما كما يقوله عبدة الكواكب، وإما كما يقوله عبدة الأصنام.

وثانيها: المباحث المتعلقة بالنبوات؛ إما كما يقوله من ينكر النبوة مطلقًا، أو كما يقوله من ينكر النشرة، أو كما يقوله من ينكر نبوة محمد ﷺ. ويدخل في هذا الباب المباحث المتعلقة بالمعاد.

وثالثها: المباحث المتعلقة بالأحكام، وهي كثيرة، فإن الكفار كانوا يحرمون البحائر والسوائب والوصائل، ويحللون الميتة، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ فيما يعتقدونه من الحكم على الباطل بأنه حق، وعلى الحق بأنه باطل؛ يضلوك عن سبيل اللَّه، أي عن الطريق والمنهج الصدق»[2].

وقال عبد الرحمن السعدي: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ، محذرًا عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق؛ بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا ويتخرصون في القول على اللَّه ما لا يعلمون. ومن كان بهذه المثابة؛ فحري أن يحذر اللَّه منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا وإن كان خطابًا للنبي ﷺ؛ فإن أمته تبع له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه»[3].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذه الآيات سياق جديد في بيان ضلال جميع الأمم في عهد بعثة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وغلبة الشرك عليهم في أثر

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٠).
(٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٧١).
(٣) تفسير السعدي (٢/ ٤٦٢).

بيان ضلال مشركي العرب ومن على شاكلتهم في عقائدهم، وإقامة حجج الإسلام عليهم، ووصل ذلك ببيان مسألة اعتقادية؛ عملية من أكبر أصول الشرك، وهي مسألة الذبائح لغير الله تعالى، قال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه جملة معطوفة على ما قبلها متممة لها، فإنه بين فيما قبلها وحي شياطين الإنس والجن الذي يلقونه لغرور الناس به، وصغي قلوب منكري الآخرة له وافتتانهم به، وما يقابل ذلك من هداية وحي الله المفصل لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر دينهم، الذي يترتب عليه صلاح دنياهم، فهو تعالى يقول لرسوله لا تبتغ أنت ومن اتبعك حكمًا غير الذي أنزل إليك الكتاب مفصلًا، فهذا الكتاب هو الهداية التامة الكاملة، فادع إليه الناس كافة ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي بينها لك فيه؛ لأنهم ضالون متبعون لوحي الشياطين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما يتبعون في عقائدهم وآدابهم وأعمالهم؛ إلا الظن الذي ترجحه لهم أهواؤهم، وما هم فيها إلا يخرصون خرصًا في ترجيح بعضها على بعض، كما يخرص أهل الحرث ثمرات النخيل والأعناب وغيرها، ويقدرون ما تأتي به من التمر والزبيب، فلا شيء منها مبني على علم صحيح ولا ثابت بدلائل تنتهي إلى اليقين. وهذا الحكم القطعي بضلال أكثر أهل الأرض ظاهر بما بينه به من اتباع الظن والخرص، ولاسيما في ذلك العصر، تؤيده تواريخ الأمم كلها، فقد اتفقت على أن أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلالًا بعيدًا وكذلك أمم الوثنية التي كانت أبعد عهدًا عن هداية رسلهم، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، وهو أمي لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا شيئًا يسيرا من شؤون المجاورين لبلاد العرب خاصة»[1].

قال السعدي: «ودلت هذه الآية؛ على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور، أن يكون غير حق. بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق، هم الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا وأجرًا.

بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه»[2].

قلت: هذه آية من آيات النبوة، فإن الله تعالى ربط عبده بالحق الذي أنزله في كتابه وعلى لسان نبيه، فمن وافق هذا كان على الصراط المستقيم، ومن خالفه كان

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٥-١٦).

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤٦٣).

على الضلال المبين.

ومعظم أهل الأرض رغم نزول القرآن وتواتره، وظهور السنة وصحة أسانيدها ومتونها، معظمهم على انحراف واسع في العقائد، فالرافضة الزنادقة السابون لصحابة رسول اللَّه ﷺ، المكفرون لهم، المتهمون لهم بأعظم القبائح من حذف لآيات القرآن وكتمانها، ومن ظلم لأهل البيت، يأخذون حيزا كبيرا في الأرض، وكانت لهم دول ملكت أعظم البلاد؛ مصر والقيروان. وهم الذين أسقطوا الخلافة الإسلامية، وذبحوا العلماء، وأحرقوا كتب السنة، ورموها في دجلة والفرات، وهم الآن لهم دولة كبيرة، وفي بعض البلاد هم أكثر الناس ثروة، ولهم حسينياتهم وأنشطتهم الواسعة، والصوفية يملؤون طول الأرض وعرضها، ولا توجد رقعة ولا دولة إلا وللصوفية فيها وتد، بل يركزون على أقدس الأمكنة، ولاسيما مدينة رسول اللَّه ﷺ، ففيها أكبر زنادقة الصوفية، طهرها اللَّه منهم بفضله وكرمه، والأشاعرة والماتوريدية والمعتزلة هي عقيدة الكثير من علماء العالم الإسلامي ودكاترته، إلا من شاء اللَّه، وأكبر المدارس الإسلامية وعلى رأسها الأزهر الذي أسسه الفاطميون على عقيدة الأشاعرة والماتوريدية، وأكثر الدراسات الإسلامية والشهادات العليا الآن تؤسس لهذه العقائد، تنال بها شهادة الدكتوراة، وهكذا إن شئت أن تتبع المكتبات تجد أكثره من هذا الوادي، فصدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[1] وأهل الحق نزر يسير، إن تتبعتهم وجدتهم يمثلون نسبة قليلة لا تكاد تذكر، وليس لهم كيان ولا أحلاف، ولولا أن اللَّه تعالى قيض للدعوة الحقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لكان لواقعنا أمر آخر، ولكن اللَّه لا يخلف وعده. فقد أخبر نبيه ﷺ أنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحق[2]، فالنصيحة النصيحة لله، ولرسوله، ولكتابه، والبحث البحث عن الحق، وعن الطائفة المنصورة، وأن

---

(١) الأنعام: الآية (١١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٤)، والبخاري (٦/ ٧٨٤/ ٣٦٤٠)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢١). وفي الباب عن معاوية بن أبي سفيان وثوبان وأبي هريرة وعمر بن الخطاب وجابر بن سمرة وعمران بن حصين وقرة وعقبة ابن عامر.

لا يغتر الإنسان بالأسماء، ولا بالكثرة، ولا بالدول، والوزراء، فإن ذلك ليس ميزانا للحق، فالميزان هو ما قال اللَّه، وما قاله رسوله ﷺ، وما فهمه السلف الصالح، وإلا ضللت وأضللت وهلكت وأهلكت.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يا محمد! إن ربك الذي نهاك أن تطيع هؤلاء العادلين بالله الأوثان، لئلاّ يضلوك عن سبيله، هو أعلم منك ومن جميع خلقه، أي خلقه يضل عن سبيله بزخرف القول الذي يوحي الشياطين بعضهم إلى بعض، فيصدون عن طاعته، واتباع ما أمر به ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول: وهو أعلم أيضًا منك ومنهم بمن كان على استقامة وسداد، لا يخفى عليه منهم أحد. يقول: واتبع يا محمد ما أمرتك به، وانته عما نهيتك عنه من طاعة من نهيتك عن طاعته، فإني أعلم بالهادي والمضل من خلقي منك»(١).

قال السعدي: «والله تعالى أصدق قيلًا، وأصدق حديثًا، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي.

فيجب عليكم -أيها المؤمنون- أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم»(٢).

قال محمد رشيد رضا: «إن ربك الذي رباك وعلمك أيها الرسول بما أنزل إليك الكتاب مفصلًا، وبين لك فيه ما لم تكن تعلم من الحق ومن شؤون الخلق، هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن سبيله القويم، وهو أعلم بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم، إذ الضلال ما يصد عن سبيله ويبعد السالك عنه، والاهتداء ما يجذبه إليه ويقربه منه، فكيف لا يكون أعلم به من نفسه، وأصدق في الحكم عليه من حسه، وهو فوق ذلك محيط بكل شيء علمًا؟»(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٠).
(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤٦٣).
(٣) تفسير المنار (٨/ ١٦).

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذروا: أي: اتركوا.

الاقتراف: اكتساب الإثم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «ولما تضمنت الآية التي قبلها الإنكار على اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال -وكانوا يسمون في كثير مما يذكرونه اسم آلهتهم- أمر المؤمنين بأكل ما سمي على ذكاته اسم الله لا غيره من آلهتهم أمر إباحة. وما ذكر اسم الله عليه فهو المذكى لا ما مات حتف أنفه»[1].

وقال الطبري: «﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وعباده المؤمنين به وبآياته: فكلوا أيها المؤمنون مما ذكيتم من ذبائحكم، وذبحتموه الذبح الذي بينت لكم أنه تحل به الذبيحة لكم، وذلك ما ذبحه المؤمنون بي من أهل دينكم، دين الحق، أو ذبحه من دان بتوحيدي من أهل الكتاب؛ دون ما ذبحه أهل الأوثان، ومن لا كتاب له من المجوس ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم بحجج الله التي أتتكم، وأعلامه بإحلال ما أحللت لكم؛ وتحريم ما حرمت عليكم من المطاعم والمآكل مصدقين، ودعوا

(١) البحر المحيط (٤/ ٢١٣).

عنكم زخرف ما توحيه الشياطين بعضها إلى بعض من زخرف القول لكم، وتلبيس دينكم عليكم غرورًا»(١).

وقال ابن العربي: «قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ المعنى: ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه ربكم، وإن قتلتموه بأيديكم؛ وقد بين اللَّه لكم المحرم، وأوضح لكم المحلل، فإن من حرم عليك معنى خاصيا أباح ما سواه، فكيف وقد أذن له في القتل والتسمية عليه وأكله، فكيف يقابل ذلك من تفضيل اللَّه وحكمه وإيضاحه وشرحه بهوى باطل ورأي فاسد؛ صدرا عن غير علم، وكانا باعتداء وإثم، وربك أعلم بالمعتدين»(٢).

وقال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم اللَّه عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما يفعل أهل الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداعًا من عند أنفسهم، وإضلالًا من شياطينهم.

فذكر اللَّه أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع اللَّه، وأنه، أيّ شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم اللَّه عليه، وقد فصل اللَّه لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفًا من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باقٍ على الإباحة. فما سكت اللَّه عنه فهو حلال؛ لأن الحرام قد فصله اللَّه، فما لم يفصله اللَّه فليس بحرام.

ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله اللَّه وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: بمجرد ما

(١) جامع بيان (٨/ ١١).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٤٧).
(٣) المائدة: الآية (٣).

تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتُهم - كما وصفهم اللَّه لعباده- أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة. فهؤلاء معتدون على شرع اللَّه وعلى عباد اللَّه، واللَّه لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم، والقرب منه»[1].

وقال ابن كثير: «﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته في السر والعلانية. وفي رواية عنه: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال: قتادة: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي: قليله وكثيره، سره وعلانيته. وقال السُّدِّي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه: الزنا مع الخليلة والصدائق والأخدان. وقال عِكْرِمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم.

والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهرًا أو خفيًّا، فإن اللَّه سيجزيهم عليه»[3].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه فصل المحرمات، أتبعه بما يوجب تركها بالكلية بقوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، والمراد من الإثم ما يوجب الإثم، وذكروا في ظاهر الإثم وباطنه وجهين: الأول: أن ظاهر الإثم: الإعلان بالزنا، وباطنه: الاستسرار به. قال الضحاك: كان أهل الجاهلية يرون الزنا حلالًا ما كان سرًّا، فحرم اللَّه تعالى بهذه الآية السر منه والعلانية. الثاني: أن هذا النهي عام في جميع المحرمات، وهو الأصح؛ لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز. ثم قيل: المراد: ما أعلنتم وما أسررتم. وقيل: ما عملتم وما نويتم. وقال ابن الأنباري: يريد: وذروا الإثم من جميع جهاته؛ كما تقول: ما

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٦٣-٤٦٤).
(٢) الأعراف: الآية (٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣١٦).

أخذت من هذا المال قليلًا ولا كثيرًا، تريد ما أخذت منه بوجه من الوجوه. وقال آخرون: معنى الآية النهي عن الإثم مع بيان أنه لا يخرج من كونه إثمًا بسبب إخفائه وكتمانه. ويمكن أن يقال: المراد من قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ النهي عن الإقدام على الإثم، ثم قال: ﴿وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ ليظهر بذلك أن الداعي له إلى ترك ذلك الإثم خوف اللَّه لا خوف الناس. وقال آخرون: ظاهر الإثم: أفعال الجوارح، وباطنه: أفعال القلوب؛ من الكبر والحسد والعجب وإرادة السوء للمسلمين، ويدخل فيه الاعتقاد والعزم والنظر والظن والتمني واللوم على الخيرات. وبهذا يظهر فساد قول من يقول: إن ما يوجد في القلب لا يؤاخذ به إذا لم يقترن به عمل؛ فإنه تعالى نهى عن كل هذه الأقسام بهذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقۡتَرِفُونَ﴾. ومعنى الاقتراف قد تقدم ذكره. وظاهر النص يدل على أنه لا بد وأن يعاقب المذنب، إلا أن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب لم يعاقب، وأصحابنا زادوا شرطًا ثانيًا، وهو أنه تعالى قد يعفو عن المذنب فيترك عقابه؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[١]»[٢].

* * *

(١) النساء: الآية (٤٨)، : الآية (١١٦).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة إذ هي جواب لقول المشركين: تتركون ما قتل الله، والنهي أيضًا عما ذبح للأنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبح الإسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخطمي والشعبي وغيرهم فيما تركت التسمية عليه نسيانًا أو عمدًا لم يؤكل. وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسيانًا، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمدًا، وهذا قول الجمهور. وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمدًا أو نسيانًا. وعن ربيعة أيضًا قال عبد الوهاب: التسمية سنة، فإذا تركها الذابح ناسيًا أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمدًا فقال مالك: لا تؤكل. فحمل بعض أصحابه قوله: لا تؤكل، على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهة. وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا أن يكون مستخفًّا، وقال نحوه الطبري.

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وتشريع. وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة والحسن بن أبي الحسن.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ من قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾. ويحتمل أن يعود على ترك الذكر الذي يتضمنه قوله: ﴿لَمْ يُذْكَرِ﴾. و(الفسق): الخروج عن الطاعة، هذا عرفه في الشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ الآية، قال عكرمة: عنى بالشياطين في هذه الآية مردة الإنس من مجوس فارس، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشًا على عداوة النبي ﷺ، فخاطبوهم منبهين على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبح من قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله. فذلك من مخاطبتهم هو الوحي الذي عنى.

و(الأولياء): قريش، و(المجادلة): هي تلك الحجة. وقال ابن عباس وعبد اللَّه بن كثير: بل (الشياطين): الجن، واللفظة على وجهها، وكفرة الجن أولياء الكفرة قريش، ووحيهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم لتلك الحجة، أو على ألسنة الكهان. وقال أبو زميل: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل، فقال: إن إسحق -يعني المختار- زعم أنه أوحي إليه الليلة. فقال ابن عباس: صدق. فنفرت، فقال ابن عباس: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾.

ثم نهى اللَّه ﷻ عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك. وحكى الطبري عن ابن عباس قولًا: إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف؛ لأن اليهود لا تأكل الميتة، أما أن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجون عن العرب»[1].

وقال السعدي: «ويدخل تحت هذا المنهي عنه، ما ذكر عليه اسم غير الله؛ كالذي يذبح للأصنام وآلهة المشركين، فإن هذا مما أهل لغير اللَّه به، المحرم بالنص عليه خصوصًا.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله؛ كالضحايا، والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمدًا ترك التسمية، عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخر الدالة على رفع الحرج عنه.

ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم اللَّه عليه. ونص اللَّه عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾[2]، ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ بغير علم. فإن المشركين -حين سمعوا تحريم اللَّه ورسوله الميتةَ، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة- قالوا -معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان-: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل؛ بل يستند إلى آرائهم الفاسدة

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٤٠).
(٢) المائدة: الآية (٣).

التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السموات والأرض ومن فيهن.

فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع اللَّه وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم؛ فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم، وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون اللَّه، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب اللَّه وسنة رسوله. فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين، حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله»[1].

قلت: ما قاله السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ من المقاربة بين الكشف وبين الوحي، وأن الكشف يتوقف صدقه على الوحي. فأقول: ليس هناك كشف حتى يقارن بالوحي، ويعتبر أصلا من الأصول، فالكشف أصله هوس إن صح وادعاه مدع، فالصحابة رضي الله عنهم خيار الناس وسادتهم لم يزعموا هذه المزاعم، وإنما كانوا منقادين للنبي ﷺ، وهذه كتب السنة من أولها إلى آخرها، وكتب الفقه المقارن، وكتب التوحيد السلفي، ليس فيها شيء من هذه المسائل، وإنما هو فهم يؤتاه الرجل، وعقل متزن، وفطرة سليمة، واجتهاد وتضرع، وتوسل إلى اللَّه تعالى بما يجوز التوسل به، وما سوى ذلك دعاوى نافقة، وأكذوبات تافهة. وقد بلغت الوقاحة بأهل هذا الأصل أي: الكشف، عكس ما قاله السعدي فإن الوحي عندهم يعرض على الكشف، فإن صححه الكشف وإلا رد، كما عقد لذلك أبو حامد الغزالي في إحيائه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

والله المستعان.

وقال القاسمي: «دلت الآية على مشروعية التسمية عند الذبح، فقيل: باسم الله، بهذا اللفظ الكريم. وقيل: بكل قول فيه تعظيم له كالرحمن، وسائر أسمائه الحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾(١)، ولقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾(٢)»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، والتسمية على الذبيحة وتركها

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾»(٤).

★ غريب الحديث:

مما قتلنا: أي ذبحنا.

مما يقتل الله: يعنون الميتة.

★ فوائد الحديث:

قال الرازي: «قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم. فقال الله للمسلمين إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وهو المذكى ببسم الله»(٥).

---

(١) الإسراء: الآية (١١٠).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٦٩٩).

(٤) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٤٥/ ٢٨١٨ إلى ٢٨١٩)، والترمذي (٥/ ٢٤٦/ ٣٠٦٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عباس أيضًا. ورواه بعضهم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ مرسلًا»، والنسائي (٧/ ٢٧٢/ ٤٤٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٥٩/ ٣١٧٣) من طرق في بعضها سبب نزول هذه الآية. وبعضها فيه سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]. والحديث صححه الحاكم في (٤/ ٢٣١) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والحافظ في الفتح (٩/ ٧٧٨).

(٥) التفسير الكبير (١٣/ ١٧٣).

* عن عائشة ﵂؛ أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إن قوما يأتوننا بلحم لا ندري أذكر اسم اللَّه عليه أم لا؟ فقال: «سموا عليه أنتم وكلوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الباجي: «قوله ﷺ: «سموا اللَّه تعالى ثم كلوا» يحتمل أن يريد به الأمر بالتسمية عند الأكل؛ لأن ذلك مما بقي عليهم من التكليف، وأما التسمية على ذبح تولاه غيرهم من غير علمهم؛ فلا تكليف عليهم فيه، وإنما يحمل على الصحة حتى يتبين خلافها. ويحتمل أن يريد به أن سموا اللَّه أنتم الآن فتستبيحون به أكل ما لم تعرفوا أذكر اسمي عليه أم لا، إذا كان الذابح ممن تصح ذبيحته إن سمى اللَّه ﷿»[(٢)].

قال الحافظ أبو عمر: «في هذا الحديث من الفقه: أن ما ذبحه المسلم ولم يعرف هل سمى اللَّه عليه أم لا؛ أنه لا بأس بأكله، وهو محمول على أنه قد سمى، والمؤمن لا يظن به إلا الخير، وذبيحته وصيده أبدًا محمول على السلامة حتى يصح فيه غير ذلك؛ من تعمد ترك التسمية ونحوه، وقد قيل في معنى هذا الحديث: إن النبي ﷺ إنما أمرهم بأكلها في أول الإسلام قبل أن ينزل عليه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وهذا قول ضعيف لا دليل على صحته، ولا يعرف وجه ما قال قائله. وفي الحديث نفسه ما يرده؛ لأنه أمرهم فيه بتسمية اللَّه على الأكل، فدل على أن الآية قد كانت نزلت عليه. ومما يدل أيضًا على بطلان ذلك القول: أن هذا الحديث كان بالمدينة، وأن أهل باديتها إليهم أشير بالذكر في ذلك الحديث. ولا يختلف العلماء أن قوله ﷿: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، نزل في سورة (الأنعام) بمكة، وأن (الأنعام) مكية، فهذا يوضح لك أن الآية قد كانت نزلت عليه، بخلاف ظن من ظن ذلك، واللَّه أعلم.

وقد أجمع العلماء على أن التسمية على الأكل؛ إنما معناها التبرك لا مدخل

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ٧٩١/ ٥٥٠٧)، وأبو داود (٣/ ٢٥٤/ ٢٨٢٩)، والنسائي (٧/ ٢٧٢/ ٤٤٤٨)، وابن ماجه (٢/ ١٠٥٩/ ٣١٧٤).

(٢) المنتقى (٣/ ١٠٥).

فيها للذكاة بوجه من الوجوه؛ لأن الميت لا تدركه ذكاة.

وقد استدل جماعة من أهل العلم أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة بهذا الحديث، وقالوا: لو كانت التسمية واجبة فرضًا على الذبيحة؛ لما أمرهم رسول اللَّه ﷺ بأكل لحم ذبحته الأعراب بالبادية، إذ ممكن أن يسموا، وممكن أن لا يسموا اللَّه لجهلهم؛ ولو كان الأصل ألا يؤكل من ذبائح المسلمين إلا ما صحت التسمية عليه؛ لم يجز استباحة شيء من ذلك إلا بيقين من التسمية، إذ الفرائض لا تؤدى إلا بيقين، وإذ الشك والإمكان لا يستباح به المحرمات، قالوا: وأما قول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، فإنما خرج على تحريم الميتة، وتحريم ما ذبح للنصب وأهل به لغير الله؛ وفي ذلك نزلت الآية حين خاصم المشركون النبي ﷺ»[١].

قال الحافظ في «الفتح»: «ويستفاد منه: أن كل ما يوجد في أسواق المسلمين محمول على الصحة، وكذا ما ذبحه أعراب المسلمين؛ لأن الغالب أنهم عرفوا التسمية»[٢].

* عن رافع بن خديج ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ بذي الحليفة، فأصاب الناس جوع، فأصبنا إبلًا وغنمًا -وكان النبي ﷺ في أخريات الناس- فعجلوا فنصبوا القدور، فدفع النبي ﷺ إليهم، فأمر بالقدور فأكفئت، ثم قسم فعدل: عشرة من الغنم ببعير، فند منها بعير، وكان في القوم خيل يسيرة، فطلبوه فأعياهم، فأهوى إليه رجل بسهم فحبسه اللَّه. فقال النبي ﷺ: «**إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش، فما ند عليكم منها فاصنعوا به هكذا**». قال: قال جدي: إنا لنرجو -أو نخاف- أن نلقى العدو غدًا وليست معنا مدى، أفنذبح بالقصب؟ فقال: «**ما أنهر الدم وذكر اسم اللَّه فكل، ليس السن والظفر، وسأخبركم عنه: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة**»[٣].

---

(١) فتح البر (٩/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) فتح الباري (٩/ ٧٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٣و٤٦٤)، (٤/ ١٤٠و١٤٢)، والبخاري (٩/ ٧٧٧/ ٥٤٩٨) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٥٥٨/ ١٩٦٨). وأخرجه الترمذي (٤/ ٦٨-٦٩/ ١٤٩١) والنسائي (٧/ ٢٥٩/ ٤٤١٥) مختصرًا، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٨/ ٣١٣٧) دون ذكر محل الشاهد.

★ **غريب الحديث:**

فند: بفتح النون وتشديد الدال؛ أي: هرب نافرًا.

أوابد: جمع آبدة بالمد وكسر الموحدة؛ أي: غريبة. والمراد أن لها توحشًا.

مدى: بضم أوله -مخفف مقصور- جمع مدية بسكون الدال بعدها تحتانية، وهي السكين. سميت بذلك لأنها تقطع مدى الحيوان أي عمره.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن في المسلم اسم الله، فإن ذبح ونسي اسم الله فليأكل، وإن ذبح المجوسي وذكر اسم الله فلا تأكله[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فنسخ، واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾[2][3].

* عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا. ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «**أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن**» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد، فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**».

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق (٤/ ٤٨١/ ٨٥٤٨)، والدارقطني (٤/ ٢٩٥-٢٩٦/ ٩٦)، والبيهقي (٩/ ٢٣٩-٢٤٠/ ١٨٨٩١-١٨٨٩٢) كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي الشعثاء قال: حدثنا عين- يعني عكرمة، عن ابن عباس به. وقد صححه ابن السكن والبيهقي وابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١٩).
وقد روي مرفوعًا من طرق عن أبي هريرة وابن عباس كلها لا تخلو من ضعف، ونقله بعضهم عن البراء بن عازب وهو لا أصل له. وانظر التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر (٤/ ١٣٧/ ١٩٥٠).

(٢) المائدة: الآية (٥).

(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٤٥/ ٢٨١٧). وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٢٤٤٣).

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**»(١).

★ غريب الحديث:

استطير: طارت به الجن.

اغتيل: قتل سرًّا، والغيلة من القتل سرًّا.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن عبد البر: «اختلف العلماء فيمن ترك التسمية على الذبيحة والصيد ناسيًا أو عامدًا، فقال مالك والثوري وأبو حنيفة وأصحابه، والحسن ابن حي: إن تركها عمدا لم تؤكل الذبيحة ولا الصيد، فإن نسي التسمية عند الذبيحة وعند الإرسال على الصيد أكلت، وهو قول إسحاق، ورواية عن أحمد بن حنبل؛ ومن حجة من ذهب إلى ذلك: أن تارك التسمية عمدا متلاعب بإخراج النفس على غير شريطتها، وقد أجمعوا أن من شرائط الذبيحة والصيد: التسمية، فمن استباح ذلك على غير شريطته عامدًا؛ دخل في الفسق الذي قال الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾. هذا معنى ما احتجوا به.

وقال الشافعي وأصحابه: تؤكل الذبيحة والصيد في الوجهين جميعًا، تعمد ذلك أو نسيه، وهو قول ابن عباس وأبي هريرة.

وروي عن ابن عباس، وأبي وائل، قالا: إنما ذبحت بدينك.

واحتج من ذهب هذا المذهب بأن قال: لما كان المجوسي لا ينتفع بتسميته إن سمى وتعمد ذلك وقصد إليه، فكذلك لا يضر المسلم ترك التسمية؛ لأنه إنما ذبح بدينه.

وقال أبو ثور وداود بن علي: من ترك التسمية عامدًا أو ناسيًا لم تؤكل ذبيحته ولا صيده.

قال أبو عمر: ما أعلم أحدًا من السلف روي عنه هذا المذهب إلا محمد ابن سيرين والشعبي، ونافعًا مولى ابن عمر. وأما جمهور العلماء فعلى قول مالك

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٦)، ومسلم (١/ ٣٣٢/ ٤٥٠) واللفظ له. وأخرجه: أبو داود (١/ ٣٦/ ٣٩)، والترمذي (١/ ٢٩/ ١٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٩/ ١١٦٢٣) دون ذكر محل الشاهد.

والثوري وأبي حنيفة، وعلى قول الشافعي، على هذين القولين الناس.

وقد روي عن الشعبي خلاف ما حكيناه عنه. ذكر بقي قال حدثنا يحيى بن عبد الحميد، قال حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن عامر في رجل ذبح ونسي أن يسمي، قال: يأكل؛ وعن يحيى بن عبد الحميد الجماني عن ابن المبارك عن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، والحسن في رجل ذبح ونسي أن يسمي الله قالا: يأكل.

وروى إسماعيل بن علية، عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد ابن المسيب والحسن قالا: إذا نسي الرجل أن يسمي عن ذبح؛ فليأكل وليذكر اسم الله في قلبه، وهذا هو الصحيح عن الحسن وسعيد بن المسيب.

وروى أشعث بن سوار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن قال: من نسي التسمية إذا ذبح فليأكل، ومن تركها متعمدا فلا يأكل، وسفيان عن مغيرة، عن إبراهيم مثله.

وروى ابن أبي غنية ومسعد، عن الحكم بن عتبة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: إذا ذبح ونسي أن يسمي فكل، فإنما ذبح بملته، وإنما هي الملة، ذكاة كل قوم ملتهم؛ ألا ترى أن المجوسي لو ذبح فسمى الله لم يأكل.

وذكر وكيع، عن سفيان عن سلمة بن كميل، عن أبي مالك في الرجل يذبح وينسى أن يسمي قال: لا بأس به. قلت: فأين قول الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؟ قال: إنما ذبحت بدينك، وإنما هذا في ذبائح المشركين. وعن ابن عباس من طرق شتى مثل ذلك»[١].

قال شيخنا تقي الدين الهلالي: «الذي نختاره من هذه الأقوال الثلاثة هو: أن الذبيحة إذا ترك ذابحها التسمية سهوًا يجوز أكلها، وإن تركها عمدًا لا يجوز أكلها، والمراد بالشرك هنا كما قال ابن كثير رحمه الله: جعل التشريع لغير الله، فمن اتخذ إمامًا أو شيخًا، وبالغ في تعظيمه حتى جعل له الحكم إذا حلل شيئًا أو حرمه أو أوجبه؛ لم يطالبه بدليل، بل لو كان قوله مخالفًا لكلام الله وكلام رسوله رجحه عليهما، وقال: (إمامي أو شيخي أعلم بالحديث وبالقرآن) فقد أشرك بالله واتخذ شيخه وإمامه ربًا من دون الله»[٢].

---

(١) فتح البر (٩/ ٣٢٦-٣٢٨).

(٢) سبيل الرشاد (١/ ١٩٥).

قال النووي: «قوله: «لكم كل عظم ذكر اسم اللَّه عليه» قال بعض العلماء: هذا لمؤمنيهم، وأما غيرهم فجاء في حديث آخر أن طعامهم ما لم يذكر اسم اللَّه عليه»[١].

قال ابن العربي -ومن الفوائد كذلك-: «الثالثة: وهي المسألة الغارة للأغمار وطائفة ممن ينتسب إلى أهل الأدب، تُنكِر أكل الجن وإن أقروا بوجودهم، وأكلهم صحيح، وشربهم صحيح، ووطؤهم صحيح؛ كما تقدم بيانه ههنا وفي غير موضع. فأما المؤمن منهم فطعامه ما ذكر اسم اللَّه عليه، والروث علف دوابهم. وأما الكافر فطعامه ما لم يذكر اسم اللَّه عليه»[٢].

* * *

(١) شرح مسلم (٤/ ١٤٢).

(٢) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا؛ أي: في الضلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه اللَّه؛ أي: أحيى قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف به. والنور هو: القرآن، كما رواه العَوْفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السُّدِّي: الإسلام. والكل صحيح.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٣)]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[(٤)]. والآيات في هذا كثيرة. ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات؛ ما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٥)].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٢) الملك: الآية (٢٢).
(٣) هود: الآية (٢٤).
(٤) فاطر: الآيات (١٩-٢٣).
(٥) الأنعام: الآية (١).

وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتًا فأحياه اللَّه، وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وقيل: عمار ابن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه اللَّه. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: حسّنّا لهم ما هم فيه من الجهالة والضلالة، قدرًا من اللَّه وحكمة بالغة، لا إله إلا هو»[1].

قال ابن القيم: «فجمع اللَّه تعالى بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها: بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف من المنكر ومن كان كافرا ميت القلب، مغمورا في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟ فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤيده إلى نجاته وسعادته: بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام ونعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط اللَّه وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام، كما قيل:

ليلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
الناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار»[2].

وقال أيضًا: «فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣١-٣٢).

الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرًا ضالاً فهديناه، وجعلنا له نورًا.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم»[1].

وقال أيضًا: «فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور، لم تطفئه عواصف الأهواء، ولم تلتبس به ظلم الآراء، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم، وأن لا يخرجوا عن طريقهم، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأمة»[2].

ثم قال: «فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه، وقد ذكر اللَّه سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان.

فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن اللَّه وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده، ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ وآله.

والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن اللَّه، ولا انقاد لما بعث به رسول اللَّه ﷺ.

ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم،

---

(١) الفوائد (ص: ١١٧-١١٨).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٩-١٠٧٠).

فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات ومدخلهم في النار مظلم، وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولا، فمن أراد اللَّه ﷻ به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﵄، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله**»[1].

وكان النبي ﷺ يسأل اللَّه تعالى أن يجعل له نورا في قلبه، وسمعه، وبصره، وشعره، وبشره، ولحمه، وعظامه، ودمه، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا[2]، فطلب ﷺ النور لذاته، ولأبعاضه، ولحواسه الظاهرة والباطنة، ولجهاته الست. . .

فإحياؤه ﷻ بروحه الذي هو وحيه، وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورا يمشي به بين أهل الظلمة؛ كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم، وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان»[3].

قلت: قد تواردت أقوال هؤلاء العلماء؛ الحافظ ابن كثير والإمام ابن القيم في تفسير الحي والميت في الآية، وأن الحياة حياة الإيمان والعلم النافع، والموت هو الكفر والجهل، والواقع يصدق ما قالاه رحمهما اللَّه، فلو قارن عاقل بين موسى

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٦)، والترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤٢) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن حبان (١٤/ ٤٤-٤٥/ ٦١٦٩-٦١٧٠)، والحاكم (١/ ٣٠-٣١) وقال: «هذا حديث صحيح، قد تداوله الأئمة وقد احتجا بجميع رواته، ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة». قال الذهبي: «على شرطهما ولا علة له».

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٤)، والبخاري (١١/ ١٣٩-١٤٠/ ٦٣١٦)، ومسلم (١/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٧٦٣) وأبو داود (٢/ ٩٣-٩٤/ ١٣٥٣)، والنسائي (٢/ ٥٦٧-٥٦٨/ ١١٢٠). وأخرجه مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد، الترمذي (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ٢٣٢) وقال: «حديث ابن عباس حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦٩/ ٥٠٨).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٣٠-٣٣).

وفرعون لرآى الفرق بينهما، كما بين الشمس في رابعة النهار، وبين ظلمات بعضها فوق بعض، ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وهكذا المقارنة بين إبراهيم ﷺ وبين الملك الجبار النمرود، وهكذا المقارنة بين نبينا محمد ﷺ وبين أكبر رجل في قريش وليكن أبا جهل، وبينه وبين مسيلمة الكذاب والأسود العنسي، ولو أراد طالب العلم أن يتتبع دفاتر التاريخ، ويُحدِث مقارنة بين الداعين إلى التوحيد كالإمام أحمد مثلا والداعين إلى الضلالة كابن أبي دؤاد لخرج بمجلدات في هذا الباب الجامع لكل أبواب الخير والشر، فكم من ميت يمشي على رجليه وهو يحسب نفسه من الأحياء، وكم من حي بحق يرفع اللَّه درجاته، وعند الناس يعد من الأموات.

قال محمد رشيد رضا: «ومن كان ميتا بالكفر والشرك فأحييناه بالإيمان، وكان متسكعًا في ظلمات الجهل والغباوة وتقليد أهل الضلال، فجعلنا له نورًا من آيات القرآن المؤيدة بالحجة والبرهان، يمشي به في الناس على بصيرة من أمره في دينه وآدابه ومعاملاته للناس؛ كمن مثله المبين لحقيقة حاله، كمثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر؟ وفسر بعضهم النور بالدين والإسلام والمصداق واحد، والعبرة في هذا المثل أن يطالب المسلم نفسه بأن يكون: حيًّا عالمًا على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته في الناس، وقدوة لهم في الفضائل والخيرات، وحجة على فضل دينه على جميع الأديان، وعلو آدابه على جميع الآداب. هذا المثل عام يشمل كل من ينطبق عليه في زمن التنزيل وغيره، وعليه عامة أهل التفسير»[1].

قال شيخنا تقي الدين الهلالي: «اتباع القرآن وبيانه الذي جاء به الرسول ﷺ وهو السنة حياة ونور، والإعراض عنهما موت وظلمة، وسبب الموت والظلمة اللذين أصيب بهما المسلمون في هذا الزمان؛ إعراضهم عن كتاب اللَّه وسنة رسوله، فما داموا في هذا الإعراض يستمر موتهم وظلمتهم حتى يرجعوا إليهما. وهذا الموت المعنوي والظلمة المعنوية؛ أشد ضررًا من الموت الحسي والظلمة الحسية كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٠).

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

وهذه حال المسلمين في هذا الزمان»[١].

* * *

(١) سبيل الرشاد (٣/ ٨٤-٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «المعنى: وكما زيّنّا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا في كل قرية ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مفعول أول لـ(جعل)، ﴿أَكَٰبِرَ﴾ مفعول ثانٍ على التقديم والتأخير. و(جعل) بمعنى: صير. و(الأكابر) جمع الأكبر. قال مجاهد: يريد العظماء. وقيل: الرؤساء والعظماء. وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد. و(المكر): الحيلة في مخالفة الاستقامة، وأصله الفتل؛ فالماكر يفتل عن الاستقامة؛ أي: يصرف عنها. قال مجاهد: كانوا يجلسون على كل عقبةٍ أربعةً ينفّرون الناس عن اتباع النبي ﷺ؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: وبال مكرهم راجع إليهم. وهو من الله ﷻ الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم»[1].

وقال السعدي: «وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون؛ غير متساوين؛ فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبوعون، ومنهم: التابعون المرؤوسون. والأولون، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم؛ ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل. وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٧٩).

ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل اللَّه، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم اللَّه ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «والمجرمون أصحاب الجرم أو فاعلو الإجرام، وهو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال. والقرية البلد الجامع للناس، ويستعمل في التنزيل بمعنى العاصمة في عرف هذا العصر؛ أي: المدينة الجامعة التي يقيم فيها زعماء الشعب وأولو أمره. وكذا بمعنى الشعب أو الأمة، ويعبر عنها أهل هذا العصر بالبلد فيقولون: ثروة البلد، ومصلحة البلد؛ أي: الأمة، والمعاهدات بين البلدين تقتضي كذا؛ أي: بين الأمتين أو الدولتين..

ونقول في العبرة بالآية بما يناسب حال هذا العصر: إن سنة اللَّه تعالى في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة أو كل قرية وبلدة بعث فيها رسول أو مطلقا رؤساء وزعماء مجرمون يمكرون فيها بالرسل، أو بأن يكون أكابرها المجرمون ماكرين فيها بالرسل في عهدهم، وبسائر المصلحين من بعدهم. وكذلك شأن أكثر أكابر الأمم والشعوب، ولاسيما في الأزمنة التي تكثر فيها المطامع، ويعظم حب الرياسة والكبرياء: يمكرون بالناس من أفراد أمتهم وجماعاتها؛ ليحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم، ويثمروا مطامعهم فيها، ويمكر الرؤساء والساسة منهم بغيرهم من الأمم والدول؛ لإرضاء مطامع أمتهم، وتعزيز نفوذ حكومتهم في تلك الأمم والدول. وقد عظم هذا المكر في هذا العصر فصار قطب رحى السياسة في الدول، وعظم الإفك بعظمه لأنه أعظم أركانه... وهذا العموم في الآية صحيح واقع يعرفه أهل البصيرة والعلم بشؤون الاجتماع والعمران، ولا تظهر صحة العموم في القرى والأكابر جميعًا بجعل جميع الأكابر المجرمين ماكرين في جميع القرى، أو بجعل جميع المجرمين فيها أكابر أهلها، بحيث يكون الإجرام هو سبب كونهم أكابرها؛ بل قد يتحقق بكون أكثر الأكابر الزعماء مجرمين ماكرين؛ ولاسيما في القرى التي استحقت الهلاك بحسب سنة الاجتماع المبينة في قوله تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٦٩).

﴿مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1]، ولاسيما على القول الراجح بأن معناه: أمرنا مترفيها بما نرسل به الرسل من التوحيد وعبادة اللّه وحده، وما يلزمه حتمًا من الصلاح والإصلاح والعدل؛ ففسقوا عن أمر ربهم وظلموا وأفسدوا؛ فحق عليها القول الذي أوحاه اللّه إلى الرسل بمثل قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] فدمرناها تدميرًا. وكذا على القول بأن معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[3] كثرناهم؛ لأن كثرتهم وقلة الصالحين المتقين لا تتحقق عادة إلا إذا كان جمهور الأكابر منهم...

ثم نعود إلى بحث العموم في الآية فنقول: لو كانت العبارة نصًّا في أن جميع أكابر كل قرية مجرمون ماكرون؛ لوجب جعلها من باب العموم المراد به الخصوص، بأن يراد بالأكابر المجرمين؛ من يقاومون دعوة الإصلاح، ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم؛ لينطبق على الواقع، وإلا فإن أكابر أهل مكة لم يكونوا كلهم ماكرين بالنبي ﷺ والمؤمنين، وإنما كان أكثرهم كذلك.

وعلل المفسرون تخصيص الأكابر بأنهم أقدر على المكر واستتباع الناس، ومن قال منهم بأن المعنى: جعلنا مجرميها أكابر؛ ينبغي له أن يجعل اللام في قوله: ﴿لِيَمْكُرُوا۟﴾ لام العاقبة، فإن المجرمين إذا صاروا أكابر بلد وزعماءه؛ لا يمكنهم أن يحافظوا على مكانتهم فيه إلا بالمكر والخداع، فيصير أمرهم إليهما.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا بيان حقيقة أخرى من طبائع الاجتماع الإنساني متممة لما قبلها، وهي تتضمن الوعيد لأكابر مجرمي مكة الماكرين، والوعد والتسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وذلك بالإيجاز الذي يستنبطه الأذكياء من أمثال هذه القواعد العامة، وسيصرح به في الآيات التالية. أي وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل في عصرهم ودعاة الإصلاح من ورثتهم بعدهم إلا بأنفسهم، وكذا سائر من يعادون الحق والعدل والصلاح؛ لبقاء ما هم عليه من الفسق والفساد؛ لأن عاقبة هذا المكر السيئ تحيق بهم في الدنيا والآخرة. أما في الآخرة فالأمر ظاهر والنصوص واضحة، وأما في الدنيا فبما ثبت

(١) الإسراء: الآية (١٦).
(٢) إبراهيم: الآية (١٣).
(٣) الإسراء: الآية (١٦).

في الآيات من نصر المرسلين، وهلاك الكافرين المعاندين لهم، ومن علو الحق على الباطل ودمغه له، ومن هلاك القرى الظالمة المفسدة، وبما أيد ذلك من الاختبار حتى صار من قواعد علم الاجتماع: أن تنازع البقاء ينتهي ببقاء الأمثل والأصلح؛ وفاقًا للمثل الذي ضربه اللَّه تعالى للحق والباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] ومن النصوص الصريحة فيه بمعنى الآية قوله تعالى في مجرمي مكة: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2] وهذا نص فيما انفردنا بفهمه من أن هذه الآيات بيان لسنن اللَّه تعالى في الاجتماع البشري، وقوله تعالى في رهط قوم صالح المفسدين، وهو ما أشار إليه هنا من سنة الأولين: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصًا على رياستهم وفسقهم وفسادهم؛ لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم تحيق بهم لجهلهم بسنن اللَّه تعالى في خلقه، وهم جديرون بهذا الجهل، وأما أكابر المجرمين في هذا العصر فهم لا يعذرون بالجهل بعد هذا الإرشاد، ولكن هؤلاء قلما يقاومون بمكرهم إصلاحًا يرضي اللَّه تعالى؛ كإصلاح الرسل وورثتهم؛ لأنه لا يكاد يوجد فيقاوموه، ومن هذا القليل مكر أكابر الاتحاديين العثمانيين، لإزالة ما كان في الدولة من بقايا الشرع، وفي الأمة من بقايا الدين، وسوء عاقبتهم دليل على ذلك، وهو حجة على المتعصبين لهم، وعلى المشتبهين في أمرهم. وإنما يمكر أكثر زعماء الأمم اليوم بأمثالهم من المعارضين لهم من أمتهم في الأمور الداخلية، ومن خصومها في السياسة الخارجية والمطامع الأجنبية، فمكرهم في الغالب باطل يصادم باطلًا، وإن كان بعضه يسمى حقًّا عرفيًّا أو سياسيًّا، فإن وجد في بعض هذا الصدام حق صحيح، ووجد من يؤيده وينصره؛ فلا بد أن تكون العاقبة له»[4].

---

(١) الرعد: الآية (١٧).

(٢) فاطر: الآيتان (٤٢ و ٤٣).

(٣) النمل: الآيتان (٥٠و٥١).

(٤) تفسير المنار (٣٣-٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول، فيما حرم اللّٰه عليهم؛ ليصدوا عن سبيل اللّٰه آية؛ يعني: حجة من اللّٰه على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند اللّٰه وحقيقته؛ قالوا لنبي اللّٰه وأصحابه ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ (يقول: يقولون: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أن اللّٰه حرمه علينا ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ يعنون: حتى يعطيهم اللّٰه من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، يقول -تعالى ذكره-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني بذلك -جل ثناؤه-: أن آيات الأنبياء والرسل؛ لم يعطها من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها، يقول -جل ثناؤه-: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيروا ذلك علي أنتم؛ لأن تخير الرسول إلى المرسِل دون المرسَل إليه، واللّٰه أعلم إذا أرسل رسالة بموضع رسالاته»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من اللّٰه بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل؛ كقوله -جل وعلا-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[3] الآية.

---

(١) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٢) تفسير الطبري (٨/ ٢٥).
(٣) الفرقان: الآية (٢١).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾[1] الآية، يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم -قبحهم اللّه- كانوا يزدرون بالرسول، صلوات اللّه وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا؛ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[4]. هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: (الأمين). وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: «كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا»، الحديث[5] بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته -ﷺ- على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به»[6].

قال ابن القيم رحمه الله: «أي: اللّه أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة دون غيره. . . فأخبر سبحانه في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره بما خصصها به، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها»[7].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختيار اللّه لأنبيائه عليهم السلام

* عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن اللّه اصطفى

(١) الزخرف: الآيتان (٣١و٣٢).
(٢) الأنبياء: الآية (٣٦).
(٣) الفرقان: الآية (٤١).
(٤) الأنعام: الآية (١٠).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤) مختصرًا ومطولًا؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢٤-٣٢٥).
(٧) زاد المعاد (١/ ٤١).

كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «ومعنى اختيار اللَّه تعالى لمن شاء من خلقه: تخصيصه إياه بصفات كمال نوعه، وجعله إياه أصلًا لذلك النوع، وإكرامه له على ما سبق في علمه، ونافذ حكمه من غير وجوب عليه ولا إجبار؛ بل على ما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[2]. وقد اصطفى اللَّه تعالى من هذا الجنس الحيواني نوع بني آدم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3]. ويكفيك من ذلك كله أن اللَّه تعالى خلق العالم كله لأجله؛ كما قد صرح بذلك عنه لما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[4]. ثم إن اللَّه تعالى اختار من هذا النوع الإنساني من جعله معدن نبوته، ومحل رسالته، فأولهم: آدم عليه الصلاة والسلام، ثم إن اللَّه تعالى اختار من نطفته نطفة كريمة، فلم يزل ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، فكان منها الأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5]. ثم إن اللَّه تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحق؛ كما قال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[6]، ثم إن اللَّه تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة؛ كما ذكرهم النبي ﷺ في هذا الحديث، ثم إن اللَّه تعالى ختمهم بختامهم، وأمهم بإمامهم، وشرفهم بصدر كتيبتهم، وبيت قصيدتهم، شمس ضحاها، هلال ليلتها، در تقاصيرها زبرجدها، وهو محمد ﷺ، أخره عن الأنبياء زمانًا، وقدمه عليهم رتبة ومكانًا، جعله اللَّه واسطة النظام، وكمل بكماله أولئك الملأ الكرام، وخصه من بينهم بالمقام المحمود، في اليوم

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٧)، ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٥٤٤/ ٣٦٠٦).

(٢) القصص: الآية (٦٨).

(٣) الإسراء: الآية (٧٠).

(٤) الجاثية: الآية (١٣).

(٥) آل عمران: الآيتان (٣٣ و ٣٤).

(٦) النساء: الآية (١٦٣).

المشهود، فهو شفيعهم إذا استشفعوا، وقائدهم إذا وفدوا، وخطيبهم إذا جمعوا، وسيدهم إذا ذكروا، فاقتبس من الخبر عيونه، فبيده لواء الحمد، تحته آدم فمن دون، ويكفيك أثرة وكرامة: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[(١)]»[(٢)].

* عن ابن مسعود قال: «إن اللَّه نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد؛ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند اللَّه حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند اللَّه سيئ»[(٣)].

★ غريب الحديث:

فاصطفاه: فضله واختاره. والاصطفاء: هو أخذ الصافي من جملة معه فيها غيره مما ليس هو مثله.

فابتعثه: أي بعثه، بمعنى: أرسله.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «اللَّه يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالاته، فالنبي يختص بصفات ميزه اللَّه بها على غيره، وفي عقله ودينه، واستعد بها لأن يخصه اللَّه بفضله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٥)]، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء بقوله:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤).

(٢) المفهم (٦/ ٤٦-٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح وهو موقوف على ابن مسعود رقم (٣٦٠٠)». والبزار (٣/ ١١٤/ ٢٣٦٧) كشف الأستار مختصرًا، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٨/ ٨٥٨٢-٨٥٨٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٧-١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون».

(٤) الزخرف: الآيتان (٣١ و ٣٢).

(٥) البقرة: الآية (١٠٥).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]. فأخبر أنه اجتباهم وهداهم.

والأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين، وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون، فلولا وجوب كونهم من المقربين، الذين هم فوق أصحاب اليمين؛ لكان الصديقون أفضل منهم أو من بعضهم.

والله تعالى قد جعل خلقه ثلاثة أصناف، فقال تعالى في تقسيمهم في الآخرة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢]، وقال في تقسيمهم عند الموت: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[٣]، وكذلك ذكر في سورة (الإنسان) والمطففين هذه الأصناف الثلاثة.

والأنبياء أفضل الخلق، وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار، بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين، بل من أفضل السابقين المقربين، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين، وإن كان النبي أيضًا يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيدا، لكن ذاك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي، كما قال عن الخليل: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٤] وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٥].

فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها»[٦].

---

(١) الأنعام: الآيات (٨٤-٨٧).
(٢) الواقعة: الآيات (٧-١٢).
(٣) الواقعة: الآيات (٨٨-٩٤).
(٤) العنكبوت: الآية (٢٧).
(٥) يوسف: الآية (١٠١).
(٦) منهاج السنة (٢/ ٤١٦-٤١٨).

وقال أيضًا: «والله سبحانه قد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، والاصطفاء افتعال من التصفية، كما أن الاختيار افتعال من الخيرة، فيختار من يكون مصطفى. وقد قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فهو أعلم بمن يجعله رسولا ممن لم يجعله رسولا، ولو كان كل الناس يصلح للرسالة لامتنع هذا. وهو عالم بتعيين الرسول، وأنه أحق من غيره بالرسالة، كما دل القرآن على ذلك. وقد قالت خديجة رضي الله عنها لما فجأ الوحي النبي ﷺ وخاف من ذلك فقالت له: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]. وكانت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها أعقل وأعلم من الجهمية، حيث رأت أن من جعله الله على هذه الأخلاق الشريفة، المتضمنة لعدله وإحسانه، لا يخزيه الله، فإن حكمة الرب تأبى ذلك.

وهؤلاء عندهم هذا لا يعلم، بل قد يخزى من يكون كذلك، وقد ينبأ شر الناس، كأبي جهل وغيره. ولهذا أنكر المازري وغيره على خديجة، كما أنكروا على هرقل استدلاله بما استدل به في حديث أبي سفيان المشهور لما سأل عن صفات النبي ﷺ.

والله سبحانه إذا اتخذ رسولًا فضله بصفات أخرى لم تكن موجودة فيه قبل إرساله، كما كان يظهر لكل من رأى موسى وعيسى ومحمدًا من أحوالهم وصفاتهم بعد النبوة. وتلك الصفات غير الوحي الذي ينزل عليهم، فلا يقال: إن النبوة مجرد صفة إضافية كأحكام الأفعال، كما تقوله الجهمية»[2].

* حديث أبي سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: «وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، فقال للترجمان، قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٩٢٦-٩٢٧/ ٤٩٥٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢/ ١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) منهاج السنة (٥/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (١/ ٤٢/ ٧) ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، وأخرجه أبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦) والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) مختصرا، لكن دون ذكر محل الشاهد عندهما، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

★ **فوائد الحديث:**

قوله : «هو فينا ذو نسب» :

قال محمد خضر الشنقيطي : «أي : صاحب نسب عظيم . فالتنوين للتعظيم على حد قوله تعالى : ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1]»[2] .

قال ابن بطال : «فيه أن الرسل لا ترسل إلا من أكرم الأنساب ؛ لأن من شرف نسبه كان أبعد له من الانتحال لغير الحقائق»[3] .

قوله : «كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها» :

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «يعني في أكرمها أحسابًا وأكثرها قبيلةً ، صلوات اللَّه عليهم أجمعين ، فهو سيد ولد آدم ، وفخرهم في الدنيا والآخرة»[4] .

قال القرطبي : «إنما كان ذلك لما خص اللَّه به الأشراف من مكارم الأخلاق ، والتباعد عن سفسافها ، والصدق والأمانة ، ولتنجذب النفوس إليهم ؛ فإن الأبصار مع الصور ، وأقل ما في الوجود إدراك البصائر»[5] .

قال القسطلاني : «وأنت إذا اختبرت حال نسبه الشريف ، وعلمت طهارة مولده ؛ تيقنت أنه سلالة آباء كرام ، فهو ﷺ النبي العربي الأمي الأبطعي الحرمي ، الهاشمي القرشي نخبة بني هاشم المختار المنتخب من خير بطون العرب ، وأعرقها في النسب ، وأشرفها في الحسب ، وأنظرها عودًا ، وأطولها عقودًا ، وأطيبها أرومة ، وأعزها جرثومة ، وأفصحها لسانًا ، وأوضحها بيانًا ، وأرجحها ميزانًا ، وأصحها إيمانًا ، وأعزها نفرًا ، وأكرمها معشرًا ؛ من قبل أبيه وأمه ، ومن أكرم بلاد اللَّه على اللَّه وعلى عباده»[6] .

* * *

---

(١) البقرة : الآية (٢٧٩) .
(٢) كوثر المعاني (١/ ٣٣٢) .
(٣) شرح البخاري (١/ ٤٥) .
(٤) السيرة النبوية (١/ ١٨٣) .
(٥) المفهم (٣/ ٦٠٥) .
(٦) المواهب اللدنية (١/ ٨٩-٩٠) .

قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الإجرام: الإقدام على القبيح بالانقطاع إليه.

الصغار: الضيم والذل والهوان.

يمكرون: المكر في الأصل: إخفاء الحيلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا وعيد شديد من اللَّه وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي اللَّه (صغار) وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًّا، وهو التلطف في التحيل والخديعة؛ قوبلوا بالعذاب الشديد جزاءً وفاقًا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[3]؛ أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»»[4].

قال محمد رشيد رضا: «هذا الوعيد صريح في كون قائلي ذلك القول ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[5] من المجرمين الماكرين الذين مضت سنة اللَّه تعالى: أن يكونوا أكابر وزعماء في كل قرية دب فيها الفساد، وكان أهلها مقاومين

---

(١) غافر: الآية (٦٠).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) الطارق: الآية (٩).
(٤) تفسير القرآن (٣/ ٣٢٦).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٤).

للإصلاح، وفيما ذهبنا إليه من عود مكرهم عليهم بعقاب الله تعالى إياهم في الآخرة باضطراد، وفي الدنيا حيث يمكرون بالرسل ويصدون عما جاؤوا به، أو ما يقرب مما جاؤوا به من الإصلاح، وقد قصر الحافظ ابن كثير في اقتصاره على ذكر عقابهم في الآخرة. . . ومعنى كون هذا الصغار يصيبهم عند الله: أنه يحصل لهم في الآخرة؛ إذ كل ما فيها يطلق عليه أنه عند الله، باعتبار أنه ليس لأحد من الخلق هنالك تصرف ما ولا تأثير لا كالدنيا التي صرف الله فيها الناس أنواعًا من التصرف. أو معناه أنه مما اقتضاه حكمه وعدله، وسبق به تقديره، فإن ما هو ثابت عند الله في حكمه القدري التكويني الذي دبر به نظام الخلق، وما ثبت في حكمه الشرعي التكليفي الذي أقام به العدل والحق، يطلق على كل منهما أنه عنده. قال تعالى في أهل الإفك: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[(١)] ثم قال فيه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[(٢)] وعلى القول الثاني يصح أن يحصل هذا الجزاء لهم بالصغار على استكبارهم عن الحق في الدار الدنيا قبل الآخرة، وعلى القول الأول يتعين أن يكون في الآخرة، وحينئذ يكون المراد بالعذاب الشديد: ما يصيبهم في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة جميعًا. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]. وقال في عاد قوم هود بعد ما ذكر من استكبارهم وجحودهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٤)] وعذاب الأمم في الدنيا بذنوبها مطرد، ولا يطرد عذاب الأفراد؛ وإن كانوا من المجرمين الماكرين، ولكن أكابر مجرمي مكة الذين تصدوا لإيذاء النبي ﷺ والكيد له؛ قد عذبوا في الدنيا؛ كالخمسة المستهزئين الذين قيل: إن السياق السابق في طلب الآيات الذي يعد هذا السياق تابعًا له؛ نزل فيهم؛ لأنهم رؤساء المجرمين. . . وقتل من قتل منهم في بدر، كما هو معروف في السيرة النبوية.

وإذ قد بين تعالى عاقبة المجرمين الماكرين الذين حرموا الاستعداد للإسلام بعد بيان حالهم؛ قفى عليه بالمقابلة بينهم وبين المستعدين له، ثم ببيان ظهور هدايته،

---

(١) النور: الآية (١٣).
(٢) النور: الآية (١٥).
(٣) الزمر: الآيتان (٢٥ و ٢٦).
(٤) فصلت: الآية (١٦).

واستقامة محجته، وبجزاء المهتدين به، على حسب سنته في كتابه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عاقبة الماكرين والغادرين

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان»**[٢].

★ **غريب الحديث:**

غادر: الغادر هو الذي يواعد على أمر ولا يفي به.

اللواء: قال أهل اللغة: اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون تبعًا له.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معنى لكل غادر لواء: أي علامة يشهر بها في الناس؛ لأن موضوع اللواء الشهرة مكان الرئيس علامة له، وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر؛ لتشهيره بذلك».

وقال أيضًا: «وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر، لاسيما من صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين. وقيل: مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء، كما جاء في الحديث الصحيح في تعظيم كذب الملك. والمشهور أن هذا الحديث وارد في ذم الإمام الغادر. وذكر القاضي عياض احتمالين: أحدهما هذا، وهو نهي الإمام أن يغدر في عهوده لرعيته وللكفار وغيرهم، أو غدره للأمانة التي قلدها لرعيته، والتزم القيام بها والمحافظة عليها، ومتى خانهم أو ترك الشفقة عليهم أو الرفق بهم؛ فقد غدر بعهده. والاحتمال الثاني: أن يكون المراد نهي الرعية عن الغدر بالإمام، فلا يشقوا عليه العصا، ولا يتعرضوا لما يخاف حصول فتنة بسببه. والصحيح الأول، واللَّه أعلم»[٣].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٠-٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤١١و٤١٧و٤٤١)، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٦)، ومسلم (٣/ ١٣٦٠/ ١٧٣٦) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٥/ ٨٧٣٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٩/ ٢٨٧٢).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٣٨-٣٩).

قال الحافظ: «ولا أدري ما المانع من حمل الخبر على أعم من ذلك»[١].

قال ابن بطال: «قال المهلب: أخبر ﷺ: أن عقوبة الغادر يوم القيامة أن يرفع له لواء ليعرف الناس بغدرته، فينظرون منه بعين المعصية، وهذه عقوبة من نوع ما قال اللَّه في عقوبة الكاذبين على الله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٢] وإنما قال البخاري: باب (إثم الغادر للبر والفاجر) لعموم قوله ﷺ: **«لكل غادر لواء يوم القيامة» فدخل فيه من غدر من بر أو فاجر، دل أن الغدر حرام لجميع الناس برهم وفاجرهم؛ لأن الغدر ظلم، وظلم الفاجر حرام كظلم البر التقي**»[٣].

قال ابن كثير: «والحكمة في هذا: أنه لما كان الغدر خفيًّا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل»[٤].

قلت: هذه الآيات، وهذه الأحاديث، وهذه التوجيهات من أقوال المفسرين، وشراح الحديث، يتبين بها لنا أن المجرمين في كل وقت وزمان ومكان لا بد أن ينالوا جزاءهم، كل بحسبه، وجزاء الغدر من جنس العمل، فالغدر هو مفاجأة المغدور بما لم يحتسب، فالكريم إذا أُكرِم فإنه يعترف بالفضل لأهله والكرم لأصحابه، ومن ذلك الدعاء له والثناء عليه ونصرته، وإن كان نبيا ذب عنه وحمى دعوته ونشرها، وبذل كل ما في وسعه لشكر هذه النعمة بكل أنواع الشكر، لكن قد يقع العكس ويقابل الخير باللؤم، كما وقع لنبينا صلى اللَّه عيه وسلم مع أهل مكة، فلا شك في لؤمهم حينئذ، لأن اللَّه -تبارك وتعالى- أكرمهم بأعظم نعمة كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[٥] وهكذا العلماء بعد نبينا محمد ﷺ، وهم ورثته تجب معاونتهم، ومساعدتهم، والإقبال عليهم، والذب عنهم، والتضحية معهم في نشر دعوتهم، وهكذا كل من أعطي نعمة؛ من عالم ومتعلم

---

(١) الفتح (٦/ ٣٤٩).

(٢) هود: الآية (١٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (٥/ ٣٧٠-٣٧١).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٦).

(٥) الجمعة: الآية (٢).

وتلميذ وطالب، وحاكم ومحكوم، إذا أراد الفوز والفلاح فعليه بشكر نعمته، وإلا صدقت عليه الآية والحديث، وشرح هذا يطول ولنكتفي بالإشارة فإن فيها تنبيها وكفاية.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحَرَج: بفتح الراء وكسرها: شدة الضيق.

الرجس: كل ما يسوء أو يستقذر حسًّا أو عقلًا وعرفًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «وفي هذه الآية أبين البيان لمن وفق لفهمها، عن أن السبب الذي به توصل إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به توصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند اللَّه، وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- أخبر عن نفسه: أنه يشرح صدر من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدر من أراد إضلاله ضيقًا عن الإسلام حرجًا، كأنما يصعد في السماء. ومعلوم أن شرح الصدر للإيمان خلاف تضييقه له، وأنه لو كان توصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه؛ لم يكن بين تضييقه عنه وبين شرحه له فرق، ولكان من ضيق صدره عن الإيمان قد شرح صدره له، ومن شرح صدره له فقد ضيق عنه، إذ كان موصولًا بكل واحد منهما، أعني من التضييق والشرح إلى ما يوصل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وجب أن يكون اللَّه قد كان شرح صدر أبي جهل للإيمان به، وضيق صدر رسول اللَّه ﷺ عنه، وهذا القول من أعظم الكفر باللَّه، وفي فساد ذلك أن يكون كذلك الدليل الواضح على أن السبب الذي به آمن المؤمنون باللَّه ورسله وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون باللَّه، وعصاه العاصون، وأن كلا السببين من عند اللَّه وبيده؛ لأنه أخبر -جل ثناؤه-، أنه هو الذي يشرح صدر هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيق صدر هذا

الكافر عنه إذا أراد إضلاله»[١].

قال ابن القيم: «فصل في أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له ﷺ:

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾.

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه. ومنها: النور الذي يقذفه اللَّه في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب. فإذا فقد هذا النور من قلب العبد، ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه..

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد؛ انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ، وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

ومنها: الإنابة إلى اللَّه ﷻ، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحيانا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذا في عيش طيب. وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن اللَّه تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئًا غير اللَّه عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا،

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٠).

(٢) الزمر: الآية (٢٢).

ولا أتعب قلبًا، فهما محبتان، محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة اللَّه وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل، والإرادة، والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر: دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه؛ من المال والجاه والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا. وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ في الصحيح مثلًا للبخيل والمتصدق؛ كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، كلما هم المتصدق بصدقة، اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة، لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه[1]. فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان: أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتها، ونعيمها وابتهاجها، فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن اللَّه سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره. وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضا وجنة، وذلك الضيق والحصر، ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا. فحال العبد في القبر، كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٦)، والبخاري (٣/ ٣٨٩/ ١٤٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٨/ ١٠٢١)، والنسائي (٥/ ٧٤-٧٥؛٧٦/ ٢٥٤٦-٢٥٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان واللَّه المستعان.

ومنها بل من أعظمها: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا اللَّه ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم! وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله! وما أشد حصر قلبه! ولا إله إلا اللَّه، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم! وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها! فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[1] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[2]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا اللَّه -تبارك وتعالى-.

والمقصود: أن رسول اللَّه ﷺ كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة، وقرة العين مع ما خص به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له، أكملهم انشراحًا ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره، وقرة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، واللَّه المستعان.

وهكذا لأتباعه نصيب من حفظ اللَّه لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم،

---

(١) الانفطار: الآية (١٣).

(٢) الانفطار: الآية (١٤).

وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل ومستكثر، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

قال عبد الرحمن السعدي: «يقول تعالى مبيِّنًا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله: إن من انشرح صدره للإسلام؛ أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذا به غير مستثقل، فإن هذا، علامة على أن اللَّه قد هداه، ومن عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطريق.

وأن علامة من يرد اللَّه أن يضله، أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا. أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين. قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير، كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء؛ أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة فيه. وهذا سببه عدم إيمانهم، فهو الذي أوجب أن يجعل اللَّه الرجس عليهم؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان. وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى؛ ييسره اللَّه لليسرى. ومن بخل واستغنى، وكذب بالحسنى؛ فسييسره للعسرى»[2].

قال محمد رشيد رضا: «هذا وصف لحال المستعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته، وطهارة نفسه؛ من الخلقين الصادين عن إجابة دعوة الحق، وهما الكبرياء والحسد، وبتحليها: أي: نفسه، بالهاديين إلى الحق والرشاد. وهما استقلال الفكر الصاد عن تقليد الآباء والأجداد، وقوة الإرادة الصارفة عن اتباع الرؤساء، أو مجاراة الأنداد، فمن كان كذلك كان أهلًا بإرادة اللَّه تعالى، وتقديره لقبول دعوة الإسلام، الذي هو دين الفطرة ومهذبها، فإذا ألقيت إليه وجد لها في صدره انشراحًا واتساعًا؛ بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول، وذلك أنه لا يجد مانعًا من النظر الصحيح فيما ألقي إليه، فيتأمله فتظهر له آيته، وتتضح له دلالته فتتوجه إليه إرادته، ويذعن له قلبه فتتبعه جوارحه، وهذا هو النور الذي يفيض عليه من القرآن،

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٣-٢٨).

(٢) تفسير السعدي (٢/ ٤٧١).

أو الذي يسير فيه باتباعه له، فهذه الآية مقابلة لآية المثل الذي ضربه اللّه تعالى في هذا السياق للمؤمنين والكافرين، وما العهد بها ببعيد، وفي معناها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]».

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾، قال: «وهذا وصف للكافر غير المستعد لقبول الإسلام؛ بما أفسد من فطرته بالشرك وأعماله، وبما تدنست به نفسه من رذيلتي الكبر والحسد، اللذين يصرفان المدنس بهما عن التأمل فيما يدعى إليه، والحرص على استبانة الحق والباطل فيه، ويشغلانه بما يكون من شأنه مع الداعي له إلى الشيء، فيعز على المستكبر والحاسد أن يكون تابعا لغيره، وهو يرى نفسه أجدر بالإمامة منها بالقدوة، أو بما سلبه استقلال الفكر وصحة النظر من التقليد الأعمى الأصم، أو ما حرمه حرية التصرف؛ وهو ضعف الإرادة عن مخالفة الجمهور، فهو إذا عرضت عليه الدعوة يجد صدره ضيقًا حرجًا، أو ذا حرج شديد، وهو تأكيد للضيق لأنه معناه. . .

والمعنى أنه يجد صدره شديد الضيق، لا يتسع لقبول شيء جديد مناف لما استحوذ على قلبه وفكره من التقاليد، أو لما يزلزل كبرياءه ويصادم حسده من الخضوع والاتباع؛ لمن يرى نفسه أولى منه بالرياسة والإمامة، فيكون استثقاله لإجابة الدعوة وشعوره بالعجز عنها؛ كشعوره بالعجز عن الصعود بجسمه في جو السماء؛ لأجل الوصول إليها، أو التصاعد فيها بالتدريج، أو التصعد أي التكلف له. وصعود السماء يضرب به المثل فيما لا يستطاع، أو ما يشق على النفس حتى كأنه غير مستطاع».

قوله: «﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: مثل جعل الصدر ضيقًا حرجًا بالإسلام، وعلى هذا النحو في سنة اللّه فيه وتقديره له بما ذكرنا من أسبابه؛ يجعل اللّه الرجس على الذين يعرضون عن الإيمان، فيظهر في أعمالهم وتصرفهم، ولاسيما مع أهل الدعوة، فيكون معظمها قبيحًا سيئًا في ذاته، أو فيما بعث عليه من قصد ونية، فإن الرجس يطلق في اللغة على كل ما يسوء أو يستقذر

(١) الزمر: الآية (٢٢).

حسًا أو عقلًا وعرفًا».

إلى أن قال: «واعلم أيها القارئ: أن هذه الآية كانت معترك أهل الكلام من القدرية الجبرية والمعتزلة والأشعرية؛ فالقدرية الذين ينكرون أن خلق الخلق وقع بتقدير سابق من اللَّه تعالى، ونظام ثابت بسنن حكيمة، يقولون: إن الآية ظاهرة في أن اللَّه تعالى إذا أراد هداية امرئ يخلق في صدره انشراحًا للإسلام، فيكون قبوله له بخلق اللَّه، وهذا الخلق يحصل أنفا أي جديدا غير مرتب على تقدير سابق، والجبري منهم ومن غيرهم يقول: إذا كان الأمر كذلك فإسلام المرء ليس باختياره ولا كسبه، بل بفعل اللَّه تعالى وحده، ومن الأشعرية من يقول: له فيه كسب ينسب إليه، ولكنه مخلوق لله لا تأثير له في نفسه، وحاصل القولين واحد، ويقولون مثل هذا فيمن يريد أن يضله فيخلق له من ضيق الصدر والحرج ما يثبت به على كفره، ويمتنع من قبول الإيمان. وللمعتزلة تأويلات في الآية حاولوا فيها تطبيقها على مذهبهم؛ في كون إيمان المرء وكفره من فعله المستقل، فجعلها بعضهم خاصة بهداية المؤمن في الآخرة إلى طريق الجنة وضلال الكافر عنه. وبعضهم من قبيل ما يعبرون عنه بمنح الألطاف والتوفيق المسهل لمن أراد اللَّه هدايته أن يهتدي بفعله وكسبه، وعدم منح ذلك لمن لا يريد منه ذلك؛ فيبقى على كفره بإرادته واختياره، وهذا أقرب ما قالوه إلى مذهب أهل السنة.

وإنما وقع حذاق النظار في أمثال هذا الخلاف؛ لاتخاذ مذاهبهم أصولًا مسلمة، ومحاولة حمل نصوص كتاب اللَّه تعالى وأخبار رسوله ﷺ عليها؛ لتصحيحها وإبطال مذاهب خصومهم المخالفة لها، فهم ينظرون في كل آية تتعلق بقواعد هذه المذاهب مفردة على حدتها، ولا يعرضونها على سائر الآيات التي في موضوعها؛ ليكونوا مؤمنين وعاملين بالكتاب كله غير جاعليه عضين. ومن استعرض عقله عند تحقيق كل عقيدة أو مسألة: مجموع ما ورد فيها؛ يتجلى له الحق، وأنه لا مجال للاختلاف في كتاب اللَّه سبحانه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] ففي الكتاب أن اللَّه تعالى خلق كل شيء بقدر لا أنفا جديدا غير مرتبط بنظام سابق، وفيه أن كل شيء بإرادته ومشيئته، وأن مشيئته مقرونة

(١) النساء: الآية (٨٢).

بحكمته التي اقتضت النظام والتقدير، وتنزه بها عن الأنف والجزاف والتفاوت والخلل، وفيه أن إيمان العبد المكلف يقع بفعله واختياره، وأن اللَّه تعالى هو الذي خلقه فاعلًا بالإرادة والاختيار، وبهذا لا يكون فعله وكسبه منافيًا لخلق اللَّه ومشيئته، ولا جاعلًا له مستقلاً دونه تعالى مستغنيًا عن توفيقه وإمداده في كل حين، حتى يقال: إنه جعل خالقًا لعمله، فالفرق بين الفعلين عظيم، وبهذا الجمع بين نصوص الوحي؛ تظهر حجة اللَّه البالغة على الخلق.

والتوفيق عناية خاصة من اللَّه تعالى، يتفضل بها على بعض عباده، وهو أعلم حيث يضع توفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته. فيجمع لمن تفضل عليه به بين ما جعله في مقدوره وتناول كسبه، وبين ما ليس كذلك مما فيه الخير والمصلحة له، فيتفق له الأمران، والخذلان ضده أو عدمه، فهو أمر سلبي، ولا يظلم اللَّه العبد المخذول شيئًا، وقد يفسر الشيء تفسيرًا سلبيًا تكون حقيقته إيجابية، وتفسيرًا إيجابيًا تكون حقيقته سلبية. قال المحقق ابن القيم في بيان مشهد التوفيق والخذلان من كتابه 'مدارج السالكين': وقد أجمع العارفون بالله: أن التوفيق هو أن لا يكلك اللَّه إلى نفسك، والخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، اهـ. وهذا تعريف بالرسم واضح المعنى فيما قلناه، فمعنى أن لا يكلك إلى نفسك؛ هو أن يمنحك فوق كل ما في قدرتك، وما تتوجه إليه إرادتك مما تعلم من الخير لنفسك، ما يتوقف عليه النجاح وإصابة الخير، مما ليس في مقدورك ولا يصل إليه اجتهادك وحدك، وبعض ذلك نفسي، وبعضه خارجي، فمعنى التوفيق إيجابي. وقولهم في تفسير الخذلان (أن يكلك إلى نفسك) معناه: أن لا يمنحك شيئًا من العناية الخاصة فيما يصل إليه كسبك، ولا تسخير ما لا يصل إليه، فلا تنال من الخير إلا بقدر قدرتك على ما تعلم وتريد من أسبابه، وقدرتك لا تصل إلى كل ما تعلم أن فيه الخير لك، وعلمك غير محيط بما فيه ذلك الخير فأنت تجهل كثيرًا، وما أوتيت من العلم إلا قليلًا، وكثيرًا ما تظن الجهل علمًا والشر خيرًا.

وقد جاء ابن القيم بعد ذلك بتفسير إيجابي فقال: والتوفيق إرادة اللَّه من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد؛ بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه، مريدًا له محبًّا له، مؤثرًا له على غيره، ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه إليه، وهذا مجرد فعله والعبد محل له. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ

وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله، إلى آخر ما قال وأجاد»[2].

* * *

(١) الحجرات: الآيتان (٧ و٨).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٢-٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وهذا الذي بينا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن، هو صراط ربك، يقول: طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينًا، وجعله مستقيمًا لا اعوجاج فيه، فاثبت عليه وحرم ما حرمته عليك، وأحلل ما أحللته لك، فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته لقوم يذكرون، يقول: لمن يتذكر ما احتج الله به عليه من الآيات والعبر، فيعتبر بها، وخص بها الذين يتذكرون؛ لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولوا الحجا والفضل، فقيل: يذكرون»[(١)].

وقال ابن عطية: «هذا إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد ﷺ، قاله ابن عباس. و(الصراط): الطريق، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره. و﴿مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ حال مؤكدة، وليست كالحال في قولك: جاء زيد راكبًا؛ بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود. و﴿فَصَّلْنَا﴾ معناه: بيّنّا وأوضحنا. وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء»[(٢)].

وقال الرازي: «لما أمر الله تعالى بمتابعة ما في الآية المتقدمة، وجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات؛ لأنه تعالى إذا ذكر شيئًا وبالغ في الأمر بالتمسك به والرجوع إليه والتعويل عليه، وجب أن يكون من المحكمات. فثبت أن الآية المتقدمة من المحكمات، وأنه يجب إجراؤها على ظاهرها، ويحرم التصرف فيها بالتأويل»[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٢).
(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٤٤).
(٣) تفسير الرازي (١٣/ ١٩٧).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أي: وهذا الإسلام الذي يشرح الله له صدر من يريد هدايته، هو صراط ربك أيها الرسول الذي بعثك به، وبين لك في هذه الآيات أو هذه السورة أصوله وعقائده بالحجج النيرات، والآيات البينات، حال كونه مستقيمًا في نظر العقل الصحيح ومقتضى الفطرة السليمة من فساد الإفراط والتفريط، فلا اعوجاج فيه ولا التواء، وإنما هو السبيل السواء، ومن عرفه تبين له اعوجاج ما عداه من السبل، التي عليها سائر أهل الملل والنحل، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: قد بينا الآيات والحجج المثبتة لحقيته وأصوله الراسخة، ومحاسن فروعه المثمرة النافعة، لقوم يتذكرون ما بلغوه منها، كلما عرضت الحاجة إليه، فيزدادون بها يقينًا ورسوخًا في الإيمان، ويدرؤون ما يورد عليهم من الشبهات والأوهام، كما يزدادون إذعانًا وموعظة، تبعثهم على الأعمال الصالحة، ولذلك خصوا بالذكر دون غيرهم، وتفسيرنا للمشار إليه بقوله: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ بالإسلام هو الموافق لقواعد العربية؛ لأنه أقرب مذكور يصح أن يكون هو المراد، وهو المروي عن ابن عباس، ومن خالفه فقد تكلف وتعسف»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٦٢-٦٣).

قوله تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره- بقوله لهم للقوم الذين يذكرون آيات اللَّه، فيعتبرون بها، ويوقنون بدلالتها على ما دلت عليه من توحيد اللَّه، ومن نبوة نبيه محمدﷺ، وغير ذلك، فيصدقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذلك. وأما دار السلام، فهي دار اللَّه التي أعدها لأوليائه في الآخرة؛ جزاء لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات اللَّه وهي جنته.. وأما قوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ فإنه يقول: واللَّه ناصر هؤلاء القوم الذين يذكرون آيات اللَّه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني جزاء بما كانوا يعملون من طاعة اللَّه، ويتبعون رضوانه»[١].

قال محمد رشيد رضا: «أي: لهؤلاء القوم المتذكرين السالكين صراط ربهم المستقيم، دون غيرهم من متبعي سبل الشياطين، دار السلام عند ربهم بسلوكهم صراطه الموصل إليها، وهو ما كانوا يعملونه كما صرح به في آخر الآية. فهذا بيان جزاء المؤمنين الصالحين، في مقابل ما بين قبله من جزاء المجرمين، بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾[٢] ودار السلام هي الجنة دار الجزاء للمؤمنين المتقين، أضيفت إلى اسم اللَّه (السلام) كما رواه ابن جرير عن السدي، وعزاه بعض المفسرين إلى الحسن وابن زيد أيضًا، وقيل: إن (السلام) مصدر سلم؛ كالسلامة. والإضافة على التفسير الأول للتشريف، وكذا للإيذان بسلامة تلك الدار من العيوب، وسلامة أهلها من جميع المنغصات والكروب، خلافًا لمن زعم أن إفادة هذا المعنى خاصة بجعل السلام مصدرا كالسلامة»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٣) تفسير المنار (٨/ ٦٣).

قال الرازي: «من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ والوالي معناه القريب، فقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على قربهم من اللَّه تعالى، وقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يدل على قرب اللَّه منهم، ولا نرى في العقل درجة للعبد أعلى من هذه الدرجة، وأيضًا فقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يفيد الحصر؛ أي: لا ولي لهم إلا هو، وكيف وهذا التشريف إنما حصل على التوحيد المذكور في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1] فهؤلاء الأقوام قد عرفوا من هذه الآية أن المدبر والمقدر ليس إلا هو، وأن النافع والضار ليس إلا هو، وأن المسعد والمشقي ليس إلا هو، وأنه لا مبدئ للكائنات والممكنات إلا هو، فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه، فما كان رجوعهم إلا إليه، وما كان توكلهم إلا عليه، وما كان أنسهم إلا به، وما كان خضوعهم إلا له، فلما صاروا بالكلية لا جرم؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ وهذا إخبار بأنه تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا، ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة، وإيصال الخيرات ودفع الآفات والبليات»[2].

قال محمد رشيد رضا: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الضمير راجع إلى ربهم، أو السلام على القول بأنه هو اللَّه تعالى. ووليهم متولي أمورهم وكافيهم كل أمر يعنيهم، بسبب ما كانوا يعملونه بباعث الإيمان به، والإذعان لما جاء به رسوله من أعمال الصلاح المزكية لأنفسهم، والإصلاح المفيدة لكل من يعيش معهم، وهذه الولاية الإلهية للمتذكرين من المؤمنين الصالحين؛ تشمل ولاية الدنيا والآخرة. والآية نافية للقول بالجبر، ومبطلة للقول بإنكار القدر، بصراحتها بنوط الجزاء بالعمل، فإسناد العمل إليهم ينفي الجبر، ونوط الجزاء به يثبت القدر الذي هو جعل شيء مرتبًا على شيء آخر مقدرًا بقدره، وليس خلقًا أنفًا؛ أي: مبتدأ ومستأنفًا، واللَّه أعلم وأحكم»[3].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٢) تفسير الرازي (١٣/ ١٩٩).
(٣) تفسير المنار (٨/ ٦٣-٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مثواكم: المثوى مكان الثواء، والثواء نفسه هو الإقامة والسكنى؛ من ثوى في المكان: إذا أقام فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين حال من يتمسك بالصراط المستقيم، بين بعده حال من يكون بالضد من ذلك؛ لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار، وليكون الوعيد مذكورًا بعد الوعد»[1].

قال ابن القيم: «يعني قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيرًا»، فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر. فاستمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر، والفسوق، والعصيان. فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس. فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم. واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية اللّه، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم، وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك، والفواحش، والفجور. وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات؛ فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٢٠٠).

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية، الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان، أطاعوه في الإشراك ومعصية اللَّه، والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه؛ فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان؛ فوالى أعداء اللَّه، وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول، فيما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نور بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقدًا لا يروج عليه الزغل؛ تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له، فيسره ذلك ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان؛ بشركه به وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يحط علمًا بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلاً من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث. فكلاهما أجل أجله اللَّه تعالى لعباده. وهما الأجلان اللذان قال اللَّه فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾[1].

وكأن هذا -واللَّه أعلم- إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة. فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت، وانقطع بانقطاع أجله، فلم يستمر ولم يدم، فبلغ الأمر الذي كان أجله، وانتهى إلى غايته، ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله؛ فقد بقي زمن العقوبة، فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه.

---

(١) الأنعام: الآية (٢).

والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين، حتى عبدوه، واتخذوه وذريته أولياء من دون الله»(١).

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزُّوهم إلى المعاصي: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: من إضلالهم، وصدهم عن سبيل اللَّه، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد اللَّه عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجؤون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال، والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر اللَّه لهم اعتذارًا. وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدوا عذرًا غير مقبول فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجِنّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجِنّي، فيخدمه الجِنّي، ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية؛ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال. فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغائية شملت

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

الأشياء وعمتها ووسعتها»[1].

وأما مسألة أبدية النار والجنة فسيأتي الكلام عنها في تفسير الآية (١٠٧) من سورة (هود) إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «المعنى: وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من استمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدًا. ومعنى ﴿نُوَلِّي﴾ على هذا: نجعل وليًّا. قال ابن زيد: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. وعنه أيضًا: نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذلّه. وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط اللَّه عليه ظالمًا آخر.

ويدخل في الآية جميعُ من يظلم نفسه أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم.

وقال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالمًا ينتقم من ظالم فقِفْ، وانظر فيه متعجِّبًا.

وقال ابن عباس: «إذا رضي اللَّه عن قوم ولّى أمرهم خيارَهم، وإذا سخط اللَّه على قوم ولّى أمرهم شرارهم»»[1].

وقال ابن كثير: «ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاءً على ظلمهم وبغيهم»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «وأما تولية اللَّه الناس بعضهم بعضًا؛ فهو جعلهم أولياء وأنصارًا بعضهم لبعض، إما بمقتضى أمره في شرعه ومقتضى سننه وقدره معًا، وإما بمقتضى الثاني فقط. فالأول: ولاية المؤمنين بعضهم بعضًا في الحق والخير والمعروف، فقد أمرهم بذلك في شرعه ونهاهم عن ضده، وهو مقتضى

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٢).

الإيمان الصادق، وأثره الذي لا ينفك عنه بحسب تقدير اللَّه الذي مضت به سنته في خلقه. والثاني: ولاية الكفار المجرمين والمنافقين بعضهم بعضًا، فهو أثر مترتب على الاعتقاد والأخلاق والمنفعة المشتركة بينهم؛ بحسب تقديره وسننه في نظام الحياة البشرية، وهو لم يأمرهم بشيء مما يتناصرون به في الباطل والشر والمنكر؛ بل نهاهم عنه. وقد بيّنّا مرارًا أن هذا النظام المعبر عنه بالقدر والتقدير الشامل للحق والباطل والخير والشر؛ هو عبارة عن نفي ما زعمت القدرية من أن اللَّه تعالى يخلق كل ما وقع في الكون خلقًا أنفًا؛ أي: مبتدأ منه غير جارٍ على نظام تكون فيه المسببات على قدر الأسباب. والجبر يستلزم نفي القدر أيضًا، فتولية اللَّه الناس بعضهم لبعض ليس خلقًا مبتدأ من اللَّه، ولا واقعًا من الناس بالإجبار والاضطرار، ولا بالاستقلال المنافي للخضوع للسنن والأقدار، وإنما جرت سنة اللَّه تعالى في البشر؛ بأن يكون لكل عمل من الأعمال النفسية والبدنية التي تصدر منهم؛ تأثير في أنفسهم يصير بالتكرار عادة فخلقًا وملكة، وأن الأفراد والجماعات يميل كل منهم إلى من على شاكلته في ذلك، ويتولى بعضهم بعضًا في التعاون والتناصر فيما يشتركون فيه على من يخالفهم فيه. وقد جهل الجبرية والقدرية النفاة جميعًا حقيقة القدر، وصار كل منهما يحمل الآيات على ما ذهب إليه، كأنها مختلفة متعارضة، وهي مخالفة لكل منهما، ولا اختلاف ولا تعارض فيها»[1].

وقال أيضًا: «ولما كان الملك المترف يفسد الأمة حتى تهلك؛ كان الملك الصالح يصلح الأمة الفاسدة باتخاذ الوزراء والقواد والبطانة والحاشية له؛ من الصالحين المصلحين الذين يقيمون ميزان الحق والعدل، ويكونون قدوة للناس في العفة والاعتدال والقصد، ويأخذون على أيدي أهل الفحشاء والمنكر والبغي فيقلدهم الأكثرون، ويرهب جانبهم الأشرار والمفسدون فتقوى دولتهم، وتعتز أمتهم، حتى يمكن اللَّه لهم في الأرض ويجعلهم من الوارثين ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2] أي: الصالحون لتوليها والقيام بشؤونها، ولو بالنسبة إلى من يعارضهم في ذلك ممن هو دونهم صلاحية،

(١) تفسير المنار (٨/ ١٠٠-١٠١).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٥).

فالصلاح كالتقوى يفسر في كل مقام بحسبه.

وأما الأمم العالمة بسنن الاجتماع ذات الرأي الذي يمثله الزعماء الذين تعتمد عليهم في الحل والعقد، فلا يستطيع الملوك أن يتصرفوا فيها كما يشاؤون كما قلنا آنفا، بل يكونون فيها تحت مراقبة أولي الأمر منها. وقد وضع الإسلام هذا الأساس المتين للإصلاح بجعله أمر الأمة شورى بين أهل الحل والعقد المذكورين، وأمره الرسول نفسه بالمشاورة وجريان الرسول ﷺ على ذلك حتى برجوعه عن رأيه إلى رأي الأمة، وجعله الولاية العامة وهي الإمامة أو الخلافة بالانتخاب، وقد أفصح عن ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ بقوله في أول خطبة خطب بها الناس عقب مبايعته: «أما بعد فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني»[1]، واشتهر عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال على المنبر: «من رأى منكم فيّ عوجًا فليقومه» إلخ. وروي عن الخليفة الثالث عثمان ﷺ أنه قال على المنبر في أيام الفتنة: «أمري لأمركم تبع». وبعد علي والحسن ﷺ تحول أمر الإسلام من خلافة نبوة إلى ملك؛ مصداقًا للحديث الصحيح: «**الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك**»[2] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم من حديث سفينة. وقد دعم بنو أمية ملكهم بالعصبية فلم تغن عنهم حين ظهر فيهم الفسق، فنفر منهم معظم الأمة لغلبة الصلاح فيها؛ فسهل انتزاع الملك منهم بسرعة، وليس التطويل في هذه المسألة من موضوعنا هنا، فحسبنا إيضاح ما ورد في التفسير المأثور عن السلف في الآية، والتذكير بأن الأمم الأخرى قد استفادت من هداية الإسلام في هذا الأمر، الذي ترك المسلمون هداية دينهم فيه، فلم يعد أمر صلاحها وفسادها بأيدي ملوكها ورؤساء حكومتها وحدهم؛ بل في أيدي نوابها الذين تختارهم لمراقبة الحكومة والسيطرة عليها، على أن الوزراء كثيرًا ما يغشون جمهور نواب الأمة، ويستعينون ببعضهم على بعض.

---

(١) أخرجه البيهقي (٦/ ٣٥٣) وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢١٨) من رواية محمد بن إسحاق وقال: «هذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٠)، وأبو داود (٥/ ٣٦-٣٧/ ٤٦٤٦-٤٦٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٣٦/ ٢٢٢٦) وقال: «وهذا حديث حسن»، وابن حبان (١٥/ ٣٤-٣٥/ ٦٦٥٧)، والحاكم (٣/ ٧١).

وليس لفظ (الظالمين) في الآية خاصًّا بالملوك والأمراء، وتعاونهم مع عمالهم على أعمالهم؛ بل هو عام يشمل ظالمي أنفسهم، والظالمين للناس من الحكام وغيرهم، كل من هؤلاء وأولئك يتولى من يشاكله في أخلاقه وأعماله، ويتناصرون على من يخالفهم فيها، وإن وافقهم في غيرها من الروابط والجوامع الأخرى، حتى رابطة الدين والجنس، فإن كل جامعة بين الناس لا يؤيدها العمل تضعف حتى تكون صورية أو لفظية، ولذلك نرى الطامحين من العلماء الأقوياء إلى السيادة على الجهلاء الضعفاء؛ يجدون في السعي قبل كل شيء إلى إفساد تربيتهم وتعليمهم ما يضعف كل الروابط العامة التي تربط بعضهم ببعض، أو يحلها ويذهب بها، فلا يكون للأفراد منهم هم إلا في أشخاصهم وتمتيعها باللذات والشهوات، وحينئذ يتولون من يوصلهم إليها ولو بمساعدته على أمتهم، إذا كان يفيض عليهم من بعض ما ينتزعه منها بمؤازرتهم، ولو آزروها عليهم لكان خيرًا لهم. فالمدار في الولاية بين الناس على المشاكلة النفسية التي قررها الكسب والعمل، لا الصورية أو اللفظية التي لم يقرر الكسب معناها، ولذلك قال: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ولم يقل بما كانوا يلقبون. وسنذكر عند مناسبة أخرى غرائب من خذلان الأمم في التعاون على الظلم والفساد، مما هو مشاهد في كثير من البلاد، وسره وأغربه مساعدة عبيد الشهوات للأجانب على استعباد أمتهم، والسيطرة على بلادها؛ لينالوا في ظل سيادتهم عليها ما لا يطمعون بمثله في حال حريتها واستقلالها، ثم هم يدعون أنهم يخدمونها بذلك؛ لأن سلطة الأجنبي لا مندوحة عنها بزعمهم، ومشاركتهم إياه ومساعدتهم له تخفف عن الأمة ثقل وطأته، وتحفظ لها بعض الحقوق والمنافع، وتمهد لها السبيل إلى الترقي الذي يرجى إلى أن تسير فيه إلى الحرية والاستقلال. وهذه الدعاوى من الخدع التي تعلموها من ساسة الأجانب قد يخدعون بها أنفسهم وهم لا يشعرون، ومن أكبر مصائب أمتهم بهم قولهم عن اعتقاد أو غير اعتقاد: إنه لابد للأمة أو لا مندوحة عنها من سيطرة الأجانب عليها، وانخداع كثير من العوام بهم وتصديقهم لقولهم: إنهم يخدمون الأمة بتخفيف الضغط الأجنبي عن كاهلها. وكيف لا ينخدع العوام بأقوال أمرائهم وقوادهم وساداتهم وكبرائهم، وهم جاهلون بسنن الاجتماع، وبما أرشد إليه القرآن، فإن فيه من العبر ما يكفي لإصلاح جميع البشر، ولكن أكثر الناس في غفلة عن الاعتبار، وإنما يعتبر أولو الأبصار، نسأله

تعالى أن يكثر في أمتنا منهم، فإنه لا حياة لها إلا بذلك، وإلا فهي هالكة لا محالة، وهذا جزاء مطرد بسنن اللَّه تعالى في الدنيا، وجزاء الآخرة أشد منه وأنكى»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ١٠٣-١٠٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يقصون: يحكون، يقال: قص الخبر: إذا حكاه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا أيضًا مما يقرع الله به ﷻ كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم -وهو أعلم-: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد، وابن جريج وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف»[1].

قال ابن القيم: «وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء، محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وبقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ -إلى قوله- ﴿مُّنذِرِينَ﴾[2] وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم؛ صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم، ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم؟ فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٢).
(٢) الأحقاف: الآية (٢٩).
(٣) النساء: الآية (١٦٥).

نُورًا﴾[1] وليس في كل سماء قمر، وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[2] فالإنذار أعم من الرسالة، والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[3] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[4] فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيا ولا امرأة ولا بدويا، وأما تسميته تعالى الجن رجالا في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[5] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهم رجال من الجن، ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه»[6].

قال محمد رشيد رضا: «(﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ هذا ما حكاه تعالى من جوابهم عن السؤال، عندما يؤذن لهم في بعض مواقف القيامة بالكلام، وثم مواقف أخرى لا ينطقون فيها ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ومواقف يكذبون فيها على أنفسهم بما ينكرون من كفرهم وأعمالهم، وتقدم شيء من ذلك. وجوابهم هذا وجيز يدل على أنهم يعترفون بكفرهم، ويقرون بإتيان الرسل وبلوغهم دعوتهم منهم أو ممن نقلها عنهم. وأنهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، ولذلك قال ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: غرهم متاع الحياة الدنيا من الشهوات والمال والجاه وحب الرياسة والسلطان على الناس، ورأوا من دعوة الرسل في عصرهم أن اتباعهم إياهم؛ يجعل الرئيس منهم مرءوسا ومساويا لضعفاء المؤمنين في جميع الحقوق والمعاملات، وقد يكرمون عليه بما يفضلونه به من التقوى وصالح الأعمال، وكذلك حال من على مقربة من الرؤساء والزعماء بشجاعتهم أو ثروتهم أو عصبيتهم، فهؤلاء كانوا يكفرون بالرسل كفر كبر وعناد، يقلدهم فيه كثير من أتباعهم تقليدًا، فيغتر كل منهم بما يعتز به من التعاون مع الآخر، وكان عصر الخلفاء الراشدين نحوًا من عصر الرسول ﷺ في هذه المساواة، ولكنه اختلف عنه بما تجدد للإسلام من الملك والثروة والقوة، ولم يكن ذلك مانعًا لجبلة بن الأيهم من الارتداد عنه؛ لما علم أن

---

(١) نوح: الآية (١٦).
(٢) الأحقاف: الآية (٢٩).
(٣) التوبة: الآية (١٢٢).
(٤) يوسف: الآية (١٠٩).
(٥) الجن: الآية (٦).
(٦) طريق الهجرتين (٤١٦-٤١٧).

عمر يقتص منه لأحد السوقة.

وأما غرور أهل هذه الأعصار بالدنيا المانع لهم من اتباع الرسل؛ فهو ما غلب عليهم من الإسراف في الشهوات المحرمة والجاه الباطل المذمومين في كل دين، وقد زالت من أكثر البلاد الحكومات الدينية التي كان أهل الدين يعتزون بها، وحل محلها حكومات مادية لا يرتقي فيها ولا ينال الحظوة عند أهلها من يتبع الرسل، بل لم يعد هذا الاتباع سببًا من أسباب نعيم الدنيا ورياستها المشروعين، فما القول بالمحظورين. وهذا على خلاف الأصل في الدين، فإنه شرع ليكون سببًا لسعادة الدنيا والآخرة، ولكن الناس لبسوه مقلوبًا حتى جهلوا حقيقته، ولاسيما دين الإسلام الكامل المكمل المتمم بجمعه بين حاجة الروح والجسد، وجميع مصالح الاجتماع والسيادة بالحق. ولو كان للإسلام ملك قوي في هذا العصر لقل في اللابسين لباسه النفاق والفسوق -دع الكفر والمروق- ولدخل الناس فيه من سائر الأمم أفواجًا.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: وشهدوا في ذلك الموقف من مواقف ذلك اليوم، إذ تقوم الحجة عليهم بأنهم كانوا في الدنيا كافرين بتلك الآيات والنذر التي جاء بها الرسل، إذ لا يجدون فيه مجالا للكذب والمكابرة ولا للتأويل. وليس الكفر بما جاء به الرسل محصورا في تكذيبهم بالقول، بل منه عدم الإذعان النفسي الذي يتبعه العمل بحسب سنة اللّٰه تعالى في الطباع والأخلاق وترتب الأعمال عليها، فالكفر نوعان: عدم الإيمان بما جاء به الرسول، وعدم الإسلام له بالإذعان والعمل، والذنب العارض لا ينافي الإسلام كما فصل مرارًا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان وجود الجن، وكونهم مكلفين

* عن عبد الرحمن بن عبد اللّٰه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه أنه أخبره: أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال له: إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك، وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع

(١) تفسير المنار (٨/ ١٠٧-١٠٨).

مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول اللَّه ﷺ[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني: «مطابقته للترجمة في قوله: «جن» وهو يدل على وجود الجن خلافا لمن أنكر ذلك»[(٢)].

قال الحافظ: «نقل إمام الحرمين في (الشامل) عن كثير من الفلاسفة والزنادقة والقدرية: أنهم أنكروا وجودهم رأسا، قال: ولا يتعجب ممن أنكر ذلك من غير المشرعين، إنما العجب من المشرعين مع نصوص القرآن والأخبار المتواترة!!»[(٣)].

قال شيخ الإسلام: «وجود الجن ثابت بكتاب اللَّه وسنة رسوله واتفاق سلف الأمة وأئمتها»[(٤)].

وقال أيضًا: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن اللَّه أرسل محمدًا ﷺ إليهم. وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين، كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك.

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعمه بعض الملاحدة. فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا ظاهرًا تعرفه العامة والخاصة؛ لم يمكن طائفة كبيرة من الطوائف المؤمنين بالرسل أن تنكرهم، كما لم يمكن لطائفة كبيرة من الطوائف المؤمنين بالرسل إنكار الملائكة، ولا إنكار معاد الأبدان، ولا إنكار عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ولا إنكار أن يرسل اللَّه رسولًا من الإنس إلى خلقه، ونحو ذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري (٦/ ٤٢٣/ ٣٢٩٦)، والنسائي (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٣).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٦٤٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٤٢٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٧٦).

مما تواترت به الأخبار عن الأنبياء تواترا تعرفه العامة والخاصة»[١].

وقال ابن القيم: «الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينها أن مسيئهم مستحق للعقاب»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «يجب على الإنسان أن يعلم أن اللَّه ﷻ أرسل محمدا ﷺ إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحللوا ما حلل اللَّه ورسوله، ويحرموا ما حرم اللَّه ورسوله، وأن يوجبوا ما أوجبه اللَّه ورسوله، ويحبوا ما أحبه اللَّه ورسوله، ويكرهوا ما كرهه اللَّه ورسوله، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن، فلم يؤمن به؛ استحق عقاب اللَّه تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول.

وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة وغيرهم، ﷺ أجمعين»[٣].

قال القرطبي: «والحاصل من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وأحوالهم، وأن نبينا محمدًا ﷺ رسول إلى الإنس والجن أجمعين، فمن دخل في دينه وآمن به؛ فهو من المؤمنين، ومعهم في الدنيا والآخرة. والجنة مستقر المؤمنين، ومن كذبه وصد عنه؛ فهو الشيطان المبعد عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنار مستقر الكافرين أبد الآبدين»[٤].

قال العيني: «فيه أن الجن يسمعون أصوات بني آدم»[٥].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث أن كل من يسمع صوت المؤذن يشهد له يوم القيامة»[٦].

وقال: «وهنا بحث وهو أن يقال: ما الفائدة في شهادة هؤلاء وما يترتب عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩-١٠).

(٤) المفهم (٧/ ٤٢٠).

(٥) عمد القاري (٤/ ١٦٢).

(٦) بهجة النفوس (١/ ٢٠٨).

للفاعل من الخير؟ فالجواب -واللَّه أعلم- : أنه يكون له الثواب بقدر ثواب عمل من سمعه، يؤخذ ذلك من قوله ﷺ : **«من دعا إلى هدى فله أجره وأجر من عمل به»**[(١)]»[(٢)].

* عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«الجن على ثلاثة أصناف؛ صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون»**[(٣)].

★ غريب الحديث:

صنف: الصنف من الشيء: ضرب منه متميز.

يحلون: بضم الحاء وقد يكسر؛ أي: ينزلون ويقيمون.

يظعنون: أي: يسافرون ويرتحلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾[(٤)].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قال الحكيم: والصنف الثاني هم الذين ورد النهي عن قتلهم في خبر: نهى عن قتل ذوي البيوت، وخبر: نهى عن قتل الحيات. فإن تلك من صور الحيات، وهم من الجن، ومع سكان البيوت»[(٥)].

قال ابن عبد البر: «ما يحل ويظعن الغول والسعلاة، وهو ضرب من ضروب الجن وفرع منهم، يتصور في القفار والطرق ليلًا ونهارًا، فتفزع المسافر، وتتلون ألوانًا في صور شتى؛ منها قبيحة ومنها حسنة.

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٧٠٤/ ١٠١٧)، والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣).

(٢) بهجة النفوس (١/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه: الطحاوي في شرح المشكل (٧/ ٣٨١/ ٢٩٤١)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٤٤/ ١٠٨٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص: ٤٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٣٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٤-٢١٥/ ٥٧٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٣٦): «رواه الطبراني ورجاله وثقوا في بعضهم خلاف». والحديث صححه ابن حبان (١٤/ ٢٦/ ٦١٥٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٦)، ووافقه الذهبي. وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٢٧/ ٢٦١): «وهذا إسناد جيد، رواته أئمة ثقاة».

(٤) النحل: الآية (٨٠).

(٥) الفيض (٣/ ٣٦٤).

قال الفضل بن زهير:

فما تدوم على حال تكون بها كما تغول في أثوابها الغول»[1].

قال الأشقر: «تتشكل الجان بشكل الحيات، وتظهر للناس، ولهذا نهى الرسول ﷺ عن قتل جنان البيوت[2]، خشية أن يكون هذا المقتول جنيا قد أسلم، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن بالمدينة نفرًا من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئًا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثًا، فإن بدا له بعد فليقتله، فإنه شيطان»[3].**

وقد قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت، فكان في ذلك هلاكه، روى مسلم في صحيحه: أن أبا السائب دخل على أبي سعيد الخدري في بيته، قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين في ناحية البيت، فالتفت فإذا حية، فوثبت لأقتلها، فأشار إلي أن اجلس فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار، فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم. قال: كان فيه فتىً منا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول اللَّه ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول اللَّه ﷺ: **«خذ عليك سلاحك، فإني أخشى عليك قريظة،** فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة. فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني. فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه، فما يدرى أيهما كان أسرع موتًا: الحية أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول اللَّه ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع اللَّه يحييه لنا، فقال: **«استغفروا لصاحبكم»**، ثم قال: **«إن بالمدينة جنا**

---

(١) الاستذكار (٢٧/ ٢٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٠)، والبخاري (٦/ ٤٣٢/ ٣٣١١)، ومسلم (٤/ ١٧٥٢-١٧٥٣/ ٢٢٣٣)، وأبو داود (٥/ ٤١٢/ ٥٢٥٣) من حديث أبي لبابة ﷺ.

(٣) أخرجه: مسلم (٤/ ١٧٥٧/ ٢٢٣٦[١٤١])، وأبو داود (٥/ ٤١٤/ ٥٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤١/ ١٠٨٠٧) عن أبي سعيد ﷺ.

قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان»[1]»[2].

قال ابن عبد البر: «العلة الظاهرة في الحديث إسلام الجن والله أعلم، إلا أن ذلك شيء لا يوصل إلى شيء من معرفته، والأولى أن تنذر عوامر البيوت كلها كما قال مالك؛ والإنذار أن يقول الذي يرى الحية في بيته: أحرج عليك أيتها الحية بالله واليوم الآخر أن تظهر لنا أو تؤذينا»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١)، ومسلم (٤/ ١٧٥٦/ ٢٢٣٦)، وأبو داود (٥/ ٤١٣-٤١٤/ ٥٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٤-٢٧٥/ ٨٨٧١). وأخرجه الترمذي (٤/ ٦٥/ ١٤٨٤) مختصرًا دون ذكر محل الشاهد.

(٢) عالم الجن والشياطين (ص: ٢٥-٢٦).

(٣) فتح البر (٨/ ٤١٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «الإشارة بذلك إلى أقرب مذكور دل عليه الكلام، وهو إتيان الرسل قاصين الآيات، ومنذرين بالحشر، والحساب، والجزاء، بسبب انتفاء إهلاك القرى بظلم وأهلها لم ينتهوا ببعثة الرسل إليهم، والإعذار إليهم، والتقدم بالأخبار بما يحل بهم إذا لم يتبعوا الرسل. وفي الحديث: «**ليس أحد أحب إليه العذر من الله، فمن أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل**»»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي ذلك الذي ذكر من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله تعالى؛ في الإصلاح الروحي والاجتماعي، وينذرونهم يوم الحشر والجزاء، بسبب أن ربك أيها الرسول المبعوث بالإصلاح الأكمل لبقية الأمم كلها؛ لم يكن من شأنه ولا من سننه في تربية خلقه: أن يهلك القرى؛ أي: الأمم بعذاب الاستئصال الذي أوعد به مكذبي الرسل، ولا بعذاب فقد الاستقلال الذي أوعد به مخالفي هدايتهم بعد قبولها بظلم منه لهم، أو بظلم منهم وهم غافلون عما يجب عليهم؛ أن يتقوا به هذا الهلاك، بل يتقدم هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق والعدل والفضائل؛ بما يقصه عليها من آيات الوحي في عصره، أو بما ينقل إليها من يبلغونها دعوته من بعده، فإنما العبرة بالدعوة التي تنبه أهل الغفلة، فلا يكون أخذهم على غرة، ذلك بأن من حكمة الله تعالى في الأمم جعل جميع ما ينزل بهم من عقاب جزاء على عمل استحقوه به، فيكون عقابهم تربية لمن يسلم منهم، ولكل من عرف سنة الله في ذلك، ولهذا عبر بلفظ الرب، ومنه يعلم أن له تعالى الحجة البالغة على خلقه؛ بأنه لا يظلمهم شيئًا، وإنما هم الذين يظلمون أنفسهم. وأن الإهلاك والتعذيب ليس صفة من صفاته النفسية التي لابد من وقوع متعلقها؛ سواء أذنب المكلفون أم لم يذنبوا، بل هو من

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٢٦).

أفعاله التي يربي بها عباده.

أشرنا إلى أن قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾فيه وجهان للمفسرين بيناهما بما رأيت، وقد سبق إلى ذلك شيخهم ابن جرير الطبري، ولخص قوله الحافظ ابن كثير وشايعه عليه قال: قال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وجهين؛ أحدهما: ذلك من أجل أن لم يكن ربك ليهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون. يقول لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من ينبههم على حجج اللّٰه عليهم، وينذرهم عذاب اللّٰه يوم معادهم، ولم يكن بالذي يأخذهم غفلة فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. والوجه الثاني: ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم؛ يقول: لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك واللّٰه غير ظلام للعبيد. ثم شرع يرجح الوجه الأول ولا شك أنه أقوى، واللّٰه أعلم. اهـ.

ونقول: إن كلاً من المعنيين صحيح في نفسه، ومذهبنا أنه لا مانع من إرادة اللّٰه تعالى لكل ما يحتمله نظم كتابه من معنىً صحيح. وقد ورد في هذا الموضوع عدة آيات منها ما هو نص في إهلاك القرى بظلمها، ومنها ما هو بيان لسنته تعالى في ذلك كهذه الآية. ومن الأول قوله تعالى في سورة (هود): ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، ومن الثاني قوله فيها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2]، وقد جزم بعضهم بأن المراد بالظلم هنا الشرك، واستدلوا عليه بما صح مرفوعًا من تفسيره به في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[3] الآية، واستشهاد الحديث على ذلك بقول لقمان الذي حكاه اللّٰه عنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]، وقد بيّنّا في تفسير تلك الآية أن الظلم إنما صح تفسيره فيها بالشرك الذي هو أعظم الظلم -وهو نكرة في سياق النفي-؛ لأنه وارد في الظلم الذي يلبس به الإيمان، فصح فيه العموم المقيد الذي ورد فيه؛ لأن قليل الشرك يفسد الإيمان ككثيره. وأما الظلم في الآية التي نفسرها الآن، وفي آية (هود) المماثلة لها؛ فقد ورد نكرة في سياق النفي، في مقام بيان سبب إهلاك القرى، فيجب أن يكون العموم فيه مطلقًا؛ لما ثبت في الآيات

(١) هود: الآية (١٠٢).
(٢) هود: الآية (١١٧).
(٣) الأنعام: الآية (٨٢).
(٤) لقمان: الآية (١٣).

الأخرى المؤيدة بوقائع التاريخ من هلاك الأمم بالظلم في الأعمال والأحكام، وبقائها زمنًا طويلًا مع الشرك إذا كانت مصلحة فيهما، كما هو ظاهر آية (هود).
ولله در الحافظ ابن كثير! فإنه نقل عبارة الإمام ابن جرير بالمعنى فقال في الوجه الأول: بالشرك ونحوه؛ أي: وما يشبهه من الظلم في الأعمال والأحكام، فأشار إلى العموم، وعبارة ابن جرير: بشرك من أشرك وكفر من كفر من أهلها كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وهي تنافي صيغة العموم، وسبحان من لا يخطئ ولا يعزب عن علمه شيء.

هذا وإننا قد فصلنا من قبل ما ذكرناه آنفًا بالإجمال؛ من أن عقاب الله تعالى للأمم وكذا للأفراد في الدنيا والآخرة أنواع، وأن منه ما يسمى عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاؤوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية، وأنذروهم الهلاك إذا لم يؤمنوا بعد تأييد الله إياهم بها؛ كعاد وثمود وقوم لوط، فسنة الله في ذلك خاصة، وقد انقطعت بانقطاع إرسال الرسل؛ إذ ليست جارية على سائر سنن الاجتماع.

ومنه هلاك الأمم بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذي يفسد الأخلاق، ويقطع روابط الاجتماع، ويجعل بأس الأمة بينها شديدًا، فيكون ذلك سببًا اجتماعيًا لسلب استقلالها وذهاب ملكها، بحسب سنن الاجتماع. وقد أنذرنا الله هذا في كتابه وعلى لسان رسوله، كما شرحناه من قبل، فيراجع تفصيل ذلك فيما مضى من التفسير.

ثم إن هذه الآية وما في معناها من الآيات كآية (هود)؛ من قواعد علم الاجتماع البشري، الذي لا يزال في طور الوضع والتدوين، وهو العلم بسنن الله تعالى في قوة الأمم والشعوب وضعفها، وعزها وذلها، وغناها وفقرها، وبداوتها وحضارتها، وأعمالهما ونحو ذلك. وفائدة هذا العلم في الأمم كفائدة علم النحو والبيان في حفظ اللغة، وفي القرآن الحكيم أهم قواعده وأصوله، وقد سبق بعض الحكماء المسلمين إلى بيان بعضها، وبدأ ابن خلدون بجعله علمًا مدونًا يترقى بالتدريج كغيره من العلوم والفنون، ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه ووسعوه؛ فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا منه كما

(١) لقمان: الآية (١٣).

كان يجب؛ لأنه كتب في طور تدليهم وانحطاطهم؛ بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسنن اللَّه تعالى فيمن قبلهم. ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية على شدة حاجتهم إليها؛ بسبب ما وصل إليه تنازع البقاء بين الأمم في هذا العصر، وإنا نرى بعضهم يعزي نفسه عن ضعف أمته، ويعتذر عن تقصيرها بالقدر الذي يفهمه مقلوبًا بمعنى الجبر، أو يسليها بأن هذا من علامات الساعة، وارتكس بعضهم في حمأة جهله بالإسلام حتى ارتدوا عنه سرًّا أو جهرًا؛ زاعمين أن تعاليمه هي التي أضعفتهم وأضاعت عليهم ملكهم، والتمسوا هداية غير هدايته ليقيموا بها دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن اللَّه يحب الاعتذار من عباده

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدح من اللَّه ﷻ، من أجل ذلك مدح نفسه. وليس أحد أغيرَ من اللَّه، من أجل ذلك حرم الفواحش. وليس أحد أحبّ إليه العذر من اللَّه، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»**[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «يحتمل أن يريد للإعذار والحجة، قال اللَّه تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[٣]، وكذلك قال بعده: «من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل». ويحتمل أن يريد به الاعتذار من خلقه إليهم؛ لعجزهم وتقصيرهم فيغفر لهم، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[٤]»[٥].

وقال ابن القيم: «فهو سبحانه شديد المحبة لأنْ يحمد وأن يعذر، ومن محبته للعذر إرسال رسله وإنزال كتبه، ومن محبته للحمد ثناؤه على نفسه، فهو يحب أن

(١) تفسير المنار (٨/ ١٠٩-١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (٩/ ٣٩٨/ ٥٢٢٠)، ومسلم (٤/ ٢١١٣-٢١١٤/ ٢٧٦[٣٥]) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٣).

(٣) المرسلات: الآية (٦).

(٤) الشورى: الآية (٢٥).

(٥) الإكمال (٨/ ٢٦٤).

يعذر على عقاب المجرمين المخالفين لكتبه ورسله، ولا يلام على ذلك ولا يذم عليه ولا ينسب فيه إلى جور ولا ظلم، كما يحب أن يحمد على إحسانه وإنعامه وأياديه عند أوليائه وأهل كرامته، وحمده متضمن هذا وهذا، فهو محمود على عدله في أعدائه وإحسانه إلى أوليائه»[١].

وقال: «فإنه من تمام عدله وإحسانه: أن أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه. فهو أيضًا يحب من عبده أن يعتذر إليه، ويتنصل إليه من ذنبه. وفي الحديث: «من اعتذر إلى اللَّه قبل اللَّه عذره» فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

وأما الاعتذار بالقدر؛ فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار، وهذا فعل خصماء الله»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «فالحجة على الخلق تقوم بالرسل، وما جاء به الرسول هو الشرع الذي يجب على الخلق قبوله، وإلى الكتاب والسنة يتحاكم جميع الخلق»[٣].

وقال: «ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولًا، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[٥].

فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة، ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٦]»[٧].

وقال: «وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٩]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[١٠]، ومثل هذه النصوص كثيرة. ومعلوم أن اللَّه تعالى لم ينف بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود، كالجمع بين الضدين؛ فإن هذا لم

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٩٦).
(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٨٣).
(٤) الإسراء: الآية (١٥).
(٥) طه: الآية (١٣٤).
(٦) النساء: الآية (١٦٥).
(٧) الجواب الصحيح (٢/ ٣٠٦).
(٨) غافر: الآية (١٧).
(٩) الزخرف: الآية (٧٦).
(١٠) هود: الآية (١٠١).

يتوهم أحد وجوده، وليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب، فإن المراد بيان عدل اللَّه وأنه لا يظلم أحدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]، بل يجازيهم بأعمالهم، ولا يعاقبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم؛ كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[4]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من اللَّه، من أجل ذلك بعث الرسل وأنزل الكتب». ومثل هذه النصوص كثيرة، وهي تبين أن الظلم الذي نزه اللَّه نفسه عنه ليس هو ما تقوله القدرية ولا ما تقوله الجبرية ومن وافقهم»[5].

* * *

(١) الكهف: الآية (٤٩).
(٢) الإسراء: الآية (١٥).
(٣) النساء: الآية (١٦٥).
(٤) القصص: الآية (٥٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠٨-٥٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾

★ **غريب الآية:**

الغفلة: السهو. خلافها اليقظة. والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولكل عامل في طاعة اللَّه أو معصيته منازل ومراتب من عمله، يبلغه اللَّه إياها، ويثيبه بها، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وكل ذلك من عملهم -يا محمد- بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده؛ ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه، ومعادهم إليه»[1].

وقال القرطبي: «وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار؛ كالإنس سواء. وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه.

ومعنى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكل عامل بطاعةٍ درجاتٌ في الثواب. ولكل عاملٍ بمعصية دركاتٌ في العقاب. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: ليس بلاهٍ ولا ساهٍ. والغفلة: أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾»[2].

قال محمد رشيد رضا: «أي: ولكل من معشري الجن والإنس الذين بلغتهم دعوة الرسل؛ درجات ومنازل من جزاء أعمالهم تتفاوت بتفاوتهم فيها، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ بل هو عالم به ومحصيه عليهم، فجزاء سيئة سيئة مثلها، ويضاعف اللَّه الحسنات دون السيئات؛ لأن الفضل ما كان فوق العدل، فإن

---

(١) جامع البيان (٨/ ٣٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٨٧-٨٨).

أريد بكل من الفريقين آخر من ذكر منهم -وهم الكافرون على ما هو الأكثر في الاستعمال-؛ فالدرجات بمعنى الدركات كالدرج والدرك، والأصل في الأول أن يستعمل في الخير وجزائه، والثاني في مقابله ومنه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] والراغب يفرق بينهما بأن الدرج يقال باعتبار الصعود، والدرك باعتبار الحدور والهبوط. وجمهور المفسرين جعلوا كلا هنا عاما لفريقي المؤمنين والكافرين، فيكون استعمال الدرجات من باب تغليب المؤمنين. وشذ من قال: إن مسلمي الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، نقل ذلك السيوطي عن ليث بن أبي سليم، وهو مخالف لنصوص القرآن، وليث هذا مضطرب الحديث وإن روى عنه مسلم، وقد اختلط عقله في آخر عمره، ولعله قال هذا القول وغيره بما أنكر عليه بعد اختلاطه.

هذا؛ وإننا وإن بينا أن هذه الآية مبطلة للقول بالجبر الباطل الهادم للشرائع والأديان، الذي ألبسوه ثوب القدر الثابت بالعلم المؤيد للقرآن؛ فإننا نرى أن نصرح بأن الفخر الرازي عفا اللّٰه عنه قد صرح في تفسيرها بأنها تدل على الجبر! وأن نذكر عبارته بنصها ونبين بطلانها، وإن سبق لنا مثل ذلك في غيرها حتى لا يغتر بها من ينخدع بلقبه وكبر شهرته قال:

اعلم أن هذه الآية تدل أيضًا على صحة قولنا في مسألة الجبر والقدر، وذلك لأنه تعالى حكم لكل واحد في وقت معين بحسب فعل معين بدرجة معينة، وعلم تلك الدرجة بعينها، وأثبت تلك الدرجة المعينة في اللوح المحفوظ، وأشهد عليه زمرة الملائكة المقربين. فلو لم تحصل تلك الدرجة لذلك الإنسان لبطل ذلك الحكم، ولصار ذلك العلم جهلًا، ولصار ذلك الإشهاد كذبًا، وكل ذلك محال، فثبت أن لكل درجات مما عملوا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] وإذا كان الأمر كذلك فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، والسعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه. اهـ.

ونقول: إن حكم اللّٰه تعالى القدري لا يمكن أن يكون ناقضًا ومبطلًا لحكمه

---

(١) النساء: الآية (١٤٥).

(٢) هود: الآية (١٢٣).

الشرعي ومكذبًا لوحيه، وقد قال تعالى: إن الدرجات تكون للمكلفين بأعمالهم. وإذا كان الرازي قد صرح بأنه تعالى: قد حكم لكل واحد في وقت معين بحسب فعل معين بدرجة معينة، الخ فمن أين علم أنه قد جعله مجبورا على هذا الفعل، وهو يجد في نفسه أنه مختار، والقرآن قد صدق الوجدان بإثبات المشيئة والإرادة للإنسان، ونوط مشيئته بمشيئة اللَّه معناه أنه تعالى: شاء أن يكون فاعلا بالإرادة والاختيار، ولو لم يشأ ذلك لم يكن، ولكنه شاءه فكان، وعلم ذلك وكتبه، ورتب عليه دينه وشرعه»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ١١١-١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الإنشاء: ابتداء الخلق. وكل من ابتدأ خلق شيء واخترعه فقد أنشأه.

توعدون: الوعد غلب في الخير، والإيعاد في الشر. وهو في أصل اللغة وفي استعمال القرآن شامل لهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾؛ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: قومًا آخرين؛ أي: يعملون بطاعته، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأُوَل وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[4]»[5].

---

(١) البقرة: الآية (١٤٣).
(٢) النساء: الآية (١٣٣).
(٣) فاطر: الآيات (١٥-١٧).
(٤) محمد: الآية (٣٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٥).

وقال محمد رشيد رضا: «ختم الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1] أي بل هو محيط بها ومجاز عليها، وبدأ هذه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ لإثبات غناه تعالى عن تلك الأعمال والعاملين لها وعن كل شيء، ورحمته في التكليف والجزاء وغيرهما. والجملة تفيد الحصر أو القصر كما قالوا؛ أي: وربك غير الغافل عن تلك الأعمال هو الغني الكامل الغنى، وذو الرحمة الكاملة الشاملة التي وسعت كل شيء. أما الأول فبيانه أن الغنى هو عدم الحاجة، وإنما يكون على إطلاقه وكمال معناه، بل أصل معناه لواجب الوجود والصفات الكمالية بذاته وهو الرب الخالق، إذ كل ما عداه فهو محتاج إليه في وجوده وبقائه، ومحتاج بالتبع لذلك إلى الأسباب التي جعلها تعالى قوام وجوده. وإنما يقال في الخلق هذا غني إذا كان واجدا لأهم هذه الأسباب، فغنى الناس مثلا إضافي عرفي لا حقيقي مطلق، فإن ذا المال الكثير الذي يسمى غنيًّا؛ كثير الحاجات فقير إلى كثير من الناس؛ كالزوج والخادم والعامل والطبيب والحاكم، دع حاجته إلى خالقه وخالق كل شيء، التي قال تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2] وقد كان اللَّه تعالى ولا شيء معه غنيًّا عن كل شيء، وهو الآن على ما عليه كان غير محتاج إلى عمل الطائعين؛ لأنه لا ينفعه بل ينفعهم، ولا إلى دفع عمل العاصين؛ لأنه لا يضره بل يضرهم، فالتكليف والجزاء عليه رحمة منه سبحانه بهم، يكمل به نقص المستعد للكمال.

روى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ؛ مما يسمى بالحديث القدسي، أنه قال: **«يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم؛ كانوا على أتقى قلب رجل منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم؛ كانوا**

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٢). (٢) فاطر: الآية (١٥).

على أفجر قلب رجل منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم؛ قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد اللّه تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

والمراد بإطعامه تعالى وكسوه لعباده؛ خلقه لهم ما يأكلون وما يصنعون منه لباسهم، وباستطعامه واستكسائه طلب ذلك منه بالعمل بما هداهم إليه من سننه في أسباب المعاش. والحديث حجة على الجبرية كالآيات.

وأما كونه تعالى ذو الرحمة الكاملة وحده؛ فجلي ظاهر عقلًا وفعلًا ونقلًا، فنحن نعلم من أنفسنا أنه ما من أحد منّا إلا ويقسو ويظلم نفسه وغيره أحيانًا، حتى أحب الناس إليه وأقربهم منه؛ كالزوج والولد والوالد فما القول بمن دونهم، على أن كل ذي رحمة فرحمته من فيض رحمة اللّه تعالى، خالق الأحياء وواهب الغرائز والصفات. روى الشيخان في صحيحيهما من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها بسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته وأرضعته، فوجدت صبيًا فأخذته فالتزمته، وفي رواية فألصقته ببطنها فأرضعته. فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»** **قلنا: لا وهي قادرة على ألا تطرحه. فقال: «اللّه أرحم بعباده من هذه بولدها»**[2].

ورويا أيضًا من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: **«جعل اللّه الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه»**[3] روياه من عدة طرق منها: **«أن اللّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في الخلق كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند اللّه من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٥٢٣/ ٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٤)، والبخاري (١٠/ ٥٢٩/ ٦٠٠٠)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥٢)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٣).

الذي عند اللَّه من العذاب لم يأمن من النار». وقد ذكر بعض العلماء في شرح الحديث: أن الرحمة رحمتان، صفة ذات قائمة بذات اللَّه تعالى، وهي لا تتعدد، وصفة فعل وهي التي جعلت مائة قسم، والمتبادر أن الحديث في نسبة رحمة جميع الخلق إلى رحمة اللَّه تعالى؛ لبيان تعظيم قدرها، فيا حسرة على من لم يقدرها قدرها، ويا حسرة على من اغتر بها ففسق عن أمر ربه، ونسي حكمته في الجزاء، وهذه الرواية في الحديث لبيان وجوب الجمع بين الخوف والرجاء»[١].

قال أبو السعود: «أي: الذي توعدونه من البعث وما يتفرّع عليه من الأمور الهائلةِ، وصيغةُ الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددي، و﴿لَآتٍ﴾: لواقعٌ لا محالة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[٢]. وإيثارُه عليه لبيان كمالِ سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ حسبما يُعرب عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ذلك وإن ركبتم في الهرب متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ، كما أن إيثارَ صيغةِ الفاعل على المستقبل للإيذان بكمال قرب الإتيان، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاء الإعجاز لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجاز؛ فإن الجملة الاسمية كما تدل على دوامِ الثبوت تدل بمعونة المقام إذا دخَل عليها حرفُ النفي على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوامِ؛ كما حُقِّق في موضعه»[٣].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ١١٣-١١٥).
(٢) المرسلات: الآية (٧).
(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ أي: استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقي ومنهجي؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[(١)].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾أي: ناحيتكم».

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: أتكون لي أو لكم. وقد أنجز موعده له، صلوات اللَّه عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، ﷺ أجمعين، كما قال اللَّه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾[(٢)]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[(٤)]، وقال تعالى إخبارًا عن رسله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) هود: الآيتان (١٢١ و١٢٢).
(٢) المجادلة: الآية (٢١).
(٣) غافر: الآيتان (٥١و٥٢).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠٥).
(٥) إبراهيم: الآيتان (١٣و١٤).

ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[1] الآية، وقد فعل اللَّه ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولًا وآخرًا، باطنًا وظاهرًا»[2].

وقال **محمد رشيد رضا**: «في هذا النداء ضرب من الاستمالة للكفار الذين خوطبوا بالدعوة أولا بما يذكرهم بأنهم قوم الرسول الذين يحبهم، ويحرص على خيرهم ومنفعتهم بباعث الفطرة والتربية والمنافع المشتركة، وقد كانت النعرة القومية عند العرب أقوى منها عند المعروف حالهم اليوم من سائر الأمم، فكان نداؤهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ جديرًا بأن يحرك هذه العاطفة في قلوبهم، فتحمل المستعد على الإصغاء لما يقول والتأمل فيه، وقد أمر اللَّه تعالى رسوله بمثل هذا في آخر سورة (هود) وأواسط سورة (الزمر)، وحكى مثله عن شعيب ﷺ. والمكانة في اللغة حسية، وهي المكان الذي يتبوؤه الإنسان، ومعنوية وهي الحال النفسية أو الاجتماعية التي يكون فيها. والمعنى اعملوا على مكانتكم وشاكلتكم التي أنتم عليها، إني عامل على مكانتي وشاكلتي التي هداني ربي إليها وأقامني فيها، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى في هذه الدار بتأثير عمله. نبههم بذلك إلى الاستدلال العلمي الاجتماعي في ترتب أحوال الأمم على أعمالها المنبعثة على عقائدها وصفاتها النفسية ليستدلوا به، ثم صرح لهم بما يرشدهم إلى تلك العاقبة كما سنفصله.

وقال الزمخشري في «الكشاف»: المكانة تكون مصدرًا؛ يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان؛ يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة. وقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها؛ يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان: أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه. ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على مكانتي التي أنا عليها. والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا تكون له العاقبة المحمودة. وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[3] وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به وهو

---

(١) النور: الآية (٥٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٣) فصلت: الآية (٤٠).

واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه . اهـ.

وقد أشار فيه إلى ترجيح كون قوله تعالى : ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ استفهام كقوله : ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾[1] الخ ثم بينه وذكر فيه وجها آخر وهو أن (من) بمعنى الذي أي : فسوف تعرفون الفريق الذي تكون له العاقبة الحسنى ، التي خلق اللَّه هذه الدار (الدنيا) لها . قال : وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن مع تضمن شدة الوعيد والوثوق بأن المنذر (بكسر الذال) محق ، والمنذر (بفتح الذال) مبطل . اهـ.

وأقول : إن غاية هذا الإنذار وروحه الإحالة على المستقبل في صدق وعد اللَّه لرسوله بنصره ووعيده لإعدائه بقهرهم في الدنيا ؛ إذ كان هذا شيئًا لا بد أن يراه جمهور المخاطبين بأعينهم ، فيكون حجة على صدق وعده ووعيده في أمر الآخرة ؛ إذ لا فرق بينهما في كون الأخبار بهما من الأنباء بالغيب ، ولا في السبب الذي لأجله كانت عاقبة الرسول ومن اتبعه هي الحسنى في الدنيا والآخرة ، وجعل عاقبة من كفر به وناوأه هي السوأى . وقد أشار إلى هذا السبب بفاصلة الآية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي : لأنفسهم بالكفر بنعم اللَّه ، واتخاذ الشركاء له في ألوهيته بالتوجه إليهم فيما يتقرب به إليه تعالى ، أو فيما لا يطلب إلا منه ، وهو كل ما أعيت المرء أسبابه ، أو كانت مجهولة عنده ، فيجب أن يتوجه إليه ويدعى في هذا وحده . وأما ما عرف سببه فيطلب من طريق السبب ، مع العلم بأن خالق الأسباب ومسخرها هو اللَّه خالق كل شيء ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] فهذا شر الظلم وأشده إفسادًا للعقول والآداب والأعمال ، فيلزمه إذا سائر أنواع الظلم الحقيقي والإضافي .

وقد تقدم شرح هذا المعنى في تفسير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3] من هذه السورة . وإذا كان فلاح الظالمين لأنفسهم وللناس بالأولى منتفيا بشرع اللَّه وسننه العادلة ؛ انحصر الفلاح والفوز في أهل الحق والعدل الذين يقومون بحقوق اللَّه وحقوق أنفسهم ، ومن يرتبط معهم في شؤون الحياة ، وهذا لا يكمل إلا لرسل اللَّه وجندهم من المؤمنين الصالحين ، ألم

---

(١) الكهف : الآية (١٢).
(٢) لقمان : الآية (١٣).
(٣) الأنعام : الآية (٨٢).

تر كيف نصر اللَّه رسوله على الظالمين من قومه أولا ؛ كأكابر مجرمي مكة المستهزئين به؟ ثم على سائر مشركي العرب، ثم نصر أصحابه على أعظم أمم الأرض وأقواها جندًا وأعظمها ملكًا وأرقاها نظامًا كالرومان والفرس؟ ثم نصر من بعدهم من المسلمين من كل أمة وشعب على من ناوأهم وقاتلهم من أهل الشرق والغرب؛ في الحروب الصليبية والفتوح العثمانية وغيرها بقدر حظهم من اتباع ما جاء به من الحق والعدل. فلما ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وصار حظهم من هداية دينهم نحوًا مما كان من حظ أهل الكتاب قبلهم من هداية رسلهم أو أقل؛ لم يعد لهم مزية ثابتة في هذا السبب المعنوي للنصر والفلاح، بل انحصر الفوز في الأسباب المادية والفنية، وسائر الأسباب المعنوية، كالصبر والثبات، والعدل والنظام، ونرى كثيرًا من الجاهلين بالإسلام يقولون: ما بال المسلمين قد أضاعوا ملكهم إذا كان اللَّه قد وعد بنصرهم؟ وجوابه: أن اللَّه تعالى لم يعد قط بنصر من يسمون مسلمين كيفما كانت حالهم، وإنما وعد بنصر من ينصره ويقيم ما شرعه من الحق والعدل، وبإهلاك الظالمين مهما تكن أسماؤهم وألقابهم، إذا نازعهم البقاء من هم أقرب إلى الحق والعدل أو النظام منهم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾(١)»(٢).

قلت: رحمة اللَّه على الشيخ رشيد رضا على هذا البيان الواضح للآية، وأن البقاء دائمًا للأصلح، وأن النجاح والفلاح لكامل الهداية، فالمسلمون في الصدر الأول، وبعدهم كل جماعة، وكل دولة نهضت بتطبيق الإسلام وشرعه على كل المستويات نجحت، وأفلحت. وكانت كل حركاتها موفقة، وتغلبت على الأمم التي كانت تزعم لنفسها القوة في العدة والعدد، وبقي هذا الأمر جاريا في كل أمة كان هذا منهاجها.

ولما ابتليت الأمة بعبادة الأضرحة والقباب، والأحجار والأشجار، وعبدوا الأحياء والأموات من دون اللَّه وتقمصوا كل ما ابتدعه المبتدعة، فأسسوا الطرق الصوفية، والفرق الشيعية السابة لأصحاب رسول اللَّه ﷺ، ورموا بالكتاب والسنة، وأخذوا بمنهاج اليونان في الكلام والفلسفة، وأصبحوا يتمادحون بذلك

---

(١) إبراهيم: الآيتان (١٣ و ١٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١١٩-١٢١).

ويعتبرونه التقدم والحضارة؛ سلط اللَّه عليهم عدوهم، فدخل ديارهم، واستعبد رجالهم، وانتهك أعراضهم، وتسرى بنسائهم، وصادر خيراتهم وأموالهم، وأبعد كتابهم وسنة رسولهم من محاكمهم، وفرض عليهم منهاجه، وحكمه، وتعليمه، وإعلامه، وأصبحت الأمة الإسلامية مع الأسف في صورة تمثل عدوها فيما يحبه ويرضاه، إلا من نجاه اللَّه من شر هذا الغازي. فلله در الشيخ رشيد في وصفه الحقيقي للمخالفات التي ارتكبتها الأمة الإسلامية.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

★ **غريب الآية:**

ذرأ: خلق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي معلقًا على قول ابن عباس ﵄: «من أراد أن يعلم جهل العرب؛ فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة (الأنعام) إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]: «وهذا الذي قاله ﵁ كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها القاصرة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل؛ والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ آلهة أعظم جهلًا وأكبر جرمًا؛ فإن الاعتداء على اللَّه أعظم من الاعتداء على المخلوقين.

والدليل على أن اللَّه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في مخلوقلته؛ أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال، وهذا حرام»[2].

وقال أيضًا: «هذا الذي أخبر اللَّه تعالى عنه من سخافة العرب وجهلها؛ أمر أذهبه اللَّه تعالى بالإسلام، وأبطله ببعثة الرسول ﷺ، وكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يذكر (إلا) أن ربنا تبارك و-تعالى ذكره- بنصه، وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به. وكانت الحكمة في ذلك واللَّه أعلم؛ أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ، بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة،

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٠).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٥٢-٧٥٣).

وقد قضى اللَّه ألا يصد كافر عن ذكر الكفر، ولا مبتدع عن تغيير الدين، قصده ببيان الأدلة، ثم وفق من سبق له عنده الخير فيسر له معرفتها، فآمن وأطاع، وخذل من سبق له عنده الشر فصدفه عنها، فكفر وعصى ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[(١)]»[(٢)].

قال محمد رشيد رضا: «بعد محاجة مشركي مكة وسائر العرب فيما تقدم من أصول الدين، وآخرها البعث والجزاء؛ ذكر بعض عباداتهم الشركية في الحرث والأنعام، وقتل الأولاد والتحليل والتحريم بباعث الأهواء النفسية، والخرافات الوثنية، فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ أي: وكان من أمرهم في ضلالتهم العملية أن جعلوا لله نصيبا مما ذرأ وخلق لهم من ثمر الزرع وغلته كالتمر والحبوب ونتاج الأنعام، ونصيبًا لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام، وقد حذف ذكر هذا النصيب إيجازًا لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي: فقالوا في الأول: هذا لله؛ أي: نتقرب به إليه، وفي الثاني: هذا لشركائنا؛ أي: معبوداتهم يتقربون به إليها، وقوله في الأول: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ معناه: بتقولهم ووضعهم الذي لا علم لهم به، ولا هدى من اللَّه لأن جعله قربة لله يجب أن لا يشرك معه غيره في مثله، وأن يكون بإذن منه تعالى لأنه دين، وإنما الدين لله ومن اللَّه وحده؟ وأما كونه لله خلقًا وملكًا فغير مراد في هذه القسمة، فإن له تعالى كل شيء؛ لأنه خالق كل شيء لا شريك له في الخلق. وهذا لا خلاف فيه بينهم وبين المؤمنين، وإنما الخلاف في التقرب إلى غيره تعالى؛ بمثل ما يتقرب به إليه من دعاء وصدقة وذبائح نسك، وأن يطاع غيره طاعة خضوع في التحليل والتحريم لذاته، بغير إذن منه تعالى وغير ذلك، فهذا شرك جلي، ومنه هذه القسمة بين اللَّه تعالى وبين ما أشركوا معه.

روي أنهم كانوا يجعلون نصيب اللَّه تعالى لقرى الضيفان، وإكرام الصبيان، والتصدق على المساكين، ونصيب آلهتهم لسدنتها وقرابينها، وما ينفق على معاهدها، فإن قيل: لم قرن الأول بالزعم الذي يعبر به عن قول الكذب والباطل

---

(١) الأنفال: الآية (٤٢).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٥٣).

على ما فيه من البر والخير دون الثاني الذي هو شر محض وباطل بحت، وبه كان الأول شركًا في القسمة ودون جعله لكل منهما؟ نقول: إن الأول وحده هو الذي يمكن أن يستحسنه المؤمن أو العاقل وإن لم يكن مؤمنًا، فاحتيج إلى قرنه بكونه زعمًا مخترعًا لهم لا دينًا مشترعًا لله تعالى، فكان بهذا باطلًا في نفسه فوق كونه مقرونًا بالشرك؛ إذ جعلوا مثله لما اتخذوا لله من الأنداد مع أحكام أخرى لهم فيه فصلها بقوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فما كان منه للتقرب إلى شركائهم التي جعلوها لله؛ فلا يصل إلى الوجوه التي جعلوها لله لا بالتصدق ولا بالضيافة ولا غيرهما، بل يعنون بحفظه لها بإنفاقه على سدنتها، وذبح النسائك عندها ونحو ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: وما جعلوه لله فهو يحول أحيانًا إلى التقرب به إليها فيما ذكر آنفًا وفي غيره مما سيأتي ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: قبح حكمهم هذا أو ما يحكمون به. وقبحه من وجوه منها: أنه اعتداء على اللَّه بالتشريع. ومنها: الشرك في عبادته، ولا يجوز أن يكون لغير اللَّه أدنى نصيب مما يتقرب به إليه. ومنها: ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم فيما فصل آنفًا، وهو أدنى الوجوه الثلاثة المحتملة في القسمة، والثاني المساواة بين ما لشركائهم وما لله سبحانه، والثالث ترجيح ما لله تعالى. ومنها: أن هذا الحكم لا مستند له من العقل، كما أنه لا هداية فيه من الشرع، وهذا مما يستدل به على أن العقول تدرك حسن الأحكام وقبحها ويحتج بها فيها»[١].

قال الرازي: «ثم إنه تعالى ذم هذا الفعل فقال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وذكر العلماء في كيفية هذه الإساءة وجوهًا كثيرة:

الأول: أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب اللَّه تعالى، وهو سفه.

الثاني: أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع، وهذا أيضًا سفه.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٢٢-١٢٣).

الثالث: أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم، ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع، فكان أيضًا سفهًا.

الرابع: أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومذر.

الخامس: أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام، ولا قدرة لها أيضًا على الانتفاع بذلك النصيب؛ فكان إفراز النصيب لها عبثًا، فثبت بهذا الوجوه أنه ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة؛ أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب، وأن يصير ذلك سببًا لتحقيرهم في أعين العقلاء، وأن لا يلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة»[1].

قلت: ما ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية، وما فسره علماء التفسير حكاية عن واقع المشركين السابق، فقد رجع إليه المسلمون، فجعلوا لأضرحتهم نصيبًا من أموالهم وزروعهم وحرثهم، بل وذراريهم وأبنائهم، وتجد هذا الأمر شائعًا في معظم العالم الإسلامي، وأهله ملتزمون بهذا النصيب الذي جعلوه لأضرحتهم، ولهذا تجد الشائع على ألسنتهم شيء لله يا فلان يا إبراهيم أو يا إدريس . . فهل لعلماء الإسلام إذا كانوا صادقين في محو هذه الشركيات ونبذها والتحذير منها، لكن المرتزقة يستغلونها لأنفسهم ومصالحهم ولها أوقاف ونذور، ولا شك أن كل هذه الأعمال شركية، وهي نفس ما فعله المشركون بأصنامهم وآلهتهم فإلى اللَّه المشتكى.

* * *

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٢١٥-٢١٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

يُرْدُوهُمْ: الإرداء: الإهلاك. يقال: أَرْدَاهُ يُرْدِيهِ، إذا أهلكه.

ذَرْهُمْ: أي اتركهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم، زينوا لهم قَتْلَ أولادهم.

وقال مجاهد: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ شياطينهم، يأمرونهم أن يئدوُا أولادهم خشية العَيْلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وإما ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وإما ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: فيخلطوا عليهم دينهم.

ونحو ذلك قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[2]. وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك. وإنما

(١) النحل: الآيتان (٥٨و٥٩). (٢) التكوير: الآيتان (٨و٩).

كان هذا كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم اللَّه بينك وبينهم»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «هذا حكم آخر مما كانوا عليه من أعمال الشرك التي لا يستحسنها عقل سليم، ولم تستند إلى شرع إلهي قويم؛ أي: ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين اللَّه تعالى وبين آلهتهم؛ زين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم. فأما الشركاء هنا فقيل: هم سدنة الآلهة وخدمها. وقيل: بل هم الشياطين الذين يوسوسون لهم ما يزين ذلك في أنفسهم، وإنما سمي كل منهما شريكا لأنه يطاع ويدان له فيما لا يطاع به إلا اللَّه تعالى، ولهذا التزيين وجوه:

أحدها: اتقاء الفقر الواقع أو المتوقع، فالأول هو ما بينه اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾[(٢)]. والثاني: ما بينه بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾[(٣)] وقدم في الأول رزق الوالدين على رزق الأولاد؛ لأن الولد الصغير تابع لوالده في الرزق الحال، وقدم في الثاني رزق الأولاد على رزق الوالدين لتعلقه بالمستقبل، وكثيرًا ما يعجز فيه الآباء عن كسب الرزق، ويحتاجون إلى إنفاق أولادهم عليهم.

والوجه الثاني: اتقاء العار، وهو خاص بوأد البنات؛ أي: دفنهن حيات خشية أن يكن سببا للعار إذا كبرن، فهم يصورون البنت لوالدها الجبار العاتي ترتكب الفاحشة، أو تقترن بزوج دونه في الشرف والكرامة فتلحقه الخسة، أو تسبى في القتال.

والوجه الثالث: التدين بنحر الأولاد للآلهة تقربا إليها بنذر أو بغير نذر، وكان الرجل ينذر في الجاهلية: لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٧-٣٣٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٥١).
(٣) الإسراء: الآية (٣١).

المطلب، وخبره معروف يذكر في قصص المولد النبوي. ولولا الشرك الذي يفسد العقول لما راجت هذه الوسوسة عندهم، ولذلك عبر عنهم هذا بوصف المشركين في مقام الإضمار؛ لأن الكلام السابق فيهم. وسمى المزينين لهم ذلك من شياطين الإنس كالسدنة أو الجن شركاء وإن لم يسموهم هم آلهة أو شركاء؛ لأنهم أطاعوهم طاعة إذعان ديني في التحليل والتحريم، وهو خاص بالرب المعبود كما ورد مرفوعًا في تفسير ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] فإن مقتضى الفعل الإذعاني أقوى دلالة من مدلول القول اللساني؛ لكثرة الكذب في هذا دون ذاك، وإننا نرى كثيرًا من الذين يدعون التوحيد يدعون لغير اللّٰه تعالى من الموتى؛ تضرعًا وخفية خاشعين عند قبورهم، باكين متضرعين، ويتقربون إليهم بالصدقات وذبائح النسك منذورة أو غير منذورة، ولكنهم لا يسمونهم شركاء لله ولا يسمون عبادتهم هذه شركًا ولا عبادة، وقد يسمونها توسلًا. والأسماء لا تغير الحقائق والأفعال، ومنها الأقوال كالدعاء أدل على الحقائق من التسمية الاصطلاحية والتأويلات الجدلية، فهذه الأفعال عبادة لغير اللّٰه حقيقة لغة وشرعًا لا مجازًا»[2].

وقال أيضًا: «ثم علل هذا التزيين بقوله تعالى: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ أي: زينوا لهم هذه المنكرات ليردوهم؛ أي: يهلوكهم بالإغواء، وهو إفساد الفطرة، الذي يذهب بما أودع في قلوب الوالدين من عواطف الرأفة والرحمة، بل يقلبها إلى منتهى الوحشية والقسوة، حتى ينحر الوالد ريحانة قلبه بمديته، ويدفن بنته الضعيفة وهي حية بيده، فهذا إرداء نفسي معنوي فوق الإرداء الحسي وهو القتل، وتقليل النسل.

وأما لبس دينهم عليهم فالمراد بالدين فيه ما كانوا يدعونه من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام، وقد اشتبه واختلط عليهم بما ابتدعوه من هذه التقاليد الشركية، حتى لم يعد يعرف الأصل الذي كان يتبع من هذه الإضافات الشركية التي لا تزال تبتدع، فاللبس الخلط بين الشيئين أو الأشياء الذي يشتبه فيه بعضها ببعض، وقيل: إن المراد دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: ليوقعوهم في دين ملتبس مشتبه لا تتجلى فيه حقيقة، ولا تخلص فيه هداية. وهذا التعليل ظاهر على

(١) التوبة: الآية (٣١).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٢٤-١٢٥).

القول بأن الشركاء شياطين الجن وتزيينهم وسوستهم. وأما على القول بأن الشركاء هم سدنة الآلهة فاللام للعاقبة والصيرورة؛ لأن السدنة لا تقصد الإرداء لهم ولبس الدين عليهم، كذا قيل، وهو ظاهر في الإرداء، ولا يصح على إطلاقه في لبس الدين، فإن كثيرًا من السدنة والكهنة يقصدون العبث بدين من يتبعهم ويدين لهم التذاذا بطاعتهم واستعلاء بالرياسة فيهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ولو شاء اللَّه تعالى ألا يفعل الشركاء ذلك التزيين، أو المشركون ذلك القتل؛ لما فعلوه، وذلك بأن يغير خلقهم وسننه الحكيمة فيهم، ولكنه أخبرنا بأنه لا تبديل لخلقه ولا لسننه. أو بأن يخلق الناس من أول الأمر مطبوعين على عبادة اللَّه تعالى طبعا لا يستطيعون غيره؛ كالملائكة فلا يؤثر فيهم إغواء؛ بل لا تتوجه إليهم وسوسة لعدم استعدادهم لقبولها، ولكنه شاء أن يخلق الناس مستعدين للتأثر بكل ما يرد على أنفسهم من المعلومات الحسية والفكرية، ولاختيار ما يترجح في أنفسهم أنه خير لهم على ما يقابله، ولأجل هذا يغلب على كل إنسان ما رسخ في نفسه بالتعليم والاستنباط، وتأثير المعاشرة والاختلاط، فيكون عليه اعتماده في ترجيح بعض الأعمال على بعض، والناس متفاوتون في هذا استعدادًا واستفادة، فلا يمكن أن يكونوا على دين واحد أو رأي واحد، فدع أيها الرسول هؤلاء المفترين على اللَّه بانتحال ما لم يشرعه له، وما يفترونه من العقائد والأعمال المستندة إليها، وعليك بما أمرت به من التبليغ، ولله تعالى سنن في الاهتداء لا تتغير ولا تتبدل، فلا يحزنك أمرهم، فإن من سنته أن يغلب حقك باطلهم.

هذا معنى الآية الموافق لكتاب اللَّه، ومقتضى صفاته وسننه في خلقه التي أخبر بأنها لا تبديل لها ولا تحويل، وليس معناها: أن مشيئة اللَّه تعالى قد تعلقت بأن يقتل هؤلاء أولادهم تعلقًا ابتدائيًّا؛ بأن يكون أمرًا خلقيًّا كدوران الدم في البدن لا اختيار لهم فيه، ولا يستطيعون سبيلًا إلى تركه، كيف وقد وصفهم في الآية الآتية بأنهم يفعلونه سفها بغير علم، وقد تركوا هذا السفه والجهل بهداية الإسلام، فلا حجة في الآية للجبرية وإن لهج بها خواصهم وعوامهم بغير علم ولا فهم»[1].

(١) تفسير المنار (٨/ ١٢٦-١٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال العلامة عبد الرحمن السعدي: «ومن أنواع سفاهتهم؛ أن الأفعال التي أحلها اللَّه لهم عموما، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم.

فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف من عندنا. وكل هذا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة.

﴿وَأَنْعَٰمٌ﴾ ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها؛ أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام.

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ بل يذكرون اسم أصنامهم، وما كانوا يعبدون من دون اللَّه عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى اللَّه، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ على اللَّه، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال، من الأكل والمنافع»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذه ثلاثة أنواع أخرى من أحكامهم المخترعة المبنية على غواية شركهم:

فالأول: أنهم كانوا يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها،

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

ويمنعون التصرف فيها إلا فيما يخصونها له تعبدًا، ويقولون: (هي حِجْرٌ) وهو بالكسر، بمعنى المحجور الممنوع أن يتصرف فيه؛ كالذِّبْح بمعنى المذبوح، والطِّحْن بمعنى المطحون، ويجري وصفًا للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع؛ لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وأصله ما أحيط بالحجارة، ومنه حجر الكعبة، وسمي العقل حجرًا لأنه يمنع صاحبه مما يضر ويقبح من الأعمال. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي: الحجر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا، اهـ. أي: وما حرموا من غيرها. وقال زيد بن أسلم: حجر إنما احتجروها لآلهتهم. وقال قتادة: حجر عليهم في أموالهم من الشياطين، وتغليظ وتشديد، ولم يكن من اللَّه. أي: ولهذا قال: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾، قالوا: وكانوا يحتجرونها عن النساء ويجعلونها للرجال، وقالوا: إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيبًا، وإن شئنا لم نجعل. وهذا أمر افتروه على اللَّه.

والثاني: أنعام حرمت ظهورها؛ أي: أن تركب. قال السدي: هي البحيرة والسائبة والحامي. وقد تقدم ذكرها في سورة (المائدة): ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1].

والثالث: أنعام لا يذكرون اسم اللَّه عليها في الذبح؛ بل يهلون بها لآلهتهم وحدها. وعن أبي وائل كانوا لا يحجون عليها فلا يلبون على ظهورها. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم اللَّه عليها ولا في شيء من شأنها؛ لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن سحبوا ولا إن عملوا شيئًا، اهـ.

وجملة القول: أنهم قسموا أنعامهم هذا التقسيم الذي جعلوه من أحكام الدين، فنسبوه إلى اللَّه تعالى حكما وديانة ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ أي: قالوه أو فعلوه مفترين إياه، أو افتروه افتراءً واختلقوه اختلاقًا واللَّه بريء منه لم يشرعه لهم، وما كان لغير اللَّه أن يحلل أو يحرم على العباد ما لم يأذن به؛ كما قال في آية أخرى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾[2] أي: بل أنتم تفترون عليه، ولا يزال بعض الناس يحلون ويحرمون على أنفسهم

(١) المائدة: الآية (١٠٣).

(٢) يونس: الآية (٥٩).

وعلى الناس بأهوائهم أو تقليد بعض المصنفين من أوليائهم والمنتحلين لمذاهبهم، إما موقتًا بيمين أو نذر أو تنسك تصوف، وإما تحريمًا مطلقًا دائمًا، وهم يجهلون على ادعائهم للعلم والدين، أنهم يتبعون بذلك المشركين الذين بينت هذه الآيات سوء حالهم، وذيلت هذه الآية ببيان سوء مآلهم، وهو قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: سيجزون الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ١٢٧-١٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة. كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حيًّا فهو خالص للذكور لا تأكل منها الإناث، وما ولد ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾، والمراد منه الوعيد، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ليكون الزجر واقعًا على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: «يقال: جزاه كذا وبكذا؛ أي: جعله جزاء له على عمل عمله؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[(٢)] إلخ، وقال: ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[(٣)]، وقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[(٤)]، وقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٥)]. وجعل الجزاء عين العمل قد تكرر في سورة أخرى، وقدروا له كلمة جزاء أو ثواب وعقاب؛ بناءً على أن العمل هو ما يجازى عليه لا ما يجازى به، ولكن تعبير الكتاب لا يكون إلا لنكتة عالية في البلاغة، وهي عندنا الإيذان بأن الجزاء لما كان أثرًا لما يحدثه العمل في النفس من تزكية أو تدسية؛ كان كأنه عين العمل، فإن النفس تنعم أو تعذب بالصفة التي تطبعها فيها الأعمال، وبهذا يتجلى لك هنا معنى جعل جزاء المفترين على الله في التشريع وصفهم، ولاسيما إذا جعل الوصف هنا بمعنى الصفة التي هي حالة النفس وصورتها . .

(١) تفسير الرازي (١٣/ ٢١٩).
(٢) الفرقان: الآية (٧٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٩).
(٤) يونس: الآية (٥٢).
(٥) النمل: الآية (٩٠).

ومعنى الجملة مع تعليلها : سيجزيهم اللَّه بمقتضى حكمته في الخلق وعلمه بشؤونهم وأعمالهم ومناشئها من صفاتهم ؛ بأن يجعل عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحي ، فإن لكل نفس في الآخرة صفات تجعلها في مكان معين من عليين ، أو سجين في أسفل سافلين . كما أن صفة الجسم السائل الخفيف تقتضي بسنن اللَّه أن يكون فوق الجسم الثقيل ؛ كما ترى في الزيت إذا وضع في إناء مع الماء . وما يعرف الناس من درجات الحرارة في موازينها المعروفة مثال موضح للمراد ، فمنشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها وسائر صفاتها التي يطبعها العمل عليها . وإذا جعل الوصف مصدرا فلابد من تقدير معموله كأن يقال : سيجزيهم وصفهم لربهم بما جعلوا له من الشركاء في العبادة والتشريع ، أو وصف ألسنتهم الكذب بما افتروا عليه فيهما ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[1] الآية»[2] .

وقال القرطبي : «وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به ؛ حتى يعرف فساد قوله ، ويعلم كيف يرد عليه ؛ لأن اللَّه تعالى أعلم النبي ﷺ وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم ؛ ليعرفوا فساد قولهم»[3] .

* * *

(١) النحل : الآية (١١٦).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾

★ غريب الآية:

سَفَهًا: حماقة وجهالة؛ لأن السفه: خفة العقل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذب، العادلون به الأوثان والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرموا ما أحل اللَّه لهم، وجعله لهم رزقًا من أنعامهم سفها منهم، يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقص عقول، وضعف أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضره، وآجل مكروهه من عظيم عقاب اللَّه عليه لهم، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، يقول: تكذُّبًا على اللَّه، وتخرصًا عليه الباطل ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك ولا كانوا مهتدين للصواب فيها ولا موفقين له»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «حاصل ما أنكر اللَّه تعالى على مشركي العرب في هذا السياق يرجع إلى الأمرين الفظيعين اللذين نعتهما عليهم هذه الآية، وحكمت عليهم فيهما حكمًا حقًّا وعدلًا، وهو أنهم خسروا بقتل أولادهم وبوأد البنات الآتي بيانه وغيره خسرانًا عظيمًا، دل عليه حذف مفعول خسروا الدال على العموم في بابه ليتروى السامع فيه، ويتأمل ما وراء قوادمه من خوافيه، وذلك أن خسران الأولاد

(١) جامع البيان (١٢/ ١٥٣-١٥٤).

يستلزم خسران كل ما كان يرجى من فوائدهم من العزة والنصرة، والبر والصلة والفخر والزينة، والسرور والغبطة، كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوة ورأفتها، وما يتبع ذلك من القسوة والغلظة والشراسة وغير ذلك من مساوي الأخلاق التي يضيق بها العيش في الدنيا، ويترتب عليها العقاب في الآخرة. ولذلك علل هذا الجرم بسفه النفس وهو اضطرابها وحماقتها، وبالجهل أي عدم العلم بما ينفع ويضر وما يحسن ويقبح.

ثم بين بعد هذا أنهم حرموا ما رزقهم اللّٰه من الطيبات، وهذا سفه وجهل أيضًا، ولكنه دون ما سبقه من هذه الجهة، ولذلك اقتصر على تعليله بشر ما فيه من القبح وهو الافتراء على اللّٰه بجعله دينًا يتقرب به إليه. ثم بين نتيجة الأمرين بأنهم قد ضلوا فيهما وما كانوا مهتدين إلى شيء من الحق والصواب من طريق العقل، ولا من طريق الشرع، ولا من منافع الدنيا، ولا من سعادة الآخرة. فهذه الأعمال أقبح ما كانت عليه العرب من غواية الشرك، وقد عاد إلى المسلمين شيء منه بتحريم ما لم يحرم اللّٰه وجعله دينًا، وهم لا يشعرون»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما كان عليه العرب من جهل وشرك وكفر وانحراف

* عن ابن عباس ﷺ قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة (الأنعام): ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «وهذا الذي قاله ﷺ كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها القاصرة في تنويع الحلال والحرام؛ سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ آلهة أعظم جهلًا وأكبر جرمًا؛ فإن الاعتداء على اللّٰه أعظم من الاعتداء على المخلوقين.

(١) تفسير المنار (٨/ ١٣٠-١٣١).
(٢) البخاري (٦/ ٦٨٣/ ٣٥٢٤).

والدليل على أن اللَّه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في مخلوقاته؛ أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام»[1].

* * *

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٥٢-٧٥٣).

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنشأ: الإنشاء: ابتداء الخلق. وكل من ابتدأ خلق شيء واخترعه فقد أنشأه.

الجنات: جمع جنة. وهي في الأصل البستان ذو الشجر الساتر بأشجاره الأرض.

معروشات: مرفوعات على ما يحملها من العيدان.

تسرفوا: الإسراف مجاوزة الحد في كل شيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر، وأنه تعالى بالغ في تقرير هذه الأصول، وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة، وكلماتهم الفاسدة في مسائل أربعة. والمقصود التنبيه على ضعف عقولهم، وقلة محصولهم، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم، والاغترار بشبهاتهم. فلما تمم هذه الأشياء عاد بعدها إلى ما هو المقصود الأصلي، وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾

واعلم أنه قد سبق ذكر هذا الدليل في هذه السورة، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ

ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1] . فالآية المتقدمة ذكر تعالى فيها خمسة أنواع، وهي: الزرع والنخل وجنات من أعناب والزيتون والرمان، وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها لكن على خلاف ذلك الترتيب؛ لأنه ذكر العنب، ثم النخل، ثم الزرع، ثم الزيتون، ثم الرمان. وذكر في الآية المتقدمة: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾، وفي هذه الآية: ﴿مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾، ثم ذكر في الآية المتقدمة: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ فأمر تعالى هناك بالنظر في أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم، وذكر في هذه الآية: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ فأذن في الانتفاع بها، وأمر بصرف جزء منها إلى الفقراء. فالذي حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم، وههنا أذن في الانتفاع بها. وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الإذن في الانتفاع بها؛ لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية، والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء، والأول أولى بالتقديم، فلهذا السبب قدم اللّه تعالى الأمر بالاستدلال بها على الإذن بالانتفاع بها»[2].

وقال ابن العربي: «ووصْفُها بأنها متشابهة وغير متشابهة؛ يعني أن منها ما يتشابه في الظاهر، ويخالفه في الباطن؛ ومنها ما يشتبه في اللون، ويختلف في الطعم، وفي ذلك دليلان عظيمان:

أحدهما: على المنة منه سبحانه علينا، والنعمة التي هيأها لنا وهي: . . . فلو شاء ربنا إذ خلقنا أحياء ألا يخلق لنا غذاء، أو إذ خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، أو إذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداءً؛ لأنه لا يجب عليه شيء، وإن فعله فبفضله، كابتداء خلقه في تعديد النعم، وتقرير الفضل والكرم والشهادة على الابتداء بالثواب قبل العقاب، وبالعطاء قبل العمل.

الدليل الثاني: على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب، يصعد

---

(١) الآية (٩٩).

(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٢٢١-٢٢٢).

بقدرة الواحد القادر علام الغيوب، من أسافل الشجر إلى أعاليها، ويترقى من أصولها إلى فروعها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمار خارجة عن صفتها، فيها الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها؟ وأين الفلاسفة وأناسها؟ هل في قدرة الطبيعة -إذا سلمنا وقلنا لها قدرة على طريق الجدل- أن تتقن هذا الإتقان البديع، أو ترتب هذا الترتيب العجيب؟ كلاً، لا يتم ذلك في المعقول إلا لحي عالم قادر مريد، فقد علم الألباء أن أميًّا لا ينظم سطور الكتاب، وأن سواديًا لا يقدر على ما في الديباج من التزين والنساجة؛ فسبحان من له في كل شيء آية بداية ونهاية، فمن الله الابتداء، وإن إلى ربك المنتهى، تقدس وتعالى»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «هذه الآيات إلى تمام العشر بعدها في تتمة سياق مسألة تحريم المشركين ما لم يحرم الله تعالى من الأنعام وغيرها من الأغذية وما يتعلق به، وقد قلنا: إنه ذكر في هذه السورة المنزلة في أصول الدين وما يقابلها من أصول الشرك والكفر؛ لأنه من هذه الأصول لا لمجرد كونه من جهالاتهم وضلالاتهم العملية. ذلك بأن أصل الدين الأعظم توحيد الله تعالى باعتقاد الألوهية والربوبية له، وإفراده بالعبادة، وحق التشريع بأن نؤمن بأنه لا رب ولا خالق غيره، ولا إله يعبد معه أو من دونه، ولا شارع سواه لعبادة ولا حلال ولا حرام، وفي هذه العقيدة منتهى تكريم الإنسان. فتأمل ذلك كله في هذه الآيات البينات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ الإنشاء: إيجاد الأحياء وتربيتها، وكذا كل ما يكمل بالتدريج كإنشاء السحاب وكتب العلم والشعر والدور. والجنات البساتين؛ والكروم الملتفة الأشجار بحيث تجن الأرض وتسترها. والمعروشات المسموكات على العرائش، وهي ما يرفع من الدعائم ويجعل عليها مثل السقوف من العيدان والقصب.. وعن ابن عباس أن المعروشات ما يعرش من الكرم وغيره، وغير المعروشات ما لا يعرش منها. وفي رواية عنه أن الأول ما عرش الناس؛ أي: في الأرياف والعمران، والثاني: ما خرج في الجبال

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٥٦-٧٥٧).

والبرية من الثمرات. والمعهود أن الكرم منه ما يعرش ومنه ما يترك منبسطًا على الأرض، وكله من جنس المعروشات التي أودع اللَّه فيها خاصية التسلق والاستمساك بما تتسلق عليه؛ من عريش مصنوع أو شجر أو جدار ونحوه، فالمتبادر من صيغة الجمع في القسمين أن المراد بالأول أنواع المعروشات بالقوة كالكرم؛ وإن لم يوجد ما تعرش عليه بالفعل، وبالثاني غير المعروشات من سائر أنواع الشجر الذي يستوي على سوقه ولا يتسلق على غيره، وخصهما بعضهم بالكرم، وعلى هذا يكون عطف النخل عليه وقرنه به؛ لأنه قسيمه في كون ثمرهما من أصول الأقوات، وقرينه فيما سيأتي بيانه من الفوائد والشبه. وأما على القول بأن النخل من قسم الجنات غير المعروشات؛ فيكون ذكره تخصيصًا له من أفراد العام؛ لما فيه من المنافع الكثيرة، ولا سيما للعرب، فإن بسره ورطبه فاكهة وغذاء، وتمره من أفضل الأقوات التي تدخر، وأيسرها تناولا في السفر والحضر ليس فيه مؤنة، ولا يحتاج إلى طبخ ولا معالجة، ونواه علف للرواحل، ولهم منه شراب حلال لذيذ إذا نبذ في الماء زمنا قليلا وهو النبيذ أي: النقوع، وكان أكثر خمرهم منه ومن بسره، (ولا منة في الرجس) دع ما في جريد النخل وليفه من المنافع والفوائد، فهو بمجموع هذه المزايا يفضل الكرم الذي هو أقرب الشجر منه، وأشبهه به شكلًا ولونًا في عنبه وزبيبه ومنافعه؛ تفكهًا وتغذيًا وتحليًا وشربًا.

ثم عطف عليه الزرع وهو النبات الذي يكون بحرث الناس، وهو عام لكل ما يزرع على القول بالعموم فيما قبله. وأما على القول بتخصيص الجنات بالكرم؛ فينبغي أن يخص بما يأتي منه القوت كالقمح والشعير، ويكون ترتيب المعطوفات على طريقة الترقي من الأدنى في التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم، فإن الحبوب هي التي عليها معول أكثر البشر في أقواتهم، وهذا عكس الترتيب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[1] فترتيب الأقوات في هذه الآية على طريق التدلي من الأعلى في الاقتيات إلى الأدنى فالأدنى، والفرق بينهما أن هذه جاءت في مقام سرد الآيات

(١) الأنعام: الآية (٩٩).

الكونية على وحدانية اللَّه وقدرته وحكمته ورحمته بعباده. وقبلها آيات في آياته في العالم العلوي، وفي خلق الإنسان وهو دونه، وعالم النبات أدنى منهما، فروعي التدلي في أنواعه كما روعي فيما بينه وبين ما قبله. والمقام في الآية التي نفسرها وما بعدها مقام ذكر الأقوات لبيان شرع منشئها في إباحتها في مقابلة ضلال المشركين فيما ذكر قبلها من التحليل والتحريم بأهواء الشرك وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إلخ، فقدم هنالك الحرث على الأنعام لأن ضلالهم فيه أقل من ضلالهم فيها، وجرى هنا على هذا الترتيب فذكر الحرث أولًا لما ذكر، وترقى إلى ذكر الأنعام لكثرة ضلالهم فيها، وما يحتاج إليه من تفصيل القول الحق في ذلك، وهو انتقال من المهم إلى الأهم في المعنى المراد، وتأخير لما اقتضت الحال إطالة القول فيه على الأصل؛ فحسن الترقي في ذكر أنواع الأقوات النباتية تفصيلًا كما حسن فيما بينها بجملتها وبين الأقوات الحيوانية. ولما ذكرنا من اختلاف المقام في الآيتين قال في آية: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾[1]، وقال هنا: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾، ولم أر أحدًا تعرض لهذه النكت هنا»[2].

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل معناه: لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف. وقال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئًا، ثم تباروا فيه وأسرفوا؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾. وقال ابن جريج: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلًا له فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ رواه ابن جرير عنه. وقال ابن جريج عن عطاء: ينهى عن السرف في كل شيء. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر اللَّه فهو سرف. وقال السدي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا. ثم اختار ابن جرير قول عطاء: أنه نهى عن الإسراف في كل شيء. ولا شك أنه صحيح؛ لكن الظاهر -واللَّه أعلم- من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾؛ أن يكون عائدًا إلى

(١) الأنعام: الآية (٩٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٣٢-١٣٤).

الأكل؛ أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن»[1].

وقال محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾: «وقد قالوا إن الأمر هنا للإباحة؛ أي: بعد أن آذن اللَّه تعالى عباده بأنه هو الذي أنشأ لهم ما في الأرض من الشجر والنبات الذي يستغلون منه أقواتهم؛ آذنهم بأنه أباحه كله لهم فليس لأحد غيره أن يحرم شيئًا منه عليهم؛ لأن التحريم حق للرب الخالق للعباد وللأقوات جميعًا، فمن انتحله لنفسه فقد جعل نفسه شريكًا له تعالى، ومن أذعن لتحريم غير اللَّه وأطاعه فيه؛ فقد أشركه معه ﷻ، كما علم من تفسير الآيات التي قبل هذه، ويؤكده ما في الآيات بعدها والكلام في التحريم الديني كما هو ظاهر. وأما منع بعض الناس من بعض هذا الثمر لسبب غير التشريع الديني فلا شرك فيه، وقد يوافق بعض أدلة الشرع فيكون منعًا شرعيًّا؛ أي: تحريمًا كمنع الطبيب بعض المرضى من أكل الخبز أو الثمر لأنه يضره، فمن ثبت عنده بشهادة الطبيب الثقة أن التمر يضره مثلًا؛ حرم عليه أن يأكله، وهذا التحريم ليس تشريعًا من الطبيب، بل اللَّه تعالى هو الذي حرم كل ضار، وإنما الطبيب معرف للمريض بأنه ضار، فلا فرق بينه وبين من يخبر بأن هذا الطعام قد طبخ بلحم الخنزير، أو لحم كبش أهل به لغير اللَّه، فيحرم على كل من صدقه أكله ما لم يكن مضطرًّا إليه. وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطير في بعض الأحوال للمصلحة العامة، كالحاجة إلى كثرته في حفظ بعض الزرع؛ لأنه يأكل الحشرات المهلكة له مثلًا. ولكن مثل هذين ليس تحريمًا ذاتيًّا لما ذكر يدوم بدوامه، بل موقت بدوام سببه، ولا هو مبني على أن للسلطان أن يحرم شيئًا بمحض إرادته، وإنما هو مكلف شرعًا بصيانة المصالح ودرء المفاسد، فإذا أخطأ في اجتهاده بشيء من ذلك؛ وجب على الأمة الإنكار عليه، ووجب عليه الرجوع إلى الحق»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية والنهي عن الإسراف

* عن ابن عباس ﵄: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قال: «نسخها العشر

(١) التفسير (٣/ ٣٤٣).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٣٥).

ونصف العشر»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة...

وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة...

وقال آخرون: هذا كله شيء كان واجبًا ثم نسخه اللَّه بالعشر ونصف العشر...

قلت: وفي تسمية هذا نسخًا نظر؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته، قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فاللَّه أعلم. وقد ذم اللَّه سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة (ن): ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾[٢] أي كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾[٣] أي: قوة وجلد وهمة ﴿قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٤]»[٥].

* **عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»**[٦].

★ **غريب الحديث:**

ولا مخيلة: أي: تكبر ومرح.

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٧/ ١٠٤٧٢)، وابن جرير (٨/ ٥٣-٥٤-٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٢٣/ ٤٧١)، والبيهقي في السنن (٤/ ١٣٢) من طرق عن ابن عباس ﷺ.

(٢) القلم: الآيات (١٧-٢٠).

(٣) القلم: الآيات (٢١-٢٥).

(٤) القلم: الآيات (٢٥-٣٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٤٠-٣٤٣).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١، ١٨٢)، والنسائي (٥/ ٨٣/ ٢٥٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢/ ٣٦٠٥)، وعلقه البخاري في صحيحه (١٠/ ٣١٠) بصيغة الجزم، ووصله الحافظ في التغليق (٥/ ٥٢-٥٣)، وصححه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٥) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «ووجه الحصر في الإسراف والمخيلة أن الممنوع من تناوله أكلًا ولبسًا وغيرهما؛ إما لمعنى فيه، وهو مجاوزة الحد، وهو الإسراف، وإما للتعبد كالحرير إن لم تثبت علة النهي عنه، وهو الراجح. ومجاوزة الحد تتناول مخالفة ما ورد به الشرع، فيدخل الحرام، وقد يستلزم الإسراف الكبر وهو المخيلة. قال الموفق عبد اللطيف البغدادي: هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة، فيؤدي إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس»[1].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣١١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحمولة: ما استحق أن تحمل عليه الأحمال.

فرشًا: الفرش: الصغار. وقيل: ما يفرش من الأنعام؛ أي: يركب. أي: منها ما يحمل عليه، ومنها ما يركب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾؛ أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال الثوري، عن أبي إسحق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾: ما حمل عليه من الإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ وقال: الصغار من الإبل. رواه الحاكم، وقال: صحيح، ولم يخرجاه.

وقال ابن عباس: الحمولة: هي الكبار، والفرش: الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ فأما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم.

واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سمي فرشًا لدنوه من الأرض.

وقال الربيع بن أنس، والحسن، والضحاك، وقتادة: الحمولة: الإبل والبقر، والفرش: الغنم.

وقال السدي: أما الحمولة فالإبل، وأما الفرش فالفُصْلان والعَجَاجيل والغنم، وما حمل عليه فهو حمولة.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافًا وفرشًا.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها اللَّه وجعلها رزقًا لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم اللَّه؛ أي: من الثمار والزروع افتراءً على اللَّه.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أي: إن الشيطان -أيها الناس- لكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيّن ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾[5] الآية، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[6]. والآيات في هذا كثيرة في القرآن»[7].

قال محمد رشيد رضا: «﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من هذه الأنعام وغيرها، وانتفعوا بسائر أنواع الانتفاع منها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بتحريم ما لم يحرمه اللَّه عليكم، ولا بغير ذلك من إغوائه، فهو سبحانه هو المنشئ والمالك لها حقيقة،

---

(١) يس: الآيتان (٧١و٧٢).
(٢) النحل: الآيات (٦٦-٨٠).
(٣) غافر: الآيات (٧٩-٨١).
(٤) فاطر: الآية (٦).
(٥) الأعراف: الآية (٢٧).
(٦) الكهف: الآية (٥٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٤٣-٣٤٤).

وقد أباحها لكم وهو ربكم، فأنى لغيره أن يحرم عليكم ما ليس له خلقًا وإنشاءً ولا ملكًا، ولا هو برب لكم فيتعبدكم به تعبدًا، والخطوات جمع خطوة، بالضم، وهي المسافة التي بين القدمين، ومن بالغ في اتباع ماش يتبع خطواته كلما انتقل تأثره فوضع خطوه مكان خطوه، وتحريم ما أحل اللَّه من أقبح المبالغة في اتباع إغواء الشيطان؛ لأنه ضلال في حرمان من الطيبات، لا في تمتع بالشهوات كما هو أكثر إغوائه.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوࣱّ مُّبِينٌ﴾ هذا تعليل للنهي؛ أي: لا تتبعوه لأنه عدو لكم من دون الخلق، مظهر للعداوة أو بينها ظاهرها بكونه لا يأمر إلا بما يفحش قبحه ويسوء فعله أو أثره في الحال أو الاستقبال، وبالافتراء المحض على اللَّه بغير علم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، وهذا حق بين لكل من حاسب نفسه وأقام الميزان لخواطرها، ومن أجهل ممن يتبع خطوات عدوه حتى في حرمان نفسه من منافعها»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الحمولة والفرش

* عن ابن مسعود ﷺ قال: «الحمولة: ما حمل عليه من الإبل، والفرش: الصغار»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية؛ أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةࣰ وَفَرۡشࣰاۚ﴾»[4].

---

(١) البقرة: الآية (١٦٩). (٢) تفسير المنار (٨/ ١٤٠).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٨/ ٦٢-٦٣)، والطبراني (٩/ ٢٣٦/ ٩٠١٨). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢): «رواه الطبراني عن شيخه عبد اللَّه بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف». وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٧) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي. والحديث جاء من طرق عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد اللَّه وأبو إسحق مدلس ولم يصرح بالتحديث؛ إلا أن ابن جرير أخرجه من طريق شعبة عن أبي إسحق به فأمنا بذلك تدليسه. واللَّه أعلم.

(٤) تفسير الرازي (١٣/ ٢٢٧).

قال السعدي: «أي بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها، لصغرها كالفصلان ونحوها، وهي الفرش.

فهي من جهة الحمل والركوب، تنقسم إلى هذين القسمين، وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع؛ فإنها كلها تؤكل وينتفع بها»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٨٧).

قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الضأن: ذوات الصوف من الغنم.

اشتملت: يقال: شملهم الأمرُ يشملهم شمولًا: إذا عَمَّهُمْ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «المراد بها الأنواع الأربعة، وإيرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الإنكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى وبما في بطنها.. ثم بتفصيلها إلى ثمانية أزواجٍ حاصلةٍ من تفصيل الأولى إلى الإبل والبقر وتفصيلِ الثاني إلى الضأن والمعز، ثم تفصيلِ كل من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى؛ كلُّ ذلك لتحرير الموادّ التي تقوّلوا فيها عليه ﷺ بالتحليل والتحريم، ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم في كل مادة من تلك المواد بتوجيه الإنكار إليها مفصلة»[1].

وقال الحافظ ابن كثير: «وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٩٢).

من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعًا: بحيرةً، وسائبةً، ووصيلةً وحامًا، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولةً وفرشًا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك، وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم؛ أكلًا وركوبًا وحمولةً وحلبًا، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[1] الآية»[2].

وقال القرطبي: «قال العلماء: الآية احتجاج على المشركين في أمر البحيرة وما ذكر معها، وقولهم: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾[3]. فدلت على إثبات المناظرة في العلم؛ لأن اللَّه تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يناظرهم، ويبين لهم فساد قولهم.

وفيها إثبات القول بالنظر والقياس.

وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به. ويروى: (إذا ورد عليه النقض)؛ لأن اللَّه تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة، وأمرهم بطرد علتهم.

والمعنى: قل لهم: إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام. وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام. وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام، ذكرًا كان أو أنثى. وكلها مولود، فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها.

فبين انتقاض علتهم، وفساد قولهم؛ فأعلم اللَّه سبحانه أن ما فعلوه من ذلك افتراءٌ عليه. ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي: بعلم إن كان عندكم، من أين هذا التحريم الذي افتعلتموه؟ ولا علم عندهم؛ لأنهم لا يقرؤون الكتب.

والقول في: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وما بعده كما سبق.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: هل شاهدتم اللَّه قد حرم هذا؟

---

(١) الزمر: الآية (٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٥).
(٣) الآية (١٣٩).

ولما لزمتهم الحجة أخذوا في الافتراء فقالوا: كذا أمر الله. فقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بين أنهم كذبوا؛ إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل»[1].

قال محمد رشيد رضا: «قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ بعد تعجيزهم عن الإتيان بعلم يؤثر عن أحد من رسل الله بتحريم ما زعموا؛ ألزمهم هنا ادعاء تحريم الله إياه عليهم بوصية سمعوها منه؛ لأن العلم عن الله إما أن يكون برواية رسول له يخبر بوصية عنه، أو بتلقي ذلك منه ﷻ بغير واسطة رسول، والشهداء هم الحضور المشاهدون للشيء وهو جمع شهيد. والمعنى أعندكم علم يؤثر عن أحد من رسل الله فنبئوني به، أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم كفاحًا بغير واسطة؟ وهم لا يدعون هذا ولا ذاك، وإنما يفترون على الله الكذب بدعوى التحريم افتراءً مجردًا من كل علم، ويقلد بعضهم بعضًا في قوله: إن الله أمرهم بتحريم ما حرموا واقتراف كل ما اقترفوا؛ كما قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، والاستفهام الإنكاري هنا يتضمن التهكم بهم، إذ كانوا بعدم اتباع أحد من رسل الله كالمدعين على إنكارهم للرسالة؛ بأنهم يشاهدون الله ويتلقون منه أحكام الحلال والحرام، وما استبعدته أنظارهم السقيمة من الوحي أقرب من هذا الذي يقعون فيه بإنكارهم له بمثل قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[3] وإلا لزمهم الافتراء على الله تعالى لإضلال عباده، وهو أشد الظلم الذي يجنيه الإنسان على نفسه وغيره، ولذلك قال تعالى تعقيبًا على ما تقدم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: وإذا كان الأمر كذلك وقامت عليكم الحجة به؛ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا بتحريم ما لم يشرعه، وشرع ما لم يشرعه؛ ليضل الناس به بحملهم على اتباعه فيه، مع نسبته إلى الله تعالى بغير علم ما يكون حجة له فيه. والاستفهام إنكاري، والمعنى لا أحد أظلم منكم لأنكم من هؤلاء المفترين على الله بقصد الإضلال عن جهل عام تام، فالعلم المنفي يشمل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١١٤-١١٥). (٢) الأعراف: الآية (٢٨).

(٣) الأنعام: الآية (٩١).

ما يؤثر أو يعقل ويستنبط؛ كالنظر العقلي والتجارب العملية، وطرق درء المفاسد والشرور والمضار، وتقدير المصالح والمنافع وعمل البر والخير، كما يدل عليه تنكيره في حيز النفي المستفاد من كلمة غير، فإن قيل: ما حكمة نفي كل نوع من أنواع العلم في أمر التشريع الديني الذي ليس له مصدر غير وحي اللَّه ورسله؟ قلنا: هي تسجيل الجهل العام المطلق عليهم عامة، وسوء النية على مفترى ذلك لهم خاصة بأنه ليس له أثارة من علم، ولا قصد إلى شيء من الهدى إلى حق أو خير، وتسجيل الغباوة وعمى البصيرة على متبعيه بمحض التقليد من غير عقل ولا هدى.

وقد وجد في البشر أناس آخرون تفكروا وبحثوا في العلم الإلهي، وما يجب أن يشكر اللَّه تعالى به تعبدًا له من اتباع الحق والعدل وفعل الخيرات التي يدل عليها العقل، وفيما ينبغي اجتنابه من طعام وشراب ضار بالبدن أو العقل -وهم الحكماء-، فأصابوا في بعض ما هدتهم إليه عقولهم وتجاربهم وأخطؤوا في بعض، فكانوا خير الناس لأنفسهم وللناس في فترات الرسل التي فقدت فيها هداية الوحي، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] فالذين يأمرون بالقسط وهو العدل والاعتدال في الأخلاق والآراء والأعمال، وبشكر المنعم؛ هم حكماء البشر وعقلاؤهم، وقد وضع قصي للعرب سننًا حسنة لسقاية الحاج ورفاداتهم وإطعامهم، وللشورى في الخطوب، ومن أعمال قريش الحسنة حلف الفضول لمنع الظلم، وقد مدحه النبي ﷺ بعد الإسلام[2]؛ لأنه من الأمر بالقسط بسائق العقل وسلامة الفطرة. ومن أهل الجاهلية من حرم على نفسه الخمر لمفاسدها، ويدل هذا القيد على تعظيم الإسلام لشأن العلم وله نظائر في الكتاب العزيز»[3].

---

(١) آل عمران: الآية (٢١).

(٢) عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «شهدت حلف المطيَّبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وإني أنكثه». أخرجه: أحمد (١/ ١٩٣)، وأبو يعلى (٢/ ١٥٦-١٥٧/ ٨٤٤)، والبزار في البحر (٣/ ٢١٣/ ١٠٠٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٧٢): «ورجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن حبان (١٠/ ٢١٦/ ٤٣٧٣)، والحاكم (٢/ ٢١٩-٢٢٠)، ووافقه الذهبي.

(٣) تفسير المنار (٨/ ١٤٣-١٤٥).

وقال القاسمي: «دلت الآية على إباحة لحوم أكل الأنعام. وذلك معلوم من الدين بالضرورة. وكذلك الانتفاع بالركوب فيما يركب، والافتراش للأصواف والأوبار والجلود. وعلى ردّ ما كانت الجاهلية تحرّمه بغير علم»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٦/ ٧٤٨).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مسفوحًا: أي: مصبوبًا. يقال: سفح دمعه؛ أي: أساله من البكاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر أنهم حرموا ما حرموا افتراء على اللَّه، أمره تعالى أن يخبرهم بأن مدرك التحريم إنما هو بالوحي من اللَّه تعالى وبشرعه، لا بما تهوى الأنفس وما تختلقه على اللَّه تعالى.

وجاء الترتيب هنا كالترتيب الذي في (البقرة) و(المائدة). وجاء هنا هذه المحرمات منكرة، والدم موصوف بقوله: ﴿مَّسْفُوحًا﴾، والفسق موصوفًا بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وفي تينك السورتين معرفًا؛ لأن هذه السورة مكية فعلق بالتنكير، وتانك السورتان مدنيتان فجاءت تلك الأسماء معارف بالعهد حوالة على ما سبق تنزيله في هذه السورة»[1].

وقال ابن كثير: «المقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه؛ من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه اللَّه إليه أن ذلك محرم، وإنما حرم ما ذكر في الآية؛ من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، وما أهل لغير اللَّه به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٤٢).

عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنه حرام، ومن أين حرمتموه ولم يحرمه؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء»[١].

وقال القاسمي: «وبالجملة: فالآية تدل على أنه ﷺ لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية غيره. ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك في شيء آخر، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها. وذلك لأن هذه السورة مكية. فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضًا؛ طارئ. قيل: إذا حرم غير ما ذكر كان نسخًا لما اقتضته هذه الآية من تحليله. وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما في الآية. فصح تحريم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير. ومن الناس من يسمي هذا نسخًا بالمعنى السلفي»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «تقرر في الآية السابقة أنه ليس لأحد أن يحرم على أحد شيئًا من الطعام، وكذا غيره إلا بإذن من الله في وحيه إلى رسله، وأن من فعل ذلك فهو مفتر على الله تعالى، معتد على مقام الربوبية؛ إذ لا يحرم على العباد إلا ربهم، وأن من أطاعه في ذلك فقد اتخذه شريكا لله تعالى في ربوبيته. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأن من هذا الشرك والافتراء على الله تعالى ما حرمت الجاهلية من الأنعام والحرث، كما فصل في الآيات التي قبل هذه، وقد ختم الله تعالى هذا السياق ببيان ما حرمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله وشرع من قبله فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المفترين على الله تعالى فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ولغيرهم من الناس: لا أجد فيما أوحاه الله تعالى إلي طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله، بل الأصل في جميع ما شأنه أن يؤكل أن يكون مباحًا لذاته؛ إلا أن يكون ميتة أي بهيمة ماتت حتف أنفها، ولو بسبب غير التذكية بقصد الأكل، أو دمًا مسفوحًا؛ أي: مصبوبًا كالدم الذي يجري من المذبوح، أو لحم خنزير فإن ذلك كله خبيث تعافه الطباع السليمة، وضار بالأبدان الصحيحة، أو فسقًا أهل لغير الله به، وهو ما

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٨).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٧٥٠).

يتقرب به إلى غيره تعبدًا، ويذكر اسم ذلك الغير عليه عند ذبحه، وجعل بعضهم الوصف بالرجس للحم الخنزير خاصة، واستدلوا به على نجاسة عينه حتى قال بعضهم بنجاسة شعره، وما اخترناه من كون الوصف لجميع ما ذكر من الأنواع الثلاثة هو المتبادر، وهو أظهر في الميتة والدم المسفوح منه في لحم الخنزير، ولاسيما إذا أريد بالرجس الحسي منه، فإن طباع أكثر البشر تستقذرهما وتعافهما، ولحم الخنزير من أجمل اللحوم منظرًا فلا يعافه إلا من يعتقد حرمته، وذلك استقذار معنوي لا حسي، وإنما يستقذر الخنزير حيًّا بملازمته للأقذار وأكله منها. والأرجح أن سبب تحريم لحمه ما فيه من الضرر لا كونه من القذر»[1].

قال الحافظ أبو عمر في «التمهيد»: «أجمعوا أن سورة (الأنعام) مكية، وقد نزل بعدها قرآن كثير وسنن عظيمة، وقد نزل تحريم الخمر في المائدة بعد ذلك، وقد حرم اللَّه على لسان نبيه أكل كل ذي ناب من السباع، وأكل الحمر الأهلية، وغير ذلك، فكان ذلك زيادة حكم من اللَّه على لسان نبيه ﷺ، كنكاح المرأة على عمتها، وعلى خالتها، مع قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾[2]. كحكمه بالشاهد واليمين، مع قول الله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾[3]. وما أشبه هذا كثير تركناه خشية الإطالة، ألا ترى أن اللَّه قال في كتابه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[4]. وقد حرم رسول اللَّه ﷺ أشياء من البيوع وإن تراضا بها المتبايعان، كالمزابنة، وبيع ما ليس عندك، وكالتجارة في الخمر، وغير ذلك مما يطول ذكره، وقد أجمع العلماء أن سورة (الأنعام) مكية إلا قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[5]. الآيات الثلاث، وأجمعوا أن نهي رسول اللَّه ﷺ عن أكل ذي ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة، ولم يرو ذلك عنه غير أبي هريرة، وأبي ثعلبة الخشني، وإسلامهما متأخر بعد الهجرة إلى المدينة بأعوام، وقد روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ مثل رواية أبي هريرة وأبي ثعلبة في النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع من وجه صالح، قال إسماعيل بن إسحاق القاضي: وهذا كله يدل على أنه أمر كان بالمدينة بعد نزول ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية؛ لأن ذلك مكي.

(١) تفسير المنار (٨/ ١٤٧-١٤٨).
(٢) النساء: الآية (٢٤).
(٣) البقرة: الآية (٢٨٢).
(٤) النساء: الآية (٢٩).
(٥) الأنعام: الآية (١٥١).

قال أبو عمر: قول اللَّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية قد أوضحنا بما أوردنا في هذا الباب بأنه قول ليس على ظاهره، وأنه ليس نصًّا محكمًا؛ لأن النص المحكم ما لا يختلف في تأويله، وإذا لم يكن نصًّا كان مفتقرًا إلى بيان الرسول لمراد اللَّه منه، كافتقار سائر مجملات الكتاب إلى بيانه، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]. وقد بين رسول اللَّه ﷺ في أكل كل ذي ناب وأكل الحمر الأهلية مراد اللَّه، فوجب الوقوف عنده، وباللَّه التوفيق»[2].

قال الشنقيطي: «الذي يظهر رجحانه بالدليل هو ما ذهب إليه الجمهور؛ من أن كل ما ثبت تحريمه بطريق صحيحة من كتاب أو سنة فهو حرام، ويزاد على الأربعة المذكورة في الآيات، ولا يكون في ذلك أي مناقضة للقرآن؛ لأن المحرمات المزيدة عليها حرمت بعدها . . . فوقت نزول الآيات المذكورة لم يكن حرامًا غير الأربعة المذكورة، فحصرها صادق قبل تحريم غيرها بلا شك، فإذا طرأ تحريم شيء آخر بأمر جديد؛ فذلك لا ينافي الحصر الأول لتجدده بعده، وهذا هو التحقيق إن شاء اللَّه تعالى، وبه يتضح أن الحق جواز نسخ المتواتر بالسنة الصحيحة الثابت تأخرها عنه، وإن منعه أكثر أهل الأصول»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نسخ مفهوم الآية بسنن كثيرة

* عن سفيان قال عمرو: «قلت لجابر بن زيد: يزعمون أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن حمر الأهلية؟ فقال: قد كان يقول ذاك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة؛ ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس وقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾»[4].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث اللَّه نبيه ﷺ، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو منه، وتلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ

(١) النحل: الآية (٤٤). (٢) فتح البر (١/ ١٦٥-١٦٦).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٥٠-٢٥١).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٣)، والبخاري (٩/ ٨١٥/ ٥٥٢٩)، وأبو داود (٤/ ١٦١-١٦٢/ ٣٨٠٨).

أُوحِيَ﴾ إلى آخر الآية[١].

* عن عائشة ﵂: أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير؛ تلت ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية[٢].

* عن ابن عمر ﵄ قال: «نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر»[٣].

* عن أنس ﵁: «أن رسول اللَّه ﷺ جاءه جاءٍ فقال: أُكِلَت الحمر، ثم جاءه جاءٍ فقال: أُكِلت الحمر، ثم جاءه جاءٍ فقال: أُفنيت الحمر؟ فأمر مناديًا فنادى في الناس: **إن اللَّه ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجس، فأكفئت القدور وإنها لتفور باللحم!**»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن عبد البر: «أما لحم الحمر الإنسية فلا خلاف بين علماء المسلمين اليوم في تحريمها، وعلى ذلك جماعة السلف إلا ابن عباس وعائشة؛ فإنهما كانا لا يريان بأكلها بأسًا، ويتأولان قول اللَّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية، على الاختلاف في ذلك عن ابن عباس، والصحيح فيه ما عليه الناس»[٥].

وقال ابن حجر: «والاستدلال بهذا للحل -أي استدلال ابن عباس بالآية- إنما يتم فيما لم يأت فيه نص عن النبي ﷺ بتحريمه، وقد تواردت الأخبار بذلك، والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل وعلى القياس. . والجواب عن آية (الأنعام) أنها مكية، وخبر التحريم متأخر جدًّا، فهو مقدم. وأيضًا فنص الآية

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ١٥٧/ ٣٨٠٠)، وصححه الحاكم (٤/ ١١٥)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: ابن جرير (٨/ ٧١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٩/ ١٩٨٧٥)، والنحاس (٢/ ٣٤٢/ ٤٩٠). وقال ابن كثير (٣/ ٣٤٦): «صحيح غريب».

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٤٣)، والبخاري (٩/ ٨١٤/ ٥٥٢١-٥٥٢٢)، ومسلم (٣/ ١٥٣٨/ ١٩٣٦[٢٤])، والنسائي (٧/ ٢٣١/ ٤٣٤٧)، وفي الكبرى (٣/ ١٦٠/ ٤٨٤٨-٤٨٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢١)، والبخاري (٩/ ٨١٥/ ٥٥٢٨)، ومسلم (٣/ ١٥٤٠/ ١٩٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١٠٦٦/ ٣١٩٦).

(٥) فتح البر (٩/ ٣٤٨).

خبر عن الحكم الموجود عند نزولها، فإنه حينئذ لم يكن نزل في تحريم المأكول إلا ما ذكر فيها، وليس فيها ما يمنع أن ينزل بعد ذلك غير ما فيها، وقد نزل بعدها في المدينة أحكام بتحريم أشياء غير ما ذكر فيها؛ كالخمر في آية (المائدة). وفيها أيضًا تحريم ما أهل لغير الله به والمنخنقة إلى آخره»[1].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة -تعني الشاة- فقال: «فلولا أخذتم مسكها؟» فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، فإنكم لا تطعمونه؛ أن تدبغوه فتنتفعوا به». فأرسلت إليها، فسلخت مسكها، فدبغته، فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها[2].

★ **غريب الحديث:**

المسك: بفتح الميم وسكون السين: الجلد. جمعه: مُسُك ومسوك.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر عند قوله ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر»[3]: «ومعلوم أن المقصود بهذا الحديث ما لم يكن طاهرًا من الأُهُب كجلود الميتات، وما لا تعمل فيه الذكاة من السباع عند من حرمها؛ لأن الطاهر لا يحتاج إلى الدباغ للتطهير، ومستحيل أن يقال في الجلد الطاهر: إنه إذا دبغ فقد طهر، وهذا يكاد علمه أن يكون ضرورة»[4].

قال ابن بطال: «وفي قوله ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» نص ودليل، فالنص منه طهارة الإهاب بالدباغ، والدليل منه أن كل إهاب لم يدبغ فليس بطاهر، وإذا لم يكن طاهرا فهو نجس، والنجس محرم، وإذا كان ذلك كذلك؛ كان هذا الحديث

---

(١) فتح الباري (٩/ ٨١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٧-٣٢٨)، وأخرجه البخاري (١١/ ٦٩٧/ ٦٦٨٦)، والنسائي (٧/ ١٩٥/ ٤٢٥١) بنحوه.

(٣) أخرجه: مسلم (١/ ٢٧٧/ ٣٦٦)، وأبو داود (٤/ ٣٦٧-٣٦٨/ ٤١٢٣).

(٤) فتح البر (٣/ ٦٧٠).

مبينًا لحديث ابن عباس، وبطل بنصه قول من قال: إن جلد الميتة لا ينتفع به بعد الدباغ، وهو قول أحمد وما ضارعه، وبطل بالدليل منه قول من قال: إن جلد الميتة إن لم يدبغ ينتفع به، وهو قول الزهري»[١].

قال ابن أبي جمرة: «وفيه دليل: على أن ألفاظ العموم إذا ورد الأمر بها؛ يحمل على عمومها، ولا تخصص إلا بمخصص من الشارع ﷺ. يؤخذ ذلك من أنه لما أن حرمت علينا الميتة، فماتت تلك الشاة التي رآها سيدنا ﷺ، استعمل أصحابها عموم الأمر بالعموم، فرموها بإهابها وصوفها وكل أجزائها، فخصص ﷺ عموم الأمر بقوله ﷺ: «**إنما حرم أكلها**»[٢]»[٣].

وقال أيضًا: «وفيه دليل: على أن من النبل أن يكون جواب المرء عما سئل عنه على قدر ما يعلم فيه، لا يتعانا خلاف ذلك بزيادة ونقص، يؤخذ ذلك من جوابهم لسيدنا ﷺ بما سبق لهم من العلم في أمر الميتة لا غير.

وهنا بحث؛ وهو أن يقال: هل أمره ﷺ بالانتفاع بإهابها يطهره أو هو باق على النجاسة؟ لفظ الحديث لا يفهم منه شيء من هذا، لكن من حديث غيره يفهم أنه باق على نجاسته، وهو قوله ﷺ: «**أيما إهاب دبغ فقد طهر**»[٤] فإذا لم يدبغ فهو باق على نجاسته. وبحث ثان؛ وهو أن يقال: هل لنا أن نعدي الحكم بالانتفاع من غير ذلك من أجزائها لقوله ﷺ «إنما حرم أكلها» فيما عدا الأكل أم لا. وبحث ثالث؛ وهو كونه ﷺ أباح لنا الانتفاع بإهابها وهي ميتة، هل يجوز الانتفاع بغير ذلك من سائر النجاسات انتفاعا خاصا مثل الإهاب أم لا؟.

فالجواب: على البحث: هل يجوز لنا الانتفاع بباقي أجزائها مثل الإهاب أم لا؟ فأمره ﷺ بالانتفاع بإهابها لا يتعدى الانتفاع من غير ذلك إلى غيره من أجزائها لأحد وجهين، الأول منهما: لأن الحظر والإباحة والتحريم والتحليل لا يكون

---

(١) شرح البخاري (٥/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢)، والبخاري (٤/ ٥٢٠/ ٢٢٢١)، ومسلم (١/ ٢٧٦/ ٣٦٣)، وأبو داود (٤/ ٣٦٥-٣٦٦/ ٤١٢٠)، والنسائي (٧/ ١٩٣-١٩٤/ ٤٢٤٦)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٣/ ٣٦١٠).

(٣) بهجة النفوس (٤/ ١٠٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩)، والترمذي (٤/ ١٩٣/ ١٧٢٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١٩٥/ ٤٢٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٣/ ٣٦٠٩)، وابن حبان (الإحسان ٤/ ١٠٣/ ١٢٨٧).

إلا على نحو ما نص عليه ﷺ، لا يتعدى ذلك بالقياس إلا في الموضع الذي علق ﷺ بعلة كانت العلة أيضًا منه ﷺ، أو مشارًا إليها على نحو ما تكلم الفقهاء في أنواع العلة الشرعية وتعداد أنواعها؛ على ما هو مذكور في كتبهم، وما لا يفهم له علة فينقضي الحكم فيه على ما نطق ﷺ به، مثل هذا الموضع وما أشبهه. ولوجه آخر: لأن هذا منه ﷺ رخصة لأمته، والرخص لا يقاس عليها، ولا يتعدى محلها. ونص بعض الفقهاء أنه إذا كان للمرء ميتة وله علج أو كلب لصيد أو ما يجوز اقتناؤه؛ أنه لا يعطيه الميتة، ولا يأمر العلج بأكلها، فإن ذلك من جملة أنواع الانتفاع بها، وإنما يأمر بالعلج أو بالكلب على موضع الجيفة، فإن هما تصرفا فيها من تلقاء أنفسهما فلا بأس، وإلا فلا يرشدهما إلى ذلك ولا يأمرهما به»[١].

قال أحمد عبد الرحمن البنا: «وفيه تحريم أكل جلود الميتة، وأن الدباغ وإن أوجب طهارتها لا يحلل أكلها»[٢].

* عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ: «أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن كل ذي ناب من السباع»[٣].

* عن ابن عباس ﷺ قال: «نهى رسول اللَّه ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير»[٤].

★ **غريب الحديث:**

مخلب: قال الحافظ: «والمخلب، كمنبر، وهو للطير كالظفر لغيره، لكنه أشد منه وأغلظ وأحد، فهو له كالناب للسبع»[٥].

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ حرم يوم خيبر كل ذي ناب من السباع،

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) الفتح الرباني (١/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٣-١٩٤)، والبخاري (٩/ ٨١٥/ ٥٥٢٧)، ومسلم (٣/ ١٥٣٣/ ١٩٣٢)، وأبو داود (٤/ ١٥٩/ ٣٨٠٢)، والترمذي (٤/ ٦١/ ١٤٧٧)، والنسائي (٧/ ٢٢٨/ ٤٣٣٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٧/ ٣٢٣٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٤)، ومسلم (٣/ ١٥٣٤/ ١٩٣٤)، وأبو داود (٤/ ١٦٠/ ٣٨٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٣٥/ ٤٣٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٧/ ٣٢٣٤).

(٥) الفتح (٩/ ٨١٩-٨٢٠).

والمجثمة، والحمار الإنسي[١].

★ **غريب الحديث:**

المجثمة: هي كل حيوان ينصب ويرمي ليقتل، إلا أنها تكثر في الطير والأرانب وأشباه ذلك مما يجثم في الأرض أي يلزمها ويلتصق بها، وجثم الطائر جثوما وهو بمنزلة البروك للإبل.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن عبد البر: «وفيه من الفقه أن النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع نهي تحريم لا نهي أدب وإرشاد، ولو لم يأت هذا اللفظ عن النبي ﷺ لكان الواجب في النظر أن يكون نهيه ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع نهي تحريم، فكيف وقد جاء مفسرًا في هذا الخبر؛ لأن النهي حقيقته الإبعاد والزجر والانتهاء، وهذا غاية التحريم لأن التحريم في كلام العرب الحرمان والمنع؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[٢] أي حرمناه رضاعهن ومنعناه منهن، ولم يكن ممن تجرى عليه عبادة في ذلك الوقت لطفولته، والنهي يقتضي معنى المنع كله.

وتقول العرب: حرمت عليك دخول داري؛ أي: منعتك من ذلك، وهذا القول عندهم في معنى: لا تدخل الدار، كل ذلك منع وتحريم ونهي وحرمان»[٣].

وقال: «اختلف الفقهاء في معنى قول رسول اللَّه ﷺ: **«أكل كل ذي ناب من السباع حرام»** فقال منهم قائلون: إنما أراد رسول اللَّه ﷺ بقوله هذا؛ ما كان يعدو على الناس مثل الأسد والذئب والنمر والكلب العادي، وما أشبه ذلك مما الأغلب في طبعه أن يعدو، وما كان الأغلب من طبعه أنه لا يعدو فليس مما عناه رسول اللَّه ﷺ بقوله هذا، وإذا لم يكن يعدو فلا بأس بأكله، واحتجوا بحديث الضبع في إباحة أكله، وهي سبع»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، والترمذي (٤/ ٢٢٤/ ١٧٩٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الحافظ في التلخيص (٤/ ١٥١): «حديث أبي هريرة كل ناب من السباع فأكله حرام، مسلم بهذا، قال ابن عبد البر: مجمع على صحته».

(٢) القصص: الآية (١٢).

(٣) فتح البر (٩/ ٣٢٩).

(٤) المصدر السابق (٩/ ٣٣٠).

قال: «قالوا: والضبع سبع لا يختلف في ذلك، فلما أجاز رسول الله ﷺ وأصحابه أكلها؛ علمنا أن نهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع؛ ليس من جنس ما أباحه، وإنما هو نوع آخر، والله أعلم. وهو ما الأغلب فيه العداء على الناس، هذا قول الشافعي ومن تابعه. قال الشافعي: ذو الناب المحرم أكله؛ هو الذي يعدو على الناس، كالأسد والنمر والذئب، قال: ويؤكل الضبع والثعلب، وهو قول الليث بن سعد. وقال مالك وأصحابه: لا يؤكل شيء من سباع الوحوش كلها، ولا الهر الوحشي، ولا الأهلي؛ لأنه سبع، قال: ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب والضرب؛ ولا شيء من سباع الوحش، ولا بأس بأكل سباع الطير، زاد ابن عبد الحكم في حكايته قول مالك، قال: وكل ما يفترس ويأكل اللحم، ولا يرعى الكلأ، فهو سبع لا يؤكل، وهذا يشبه السباع التي نهى رسول الله ﷺ عن أكلها»[1].

وقال أيضًا: «والحجة لمالك وأصحابه في تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، عموم النهي عن ذلك، ولم يخص رسول الله ﷺ سبعا من سبع، فكل ما وقع عليه اسم سبع؛ فهو داخل تحت النهي على ما يوجبه الخطاب، وتعرفه العرب من لسانها في مخاطباتها»[2].

نعم يستثنى الضبع بالنص الصريح الوارد فيه وما عداه يدخل في عموم النهي الوارد في الحديث.

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن الضب؟ فقال: **«لست بآكله ولا محرمه»**[3].

★ **غريب الحديث:**

الضب: قال ابن حجر: هو دويبة تشبه الجرذون، لكنه أكبر من الجرذون.

* عن خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنه دخل مع رسول الله ﷺ بيت ميونة، فأُتي بضب

---

(١) المصدر السابق (٩/ ٣٣١).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٢و٧٤)، والبخاري (٩/ ٨٢٧/ ٥٥٣٦)، ومسلم (٣/ ١٥٤١-١٥٤٢/ ١٩٤٣)، والترمذي (٤/ ٢٢١/ ١٧٩٠)، والنسائي (٧/ ٢٢٤/ ٤٣٢٥)، وفي الكبرى (٣/ ١٥٦/ ٤٨٢٦-٤٨٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٠٨٠/ ٣٢٤٢).

محنوذ، فأهوى إليه رسول اللَّه ﷺ بيده. فقال بعض النسوة: أخبروا رسول اللَّه ﷺ بما يريد أن يأكل. فقالوا: هو ضب يا رسول الله! فرفع يده. فقلت: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكن لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه**». قال خالد: فاجترزته فأكلته، ورسول اللَّه ﷺ ينظر[١].

★ **غريب الحديث:**

محنوذ: مشوي.

أعافه: أتكره أكله.

* عن ثابت بن وديعة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في جيش فأصبنا ضبابًا، فشويت منها ضبًّا فأتيت رسول اللَّه ﷺ فوضعته بين يديه، فأخذ عودًا فعد به أصابعه، ثم قال: «**إن أمة من بني إسرائيل مسخت دواب في الأرض، وإني لا أدري أي الدواب هي**»، فلم يأكل ولم ينه[٢].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن عبد البر: «فيه أن أكل الضب حلال، وأن في الحلال ما تعافه النفوس»[٣].

وقال النووي: «أجمع المسلمون على أن الضب حلال ليس بمكروه؛ إلا ما حكي عن أصحاب أبي حنيفة من كراهته، وإلا ما حكاه القاضي عياض عن قوم أنهم قالوا: هو حرام. وما أظنه يصح عن أحد، وإن صح عن أحد فمحجوج بالنصوص وإجماع من قبله»[٤].

وقال القرطبي: «وقول خالد: فاجترزته، فأكلته ورسول اللَّه ﷺ ينظر، فلم يمنعني. هذا تقرير منه ﷺ على جواز أكله، ولو كان حرامًا لم يقر عليه، ولا أكل

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ٨٢٧/ ٥٥٣٧)، ومسلم (٣/ ١٥٤٣/ ١٩٤٥)، وأبو داود (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ٣٧٩٤)، والنسائي (٧/ ٢٢٥/ ٤٣٢٧)، وفي الكبرى (٣/ ١٥٦/ ٤٨٢٨-٤٨٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٩-١٠٨٠/ ٣٢٤١).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ١٥٤-١٥٥/ ٣٧٩٥)، والنسائي (٧/ ٢٢٦/ ٤٣٣١)، وفي الكبرى (٣/ ١٥٧/ ٤٨٣٣-٤٨٣٤)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٨-١٠٧٩/ ٣٢٣٨).

(٣) فتح البر (١٠/ ٣٧٩). (٤) شرح مسلم (١٣/ ٨٢).

على مائدته، ولا بحضرته. فثبت: أنه حلال مطلق لعينه، وإنما كرهه لأمور خارجة عن عينه كما نص عليها فيما ذكرناه آنفًا»[١].

قال الطبري: «ليس في الحديث الجزم بأن الضب مما مسخ، وإنما خشي أن يكون منهم فتوقف عنه، وإنما قال ذلك قبل أن يعلم اللَّه تعالى نبيه أن الممسوخ لا ينسل»[٢].

وقال القرطبي: «هذا منه ﷺ توقع، وخوف لأن يكون الضب من نسل ما مسخ من الأمم، ومثله ما ذكره في الفأرة لما قال: «**فقدت أمة من بني إسرائيل لا أدري ما فعلت، ولا أراها إلا الفأرة**»[٣] كان هذا منه ﷺ ظنًّا، وحدسًا قبل أن يوحى إليه: «إن اللَّه تعالى لم يجعل لمسخ نسلًا»[٤] فلما أوحي إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفأرة ليسا من نسل ما مسخ»[٥].

* عن أنس رضي الله عنه قال: «أنفجنا أرنبًا ونحن بمر الظهران، فسعى القوم فلغبوا فأخذتها، فجئت بها إلى أبي طلحة فذبحها، فبعث بوركيها -أو قال: بفخذيها- إلى النبي ﷺ فقبلها»[٦].

★ **غريب الحديث:**

أنفجنا: أي أثرنا، وفي رواية لمسلم: «استنفجنا» وهو استفعال منه، يقال: نفج الأرنب إذا ثار وعدا وانقفج كذلك، وأنفجته إذا أثرته من موضعه، ويقال: إن الانتفاج الاقشعرار فكان المعنى جعلناها بطلبنا لها تنتفج[٧].

لغبوا: وهو بفتح الغين المعجمة في اللغة الفصيحة المشهورة وفي لغة ضعيفة بكسرها، ومعناه: تعبوا.

---

(١) المفهم (٥/ ٢٣٢). (٢) الفتح (٩/ ٨٣١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٤)، والبخاري (٦/ ٤٣١-٤٣٢/ ٣٣٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٠-٢٠٥١/ ٢٦٦٣). وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٤/ ١٠٠٩٤) دون ذكر موضع الشاهد.

(٥) المفهم (٥/ ٢٣٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٨)، والبخاري (٩/ ٨٢٥/ ٥٥٣٥)، ومسلم (٣/ ١٥٤٧/ ١٩٥٣)، وأبو داود (٤/ ١٥٢/ ٣٧٩١)، والترمذي (٤/ ٢٢١/ ١٧٨٩)، والنسائي (٧/ ٢٢٣-٢٢٤/ ٤٣٢٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠٨٠/ ٣٢٤٣).

(٧) فتح الباري (٩/ ٨٢٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «جمهور السلف والخلف من الفقهاء وغيرهم على العمل بحديث أنس هذا، في جواز أكل الأرنب. وقد حكي عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص تحريمه. وعن ابن أبي ليلى كراهته. وقد ذكر عبد الرزاق من حديث عبد الكريم بن أمية -وهو ضعيف- قال: سأل جرير بن أنس رسول اللَّه ﷺ عن الأرنب فقال: «**أنبئت أنها تحيض، لا آكلها**»(١). وهو منقطع. وذكر النسائي أيضًا عن موسى بن طلحة، قال: أتي النبي ﷺ بأرنب قد شواها رجل، وقال: يا رسول اللَّه إني رأيت بها دمًا. فتركها رسول اللَّه ﷺ فلم يأكلها، وقال لمن عنده: «**فإني لو اشتهيتها أكلتها**»(٢). وهذا مرسل. وليس في شيء من الأحاديث -وإن ضعفت- ما يدل على تحريم الأرنب. وغاية هذين الخبرين استقذارها مع جواز أكلها. فأما من حرم أكلها: فلا متمسك له فيما علمناه، والحديث الأول حجة عليه»(٣).

* عن أبي موسى ﷺ قال: «رأيت رسول اللَّه ﷺ يأكل دجاجًا»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «فيه جواز أكل الدجاج إنسيه ووحشيه، وهو بالاتفاق إلا عن بعض المتعمقين على سبيل الورع، إلا أن بعضهم استثنى الجلالة، وهي ما تأكل الأقذار، وظاهر صنيع أبي موسى أنه لم يبال بذلك»(٥).

* عن عبد الرحمن بن أبي عمار قال: قلت لجابر: الضبع أصيد هي؟ قال: نعم. قلت: آكلها؟ قال: نعم. قلت: أقاله رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم(٦).

---

(١) المصنف (٤/ ٥١٨/ ٨٦٩٩) ورواه من حديث عبد الكريم هذا الترمذي (٤/ ٢٢٢-٢٢٣/ ١٧٩٢) وقال: «ليس إسناده بالقوي»، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٨/ ٣٢٣٧). قال الحافظ في الفتح (٩/ ٨٢٦): «وسنده ضعيف»، وفي التلخيص (٤/ ١٥٢) «لاتفاقهم على ضعف عبد الكريم».

(٢) أخرجه: النسائي (٤/ ٥٣٩/ ٢٤٢٠)، وفي الكبرى (٢/ ١٣٧-١٣٨/ ٢٧٣٥-٢٧٣٦)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف السنن.

(٣) المفهم (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٦)، والبخاري (٩/ ٨٠٥/ ٥٥١٧-٥٥١٨)، ومسلم (٣/ ١٢٧٠/ ١٦٤٩[٩]) في حديث طويل، والترمذي (٤/ ٢٣٩/ ١٨٢٦-١٨٢٧)، والنسائي (٧/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٤٣٥٧-٤٣٥٨).

(٥) فتح الباري (٩/ ٨٠٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٧-٣١٨-٣٢٢)، وأبو داود (٤/ ١٥٨-١٥٩/ ٣٨٠١)، والترمذي (٣/ ٢٠٧-٢٠٨/ ٨٥١) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٨/ ٣٢٣٦)، والنسائي (٥/ ٢٠٩-٢١٠/ ٢٨٣٦)=

★ **فوائد الحديث:**

قال البغوي: «اختلف أهل العلم في إباحة لحم الضبع، فروي عن سعد بن أبي وقاص: أنه كان يأكل الضبع. وروي عن ابن عباس: إباحة لحم الضبع، وهو قول عطاء، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور. وكرهه جماعة؛ يروى ذلك عن سعيد بن المسيب، وبه قال ابن المبارك ومالك والثوري وأصحاب الرأي، واحتجوا بأن النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، وهذا عند الآخرين عام خصه حديث جابر»[1].

وقال ابن القيم: «وأما الضبع فروي عنه فيها حديث صححه كثير من أهل العلم بالحديث، فذهبوا إليه وجعلوه مخصصًا لعموم أحاديث التحريم، كما خصت العرايا لأحاديث المزابنة. وطائفة لم تصححه، وحرموا الضبع لأنها من جملة ذات الأنياب. وقالوا: وقد تواترت الآثار عن النبي ﷺ بالنهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، وصحت صحة لا مطعن فيها، من حديث علي وابن عباس وأبي هريرة وأبي ثعلبة الخشني. قالوا: وأما حديث الضبع فتفرد به عبد الرحمن بن أبي عمارة، وأحاديث تحريم ذوات الأنياب كلها تخالفه. قالوا: ولفظ الحديث يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون جابر رفع الأكل إلى النبي ﷺ، وأن يكون إنما رفع إليه كونها صيدا فقط، ولا يلزم من كونها صيدًا جواز أكلها. فظن جابر أن كونها صيدًا يدل على أكلها، فأفتى به من قوله، ورفع إلى النبي ﷺ ما سمعه من كونها صيدًا، ونحن نذكر لفظ الحديث ليتبين ما ذكرناه. فروى الترمذي في جامعه من حديث عبيد بن عمير الليثي، عن عبد الرحمن بن أبي عمارة، قال: قلت لجابر بن عبد الله: آكل الضبع؟! قال: نعم. قلت: أصيد هي؟ قال: نعم. قلت: أسمعت ذلك من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم. قال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث، فقال: هو صحيح. وهذا يحتمل أن المرفوع منه هو كونها صيدًا، ويدل على ذلك

= (٧/ ٢٢٧/ ٤٣٣٤)، وصححه ابن حبان (٩/ ٢٧٧-٢٧٨/ ٣٩٦٤-٣٩٦٥)، والحاكم (١/ ٤٥٢) على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسكت عنه الإمام الذهبي. وقال الحافظ في التلخيص (٤/ ١٥٢): «صححه البخاري والترمذي وابن حبان وابن خزيمة والبيهقي، وأعله ابن عبد البر بعبد الرحمن بن أبي عمار فوهم؛ لأنه وثقه أبو زرعة والنسائي ولم يتكلم فيه أحد، ثم إنه لم ينفرد به».

(١) شرح السنة (٧/ ٢٧١).

أن جرير بن حازم قال عن عبيد بن عمير عن ابن أبي عمارة عن جابر عن رسول اللَّه ﷺ أنه سئل عن الضبع فقال: «هي صيد، وفيها كبش». قالوا: وكذلك حديث إبراهيم الصائغ عن عطاء عن جابر يرفعه: «الضبع صيد، فإذا أصابه المحرم ففيه جزاء كبش مسن، ويؤكل»[1]. قال الحاكم: حديث صحيح. وقوله: «ويؤكل» يحتمل الوقف والرفع، وإذا احتمل ذلك لم تعارض به الأحاديث الصحيحة الصريحة، التي تبلغ مبلغ التواتر في التحريم. قالوا: ولو كان حديث جابر صريحا في الإباحة، لكان فردا. وأحاديث تحريم ذوات الأنياب مستفيضة متعددة، ادّعى الطحاوي وغيره تواترها، فلا يقدم حديث جابر عليها. قالوا: والضبع من أخبث الحيوان وأشرهه، وهو مغرى بأكل لحوم الناس، ونبش قبور الأموات، وإخراجهم وأكلهم، ويأكل الجيف، ويكسر بنابه. قالوا: واللَّه سبحانه قد حرم علينا الخبائث. وحرم رسول اللَّه ﷺ ذوات الأنياب. والضبع لا يخرج عن هذا وهذا. وقالوا: وغاية حديث جابر يدل على أنها صيد، يفدي في الإحرام، ولا يلزم من ذلك أكلها. وقد قال بكر ابن محمد: سئل أبو عبد اللَّه -يعني الإمام أحمد- عن محرم قتل ثعلبًا فقال: عليه الجزاء، هي صيد. ولكن لا يؤكل. وقال جعفر بن محمد سمعت أبا عبد اللَّه سئل عن الثعلب فقال: الثعلب سبع. فقد نص على أنه سبع، وأنه يفدي في الإحرام، ولما جعل النبي ﷺ في الضبع كبشًا، ظن جابر أنه يؤكل، فأفتى به. والذين صححوا الحديث جعلوه مخصصًا لعموم تحريم ذي الناب من غير فرق بينهما، حتى قالوا: ويحرم أكل كل ذي ناب من السباع إلا الضبع. وهذا لا يقع مثله في الشريعة؛ أن يخصص مثلًا على مثل من كل وجه من غير فرقان بينهما، وبحمد اللَّه إلى ساعتي هذه ما رأيت في الشريعة مسألة واحدة كذلك؛ أعني شريعة التنزيل لا شريعة التأويل، ومن تأمل ألفاظه ﷺ الكريمة تبين له اندفاع هذا السؤال، فإنه إنما حرم ما اشتمل على الوصفين أن يكون له ناب وأن يكون من السباع العادية بطبعها كالأسد والذئب والنمر والفهد، وأما الضبع فإنما فيها أحد الوصفين؛ وهو كونها ذات ناب، وليست من السباع العادية. ولا ريب أن السباع أخص من ذوات الأنياب. والسبع إنما حرم لما فيه من القوة السبعية التي تورث المغتذي بها شبهها،

---

(١) أخرجه: البيهقي (٥/ ١٨٣)، وابن خزيمة (٤/ ١٨٣/ ٢٦٤٨)، والحاكم (١/ ٤٥٣) وقال: «حديث صحيح ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

فإن الغاذي شبيه بالمغتذي. ولا ريب أن القوة السبعية التي في الذئب والأسد والنمر والفهد ليست في الضبع، حتى تجب التسوية بينهما في التحريم، ولا تعد الضبع من السباع لغةً ولا عرفًا، والله أعلم»(١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال»(٢).

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائده في (المائدة) عند قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾(٣).

* عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة»**(٤).

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث دليل على أن ما قطع من البهيمة وهي حية لا يجوز أكله، وأنه ميتة.

وقد نقل ابن المنذر في الأوسط(٥) إجماع أهل العلم على ذلك، وأن المقطوع منه نجس.

وقال ابن قدامة: «لأن إباحته إنما تكون بالذبح، وليس هذا بذبح»(٦).

* * *

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٣٤-١٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١١٠١-١١٠٢/ ٣٣١٤)، والدارقطني (٤/ ٢٧١-٢٧٢)، والبغوي في شرح السنة (١١/ ٢٤٤/ ٢٨٠٣). وأخرجه البيهقي (١/ ٢٥٤) موقوفًا وقال: «هذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند. وقد رفعه أولاد زيد عن أبيهم». وأخرجه أيضًا مرفوعًا وقال: «أولاد زيد هؤلاء كلهم ضعفاء، جرحهم يحيى بن معين، وكان أحمد بن حنبل وعلي بن المديني يوثقان عبد الله بن زيد؛ إلا أن الصحيح من هذا الحديث هو الأول» -يعني الموقوف-. وتعقبه ابن التركماني في الجوهر النقي. وقال ابن القيم رحمه الله في الزاد (٣/ ٣٩٢): «حديث حسن. وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي أحل لنا كذا، وحرم علينا ينصرف إلى إحلال النبي ﷺ وتحريمه».

(٣) المائدة: الآية (٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، وأبو داود (٣/ ٢٧٧/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٦٢/ ١٤٨٠) وقال: «وهذا حديث حسن غريب»، والحاكم (٤/ ٢٣٩) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم».

(٥) (٢/ ٢٧٣).

(٦) المغني (١١/ ٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذي ظُفُرٍ: أي: ذي مخالب كالبعير والنعامة والطير.

الحوايا: جمع حاوية كزاوية وزوايا، أو حَوِيَّة كقضيّة وقضايا. وفسرت بالمباعر وبالمصارين والأمعاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «مناسبة هذه لما قبلها: أنه لما بين أن التحريم إنما يستند للوحي الإلهي، أخبر أنه حرّم على بعض الأمم السابقة أشياءَ كما حرّم على أهل هذه الملة أشياءً مما ذكرها في الآية قبل. فالتحريم إنما هو راجع إلى اللّه تعالى في الأمم جميعها»(١).

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر، وهو من البهائم والطير، ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والأنعام والإوز والبط»(٢).

وقال القاسمي: «﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: اليهود خاصة ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ قال سعيد بن جبير: هو الذي ليس منفرج الأصابع؛ كالجمل والوَبْر والأرنب، فإنها من ذوات الأظفار الغير المشقوقة -أي: المنفرجة-، وأما ذو الظفر المشقوق وهو يجترّ من البهائم، فلم يحرم عليهم.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ لا لحومهما ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم، ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي: الأمعاء

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٢٤٤).

(٢) جامع البيان (٨/ ٧٢).

والمصارين -أي: ما حملته من الشحوم- ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ كالمخ والعصعص. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تحريم تلك الأطايب عليهم ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق، وأكلهم الربا -وقد نهوا عنه- وأكلهم أموال الناس بالباطل؛ كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[١].

قال المهايمي: أي: ولم يكن لغيرهم ذلك البغي، فلا وجه لتحريمها عليهم مع كونها أطايب في أنفسها.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر؛ وهو تخصيص التحريم بهم لبغيهم»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «إن الآية أوجزت أبلغ الإيجاز في بيان ما حرم عليهم من الشحوم وما أحل لهم، فلِمَ لم يكن من مقتضى الإيجاز أن يكون التعبير: وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم إلا كذا وكذا منها؟ وما نكتة هذا التعبير الخاص فيها؟

نقول: قد بين ذلك صاحب «الكشاف» بجعله (كقولك: من زيدٍ أخذت ماله؛ تريد بالإضافة زيادة الربط. والمعنى: أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر، وشحمه، وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة، وهي الثروب وشحوم الكلى) اهـ.

وأقول: إن المعنى المتبادر الذي تظهر فيه النكتة هو: ومن البقر والغنم دون غيرهما مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التي تنتزع بسهولة؛ لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم. وأما ما حملت الظهور أو الحوايا أو ما اختلط بعظم؛ فلم يحرم عليهم.

فتقديم ذكر البقر والغنم لبيان الحصر. واختلف في الاستثناء هنا: هل هو منقطع أو متصل من الشحوم، وبنوا عليه أحكامًا فيمن يحلف لا يأكل شحمًا فأكل مما استثنى. والصواب أن مبنى الأيمان على العرف، لا على حقيقة مدلول اللغة،

---

(١) النساء: الآية (١٦٠).

(٢) محاسن التأويل (٦/ ٧٥٥).

وكل منهما معروف عند أهله.

وسبب تخصيص البقر والغنم بالحكم: هو أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما، وكان يتخذ من شحمهما المذكور الوقود للرب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحايل اليهود على شرع الله تعالى

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، سمعت النبي ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود، لما حرم الله عليهم شحومها؛ جملوها ثم باعوها فأكلوها»**[٢].

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»**[٣].

★ غريب الحديث:

فجملوها: بفتح الجيم والميم أي أذابوها، يقال: جمله إذا أذابه، والجميل الشحم المذاب[٤].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ جالسًا عند الركن، قال: فرفع بصره إلى السماء فضحك، فقال: **«لعن الله اليهود -ثلاثًا- إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه»**[٥].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «قوله ﷺ: **«حرمت عليهم الشحوم»** أي: أكلها، وإلا فلو حرم عليهم بيعها؛ لم يكن لهم حيلة فيما صنعوه من إذابتها»[٦].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٦)، والبخاري (٨/ ٣٧٥/ ٤٦٣٣)، ومسلم (٣/ ١٢٠٧/ ١٥٨١)، وأبو داود (٣/ ٧٥٦-٧٥٧/ ٣٤٨٦)، والترمذي (٣/ ٥٩١/ ١٢٩٧)، والنسائي (٧/ ٣٥٥/ ٤٦٨٣)، وابن ماجه (٢/ ٧٣٢/ ٢١٦٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (٤/ ٥٢١/ ٢٢٢٣)، ومسلم (٣/ ١٢٠٧/ ١٥٨٢)، والنسائي (٧/ ٢٠٠/ ٤٢٦٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٢٢/ ٣٣٨٣).

(٤) فتح الباري (٤/ ٥٢٢).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٧و٢٩٣و ٣٢٢)، وأبو داود (٣/ ٧٥٨/ ٣٤٨٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١١/ ٣١٢-٣١٣/ ٤٩٣٨).

(٦) فتح الباري (٤/ ٥٢٢).

قال الخطابي: «في هذا بيان بطلان كل حيلة يحتال بها توصل إلى محرم، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئته وتبديل اسمه»[1].

قال الشوكاني: «حديث ابن عباس: فيه دليل على إبطال الحيل والوسائل إلى المحرم، وإن كل ما حرمه اللَّه على العباد فبيعه حرام لتحريم ثمنه، فلا يخرج من هذه الكلية إلا ما خصه دليل»[2].

* * *

(١) معالم السنن (٣/ ١١٤).

(٢) نيل الأوطار (٥/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم؛ فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة اللَّه الواسعة، واتباع رسوله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيرًا ما يقرن اللَّه تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[5] والآيات في هذا كثيرة جدًّا»[6].

وقال ابن عطية: «وهذا كما تقول عند رؤية معصية أو أمر مبغي: ما أحلم الله! وأنت تريد لإمهاله على مثل ذلك في قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان. ثم أعقب هذه المقالة بوعيد في قوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فكأنه قال: ولا تغتروا أيضًا بسعة رحمته فإن له بأسًا لا يرد عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة. وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفع حكمه بالقتال. وأخبر اللَّه ﷻ نبيه ﷺ: أن المشركين سيحتجون لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأشياء بإمهال اللَّه تعالى وتقريره حالهم

---

(١) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٢) الرعد: الآية (٦).
(٣) الحجر: الآيتان (٤٩ و٥٠).
(٤) غافر: الآية (٣).
(٥) البروج: الآيات (١٢-١٤).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥١).

وأنه شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال»[١].

قال محمد رشيد رضا: «أي فإن كذبك كفار قومك أو اليهود في هذا، وهو المروي عن مجاهد والسدي، قيل: وهو الذي يقتضيه الظاهر؛ لأنهم أقرب ذكرًا، والصواب أنه خلاف الظاهر من جهة السياق، فإن الكلام في محاجة المشركين الجاهلين، فهم المقصودون بالخطاب بالذات، إلا أنه يمكن أن يقوى بالجواب، وهو أن اليهود لما كان يثقل عليهم أن يكون بعض شرعهم عقابًا لهم للتشديد في تربيتهم على ما كان من بغيهم على أناس، وظلمهم لهم ولأنفسهم وتمردهم على رسولهم؛ ينتظر منهم أن يكذبوا الخبر من حيث تعليله بما ذكر، ويحتجوا على إنكار كونه عقوبة بكون الشرع رحمة من اللَّه، ولذلك أمر اللَّه رسوله أن يجيبهم بما يدحض هذه الشبهة بإثباته لهم أن رحمة اللَّه تعالى واسعة حقيقة، ولكن سعتها لا تقتضي أن يرد بأسه ويمنع عقابه عن القوم المجرمين، والبأس الشدة والمكروه، وإصابة الناس بالمكاره والشدائد عقابًا على جرائم ارتكبوها؛ قد يكون رحمة بهم، وقد يكون عبرة وموعظة لغيرهم؛ لينتهوا عن مثلها، أو ليتربوا على ترك الترف والخنوثة فتقوى عزائمهم وتعلو هممهم، فيربؤوا بأنفسهم عن الجرائم والمنكرات، وهذا العقاب من سنن اللَّه تعالى المطردة في الأقوام والأمم، وإن لم يطرد في الأفراد لقصر أعمارهم، وقد بينا ذلك في التفسير مرارًا كثيرة، ولذلك قال: ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يقل عن المجرمين. وذهب بعض المفسرين إلى أن تكذيب اليهود لهذا الخبر؛ إنما هو بزعمهم أن يعقوب هو الذي حرم على نفسه الإبل، أو عرق النسا كما قالوه في تفسير ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٢] وهو من الإسرائيليات التي كان بعض اليهود يغش بها المسلمين، عندما خالطوهم وعاشروهم، كما بيناه في تفسير تلك الآية، وجرينا عليه آنفًا في تفسير آية التحريم هنا.

ويمكن توجيه هذا الجواب في تكذيب مشركي مكة بأنه تهديد لهم إذا أصروا على كفرهم، وما يتبعه من الافتراء على اللَّه بتحريم ما حرموا على أنفسهم،

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٥٩).

(٢) آل عمران: الآية (٩٣).

وإطماع لهم في رحمة اللَّه الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم، وآمنوا بما جاء به رسولهم، إذ يكونون سعداء في الدنيا بحل الطيبات، وسائر ما يتبع الإسلام من السعادة والسيادة، وسعداء في الآخرة بالنجاة من النار، ودخول الجنة مع الأبرار، جعلنا اللَّه منهم بكمال الاتباع، والحمد لله على توفيقه وعلى كل حال»[1].

* * *

(١) تفسر المنار (٨/ ١٧٤-١٧٥).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تخرصون: الخرص: كل قول مقول عن ظن وتخمين، سواء كان مطابقًا للشيء أو مخالفًا له؛ من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع؛ بل اعتمد فيه على الظن والتخمين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الحافظ ابن كثير: «هذه مناظرة ذكرها اللَّه تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن اللَّه مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك، ولهذا قال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۢ﴾، كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾[1] الآية، وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء، قال اللَّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم اللَّه بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام»[2].

قال عبد الرحمن السعدي: «هذا إخبار من الله: أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم، ما أحل اللَّه بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة اللَّه الشاملة لكل

---

(١) الزخرف: الآية (٢٠).

(٢) التفسير (٣/ ٣٥٢).

شيء من الخير والشر حجّةً لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر اللَّه أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾[1] الآية. فأخبر تعالى: أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة؛ تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم، حتى أهلكهم اللَّه، وأذاقهم بأسه. فلو كانت حجة صحيحة؛ لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل اللَّه بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه. فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، من عدة أوجه:

منها: ما ذكر اللَّه من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة، لابد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان.

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص، الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فلو كان لهم علم -وهم خصوم ألداء- لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن؛ فهو مبطل خاسر. فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن لله الحجة البالغة التي لم تبق لأحد عذرًا، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة. فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل؛ لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلًا.

ومنها: أن اللَّه تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة، يتمكن بها، من فعل ما كلف به. فما أوجب اللَّه على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه. فالاحتجاج -بعد هذا- بالقضاء والقدر، ظلم محض، وعناد صرف.

ومنها: أن اللَّه تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم؛ بل جعل أفعالهم تبعا

(١) النحل: الآية (٣٥).

لاختيارهم. فإن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا كفوا. وهذا أمر مشاهد، لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات. فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة اللَّه، ومندرجًا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر، يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك؛ بل لو أساء إليهم مسيء؛ بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر؛ لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجبًا!! كيف يحتجون به على معاصي اللَّه ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟!.

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل. فهم يدفعون بكل ما يخطر ببالهم، من الكلام المصيب عندهم والمخطئ»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «قد كان ما تقدم من هذه السورة بيانًا مفصلًا لعقائد الإسلام في الإلهيات والنبوة والبعث، ودحضًا لشبهات المشركين التي كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم للرسل وإنكارهم للبعث، وعلى أعمالهم التي هي مظاهر شركهم من تحريم وتحليل، وخرافات وتضليل، وأوهام وأباطيل، وقد جاء في هذه الآيات بشبهة من أكبر شبهاتهم التي ضل بمثلها كثير من الكفار قبلهم، ولم يكونوا أوردوها على الرسول ﷺ، ولكن اللَّه تعالى جعل هذه السورة جامعة لكل ما يتعلق بتقرير العقائد وإثباتها بالحجة الناهضة، وإبطال ما يرد عليها من الشبهات الداحضة، ما قيل منها، وما سيقال للرسول ﷺ بعد نزولها، فذكرها ورد عليها بما يبطلها، فكان ذلك من إخباره بأمور الغيب قبل وقوعها، وذلك قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ أي: سيقول هؤلاء المشركون: لو شاء اللَّه تعالى أن لا نشرك به من اتخذنا له من الأولياء والشفعاء من الملائكة والبشر، وأن لا نعظم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم، أو قبورهم وسائر ما يذكر بهم، وأن لا يشرك آباؤنا من قبلنا كذلك؛ لما أشركوا

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٤٩٥-٤٩٧).

ولا أشركنا، ولو شاء أن لا نحرم شيئًا مما حرمنا من الحرث والأنعام وغيرها لما حرمنا. أي: ولكنه شاء أن نشرك هؤلاء الأولياء والشفعاء به وهم له يقربوننا إليه زلفى، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها فحرمناها، فإتياننا ما ذكر دليل على مشيئة اللَّه تعالى له، بل على رضاه وأمره به أيضًا كما حكى عنهم في آية أخرى بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقيل: أرادوا أن مشيئته ملزمة ومجبرة، فهم غير مختارين في ذلك. ولما وقع هذا القول منهم بالفعل؛ حكاه تعالى عنهم بقوله في سورة (النحل): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2]، وفي معناه قوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3].

وقد رد تعالى شبهتهم هنا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ إلخ؛ أي: مثل هذا التكذيب من مشركي مكة للرسول ﷺ فيما جاء به من إبطال الشرك وإثبات توحيد اللَّه في الألوهية والربوبية، ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم؛ قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم. أي: مثله في كونه تكذيبا جهليا غير مبني على أساس من العلم. والرسل -ولا سيما خاتمهم عليهم الصلاة والسلام- قد أقاموا الحجج العلمية والعقلية على التوحيد وغيره، وأيدهم اللَّه تعالى بالآيات البينات، ولكن المكذبين لم ينظروا في هذه الآيات نظر الإنصاف؛ لاستبانة الحق، بل أعرضوا عنها وأصروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسه تعالى، وهو عذاب الاستئصال للمعاندين الذين اقترحوا على رسلهم آيات معينة، فجعلها الرسل نذيرا لهم بالاستئصال فتماروا بالنذر، وما دونه لغيرهم. ولو كانت مشيئة اللَّه لما كانوا عليه من الشرك والمعاصي إجبارًا مخرجًا لذلك عن كونه من أعمالهم؛ لما عاقبهم عليه، وهو قد قال: إنه أخذهم بذنوبهم، وأهلكهم بظلمهم وكفرهم. ولو كانت مشيئته لذلك متضمنة لرضاه عن فاعله وأمره إياه به خلافًا لما قال الرسل؛ لما عاقبهم عليه تصديقًا للرسل. فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ بيان

(١) الأعراف: الآية (٢٨). (٢) النحل: الآية (٣٥).
(٣) الزخرف: الآية (٢٠).

للبرهان الفعلي الواقع الدال على صدق الرسل في دعواهم، وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم، وأمثالهم من الجبرية الذين عطلوا شرائعهم، وهم يزعمون كمال الإيمان بها وبهم.

وبعد هذا التذكير بهذا البرهان أمر اللَّه رسوله ﷺ أن يطالب المشركين بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: هل عندكم بما تقولون علم ما تعتمدون عليه وتحتجون به فتخرجوه لنا؛ لنبحث معكم فيه، ونعرضه على ما جئناكم به من الآيات العقلية والمحكية عن وقائع الأمم التي قبلكم، وننصب بينهما الميزان القسط ليظهر الراجح من المرجوح؟ والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ، ولذلك قفى عليه ببيان حقيقة حالهم فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: لستم على شيء ما من العلم؛ بل ما تتبعون في بقائكم على ما أنتم عليه من عقيدة وقول في الدين وعمل به إلا الظن، وهو في اللغة ما ليس من مدركات الحس ولا ضروريات العقل، وقد يكون منه ما يؤخذ من نظريات يطمئن لها القلب ويرجحها العقل، وهم لم يكونوا على هذا النوع منه، وإن كان لا يكفي في إثبات أصلي الدين، وهما عقائده وقواعد التشريع التي يجب الجزم بها، بل كانوا يتبعون أدنى درجاته وأضعفها لا يعدونها، وهي درجة الخرص أي الحزر والتخمين الذي لا يمكن أن يستقر عنده الحكم، كخرص ما يأتي من النخيل أو الكرم من التمر والزبيب، وكثيرًا ما يطلق الخرص على لازمه الذي يندر أن يفارقه وهو الكذب، وقد فسر به هنا.

بعد أن نفى عنهم أدنى ما يقال له علم، وحصر ما هم عليه من الدين في أدنى مراتب الظن، مع أن أعلاها لا يغني من الحق من شيء، أثبت لذاته العلية في مقابلة ذلك الحجة العليا التي لا تعلوها حجة فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجة في اللغة الدلالة المبينة للمحجة أي المقصد المستقيم، كما قال الراغب، فهي من الحج الذي هو القصد. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين الذين بنوا قواعد دينهم على أساس الخرص الذي هو أضعف الظن، بعد تعجيزك إياهم عن الإتيان بأدنى دليل أو قول يرتقي إلى أدنى درجة من العلم: إن لم يكن عندكم علم ما في أمر دينكم، فلله وحده أعلى درجات العلم، بما بعثني به من محجة دينه القويم، وصراطه المستقيم، وهو الحجة البالغة؛ ما أراد من إحقاق

الحق وإزهاق الباطل، وهي ما بينه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد، وقواعد الشرائع، وموافقتها لحكم العقول السليمة والفطر الكاملة، وسنن الله في الاجتماع البشري وتكميلها للنظام العام، الذي يعرج عليه الإنسان في مراقي الكمال، ولكن لا يكاد يهتدي بهذه الآيات المنبثة في الأكوان، المبينة في آية الله الكبرى وهي القرآن، إلا المستعد للهداية هو المحب للحق الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أطفأ باتباع الهوى نور فطرته، أو استخدم عقله لكبريائه وشهوته، المعرض عن النظر في الآيات استكبارًا عنها، أو حسدًا للمبلغ الذي جاء بها، أو جمودًا على تقليد الآباء، واتباع الرؤساء، فإنما الحجة علم وبيان، لا قهر ولا إلزام، وما على الرسل إلا البلاغ، وإلا فلو شاء هدايتكم بغير هذه الطريقة التي أقام أمر البشر عليها؛ وهي التعليم والإرشاد، بطريق النظر والاستدلال، وما ثم إلا الخلق والتكوين أو القهر والإلزام؛ لهداكم أجمعين بجعلكم كذلك بالفطرة، كما خلق الملائكة مفطورين على الحق والخير وطاعة الرب: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] أو بخلق الطاعة فيكم بغير شعور منكم ولا إرادة كجريان دمائكم في أبدانكم، وهضم معدكم لطعامكم، أو مع الشعور بأنها ليست من أفعالكم. وحينئذ لا تكونون من نوع الإنسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بأن يخلق مستعدًّا لاتباع الحق والباطل، وعمل الخير والشر، وكونه يرجح بعض ما هو مستعد له على بعض بالاختيار، واختياره لأحد النجدين على الآخر بمشيئته لا ينفي مشيئة الله تعالى ولا يعارضها، فإنه تعالى هو الذي شاء أن يجعله فاعلا باختياره، كما بيناه من قبل في مواضع. ومثل هذه الآية قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[2]، وقوله منها أيضًا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3]، وأيضًا: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[5] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[6]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ

(١) التحريم: الآية (٦).
(٢) الأنعام: الآية (١٠٧).
(٣) الأنعام: الآية (٣٥).
(٤) الأنعام: الآية (٣٩).
(٥) المائدة: الآية (٤٨).
(٦) هود: الآيتان (١١٨ و ١١٩).

كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١]. فالآيات في هذا المعنى كلها بيان لسنة الله في خلق الإنسان؛ كما بيناه في تفسير ما تقدم منها، وفي مواضع أخرى، وهي حجة على المجبرة والقدرية جميعًا لا لهما»[٢].

قلت: هذه السياقات المباركة في تعرية شبهة الشرك والمشركين، وبيان تفاهتها وسفاهتها، وأنها غير مبنية على حجة شرعية، أو عقلية، أو فطرية، وإنما هو الضياع والضلال والتخبط المزري، الذي يزري بصاحبه ويوقعه في مهاوي وحفر وخنادق لا يستطيع أن يخرج منها، لأن الضلال لا نهاية له، والجزاء عليه لا نهاية له، فالجزاء من جنس العمل ولاسيما ضلال الشرك. فإن غالب المعاصي شهوات للنفس ونزوات، وقد يكون الحامل عليها الشهوة وقضاء الوطر، إلا الشرك فإنه لا شهوة فيه، إذ هو الانحراف العقلي والفطري. وإذا استعرضت حجج المشركين في القرآن، وحججهم في النبوات والرسالات، وحججهم في البعث والنشور، وحججهم في توحيد الألوهية، وجدت منطلقها هو العناد والسخط والارتياب، مع قيام الحجة عليهم، فما أشبه البارحة باليوم، فإن حجج المشركين في الوقت الحاضر أتفه من حجج المشركين في السابق، فيحتجون بالرؤى والكرامات لمن يشركون به، ويحتجون بالوساطة والتراث والعادات، وأنه دين الآباء والأجداد، ودين البلد والوطن، وهم في واقع أمرهم يحتالون على الناس بأكل أموالهم بالباطل، ووضعها في جيوبهم ومخابيهم، ويستمر الشرك بأضرحته، وقبابه، ومشاهده، وحسينياته، وزواياه، وطوائفه المختلفة المتنوعة، وكما قال الله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[٣]. فأكثر أهل الأرض على هذا المنهج المنحرف؛ من عبادة القبور والأموات والأشجار، وأما عباد الشهوات فلا تسأل عن عددهم فهم أكثر من حبات الرمل والله المستعان.

---

(١) يونس: الآية (٩٩).
(٢) تفسير المنار (٨/ ١٧٥-١٧٨).
(٣) الأنعام: الآية (١١٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على القدرية

* عن ابن عباس ﵄ أنه قيل له: إن ناسًا يقولون: إن الشر ليس بقدر، فقال ابن عباس: «بيننا وبين أهل القدر هذه الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾». قال ابن عباس: «والعجز والكيس من القدر»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وإنما حكى اللَّه سبحانه الاحتجاج في القدر عن المشركين أعداء الرسل فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4].

فهذه أربعة مواضع حكى فيها الاحتجاج بالقدر من أعدائه، وشيخهم وإمامهم في ذلك عدوه الأحقر إبليس، حيث احتج عليه بقضائه فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

فإن قيل: قد علم بالنصوص والمعقول صحة قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾، و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾[6]، و﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[7]؛ فإنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[8]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[9] فكيف

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق (١١/ ١١٤-١١٥/ ٢٠٠٧٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٤٥٤/ ٣٨٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٣١٧) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) النحل: الآية (٣٥).
(٣) يس: الآية (٤٧).
(٤) الزخرف: الآية (٢٠).
(٥) الحجر: الآية (٣٩).
(٦) النحل: الآية (٣٥).
(٧) الزخرف: الآية (٢٠).
(٨) الأنعام: الآية (١١٢).
(٩) السجدة: الآية (١٣).

أكذبهم ونفى عنهم العلم وأثبت لهم الخرص فيما هم فيه صادقون؟! وأهل السنة جميعًا يقولون: لو شاء اللَّه ما أشرك به مشرك، ولا كفر به كافر، ولا عصاه أحد من خلقه، فكيف ينكر عليهم ما هم فيه صادقون؟.

قيل: أنكر سبحانه عليهم ما هم فيه أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين، ولم ينكر عليهم صدقًا ولا حقًّا؛ بل أنكر عليهم أبطل الباطل، فإنهم لم يذكروا ما ذكروه إثباتًا لقدره وربوبيته ووحدانيته، وافتقارًا إليه وتوكلًا عليه، واستعانة به لأمره، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين، وإنما قالوا معارضين لشرعه ودافعين به لأمره، فعارضوا شرعه وأمره، ودفعوه بقضائه وقدره، ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر. وأيضًا فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبته لما شاءه ورضاه به وإذنه فيه، فجمعوا بين أنواع من الضلال؛ معارضة الأمر بالقدر ودفعه به، والإخبار عن اللَّه أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه، وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر. وقد ورثهم في هذا الضلال وتبعهم عليه طوائف من الناس؛ ممن يدعي التحقيق والمعرفة، أو يدعى فيه ذلك»[1].

وقال: «فأين هذا من احتجاج أعداء اللَّه بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه، وعباد هؤلاء الكفرة يشهدون أفعالهم كلها، طاعات لموافقتها المشيئة السابقة، ولو أغضبهم غيرهم وقصر في حقوقهم لم يشهدوا فعله طاعة، مع أنه وافق فيه المشيئة، فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي إلا من هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتبعهم لهواه.

وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول، فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه. ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ فإن هذا يتضمن أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه

---

(١) شفاء العليل (١/ ٥٠-٥٢).

لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهًا غيره! فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل. فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد، فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة، وبالله التوفيق»[1].

وقال أيضًا: «فصل: فالجواب أن ههنا مقامين، مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك، زلت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء.

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة؛ فمقام إثبات القدر، والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس. وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله.

وأما المقام الثاني -وهو مقام الضلال والردى والهلاك-؛ فهو الاحتجاج به على ذنبه على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء، وجعل أرحم الراحمين، وأعدل العادلين، وأحكم الحاكمين، وأغنى الأغنياء؛ أضر على العباد من إبليس، كما صرح به بعضهم، واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته، ولا تطاق مغالبته، حتى يقول قائل هؤلاء:

ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

ويقول قائلهم:

دعاني وسد الباب دوني فهل إلى ... دخولي سبيل؟ بينوا لي قصتي»[2].

ثم ذكر أمثلة أخرى إلى أن قال: «وسمعته يقول -أي: شيخ الإسلام ابن تيمية-: القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف؛ هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته، وهم القدرية المجوسية، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

(١) شفاء العليل (١/ ٥٥-٥٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٨٣).

أَشْرَكُوا﴾، وهم القدرية الشركية، والمخاصمون به للرب سبحانه، وهم أعداء اللَّه وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على اللَّه بالقدر فقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[1]، ولم يعترف بالذنب ويَبُوْ به كما اعترف به آدم، فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه؛ فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر؛ فقد أشبه إبليس. ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة؛ لأن النفاة إنما نفوه تنزيهًا للرب وتعظيمًا له أن يقدر الذنب، ثم يلوم عليه ويعاقب، ونزهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه ألبتة، بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه ونحو ذلك، كما يحكى عن بعض الجبرية: أنه حضر مجلس بعض الولاة، فأتى بطرار أحول فقال له الوالي: ما ترى فيه؟! فقال: اضربه خمسة عشر -يعني سوطًا-. فقال له بعض الحاضرين ممن ينفي الجبر: بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطًا خمسة لطره ومثلها لحوله. فقال الجبري: كيف يضرب على الحول ولا صنع له فيه؟ فقال: كما يضرب على الطر ولا صنع له فيه عندك. فبهت الجبري. وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله، لا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال اللَّه فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4]، فهذه أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل»[5].

قال القاسمي: «فتبين -بهذا- أن الجبرية ومن تلا تلوهم؛ قد غفلوا عن معنى

(١) الحجر: الآية (٣٩).
(٢) النحل: الآية (٣٥).
(٣) الزخرف: الآية (٢٠).
(٤) يس: الآية (٤٧).
(٥) طريق الهجرتين (ص: ٨٦-٨٧).

الاختيار، واشتبهت عليهم الأنظار، فكابروا الحس والوجدان، ودابروا الدليل والبرهان، وعطلوا الشرائع والأديان، وتوهموا أنهم يعظمون اللَّه، ولكنهم ما قدروه حق قدره، ولا فقهوا سر نهيه وأمره، حيث جرؤوا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون اللَّه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه. بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان. فيا عجبًا لهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء! وهو الاعتقاد بإحاطة علم اللَّه بالأشياء. أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته، ويظلم الجهل بصيرته؛ أن يكون أعظم مهذب لنفسه، ومؤدب لعقله وحسه، اعتقاده بأن اللَّه عليم بما يسر ويعلن، ويظهر ويبطن، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه؟ بلى؛ إن الإحسان هو أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وأما الذين ضلوا السبيل، واتبعوا فاسد التأويل؛ فيقولون كما قال من قبلهم، وقص اللَّه علينا ذلك بقوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ الآية.

فانظر كيف رماهم العليم الحكيم بالجهل، وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم.

وفي هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قلبه، واللَّه عليم حكيم»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٦/ ٧٧٨-٧٧٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هلمّ: كلمة دعوة إلى شيء. والمعنى ههنا: هاتوا شهداءكم.

يعدلون: يشركون به غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهداءكم على تحريم اللَّه ما زعمتهم أنه حرمه. ثم قال اللَّه تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: فإن افترى لهم أحدًا[1] وزور شهادة أو خبرًا عن نبوة ونحو ذلك؛ فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم.

وفي قوله: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ يريد: لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على محابهم. و﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على نعت، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم إنه تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يطالب مشركي قومه بإحضار من عساهم يعتمدون عليه من الشهداء؛ في إثبات تحريم اللَّه تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات، بعد أن نفى عنهم العلم، وسجل عليهم اتباع الحزر والخرص؛ ليظهر لهم أنهم ليسوا على شيء يعتد به من العلم الاستدلالي ولا الشهودي في أنفسهم، ولا على شيء من النقل عن ذي علم شهودي فقال له: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ أي: أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن علم شهودي أن اللَّه حرم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه، وهو طلب

---

(١) في الأصل «أحدا».

(٢) المحرر الوجيز (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

تعجيز؛ لأنه ما ثم شهداء يشهدون، فهو كالاستفهام عن العلم بذلك قبله، وكقوله من قبل: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾[1] فراجع تفسيره، ولم يقل: هاتوا شهداء ليحضروا أي امرئ يقول ما شاء، فإضافة الشهداء إليهم ووصفهم بما وصفهم؛ يقتضي أن المطلوب منهم إحضاره هو جماعة من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمم الأحكام الدينية وغيرها بالأدلة الصحيحة التي تجعل النظريات كالمشهودات بالحس، أو كالرسل الذين يتلقون الدين من الوحي الإلهي، وهو أقوى العلوم الضرورية عندهم، كأنه يقول: إذا لم تكونوا أنتم على علم تقيمون الحجة على صحته، وكان عندكم شهداء تلقيتم عنهم ذلك، وهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه من الشهادة؛ فأحضروهم لنا، ليدلوا بما عندهم من الحجة التي قلدتموهم لأجلها، ثم قال له: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ أي: فإن فرض إحضار شهداء شهدوا؛ فلا تشهد معهم؛ أي: فلا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها، فإن السكوت عن الباطل في مثل هذا المقام كالشهادة به، بل بين لهم بطلان زعمهم الذي سموه شهادة. فأمثال هذه الفروض تذكر لأجل التذكير بما يجب أن يترتب عليها إن وجدت؛ كما يزعم أصحاب الأهواء فيها، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا المنزلة، وما أرشدت إليه من آياتنا في الأنفس والآفاق، فوضع الظاهر موضع الضمير؛ إذ لم يقل: ولا تتبع أهواءهم؛ لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة إصرارًا على تقاليده الباطلة، إنما يكون صاحب هوى وظن، لا صاحب علم وحجة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: والذين هم على جهلهم واتباع أهوائهم لا يؤمنون بالآخرة، فيحملهم الإيمان على سماع الحجة إذا ذكروا بها، وهم مع ذلك يشركون بربهم؛ فيتخذون له مثلًا وعدلًا يعادله ويشاركه في جلب الخير والنفع ودفع الضر، إن لم يكن باستقلاله وقدرته، فبحمله للرب على ذلك، والتأثير في علمه وإرادته»[2].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٤٤).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «هذه الآية أمر من اللَّه تعالى لنبيه ﷺ بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم اللَّه.

وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم اللَّه عليهم مما حل. قال اللَّه تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[2]»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «بين اللَّه تعالى فيما قبل هذه الآيات حجته البالغة على المشركين، الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه عليهم ربهم، ودحض شبهتهم التي احتجوا بها على شركهم به وافترائهم عليه، بعد أن بين لهم جميع ما حرمه على عباده من الطعام، ثم بين في هذه الآيات أصول المحرمات ومجامعها في الأعمال والأقوال، وما يقابلها من أصول الفضائل والبر، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المتبعين للخرص والتخمين في دينهم، وللهوى فيما يحرمون ويحللون لأنفسهم ولسائر الناس أيضًا بما لك من الرسالة العامة: تعالوا إلي وأقبلوا علي؛ أتل وأقرأ لكم ما حرم ربكم عليكم فيما أوحاه إلي من العلم الصحيح وحق اليقين، فإن الرب وحده هو الذي له حق التحريم والتشريع، وإنما أنا مبلغ عنه بإذنه، أرسلني لذلك وعلمني على أميتي ما لم أكن أعلم، وأيدني بالآيات البينات. وقد خص التحريم بالذكر مع أن الوصايا التي بين بها التلاوة أعم لمناسبة ما سبق من إنكار أن يحرم غير اللَّه، ولأن بيان أصول المحرمات كلها يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل، وقد صرح بأصول

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١). (٢) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٣١).

الواجبات من هذا الحلال العام»[١].

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ شروع في بيان ما حرم الرب وما أوصى به من البر، وقد أورد بعضه بصيغة النهي عن الشيء وبعضه بصيغة الأمر بضده حسب ما تقتضيه البلاغة...

بدأ تعالى هذه الوصايا بأكبر المحرمات وأفظعها وأشدها إفسادًا للعقل والفطرة؛ وهو الشرك باللَّه تعالى، سواء كان باتخاذ الأنداد له، أو الشفعاء المؤثرين في إرادته المصرفين لها في الأعمال، وما يذكر بهم من صور وتماثيل وأصنام أو قبور، أو كان باتخاذ الأرباب الذين يشرعون الأحكام، ويتحكمون في الحلال والحرام، وكذا من يسند إليهم التصرف الخفي فيما وراء الأسباب، وكل ذلك واضح من الآيات السابقة وتفسيرها. وتقدير الكلام: أول ما أتلوه عليكم في بيان هذه المحرمات وما يقابلها من الواجبات، أو أول ما وصاكم به تعالى من ذلك كما يدل عليه لاحق الكلام؛ هو أن لا تشركوا باللَّه شيئًا من الأشياء، وإن كانت عظيمة في الخلق كالشمس والقمر والكواكب، أو عظيمة في القدر كالملائكة والأنبياء والصالحين، فإنما عظم الأشياء العاقلة وغير العاقلة بنسبة بعضها إلى بعض، وذلك لا يخرجها عن كونها من خلق اللَّه، ومسخرة بقدرته وإرادته، وعن كون العاقل منها من عبيده ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[٢]، أو أن لا تشركوا به شيئًا من الشرك صغيره أو كبيره، ومقابله أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم، ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم، وهذا هو المقصود بالذات الذي دعا إليه جميع الرسل، وهو لازم للنهي عن الشرك الذي عبر به هنا؛ لأن الخطاب موجه إلى المشركين أولا وبالذات»[٣].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين في هذه السورة على أحسن الوجوه، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[٤].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٨٣).
(٢) مريم: الآية (٩٣).
(٣) تفسير المنار (٨/ ١٨٤).
(٤) الأنعام: الآية (٧٤).

والطائفة الثانية: من المشركين عبدة الكواكب، وهم الذين حكى اللَّه عنهم، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾[(١)].

والطائفة الثالثة: الذين حكى اللَّه تعالى عنهم أنهم جعلوا لله شركاء الجن، وهم القائلون بيزدان وأهرمن.

والطائفة الرابعة: الذين جعلوا لله بنين وبنات، وأقام الدلائل على فساد أقوال هؤلاء الطوائف والفرق، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف، قال ههنا: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾»[(٢)].

قال الطاهر بن عاشور: «الابتداء بالنهي عن الإشراك لأن إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل»[(٣)].

قال في تيسير العزيز الحميد: «ابتدأ تعالى هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك والنهي عنه، فحرم علينا أن نشرك به شيئًا، فشمل ذلك كل مشرك به، وكل مشرك فيه، من أنواع العبادة فإن ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ من النكرات، فيعم جميع الأشياء، وما أباح تعالى لعباده أن يشركوا به شيئًا فإن ذلك أظلم الظلم وأقبح القبيح، ولفظ الشرك يدل على أن المشركين كانوا يعبدون اللَّه، ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام، فكانت الدعوة واقعة على ترك عبادة ما سوى اللَّه، وإفراد اللَّه بالعبادة، وكانت لا إله إلا اللَّه متضمنة لهذا المعنى فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بها نطقًا وعملًا واعتقادًا»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خطورة الشرك، وفضل التوحيد على الأمم السابقة واللاحقة

* عن سعيد بن جبير قال: أمرني عبد الرحمن بن أبزى قال: سل ابن عباس عن هاتين الآيتين ما أمرهما؟ ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[(٥)] ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ

(١) الأنعام: الآية (٧٦).
(٢) تفسير الرازي (١٣/ ٢٤٤).
(٣) تفسير التحرير والتنوير (٨/ ١٥٨).
(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٦).
(٥) الأنعام: الآية (١٥١).

﴿مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾[1] فسألت ابن عباس، فقال: «لما أنزلت التي في (الفرقان)؛ قال مشركو أهل مكة: فقد قتلنا النفس التي حرم اللَّه، ودعونا مع اللَّه إلها آخر، وقد أتينا الفواحش، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[2] الآية، فهذه لأولئك. وأما التي في (النساء)؛ الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل فجزاؤه جهنم». فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم»[3].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «**وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[4].

* عن سلمة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع: «**ألا إنما هن أربع: أن لا تشركوا باللَّه شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا**» قال: فما أنا بأشح عليهن مني إذ سمعتهن من رسول اللَّه ﷺ[5].

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ أن «**لا تشرك باللَّه شيئًا، وإن قطعت وحرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر**»[6].

---

(١) النساء: الآية (٩٣). (٢) الفرقان: الآية (٧٠).

(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ٢٠٩-٢١٠/ ٣٨٥٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٧/ ٣٠٢٣[١٨])، وأبو داود (٤/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٤٢٧٣)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٨٧/ ٣٤٣٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٧)، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٢، ٣١٨٣)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤، ٤٠٢٥، ٤٠٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٩-٣٤٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢١-٤٢٢/ ١١٣٧٣) وصححه الحاكم (٤/ ٣٥١) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والطبراني (٧/ ٤٣-٤٤/ ٦٣١٦-٦٣١٧). وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات».

(٦) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٩/ ٤٠٣٤)، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٠٤): «هذا إسناد حسن، شهر مختلف فيه». وله شاهد من حديث معاذ رضي الله عنه رواه أحمد (٥/ ٢٣٨) بإسناد فيه انقطاع، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٢-٨٣/ ١٥٦)، والأوسط (٨/ ٤٦٠/ ٧٩٥٢)، وفيه عمرو بن=

★ **فوائد الأحاديث:**

قال السندي: «والمراد أن لا تظهر الشرك، وهذا يدل على أنه ينبغي اختيار الموت والقتل دون إظهار الشرك»[1].

قال القرطبي: -قوله: «أن تدعو لله ندًّا وهو خلقك»-: «معناه: أن اتخاذ الإنسان إلهًا غير خالقه المنعم عليه، مع علمه بأن ذلك المتخذ ليس هو الذي خلقه، ولا الذي أنعم عليه؛ من أقبح القبائح، وأعظم الجهالات. وعلى هذا؛ فذلك أكبر الكبائر وأعظم العظائم»[2].

قال في تكملة المنهل العذب المورود: «فيه إشارة إلى وجه استحقاقه تعالى للألوهية والربوبية، وأنه هو المستحق للعبادة دون سواه، فإن الخالق للعالم هو المستحق للعبادة بخلاف غيره، فإنه لا يستحق أن يعبد لعجزه عن إصلاح نفسه فضلًا عن غيره. والمراد أن أكبر الكبائر هو الشرك بالله تعالى، بل الكفر مطلقًا. وإنما خص الشرك بالذكر لأنه أعظم أنواع الكفر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]»[4].

* * *

= واقد القرشي وهو كذاب. وشاهد من حديث أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ رواه البيهقي في الشعب (٦/ ١٨٨/ ٧٨٦٥)، وله شاهد آخر من حديث أميمة مولاة رسول الله ﷺ رواه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٩٠/ ٤٧٩)، وفيه يزيد بن سنان الرهاوي. قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٧): «وثقه البخاري وغيره. والأكثر على تضعيفه وبقية رجاله ثقات». ورواه عبدالرزاق (١١/ ١٣٢/ ٢٠١٢٢) عن إسماعيل بن أمية مرسلًا. ورواه الطبراني و ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٩). قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٦): «وفيه سلمة بن شريح قال الذهبي: لا يعرف، وبقية رجاله رجال الصحيح». فالحديث بهذه الشواهد صحيح والله تعالى أعلم.

(١) حاشيته على ابن ماجه (٤/ ٤٩٤).

(٢) المفهم (١/ ٢٨٠).

(٣) لقمان: الآية (١٣).

(٤) (٤/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا. قال الحاكم: والإحسان: ما يخرج عن حد العقوق، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾[٢]. ولما كان إيجاب الإحسان تحريمًا لترك الإحسان؛ ذكر في المحرمات. وكذا حكم ما بعده من الأوامر؛ فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده؛ بل هو عينه عند البعض؛ كأن الأوامر ذكرت وقُصِد لوازمها، ومن سر ذلك هنا -أعني وضع ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ موضع النهي عن الإساءة إليهما- المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما، بخلاف غيرهما»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: والثاني مما أتلوه عليكم، أو مما وصاكم به ربكم: أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا تامًّا كاملًا، لا تدخرون فيه وسعًا، ولا تألون فيه جهدًا، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت، فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان، وهو من أكبر كبائر المحرمات. وقد تكرر في القرآن القران بين التوحيد والنهي عن الشرك، وبين الأمر بالإحسان للوالدين، . . .

وقد اختير في هذه الآية وأمثالها الأمر بالواجب من الإحسان على النهي عن مقابله المحرم، وهو الإساءة مطلقًا؛ للإيذان بأن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع، فيحتاج إلى التصريح بالنهي عنها في مقام الإيجاز؛ لأنها خلاف ما تقتضي الفطرة السليمة، والآداب المرعية عند جميع الأمم»[٤].

وقال أيضًا: «ولو لم يرد في التنزيل إلا قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ ولو غير مكرر؛ لكفى في الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١). (٢) لقمان: الآية (١٥).

(٣) محاسن التأويل (٦/ ٧٨٠-٧٨١).

(٤) تفسير المنار (٨/ ١٨٤-١٨٥).

والتعدية، فكيف وقد قرنه بعبادته وجعله ثانيها في الوصايا وأكده بما أكده به في سورة (الإسراء)، كما قرن شكرهما بشكره في وصية سورة (لقمان) فقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[1] وورد في معنى التنزيل عدة أحاديث نكتفي منها بحديث عبد الله بن مسعود ﷺ في الصحيحين والترمذي والنسائي قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» وفي رواية لوقتها، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» فقدم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله الذي هو أكبر الحقوق العامة على الإنسان، ذلك كله بأن حق الوالدين على الولد أكبر من جميع حقوق الخلق عليه، وعاطفة البنوة ونعرتها من أقوى غرائز الفطرة، فمن قصر في بر والديه والإحسان بهما؛ كان فاسد الفطرة مضياعا للحقوق كلها، فلا يرجى منه خير لأحد. وقد بالغ بعض العلماء في الكلام على بر الوالدين حتى جعلوا من مقتضى الوصية بهما: أن يكون الولد معهما كالعبد الذليل مع السيد القاسي الظالم، وقد أطمعوا بذلك الآباء الجاهلين المريضي الأخلاق، حتى جرءوا ذا الدين منهم على أشد مما يتجرأ عليه ضعفاء الدين من القسوة على الأولاد وإهانتهم وإذلالهم، وهذا مفسدة كبيرة لتربية الأولاد في الصغر، وإلجاء لهم إلى العقوق في الكبر، وإلى ظلم أولادهم كما ظلمهم آباؤهم، وحينئذ يكونون من أظلم الناس للناس... وكم أفسدت الأمهات بناتهن على أزواجهن. والصواب أنه يجب على الوالدين تربية الأولاد على حبهما واحترامهما احترام المحبة والكرامة، لا احترام الخوف والرهبة»[2].

قال الرازي: «وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى، ويتلوها نعمة الوالدين؛ لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه، وفي الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة، وهي نعمة التربية، والشفقة، والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر»[3].

---

(١) لقمان: الآية (١٤).
(٢) تفسير المنار (٨/ ١٨٥-١٨٦).
(٣) تفسير الرازي (١٣/ ٢٤٤-٢٤٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على بر الوالدين

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**» قال: ثم أي؟ قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله**». قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «أي العمل أحب إلى الله» في رواية مالك ابن مغول «أي العمل أفضل» وكذا لأكثر الرواة، فإن كان هذا اللفظ هو المسؤول به؛ فلفظ حديث الباب ملزوم عنه، ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال؛ أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين؛ بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات؛ بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل، أو أن (أفضل) ليست على بابها، بل المراد بها الفضل المطلق، أو المراد من أفضل الأعمال، فحذفت من وهي مرادة. وقال ابن دقيق العيد: الأعمال في هذا الحديث محمولة على البدنية. وأراد بذلك الاحتراز عن الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب، فلا تعارض حينئذ بينه وبين حديث أبي هريرة: «**أفضل الأعمال إيمان بالله**»[(٢)] الحديث. وقال غيره: المراد بالجهاد هنا ما ليس بفرض عين؛ لأنه يتوقف على إذن الوالدين، فيكون برهما مقدمًا عليه»[(٣)].

قال ابن بطال: «قال الطبري: معنى حديث ابن مسعود: أن الصلاة المفروضة

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠)، والبخاري (٢/ ١١/ ٥٢٧)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥)، والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣)، والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩-٦١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (١/ ١٠٥/ ٢٦)، ومسلم (١/ ٨٨/ ٨٣)، والترمذي (٤/ ١٥٩/ ١٦٥٨)، والنسائي (٥/ ١١٩/ ٢٦٢٣).

(٣) فتح الباري (٢/ ١١).

وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله؛ أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ورسوله، وذلك أن من ضيع الصلاة المفروضة حتى خرج وقتها لغير عذر؛ فقدرته مع خفة مؤنتها، وعظم فضلها، فهو لا شك لغيرها من أمر الدين والإسلام أشد تضييعًا، وبه أشد تهاونًا واستخفافًا. وكذلك من ترك بر والديه وضيع حقوقهما، مع عظيم حقهما عليه، بتربيتهما إياه، وتقطعهما عليه، ورفقهما به صغيرًا، وإحسانهما إليه كثيرًا، وخالف أمر الله ووصيته إياه فيهما؛ فهو لغير ذلك من حقوق الله أشد تضييعًا، وكذلك من ترك جهاد أعداء الله، وخالف أمره في قتالهم مع كفرهم بالله ومناصبتهم أنبياءه وأولياءه للحرب؛ فهو لجهاد من دونهم من فساق أهل التوحيد، ومحاربة من سواهم من أهل الزيغ والنفاق أشد تركًا، فهذه الأمور الثلاثة؛ تجمع المحافظة عليهن الدلالة لمن حافظهن أنه محافظ على سواهن، ويجمع تضييعهن الدلالة على تضييع ما سواهن من أمر الدين والإسلام، فلذلك خصهن ﷺ بأنهن أفضل الأعمال»[1].

وقال الحافظ: «قال ابن بزيزة: الذي يقتضيه النظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن؛ لأن فيه بذل النفس، إلا أن الصبر على المحافظة على الصلوات وأدائها في أوقاتها، والمحافظة على بر الوالدين أمر لازم متكرر دائم لا يصبر على مراقبة أمر الله فيه إلا الصديقون، والله أعلم»[2].

* عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أطع والديك وإن أمراك أن تخرج من دنياك؛ فاخرج لهما»**[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الغزالي: «أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات، وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام؛ فعليك أن تأكل معهما؛ لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن

---

(١) شرح البخاري (٥/ ٦).
(٢) فتح الباري (٢/ ١٣).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٨)، وهو عند ابن ماجه (٢/ ١٣٣٩/ ٤٠٣٤) وليس عنده موضع الشاهد.
قال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٠٤-٣٠٥): «هذا إسناد حسن، شهر مختلف فيه، وله شواهد من حديث معاذ وعبادة وأم أيمن وأميمة مولاتي رسول الله ﷺ».

تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل ؛ لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل ؛ إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام ، فعليه الهجرة ، ولا يتقيد بحق الوالدين»[١] .

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

الإملاق: الفقر. يقال: أَمْلَقَ الرجل إذا افتقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: والثالث مما أتلوه عليكم مما وصاكم به ربكم: أن لا تقتلوا أولادكم الصغار من فقر واقع بكم؛ لئلا تروهم جياعًا في حجوركم، فإنه هو الذي يرزقكم وإياهم أي: ويرزقهم بالتبع لكم، فالجملة تعليل للنهي. وسيأتي في سورة (الإسراء): ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾[2] فقدم رزق الأولاد هنالك على رزق الوالدين عكس ما هنا؛ لأنه متعلق بالفقر المتوقع في المستقبل الذي يكون الأولاد فيه كبارًا كاسبين، وقد يصير الوالدون في حاجة إليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر. ففرق في تعليل النهي في الآيتين بين الفقر الواقع والفقر المتوقع، فقدم في كل منهما ضمان رزق الكاسب للإشارة إلى أنه تعالى جعل كسب العباد سببًا للرزق، خلافًا لمن يزهدونهم في العمل بشبهة كفالته تعالى لرزقهم»[3].

وقال أبو السعود: «﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم﴾ تكليفٌ متعلق بحقوق الأولادِ عقّب به التكليفَ المتعلّقَ بحقوق الوالدين؛ أي: لا تقتلوهم بالوأد ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ﴾ أي: من أجل فقرٍ كما في قوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۢ﴾. وقيل: هذا في الفقر الناجزِ وذا في المتوقَّع.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليل النهي وإبطالِ

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١).
(٢) الإسراء: الآية (٣١).
(٣) تفسير المنار (٨/ ١٨٦).

سببيةِ ما اتخذوه سببًا لمباشرة المنهيِّ عنه، وضمانٌ منه تعالى لأرزاقهم؛ أي: نحن نرزق الفريقين لا أنتم، فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عجزكم عن تحصيل الرزق»[١].

وقال القرطبي: «وقد يستدل بهذا من يمنع العزل؛ لأن الوأد يرفع الموجود والنسل، والعزل منع أصل النسل فتشابها، إلا أن قتل النفس أعظم وزرًا وأقبح فعلًا، ولذلك قال بعض علمائنا: إنه يفهم من قوله ﷺ في العزل: «**ذلك الوأد الخفي**» الكراهة لا التحريم، وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم.

وقال بإباحته أيضًا جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله ﷺ: «**لا عليكم ألا تفعلوا فإنما هو القدر**»؛ أي: ليس عليكم جناح في ألا تفعلوا.

وقد فهم منه الحسن ومحمد بن المثنى النهي والزجر عن العزل.

والتأويل الأول أولى، لقوله ﷺ: «**إذا أراد اللَّه خلق شيء لم يمنعه شيء**».

قال مالك والشافعي: لا يجوز العزل عن الحرة إلا بإذنها.

وكأنهم رأوا الإنزال من تمام لذاتها، ومن حقها في الولد، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها، إذ لا حق لها في شيء مما ذكر»[٢].

وقال القاسمي: «قال القاشاني: لما كان الكلام مع المشركين في تحريم الطيبات؛ عدّد المحرمات ليستدل بها على المحللات، فحصر جميع أنواع الفضائل بالنهي عن أجناس الرذائل. وابتدأ بالنهي عن رذيلة القوة النطقية التي هي أشرفها؛ فإن رذيلتها أكبر الكبائر مستلزمة لجميع الرذائل، بخلاف رذيلة أخويها من القوتين البهيمية والسبعية، فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ إذ الشرك من خطئها في النظر، وقصورها عن استعمال العقل ودرك البرهان. وعقبه بإحسان الوالدين؛ إذ معرفة حقوقهما تتلو معرفة اللَّه في الإيجاد والربوبية؛ لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية، وواسطتان جعلهما اللَّه تعالى مظهرين لصفتي إيجاده وربوبيته. ولهذا قال: «من أطاع الوالدين فقد أطاع اللَّه ورسوله»، فعقوقهما يلي الشرك، ولا يقع الجهل بحقوقهما إلا عن الجهل بحقوق اللَّه تعالى ومعرفة صفاته. ثم

(١) تفسير أبي السعود (٣/ ١٩٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٣٢).

بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر؛ فإن ارتكاب ذلك لا يكون إلا عن الجهل والعمى عن تسبيبه تعالى الرزق لكل مخلوق، وأن أرزاق العباد بيده، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والاحتجاب عن سر القدر، فلا يعلم أن الأرزاق مقدرة بإزاء الأعمار كتقدير الآجال. فأولاها لا تقع إلا من خطئها في معرفة ذات الله تعالى. والثانية من خطئها في معرفة صفاته. والثالثة من معرفة أفعاله. فلا يرتكب هذه الرذائل الثلاث إلا منكوس محجوب عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله؛ وهذه الحجب أمّ الرذائل وأساسها»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٦/ ٧٨٢-٧٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

الفواحش: جمع فاحشة، وهي كل ما اشتد قبحه من الذنوب؛ فعلًا أو قولًا، وكذا الفحشاء والفحش، ومنه الكلام الفاحش، ويطلق غالبًا على الزنا أنه فاحشة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولا تقربوا الظاهرَ من الأشياء المحرّمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطنَ منها الذي تأتونه سرًّا في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن؛ لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنى بعضًا دون بعض.

وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع، غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، ولا خبر يقطع العذرَ، بأنه عنى به بعض دون جميع. وغير جائز إحالة ظاهر كتاب اللَّه إلى باطن، إلا بحجة يجب التسليم لها»(٢).

وقال القرطبي: «نظيره: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(٣). فقوله: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: ما عقد عليه القلب المخالفة. وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء»(٤).

وقال محمد رشيد رضا: «والرابع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم أن لا تقربوا ما عظم قبحه من الأفعال والخصال كالزنا واللواط وقذف المحصنات ونكاح أزواج الآباء. وكل منها سمي في التنزيل فاحشة، فهو مما ثبتت شدة قبحه شرعًا وعقلًا، ولذلك يستتر بفعل الأولين أكثر الذين يقترفونهما، وقلما يجاهر بهما إلا المستولغ

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١).
(٢) جامع البيان (٨/ ٨٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٣٣).

من الفساق، الذي لا يبالي ذمًّا ولا عارًا إذا كان مع مثله، وهو يتبرأ منهما لدى خيار الناس وفضلائهم، وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا ويعدونه أكبر العار، ولاسيما إذا وقع من الحرائر، فكان وقوعه منهن نادرًا، وإنما كان يجاهر به الإماء في حوانيت ومواخير تمتاز بأعلام حمر، فيختلف إليها أراذلهم، وأما أشرافهم فيزنون سرًّا بمن يتخذون من الأخدان كما سبق بيانه في تفسير ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[١]»[٢].

وقال السعدي: «والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها؛ فإنه يتناول النهي عن مقدماتها، ووسائلها الموصلة إليها»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الفواحش الظاهرة والباطنة

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

ينظر ما يأتي في (الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية (٣٣).

* * *

---

(١) النساء: الآية (٢٥).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٨٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٥٠٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (٨/ ٣٧٦/ ٤٦٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١١٣-٢١١٤/ ٢٧٦٠)، والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٢-٣٤٣/ ١١١٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «وهذه الآية نهي عن قتل النفس المحرمة، مؤمنة كانت أو معاهدة إلا بالحق الذي يوجب قتلها. قال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فمن قال: لا إله إلا الله؛ فقد عصم ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابهم على الله**». وهذا الحق أمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة، وقد قاتل الصديق مانعي الزكاة، وفي التنزيل: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾[1]، وهذا بين. وقال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[2]. وقال ﵇: «**إذا بويع لخليفتين؛ فاقتلوا الآخر منهما**» **أخرجه مسلم**[3]. وروى أبو داود عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[4]. وسيأتي بيان هذا في (الأعراف). وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟﴾[5] الآية. وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[6] الآية.

وكذلك من شق عصا المسلمين، وخالف إمام جماعتهم، وفرق كلمتهم، وسعى في الأرض فسادًا بانتهاب الأهل والمال، والبغي على السلطان، والامتناع من حكمه؛ يقتل. فهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾. وقال ﵇: «**المؤمنون تتكافأ**

---

(١) التوبة: الآية (٥). (٢) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.

(٣) أخرجه: مسلم (٣/ ١٤٨٠/ ١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤/ ٦٠٧-٦٠٨/ ٤٤٦٢)، والترمذي (٤/ ٤٧/ ١٤٥٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦٤)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٥٥)، ووافقه الذهبي، من حديث ابن عباس ﵄.

(٥) المائدة: الآية (٣٣). (٦) الحجرات: الآية (٩).

دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل ملتين»[١]. وروى أبو داود والنسائي عن أبي بكر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«من قتل معاهدًا في غير كنهه؛ حرم اللَّه عليه الجنة»**[٢]. وفي رواية أخرى لأبي داود قال: **«من قتل رجلًا من أهل الذمة؛ لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا»**[٣]. في البخاري في هذا الحديث: **«وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**[٤] خرجه من حديث عبداللَّه بن عمرو بن العاص»[٥].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: والخامس مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم: أن لا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه قتلها بالإسلام، أو عقد الذمة أو العهد أو الاستئمان. فيدخل في عمومها كل أحد إلا الحربي.

ويطلق العهد على الثلاثة، ومنه ما ورد في النهي عن قتل المعاهد وإيذائه كقوله ﷺ: **«من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»** رواه البخاري من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما. وقوله ﷺ: **«من قتل معاهدًا له ذمة اللَّه وذمة رسوله؛ فقد أخفر بذمة اللَّه، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفًا»** رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هو ما يبيح القتل شرعًا كقتل القاتل عمدًا بشرطه.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى الوصايا الخمس التي تليت في هذه الآية، واللام فيها للدلالة على بعد مدى ما تدل عليه الوصايا المشار إليها؛ من الحكم والأحكام والمصالح الدنيوية والأخروية، أو بعدها عن متناول أوضاع الجهل والجاهلية، ولاسيما مع الأمية. . .

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٢)، وأبو داود (٤/ ٦٦٦-٦٦٩/ ٤٥٣٠)، والنسائي (٨/ ٣٨٧-٣٨٨/ ٤٧٤٨). قال الشيخ الألباني في الإرواء (٧/ ٢٦٧): «ورجاله رجال الشيخين»، عن علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦)، وأبو داود (٣/ ١٩١/ ٢٧٦٠)، والنسائي (٨/ ٣٩٣/ ٤٧٦١)، وصححه الحاكم (٢/ ١٤٢)، ووافقه الذهبي، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٧)، والنسائي (٨/ ٣٩٣-٣٩٤/ ٤٧٦٣) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وصححه الشيخ الألباني في غاية المرام (٤٥٠).

(٤) سيأتي تخريجه في الباب.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٣٣-١٣٤).

أي: وصاكم اللَّه بذلك لما فيه من إعدادكم وباعث الرجاء في أنفسكم؛ لأن تعقلوا ما فيه الخير والمنفعة في ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، فإن ذلك مما تدركه العقول الصحيحة بأدنى تأمل. وفيه دليل على الحسن الذاتي وإدراك العقول له بنظرها، وإذا هي عقلت ذلك كان عاقلًا لها ومانعًا من المخالفة. وفيه تعريض بأن ما هم عليه من الشرك، وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة، ولا تظهر للأنظار الصحيحة فيه مصلحة»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن قتل النفس بغير حق

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول الله؛ إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم في سورة (النساء) عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٣).

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم غريبه وفوائده في سورة (النساء) عند قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾(٥).

* * *

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦)، وأبو داود (٤/ ٥٢٢/ ٤٣٥٢)، والترمذي (٤/ ١٢-١٣/ ١٤٠٢)، والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤).

(٣) النساء: الآية (٩٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٦)، والبخاري (٦/ ٣٣١/ ٣١٦٦)، والنسائي (٨/ ٣٩٤/ ٤٧٦٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٩٦/ ٢٦٨٦). وفي الباب عن أبي هريرة وأبي بكرة رضي الله عنهما.

(٥) النساء: الآية (٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[١]

★ غريب الآية:

أَشُدَّهُ: الأَشُدّ: القوة والجلادة في البدن والعقل. وهو بلوغ سن النكاح والرشد. وهو في صيغة الجمع، ولم يسمع له مفرده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الأمين الشنقيطي: «قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم الغاية في قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، أنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التي هي أحسن، وليس ذلك مرادا بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أونس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[٢] الآية»[٣].

وقال السعدي: «فدل هذا على أنه قربانها والتصرف بها على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيمُ ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف. فإذا بلغ أشده؛ أعطي حينئذ ماله، وتصرف فيه على نظره.

وفي هذا دلالة على أن اليتيم -قبل بلوغ الأشد- محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد»[٤].

قال محمد رشيد رضا: «أي: والسادس مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم فيما حرم وأوجب عليكم: أن لا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره، أو تعاملتم به ولو بوساطة وصيه أو وليه إلا بالفعلة أو الأفعال التي هي أحسن ما يفعل بماله؛ من حفظه وتثميره وتنميته ورجحان مصلحته، والإنفاق منه على تربيته وتعليمه ما يصلح

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٢).

(٢) النساء: الآية (٦).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٤) تفسير السعدي (٢/ ٥٠١).

به معاشه ومعاده. والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه؛ لأنه يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إليه وتوقع فيه، وعن الشبهات التي تحتمل التأويل فيه، فيحذرها التقي، إذ يعدها هضما لحق اليتيم، ويقتحمها الطامع إذ يراها بالتأويل مما يحل له، لعدم ضررها باليتيم، أو لرجحان نفعها له على ضررها، كأن يأكل من ماله شيئًا بوسيلة له فيه ربح من جهة أخرى، في عمل لولاه لم يربح ولم يخسر . . .

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو غاية للنهي عن هذا القرب لماله، وما فيه من المبالغة في الترهيب عن التعامل فيه، أو غاية لما يتضمنه الاستثناء، وهو ما يقابل النهي من إيجاب حفظ ماله حتى منه هو، فإن الولي أو الوصي لا يجوز له أن يسمح لليتيم بتبديد شيء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه. وبلوغ الأشد عبارة عن بلوغه سن الرشد والقوة الذي يخرج به عن كونه يتيمًا أو سفيهًا أو ضعيفًا . . .

وأقول: إن المراد بالنهي عن قرب مال اليتيم؛ النهي عن كل تعد عليه، وهضم له من الأوصياء وغيرهم من الناس، خلافًا لمن جعل الخطاب فيه للأولياء والأوصياء خاصة، وحينئذ يظهر جعل حتى غاية للنهي، وجعل الأشد بمعناه اللغوي، وهو سن القوة البدنية والعقلية بالتجارب، والحديث العهد بالاحتلام يكون ضعيف الرأي قليل التجارب فيخدع كثيرًا. وقد كان الناس في الجاهلية - كأهل هذا العصر من أصحاب الأفكار المادية- لا يحترمون إلا القوة، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء، فلذلك بالغ الشرع في الوصية بالضعيفين المرأة واليتيم. وإنما كانت القوة التي يحفظ بها المرء ماله في ذلك الزمن قوة البدن مع الرشد العقلي، وهو قلما يحصل بمجرد البلوغ، وأما هذا الزمان فلا يقدر على حفظ ماله فيه إلا من كان رشيدًا في أخلاقه وعقله وتجاربه؛ لكثرة الغش والحيل، وإن سفه الشبان الوارثين في مصر مضرب المثل، فأكثر الشبان من أبناء الأغنياء مسرفون في الشهوات، فمتى مات من يرثونه أقبل على معاشرتهم أخدان الفسق وسماسرته ومنهومو القمار، فلا يتركونهم إلا فقراء منبوذين، وقلما يستيقظ أحدهم من غفلته إلا في سن الكهولة التي يكمل فيها العقل، وتعرف تكاليف الحياة الكثيرة، ويهتم فيها بأمر النسل، وقد اشترط الشرع لإيتاء اليتامى أموالهم سن الحلم والرشد معًا، وظهور رشدهم في المعاملات المالية بالاختبار بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ إلى

قوله: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[1]، وهذا خطاب للأولياء والأوصياء»[2].

قال ابن عاشور: «ووجه تخصيص حقّ اليتيم في ماله بالحفظ: أنّ ذلك الحقّ مظنّة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنة انعدام المدافع عنه؛ لأنه ما من ضعيف عندهم إلاّ وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده، فأمّا اليتيم فإنّ الاعتداء عليه إنما يكون من أقرب الناس إليه، وهو وليّه؛ لأنه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلاّ أقرب الناس إليه، وكان الأولياء يتوسّعون في أموال أيتامهم، ويعتدُون عليها، ويضيعون الأيتام لكيلا ينشؤوا نشأة يعرفون بها حقوقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[3]؛ لأنّ اليتيم مظنّة الإضاعة، فلذلك لم يوص اللّه تعالى بمال غير اليتيم؛ لأن صاحبه يدفع عن نفسه، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الخلطة باليتيم

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أنزل اللّه عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾[5] الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول اللّه ﷺ، فأنزل اللّه عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[6] فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه»[7].

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت بقية فوائده في (البقرة) الآية (٢٢٠).

* * *

---

(١) النساء: الآية (٦).
(٢) تفسير المنار (٨/ ١٨٩-١٩٠).
(٣) الضحى: الآية (٦).
(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١٦٤).
(٥) النساء: الآية (١٠).
(٦) البقرة: الآية (٢٢٠).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٥-٣٢٦)، وأبو داود (٣/ ٢٩١-٢٩٢/ ٢٨٧١)، والنسائي (٦/ ٥٦٧/ ٣٦٧١)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٧٩-٢٨٠) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾

★ **غريب الآية:**

بالقسط: بالعدل والإنصاف.

وسعها: الوسع: الطاقة والقدرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا، وأن أوفوا الكيل والميزان، يقول: لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم، وإيفاؤهم ذلك إعطاؤهم حقوقهم تامة بالقسط، يعني بالعدل. . .

وأما قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فإنه يقول: لا نكلف نفسًا من إيفاء الكيل والوزن إلا ما يسعها، فيحل لها ولا تحرج فيه، وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- علم من عباده أن كثيرًا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له، فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له، ولم يكلفه الزيادة؛ لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها، وأمر الذي له الحق بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما في النقصان عنه من ضيق نفسه، فلم يكلف نفسا منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾».

ثم قال: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾: وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم؛ فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة

لكم، ولا يحملنكم قرابة قريب، أو صداقة صديق، حكمتم بينه وبين غيره؛ أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول: وبوصية اللَّه التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسولهﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد اللَّه. وأما قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل للعادلين باللَّه الأوثان والأصنام من قومك: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآتين، هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها، لا بالبحائر والسوائب والوصائل والحام، وقتل الأولاد، ووأد البنات، واتباع خطوات الشيطان ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها لتتذكروا عواقب أمركم، وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتنزجروا عنها، وترتدعوا وتنيبوا إلى طاعة ربكم. وكان ابن عباس يقول: هذه الآيات هن الآيات المحكمات»[١].

قال أبو حيان: «قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ولما كانت الخمسة المذكورة قبل هذا من الأمور الظاهرة الجلية وجب تعقلها وتفهمها، فختمت بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذه الأربعة خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال؛ ختمت بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»[٢].

قال عبد الرحمن السعدي: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم في ذلك فإننا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بقدر ما تسعه ولا تضيق عنه، فمن حرص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير لم يفرط فيه ولم يعلمه؛ فإن اللَّه غفور رحيم. وبهذه الآية استدل الأصوليون: بأن اللَّه لا يكلف أحدًا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى اللَّه فيما أمر وفعل ما يمكنه من ذلك؛ فلا حرج عليه فيما سوى ذلك. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا تحكمون به بين الناس وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ في قولكم بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون،

(١) تفسير الطبري (٨/ ٨٦).
(٢) تفسير البحر المحيط (٤/ ٢٥٣).

والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه. فإن الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته؛ من الظلم المحرم. بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها منه. وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد؛ من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق. فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية اللَّه لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام»[1].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: والسابع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم: أن أوفوا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم، والميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون، أو لغيركم فيما تبيعون، فليكن كل ذلك وافيًا تامًّا بالقسط؛ أي: العدل، ولا تكونوا من المطففين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[2] أي: ينقصون الكيل والوزن وهم الذين توعدهم اللَّه بالويل والهلاك في أول السورة التي سميت باسمهم. فهذا هو النهي المقابل للأمر بالإيفاء وهو لازم له، فالجملة موجزة، فكلمة بالقسط هي التي بينت أن الإيفاء يجب أن يكون من الجانبين في الحالين؛ أي: أوفوا مقسطين أو ملابسين للقسط متحرين له، وهو يقتضي طرفين يقسط بينهما، فدل على أنه يجب على الإنسان أن يرضى لغيره ما يرضاه لنفسه، وأين الذين يدعون اتباع القرآن في هذا الزمان من هذه الوصية! لا تكاد تجد في المائة منهم في مثل بلادنا هذه بائعًا يوفي الكيل والميزان لمبتاع يسلم الأمر له ويرضى بذمته.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حكم ما يعرض لأهل

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ٥٠١-٥٠٢).

(٢) المطففين: الآيتان (٢ و ٣).

الدين والورع من الأمر بالقسط في الإيفاء، فإن إقامة القسط أمر دقيق جدا لا يتحقق في كل مكيل وموزون؛ إلا إذا كان بموازين كميزان الذهب الذي يضبط الوزن بالحبة وما دونها، وفي التزام ذلك في بيع الحبوب والخضر والفاكهة حرج عظيم، يخطر في بال الورع السؤال عن حكمه، فكان جوابه: أن اللَّه تعالى لا يكلف نفسًا إلا ما يسعها فعله، بأن تأتيه بغير عسر ولا حرج، فهو لا يكلف من يشتري أو يبيع ما ذكر من الأقوات ونحوها أن يزنه ويكيله؛ بحيث لا يزيد حبة ولا مثقالًا، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له أو عليه على حد سواء، بحسب العرف، بحيث يكون معتقدًا أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به عرفًا، وقاعدة اليسر وحصر التكليف بما في وسع المكلف وما يقابله من رفع الحرج ونفي العسر؛ من أعظم قواعد هذا الشرع المبني على أقوى أساس من الحق والعدل، فلا يساويه فيه قانون من قوانين الخلق، ولو عمل المسلمون بهذه الوصية لاستقامت أمور معاملتهم، وعظمت الثقة والأمانة بينهم، وكانوا حجة على غيرهم من المطففين والمفسدين، وما فسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم، وحل محلها ثقتهم بالأجانب الطامعين فيهم؛ إلا بترك هذه الوصية وأمثالها، ثم تجد بعض المارقين الجاهلين منهم يهذون ويقولون: إن ديننا هو الذي أخرنا وقدم غيرنا!!

وقد قص التنزيل علينا فيما قص من أنباء الأمم لنعتبر ونتعظ بها: أنه تعالى أهلك قوم شعيب بما كان من ظلمهم وفسادهم، ولاسيما التطفيف في الكيل والميزان. . . ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: والثامن مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم هو: أن تعدلوا في القول إذا قلتم قولًا في شهادة أو حكم على أحد، ولو كان المقول في حقه ذلك القول صاحب قرابة منكم؛ فالعدل واجب في الأقوال كما أنه واجب في الأفعال؛ كالوزن والكيل؛ لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركن العمران وأساس الملك، وقطب رحى النظام للبشر في جميع أمورهم الاجتماعية، فلا يجوز لمؤمن أن يحابي فيه أحدا لقرابته ولا لغير ذلك، وقد فصل اللَّه تعالى هذا الأمر الموجز بآتين مدنيتين أولاهما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[1] إلخ، والثانية قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

(١) النساء: الآية (١٣٥).

لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾(١) ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ أي: والتاسع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم: أن توفوا بعهد اللَّه دون ما خالفه، وهو يشمل ما عهده اللَّه تعالى إلى الناس على ألسنة رسله، وبما أتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة، وما يعاهده الناس عليه، وما يعاهد عليه بعضهم بعضًا في الحق موافقًا للشرع؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾(٢)، وقال: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾(٣)، وقال أيضًا وهو من الثاني: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾(٤)، وقال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾(٥)، وقال في صفات المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾(٦)؛ فكل ما وصى اللَّه به وشرعه للناس؛ فهو من عهده إليهم. ومن آمن برسول من رسله؛ فقد عاهد اللَّه بالإيمان به أن يمتثل أمره ونهيه، وما يلتزمه الإنسان من عمل البر بنذر أو يمين؛ فهو عهد عاهد ربه عليه كما قال في بعض المنافقين: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾(٧) إلخ، وكذلك من عاهد الإمام وبايعه على الطاعة في المعروف، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع، والسلطان يعاهد الدول؛ فكل ذلك مما يجب الوفاء به إذا لم يكن معصية، ولكن لا يعد من عهد اللَّه شيء من ذلك إلا إذا عقد باسمه أو بالحلف به، وكذا تنفيذ شرعه.

ومن نكت البلاغة هنا تقديم معمول الفعل ﴿أَوۡفُواْ﴾ عليه وهو يدل على الحصر، ولما لم يظهر الحصر لبعض المفسرين جعلوا التقديم لمجرد الاهتمام الذي هو الأصل في كل ما يقدم على غيره في هذه اللغة، وهذا عجز منهم ألجأهم إليه تفسيرهم للعهد بهذه الوصايا، أو بكل ما عهد اللَّه إلى الناس على أن تدخل هذه الوصايا فيه دخولًا أوّليًا. والأول باطل والثاني قاصر، أما بطلان الأول فلأن الوفاء بالعهد من الوصايا المقصودة المعدودة، وله معنى خاص، فلا يصح أن يجعل عين ما قبله. وأما قصور الثاني فظاهر مما ذكرنا من سائر أنواع العهد بالشواهد من القرآن؛ فالعهد إذا عام لكل ما شرع اللَّه للناس، وكل ما التزمه الناس

(١) المائدة: الآية (٨).
(٢) طه: الآية (١١٥).
(٣) يس: الآية (٦٠).
(٤) النحل: الآية (٩١).
(٥) البقرة: الآية (١٠٠).
(٦) البقرة: الآية (١٧٧).
(٧) التوبة: الآيتان (٧٥ و ٧٦).

مما يرضيه ويوافق شرعه، ويقابله ما لا يرضي اللَّه من عهد كنذر الحرام، والحلف على فعله ومعاهدة الحربيين وغيرهم على ما فيه ضرر للأمة، وهضم لمصالحها أو غير ذلك من المعاصي، فحصر اللَّه الأمر بالوفاء في الأول الذي يرضيه؛ ليخرج منه هذا الأخير الذي يسخطه. ونكتفي من السنة في تعظيم شأن هذه الوصية بحديث عبد اللَّه بن عمرو المرفوع في الصحيحين وغيرهما: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة؛ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . . . والمعنى ذلك المتلو عليكم في هذه الآية -من الأوامر والنواهي البعيدة مدى الفائدة ومسافة المنفعة لمن قام بها- وصاكم اللَّه به في كتابه رجاء أن تذكروا في أنفسكم ما فيها من الصلاح لكم، فيحملكم ذلك على العمل بها، أو رجاء أن يذكره بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذي أمر اللَّه به بمثل قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[2] ولكل من الذكر النفسي واللساني وجه هنا، ولا مانع من الجمع بينهما على مذهب الشافعية وابن جرير المختار عندنا، وكذا الجمع بينهما وبين معاني التذكر في القراءة الأخرى، والمعنى على هذه القراءة: وصاكم به رجاء أن يتكلف ذكر هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع؛ من كان كثير النسيان والغفلة، أو كثير الشواغل الدنيوية، أو رجاء أن يتذكرها المرة بعد المرة من أراد الانتفاع بها بتلاوة آياتها في الصلاة وغيرها، وبغير ذلك، أو رجاء أن يتعظ بها من سمعها وقرأها أو ذكرها أو ذكر بها، وبعض هذه الوجوه عام يطلب من كل مسلم، وبعضها خاص»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩-١٩٨)، والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥)؛ من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) العصر: الآية (٣).

(٣) تفسير المنار (٨/ ١٩٠-١٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

السبل: جمع سبيل، وهو الطريق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وهذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في هاتين الآيتين من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1] وأمركم بالوفاء به؛ هو صراطه، يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: قويما لا اعوجاج به عن الحق. ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجا تسلكونه فاتبعوه، (﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يقول: ولا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية، وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يقول: فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها عن سبيله؛ يعني: عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾: يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله لكم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾؛ وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه»[2].

وقال القرطبي: «هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٨٧-٨٨).

وأقاويل السلف فأمر باتباع طريقه الذي طرّقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايتُه الجنة.

وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: تميل.

روى الدارمي أبو محمد في مسنده بإسناد صحيح: أخبرنا عفان حدثنا حماد بن زيد حدثنا عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن عبد اللَّه بن مسعود قال: خط لنا رسول اللَّه ﷺ يومًا خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره ثم قال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها**» ثم قرأ هذه الآية.

وأخرجه ابن ماجه في سننه عن جابر بن عبد اللَّه قال: كنا عند النبي ﷺ فخطّ خطًّا، وخطّ خطّين عن يمينه، وخطّ خطّين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: «**هذا سبيل الله**» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام. هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية.

قلت: وهو الصحيح.

ذكر الطبري في كتاب آداب النفوس: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني قال: حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان أن رجلًا قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: «تَرَكَنا محمد ﷺ في أدناه وطرفُه في الجنة، وعن يمينه جَوَادّ وعن يساره جوادّ، وثَمَّ رجال يدعون مَنْ مرّ بهم فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة»، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الآية.

وقال عبد اللَّه بن مسعود: «تعلموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطّع والتعمّق والبدع، وعليكم بالعتيق». أخرجه الدارمي.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: البدع. قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾[1] الآية.

فالهرب الهرب، والنجاة النجاة! والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح.

روى الأئمة عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا**»...

وروى أبو داود قال: حدثنا ابن كثير قال: أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأل عن القدر؛ فكتب إليه: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى اللَّه والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسول اللَّه ﷺ، وترك ما أحدث المحدِثون بعد ما جرت به سنته، وكُفُوا مؤونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن اللَّه عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها؛ فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطإ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه فقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلموا فيه بما يكفي ووصفوا ما يشفي؛ فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من مجسر، وقد قصر قوم دونهم فجَفَوْا، وطمح عنهم أقوام فغَلَوْا، وإنهم مع ذلك لعلى هدىً مستقيم. وذكر الحديث.

وقال سهل بن عبد اللَّه التستري: عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحوال ذمّوه ونفروا عنه وتبرؤوا منه وأذلّوه وأهانوه.

قال سهل: إنما ظهرت البدعة على يدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم؛ فظهرت أقاويلهم وفشت في العامة فسمعه من لم يكن يسمعه، فلو تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما في صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره.

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٩).

وقال سهل: لا يحدث أحدكم بدعة حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخَذْمَة.

قال سهل: لا أعلم حديثًا جاء في المبتدعة أشد من هذا الحديث: «حجب اللَّه الجنة عن صاحب البدعة». قال: فاليهودي والنصراني أرجى منهم.

قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلُوَن بالنسوان، ولا يخاصمنّ أهل الأهواء.

وقال أيضًا: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم.

وفي مسند الدارمي: أن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد اللَّه بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا شيئًا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرًا، قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيتُ في المسجد قومًا حِلَقًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة؛ في كل حَلْقة رجل وفي أيديهم حصىً فيقول لهم: كبّروا مائة؛ فيكبرون مائة. فيقول: هلّلوا مائة؛ فيهلّلون مائة. ويقول: سبّحوا مائة؛ فيسبحون مائة. قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئًا؛ انتظار رأيك وانتظار أمرك. قال: أفلا أمرتَهم أن يعدّوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم. ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق؛ فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصىً نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء، وَيْحكم يا أمة محمد! ما أسرع هَلْكَتكم. أوَ مُفتَتِحِي باب ضلالة! قالوا: واللَّه يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه...

وقال الشعبي: إنما سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون في النار. كله عن الدارمي.

وسئل سهل بن عبد اللَّه عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم. فقال: لا، ولا كرامة! هم كفار، كيف يؤمن من يقول: القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة، ولا لله صراط ولا شفاعة، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبي أمة محمد ﷺ، ولا عذاب القبر ولا منكر

ولا نكير، ولا رؤية لربنا في الآخرة ولا زيادة، وأن علم اللّه مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة، ويكفرون من يؤمن بهذا.

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط اللّه عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه. وقد تقدم هذا من كلامه وزيادة.

وقال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

وقال ابن عباس: النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة؛ عبادةٌ.

وقال أبو العالية: عليكم بالأمر الأول الذي كانوا عليه قبل أن يفترقوا.

قال عاصم الأحول: فحدثت به الحسن فقال: قد نصحك واللّه وصدقك...

ومضى في (النساء) وهذه السورة النهي عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾[1] الآية.

ثم بين في سورة (النساء) وهي مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر اللّه به فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] الآية. فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة، وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة؛ منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك؛ فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا أُلْحِق بهم، يعنون في الحكم.

وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مُجالس شَرَبة الخمر، وتلا: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

قيل له: فإنه يقول: إني أجالسهم لأباينهم وأرد عليهم. قال: يُنهى عن مجالستهم، فإن لم ينته أُلْحِق بهم»[3].

قال صديق حسن خان: «هذه الآية الشريفة ما أوضحها في رد التقليد والنهي

(١) الأنعام: الآية (٦٨). (٢) النساء: الآية (١٤٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٣٧-١٤٢).

عنه، وذم الرأي والهوى، والدعاية إلى صراط الهدى، وأن هذا وصية من رب العالمين لقوم مؤمنين.

فباللَّه عليك أيها العادل المنصف، قل لي؛ هذه المذاهب المبتدعة، والمشارب المستحدثة في ملة الإسلام، البالغة إلى اثنتين وسبعين فرقة، هل يصدق عليها أنها سبل؟ وأن أصحابها أتباع لتلك السبل؟ أم هذه كلها سبيل واحد، يصدق عليه أنه صراط اللَّه، أو صراط الرسول المستقيم؟

وهل تفرقت تلك الفروع بهم عن سبيله تعالى ورسوله، أم جمعتهم على طريق واحد، هو اتباع الكتاب والسنة؟

وهل عمل المقلدة للمذاهب الأربعة وغيرها بهذه الوصية العليا، النازلة من السماء، أم خالفوها باختيار التقليدات، وإيثار المجتهدات، لاسيما فيما طريقه ظهور الأدلة القرآنية الشريفة، والنصوص الحديثية المنيفة؟

وهل في الدنيا من يصدق عليه أنه متمسك بمنطوق هذه الآية الكريمة غير عصابة المحدثين، وجماعة الأثريين؟. ألا ترى ماذا وقع في المذاهب الأربعة من الاختلاف في أحكام العبادات والمعاملات؟ يرد أحدهم على غيره في كل رسالة وكتاب ويؤيد كل منهم فرعه وأصله بكل حشيش وحطب، ويقول -بعد ما حرر مذهبه-: خلافًا لمالك، خلافًا للشافعي، خلافًا لأحمد، وكذا من يخاصمه من غير أهل مذهبه. فما هذا إلا اتباع السبل، وقد نهى اللَّه سبحانه عنه نهيًا لا سترة عليه ولا غبار فيه.

فإن كنت ممن فيه بقية من الحياء، فاختر لنفسك الإنصاف باتباع السبيل الواحد الذي كان عليه سلف هذه الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين، والأربعة المجتهدين، وسائر المحدثين المتبعين. ولا تتبع هذه السبل الحادثة في الدين، منذ زمن كثير؛ فتفرق بك عن سبيل اللَّه المستقيم، وصراطه القويم. واتق اللَّه يا هذا في قبول هذه الوصية، من مالك يوم الدين، لعلك تفلح، وحالك يصلح، في يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين. وإن كنت ممن لا خلاق له من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه، فالأمر إليك، والوزر عليك، وما علينا إلا البلاغ»[1].

---

(١) الدين الخالص (٣/ ٢٠٢-٢٠٣).

قال محمد رشيد رضا: «أي: والعاشر مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم هو: أن هذا الذي أدعوكم إليه من الدين القويم، والشرع الحنيفي العذب المورد، السائغ المشرب، بما تلوته عليكم من هذه السورة المشتملة على هذه الوصايا التي لا يكابر ذو مسكة من عقل في حسنها وفضلها، أو إن هذا القرآن الذي أدعوكم إليه وأدعوكم به إلى ما يحييكم: هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه إلى مرضاة اللَّه تعالى، ونيل سعادة الدنيا والآخرة، أشير إليه مستقيما ظاهر الاستقامة لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه وهي كثيرة، فتتفرق بكم عن سبيله بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها إلى الهلكة، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمام تارك النور إلا الظلمات. وقد أضيف الصراط بهذا المعنى إلى اللَّه تعالى، إذ هو الذي شرعه وإلى الدعاة إليه والسالكين له من النبيين وغيرهم في سورة (الفاتحة). والظاهر أن إضافته هنا إلى النبي ﷺ؛ لأنه هو المخاطب للناس بهذه الوصية وفعلها مسند إليه تعالى بضمير الغيبة.

وقد جمع في هذه الوصية الجامعة بين الأمر بالحق والنهي عن مقابله وهو الباطل»[1].

وقال أيضًا: «وقد أفرد الصراط المستقيم وهو سبيل اللَّه، وجمع السبل المخالفة له؛ لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير، فيشمل الأديان الباطلة من مخترعة وسماوية محرفة ومنسوخة، والبدع والشبهات، وبها فسرها مجاهد هنا، والمعاصي كما في حديث النواس بن سمعان. وقد نهى عن التفرق في صراط الحق وسبيله، فإن التفريق في الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب، ينصرونه ويتعصبون له، ويخطئون ما خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال، أو الكفر أو الابتداع، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه؛ لأن كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفيها، لا في الحق لذاته، والاستعانة على استبانته وفهم نصوصه ببحث أي عالم من العلماء، بغير تعصب ولا تشيع، والحق لا يمكن أن يكون وقفا محبوسا من عند اللَّه تعالى على عالم معين وعلى أتباعه، فكل باحث من العلماء يخطئ ويصيب، وهذا أمر

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٩٤).

قطعي ثابت بالعقل والنقل والإجماع، ولكن جميع المتعصبين للمذاهب الملتزمين لها مخالفون له، ومن كان كذلك لم يكن متبعا لصراط اللّٰه الذي هو الحق الواحد، وهذا ظاهر فيهم؛ فإنهم إذا دعوا إلى كتاب اللّٰه، وإلى ما صح من سنة رسوله؛ أعرضوا عنهما وآثروا عليهما قول أي مؤلف لكتاب منتمٍ إلى مذاهبهم.

ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه هو الحق الموحد لأهل الحق، الجامع لكلمتهم وتوحيدهم، وجمع كلمتهم هو الحافظ للحق المؤيد له والمعز لأهله؛ كان التفرق فيه بما ذكر سببًا لضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم. فبهذا التفرق حل بأتباع الأنبياء السابقين ما حل من التخاذل والتقاتل، والضعف وضياع الحق، وقد اتبع المسلمون سننهم شبرا بشر وذراعا بذراع، حتى حل بهم من الضعف والهوان ما يتألمون منه ويتململون، ولم يردعهم عن ذلك ما ورد في التحذير منه في كتاب اللّٰه تعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين، ولا ما حل بهم من البلاء المبين، ولم يبق بينهم وبين من قبلهم فرق إلا في أمرين:

أحدهما: حفظ القرآن من أدنى تغيير وأقل تحريف، وضبط السنة النبوية بما لم يسبق له في أمة من الأمم نظير.

وثانيهما: وجود طائفة من أهل الحق في كل زمان تدعو إلى صراط اللّٰه وحده، وتتبعه بالعمل والحجة، كما بشر به ﷺ. ولكن هؤلاء قد قلوا في القرون الأخيرة، وكل صلاح وإصلاح في الإسلام متوقف على كثرتهم، فنسأله تعالى أن يكثرهم في هذا الزمان ويجعلنا من أئمتهم، فقد بلغ السيل الزبى»[1].

وقال أيضًا: «﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: ذلكم الأمر باتباع صراط الحق المستقيم، والنهي عن سبل الضلالات والأباطيل المعوجة، وهو جامع الوصايا النافعة البعيد المرمى، الموصل إلى ما لا يحيط به الوصف من السعادة العظمى؛ وصاكم اللّٰه به ليعدكم ويهيئكم لما يرجى لكل من اتبعه من اتقاء كل ما يشقيه ويرديه في دنياه وآخرته. قال أبو حيان: ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق؛ ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على

(١) تفسير المنار (٨/ ١٩٥-١٩٦).

السعادة السرمدية.

وأقول: إن كلمة التقوى تشمل كل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه. وقد ذكرت في التنزيل في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات، وآداب وقتال وسنن اجتماع، وطعام وشراب، وعشرة وزواج، وغير ذلك فهي تفسر في كل موضع بحسبه كما بيناه من قبل. وهي في هذا الموضع تشمل جميع الأنواع؛ لأنها جاءت في سياق اتباع صراط اللَّه المستقيم، الشامل لجميع أنواع الهداية الشخصية والاجتماعية»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في التحذير من البدعة، والحث على السنة

* عن عبد اللَّه ﵁ قال: خط لنا رسول اللَّه ﷺ يومًا خطًّا -وخطه لنا عاصم- فقال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطًا عن يمين الخط وعن شماله، فقال: «**هذه السبل وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ للخط الأول ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ للخطوط ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[(٢)].

* عن جابر بن عبد اللَّه ﵄ قال: كنا عند النبي ﷺ فخط خطًّا، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: «**هذا سبيل اللَّه**، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[(٣)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال أبو الفرج الجريري: «وهذا القول من النبي ﷺ والتمثيل؛ من أبين الأقوال

(١) تفسير المنار (٨/ ١٩٧).
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٥و٤٦٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣/ ١١١٧٤-١١١٧٥) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ١٨٠-١٨١/ ٦-٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٨)، ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩٧)، وابن ماجه (١/ ٦/ ١١). وصححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٣/ ١٦) لشواهده.

البليغة وأفصحها، وأرصن الأمثال البليغة المضروبة الصحيحة وأوضحها، وذلك أنه خط خطًّا جعله مثل الصراط في استقامته، إذ لا زيغ فيه ولا ميل، ثم خط خطوطًا يمنة وشأمة آخذة في غير سمته وجهته، تفرق بمن سلكها واتبعها عن السبيل التي هي سبيل الهدى والنجاة من ورديات الهوى، وبهذا جاء وحي الله وتنزيله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال -جل ذكره-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[1] فدل هذا على مثل ما دلت عليه الآية التي تلاها رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾[2]، وقال: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[3]، في كثير مما يضاهي هذا المعنى»[4].

قال الشاطبي: «فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، ليس المراد سبل المعاصي؛ لأن المعاصي من حيث هي معاصٍ؛ لم يضعها أحد طريقًا تسلك دائمًا على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات... وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: «البدع والشبهات»، وعن عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنس عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ قال بكر بن العلاء: يريد إن شاء الله حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ خط له خطًّا... وذكر الحديث.

فهذا التفسير يدل على شمول الآية لجميع طرق البدع، لا تختص ببدعة دون أخرى»[5].

وقال ابن القيم: «والصراط ما جمع خمسة أوصاف؛ أن يكون طريقًا مستقيمًا، سهلًا، مسلوكًا، واسعًا، موصلًا إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومن تأمل موارد

(١) الشورى: الآية (١٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٣) المؤمنون: الآية (٥٣).
(٤) الجليس الصالح (١/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٥) الاعتصام (١/ ٧٦-٨٠).

الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك»[١].

وقال: «وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟ فنذكر فيه قولًا وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد وهو طريق اللَّه الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول، وهذا معنى قول بعض العارفين إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه. فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده: أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا اللَّه. والثاني: يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث اللَّه به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول اللَّه ظاهرًا وباطنًا، علمًا وعملًا، ومعنى قول من قال: الإقرار للَّه بالوحدانية والاستقامة على أمره. وأما ما عدا هذا من الأقوال، كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها؛ فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له، بل هي جزء من أجزائه. وحقيقته الجامعة ما تقدم، واللَّه أعلم»[٢].

وقال القاري: «فيه إشارة إلى أن سبيل اللَّه وسط ليس فيه تفريط ولا إفراط، بل فيه التوحيد والاستقامة، ومراعاة الجانبين في الجادة، وسبل أهل البدع مائلة إلى الجوانب، وفيها تقصير وغلو وميل وانحراف وتعدد واختلاف، كالقدرية والجبرية والخوارج والروافض والمعطلة والمشبهة»[٣].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٠-٤١).
(٣) المرقاة (١/ ٤١١).

وقال الطيبي: «"هذا سبيل الله" وقوله: "هذا صراطي" أضيف إلى رب العزة، وعرف تفخيمًا وتعظيمًا لشأنهما، ونكر حين نسب إلى رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] مدحًا، وثبوتها بشأن رسوله ﷺ؛ أي: أنك على صراط، وتهدي إلى صراط؛ أي: صراط اللَّه العزيز الحميد، ثم عرف في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[3] تعليمًا للعباد، وإرشادًا لهم إلى طلب هذه[4] البغية السنية، والرفعة العلية، والثبات عليها، والمواظبة لها، ولرفعة شأنهما جيء بالفاء في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾[5] وإلى هذا الصراط لمح رسول اللَّه ﷺ في حديث عبد اللَّه بن عمرو بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»[6] وفي حديث معاوية بقوله: «وهي الجماعة»[7] وتلك الخطوط التي خطت على اليمين والشمال مشار بها إلى مذاهب أهل الأهواء والبدع الذين تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة.

فإن قلت: ما وثوقك على أنك على الصراط المستقيم؟ فإن كل واحد من الفرق يدعي أنه عليها دون غيره. قلت: ليس ذلك بالادعاء والتشبث باستعمال الوهم القاصر، والقول الزاعم؛ بل بالنقل عن جهابذة هذه الصنعة، وعلماء أهل الحديث، الذين جمعوا صحاح الحديث في أمور رسول اللَّه ﷺ، وأحواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، وكذا أحوال الصحابة من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، مثل جامع الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم ابن حجاج، وغيرهما من الثقات المشهورين، الذين اتفق أهل الشرق والغرب على صحة ما أوردوه في كتبهم من أمور النبي وأصحابه، ومن تكفل باستنباط معانيها،

---

(١) الزخرف: الآية (٤٣).
(٢) الشورى: الآية (٥٢).
(٣) الفاتحة: الآية (٦).
(٤) في الأصل: هذا.
(٥) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٦) رواه: الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»، والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩)، وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف، والحديث حسن بشواهده المتقدمة.
(٧) رواه: أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٥/ ٥-٦/ ٤٥٩٧)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وقال عقبه -وقد ساقه كشاهد لحديث أبي هريرة-: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»، وحسن الحافظ إسناده في تخريج الكشاف (١/ ٤٤٩ هامش تخريج الكشاف للزيلعي).

وكشف مشكلاتها، كالإمام أبي سليمان الخطابي، والإمام محيي السنة أبي محمد البغوي والإمام محيي الدين النووي جزاهم اللَّه عن المسلمين خيرًا، وجعل سعيهم في الدين مشكورًا، ثم بعد النقل ينظر من ذا الذي تمسك بهديهم، واقتفى أثرهم، واهتدى بسيرتهم في الأصول والفروع، فنحكم من الذين هم هم. واللَّه أعلم بالصواب»[(١)].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وعباد القبور وسائر أهل الملل والأوثان، والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء، والتعمق في الجدل والخوض في الكلام. فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلى موافقة أصحاب الجحيم كما قال النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» وفي رواية: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٢)] حديث صحيح»[(٣)].

وفي الحديث دليل على أن من شأن كل مخالف للطريق المستقيم أن يدعو غيره إليها لقوله ﷺ: «**وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**».

وفيه أن فضل الاستقامة ولزوم الطريق المستقيم، إنما يظهر بالإعراض عن دعوات أهل السبل المضلة.

* عن النواس بن سمعان ؓ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور وداعٍ يدعو على رأس الصراط، وداعٍ يدعو فوقه، واللَّه يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والأبواب التي على كنفي الصراط حدود اللَّه، فلا يقع أحد في حدود اللَّه حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه**»[(٤)].

---

(١) شرح المشكاة (٢/ ٦٣٥-٦٣٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٢-١٨٣)، والترمذي (٥/ ١٣٣/ ٢٨٥٩) وقال: «حسن غريب» كما في تحفة الأشراف (٩/ ٦١) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١/ ١١٢٣٣)، والحاكم (١/ ٧٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة»، ووافقه الذهبي.

★ **غريب الحديث:**

كنفي الصراط: أي على جانبيها.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «فضرب مثلًا لخمسة: صراط، أبواب، ستور، داعٍ على رأس الصراط، داع من فوقه.

فالأول: هو الصراط مثل عن الطريق الجادة لكل معنى مستقيم؛ كالهدى والدين والإيمان بالله والعدل ونحو ذلك، وهو عبارة عما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة والمعصية إليه سبيل، مما عليه سلف الأمة، وشهدت له شواهد العبرة، يفضي بصاحبه إلى التوحيد، ويعينه في الطاعة على بذل المجهود.

الثاني: الأبواب وهي تحتمل في التمثيل معاني كثيرة، لكنه قد فسرها بالحدود، فتعينت من جملة المحتملات في الحدود.

الثالث: قوله: مفتحة، وإنما وصفها بالفتح؛ لأن الشهوات إليها شارعة، والنفس نحوها نازعة، والسبل سهلة لينة، كما روي أن «الجنة حزن بربوة، وأن النار سهل بشهوة[١]»[٢].

الرابع: الستور، وهي مثل لكل حاجز عن الحرام، حاجب عن المحظور؛ من دين ومروءة، وحياء وهمة وعار وعفة.

---

(١) كذا في الأصل: «بشهوة» وهو موافق لما في مسند الشهاب، لكن رواها الإمام أحمد وغيره بلفظ: «بسهوة» وأوردها ابن الأثير في النهاية (٢/ ٤٣٠) بالسين المهملة وقال: «السهوة: الأرض اللينة التربة شبه المعصية في سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حزونة فيها» وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٥/ ١٠): «والصواب ما قال».

(٢) رواه: أحمد (١/ ٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩٩-٢٠٠/ ١١٨٠)، وإسحق في مسنده كما في لسان الميزان (٦/ ١٧٢) من حديث ابن عباس ﷺ، وفي إسناده نوح بن جعونة.

قال الذهبي في الميزان (٤/ ٢٧٥): «أجوز أن يكون نوح بن أبي مريم أتى بخبر منكر، ففي مسند الشهاب...» فذكر هذا الحديث. وقال الحافظ في اللسان (٦/ ١٧٣): «وقد أجمعوا على تكذيبه».

ورواه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٢٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٧٠/ ١٤٦١)، والقضاعي (٢/ ٣٠٨/ ١٤٢٣) من حديث ابن البجير أو أبي البجير. وفي إسناده سعيد بن سنان وهو متروك، ورماه الدارقطني وغيره بالوضع.

الخامس: الداعي وهو مثل للنبي وخلفائه.

السادس: الداعي الذي من فوقه، وهو الواعظ، إما من تهديد، وإما من زجر باستيفاء الحدود، وإما من خوف اليوم المشهود»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فقد بين في هذا الحديث العظيم -الذي من عرفه انتفع به انتفاعًا بالغًا إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة- أن في قلب كل مؤمن واعظًا، والوعظ هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معمورًا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: «إن في قلب المؤمن سراجًا يزهر». وفي الحديث الصحيح: «**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ**»[2]، فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولاسيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على اللَّه ورسوله، فإن الدجال أكذب خلق اللَّه، مع أن اللَّه يجري على يديه أمورًا هائلة ومخاريق مزلزلة، حتى إن من رآه افتتن به، فيكشفها اللَّه للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[3] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورًا على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن»[4].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٩/ ٢٩٣٤[١٠٥]) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٣) النور: الآية (٣٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما أخبر اللَّه تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[1]، وقوله في أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[2]، وبعدها ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[3] الآية، وقال تعالى مخبرًا عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾[4]، وقال تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملا جامعا لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[6]. وقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[7]، وكقوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[8]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟

(١) الأحقاف: الآية (١٢).
(٢) الأنعام: الآية (٩١).
(٣) الأنعام: الآية (٩٢).
(٤) القصص: الآية (٤٨).
(٥) الأحقاف: الآية (٣٠).
(٦) الأعراف: الآية (١٤٥).
(٧) الرحمن: الآية (٦٠).
(٨) البقرة: الآية (١٢٤).

وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال محمد رشيد رضا: «كانت الوصايا العشر في الآيات الثلاث التي قبل هذه الآيات؛ من حجج اللَّه الأدبية على حقية دينه القويم، ووجوب اتباع صراطه المستقيم، قفى بها على ما قبلها من الحجج العقلية على أصول هذا الدين، ودحض شبهات المعاندين والممترين، ولما كملت بذلك حجج السورة وبيناتها؛ حسن أن ينبه هنا على مكانة القرآن في جملة من الهداية ووجوب اتباعه، وإعذار المشركين بما يعلمون به أنه لن يكون لهم عذر عند اللَّه تعالى على ضلالهم بالجهل، وعدم إرسال رسول إذا هم لم يتبعوه. وقد افتتح هذا التنبيه والتذكير والإعذار بذكر ما يشبه القرآن في شرعه ومنهاجه، مما اشتهر عند مشركي العرب، وهو كتاب موسى ﷺ، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق في هذه السورة وغيرها الجمع بين ذكر التوراة والقرآن للتذكير بالتشابه بينهما؛ لأن العرب كانوا يعلمون أن اليهود المجاورين لهم أهل كتاب اسمه التوراة، ولهم رسول اسمه موسى، وأنهم أهل علم وشريعة، وكان بعض عقلائهم يتمنى لو يؤتى العرب مثلما أوتي اليهود، ويقولون: إنه لو جاءهم كتاب مثل كتابهم لكانوا أهدى منهم وأعظم انتفاعًا؛ لما يعتقدون من امتيازهم عليهم بالذكاء والعقل وعلو الهمة»[(٣)].

* * *

---

(١) السجدة: الآية (٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة»[١].

قال محمد رشيد رضا: «أي: وهذا القرآن الذي يتلى عليكم كتاب عظيم القدر، فتنكيره للتعظيم، أنزلناه كما أنزلنا الكتاب على موسى، جامع لكل أسباب الهداية الثابتة الدائمة النامية الزائدة على ما في كتاب موسى، فالمبارك من البركة وهي الزيادة والنماء في الخير، . . . ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: فاتبعوا ما هداكم إليه، واتقوا ما نهاكم عنه وحذركم إياه؛ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم في الدنيا والآخرة، فإن الكتاب هدى ورحمة كما صرح به فيما يلي تعليلا لإنزاله»[٢].

وقال السعدي: «وَهَٰذَا القرآن العظيم، والذكر الحكيم. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمرا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علما وعملا»[٣].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٥).
(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٠٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٥٠٥).

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صدف: أي: أعرض إعراضًا شديدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «تقدم مثل هذا التعليل الذي معناه قطع طريق التعلل والاعتذار، والمعنى -على الخلاف في تقدير متعلق (أن)- أنزلناه لئلا تقولوا، أو كراهة أن تقولوا، أو منعًا لكم من أن تقولوا يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم وإجرامكم: إنما أنزل الكتاب الهادي إلى توحيد اللّه ومعرفته وطريق طاعته وتزكية الأنفس من دنس الشرك والرذائل على طائفتين من قبلنا، وهم اليهود والنصارى، وأن حقيقة حالنا وشأننا أننا كنا غافلين عن دراستهم وتعليمهم؛ لجهلنا بلغاتهم وغلبة الأمية علينا -والحصر إنما يصح بالإضافة إليهم، أو بحسب علمهم بحال الطائفتين لمجاورتهم لهم- ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ﴾ لأننا أذكى أفئدة وأعلى همة وأمضى عزيمة، وقد قالوا هذا في الدنيا كما حكاه تعالى عنهم في آخر سورة (فاطر) بقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1] إلخ، وهذا التأكيد بالقسم مبني على اعتقادهم

(١) فاطر: الآيتان (٤٢ و ٤٣).

أنهم أكمل البشر فطرة وأعلاهم استعدادًا لكل فضيلة، وكان اعتقادا راسخا في عقولهم متمكنا من وجدانهم، ومن أدلته ما رواه التاريخ لنا من المفخرات بين بعض العرب والفرس، وإذا كانت قبائل العرب كلها تعتقد أن شعبهم أزكى من جميع الأعاجم فطرةً، وأذكى أفئدةً وأعز أنفسًا وأكمل عقولًا وأفهامًا وأفصح ألسنةً وأبلغ بيانًا؛ فما القول بقريش التي دانت لها العرب واعترفت بفضلها على غيرها منهم؟ ولكن جمهور سادة قريش وكبراؤها قد استكبروا بذلك وعتوا عتوًّا كبيرًا، حتى كذبوا بأعظم ما فضل اللَّه به جيلهم وقومهم على جميع الأجيال والأقوام بالحق، وهو القرآن، وصدوا عنه وصدفوا عن آياته، فكان إقسامهم أنهم لو جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم المجاورة لهم، حجة عليهم، وإن صدق على غيرهم من قريش ومن سائر العرب الذين اهتدوا بالكتاب، فسادوا به جميع الأمم، وكانوا أئمة لها في دينها ودنياها ما كانوا مهتدين به معتصمين بحبله، وإذا كان ذلك القسم صادرا عن عقيدة راسخة؛ فلا جرم أنه لو لم يأتهم النذير بهذا الكتاب المنير لاعتذروا في الآخرة بهذا العذر على أن المعاندين منهم ظلوا يطالبون النذير الذي جاءهم به بمثل ما أتى به من قبله من الآيات الكونية، وهو -أي: الكتاب- أقوى منها دلالة على النبوة؛ لأن دلالته علمية عقلية، ودلالتها وضعية أو عادية، على أنها تشتبه بالسحر والشعوذة وسائر الغرائب الصناعية ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هذا هو الجواب القاطع لكل تعلة وعذر، فإن القرآن بينة عظيمة كاملة من وجوه متعددة، فتنكير البينة وما بعدها للتعظيم، إذ البينة ما تبين به الحق وهو مبين للحق في العقائد بالحجج والدلائل، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام؛ بما تصلح به أمور البشر وشؤون الاجتماع، وهدى كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته، فإنه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحق الذي قرره، وإلى عمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه، ورحمة عامة للبشر الذين تنتشر فيهم هدايته، وتنفذ فيهم شريعته، حتى الخاضعين لأحكامها من غير المؤمنين به، فإنهم يكونون آمنين في ظلها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، أحرارا في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم، عائشين في وسط خال من الفواحش والمنكرات، التي تفسد الأخلاق وتولد الأمراض. وأما المؤمنون به فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعًا، هكذا كان وهكذا يكون.

وإنما أنزلت هذه الآية في هذه السورة والمؤمنون قليلون مضطهدون، والجماهير مكذبون والرؤساء يصدون عن الكتاب ويصدفون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الاستفهام هنا إنكاري أي: وإذا كانت آيات اللَّه مشتملة على ما ذكر من البينة الكاملة والهداية الشاملة والرحمة الخاصة والعامة؛ فلا أحد أظلم ممن كذب بها وأعرض عنها، ولم يكتف بصدوفه عنها، وحرمان نفسه منها، بل صدف الناس أي: صرفهم وردهم أيضًا؛ كما كان يفعل كبراء مجرمي قريش بمكة في أثناء نزول هذه السورة: كانوا يصدفون العرب عن النبي ﷺ، ويحولون بينه وبينهم لئلا يسمعوا منه القرآن فينجذبوا إلى الإيمان؛ كما قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] وتقدم في أوائل هذه السورة. فصدف بمعنى صد، واستعمل مثله لازمًا ومتعديًا وفي معناهما الصرف والصدغ، ولا مانع عندي من استعمال صدف هنا لازمًا متعديًا كما كانت حال أولئك الكبراء من قريش وسائر قبائل العرب، الذين اقتدوا بهم في صد الناس عن سماع القرآن، ومنع الرسول ﷺ من تبليغ الدعوة. وهذا أقرب من استعمال المشترك في معنيين أو أكثر من معانيه، إذا كانت العبارة تحتمل ذلك. . .

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي: سنجزي الذين يصدفون الناس ويردونهم عن آياتنا والاهتداء بها سوء العذاب؛ بسبب ما كانوا يجرون عليه من الصدف عنها والاستمرار عليه، فإنهم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفوهم عن الحق، وحالوا بينهم وبين سبب الهداية. وقد وضع الموصول موضع الضمير فقال: سنجزي الذين يصدفون، ولم يقل سنجزيهم ليعلم أن هذا الوعيد إنما هو على الصدف الذي هو قطع طريق الحق على المستعدين لاتباعه؛ لأنهم بهذا كانوا أظلم الناس كما دل عليه الاستفهام الإنكاري في أول الآية، لا على مجرد ظلمهم لأنفسهم بالتكذيب، وقد أكد ذلك بالتصريح بالسبب، ولم يكتف بدلالة صلة الموصول عليه، فهو بمعنى قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[2] أي: زدناهم عذابًا سيئًا شديدًا بصدهم الناس عن سبيل اللَّه فوق العذاب على

---

(١) الأنعام: الآية (٢٦).	(٢) النحل: الآية (٨٨).

كفرهم بسبب إفسادهم في الأرض بهذا الصد عن الحق. وقال في الآية التي بعد هذه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] فهاتان الآيتان من سورة (النحل) بمعنى آية سورة (الأنعام)»[2].

قلت: هكذا القرآن، يبين جزاء الصادين عن الكتاب والسنة والتوحيد والمعرفة الصحيحة والعلم النافع، وحب اللَّه وحب رسوله، وحب أصحاب نبيه وحب العلماء المخلصين من سائر الأمة، فكثر في زماننا هذا النوع من الصد بشتى أنواع الوسائل وقد ذكرت بعضها في كتابي «الاعتصام» عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[3] فأبلغتها إلى عشرين، فراجعها إن شئت، وواقعنا المعاصر من أوله إلى آخره هو صد عن سبيل اللَّه، في كل جزئياته وكلياته، وحتى من تحسن بهم الظن وتظن أنهم يفتحون الأبواب أمام الدعوة إلى الإسلام ولربما لقبوا بأفخم الألقاب، ومع ذلك تجدهم من المحاربين للَّه ولرسوله، إلا من وفقه اللَّه له وانتقاه، وهم نفس يسير قليل في هذا الزمان، واللَّه المستعان.

وقد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا ما حصل من نقمة للصادين، وقرأنا ذكر القرآن لأخبارهم، من ذلك قوم نوح، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط، وفرعون، وقارون وشيعته، وهامان ومن معه، وكفار قريش، وأهل الرفض، في كل زمان يعطيهم اللَّه ويسلط عليهم من الأذى ما ليس لهم في الحسبان، ومن قرأ التاريخ وفحصه وتمعن فيه ونظر في واقعه يمنة ويسرة يجد ذلك واقعا بالعين المجردة.

قال شيخ الإسلام: «فذكر سبحانه أنه يجزي الصادف عن آياته مطلقا، سواء كان مكذبًا أو لم يكن، ﴿سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، يبين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر، سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعًا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء به فهو كافر، وقد يكون كافرًا من لا يكذبه إذا لم يؤمن به.

---

(١) النحل: الآية (٨٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٠٤-٢٠٧).

(٣) الفرقان: الآية (٣٠).

ولهذا أخبر اللَّه في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين»[١].

* * *

(١) درء التعارض (١/ ٥٦).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى متوعدا للكافرين به، والمخالفين رسله والمكذبين بآياته، والصادين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها كما قال البخاري في تفسير هذه الآية»[١].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر، وإزاحة للعلة، وبين أنهم لا يؤمنون ألبتة، وشرح أحوالًا توجب اليأس عن دخولهم في الإيمان فقال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ ونظير هذه الآية قوله في سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[٢] ومعنى ينظرون ينتظرون، وهل استفهام معناه النفي، وتقدير الآية: أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور الثلاثة، وهي مجيء الملائكة، أو مجيء الرب، أو مجيء الآيات القاهرة من الرب»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «أما الإتيان المنسوب إلى اللّه فلا يختلف قول أئمة السلف كمكحول والزهري والأوزاعى وابن المبارك وسفيان الثوري والليث ابن سعد ومالك بن أنس والشافعى وأحمد وأتباعهم أنه يمر كما جاء وكذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن أو وردت به السنة كأحاديث النزول ونحوها وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة، يؤمنون بظاهرها و يكلون علمها إلى اللّه

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٦).
(٢) البقرة: الآية (٢١٠).
(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٧-٨).

ويعتقدون أن اللَّه منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت الأئمة خلفا بعد سلف كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[١].

وقال ابن السائب في قوله: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ هذا من المكتوم الذي لا يفسر»[٢].

قال الطبري عند قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت، فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكم لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها، فتطوى صحائف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلموا حينئذ المحق منا من المبطل، والمسيء من المحسن، والصادق من الكاذب، وتتبينوا عند ذلك بمن يحيق عذاب اللَّه، وأليم نكاله، ومن الناجي منا ومنكم، ومن الهالك، إنا منتظرو ذلك، ليجزل اللَّه لنا ثوابه على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادة له، وإفرادناه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين»[٣].

وقال: «وأما قوله: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾؛ فإنه يعني: أو عملت في تصديقها باللَّه خيرًا من عمل صالح، تصدق قيله وتحققه من قبل طلوع الشمس من مغربها، لا ينفع كافرًا لم يكن آمن باللَّه قبل طلوعها كذلك إيمانه باللَّه، إن آمن وصدق باللَّه ورسله؛ لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار باللَّه لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر اللَّه، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله؛ لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال، والبحث والاعتبار، ولا ينفع من كان باللَّه وبرسله مصدقًا، ولفرائض اللَّه مضيعًا غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها أعماله إن عمل، وكسبه إن اكتسب؛ لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك»[٤].

---

(١) آل عمران: الآية (٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٠٩).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ١٠٣-١٠٤).
(٤) تفسير الطبري (٨/ ١٠٣).

قال ابن كثير: «إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك؛ فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطًا فأحدث توبة حينئذ؛ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها؛ لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[2] الآية»[3].

قال القرطبي: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت. قال ﷺ: «إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[4] أي: تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله. وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه باللَّه تعالى وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة. فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدثوا عنه إلا قليلًا، فيصير الخبر عنه خاصًا وينقطع التواتر عنه؛ فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قبل منه. واللَّه أعلم»[5].

---

(١) محمد: الآية (١٨).

(٢) غافر: الآيتان (٨٤ و ٨٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٧) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٦٢٨)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، ووافقه الذهبي.

(٥) تفسير القرطبي (١٤/ ١٤٦-١٤٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة بأن من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها**» **ثم قرأ الآية**[1].

* عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ في قول اللَّه ﷻ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قال: «**طلوع الشمس من مغربها**»[2].

* عن أبي ذر ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال يومًا: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها**». فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»[3].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ أبو زرعة العراقي: «تبين بهذا الحديث أن الآية المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ هي طلوع الشمس من مغربها، وهذا يتعين القول به لصحة الحديث.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبخاري (٨/ ٣٧٧/ ٤٦٣٦)، ومسلم (١/ ١٣٧/ ١٥٧)، وأبو داود (٤/ ٤٩٢/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣-٣٤٤/ ١١١٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٢/ ٤٠٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١، ٩٧)، والترمذي (٥/ ٢٤٧/ ٣٠٧١) وقال: «هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه». وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٥١/ ٢٤٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٥و١٦٥)، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣١٩٩)، ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩)، وأبو داود (٤/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٤٠٠٢)، والترمذي (٤/ ٤١٦/ ٢١٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣/ ١١١٧٦).

وحكاه عبد الحق بن عطية المفسر عن جمهور أهل التأويل، ثم قال: وروى عن ابن مسعود أنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج. قال: وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث ترده وتخصص الشمس»[١].

قال القرطبي: «مذهب أهل السنة حمل طلوع الشمس من مغربها وغيرها من الآيات على ظاهرها، إذ لا إحالة فيها، وهي أمور ممكنة في أنفسها، وقد تظاهرت الأخبار الصحيحة بها، مع كثرتها وشهرتها، فيجب التصديق بها، ولا يلتفت لشيء من تأويلات المبتدعة لها»[٢].

وقال القاضي عياض -وهو يشرح حديث أبي هريرة ﷺ-: «على ظاهره حمله أهل الفقه والحديث، خلاف ما تأوله عليه بعض الغالين من الباطنية»[٣].

قوله ﷺ: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش»:

قال أبو زرعة العراقي: «قد اختلف المفسرون في هذا، فقال جماعة بظاهر هذا الحديث. قال الواحدي: وعلى هذا القول إذا غربت كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع. وقال قتادة ومقاتل: معناه تجري إلى وقت لها وأجل لا تتعداه. قال الواحدي: وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا، وهذا اختيار الزجاج. وقال الكلبي: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها التي لا تجاوزه، ثم ترجع إلى أول منازلها، واختار ابن قتيبة هذا القول. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (لا مستقر لها) أي: إنها جارية أبدًا لا تثبت في موضع واحد. قلت: كيف يجوز العدول عن صريح هذا الحديث الذي لا شك في صحته، وما مستند العادلين عنه إلا كلام أهل الهيئة. ولا يجوز اعتماد قول غير الأنبياء في الأخبار عن المغيبات، فكيف وقد عارضه كلام أصدق الخلق وأعرفهم بربه وبأحوال الغيب، والقراءة الشاذة ليست حجة على المشهور، فكيف وهي مخالفة في المعنى للقراءة المتواترة. وفي بعض طرق حديث أبي ذر في الصحيحين: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾[٤] قال: «مستقرها تحت

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ٢٥٧).
(٢) المفهم (١/ ٣٧٣).
(٣) إكمال المعلم (٨/ ١٩٨).
(٤) يس: الآية (٣٨).

العرش» فكيف يجوز مع هذا التفسير البين العدول عنه؟!»[١].

وقال الخطابي: «وأما قوله: «مستقرها تحت العرش»، فلا ينكر أن يكون لها استقرار تحت العرش، من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما هو خبر عن غيب، فلا نكذب به ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط به»[٢].

وقال أيضًا: «وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش، فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها، والخبر عن سجود الشمس والقمر لله ﷻ قد جاء في الكتاب. قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ الآية[٣]. وليس في هذا إلا التصديق والتسليم، وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها، والتصرف لما سخرت له.

سبحان الذي أحاط بكل شيء علمًا! وأحصى كل شيء عددًا! وتبارك اللَّه رب العالمين وأحسن الخالقين»[٤].

وانظر بقية الفوائد في سورة (يس) الآية (٣٨).

* عن ابن عمرو عن النبي ﷺ: **«الآيات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضًا»**[٥].

★ **غريب الحديث:**

خرزات: جمع خرز، والخرز: فصوص من جيد الجوهر ورديئه.

* عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: **«ما تذاكرون؟»** قالوا: نذكر الساعة. قال: **«إنها لن تقوم حتى ترون قبلها**

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ٢٥٨-٢٥٩).
(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٨٩٣).
(٣) الحج: الآية (١٨).
(٤) أعلام الحديث (٣/ ١٨٩٤).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٦/ ٣٧٢٧٤)، والحاكم (٤/ ٤٧٣-٤٧٤) وسكت عنه. وفيه خالد بن الحويرث قال فيه ابن معين: «لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقات». وله شاهد من حديث أنس بن مالك مرفوعًا؛ أخرجه الحاكم (٤/ ٥٤٦) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وانظر الصحيحة رقم (١٧٦٢).

عشر آيات»، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم[١].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظت من رسول اللَّه ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«إن أول الآيات خروجًا؛ طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرى على إثرها قريبًا»**[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة». قال قتادة: خويصة أحدكم: الموت. وأمر العامة: أمر الساعة**[٣].

⋆ فوائد الأحاديث:

قوله: **«إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها»** قال الطيبي: «فإن قيل: طلوع الشمس ليس بأول الآيات: لأن الدخان والدجال قبله؟.

أجيب بأن الآيات إما أمارات دالة على قرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها. ومن الأول الدخان وخروج الدجال ونحوهما. ومن الثاني ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وبس الجبال، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر. وإنما سمي أولا؛ لأنه مبدأ القسم الثاني. ويؤيده حديث أبي هريرة بعده: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها»** حيث جعل طلوع الشمس من مغربها غاية لعدم قيام الساعة، وينصره أيضًا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٥-٢٢٢٦/ ٢٩٠١)، وأبو داود (٤/ ٤٩١/ ٤٣١١)، والترمذي (٤/ ٤١٤/ ٢١٨٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤/ ١١٣٨٠) (٦/ ٤٥٦/ ١١٤٨٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤١/ ٤٠٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠١)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٠/ ٢٩٤١)، وأبو داود (٤/ ٤٩٠/ ٤٣١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٣/ ٤٠٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٧و٣٧٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٧/ ٢٩٤٧).

ما رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور عن الإمام الحاكم أبي عبد اللَّه الحليمي: «إن أول الآيات ظهور الدجال، ثم نزول عيسى، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها» وذلك أن الكفار يسلمون في زمان عيسى حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كان طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى، لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا»(١).

قال ابن كثير: «حكى البيهقي عن الحاكم أنه قال: أول الآيات ظهورًا خروج الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم، ثم فتح يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها. قال: لأنها إذا طلعت من مغربها آمن من عليها، فلو كان نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بعدها؛ لم يكن كافر. وهذا الذي قال فيه نظر؛ لأن إيمان أهل الأرض يومئذ لا ينفع جميعهم، ولا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فمن أحدث إيمانًا أو توبة يومئذ؛ لم تقبل منه حتى يكون مؤمنًا، أو تائبًا قبل ذلك، وكذلك قوله تعالى في قصة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الدنيا ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾(٢) أي: قبل موت عيسى، وبعد نزوله يؤمن جميع أهل الكتاب إيمانا صوريا، بمعنى أنهم يتحققون أنه عبد اللَّه ورسوله، فالنصراني يعلم كذب نفسه في دعواه فيه الربوبية والبنوة، واليهودي يعلم أنه نبي ورسول من اللَّه، لا ولد زانية، كما كان المجرمون منهم يزعمون ذلك، عليهم من لعائن اللَّه وغضبه المتدارك»(٣).

قال الحافظ: «ثبت في صحيح مسلم من طريق أبي حازم عن أبي هريرة رفعه: ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. قيل: فلعل حصول ذلك يكون متتابعًا؛ بحيث تبقى النسبة إلى الأول منها مجازية، وهذا بعيد؛ لأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله عيسى، ثم لبث عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج. كل ذلك سابق على طلوع الشمس من المغرب، فالذي يترجح من مجموع الأخبار: أن خروج الدجال أول

(١) شرح المشكاة (١١/ ٣٤٤٩).
(٢) النساء: الآية (١٥٩).
(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٧١).

الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة. ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب. وقد أخرج مسلم أيضًا من طريق أبي زرعة عن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص رفعه: «أول الآيات طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، فأيهما خرجت قبل الأخرى؛ فالأخرى منها قريب».

وفي الحديث قصة لمروان بن الحكم، وأنه كان يقول: أول الآيات خروج الدجال. فأنكر عليه عبد اللّٰه بن عمرو. قلت: ولكلام مروان محمل يعرف مما ذكرته. قال الحاكم أبو عبد الله: الذي يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة، ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه. قلت: والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر؛ تكميلًا للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس؛ كما تقدم في حديث أنس... ففيه: وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»[1].

قال ابن كثير عند قوله ﷺ: «وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا»: «أي أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأنهم بشر مشاهدتهم وأمثالهم مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر؛ فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة؛ أول الآيات السماوية»[2].

* عن زر بن حبيش رضي الله عنه قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه، أسأله المسح على الخفين؟ فقال: ما جاء بك يا زر؟ فقلت: ابتغاء العلم، فقال: إن

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٦٤).

الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب. فقلت: إنه حك في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول، وكنت امرءًا من أصحاب النبي ﷺ، فجئت أسألك: هل سمعته يذكر في ذلك شيئًا؟ قال: نعم. كان يأمرنا إذا كنا سفرًا أو مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن، إلا من جنابة؛ لكن من غائط وبول ونوم. فقلت: هل سمعته يذكر في الهوى شيئًا؟ قال: نعم، كنا مع النبي ﷺ في سفر، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد! فأجابه رسول اللَّه ﷺ نحوًا من صوته: هاؤم. وقلنا له: ويحك، اغضض من صوتك، فإنك عند النبي ﷺ، وقد نهيت عن هذا. فقال: واللَّه لا أغضض. قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب يوم القيامة**»، **فما زال يحدثنا حتى ذكر بابًا من قبل المغرب، مسيرة سبعين عامًا، عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عامًا**. قال سفيان: قبل الشام، **خلقه اللَّه يوم خلق السموات والأرض مفتوحًا؛** يعني: للتوبة، **لا يغلق حتى تطلع الشمس منه**[1].

★ غريب الحديث:

الهوى: «الهوى مقصور، مصدر هويته من باب: تعب، إذا أحببته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميل مذموم، فيقال: اتبع هواه، وهو من أهل الأهواء»[2].

جهوري: قال المباركفوري: «بفتح الجيم وسكون الهاء ثم واو مفتوحة ثم راء مكسورة ثم ياء مشددة أي: عال»[3].

هاؤم: بمعنى: تعال. وبمعنى: خذ. ويقال للجماعة كقوله تعالى: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[4][5].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٠، ٢٤١)، والترمذي (٥/ ٥٠٩-٥١٠/ ٣٥٣٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٣/ ٤٠٧٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١١١٧٨).

(٢) المصباح المنير (٢/ ١٣٦).

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٩٣).

(٤) الحاقة: الآية (١٩).

(٥) النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها؛ تاب اللَّه عليه»**[١].

* عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»**[٢].

* عن معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: أن النبي ﷺ قال: **«إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى اللَّه ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة، حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت، طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل»**[٣].

* عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن اللَّه عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»**[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ: «قال البيهقي إن كان في علم اللَّه أن طلوع الشمس سابق؛ احتمل أن يكون المراد نفي النفع عن أنفس القرن الذين شاهدوا ذلك، فإذا انقرضوا وتطاول الزمان وعاد بعضهم إلى الكفر؛ عاد تكليفه الإيمان بالغيب، وكذا في قصة الدجال، لا ينفع إيمان من آمن بعيسى عند مشاهدة الدجال، وينفعه بعد انقراضه، وإن كان في علم اللَّه طلوع الشمس بعد نزول عيسى؛ احتمل أن يكون المراد بالآيات في حديث عبد اللَّه بن عمرو: آيات أخرى غير الدجال ونزول عيسى؛ إذ ليس في الخبر نص على أنه يتقدم عيسى. قلت: وهذا الثاني هو المعتمد، والأخبار الصحيحة تخالفه،

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٥و٣٩٥و٤٢٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١١١٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود (٣/ ٧-٨/ ٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢١٧/ ٨٧١١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٩٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨١/ ٨٩٥). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٥١): «ورجال أحمد ثقات»، وحسن إسناده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥و٤٠٤)، ومسلم (٤/ ٢١١٣/ ٢٧٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١١١٨٠).

ففي صحيح مسلم من رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب اللَّه عليه» فمفهومه أن من تاب بعد ذلك لم تقبل " ثم ذكر أحاديث الباب إلى أن قال:

«فهذه آثار يشد بعضها بعضًا، متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب أغلق باب التوبة، ولم يفتح بعد ذلك، وإن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتد إلى يوم القيامة. ويؤخذ منها أن طلوع الشمس من مغربها؛ أول الإنذار بقيام الساعة»[١].

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٤٣١-٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

★ غريب الآية:

شيعًا: الشيع: الفرق والأحزاب التي يُمالئُ بعضهم بعضًا على أمر واحد، مع اختلافهم في غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «إن اللَّه أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق، وفرقه، وكانوا فرقًا فيه وأحزابًا شيعًا، وأنه ليس منهم ولا هم منه؛ لأن دينه الذي بعثه اللَّه به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية كما قال له ربه وأمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك ووثني ويهودي ونصراني ومتحنف مبتدع؛ قد ابتدع في الدين ما ضل به عن الصراط المستقيم والدين القيم، ملة إبراهيم المسلم، فهو بريء من محمد ﷺ، ومحمد منه بريء، وهو داخل في عموم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾»[2].

قال شيخ الإسلام: «فاللَّه تعالى قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعًا ولا يتفرقوا، وقد فسر حبله بكتابه، وبدينه، وبالإسلام، وبالإخلاص، وبأمره، وبعهده، وبطاعته، وبالجماعة. وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وكلها صحيحة؛ فإن القرآن يأمر بدين الإسلام، وذلك هو عهده وأمره وطاعته، والاعتصام به جميعًا إنما يكون في الجماعة، ودين الإسلام حقيقته الإخلاص لله.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اللَّه يرضى لكم

---

(١) الأنعام: الآية (١٦١).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ١٠٥-١٠٦).

ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل اللَّه جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه اللَّه أمركم»[(١)]»[(٢)].

قال ابن كثير: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين اللَّه، وكان مخالفا له، فإن اللَّه بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾؛ أي: فرقًا كأهل الملل والنحل، وهي الأهواء والضلالات؛ فاللَّه قد برأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[(٣)]... الآية. وفي الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»[(٤)].

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة اللَّه وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٥)] الآية»[(٦)].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «قد كانت خاتمة ما وصى اللَّه تعالى به هذه الأمة على لسان خاتم رسله آنفًا؛ الأمر باتباع صراطه المستقيم والنهي عن اتباع غيره من السبل، وقد ذكر بعد تلك الوصايا شريعة التوراة المشابهة لشريعة القرآن، ووصاياه بما علم به أن هذه أكمل؛ لأن الأشياء إنما تكمل بخواتيمها، وقفى على ذلك بالمقارنة بين أهل الكتاب والعرب أئمة أهل القرآن، مذكرًا إياهم باعتقادهم أنهم أقوى من أهل الكتاب استعدادًا للهداية، محتجًا عليهم بذلك عسى أن يثوب المستعدون للإيمان إلى رشادهم، ويفكر المعاندون في عاقبة عنادهم، وتلا ذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٠/ ١٧١٥).

(٢) منهاج السنة (٥/ ١٣٤). (٣) الشورى: الآية (١٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٣-٤٦٤)، والبخاري (٦/ ٥٩٠/ ٣٤٤٢)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥).

(٥) الحج: الآية (١٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٣).

تذكيره لهم ولسائر المخاطبين بالقرآن؛ بما ينتظر في آخر الزمان لكل من الأمم والأفراد، ولما تمت بذلك الحجة ووضحت المحجة؛ ذكر تعالى جده و-جل ثناؤه- هذه الأمة بما هي عرضة له، بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء به، بمثل ما أضاعه به من قبلهم، وهو الاختلاف والتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلهم أحزابًا وشيعًا، تتعصب كل منها لمذهب من المذاهب، أو إمام فيضيع العلم، وتنفصم عروة الوحدة الأمة الواحدة بعد أخوة الإيمان أممًا متعادية ليس لها مرجع متفق عليه يجمع كلمتها، فيحل بها ما حل بالأمم التي تفرقت قبلها، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ . . . فمن التفريق الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، ولو بالتأويل وترك العمل، والكفر بالبعض كالكفر بالجميع مفارقة للدين الذي لا يتجزأ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] الآية. ومثله الإيمان ببعض الرسل دون بعض، على أن المفارقة قد تكون للجماعة التي تقيم الدين، لا لأصل الدين بجحوده والكفر به أو تأويله وترك هدايته»[2].

وقال أيضًا: «ذهب بعض مفسري السلف إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى، فجعلوه أديانًا مختلفة، وكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة يتعادون ويتقاتلون فيه. وذهب آخرون إلى أنها في أهل البدع والفرق الإسلامية التي مزقت وحدة الإسلام بما استحدثت من النحل والمذاهب. وكل من القولين حق. والصواب هو الجمع بينهما، فإن الله تعالى بعد أن أقام حجج الإسلام في هذه السورة، وأبطل شبهات الشرك؛ ذكر أهل الكتاب وشرعهم، وأمر المستجيبين لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم، وقد فصل هذا بقوله بعد الأمر بالاعتصام والنهي عن التفرق من سورة (آل عمران): ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]، ثم بين أن رسوله بريء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كما فعل أهل الكتاب، فهو يحذر ما صنعوا، فمن اتبع سننهم في هذا التفريق فهو أحق ببراءة الرسول ﷺ منه بعد هذا البيان والتحذير»[4].

---

(١) البقرة: الآية (٨٥).
(٢) تفسير المنار (٨/ ٢١٣-٢١٤).
(٣) آل عمران: الآية (١٠٥).
(٤) تفسير المنار (٨/ ٢١٤).

قال الشاطبي: «قال القاضي: ظاهر القرآن يدل على أن كل من ابتدع في الدين بدعة -من الخوارج وغيرهم-؛ فهو داخل في هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعًا»[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا معلقًا: «وأقول: إن ما نقله عن القاضي من عموم الآية صحيح، وهي أعم مما قال، فمجموع الأخبار والآثار الواردة في تفسيرها؛ تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين وفروعه وحكومته، وتولي أهله بعضهم بعضًا، فعصبية المذاهب الكلامية والفقهية كلها داخلة في ذلك، كعصبية الخلافة والملك، والعصبية الجنسية التي تفرق بين العربي والتركي، والفارسي والهندي والملاوي إلخ، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضًا، ويقاتل بعضهم بعضًا . . . وجملة القول في تفسير الجملة: أن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا؛ أهل الكتاب، والمراد بجعل الرسول ﷺ بريئًا منهم؛ تحذير أمته من مثل فعلهم، ليعلم أن من فعل فعلهم من هذه الأمة؛ فالرسول ﷺ بريء منهم بالأولى، لا كما يزعم بعض الجاهلين المضلين من أن ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الكفار وأفعالهم؛ خاص بهم، فإذا تلبس به المسلمون لا يكون حكمهم فيه كحكم من قبلهم، كأن اللَّه -تبارك وتعالى- أباح للمسلمين الشرك والكفر والنفاق والبدع والضلالات، وضمن لهم جنته ورضوانه بمجرد انتسابهم إلى الإسلام، أو إلى مذهب زيد أو عمرو من علماء الكلام، وهذا هدم لكتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ، وسيرة المهتدين بهما من خير القرون.

ثم بين تعالى عاقبة هؤلاء المفرقين لدينهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: إنه ﷻ هو الذي يتولى وحده أمر جزائهم على مفارقة دينهم والتفريق له في الدنيا بما مضت به سنته في الاجتماع البشري من ضعف المتفرقين، وفشل المتنازعين، وتسلط الأقوياء عليهم ولبسهم شيعًا يذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من التقاتل والحروب، كما بينه تعالى في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾[٢] إلخ، وقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ

(١) الاعتصام (١/ ٨٥). (٢) البقرة: الآية (٢٥٣).

﴿يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(١)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾(٢) إلخ، وبعد تعذيبهم بأيديهم وأيدي أعدائهم في الدنيا يبعثهم في الآخرة، ثم ينبئهم عند الحساب بما كانوا يفعلون في الدنيا من الاختلاف والتفرق؛ بتفريق الدين أو مفارقته اتباعًا للأهواء، وما يستلزم ذلك ويجازيهم عليه في النار»(٣).

قلت: ما ذكره الشيخ رشيد رضا، وقبله الأئمة المعتبرين من تعميم الآية، وتنزيلها على الواقع المعاش لهو عين الصواب، فإن داء التفرق داء عضال، استفحل وزاد انتشارا، واستغله المفسدون لأغراضهم وشهواتهم، ورفع كل مفسد لواء يتكلم باسمه ولو كان لا يؤمن به في قرارة نفسه، كأقوام يرفعون ألوية التصوف ويزعمون أن لها خصوصية التربية والتهذيب وتزكية النفس وهي كلها ملآى بالشرك والغلو بكل ألوانه، وهذا يرفع لواء الرفض والتشيع، وكله كفريات وزندقة ودعوة للدعارة، وهذا يرفع لواء الأشعرية، وهي مَجمع لكل مذاهب السوء؛ في القدر والإيمان والصفات، وهذا يرفع ألوية الماتوريدية، وهي كسابقتها، وهذا يرفع ألوية المذهبية الفقهية؛ كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، ويتعصب لها ويفارق كل النصوص الصحيحة ويتلبس بكل البدع المنحرفة، وهذا يرفع ألوية القومية العربية، وأتباعُها شيوعيون يتبرؤون من الإسلام ويحاربونه بالليل والنهار، وهذا يرفع ألوية الاشتراكية، وهي امتداد للشيوعية التي تقول: إن الدين أفيون الشعوب، وترى ذبح كل من ليس على مذهبها، ولذا شعارها هو الدم والسفك والغزو الأحمر، وهذا يرفع ألوية العلمانية، وهي مفارقة للدين في كل صوره، ولا تعرف لمصطلح الحلال والحرام أصلا ولا معنا، وهذا يرفع ألوية الوطنية، وهو في حقيقته ساخر بالشعوب والأمة، يجمعها على شهواته وأهوائه، وهكذا تجد هذه الأنواع الكثيرة ما وراءها إلا الانحراف والضلال فنسأل اللّٰه السلامة والعافية من واقع هذا حاله، وهذه أمته واللّٰه المستعان.

* * *

---

(١) المائدة: الآية (١٤).

(٢) الأنعام: الآية (٦٥).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢١٦-٢١٧).

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: من وافى ربه يوم القيامة في موقف الحساب من هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا بالتوبة والإيمان، والإقلاع عما هو عليه مقيم من ضلالته، وذلك هو الحسنة التي ذكرها اللّه، فقال: من جاء بها فله عشر أمثالها. ويعني بقوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يقول: ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق والكفر باللّه، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء، كما وافى اللّه به من عمله السيئ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: ولا يظلم اللّه الفريقين: لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازى المحسن بالإساءة، والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له؛ لأنه -جل ثناؤه- حكيم، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحق من الجزاء»[1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذه الآية استئناف لبيان الجزاء العام في الآخرة على الحسنات، وهي الإيمان والأعمال الصالحة، وعلى السيئات، وهي الكفر والأعمال الفاسدة، جاءت في خاتمة السورة التي بينت قواعد العقائد، وأصول الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأقامت عليها البراهين، وفندت ما يورده الكفار عليها من الشبهات، كما بينت بالبراهين فساد ما يقابلها من قواعد الشرك وأصول الكفر وأبطلت شبهات أهله، ثم بينت في الوصايا العشر أصول الآداب والفضائل التي يأمر بها الإسلام، وما يقابلها من أصول الرذائل والفواحش التي ينهى عنها، فناسب بعد ذلك كله أن يبين الجزاء على كل منهما في الآخرة، بعد الإشارة إلى فوائد الأمر والنهي وما فيهما من المصالح الدنيوية بما ذيلت به آيات

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٠٧).

الوصايا، وما سبق من ذكر الجزاء في أثناء السورة غير مغنٍ عن هذه الآية؛ لأنه ليس عامًّا كعمومها، ولا مبيّنًا للفرق بين الحسنات والسيئات كبيانها.

فقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ معناه أن كل من جاء ربه يوم القيامة متلبسًا بالصفة الحسنة التي يطبعها في نفسه طابع الإيمان والعمل الصالح؛ فله عنده من الجزاء عشر حسنات أمثالها من العطايا، فإذا كان تأثير الحسنة في نفسه أن تكون حاله حسنة بقدر معين بحسب سننه تعالى في ترتيب الجزاء على آثار الأعمال الحسنة في تزكية الأنفس؛ فهو يعطيه ذلك مضاعفًا عشرة أضعاف؛ تغليبًا لجانب الحق والخير على جانب الباطل والشر؛ رحمة منه -جل ثناؤه- بعبيده المكلفين

والظاهر أن هذه العشر لا تدخل فيما وعد اللّه تعالى به من المضاعفة لمن يشاء على بعض الأعمال؛ كالنفقة في سبيله، فقد وعد بالمضاعفة عليها بإطلاق في قوله من سورة (التغابن): ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[1] وبالمضاعفة الموصوفة بالكثرة في قوله من سورة (البقرة): ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾[2] الآية، ثم بالمضاعفة سبعمائة ضعف في قوله منها أيضًا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]؛ قيل: إن المراد بالمضاعفة لمن يشاء هذه المضاعفة نفسها. وقيل: بل المراد به غيرها أو ما يزيد عليها. وقيل أيضًا: إن المضاعفة كلها خاصة بالإنفاق. والأرجح أن المضاعفة عامة، وأن الجملة على إطلاقها، فتتناول ما زاد على سبعمائة ضعف وما نقص عنه، وهي تشير إلى تفاوت المنفقين وغيرهم من المحسنين في الصفات النفسية كالإخلاص في النية، والاحتساب والأريحية، وفيما يتبعها من العمل؛ كالإخفاء سترًا على المعطي، وتباعدًا من الشهرة، والإبداء لأجل حسن القدوة، وتحري المنافع والمصالح، وفي الأحوال المالية والاجتماعية كالغنى والفقر والصحة والمرض، وفيما يقابل ذلك من الصفات والأعمال؛ كالرياء وحب الشهرة

---

(١) التغابن: الآية (١٧).

(٢) البقرة: الآية (٢٤٥).

(٣) البقرة: الآية (٢٦١).

الباطلة والمن والأذى، فالعشرة مبذولة لكل من أتى بالحسنة، والمضاعفة فوقها تختلف بمشيئته تعالى، بحسب ما يعلم من اختلاف أحوال المحسنين. فقد بذل أبو بكر ﷺ كل ما يملك في سبيل اللَّه عند الحاجة إليه، وبذل عمر ﷺ نصف ما يملك[١]، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وزاد بعضهم أن النبي ﷺ جعل النسبة بينهما كالنسبة بين عطاءيهما، والدرهم من المسكين والفقير أعظم من دينار الغني ذي المال الكثير، ومن يبذل الدرهم متعلقة به نفسه حزينة على فقده؛ ليس كمن يبذله طيبة به نفسه، مسرورة بالتوفيق لإيثار ثواب الآخرة به على متاع الدنيا، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[٢]. وتفصيل التفاوت فيما ذكرنا يطول، وفيما أوردناه ما يرشد إلى غيره لمن تفكر وتدبر، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين: إن ذكر العشرة مثال يراد به الكثرة لا التحديد؛ ليتفق مع المضاعفة المعينة في سورة (البقرة)، وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يؤيد ما اخترناه. . .

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: ومن جاء ربه يوم القيامة بالصفة السيئة التي يطبعها في نفسه الكفر وارتكاب الفواحش والمنكرات؛ فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها، بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها، وتقديره الجزاء عليها بالعدل. وإنما قلنا الصفة الحسنة والسيئة، ولم نقل الفعلة؛ لأن الأفعال أعراض تزول وتبقى آثارها في النفس، فالجزاء عليها يكون بحسب تأثيرها في النفس؛ وهو الذي يكون وصفًا لها لا يفارقها بالموت، كما صرح به في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مضاعفة الحسنات

* عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ قال: أخبر رسول اللَّه ﷺ أني أقول: واللَّه لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت. فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي. قال:

---

(١) أخرجه: أبو داود (٢/ ٣١٢-٣١٣/ ١٦٧٨)، والترمذي (٥/ ٥٧٤/ ٣٦٧٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الحديد: الآية (١٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٣٩).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٢٣٢-٢٣٤).

«فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر». قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم يومًا وأفطر يومين». قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود ﷺ، وهو أفضل الصيام». قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي ﷺ: «لا أفضل من ذلك»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن دقيق العيد: «قوله ﷺ: «وذلك مثل صيام الدهر» مؤول عندهم على أنه مثل أصل صيام الدهر من غير تضعيف للحسنات، فإن ذلك التضعيف مرتب على الفعل الحسي الواقع في الخارج، والحامل على هذا التأويل: أن القواعد تقتضي أن المقدر لا يكون كالمحقق، وأن الأجور تتفاوت بحسب تفاوت المصالح أو المشقة في الفعل، فكيف يستوي من فعل الشيء بمن قدر فعله له، فلأجل ذلك قيل: إن المراد أصل الفعل في التقدير، لا الفعل المرتب عليه التضعيف في التحقيق»[2].

قال العيني: «قوله: «مثل صيام الدهر» يعني في الفضيلة واكتساب الأجر، والمثلية لا تقتضي المساواة من كل وجه؛ لأن المراد به هنا أصل التضعيف دون التضعيف الحاصل من الفعل، ولكن يصدق على فاعل ذلك أنه صام الدهر مجازًا»[3].

قال ابن الملقن: «فيه بيان كرم اللَّه تعالى في تضعيف الحسنة بعشر أمثالها. وأما السيئات فلا تضاعف؛ بل جزاء السيئة مثلها إن لم يقترن بفعلها انتهاك حرمة شخص أو مكان أو زمان، فإن اقترن بفعلها شيء من ذلك كانت مضاعفة»[4].

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من صام كل شهر ثلاثة أيام؛ فذلك صيام الدهر**»، فأنزل اللَّه عز وجل تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٧)، والبخاري (٤/ ٢٧٦/ ١٩٧٦)، ومسلم (٢/ ٨١٢/ ١١٥٩)، والنسائي (٤/ ٥٢٨/ ٢٣٩١).

(٢) إحكام الأحكام (٢/ ٢٣٨).

(٣) عمدة القاري (٨/ ١٩٦).

(٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٣٤٤).

﴿أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «**فذلك صيام الدهر**» وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها فيعدل صيام الثلاثة أيام من كل شهر؛ صيام الشهر كله، فيكون كمن صام الدهر»[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: «**إن اللَّه كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها اللَّه له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها اللَّه له عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللَّه له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها اللَّه له سيئة واحدة**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

ضعف: الضعف في اللغة المثل.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**كتبها اللَّه له**» أي: للذي هم بالحسنة عنده؛ أي: عند اللَّه حسنة كاملة، كذا ثبت في حديث ابن عباس دون حديث أبي هريرة وغيره وصف الحسنة بكونها كاملة، وكذا قوله: «عنده»، وفيهما نوعان من التأكيد، فأما العندية فإشارة إلى الشرف، وأما الكمال فإشارة إلى رفع توهم نقصها لكونها نشأت عن الهم المجرد، فكأنه قيل: بل هي كاملة لا نقص فيها. قال النووي: «أشار بقوله: «عنده» إلى مزيد الاعتناء به، وبقوله: «كاملة» إلى تعظيم الحسنة وتأكيد أمرها. وعكس ذلك في السيئة فلم يصفها بكاملة، بل أكدها بقوله: «واحدة» إشارة إلى تخفيفها، مبالغة في الفضل والإحسان. ومعنى قوله: «كتبها الله» أمر الحفظة بكتابتها؛ بدليل حديث أبي هريرة الآتي في التوحيد بلفظ: «**إذا أراد عبدي أن يعمل**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٥-١٤٦)، والترمذي (٣/ ١٣٥/ ٧٦٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٠٨)، وابن ماجه (١/ ٥٤٥/ ١٧٠٨).

(٢) تحفة الأحوذي (٣/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٧و٢٧٩و٣١٠)، والبخاري (١١/ ٣٩٢/ ٦٤٩١)، ومسلم (١/ ١١٨/ ١٣١).

سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها». وفيه دليل على أن الملك يطلع على ما في قلب الآدمي، إما بإطلاع اللَّه إياه، أو بأن يخلق له علمًا يدرك به ذلك، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني قال: «ينادى الملك: اكتب لفلان كذا وكذا. فيقول: يا رب إنه لم يعمله. فيقول: إنه نواه». وقيل: بل يجد الملك للهم بالسيئة رائحة خبيثة، وبالحسنة رائحة طيبة». وأخرج ذلك الطبري عن أبي معشر المدني، وجاء مثله عن سفيان بن عيينة. ورأيت في شرح مغلطاي أنه ورد مرفوعًا. قال الطوفي: إنما كتبت الحسنة بمجرد الإرادة؛ لأن إرادة الخير سبب إلى العمل، وإرادة الخير خير؛ لأن إرادة الخير من عمل القلب. واستشكل بأنه إذا كان كذلك فكيف لا تضاعف لعموم قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، وأجيب بحمل الآية على عمل الجوارح، والحديث على الهم المجرد. واستشكل أيضًا بأن عمل القلب إذا اعتبر في حصول الحسنة؛ فكيف لم يعتبر في حصول السيئة؟ وأجيب بأن ترك عمل السيئة التي وقع الهم بها يكفرها؛ لأنه قد نسخ قصده السيئة وخالف هواه. ثم إن ظاهر الحديث حصول الحسنة بمجرد الترك، سواء كان ذلك لمانع أم لا، ويتجه أن يقال: يتفاوت عظم الحسنة بحسب المانع، فإن كان خارجيا مع بقاء قصد الذي هم بفعل الحسنة فهي عظيمة القدر، ولاسيما إن قارنها ندم على تفويتها، واستمرت النية على فعلها عند القدرة. وإن كان الترك من الذي هم من قبل نفسه فهي دون ذلك، إلا إن قارنها قصد الإعراض عنها جملة، والرغبة عن فعلها، ولاسيما إن وقع العمل في عكسها؛ كأن يريد أن يتصدق بدرهم مثلًا، فصرفه بعينه في معصية. فالذي يظهر في الأخير أن لا تكتب له حسنة أصلًا. وأما ما قبله فعلى الاحتمال، واستدل بقوله: «حسنة كاملة» على أنها تكتب حسنة مضاعفة؛ لأن ذلك هو الكمال، لكنه مشكل يلزم منه مساواة من نوى الخير بمن فعله، في أن كلاًّ منهما يكتب له حسنة، وأجيب بأن التضعيف في الآية يقتضي اختصاصه بالعامل لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ والمجيء بها هو العمل، وأما الناوي فإنما ورد أنه يكتب له حسنة، ومعناه يكتب له مثل ثواب الحسنة، والتضعيف قدر زائد على أصل الحسنة. والعلم عند اللَّه تعالى.

قوله: «فإن هم بها وعملها كتبها اللَّه له عنده عشر حسنات» يؤخذ منه رفع توهم أن حسنة الإرادة تضاف إلى عشرة التضعيف، فتكون الجملة إحدى عشرة على ما

هو ظاهر رواية جعفر بن سليمان عند مسلم ولفظه: «فإن عملها كتبت له عشر أمثالها» وكذا في حديث أبي هريرة، وفي بعض طرقه احتمال، ورواية عبد الوارث في الباب ظاهرة فيما قلته وهو المعتمد. قال ابن عبد السلام في أماليه: «معنى الحديث «إذا هم بحسنة» فإن كتبت له حسنة عملها كملت له عشرة؛ لأنا نأخذ بقيد كونها قد هم بها، وكذا السيئة إذا عملها لا تكتب واحدة للهم وأخرى للعمل، بل تكتب واحدة فقط».

قلت: الثاني صريح في حديث هذا الباب، وهو مقتضى كونها في جميع الطرق لا تكتب بمجرد الهم، وأما حسنة الهم بالحسنة فالاحتمال قائم. وقوله: بقيد كونها قد هم بها؛ يعكر عليه من عمل حسنة بغتة من غير أن يسبق له أنه هم بها، فإن قضية كلامه أنه يكتب له تسعة، وهو خلاف ظاهر الآية ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾؛ فإنه يتناول من هم بها ومن لم يهم. والتحقيق أن حسنة من هم بها تندرج في العمل في عشرة العمل، لكن تكون حسنة من هم بها أعظم قدرًا ممن لم يهم بها، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

وقال: «قوله: «**ومن هم بسيئة فلم يعملها؛ كتبها اللَّه عنده حسنة كاملة**» المراد بالكمال عظم القدر كما تقدم، لا التضعيف إلى العشرة، ولم يقع التقييد بكامله في طرق حديث أبي هريرة، وظاهر الإطلاق كتابة الحسنة بمجرد الترك، لكنه قيده في حديث الأعرج عن أبي هريرة كما سيأتي في كتاب التوحيد ولفظه: «**إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة؛ فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة**»[2] وأخرجه مسلم من هذا الوجه، لكن لم يقع عنده «من أجلي»، ووقع عنده من طريق همام عن أبي هريرة: «وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي» بفتح الجيم وتشديد الراء بعد الألف ياء المتكلم، وهي بمعنى: من أجلي. ونقل عياض عن بعض العلماء أنه حمل حديث ابن عباس على عمومه، ثم صوب حمل مطلقه على ما قيد في حديث أبي هريرة.

قلت: ويحتمل أن تكون حسنة من ترك بغير استحضار ما قيد به، دون حسنة

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (١٣/ ٥٦٩/ ٧٥٠١)، ومسلم (١/ ١١٧-١١٨/ ١٢٩)، والترمذي (٥/ ٢٤٧/ ٣٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤-٣٤٥/ ١١١٨١).

الآخر؛ لما تقدم أن ترك المعصية كف عن الشر، والكف عن الشر خير، ويحتمل أيضًا أن يكتب لمن هم بالمعصية ثم تركها حسنة مجردة، فإن تركها من مخافة ربه سبحانه كتبت حسنة مضاعفة. وقال الخطابي: «محل كتابة الحسنة على الترك؛ أن يكون التارك قد قدر على الفعل ثم تركه؛ لأن الإنسان لا يسمى تاركًا إلا مع القدرة، ويدخل فيه من حال بينه وبين حرصه على الفعل مانع، كأن يمشي إلى امرأة ليزني بها مثلًا، فيجد الباب مغلقًا ويتعسر فتحه، ومثله من تمكن من الزنا مثلا فلم ينتشر، أو طرقه ما يخاف من أذاه عاجلًا. ووقع في حديث أبي كبشة الأنماري ما قد يعارض ظاهر حديث الباب، وهو ما أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي وصححه بلفظ: **«إنما الدنيا لأربعة»**[1] فذكر الحديث وفيه: **«وعبد رزقه اللَّه مالًا، ولم يرزقه علمًا، فهو يعمل في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يرى لله فيه حقًّا؛ فهذا بأخبث المنازل. ورجل لم يرزقه اللَّه مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان؛ فهما في الوزر سواء»**. فقيل: الجمع بين الحديثين بالتنزيل على حالتين، فتحمل الحالة الأولى على من هم بالمعصية همًّا مجردًا من غير تصميم. والحالة الثانية على من صمم على ذلك وأصر عليه. وهو موافق لما ذهب إليه الباقلاني وغيره. قال المازري: ذهب ابن الباقلاني يعني ومن تبعه إلى أن من عزم على المعصية بقلبه، ووطن عليها نفسه أنه يأثم، وحمل الأحاديث الواردة في العفو عمن هم بسيئة ولم يعملها على الخاطر الذي يمر بالقلب ولا يستقر. قال المازري: وخالفه كثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، ونقل ذلك عن نص الشافعي. ويؤيده قوله في حديث أبي هريرة فيما أخرجه مسلم من طريق همام عنه بلفظ: **«فأنا أغفرها له ما لم يعملها»** فإن الظاهر أن المراد بالعمل هنا؛ عمل الجارحة بالمعصية المهموم به. وتعقبه عياض بأن عامة السلف وأهل العلم على ما قال ابن الباقلاني؛ لاتفاقهم على المؤاخذة بأعمال القلوب، لكنهم قالوا: إن العزم على السيئة يكتب سيئة مجردة، لا السيئة التي هم أن يعملها، كمن يأمر بتحصيل معصية ثم لا يفعلها بعد حصولها، فإنه يأثم بالأمر المذكور لا بالمعصية. ومما يدل على ذلك حديث **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل**

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠و٢٣١)، والترمذي (٤/ ٤٨٧/ ٢٣٢٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٨).

والمقتول في النار. قيل: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**[1]. والذي يظهر أنه من هذا الجنس، وهو أنه يعاقب على عزمه بمقدار ما يستحقه، ولا يعاقب عقاب من باشر القتل حسًّا. وهنا قسم آخر، وهو من فعل المعصية ولم يتب منها، ثم هم أن يعود إليها؛ فإنه يعاقب على الإصرار كما جزم به ابن المبارك وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾[2]، ويؤيده أن الإصرار معصية اتفاقًا، فمن عزم على المعصية وصمم عليها كتبت عليه سيئة، فإذا عملها كتبت عليه معصية ثانية. قال النووي: وهذا ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشريعة بالمؤاخذة على عزم القلب المستقر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[4] وغير ذلك. وقال ابن الجوزي: إذا حدث نفسه بالمعصية لم يؤاخذ، فإن عزم وصمم زاد على حديث النفس وهو من عمل القلب. قال: والدليل على التفريق بين الهم والعزم؛ أن من كان في الصلاة فوقع في خاطره أن يقطعها لم تنقطع، فإن صمم على قطعها بطلت. وأجيب عن القول الأول بأن المؤاخذة على أعمال القلوب المستقلة بالمعصية؛ لا تستلزم المؤاخذة على عمل القلب بقصد معصية الجارحة، إذا لم يعمل المقصود، للفرق بين ما هو بالقصد وما هو بالوسيلة. وقسم بعضهم ما يقع في النفس أقسامًا، يظهر منها الجواب عن الثاني، أضعفها أن يخطر له ثم يذهب في الحال، وهذا من الوسوسة، وهو معفو عنه، وهو دون التردد، وفوقه أن يتردد فيه فيهم به، ثم ينفر عنه فيتركه، ثم يهم به ثم يترك كذلك، ولا يستمر على قصده. وهذا هو التردد، فيعفى عنه أيضًا. وفوقه أن يميل إليه ولا ينفر منه، بل يصمم على فعله. فهذا هو العزم، وهو منتهى الهم، وهو على قسمين:

القسم الأول: أن يكون من أعمال القلوب صرفًا؛ كالشك في الوحدانية أو النبوة أو البعث؛ فهذا كفر، ويعاقب عليه جزمًا، ودونه المعصية التي لا تصل إلى الكفر، كمن يحب ما يبغض الله، ويبغض ما يحبه الله، ويحب للمسلم الأذى بغير

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣)، والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨)، وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨)، والنسائي (٧/ ١٤١-١٤٢/ ٤١٣١)، وابن ماجه (٢/ ١٣١١/ ٣٩٦٥) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) آل عمران: الآية (١٣٥).

(٣) النور: الآية (١٩).

(٤) الحجرات: الآية (١٢).

موجب لذلك، فهذا يأثم. ويلتحق به الكبر والعجب والبغي والمكر والحسد، وفي بعض هذا خلاف. فعن الحسن البصري أن سوء الظن بالمسلم وحسده معفو عنه. وحملوه على ما يقع في النفس مما لا يقدر على دفعه، لكن من يقع له ذلك مأمور بمجاهدته النفس على تركه.

والقسم الثاني: أن يكون من أعمال الجوارح؛ كالزنا والسرقة، فهو الذي وقع فيه النزاع. فذهبت طائفة إلى عدم المؤاخذة بذلك أصلًا. ونقل عن نص الشافعي. ويؤيده ما وقع في حديث خريم بن فاتك المنبه عليه قبل، فإنه حيث ذكر الهم بالحسنة، قال: علم اللَّه أنه أشعرها قلبه، وحرص عليها، وحيث ذكر الهم بالسيئة، لم يقيد بشيء، بل قال فيه: «ومن هم بسيئة لم تكتب عليه».

والمقام مقام الفضل، فلا يليق التحجير فيه. وذهب كثير من العلماء إلى المؤاخذة بالعزم المصمم. وسأل ابن المبارك سفيان الثوري: أيؤاخذ العبد بما يهم به؟ قال: إذا جزم بذلك. واستدل كثير منهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1] وحملوا حديث أبي هريرة الصحيح المرفوع: «**إن اللَّه تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها؛ ما لم تعمل به أو تكلم**»[2] على الخطرات كما تقدم. ثم افترق هؤلاء فقال طائفة: يعاقب عليه صاحبه في الدنيا خاصة بنحو الهم والغم. وقالت طائفة: بل يعاقب عليه يوم القيامة، لكن بالعتاب لا بالعذاب. وهذا قول ابن جريج والربيع بن أنس وطائفة، ونسب ذلك إلى ابن عباس أيضًا. واستدلوا بحديث النجوى الماضي شرحه في باب ستر المؤمن على نفسه من كتاب الأدب، واستثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذة من وقع منه الهم بالمعصية، ما يقع في الحرم المكي ولو لم يصمم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] ذكره السدي في تفسيره عن مرة عن ابن مسعود. وأخرجه أحمد من طريقه مرفوعًا، ومنهم من رجحه موقوفًا. ويؤيد ذلك أن الحرم يجب اعتقاد تعظيمه، فمن هم بالمعصية فيه خالف الواجب بانتهاك حرمته. وتعقب هذا البحث بأن تعظيم اللَّه

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٣)، والبخاري (٩/ ٤٨٥/ ٥٢٦٩)، ومسلم (١/ ١١٦/ ١٢٧[٢٠١])، وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩)، والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣)، والنسائي (٦/ ٤٦٩/ ٣٤٣٥)، وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠).

(٣) الحج: الآية (٢٥).

آكد من تعظيم الحرم، ومع ذلك فمن هم بمعصيته لا يؤاخذه، فكيف يؤاخذ بما دونه. ويمكن أن يجاب عن هذا بأن انتهاك حرمة الحرم بالمعصية تستلزم انتهاك حرمة اللَّه؛ لأن تعظيم الحرم من تعظيم اللَّه، فصارت المعصية في الحرم أشد من المعصية في غيره، وإن اشترك الجميع في ترك تعظيم اللَّه تعالى. نعم من هم بالمعصية قاصدًا الاستخفاف بالحرم عصى، ومن هم بمعصية اللَّه قاصدًا الاستخفاف باللَّه كفر، وإنما المعفو عنه من هم بمعصية ذاهلًا عن قصد الاستخفاف، وهذا تفصيل جيد ينبغي أن يستحضر عند شرح حديث «**لا يزني الزاني وهو مؤمن**»[(١)].

وقال **السبكي الكبير**: الهاجس لا يؤاخذ به إجماعًا، والخاطر وهو جريان ذلك الهاجس، وحديث النفس لا يؤاخذ بهما، للحديث المشار إليه. والهم وهو: قصد فعل المعصية مع التردد، لا يؤاخذ به لحديث الباب. والعزم وهو: قوة ذلك القصد أو الجزم به ورفع التردد، قال المحققون: يؤاخذ به، وقال بعضهم: لا، واحتج بقول أهل اللغة؛ هم بالشيء: عزم عليه. وهذا لا يكفي. قال: ومن أدلة الأول حديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما» الحديث. وفيه أنه كان حريصًا على قتل صاحبه، فعلل بالحرص. واحتج بعضهم بأعمال القلوب، ولا حجة معه لأنها على قسمين؛ أحدهما: لا يتعلق بفعل خارجي، وليس البحث فيه. والثاني: يتعلق بالملتقيين؛ عزم كل منهما على قتل صاحبه، واقترن بعزمه فعل بعض ما عزم عليه؛ وهو شهر السلاح وإشارته به إلى الآخر، فهذا الفعل يؤاخذ به سواء حصل القتل أم لا، انتهى.

ولا يلزم من قوله: «فالقاتل والمقتول في النار» أن يكونا في درجة واحدة من العذاب بالاتفاق.

قوله: «**فإن هو هم بها فعملها كتبها اللَّه له سيئة واحدة**» في رواية الأعرج: «**فاكتبوها له بمثلها**»، وزاد مسلم في حديث أبي ذر: «**فجزاؤه بمثلها أو أغفر**»، وله في آخر حديث ابن عباس: «**أو يمحوها**». والمعنى أن اللَّه يمحوها بالفضل أو

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٦)، والبخاري (١٢/ ١٣٦/ ٦٨١٠)، ومسلم (١/ ٧٧/ ٥٧[١٠٤])، وأبو داود (٥/ ٦٤-٦٥/ ٤٦٨٩)، والترمذي (٥/ ١٦-١٧/ ٢٦٢٥)، والنسائي (٨/ ٤٣٥/ ٤٨٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨-١٢٩٩/ ٣٩٣٦).

بالتوبة أو بالاستغفار أو بعمل الحسنة التي تكفر السيئة. والأول أشبه؛ لظاهر حديث أبي ذر. وفيه رد لقول من ادعى أن الكبائر لا تغفر إلا بالتوبة، ويستفاد من التأكيد بقوله «واحدة» أن السيئة لا تضاعف كما تضاعف الحسنة، وهو على وفق قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾قال ابن عبد السلام في أماليه: فائدة التأكيد دفع توهم من يظن أنه إذا عمل السيئة كتبت عليه سيئة العمل، وأضيفت إليها سيئة الهم؛ وليس كذلك، إنما يكتب عليه سيئة واحدة. وقد استثنى بعض العلماء وقوع المعصية في الحرم المكي. قال إسحق بن منصور: قلت لأحمد: هل ورد في شيء من الحديث أن السيئة تكتب بأكثر من واحدة؟ قال: لا، ما سمعت إلا بمكة، لتعظيم البلد.

والجمهور على التعميم في الأزمنة والأمكنة، لكن قد يتفاوت بالعظم، ولا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[1]؛ لأن ذلك ورد تعظيمًا لحق النبي ﷺ؛ لأن وقوع ذلك من نسائه يقتضي أمرًا زائدًا على الفاحشة وهو أذى النبي ﷺ. وزاد مسلم بعد قوله: «أو يمحوها» «ولا يهلك على اللّٰه إلا هالك» أي: من أصر على التجري على السيئة عزمًا وقولًا وفعلًا، وأعرض عن الحسنات همًّا وقولًا وفعلًا. قال ابن بطال: في هذا الحديث بيان فضل اللّٰه العظيم على هذه الأمة؛ لأنه لولا ذلك كاد لا يدخل أحد الجنة؛ لأن عمل العباد للسيئات أكثر من عملهم للحسنات. ويؤيد ما دل عليه حديث الباب من الإثابة على الهم بالحسنة، وعدم المؤاخذة على الهم بالسيئة قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2] إذ ذكر في السوء الافتعال الذي يدل على المعالجة والتكلف فيه بخلاف الحسنة. وفيه ما يترتب للعبد على هجران لذته وترك شهوته من أجل ربه، رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه. واستدل به على أن الحفظة لا تكتب المباح، للتقييد بالحسنات والسيئات. وأجاب بعض الشراح بأن بعض الأئمة عد المباح من الحسن. وتعقب بأن الكلام فيما يترتب على فعله حسنة، وليس المباح، ولو سمي حسنا كذلك. نعم قد يكتب حسنة بالنية وليس البحث فيه... وفيه أن اللّٰه ﷻ بفضله وكرمه جعل العدل في السيئة والفضل في الحسنة، فضاعف الحسنة ولم

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٠).

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

يضاعف السيئة؛ بل أضاف فيها إلى العدل الفضل. فأدارها بين العقوبة والعفو، بقوله: «كتبت له واحدة أو يمحوها» وبقوله: «**فجزاؤه بمثلها أو أغفر**»»[١].

قوله ﷺ: «**إلى أضعاف كثيرة**»:

قال ابن هبيرة: «وكثيرة هنا نكرة وهي أشمل من المعرفة، فيقتضي هذا أن يحسب توخيه الكثرة على أكثر ما يمكن، ثم يقدر لتناول هذا الوعد الكريم بأن يقول: إذا تصدق الآدمي بحبة بر فإنه يحسب له ذلك في فضل الله ﷻ؛ أنه لو بذر تلك الحبة في أزكى أرض، وكان له من التعاهد والحفظ والري أوفى ما يقتضيه حالها، ثم إنها إذا استحصدت نظر في حاصلها، ثم قدر أن ذلك بذر في أزكى أرض، وكان التعاهد له على تلك الحال التي تقدم ذكرها، ثم هكذا في السنة الثالثة، ثم يستمر له ذلك إلى يوم القيامة، فتأتي الحبة من البر أو الخردل أو الخشخاش؛ وهي أمثال الجبال الرواسي، وإن كانت مثال ذرة من جنس الأثمان؛ فإنه ينظر إلى أربح شيء يشترى في ذلك الوقت، ويقدر أنه لو بيع في أنفق سوق في أعظم بلد يكون ذلك الشيء فيه أشد الأشياء نفاقا ثم يضاعف، وتردد هكذا إلى يوم القيامة، فأتى الذرة، وربما تكون مقدارها على قدر عظم الدنيا كلها.

وعلى هذا جميع أعمال البر في معاملة الله ﷻ، إذا خرجت سهامها عن نية وأغرقت في نزع قوس الإخلاص، كانت تلك السهام ممتدة لا تنتهي عن يوم القيامة، ومن ذلك أن فضل الله ﷻ يتضاعف بالتحويل في مثل أن يتصدق الإنسان على فقير بدرهم، فيؤثر الفقير بذلك الدرهم بعينه من هو أشد فقرًا منه، فيؤثر به الثالث رابعًا، ويؤثر به الرابع خامسًا، والخامس سادسًا، وهكذا مما تطاول، فإن الله ﷻ يحسب للمتصدق عن كل درهم عشرة، فإذا تحول إلى الثاني انتقل ذلك السعر الذي كان للأول إلى الثاني، فصار للثاني عشرة دراهم، وللأول عن عشرته التي انتقلت عشرة إلا أنها عشرة معشرة؛ لأن له أجره وأجر من عمل به، فكل واحد بعشرة فصارت مائة.

فإذا تصدق بها الثاني صارت للثاني مائة وللأول ألف، وإذا تصدق بها الثالث صار له مائة وللثاني ألف وللأول عشرة ألف، فتضاعف إلى ما لا يعلم مقداره

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٩٦-٤٠٠).

إلا اللَّه تعالى؛ وذلك لأن للمتصدق الأول بالدرهم أجره وأجر من عمل به، فكلما تحول من شخص إلى شخص ضوعف ذلك للمتصدق الأول في سعره؛ من حيث إن له مثل أجره وأجر من عمل به بالسعر الذي ينتقل إليه»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل. وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم -مرتين- والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها**»[2].

★ **غريب الحديث:**

جُنّة: الجُنّة بضم الجيم: الوقاية والستر؛ أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات.

يرفث: بالضم والكسر، والمراد بالرفث هنا الكلام الفاحش، ويطلق أيضًا على الجماع، وعلى مقدماته.

خلوف: بضم المعجمة واللام وسكون الواو بعدها فاء؛ أي: تغير رائحة فم الصائم بسبب الصيام.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: «قوله في حديث أبي هريرة: «**إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**» يدل على أن الصيام لا يعلم قدر مضاعفة ثوابه إلا اللَّه ﷻ؛ لأنه أفضل أنواع الصبر، و﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] وقد روي هذا المعنى عن طائفة من السلف، منهم كعب وغيره. وقد ذكرنا فيما سبق في شرح حديث: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[4] أن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون

---

(١) الإفصاح (٣/ ٧٩-٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٥)، والبخاري (٤/ ١٣٠/ ١٨٩٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٦/ ١١٥١[١٦٤])، وأبو داود (٢/ ٧٦٨/ ٢٣٦٣)، والنسائي (٤/ ٤٧١-٤٧٢/ ٢٢١٤).

(٣) الزمر: الآية (١٠).

(٤) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٨٣/ ٢٣١٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥-١٣١٦/ ٣٩٧٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٤٦٦/ ٢٢٩).

بحسب حسن الإسلام، كما جاء ذلك مصرحا به في حديث أبي هريرة وغيره، وتكون بحسب كمال الإخلاص، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه، وبحسب الحاجة إليه»(١).

قال الحافظ أبو زرعة العراقي: «ظاهره يقتضي أن أقل التضعيف عشرة أمثال وغايته سبعمائة ضعف، وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾(٢) فقيل المراد يضاعف هذا التضعيف وهو السبعمائة. وقيل المراد: يضاعف فوق السبعمائة لمن يشاء، وقد ورد التضعيف بأكثر من السبعمائة؛ ففي الحديث الصحيح «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»(٣)».

ثم ذكر أحاديث أخرى إلى أن قال: «قال والدي رحمه اللَّه في شرح الترمذي: «. . . والجمع بين هذه الأحاديث وبين حديث أبي هريرة: أنه لم يرد بحديث أبي هريرة انتهاء التضعيف، بدليل أن في بعض طرقه «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة» فقد بين بهذه الزيادة أن التضعيف يزاد على السبعمائة، والزيادة من الثقة مقبولة على الصحيح. انتهى»(٤).

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، ألا وهما يسير ومن يعمل بهما قليل، يسبح اللَّه في دبر كل صلاة عشرًا، ويحمده عشرًا، ويكبره عشرًا**»، قال: فأنا رأيت رسول اللَّه ﷺ يعقدها بيده، قال: «**فتلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة؛ فتلك مائة باللسان وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟**» **قالوا: وكيف لا يحصيهما! قال: «يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته فيقول: اذكر كذا اذكر**

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣١٦). (٢) البقرة: الآية (٢٦١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩)، والبخاري (٣/ ٨١/ ١١٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠١٢/ ١٣٩٤[٥٠٥])، والترمذي (٥/ ٦٧٥) عقيب الحديث (٣٩١٦)، والنسائي (٥/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٢٨٩٩)، وابن ماجه (١/ ٤٥٠/ ١٤٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) طرح التثريب (٤/ ١٠٣-١٠٤).

كذا حتى ينتقل فلعله لا يفعل، ويأتيه وهو في مضجعه فلا يزال ينومه حتى ينام»[(١)].

⋆ **غريب الحديث:**

خلتان: بفتح الخاء أي خصلتان.

لا يحصيهما: أي لا يحافظ عليهما.

دبر: عقب.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «فتلك أي العشرات الثلاث دبر كل صلاة من الصلوات الخمس خمسون ومائة؛ أي: في يوم وليلة حاصلة من ضرب ثلاثين في خمسة أي مائة وخمسون حسنة باللسان؛ أي: بمقتضى نطقه في العدد، وألف وخمسمائة في الميزان؛ لأن كل حسنة بعشر أمثالها على أقل مراتب المضاعفة الموعودة في الكتاب والسنة»[(٢)].

وقال: «قوله: «**فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة**»: في الاستفهام نوع إنكار، يعني إذا حافظ على الخصلتين، وحصل ألفان وخمسمائة حسنة في يوم وليلة، فيعفى عنه بعدد كل حسنة سيئة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٣)] فأيكم يأتي بأكثر من هذا من السيئات في يومه وليلته حتى لا يصير معفوًّا عنه، فما لكم لا تأتون بهما ولا تحصونهما»[(٤)].

* **عن عبد الله بن مسعود** ﷺ **قال: قال رسول الله** ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠-١٦١)، وأبو داود (٥/ ٣٠٩-٣١٠/ ٥٠٦٥)، والترمذي (٥/ ٤٤٥-٤٤٦/ ٣٤١٠) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٨٣-٨٤/ ١٣٤٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩٩/ ٩٢٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٥/ ٣٥٤/ ٢٠١٢).

(٢) المرقاة (٥/ ٢٥١).

(٣) هود: الآية (١١٤).

(٤) المرقاة (٥/ ٢٥٢).

(٥) أخرجه: الترمذي (٥/ ١٦١/ ٢٩١٠) وقال: «ويروى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم، عن ابن مسعود». وقال: «هذا حديث حسن=

* عن خريم بن فاتك ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أنفق نفقة في سبيل اللَّه كتبت له بسبعمائة ضعف**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال القاري: ««من أنفق نفقة» أي: صرف نفقة صغيرة أو كبيرة «كتبت له سبعمائة ضعف» أي: مثل. وهذا أقل الموعود واللَّه يضاعف لمن يشاء»[٢].

وقال المناوي: «أخذ منه بعضهم أن نهاية التضعيف ورد بآية ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣]»[٤].

* عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال المازري: «قال بعض أهل العلم: معنى ذلك أن الحسنة لما كانت بعشر أمثالها؛ كان مبلغ ماله من الحسنات في صوم الشهر والسنة أيام ثلاثمائة وستين حسنة عدد أيام السنة، فكأنه صام سنة كاملة يكتب له في كل يوم منها حسنة»[٦].

وتعقبه القاضي عياض فقال: «ما حكاه عن بعض أهل العلم نص في الحديث نفسه من رواية ثوبان؛ قال ﷺ: «**صيام شهر رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة بشهرين؛ فذلك صيام سنة**» وفي رواية أخرى: «**الحسنة بعشر فشهر بعشرة وستة بعد**

= صحيح غريب من هذا الوجه». وصححه الحاكم (١/ ٥٥٥)، وتعقبه الذهبي بقوله: «لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف». وصححه الألباني في المشكاة (١/ ٦٥٩) وقال في الصحيحة (٢/ ٢٦٣) بعد ذكره لكلام الترمذي: «إسناده جيد».

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٢و٣٤٥و٣٤٦)، والترمذي (٤/ ١٤٣-١٤٤/ ١٦٢٥) وحسنه، والنسائي (٦/ ٣٥٦/ ٣١٨٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٥٠٤/ ٤٦٤٧)، والحاكم (٢/ ٨٧). قال الذهبي: «مسلمة تعبت عليه فلم أعرفه».

(٢) المرقاة (٤/ ١٨٥) المكتبة الإسلامية.

(٣) البقرة: الآية (٢٦١).

(٤) فيض القدير (٦/ ٩٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٤١٧)، ومسلم (٢/ ٨٢٢/ ١١٦٤)، وأبو داود (٢/ ٨١٢-٨١٣/ ٢٤٣٣)، والترمذي (٣/ ١٣٢/ ٧٥٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٦٤/ ٢٨٦٦)، وابن ماجه (١/ ٥٤٧/ ١٧١٦).

(٦) المعلم (٢/ ٤٣).

الفطر تمام السنة»[١]»[٢].

وقال ابن القيم: «العمل له -بالنسبة إلى الجزاء- اعتباران: اعتبار المقابلة والمساواة، وهو الواحد بمثله، واعتبار الزيادة والفضل، وهو المضاعفة إلى العشر، فالتشبيه وقع بين العمل المضاعف ثوابه، وبين العمل الذي يستحق به مثله، ونظير هذا: قوله ﷺ: «من صلى عشاء الآخرة في جماعة فكأنما قام نصف ليلة، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة فكأنما قام ليلة»[٣]»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٠)، وابن ماجه (١/ ٥٤٧/ ١٧١٥)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٦٢-١٦٣/ ٢٨٦٠-٢٨٦١)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢٩٨/ ٢١١٥)، وابن حبان (الإحسان ٨/ ٣٩٨/ ٣٦٣٥).

(٢) إكمال المعلم (٤/ ١٣٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٩٥)، ومسلم (١/ ٤٥٤/ ٦٥٦)، وأبو داود (١/ ٣٧٩/ ٥٥٥)، والترمذي (١/ ٤٣٣/ ٢٢١).

(٤) تهذيب السنن بهامش عون المعبود (٧/ ٩٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

★ غريب الآية:

قيمًا: أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه.

الملة: الشريعة والدين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم اللَّه به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائمًا ثابتًا، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾(١)، وقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾(٢)، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية؛ أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال. ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام»(٤).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «قد ختم اللَّه تعالى هذه السورة بهذه الآيات

---

(١) البقرة: الآية (١٣٠).
(٢) الحج: الآية (٧٨).
(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٣).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦).

الكريمة الجامعة، فكانت خير الخواتيم في براعة المقطع؛ ذلك بأننا بينا في مواضع من تفسيرها: أنها أجمع السور لأصول الدين، وإقامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها، ولإبطال عقائد الشرك وتقاليده وخرافات أهله، وهذه الخاتمة مناسبة لجملة السورة في أسلوبها ومعانيها؛ ذلك بأنه كان مما امتازت به السورة كثرة بدء الآيات فيها بخطاب الرسول ﷺ بكلمة (قل)؛ لأنها لتبليغ الدعوة، كما كثر فيها حكاية أقوال أهل الشرك والكفر مبدوءة بكلمة (وقالوا) مع التعقيب عليها بكشف الشبهة وإقامة الحجة، ترى بعد هذا وذاك في آخر العشر الأول وأول العشر الثاني منها، فجاءت هذه الخاتمة بالأمر الأخير له ﷺ: بأن يقول لهم القول الجامع لجملة ما قبله، وهو أن ما فصل في السورة هو صراط اللَّه المستقيم، ودينه القيم الذي هو ملة إبراهيم، دون ما يدعيه العرب المشركون، وأهل الكتاب المحرفون، وأنه عليه صلوات اللَّه وسلامه؛ إنما يدعو إليه وهو معتصم به قولًا وعملًا، وإيمانًا وتسليمًا على أكمل وجهه، فهو أول المسلمين، وأخلص الموحدين، وأخشع العابدين، بما جاء به من تجديد الدين وإكماله، بعد تحريفه وانحراف جميع الأمم عن صراطه، وأن توحيد الألوهية الذي يخالفنا فيه المشركون مبني على توحيد الربوبية الذي هم به مؤمنون ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] وأن الجزاء عند اللَّه على الأعمال مبني على عدم انتفاع أحد أو مؤاخذته بعمل غيره، وأن المرجع إلى اللَّه تعالى وحده، وأن له تعالى سننا في استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم، وأنه هو الذي يتولى عقاب المسيئين والرحمة للمحسنين، وكل ذلك مما يهدم أساس الشرك الذي هو الاتكال على الوسطاء بين اللَّه والناس في غفران ذنوبهم وقضاء حاجتهم.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قل أيها الرسول الخاتم للنبيين لقومك وسائر أمة الدعوة وهم جميع البشر: إنني أرشدني ربي وأوصاني بما أوحاه إلي بفضله واختصاصه في هذه السورة وكذا غيرها إلى طريق مستقيم، يصل سالكه إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة، من غير عائق ولا تأخير؛ لأنه لا عوج فيه ولا اشتباه، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2] وهو الذي أدعوكم

(١) يوسف: الآية (١٠٦).
(٢) الفتح: الآية (٢).

إلى طلبه منه تعالى في مناجاتكم إياه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ أي: أن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذي يصلح ويقوم به أمر الناس في المعاش والمعاد، فقوله: ﴿دِينٗا﴾ بدل من ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ باعتبار المحل، و﴿قِيَمٗا﴾ صفة له...

﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ أي: أعني -أو ألزموا- ملة إبراهيم حال كونه حنيفًا؛ أي: مائلًا عن جميع ما سواه من الشرك والباطل والعوج والضلال، مستقيمًا عليه، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فإن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم. وقد وصف إبراهيم بالحنيف في سورة (البقرة) (١٣٥) وسورة (آل عمران) (٦٧) و(٩٥) وسورة النحل (١٢٠) و(١٢٣) و وسورة الأنعام (٨٠) وهذه الآية التي نفسرها، وفي كل آية من هذه الآيات وصف بأنه لم يكن من المشركين، وجاء في سورة النساء: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[1] ولكن قيل: إن ﴿حَنِيفٗا﴾ هنا حال ممن أسلم وجهه لله. وقيل: من إبراهيم.

هذا الدين دين التوحيد والاستقامة والإخلاص لله وحده في العبادة؛ هو الدين الذي بعث اللَّه به جميع رسله، وقرره في جميع كتبه، وإنما عبر عنه بملة إبراهيم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام وعلى آله هو النبي المرسل الذي أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه وحسن هديه؛ العرب ومن حولهم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وكل يدعي الاهتداء بهداه، وقد كانت قريش ومن وافقها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء؛ مدعين أنهم على ملة إبراهيم، ولذلك وصل وصفه بالحنيف بنفي الشرك عنه، وكذا فعل أهل الكتاب بادعاء اتباعه واتباع موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكذا يفعل أهل البدع الشركية من المنتمين إلى الإسلام؛ لأن الشرك والكفر يسري إلى أكثر الناس من حيث لا يشعرون أنه شرك وكفر... وقد قال تعالى في إرشاد هذه الأمة ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ﴾[2]، ومثله في أواخر سورة

---

(١) النساء: الآية (١٢٥).

(٢) الحج: الآيتان (٣٠ و ٣١).

(يونس): ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]، وفي سورة (الروم): ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢].

فهذا بمعنى ما نحن بصدد تفسيره في جملته وسياقه، كما نبهنا إليه في الكلام على التفرق في الدين وما هو ببعيد.

وأما أمره تعالى لخاتم رسله بالإخبار بأن ما هداه اللّٰه تعالى إليه من الدين القيم هو ملة إبراهيم، فهو بمعنى أمره باتباع ملة إبراهيم في سورة (النحل) حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣] فحكمة كل من الإخبار والأمر استمالة العرب، ثم أهل الكتاب إلى الإسلام ببيان أن أساسه وقواعد عقائده ودعائم فضائله هي ما كان عليه إبراهيم المتفق على هداه وجلالته، وكذا سائر رسل اللّٰه تعالى، وإنما تختلف الأحكام العملية من العبادات والمعاملات المدنية والسياسية... وإذ علمنا حكمة الإخبار والأمر باتباع ملة إبراهيم؛ فلا مجال بعد لتوهم أن إبراهيم أفضل، ولا أن ملته أكمل، إذ ليس هذا بمناف ولا بمعارض لنص آية إكمال الدين، وإتمام النعمة على العالمين، على لسان خاتم النبيين، المبعوث رحمة للخلق أجمعين»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة مما يمتاز به هذا الدين من السماحة والوسطية

* عن ابن عباس ﷺ قال: قيل لرسول اللّٰه ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟

---

(١) يونس: الآية (١٠٥).

(٢) الروم: الآيات (٣٠-٣٢).

(٣) النحل: الآيات (١٢٠-١٢٣).

(٤) تفسير المنار (٨/ ٢٣٨-٢٤١).

قال: «**الحنيفية السمحة**»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة**»[٢].

★ غريب الحديثين:

الحنيفية: ملة إبرهيم، والحنيف في اللغة من كان على ملة إبراهيم، وسمي إبراهيم حنيفًا لميله عن الباطل إلى الحق؛ لأن أصل الحنيف الميل.

السمحة: السهلة، أي أنها مبنية على السهولة.

★ فوائد الحديثين:

فيه أن اللَّه هدى نبيه ﷺ إلى صراط مستقيم، وهو الدين القيم.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «أحب الدين» أي: خصال الدين؛ لأن خصال الدين كلها محبوبة، لكن ما كان منها سمحًا أي: سهلًا؛ فهو أحب إلى الله»[٣].

قال ابن القيم: «فهي حنيفية في التوحيد وعدم الشرك، سمحة في العمل، وعدم الآصار والأغلال، بتحريمهم من الطيبات الحلال. فيعبد سبحانه بما أحبه، ويستعان على عبادته بما أحله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[٤].

وهذا هو الذي فطر اللَّه عليه خلقه، وهو محبوب لكل أحد، مستقر سنته في كل فطرة، فإنه يتضمن التوحيد، وإخلاص القصد، والحب لله وحده، وعبادته وحده

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه (١/ ١٢٦) تعليقًا، ووصله في الأدب المفرد (٢٨٧)، وأحمد (١/ ٢٣٦)، والبزار (كشف الأستار ١/ ٥٨-٥٩/ ٧٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٢٧/ ١١٥٧١، ١١٥٧٢)، وفي الأوسط (٢/ ١٠/ ١٠١٠). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٦٠): «وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، ولم يصرح بالسماع» اهـ. وله شواهد كثيرة انظرها في المجمع وفي التغليق (٢/ ٤١-٤٣). وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٢٦): «إسناده حسن».

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٦، ٢٣٣). قال الحافظ في التغليق (٢/ ٤٣): «هذا الإسناد حسن» اهـ. وأصل الحديث في الصحيحين في قصة لعب الحبشة في المسجد.

(٣) فتح الباري (١/ ١٢٦).

(٤) المؤمنون: الآية (٥١).

بما يجب أن يعبد به، والأمر بالمعروف الذي تحبه القلوب، والنهي عن المنكر الذي تبغضه وتنفر منه، وتحليل الطيبات النافعة، وتحريم الخبائث الضارة»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[٢].

★ غريب الحديث:

علات: «بفتح المهملة: الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب، وأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «معنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»[٤].

قال القاضي عياض: «إنما يرجع إلى التوحيد الذي هم مجمعون عليه، أو على طاعة اللَّه واتباع شرائعه على الجملة، وأما شرائعهم فمختلفة»[٥].

* * *

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٣٣٦-٣٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٠٥).

(٤) فتح الباري (٦/ ٦٠٥).

(٥) إكمال المعلم (٧/ ٣٣٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

النسك: جمع نسيكة، وهي الذبيحة التي يتقرب بها إلى اللَّه. وقيل: النسك: العبادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يأمره تعالى -يعني: نبيه- أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللَّه ويذبحون لغير اسمه؛ أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[1] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره اللَّه تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى»[2].

قال ابن العربي: «مقام التسليم لله ودرجة التفويض إلى الله؛ بناء عن مشاهدة توحيد ومعاينة يقين وتحقيق، فإن الكل من الإنسان لله أصل ووصف، وظاهر وباطن، واعتقاد وعمل، وابتداء وانتهاء، وتوقف وتصرف، وتقدم وتخلف، لا شريك له فيه، لا منه ولا من غيره يضاهيه أو يدانيه»[3].

قال شيخ الإسلام: «لم يشرع اللَّه تعالى للمسلمين مكانًا يقصد للصلاة إلا المسجد، ولا مكانًا يقصد للعبادة إلا المشاعر. فمشاعر الحج كعرفة ومزدلفة ومنى تقصد بالذكر والدعاء والتكبير، لا الصلاة، بخلاف المساجد، فإنها هي التي

(١) الكوثر: الآية (٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٧٧).
(٣) أحكام القرآن (٢/ ٧٧١-٧٧٢).

تقصد للصلاة، وما ثم مكان يقصد بعينه إلا المساجد والمشاعر، وفيها الصلاة والنسك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ وما سوى ذلك من البقاع فإنه لا يستحب قصد بقعة بعينها للصلاة، ولا الدعاء، ولا الذكر؛ إذ لم يأت في شرع الله ورسوله قصدها لذلك، وإن كان مسكنًا لنبي أو منزلًا أو ممرًا.

فإن الدين أصله متابعة النبي ﷺ، وموافقته بفعل ما أمرنا به وشرعه لنا وسنه لنا، ونقتدي به في أفعاله التي شرع لنا الاقتداء به فيها، بخلاف ما كان من خصائصه.

فأما الفعل الذي لم يشرعه هو لنا، ولا أمرنا به ولا فعله فعلًا سن لنا أن نتأسى به فيه؛ فهذا ليس من العبادات والقرب، فاتخاذ هذا قربة مخالفة له ﷺ، وما فعله من المباحات على غير وجه التعبد؛ يجوز لنا أن نفعله مباحًا كما فعله مباحًا، ولكن هل يشرع لنا أن نجعله عبادة وقربة؟ فيه قولان، كما تقدم. وأكثر السلف والعلماء على أنا لا نجعله عبادة وقربة، بل نتبعه فيه؛ فإن فعله مباحا فعلناه مباحا، وإن فعله قربة فعلناه قربة»[1].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال قتادة: أي: من هذه الأمة. وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4]، وقال يوسف ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[5]، وقال موسى:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٥٠٣-٥٠٤).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٥). (٣) يونس: الآية (٧٢).

(٤) البقرة: الآيات (١٣٠-١٣٢).

(٥) يوسف: الآية (١٠١).

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾(٢) الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة. ولهذا قال عليه السلام: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد**»(٤)، فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا، بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، واللَّه أعلم»(٥).

قال شيخنا تقي الدين الهلالي: «قول ابن كثير: (إن أصل الإسلام عبادة اللَّه وحده لا شريك له) يريد بذلك الإسلام الصحيح الذي يكون فيه القلب مطابقا للسان والجوارح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٦) أما إسلام المنافقين وأدعياء الإسلام من المشركين، فإنه لا ينفعهم ولا يرفعهم، بل هم في الدرك الأسفل من النار، فمن يلتجئ إلى غير اللَّه في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو يحلل ما حرم اللَّه، أو يستحسن الحكم بغير ما أنزل اللَّه، فلا حظ له في الإسلام الصحيح، ولا نجاة له من الخلود في العذاب الأليم، إن لم يتب ويخلص الدين لله تعالى قبل موته»(٧).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذا بيان إجمالي لتوحيد الإلهية بالعمل، بعد بيان أصل التوحيد المجرد بالإيمان، والمراد بالصلاة جنسها الشامل للمفروض

---

(١) يونس: الآيات (٨٤-٨٦).
(٢) المائدة: الآية (٤٤).
(٣) المائدة: الآية (١١١).
(٤) مضى تخريجه انظر الآية قبل هذه.
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٦) آل عمران: الآية (١٩).
(٧) سبيل الرشاد (١/ ٢٠٥).

والمستحب، والنسك في الأصل العبادة أو غايتها، والناسك العابد، ويكثر استعماله في القرآن والحديث في عبادة الحج، وعبادة الذبائح والقرابين فيه أو مطلقًا، وفسر بالوجهين قوله تعالى في حكاية دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[1] وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[2] فلا خلاف في أن المراد به عبادات الحج كلها، كما أنه لا خلاف في تخصيص النسك ببعض الذبائح في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3] فالنسك في هذه الفدية ذبح شاة. وقوله تعالى في سورة (الحج): ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[4] قد عين التعليل السياق كون المراد بالنسك وهو مصدر ميمي أو اسم للمكان الذي تذبح فيه القرابين أو تنحر تقربًا إليه تعالى، وبعد هذه الآية آيات أخرى في ذلك خاصة. وأما قوله بعد آيات أخرى منها: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] فالسياق يدل على أنه أعم ما ورد من هذا الحرف في القرآن، وأنه بمعنى الدين أو الشريعة هو ما قدمه بعضهم، ولكن روي تفسيره في المأثور بالذبح، وفسره بعضهم بالعيد... وإذا فسر النسك بالعبادة مطلقًا؛ يكون عطفه على الصلاة من عطف العام على الخاص لأنها منه، وإلا كان سبب الاقتصار على ذكر هذين النوعين أو الثلاثة من العبادة؛ هو كونها أعظم مظاهر العبادة التي فشا فيها الشرك، فأما الصلاة فروحها الدعاء والتعظيم وتوجه القلب إلى المعبود والخوف منه والرجاء فيه، وكل ذلك مما يقع فيه الشرك ممن يغلون في تعظيم الصالحين، وما يذكر بهم كقبورهم أو صورهم وتماثيلهم، وأما الحج والذبائح فالشرك فيهما أظهر، وقلما يقع الشرك في الصيام لأنه أمر سلبي خفي، ولكن بعض النصارى ابتدعوا صيامًا أضافوه إلى بعض مقدسيهم كصوم السيدة! ولا أعلم أن أحدًا من المسلمين اتبعهم فيه، ولا ينافي هذا صدق الحديث الصحيح الوارد في اتباعهم سننهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، فإنه في الكليات دون الجزئيات.

(١) البقرة: الآية (١٢٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٠٠).
(٣) البقرة: الآية (١٩٦).
(٤) الحج: الآية (٣٤).
(٥) الحج: الآية (٦٧).

وقد كانت الذبائح عند الوثنيين من العبادات يقربونها لآلهتهم ويهلون بها لهم، ثم سرى ذلك إلى بعض أهل الكتاب، فخرجوا بقرابينهم عما شرعت له من كفارة يتقرب بها إلى اللَّه وحده، فصاروا يهلون بها للأنبياء والصالحين، وينذرونها لأولئك القديسين، وذلك كله من عبادة الشرك، فمن فعلها من المسلمين فله حكم من فعلها من أولئك المشركين. . . والعبادات إنما تمتاز على العادات بالتوجه فيها إلى المعبود؛ تقربًا إليه وتعظيمًا له وطلبًا لمثوبته ومرضاته، وكل من يتوجه إليه المصلي أو الذابح بذلك ويقصد به تعظيمه؛ فهو معبود له، سواء عبر فاعله عن ذلك بقول يدل عليه أم لا؟ فالعبادة لا تنبغي إلا لله رب العباد وخالقهم، فإن توجه أحد إليه وإلى غيره من عباده المكرمين، أو غيرهم مما يستعظم خلقه؛ كان مشركًا، واللَّه لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

إن كون الصلاة والنسك لا يكونان في الدين الحق إلا خالصين لله وحده؛ أمر ظاهر يعد من ضروريات الدين. وأما المحيا والممات فهما مصدران ميميان بمعنى الحياة والموت. . . والمتبادر أن معنى كون حياة الرسول ﷺ وموته، وكذا من تأسى به لله وحده؛ هو أنه قد وجه وجهه وحصر نيته وعزمه في حبس حياته لطاعته ومرضاته تعالى، وبذلها في سبيله ليموت على ذلك كما يعيش عليه. . . وبهذا تكون الآية جامعة لجميع الأعمال الصالحة التي هي غرض المؤمن الموحد من حياته، وذخيرته لمماته بجعلها خالصة لله رب العالمين. ولفظ الجلالة (الله) و(رب العالمين) لم يكن المشركون يطلقونهما على معبوداتهم ولا معبودات غيرهم المتخذة، التي أشركوها مع الخالق ﷻ. . . فتذكر أيها المؤمن أن الذي يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله؛ يتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه؛ ليكون قدوة في الحق والخير في الدنيا، وأهلًا لرضوان ربه الأكبر في الآخرة. ثم يتحرى أن يموت ميتة مرضية لله تعالى، فلا يحرص على الحياة لذاتها، ولا يخاف الموت فيمنعه الخوف من الجهاد في سبيل اللَّه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة ميزان العدل والأخذ على أيدي أهل الجور، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذا مقتضى الدين يقوم به من يأخذه بقوة، ولا يفكر فيه من يكتفون بجعله من قبيل الروابط الجنسية، والتقاليد الاجتماعية، فأين أهل المدنية المادية من أهل الدين إذا أقاموه كما أمر

الله؟ أولئك الماديون الذين لا هم لهم في حياتهم إلا التمتع بالشهوات الحيوانية، والتعديات الوحشية، يعدو الأقوياء منهم على الضعفاء لاستعبادهم، وتسخيرهم لشهواتهم ومنافعهم، ولكن المنتمين إلى الدين في هذه القرون الأخيرة قد تركوا هدايته، وفتنوا بزينة أهل المدنية المادية وقوتهم، ولم يجاروهم في فنونهم وصناعاتهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، ولو اعتصموا بحبله المتين، وعادوا إلى صراطه المستقيم، لنالوا سيادة الدنيا وسعادة الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، وعسى أن يكون الزمان قد أيقظهم من رقادهم، وهداهم إلى السير على سنن أجدادهم، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: لا شريك له تعالى في ربوبيته، فيستحق أن يكون له شركة ما في عبادته، بأن يتوجه إليه معه لأجل التأثير في إراداته، أو تذبح له النسائك لأجل شفاعته عنده ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[2]. ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ التجريد في التوحيد والبراءة من الشرك الجلي والخفي، أمرني ربي، ولا يعبد الرب إلا بما أمر، دون أهواء الأنفس ونظريات العقول وتقاليد البشر. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: على الإطلاق في علو الدرجة والرتبة، وأولهم في الزمن بالنسبة إلى هذه الأمة، وبيان هذا أنه ﷺ أكمل المذعنين لأمر ربه ونهيه، بحسب ما أعطاه من الدرجات العلى التي فضله بها على جميع رسله، كما أنه أول من لقنه ربه الإسلام، في هذه الأمة الشاملة دعوتها لجميع الأنام، والموصوفة بعد إجابة الدعوة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وقد يستلزم عموم بعثته وخيرية أمته أوليته ﷺ، وأولويته بالتقدم على الرسل الذين بعثوا قبله أيضًا، فيكون أولًا في كل من مزاياه الخاصة ورسالته العامة المتعدية»[3].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيئًا لغير الله كائنًا من كان، فمن صرف منها شيئًا لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في العبادة وبيانه، ونفي

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٤١-٢٤٥).
(٤) الأنعام: الآية (٧٩).

الشرك والبراءة منه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناية النبي ﷺ بالتوحيد، وبراءته من الشرك

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. اللهم! أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**». **وإذا ركع قال**: «**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي**». **وإذا رفع قال**: «**اللهم ربنا لك الحمد؛ ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**». **وإذا سجد قال**: «**اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك اللَّه أحسن الخالقين**» **ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم**: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «وتوجيه الوجه كقول الخليل ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣]. وكذلك كان النبي ﷺ يقول في

(١) قرة عيون الموحدين (ص: ٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩٤-٩٥)، ومسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٦/ ٧٧١)، وأبو داود (١/ ٤٨١-٤٨٣/ ٧٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٢-٤٥٣/ ٣٤٢١)، والنسائي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٨٩٦)، ورواه ابن ماجه (١/ ٣٣٥/ ١٠٥٤) مختصرًا.

(٣) الأنعام: الآية (٧٩).

دعاء الاستفتاح في صلاته ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وكان يقول إذا أوى إلى فراشه: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك**» رواه البراء بن عازب في الصحيح أيضًا، فالوجه يتناول المتوجه بكسر الجيم والمتوجه بفتح الجيم إليه، ويتناول التوجه نفسه كما يقال: أي وجه تريد؟ أي: أي جهة، وناحية تقصد، وذلك أنهما متلازمان، فحيث توجه الإنسان توجه وجهه، ووجهه مستلزم لتوجهه، وهذا في باطنه وظاهره جميعًا فهي أربعة أمور، والباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال والشعار فإذا توجه قلبه إلي شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى اللَّه فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع له أن يكون عمله صالحا وأن يكون لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2]، وهو قول عمر رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[3].

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ قال فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يسر إلي شيئًا يكتمه الناس، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، قال فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: قال: «**لعن اللَّه من لعن والديه، ولعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه، ولعن اللَّه من آوى محدثًا، ولعن اللَّه من غير منار الأرض**»[4].

★ **غريب الحديث:**

محدثًا: قال في النهاية: «المحدث يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: من نصر جانيا أو آواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه. والفتح: هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه

---

(١) الأنعام: الآية (٧٩).

(٢) الكهف: الآية (١١٠).

(٣) الاستقامة (٢/ ٣٠٦-٣٠٨).

(٤) رواه: أحمد (١/ ١٠٨)، ومسلم (٣/ ١٥٦٧/ ١٩٧٨)، والنسائي (٧/ ٢٦٦/ ٤٤٣٤).

الرضا به والصبر عليه، فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه؛ فقد آواه»[1].

منار: قال في النهاية: «المنار: جمع منارة، وهي العلامة تجعل بين الحدين. ومنار الحرم: أعلامه التي ضربها الخليل ﷺ على أقطاره ونواحيه. والميم زائدة»[2].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما الذبح لغير الله؛ فالمراد به أن يذبح باسم غير اللَّه تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى اللَّه عليهما، أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة، سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا . . . فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير اللَّه تعالى والعبادة له؛ كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًّا»[3].

* * *

(١) النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٥١).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٥/ ١٢٧).
(٣) شرح مسلم (١٣/ ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾؛ أي: أطلب ربًا سواه، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَرُبُّنِي ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري؛ أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا، كما قال تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(٢)، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾(٣)، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾(٤)، وأشباه ذلك من الآيات»(٥).

قال ابن القيم: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيدًا وإلهًا» يعني: فكيف أطلب ربًا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٦) يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً. وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾(٧) أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلًا، مبينًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله

---

(١) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٢) هود: الآية (١٢٣).
(٣) الملك: الآية (٢٩).
(٤) المزمل: الآية (٩).
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٨-٣٧٩).
(٦) الأنعام: الآية (١٤).
(٧) الأنعام: الآية (١١٤).

ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا. ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها. فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا؛ بل يوالي من دونه أولياءَ؛ ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيره حكمًا»[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «ولما بين توحيد الألوهية؛ انتقل إلى برهانه الأعلى، وهو توحيد الربوبية، بما أمره به تعالى في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، والمعنى: أغير الله خالق الخلق وسيدهم ومربيهم بالحق، أطلب ربًّا آخر أشركه في عبادتي له بدعائه والتوجه إليه، أو ذبح النسائك أو نذرها له، لينفعني أو يمنع الضر عني، أو ليقربني إليه زلفى ويشفع لي عنده، كما تفعلون بآلهتكم، والحال أنه تعالى هو رب كل شيء مما عبد ومما لم يعبد، فهو الذي خلق الملائكة وخواص البشر كالمسيح والشمس والقمر والكواكب والأصنام المذكرة ببعض الصالحين وصانعيها ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢]، فإذا كان تعالى هو الخالق المقدر، وهو السيد المالك المدبر، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وفضل بعض المخلوقات على بعض، ولكنها بالنسبة إليه على حد سوى، فكيف أسفه نفسي وأكفر ربي، بجعل المخلوق المربوب مثلي ربًّا لي؟ وقد سبق تقرير هذه المسألة مرارًا في تفسير هذه السورة

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨١-١٨٢).
(٢) الصافات: الآية (٩٦).

وغيرها. ومنه أن جميع المشركين كانوا يقرون بأن معبوداتهم مخلوقة، وأن اللَّه رب العالمين هو خالق الخلق أجمعين»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تزر: لا تحمل.

الوزر: الذنب: سمي بذلك تشبيهًا بالجبل في ثِقَلِهِ لأنه يُثْقِلُ صاحبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «وهذا حكم من اللَّه تعالى نافذ في الدنيا والآخرة؛ وهو ألا يؤخذ أحد بجرم أحد، بيد أنه يتعلق ببعض الناس من بعض أحكام في مصالح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وحماية النفس والأهل عن العذاب، كما قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1]. والأصل في ذلك كله أن المرء كما يفترض عليه أن يصلح نفسه باكتساب الخير؛ فواجب عليه أن يصلح غيره بالأمر به والدعاء إليه والحمل عليه، وهذه فائدة الصحبة، وثمرة المعاشرة، وبركة المخالطة، وحسن المجاورة؛ فإن حسن في ذلك كله كان معافى في الدنيا والآخرة، وإن قصر في ذلك كله كان معاقبًا في الدنيا والآخرة، فعليه أولا إصلاح أهله وولده، ثم إصلاح خليطه وجاره، ثم سائر الناس بعده، بما بيناه من أمرهم ودعائهم وحملهم؛ فإن فعلوا وإلا استعان بالخليفة لله في الأرض عليهم، فهو يحملهم على ذلك قسرًا، ومتى أغفل الخلق هذا فسدت المصالح، وتشتت الأمر، واتسع الخرق، وفات الترقيع، وانتشر التدمير؛ ولذلك يروون أن عمر بن الخطاب كفل المتهمين عشائرهم، وذلك بالتزامهم كفهم أو رفعهم إليه حتى ينظر فيهم، واللَّه يتولى التوفيق برحمته»[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذه الجملة معطوفة على الجملة الحالية قبلها؛

---

(١) التحريم: الآية (٦).

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٧٧٤).

لأنها معللة للإنكار ومقررة للتوحيد مثلها ، وهي قاعدة من أصول دين اللّه تعالى الذي بعث به جميع رسله كما قال في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] وهي من أعظم أركان الإصلاح للبشر في أفرادهم وجماعاتهم ؛ لأنها هادمة لأساس الوثنية ، هادية للبشر إلى ما تتوقف عليه سعادتهم الدنيوية والأخروية (وهو عملهم). وقد بينا مرارًا أن أساس الوثنية طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب ، هي عبارة عن وساطة بعض المخلوقات العظيمة الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس وبين ربهم ، ليعطيهم ما يطلبون في الدنيا من ذلك بدون كسب ولا سعي إليه من طريق الأسباب التي جرت بها سنته تعالى في خلقه ، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبهم تعالى بها ، أو يحملوا الباري تعالى على رفعها عنهم ، وترك عقابهم عليها وعلى إعطائهم نعيم الآخرة وإنقاذهم من عذابها ، أي على إبطال سنته وتبديلها في أمثالهم ، أو تحويلها عنهم إلى غيرهم ، وإن قال في كتابه : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[2] .

فمعنى الجملتين : ولا تكسب كل نفس عاملة مكلفة إثما إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل كل نفس إنما تحمل وزرها وحده : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3] دون ما كسب أو اكتسب غيرها . والوزر في اللغة الحمل الثقيل ، ووزره يزره حمله يحمله . قال ابن عباس في تفسير الجملتين بحاصل المعني : لا يحمل أحد ذنب غيره . فالدين قد علمنا أن نجري على ما أودعته الفطرة من أن سعادة الناس وشقاءهم في الدنيا بأعمالهم ، وأن عمل كل نفس يؤثر فيها التأثير الحسن الذي يزكيها إن كان صالحًا ، أو التأثير السيئ الذي يدسيها ويفسدها إن كان فاسدًا ، وأن الجزاء في الآخرة مبني على هذا التأثير ، فلا ينتفع أحد ولا يتضرر بعمل غيره من حيث هو عمل غيره ، وأما من كان قدوة صالحة في عمل أو معلمًا له ؛ فإنه ينتفع بعمل من أرشدهم بقوله وفعله زيادة على انتفاعه بأصل ذلك القول أو الفعل ، ومن كان قدوة سيئة في عمل أو دالاً عليه

---

(١) النجم : الآيات (٣٦-٣٩). (٢) فاطر : الآية (٤٣).
(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

ومغريًا به فإن عليه مثل إثم من أفسدهم كذلك، وكل من هذا وذاك يعد من عمل الهادين والمضلين، وقد بين النبي ﷺ هذا بقوله: «**من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[1] رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله[2] البجلي والترمذي بلفظ: «**من سن سنة خير... ومن سن سنة شر...**» وبهذا يعلم أنه لا تعارض بين الآية وما في معناها، وبين قوله تعالى في المضلين من الناس: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3]، وقوله فيهم: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[4]»[5].

وقال: «﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ثم إن رجوعكم في الحياة الآخرة التي بعد هذه الحياة الدنيا إلى ربكم وحده، دون غيره مما عبدتم من دونه؛ زاعمين أنهم يقربونكم إليه، فينبئكم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم، إذ كان بعضكم يعبده وحده، وبعضكم قد اتخذ له أندادًا من خلقه، ويتولى هو جزاءكم عليه وحده بحسب علمه وإرادته القديمتين، ويضل عنكم ما كنتم تزعمون من دونه؛ فكيف تعبدون معه غيره؟»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الجائز من البكاء على الميت والممنوع منه

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنًا لي قبض فأتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول: **إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب**. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦١-٣٦٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥)، والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣)، وابن ماجه (١/ ٧٤/ ٢٠٣).

(٢) الأصل: (الملك)، والصواب ما أثبتناه.

(٣) النحل: الآية (٢٥).

(٤) العنكبوت: الآية (١٣).

(٥) تفسير المنار (٨/ ٢٤٥-٢٤٧).

(٦) تفسير المنار (٨/ ٢٤٩).

ابن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول اللَّه ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع -قال: حسبته أنه قال: كأنها شن- ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله! ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها اللَّه في قلوب عباده، وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء**»[1].

★ غريب الحديث:

تقعقع: القعقعة: حكاية صوت الشيء اليابس إذا حرك.

الشنّ: بفتح المعجمة وتشديد النون: القربة الخلقة اليابسة.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول اللَّه ما هذا؟**»: قال النووي: «معناه أن سعدًا ظن أن جميع أنواع البكاء حرام، وأن دمع العين حرام، وظن أن النبي ﷺ نسي فذكره. فأعلمه النبي ﷺ أن مجرد البكاء ودمع بعين ليس بحرام ولا مكروه، بل هو رحمة وفضيلة، وإنما المحرم النوح والندب والبكاء المقرون بهما أو بأحدهما»[2].

قوله: «**فقال هذه رحمة**» قال ابن حجر: «أي: الدمعة أثر رحمة؛ أي: أن الذي يفيض من الدمع من حزن القلب بغير تعمد من صاحبه، ولا استدعاء لا مؤاخذة عليه، وإنما المنهي عنه الجزع وعدم الصبر»[3].

* عن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وإني لجالس بينهما -أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي- فقال عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤)، والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٦)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨).

(٢) شرح مسلم (٦/ ٢٠٠).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٠٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤٢)، والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٦)، ومسلم (٢/ ٦٤٠-٦٤١/ ٩٢٨)، والنسائي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٨٥٧).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك، ثم حدث قال: صدرت مع عمر رضي الله عنه من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سمرة، فقال اذهب فانظر من هؤلاء الركب. قال: فنظرت فإذا صهيب، فأخبرته فقال: ادعه لي. فرجعت إلى صهيب فقلت: ارتحل فالحق بأمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: واأخاه واصاحباه! فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب! أتبكي عليّ وقد قال رسول اللّه ﷺ: «**إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه**»؟[1].

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فقالت: رحم اللّه عمر، واللّه ما حدث رسول اللّه ﷺ أن اللّه ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول اللّه ﷺ قال: «**إن اللّه ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: واللّه ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[2]. قال ابن أبي مليكة: واللّه ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئًا[3].

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: إنما مر رسول اللّه ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها فقال: «**إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها**»[4].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «**ليس على ولد الزنا من وزر أبويه شيء** ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»[5].

★ **فوائد الأحاديث:**

اختلف العلماء في كيفية التوفيق بين هذه الأحاديث والآية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقد ذهب إلى الأخذ بظاهر هذه الأحاديث جماعة من السلف منهم عمر

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤١-٤٢)، والبخاري (٣/ ١٩٤-١٩٥/ ١٢٨٧)، ومسلم (٢/ ٦٤١-٦٤٢/ ٩٢٧[٢٣])، والنسائي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٨٥٧).

(٢) النجم: الآية (٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤١-٤٢)، والبخاري (٣/ ١٩٥/ ١٢٨٨)، ومسلم (٢/ ٦٤٢/ ٩٢٩[٢٣])، والنسائي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٨٥٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٧)، والبخاري (٣/ ١٩٥/ ١٢٨٩)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢[٢٧])، والترمذي (٣/ ٣٢٨-٣٢٩/ ١٠٠٦)، والنسائي (٤/ ٣١٦-٣١٧/ ١٨٥٥).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ١٠٠) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٢١٨٦). وأخرجه موقوفًا عبد الرزاق (٧/ ٤٥٤/ ١٣٨٦٠-١٣٨٦١) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٠/ ٦٠٩٦).

وابنه ﷺ كما في الحديث الثاني والثالث، وروي عن أبي هريرة أنه رد هذه الأحاديث وعارضها بالآية. كما في مسند أبي يعلى. وكذلك أنكرت عائشة روايتي عمر وابنه عبد الله، ونسبتهما إلى النسيان والخطأ، وأنكرت أن يكون النبي ﷺ قال ذلك، واحتجت بالآية (﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قالت: وإنما قال النبي ﷺ في يهودية: **إنها تعذب وهم يبكون عليها**، يعني تعذب بكفرها في حال بكاء أهلها، لا بسبب البكاء كما في الحديث الخامس.

وذهب كثير من أهل العلم إلى طريقة الجمع بين حديثي عمر وعائشة بضروب منها: ما ذهب إليه البخاري حيث قال: يعذب الميت ببعض بكاء أهله إذا كان النوح من سنته.

قال ابن حجر -تعليقًا على قوله-: «هذا تقييد من المصنف لمطلق الحديث، وحمل منه لرواية ابن عباس المقيدة بالبعضية على رواية ابن عمر المطلقة كما ساقه في الباب عنهما، وتفسير منه للبعض المبهم في رواية ابن عباس بأنه النوح. ويؤيده أن المحذور بعض البكاء، لا جميعه»[1].

ثاني الأقوال: ما إذا أوصى أهله بذلك. وبه قال المزني وإبراهيم الحربي وآخرون من الشافعية وغيرهم، حتى قال أبو الليث السمرقندي: إنه قول عامة أهل العلم، وكذا نقله النووي عن الجمهور.

ثالثها: معنى التعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة وغيرها، وهذا اختيار أبي جعفر الطبري من المتقدمين، ورجحه ابن المرابط وعياض ومن تبعه، ونصره ابن تيمية، واستشهدوا بحديث قيلة بنت مخرمة «قلت: يا رسول الله! قد ولدته فقاتل معك يوم الربذة، ثم أصابته الحمى فمات ونزل علي البكاء. فقال رسول الله ﷺ: **«أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفًا، وإذا استرجع، فوالذي نفس محمد بيده! إن أحدكم ليبكي فيستغفر إليه صويحبه، فيا عباد الله لا تعذبوا موتاكم»**[2]. وذهب الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى طريقة

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٩٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٧-١١/ ١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢): «ورجاله ثقات»، وذكره الحافظ في الفتح (٣/ ١٩٩)، وقال: «حسن الإسناد، أخرجه ابن أبي خيثمة وابن أبي شيبة والطبراني وغيرهم».

أخرى في الجمع فقال: «ويحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات، فينزل على اختلاف الأشخاص بأن يقال مثلًا: من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته أو بالغ بذلك عذب بصنعه، ومن كان ظالمًا فندب بأفعاله الجائرة عذب بما ندب به، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها، فإن كان راضيًا بذلك التحق بالأول، وإن كان غير راضٍ عذب بالتوبيخ كيف أهمل النهي، ومن سلم من ذلك كله واحتاط، فنهى أهله عن المعصية، ثم خالفوه وفعلوا ذلك، كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره، وإقدامهم على معصية ربهم، والله تعالى أعلم بالصواب».

وهناك أقوال أخرى ذكرها ابن حجر في «الفتح»، ولعل أقواها ما ذكر[1].

* * *

(١) انظر: الفتح (٣/ ١٩٥-٢٠٣)، وشرح مسلم (٦/ ٢٠٣)، ونيل الأوطار (٢/ ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خلائف: جمع خليفة، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «هذه الآية مبينة لبعض أحوال البشر التي نعبر عنها في عرف هذا العصر بالسنن الاجتماعية، وقد عطفت على ما قبلها؛ لأنها في سياق تقرير التوحيد وإبطال خرافات الشرك على ما سنبينه. والخلائف جمع خليفة، وهو من يخلف أحدًا كان قبله في مكان أو عمل أو ملك. وفي الخطاب وجهان:

أحدهما: أنه للبشر جملة، والمعنى أنه تعالى جعلهم خلفاءه في الأرض بالتبع لأبيهم آدم على ما تقدم في سورة (البقرة) أو جعل سنته فيهم أن تذهب أمة وتخلفها أخرى.

ثانيهما: أن الخطاب للأمة المحمدية، وأنه جعلهم خلفاء لمن سبقهم من الأمم في الملك واستعمار الأرض، وهذا هو الراجح المختار، ويؤيده قوله تعالى بعد ذكر إهلاك القرون الخالية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1] وفي معناها آيات أخرى. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[2] وهذا استخلاف خاص وذلك عام.

والمعنى: أن ربكم الذي هو رب كل شيء؛ هو الذي جعلكم خلائف هذه الأرض بعد أمم سبقت، ولكم في سيرتها عبر، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الخلق والخلق، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والعقل

---

(١) يونس: الآية (١٤). (٢) النور: الآية (٥٥).

والجهل، والعز والذل؛ ليختبركم فيما أعطاكم؛ أي: يعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك، فيبني الجزاء على العمل، بمعنى أن سننه تعالى في تفاوت الناس فيما ذكرنا من الصفات الوهبية والأعمال الكسبية؛ هي التي يظهر بها استعداد كل منهم، ودرجة وقوفه في تصرفه في النعم والنقم عند وصايا الدين وحدود الشرع، ووجدان الاطمئنان في القلب والحقوق والواجبات تختلف باختلاف أحوال الناس في تلك الدرجات، وسعادة الناس أفرادًا وأسرًا وأممًا، وشقاوتهم في الدنيا والآخرة تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم في مواهبهم ومزاياهم وما يبتليهم به تعالى من النعم والنقم، ولا شيء مما يطلبه الناس من سعادة الدنيا ونعمها، أو رفع نقمها أو من ثواب الآخرة والنجاة من عذابها؛ إلا وهو منوط بأعمالهم التي ابتلاهم بها بحسب ما قرره شرعه المبني على توحيده المجرد، ومضت به سننه في نظام الأسباب والمسببات، فبقدر علمهم وعملهم بالشرع، وسنن الكون والاجتماع البشري يكون حظهم من السعادة.

فهذه الهداية الاجتماعية مقررة لعقيدة التوحيد، وهادمة لقواعد الشرك التي هي عبارة عن اتكال الناس، واعتمادهم على ما اتخذوا بينهم وبين ربهم من الوسطاء؛ ليقربوهم إليه ويشفعوا لهم عنده فيما يطلبون من نفع ودفع ضر كما تقدم شرحه، ولهذا ترى هؤلاء المشركين -من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون- أشقى الناس وأبعدهم عن نيل مآربهم، وترى خصومهم دائمًا ظافرين بهم، وإن كانوا شرًّا منهم فيما عدا هذا النوع من الشرك، فربما ترى قومًا يدعون الإيمان باللَّه ورسله كلهم أو بعضهم، يعتمدون في قضاء حاجتهم من شفاء مرض وسعة رزق ونصر على عدو وغير ذلك؛ على التوسل ببعض الأنبياء والصالحين، وذبح النذور لهم ودعائهم والطواف بقبورهم والتمسح بها، وتجد آخرين ليس لهم مثل اعتقادهم وعملهم هذا، وهم أحسن منهم صحةً وأوسع رزقًا وأعز ملكًا، وإذا قاتلوهم ينتصرون عليهم ويسودونهم، وسبب ذلك أنهم يعرفون سنن اللَّه في الأسباب والمسببات، وأن الرغائب إنما تنال بالأعمال مع مراعاة تلك السنن، سواء كانوا يعلمون مع ذلك أن اللَّه تعالى رب الخلق هو الخالق والواضع لنظام خلقه بتلك السنن، وأنه لا تبديل لسننه كما أنه لا تبديل لخلقه، أم لم يكونوا يعلمون ذلك.

ولو استوى شعبان من الناس في الجري على هذه السنن الربانية للاجتماع الإنساني في القوة والضعف والعز والذل والحرية والعبودية، وكان أحدهما مؤمنًا

باللَّه مستمسكًا بوصاياه وهداية دينه، والآخر كافرًا به غير مهتدٍ بوصاياه؛ فلا شك في أن المؤمن المهتدي يكون أعز وأسعد في دنياه من الآخر، كما أنه يكون في الآخرة هو الناجي من العذاب الفائز بالثواب، ومن جهل مصداق ذلك في تواريخ الأمم القديمة لعدم ضبطها؛ فأمامه تاريخ الأمة الإسلامية واضح جلي، ولكن أكثر المنتمين إلى الإسلام في هذا العصر يجهلون تاريخهم كما يجهلون حقيقة دينهم، حتى إن كثيرًا من حملة العمائم الدينية منهم، يجهلون حقيقة التوحيد الذي بينته هذه الآيات بالإجمال بعد شرح السورة له بالتفصيل، وربما يعد بعضهم الداعي إليه كافرًا أو مبتدعًا، ويعتمدون في هذا على قوة أنصارهم من العوام الذين أضلوهم، وهم غافلون عن عقاب اللَّه لهم، وعن كونهم صاروا فتنة للناس وحجة على الإسلام، فأعداؤه يحتجون بجهلهم وسوء حالهم على فساد دينهم المسمى، وإن لم يكن هو الإسلام الذي نزل به القرآن بل ضده، وأولياؤه الجاهلون يتسللون منه فرادى وثبات كالتلاميذ، بما يظهر للذين يقتبسون علوم سنن الكائنات وعلم الاجتماع من مخالفته لها، وإنما المخالف لها بدعهم وتقاليدهم الخرافية. وأما دين اللَّه في كتابه القرآن؛ فهو المرشد الأعظم لها، ولو فهموه وعملوا به لكانوا أسبق إليها . . .

أرشدنا اللَّه تعالى في هذه الآيات وأمثالها إلى طريق الاستفادة من سننه في جعلنا خلائف في الأرض، ورفع بعضنا درجات على بعض، بأن نصبر في البأساء والضراء، ونشكر في السراء، والشكر عبارة عن صرف النعم فيما وهبت لأجله، وما يرضى المنعم تعالى وتظهر به حكمته وتعم رحمته، كإنفاق فضل المال في وجوه البر التي تنفع الناس، وإعداد القوة بقدر الاستطاعة لتأييد الحق وإقامة العدل، ولكل نعمة بدنية أو عقلية أو علمية أو مالية أو حكمية شكر خاص، ومن لم يهتد بهذه الهداية الربانية في الاستفادة من النعم والنقم؛ فإنه يسيء التصرف في الحالتين، فيظلم نفسه ويظلم الناس، وإن العقل الصحيح والفطرة السليمة مما يهدي إلى الصبر والشكر، ولكن لا تكمل الهداية إلا بتعليم الوحي؛ لأن الإسلام قد شرع لمساعدة العقل على حفظ مواهب اللَّه تعالى في الفطرة، ومنع الهوى من إفسادها، وصدها عن الوصول إلى كمالها، ولذلك سمي دين الفطرة. فالمسلمون أجدر الناس بالصبر، والصبر عون على الجهاد والجلاد، ومنجاة من جميع الشدائد والأهوال، وأحقهم بالشكر، والشكر سبب للمزيد من النعم. فلو كانوا مهتدين به

كما يجب؛ لكانوا أعظم الناس ملكًا، وأعدلهم حكمًا، وأوسعهم علمًا، وأشدهم قوةً، وأكثرهم ثروةً، وكذلك كان به سلفهم. وقد أخبرهم اللَّه بأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولكن التقليد أضلهم عن تدبر القرآن، والاتكال على الميتين حال بينهم وبين سنن اللَّه في هذا الإنسان ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[1] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[2] ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، ونعيمها أدوم وأعلى، كما قال تعالى بعد بيان حال من يريد بعمله حظوظ الدنيا وحدها، ومن يريد الآخرة ويسعى لها سعيها: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[3] وإنما جعل الدنيا للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، لئلا تعظم الفتنة بجعل نعيمها كله أو معظمه للكفار وحدهم، فيكون الناس كلهم لضعفهم كفارًا، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4]»[5].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب.

وقال محمد بن إسحاق: يرحم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم.

وكثيرًا ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: وقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[6] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[7] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما

---

(١) طه: الآيتان (١٢٣و١٢٤).
(٢) الجن: الآيتان (١٦ و ١٧).
(٣) الإسراء: الآيتان (٢٠ و ٢١).
(٤) الزخرف: الآيات (٣٢-٣٥).
(٥) تفسير المنار (٨/ ٢٤٩-٢٥٤).
(٦) الحجر: الآيتان (٤٩ و٥٠).
(٧) الرعد: الآية (٦).

لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا لينجع في كل بحسبه. جعلنا اللَّه ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب»[١].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾: «أي: إنه تعالى سريع العقاب لمن كفر به أو بنعمه وخالف شرعه وتنكب سننه، وسرعة العقاب تصدق في عقاب الدنيا والآخرة، فإن العقاب العام عبارة عما يترتب على ارتكاب الذنوب من سوء التأثير، وهو في الدنيا ما حرمت لأجله من الضرر في النفس أو العقل أو العرض أو المال أو غير ذلك من الشؤون الاجتماعية، فإن الذنوب ما حرمت إلا لضرها، وهو واقع مطرد في الدنيا في ذنوب الأمم، وأكثري في ذنوب الأفراد، ولكنه يطرد في الآخرة بتدنيسها النفس وتدسيتها كما وضحناه مرارًا، وقد يستبطئ الناس العقاب قبل وقوعه؛ لأن ما في الغيب مجهول لديهم فيستبعدونه، وهو عند اللَّه معلوم مشهود فليس ببعيد ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٢].

وأنه تعالى على سرعة عقابه وشدة عذابه للمشركين والكافرين غفور للتوابين الأوابين، رحيم بالمؤمنين والمحسنين. بل سبقت رحمته غضبه، ووسعت كل شيء، ولذلك جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها، وقد يضاعفها بعد ذلك أضعافًا كثيرة، وجزاء السيئة سيئة مثلها، وقد يغفرها لمن تاب منها ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٣] وقد أكد المغفرة والرحمة هنا بما لم يؤكد به العقاب وهو اللام، فنسأله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويتغمدنا برحمته الواسعة. ويجعل لنا نصيبًا عظيمًا من رحمته الخاصة، ويكون منه توفيقنا لإتمام تفسير كتابه على ما يحب ويرضى من هداية الأمة، وكشف الغمة، فنكون هادين مهديين، وقد تم تفسير ربعه بفضله وتوفيقه، والحمد لله رب العالمين»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٠).
(٢) المعارج: الآيتان (٦ و٧).
(٣) الشورى: الآية (٣٠).
(٤) تفسير المنار (٨/ ٢٥٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في صفة الرحمة، وامتحان اللَّه لعباده بالاستخلاف

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللَّه مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[1].

* **فوائد الحديث:**

قال الشيخ ابن العثيمين: «هذا الحديث ساقه المؤلف لما فيه من أمر النبي ﷺ بالتقوى بعد أن ذكر حال الدنيا فقال: «إن الدنيا حلوة خضرة» حلوة في المذاق خضرة في المرأى، والشيء إذا كان خضرًا حلوًا؛ فإن العين تطلبه أولًا، ثم تطلبه النفس ثانيًا، والشيء إذا اجتمع فيه طلب العين وطلب النفس؛ فإنه يوشك للإنسان أن يقع فيه.

فالدنيا حلوة في مذاقها خضرة في مرآها، فيغتر الإنسان بها وينهمك فيها، ويجعلها أكبر همه. ولكن النبي ﷺ بين أن اللَّه تعالى مستخلفنا فيها فينظر كيف نعمل، هل تقومون بطاعته، وتنهون النفس عن الهوى، وتقومون بما أوجب اللَّه عليكم، ولا تغتروا بالدنيا، أو أن الأمر بالعكس»[2].

وفيه أن اللَّه جعل بني آدم خلائف يخلف بعضهم بعضًا في الحياة الدنيا لينظر كيف يعملون؛ لأنها دار ابتلاء لا دار بقاء، ودار ممر إلى المستقر، فلنتزود من ممرنا لمقرنا.

وفيه الاتعاظ وأخذ العبرة من الأمم السابقة، فإن ما حصل لبني إسرائيل يحصل لغيرهم إذا تعاطوا أسبابه.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩، ٢٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤٢)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٩١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٤٠٠٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨٤-٤٨٥).

فلو يعلم الكافر بكل الذي عند اللَّه من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند اللَّه من العذاب؛ لم يأمن من النار»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «اشتمل -الحديث- على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف، فمن علم أن من صفات اللَّه تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه، والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه؛ لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة، ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة»[٢].

وقال الكرماني: «والمقصود من الحديث: أن الشخص ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء، يعني لا يكون مفرطًا في الرجاء بحيث يصير من الفرقة المرجئة، ولا مفرطًا في الخوف بحيث يصير من الوعيدية؛ بل يكون بينهما. قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٣] وكل من يتبع الملة الحنيفية السمحة السهلة؛ عرف أن قواعدها أصولًا وفروعًا كلها في الوسط، أما في الأصول فكما في صفات اللَّه تعالى لا يثبت بحيث يلزم التجسيم، ولا ينفي بحيث يلزم التعطيل، وكما في أفعال العباد لا يكون جبريًا ولا قدريًا، بل يقول بأمر بين الأمرين، وكما في الإمرة لا يكون خارجيًا ولا رافضيًا، بل يكون سنّيًا وهلم جرًّا. وأما في الفروع فكما في العبادة الدينية مثلًا؛ لا يكون جاهرًا بها ولا خافتًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٤]، وكما في العبادة المالية لا يكون مسرفًا ولا قاترًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٥] ونحو ذلك.

كلا طرفي قصد الأمور ذميمة   وبينهما نهج لأهل الطريقة»[٦].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤)، والبخاري (١١/ ٣٦٣/ ٦٤٦٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٥)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٢) وقال: «هذا حديث حسن».
(٢) الفتح (١١/ ٣٦٥).
(٣) الإسراء: الآية (٥٧).
(٤) الإسراء: الآية (١١٠).
(٥) الفرقان: الآية (٦٧).
(٦) شرح البخاري للكرماني (١١/ ٢٢٧).

فهرس الموضوعات

سورة الأنعام

* * *